الدكتور صالح عضيمة



تحليل رفعت الأسد

مقولة في حكمة السياسة وسياسة الحكمة

إيقاظ

انجزت تاليف هذا الكتاب في فصلي الشتاء والربيع
من عام ١٩٩١. وكان من حقه ان يسير الى الطباعة والنشر
لولا نذالة الانذال وقماءة العبيد المطرودين المتسولين

الدكتور صالح عضيمة

تحليل رفعت الأسد

مقولة في
حكمة السياسة وسياسة الحكمة

منشورات مؤسسة الاثني عشر
باريس
13, Rue des Trois Couronnes
75011 PARIS

الطبعة الأولى: ١٤١٢ هـ . ١٩٩٢ م

الإهداء

إلى ميسون، وعلي مرتضى، ومريم، وماريّة، ومهديٍ. وهم أطفالي الذين لا أخشى عليهم كَيد الفَسَقَة المسحّرين، فقد عوذتُهم بالتنزيل الأكرم وبالكلمات التامّات. ولا آسى لهم إذا غصبهم الفَجَرةُ حقَّ التمتّع باللغة العربية في ديارهم وبين أهلهم، فقد جعلتُ بينهم وبين الرسول الأعظم من العلاقة والمحبّة ما يُغريهم بهذه اللغة، وأقمتُ بينهم وبين أهل بيته من المودّة والقربى ما يَرَوْن فيهم أهلهم. ولا آسف إذا شرّدهم الظَلَمَةُ عن تراب الوطن، فقد خلقتُ لهم من وَلاية أبي تراب عليٍّ أمير المؤمنين خيرَ وطن وخيرَ تراب. ثمّ قلت لهم: «يا بَنِيّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرّقة وما أُغْني عنكم من الله من شيء إنِ الحكمُ إلّا لله عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون».

صالح

هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقّ إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون .

قرآن مجيد

١
مفاتحة عامّة

فلا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عمّا يفعل الظالمون إنّما يؤخّرهم ليوم، تَشخَص فيه الأبصار .

قرآن مجيد

سبحانَك يا رب! حلُمتَ حتّى ظننّك الظالم غير موجود .

قالت امرأةٌ للحجّاج حين قتل ولدها أمامها

مفاتحة عامة

ما أبدعَ هذا الكلامَ وما أوقَره في الصدر ! وأعني به ما نقله المفكّر المغمور عماد الدين بن جبلة بن أبي الـ[illegible]ض الغسّاني ، في آخر رسالته التي حَملتْ اسمَه : عن كتاب الأشباح والأظلّة ، المنسوب للإمام جعفر الصادق : «إنَّ الله حين خَلَقَ آخر خلقٍ خلقهم من النور ، وهم أضعفُ خلقهِ أركاناً ، وأقلُهم يقيناً ، قال لهم : قد أذنتُ لكم أن تنزلوا إلى الأرض ، لأبلوَكم أيّكم أحسنُ عملاً ، وكلُّ من عصاني منكم ، خلقتُ من معصيته عدوًا لي وله . فقالوا : الهنا ! لا تهبطنا الى الارض ، واتركنا في السماء ، نعبدك ونشكرك ونحمدك . فقال لهم : ها ! قد عصيتموني بردّكم عليَّ . فعند ذلك ندموا ، فخلقَ الله من معصيتهم حجاباً ، حجبَهم به عنه ، فبقوا حيارى بعد هبوطهم إلى الارض ، فخلقَ الله من ذلك التوقّف والتحيّر الأبدان الطينية» .

ولئن كنت قد تعرّفتُ على هذا الكلام وأنا في طور الحداثة ، ورحتُ أعتبره ضرباً من ضروب الشعر الرفيع الجميل ولوناً من الوان الخيال الذي يمتّع النفسَ ويلذّذها ؛ إلاّ أنّه كان يكبر في نظري كلّما كبرت في عمري ، وكان أفقه يزداد أمام عقلي امتداداً واتّساعاً كلّما ازددت في الزمن امتداداً واتّساعاً . حتى وجدتني يوماً أنظر اليه ، فإذا الذي كنتُ اسمّيه بالأمس شعراً ، أصبحتُ أراه الآن أمامي

حقًا و أشهده عياناً . واصبحتُ افهم أن الشعر ليس هو ما يُقال ، وإنّما هو ما يُرى ويُشهَد . وأن قول الشعر هو للمبتدئين المتدّربين ، امّا إحساسُه او رؤيتُه فهو للعارفين المكاشفين . وما كنتُ أعتبره من قبلُ خيالاً يبعث على اللذّة ، صرتُ اعيش به اليوم ، وأحسُ انّه حياتي التي لا سبيل إلى اعتزالها ولا الى الهرب منها . ولعلَّ الانسانَ ، بعد ان يهجم عليه الفهم وتقرعه الصحوة بأسرارها ، يعلم حقَّ العلم انّه لا يوجد هنالك خيالٌ ، إلاّ وله حضورٌ في صورة من الصور ، وواقعٌ على شكلٍ من الأشكال . ويعلم أنَّ الوجود المحسوس الذي يحيط به هو ضربٌ من الخيال الذي لا يهدأ عن التغيّر ، ولا يفتر عن التحوّل والانتقال . وهو الذي يخدعنا ، ويحول بيننا وبين الخيال الثابت الدائم ، الذي لا يتغيّر ولا يتحوّل ، والذي هو الحقيقة ، منبع كلّ خيال ومصدر كلّ واقع .

وإنّه ولِئن كانَ منِ الهيّن اليسير علينا أن نلاحظ ، أنَّ كلامَ الامام الصادق هو مستوحىً من القرآن المجيد ، لكنّه ليسَ من الهيّن اليسير ان نرّوضَ جموحَه وأن نستشرف أبعاده . ولقد آثرنا أن لا نذهب فيه بعيداً ، ولا نأخذ منه إلاّ مقدار الحاجة ، وما يُضيء علينا الجوانب المظلمة في الطريق الى موضوعنا . وربما كانت حاجتنا في هذا الكلام ، هي فهمنا للمعصية ، وكيف تصير حجاباً عائقاً يعوق صاحبَها وفاعلَها عن التقدم في العروج والترقّي ، وكيف يُخلَقُ من هذا الحجاب عدوٌ له ولغيره . وهي اطّلاعنا على الأقوال ، كيف تتوالد ، وعلى الأعمال كيف تتناسل . وبعبارة أخرى ، كيف يتجسد كلٌّ من القول والعمل وينقلب الى كائنٍ حيّ ؟ فإذا كان العمل طيّباً تجسَّد كائناً طيّباً ، يتنعّم به صاحبه ويتلذّذ ، وإذا كان خبيثاً يتنغّصُ به صاحبه ويتألم ، سواء بالوسائل الحسيّة في هذه الدنيا ، أو بالوسائل الروحية في تلك الاخرة ، لمن كان يؤمن بالآخرة . وممّا

يزيد في الإحساس بعظم الفاجعة، انّ اكثر الناس يدور هذا الكلامْ على السنتهم، حتى إذا اراد المختبر أن يراودَ نفوسَهم ليعلمَ اين هم من فهمه وإدراكه، وجدَهم حيارى واقفين، والأبواب في وجوههم قائمةٌ مفتوحة.

فنحن امام هذا الحوار، بين الخالقِ وبين فريقٍ من خلقه، وهم آخر شعاعٍ من عالم النور. يقول لهم الخالق: قضت مشيئتي أن تنزلوا إلى الأرض لأبلوَكم وامتحنَكم. وما اوسعَ هذا الكلام! وما ابعدَ مرامزَه ومراميَه! وكأنَّهم حينما اجابوا بطريقتهم الخاصة التي اختاروها لأنفسهم كان في جوابهم التماسٌ لتغيير مشيئته ومعصيةٌ مستورة لأوامره. فقد ابتهلوا اليه وتضرّعوا لكي يتركهم في هذه السماء حيث هم، متنعّمين بقربه متلذّذين بجواره، والاّ يُبعدَهم عنه، بإنزالهم الى هذه الأرض وإحلالهم في مضايق النكبات وإذاقتهم المصائب والبليّات. وكيف كان ذلك منهم، وهم لا يجهلون أن المخلوق اينما كان محلُّه في الأرض او في السماء، لا يقدر أن يبتعد عن خالقه؟ وانّى له البعد عنه، وهو في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وهو في كل شيء عينُ ذلك الشيء، من غير قيد ولا حدّ ولا تأيين؟ لقد وقعوا في المعصية، وكان هذا الوقوع هو باب الدخول الى عالم النشأة الأرضية والحلول في التركيب المادّي. وكان لنا فيه المفتاح الاوّل لفتح باب التساؤل امنامنا: هل كان ذلك منهم خطيئة؟ وهل عقوبتهم على هذه الخطيئة هي أن يصيروا الى نشأةٍ جديدة وان ينقلب النور من صورة غير مرئية الى صورة مرئية؟

ولا نريد أن نبتعد الآنَ في السرد والتفصيل والتحليل، فقد صنعنا ذلك في كتابنا، فلسفة الخطيئة. والذي نريد أن نخفَّ الى الإبانة عنه هو أنَّ ما ذكرناه، كانت الاشارة فيه معبّرة إلى انَّ الخطيئة

لا تصدر إلاّ عن الانسان العاقل، وأنّ وجود العقل فيه هو الشرط الأكبر لصدور الخطيئة عنه. ولسنا نعني بذلك أن نقول، إنّ العقل هو مادّة لصنع الخطيئات أو إنّه منبع لها. بل نعني أن نقول، إنّ سوءَ استعماله وسوءَ تصريفه هو الخطيئة، فلا بدّ والحال هذه من وجود الأسباب التي تعيده الى مكانه الصحيح. والعقاب، ولا شكّ، هو من أولى هذه الاسباب، وهو يأتي على صور كثيرةٍ لا تُحصى، إلاّ إذا أُحصِيَتْ صورُ الانحرافِ بالعقل وصور سوء تصريفه. وربما كان في القول المنسوب إلى امير المؤمنين علي بن أبي طالب خيرُ بيانٍ، لما يخلقه ابتعادُ العقل عن موضعه من اثرٍ يستحقّ عليه عقوبةً لائقةً به، ولما يخلقه استعماله في موضعه من أثرٍ يقوده إلى نعمةٍ حفيّةٍ به. يقول: «إذا تحرّكتْ صورة الشرّ ولم تظهر، ولّدتْ الفزع، واذا ظهرتْ ولّدت الألم. واذا تحركتْ صورة الخير ولم تظهر ولّدتْ الفرح، فإذا ظهرت ولّدت اللذّة». وإن كان كبر على افهامنا، أن نَستوعبَ معنى تجسيد النوايا والأعمال وتصوّرها في صورةٍ حيّة متحرّكة عاقلة أحياناً وغير عاقلة أحياناً اخرى، فليس لنا إلا أن نأنس الى الأمثلة، ونلتمس الأشباه والنظائر، لعلّنا نعثر فيها على ما يقرّب البعيد ويكشف عن الخبيء الدقيق. فقد زعمتْ الروايات والحكايات الشعبية أنّ قابيل بعدما فَرَغ من جريمةِ قتل أخيه، خلق الله له من عمله شَبَحاً أسودَ، لا يرى منه إلاّ عينَه الواحدة، ثم سلّطه عليه يلاحقه في الليل والنهار دون انقطاع. وأصبح قابيل، كلّما نظر من ورائه أو من أمامه. أو عن يمينه أو عن شماله، في يقظته أو في نومه، لا يرى إلاّ عينَ الشبحِ تلاحقه وتنظر اليه بحدّة ونقمة وعبوس، حتى تكدّرت عليه حياته وعاف العيش منفرداً أو مع الآخرين، من زوجاته وأولاده، لاستمرار الملاحقة وعنفها وقسوتها. وليست العين هنا إلاّ رمزاً لهذا الأثر الذي سقط من

جريمته على نفسه ، فأضرم فيها الندم والحسرة والحزن ، كما كان أضرمَ فيها الحسدَ والحقد من قبل حتى دفعاه دفعاً الى قتل اخيه . ثم كَبُرَ هذا الأثر حتى تحوّل الى صورة تملأ الحياة كلّها امامه ، وتصبغ بظلامها خيالَه وفكره وإحساسَه ، واخذت بالاتّساع حتى اصبحتْ قطعةً من ذاته ، أو اصبحت هي ذاته كلّها .

وفي حكاية التوالد وانتقال الآباء الى البنين ، ما يزيح الستار عن هذا السرّ المكنون ، إلى القدر الذي يتمكّن فيه الفهم من أن يحصل على صورةٍ له يطمئنُ إليها . فالأبناءُ ليسوا إلاّ اعمالاً تصدر عن آبائهم ينقلون بها نفوسهم وأطوارَهم وأسرارَهم إليهم ، ويحمّلونها اخلاقهم وسجاياهم ونواياهم . ومن الأبناء من يكون عدواً لأبيه . ومنهم من يكون مثيلاً له ونظيراً . وفي ذلك بيّنةٌ ودليلٌ على أنَّ الانسانَ يحمل معه ضدّه ، وهو لا يدري ، أو انّه يدري ، ولكن لا حيلة له بتغيير ما هوَ محتوم عليه . وقد صرّح القرآن المجيد بأنَّ الولد هو عمل ، في قوله: «إنّه عَمَلٌ غير صالح» ، حكايةً عن النبي نوح ، يومَ طَلَبَ من ربّه أن يُنقذ له ولدَه الذي اشرف على الهلاك غرقاً . ليس بمعنى أن النبي يعمل عملاً غير صالح ، لكن سنّةَ اقتران النور بالمادة والمعقول بالمحسوس ، تقضي أن يأتيَ منهما الصالح والفاسد والمؤمن والكافر . كما جاء ابو الأنبياء وشيخهم إبراهيم من ابٍ كان فاسد العقيدة عدواً لله . وإذا خَطَرَ في بالِ احدنا ، أن يسأل ويقول: لماذا لا ينقل الأنبياء أسرارَ آبائهم وطبائعهم عندما يولدون منهم؟ ولماذا لا ينتقلون هم بأسرارهم وطبائعهم الى ابنائهم عندما يلدونهم؟ فلا ينبغي أن يغربَ عنه من جهةٍ أخرى ، أن يتذكّر اختصاصَ الله لمن يشاء منهم «الله أعلم حيث يجعل رسالته» .

وفي ديوانه الشهير «مثنوي معنوي» يقول مولانا جلال الدين

الرومي، وهو يعبّر عن فعل الانسان وارتداده إليه واقترانه به ومماثلته له: «هذا الكونُ جَبَلٌ، وفعلنا النداء، فلا بدّ أن يعود إلينا الصدى». فالانسان بغفلته وانشغاله عن نفسه، يعتقد بأنَّ أعماله تمضي وتذهب الى تلاشٍ وفناء، لكنَّها ستعود اليه، مثلما يعود صوت النداء في الحال إلى النداء نفسه، حين يرتطم بحاجز من جبل أو سواه. وقد تكون عودتُها ورجعتُها في أبنائه وذراريه، وقد تكون في آثار اخرى يتركها في هذه الدنيا، وقد تكون في الآخرة، أو في الاثنتين معاً. وما كان الطفَ كلامَ ذلك الأعرابي، حين سألوه أن يختار من يشاء من بنات القبيلة للزواج، فقال: لا اتزوّج بواحدةٍ حتى ارى ولدَها، فعجبوا له، وقالوا: كيف ذلك؟ قال: أنظر الى ابيها او اخيها، فإنّها تلدُ أحدَهما! ولم يأتِ قولُه هذا من الفطرة وحدَها، بل كان توسُّماً منه وفراسةً، لم يخطىء إصابةَ الحقّ حين رمى إليه. فالطباع والخصال والأمزجة، تتناقلها الاجيال فيما بينها، فجيلٌ يؤدّيها الى الجيل الذي يليه عن طريق التلاقح والتناسل. وهكذا الحيوانات والنباتات، وهكذا الأشياء كلُّها.

ونحن الآن، اذا أحببنا أن نأنسَ مرّةً أخرى الى القرآن المجيد في قوله: «ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا» من اجل أن نرى دليلاً معبّراً عن صواب قولنا وكاشفاً آخر له، فإنّنا نراه ونقع عليه ولا شك. لكنّه مطوَّرٌ وموسّع، حتى ليتماسّ مع فكرة أخرى، كانت هي الغرضَ الأبعد لنا منذ الخطوة الأولى في هذه الطريق. وأعني بها، أنَّ المعاصي والخطيئات التي تصدر عن الجماعة، سواءٌ كانت امةً أو شعباً، وهي لا تعلم أنَّها تشترك كلُّها في صنعها وارتكابها، وتعود اليها آثارها وعواقبها من فساد وعقوبات، وهي لا تعلم أنَّها تشترك كلُّها أيضاً في استلامها واستقبالها. وكما رأينا في حديث الإمام جعفر

الصادق، أنها كانت مجموعة كبيرة، تلك الدرجة النورانية الأخيرة التي قُضيَ عليها أن تهبط الى الارض، وأنَّ أمرَ الهبوط صدر اليها بمجموعها، فرفضته بمجموعها عن طريق التماس البقاء في السماء للعبادة والتسبيح، فكان لا بدَّ لها، أن تواجه عاقبةَ رفضها بمجموعها ايضاً، كما رأينا ذلك كلَّه في حديثه، فكذلك نرى في الآية الكريمة، أنَّ الناس كلَّهم اشتركوا في صنعِ المعاصي واقتراف الموبقات، ولذلك، كان لا بدَّ لهم من أن تُصيبَهم الشركة في إذاقة العذاب وفي توزيع البلاء، وأن ينال كلُّ واحدٍ منهم نصيبَه ممّا كسبت يداه.

وهذه الحيرة التي تلفُّ إحساسَ الناس وتحيط بعقولهم، اذا اصابَهم عذاب وهم لا يعلمون سببَه، او نزلتْ بهم نوازلُ ولا يدرون من أين تفد عليهم والى اين تذهب بهم، تنجلي عنهم إذا هم ادركوا، أنَّ سبب عذابهم هو اشتراكهم في اقتراف مآثمَ وفي ارتكاب اخطاء، من حيث لا يشعرون، وهم عليهم ان يتبيّنوا سبيلاً الى الإقلاع عنها، لتبارحَهم سَورةُ العذاب وليستريحوا من ويلاتها. وقد يكون من الصعب في البداية، أن يقع في الذهن تصوُّرٌ لمعنى قولنا: إنَّ مجموعةً من الناس يشتركون في اقترافِ الذنوب والأخطاء، ولا يشعرون بذلك، وليس عندهم خبرٌ فيه. لكن ما إن نستحضر الحوار الذي جرى بين الخالقِ وبين آخر رتبةٍ من خلقه في عالم النور، وننظر كيف أنَّ هؤلاء لم يتفطنوا الى ان تمسُّكَهم بالبقاء في السماء هو خطيئة، في حين أنهم حسبوه فضيلة ومأثرة لهم، حتى يهون على الأفهام أن تلمح صورة أولى لهذا المعنى الدقيق. وكذلك حين نشاهد امامنا شعباً من الشعوب، تنصبُّ عليه جِمَمُ العذاب والتنكيد من الكوارث الطبيعية، مثل الفيضانات والزلازل، أو من الحروب والغزو والاستباحة، فإنَّ ذلك، يبعثنا على التفكير ويحملنا على

الاعتقاد ، بأنَّ الاشتراك في تحمُّل المصيبة ، لم يكن لولا أنَّ اشتراكاً تقدّم عليه في اقتراف المآثم وارتكاب المعاصي ، منذ وقت قصير او طويل ، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً

أمَّا إذا رُفِضَ هذا المَثَل وذاك ، لأسباب مرضية أو غير مرضية ، فهنالك المَثَل الذي لا يمكن ردُّه ولا رفضه ، والذي يجلّي المعنى كلَّه ويكشفه لأبصارنا وبصيرتنا ، وأعني به مَثَل الشعوب والحكام . فنحن لا نجد شعباً ، إلّا وعلى رأسه حاكمٌ يحكمه ويتولّى ادارتَه وتسييرَه . ومن الشعوب مَنْ تقوم باختيار حاكمها على هواها ، وبملء اشتهائها ورغبتها ، وتسلّمه أمرَها ، وهي طائعة راضية . ومنها مَنْ يقوم الحاكم عليها ، ولا تُحسّ بقيامه ولا تدري كيف جاءَ . فلا هي طائعةٌ له ولا هو عابىءٌ بها ، يقودها بالرغم منها ، ويسيّرها بألوان الغصب وأنواع الكره . وليس هنالك من يشكّ ، في أن الشعب الذي يختار حاكمَه اختياراً ويفوّض اليه أمرَ قيادته تفويضاً ، قد أقدَمَ على عَمَلٍ ، كان لكلّ فردٍ فيه نصيبُه من المشاركة فيه ، وأنَّ ما سيقوم به هذا الحاكم من أعمال وما سيختطه من خطط ، ثم ما سيعود به من آثار وعواقب ، لن يبقى فَردٌ من الأفراد إلّا ويستقبل أثراً من آثاره وعاقبةً من عواقبه . وكما أنَّه جاءَ عن قناعةٍ من ضمير الشعب وبرضى منه ، فإنَّه لن يعمل الا ما يقتنع به ضمير الشعب وما يرضى به ، وما زرعه الشعب في الحاكم هو الذي سيحصده منه ، وهو المسؤول عن البداية في قصة حاكمه وعن النهاية فيها . ولن يستطيع الحاكم في هذه الحال ، إلّا أن يُعبّر تعبيراً صادقاً عن إرادة الشعب ويمثّل نواياه ورغباته تمثيلاً صحيحاً حيًّا ، وليس هنالك من يشك ايضا ، في أنَّ الشعب الذي يقوم عليه حاكم بالكره منه ، ولا يرى حيلة لدفعه ، أو قل لا يريد أن يعمد الى حيلةٍ من الحيل لدفعه والإطاحةِ به ، ويستسلم الى السكوت راضياً او على

مضض، ويذعن للأمر قانعاً أو على مزارة، لا يستطيع كلُ فردٍ فيه انْ يفرَّ من الاعتراف، بأنَّ له حصَّةً من المسؤولية في قيام هذا الحاكم وتنصيبه. فسكوته حصّة، وإذعانه حصّة، حتى فِراره من الاعتراف بالمسؤولية هي حصّةٌ من المسؤولية نفسها. وكما أنَّ كلَّ فردٍ من افراد الشعب قد اشترك في اختيار هذا الحاكم، عن طريق الانصياع له والقبول به والخضوع لسلطته، شاء ذلك أم لم يشأ واعترف به أم لم يعترف، فإنه سيشترك في استقبال ما سيصدر عن هذا الحاكم من آثار وعواقب، وستأتيه حصّتُه من الذلّ والخنوع او من الشقاء والتعذيب. وسوف لن يحصد الشعب من حاكمه إلا ما كان قد زرعه فيه، فإذا زرع السكوت عنه، فلن يحصد إلّا الاهانة. وإذا زرع الإذعان له والاستكانة، فلن يحصد إلّا الجلد والقمع. وكما عبَّر الحاكم هناك في الحالة الأولى عن ضمير شعبه وعن رغباته وتطلُّعاته، فإنَّ الحاكم سيعّبر هنا في الحالة الثانية عن ضمير شعبه وعن رغباته وتطلُّعاته. فالضمير المَهيض لن يعبِّر عنه إلّا بالاذلال، والرغبات المكبوتة والتطلُّعات المخنوقة، لن يعبِّر عنها إلا بالخيبة والمرارة والخسران.

ولَشدَّ ما صار من السهل علينا أن نعتقد، بأن الحاكم، صالحاً كان او فاسداً وظالماً أو عادلاً، هو صورةٌ حيّةٌ شاخصةٌ لنوايا شعبه، وهو تعبيرٌ خالصٌ غيرُ مشوب عن صفاته وعن هواجسه وتطلُّعاته. فمن أرادَ ان يفهم شعباً من الشعوب، فليس له إلّا ان يقرأ الكلمةَ التي تحمل معنى هذا الشعب والعبارة التي تحتوش مفهومه، والكلمة هي حاكمه، والعبارة هي القائم على تصريف أموره، والحاكم من الشعب كالابن من أبيه، لا يستطيع إلّا أن يأخذ منه صفاته واخلاقه، ولا يقدر إلّا ان يرثه بطباعه وانماط حركته وتصرُّفه. وهو كالعمل من الانسان، ينقل ما في داخله من الرغبات

والميول ، ويدلُ عليه دلالةٌ واضحةٌ ، لا لبسَ فيها ولا شحوب ولا غموض . وهذه الأحاديث والمأثورات التي تطالعنا في كلّ زاويةٍ من تراثنا ، وعلى كل منعطفٍ في ادبنا ولغتنا ، تهوّن على من ينظر فيها ويقروْها فَهمَ ما قلناه وتمثّله والاعتقادَ به . فهي غنيةٌ بما يفصح لنا ويرشدنا ، الى انَّ الامّةَ التي تسود فيها الأخلاق القويمة ، وتنتشر في اوساطها الصفاتُ الحسنةُ الحميدة ، فإنّها تتمتّع بسلطان أشرافها عليها ، وتتنعّم باستلام هداتها وحكمائها ازِمّة امورها ، وتلك هي نعمتُها الكبرى في حياتها الدنيا . وانَّ الامّة التي تسودها الفوضى ، ويتفشّى فيها السوء والعبث والفساد ، فانها تُبتلى بسيادة جُهّالها عليها ، وتُرمى بتسليط شِرارها على تولية امورها فيسومونها انواع الحيف والإذلال ، ويُذيقونها الوان الهَوان والاضطهاد والعبوديّة ، وتلك هي نقمتُها الكبرى في حياتِها الدُنيا . وليس الحاكم الظالم إلّا خطيئةٌ من اخطاء الشعب تجسّدت له ورُدّت عليه ليذوقَ مرارةَ ما صنعته يداه ، وليس الحاكم العادل إلّا حسنةً من حسنات الشعب ، تجسّدت له ، وعادت عليه نعمةً يتفيّأ ظلالَها ويتفنّن بقطافِ لذّاتها . قالت الحكماء : «زمانكم سلطانكم ، فاذا صَلُح سلطانكم صَلُح زمانكم» . وروى المسعودي ، في مروج الذهب ، أنّ معاويةَ سأل الأحنفَ بنَ قيس عن الزمان ، فقال : «انتَ الزمان ، فاذا صلحت صلح ، وإن فسدت فسد» . ولا يُراد بالزمان هنا إلّا الأحوال التي تتعاقب على الناس ، من خيرٍ وشرّ ، ومن سعادة وشقاء ، ومن جحيم ونعيم ، وكذلك يُراد به المسؤوليةَ التي تتوزّع على الحاكم من جهة ، وعلى المحكوم من جهة اخرى ، وإذا كانت العادة قد درجت ، بأن تُناط المسؤولية بالحاكم وحدَه ، فما ذلك الّا لأنّه يمتلك وسائل القوة والتحريك ، ولأنّه موكولٌ اليه ازمّةُ الأمور ، وموضوعٌ في عهدته تدبيرُها وتصريفُها .

ولا أظنُّ اننا بعد هذه المسافة من الحديث ، إلّا انَّ البابَ أصبحَ أمامنا مفتوحاً ، واصبحَ سهلاً يسيراً علينا ان نُطِلّ منه على شعبنا العربي ، ونقرأ واقعه وسيرته ، مع هؤلاء الذين بسطوا ظلالَهم عليه في بلدان المشرق وفي بلدان المغرب ، والذين يسمّون أنفسَهم حكّاماً وهم ولاةٌ منصّبون فنحن مهما عرّضنا بهم وقلنا فيهم من قدح وذمّ ، أو من تعظيم ومدح ، فإنّهم لن يخرجوا عن أن يكونوا قطعةً انقطعتْ من جسد هذا الشعب واخذت مكانَها على صدره أو فوقَ رأسه . ولن يستطيعو إلّا أن يَجروا على السنّة التي جرى عليها غيرُهم ممّن تآمّروا وتولّوا ، في التعبير عن شعوبهم تعبيراً صادقاً ، وتمثيله تمثيلاً حيًّا خالصاً . والشعب العربي لا يستطيع ، إلّا أن يعترفَ بأنَّ وُلاةَ أمرِه ، هم من لَحمه ودمه ، وهم من لغته وثقافته ودينه ، وهم من عاداته وأعرافه وتقاليده ، رَضي بهم ولاةً أم لم يرضَ . ولا يستطيع أن ينكر ، بأنَّ فيهم ما فيه من الطباع والخصال ، ومن السجايا والشمائل ، وأنهم ينطوون على ما ينطوي عليه من النوايا والخبايا ، ومن الأسرار والأخبار ، فكيف يحاول اذن ، أن يفِرَّ من مسؤوليّة وجودهم وتنصيبهم عليه ولاةً متصرّفين؟ . وكيف يسعى الى أن يتنكّر لدوره في وضعهم قوّاماً على تدبير شؤونه وتسيير اموره؟ . إنّهم ولا شكّ قطعةٌ مقطوعةٌ من كبده ومن نفسه ونيّةٌ من نواياه ، وعَمَلٌ من أعماله . فإذا كانوا خطيئةً ، فهي خطيئةٌ له ، منوطةٌ به لا تفارقه . واذا كانوا حسنةً ، فهي حسنةٌ له ، موصولةٌ به لا انفصال لها عنه . ولن يسلمه الى الفرار ، ولن يُعفيه من المسؤولية ، انْ يردّد ويقول : السلامة في السكوت ، وهكذا قدّر الله ، وهذا هو المكتوب ، وحكامكم أربابكم فاسمعوا لهم واطيعوا . ولن ينفعَه ان يحتجَّ بالأمثال السائرة ، والأقوال الجارية الشائعة التي لا يجهلها أحدٌ فينا ، والتي ترمي الى

تحييد الشعب، وإخراجه عن الاشتراك في مسؤولية تعيين حاكمه وولّي أمره. فالشعب الذي قال للخليفة الثاني عمر الفاروق: «والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا هذه»، هم مشتركون معه في حمل المسؤولية، وهم مسؤولون في وجوده خليفةً عليهم. ومثله في ذلك أيضاً هذا الشعب الذي رضي بمعاوية وليًا لأمره، فلا يسعه إلّا أن يكون مسؤولاً عن توليته عليه، وشريكاً له في أعماله الكبيرة الشهيرة التي عملها، من اختلاس الخلافة وتبديلها بملك عضوض حقود، وتقتيل الصحابة الأبرياء، وسبّ أمير المؤمنين جهرةً، الى غير ذلك ممّا غصّتْ به لهاةُ الأخبار وفاضَ عن بطن التاريخ. وكما كان عمر الفاروق معبّراً في زمانه خير تعبير عن شعبه وممثّلاً له أصدقَ تمثيل، كذلك كان معاوية الملك العضود، معّبراً عن شعبه الذي تغّير خيرَ تعبير، وممثلاً له أصدق تمثيل. والشعب الذي خرج منه عمر هو نفسه الشعب الذي خرج منه معاوية، وهو نفسه المسؤول عن هذا في ثباته وصموده، ونفسه المسؤول عن ذاك في انحرافه وتغييره.

وإذا أردنا أن نأخذ نموذجاً صغيراً عن هذا الشعب العربي الكبير المتناثر على رقعةٍ واسعةٍ من الأرض، واخترنا شعب سورية ليكون هذا النموذج، فإننا نجد أنفسنا أمام سؤال، لا مفرَّ لنا من مواجهته، وهو: هل حافظ الأسد، وهو السلطة وولّي الأمر، خطيئةٌ من أخطاء هذا الشعب أم حسنةٌ من حسناته؟، وهل هو نعمةٌ له او نقمةٌ عليه؟ ولن نتردّد في أن نقول، ونحن نهمُّ بالاجابة على السؤال: اذا كان خطيئةً فالشعب كلُّ الشعب هو صانع هذه الخطيئة، وهو المخطىء. وإذا كان حسنةً فالشعب كلُّ الشعب هو صانع هذه الحسنة وهو المحسن. واذا كان نعمةً فالشعب هو الذي أنعمَ على نفسه بها، أو كان نقمةً، فالشعب هو الذي جرَّها على نفسه، وهو

الذي أتى بها . ولن يستطيع حافظ الأسد أن يخرج عن السنّة التي سنّها التاريخ لوُلاة الأمر وسلطات الشعوب ، ولا أن يخرج عن القانون الذي صنعه لهم . والسنّةُ هي ، أنّهم عَمَلٌ من أعمال شعوبهم ، والقانون هو ، أنّهم كلمةٌ معبّرة عن هذه الشعوب ، وعنوانٌ ملخَّصٌ لما عندهم من افكار واخبار وأسرار .

وليس أسهلَ علينا من أن نعرف ، إذا كان حافظ الأسد خطيئةً لهذا الشعب أو حسنةً ، ونعمةً له أو نقمةً عليه . فنحن ننظر الى ما أتت به يداه من أعمال ، وما أقدم عليه من خطط ومغامرات ، ثم نعاين آثارها في الشعب وعواقبها عليه ، ثم نذهب الى أبعدِ من ذلك ، فنستمع إلى اقوال الشعب فيه ، ونتفرّس الوجوه لنطّلع على ما في النفوس ، من هموم وهواجس ، ومن آراء وافكار ، ونقارنَ بين النظَرات المكشوفة والنظرات المخبوءة ، لَعلّنا نفوزُ بعد ذلك كلّه بالحكم الذي هو اقرب الى الصواب والواقع ، أو نترك المحلَّ لغيرنا ، فيشاهد بنفسه الواقع كما هو ، ويستغني به عن كلّ حكم منطوق ومكتوب .

ونحن من هذا الشعب همٌّ من همومه ، ونَفَسٌ من انفاسه ، وعَصَبٌ من أعصابه . لن نقول إلّا ما رايناه وما رآه كلٌّ منا ، ولن نذكرَ إلّا ما سمعناه وما سمعه كلٌّ منا ، ولن نذهب الى ما ذكره فلان في الغرب ولا الى ما اذاعه فلان في الشرق . فما مَدَحَ من مَدَحَ منهما وأطالَ ، إلّا بعد أن ملأ حلْقومه من السلطة ، وما قَدَحَ من قَدَحَ منهما إلّا بعد ان عبّأ بلْعومه من اعداء السلطة . ونحن نأبى على انفسنا أن نكون مع هذا أو مع ذاك ونمتنعُ أن نقول إلّا ما نعتقد انّه الواقع القائم وأنه الحقّ المشهود . ولن نكلّف غيرنا ان يقتفيَ أثرنا ويتعبّدَ طريقنا ، فهو إنْ اعجبَه سار واقتفى ، وإنْ لم يُعجبْه مال وانحرف الى وُجهته التي يختارها لنفسه .

وها نحن بجانب الشعب في واقعه، وليس لنا إلّا أنْ نعاين ونتساءل: أين هي المعامل التي انتظر وجودها وقتاً طويلاً، لتعملَ له أشياءه اليوميّة وحاجاته الحائمة الملحّة؟ وأين هي المصانع التي وُعِدَ بها لتصنع أغراضه وأمتعته وأجهزته التي لا فكاك له عنها؟ ولا ننكر، أنّهم سمّوا لنا معامل وعيّنوا أمكنتها، وسمّوا لنا مصانع وذكروا اختصاصها.

ثم لا ننكر، ولا هم ينكرون، أنهم قالوا: إنّ أكثرها عَمِلَ فترةً يسيرةً من الزمن، ثم توقّف عن العمل، لانهزام الرؤوس المشرفين عليها، وفرارهم بعد ما اختلسوا أموالها. وما بقي منها لا يعمل، لأنّه لا يوجد لها طاقَم فنّي يعرف كيف يدبّرها ويسيّرها، ولا خبراء أصوليّون اختصاصيّون، يشرفون على سير أعمالها وتوزيع نِتاجها. والمطّلعون العارفون لا يتردّدون أن يجيبوا، عندما يُسألون عن أسباب شرائها واستيرادها وتركيبها، بأنّ ثلّةً من عِليةِ السلطة أرادت أن تملأ لهاتها، فما رأت أحسنَ من أن تغري بإقامة المصانع في البلاد، باسم التعجّل الى رفع حاجات الشعب، وباسم الزينة والتقدّم والازدهار.

وكيف يعثر الفرد على موادّ طعامه وشرابه؟ إنّه لا يصير الى شيء من ذلك إلا بشقّ النفس، ومن خلال العبوس والتقطيب، وبعد بذل ماء الوجه وتذوّق الانخفاض وكسر الخاطر. وكيف لا ننخطف من التعجّبِ والذهول، عندما تقرع أسماعَنا أقوالُ القائلين في كلّ بيت، أنّهم يقتّرون على أنفسهم في استعمال الماء خوف العطش الزاحف. حتى الماء الذي هو هديّة الغيوم العابرة وهِبَةُ التراب والصخور، والذي تتمتّع به الوحوش في الغابات والبراري والزواحف في الوديان والصحارى، أصبح عزيزاً على الشعب، أن يُروى به كما كان يُروى به في الأيّام الخوالي! وكيف لا يقضم

الخيبة ولا يلوك المرارة ، وهو الذي كان موعوداً بأن ينامَ على الفراش الوثير ويلتحفَ بالخزّ والحرير ، ويلتقطَ الذهب من كلّ مكان كما يلتقط السنابلَ من الحقول ، ثم يلتفت فلا يرى الماء الذي كان يَجري من حوله ، واحسّ بأنَّ العطشَ أشدُّ إحداقاً به من إحداق العدوّ ، وأنَّ خطرَه اسطى من خطره ؟ أم كيف لا يتسلّطُ عليه الخُذلان والخُسران ، وهو يرى السلطة القائمة على أموره ، لا تُحسن تصريف الماء ولا تقوى على مواجهة الجفاف ، بابتداع خططٍ مُتْقَنَةٍ مدروسة ، تكفل تخزين المياه أو جلبها بقنواتٍ من أمكنةٍ بعيدة ؟ وكيف لا يفهم الشعبُ انَّه غضبٌ من السماء وحَنَقٌ من الأرض على دمشق التي كانت تقوم على أعذب مياهٍ وأنقاها ، وعلى ضواحيها وقراها ، وعلى أمكنة كثيرة ، تعجّ بالقاطنين في السهول المتفرّقة والجبال الممتدّة ، عندما يتمنّع عليها الماء الذي به قيام الحياة والأحياء ، فلا يظهر منه إلّا قطرات تبلّ الصدى وتُبقي على رسيس الروح المدفون في الجسد المنهك المطروح .

وماذا لدى الشعب حتى يقول عن أزمة الايواء والسكن ؟ إنه يضجُ منها ضجيجاً ، حتى ليظنّ انه ليس عنده ازمة غيرها ، وليس فيه داءٌ سواها ، شأنه في ذلك شأنه في كل أزمة تهجم عليه وبليّة يندقّ بها . وإنه لحقٌّ من حقوقه حين يعبّر بالضجيج والعجيج عن نقمته واستيائه من قبح التصريف وسوء التدبير . وهذا ارتفاع الأسعار أو الغلاء الذي استفحل خطره ، حتى تحوّل الى أشباح من الخوف والرعب ، تنتشر على الوجوه وتطوف في البيوت ، يقود الى انفجار اسئلةٍ كثيرة في الخواطر : من اين طرقنا هذا البلاء ونحن لا ندري ؟ كيف نخاف على انفسنا من الجوع في بلاد لا تعرف الجوع ، ولا عهد لها إلّا بالخصب ؟ اين هو الأمان على لقمة الفرد في اليوم الثاني أو في الأسبوع الثاني ، مع غائلة الغلاء هذه ؟

الحقوق التي تؤخذ لم تعد تكفي، وافراد الاسرة ضاق البيت عن قاماتهم، والمواد المرغوبة المطلوبة كثيرة، والمواد المبذولة قليلة تكفي للنظر والسمع. واذا وَصَلَ الى اليد منها شيء، فلا بدّ من دفع كلّ شيء ممّا في اليد الثانية. ومن راح يبحث عن أسباب هذا الغلاء، فلن يجدها في قول السلطة: إنّها ازمة تجتاح العالم كلّه. وإنما سيجدها في هذا الاحتكار الذي اتّفق على صناعته مسؤولٌ مغامر مع مسؤولٍ مقامر. او في خطّة السلطة القائلة، بتشديد الأزمة لتشديد القبضة، وترسُّماً للنهج القائل: أجِعْ كلبَك يتبعك. من غير ان تُعطي بالها الى الخطّة المقابلة التي نبّه اليها احد كبار المفكّرين بقوله: لا تُجع كلبَك فقد ينقضُّ عليك. فكما أنَّ الجوعَ يشغل الفكر عن النظر الى ما في يد السلطة، لفترة من الزمن، فقد ينقلب الى غضبٍ ثائر ونقمةٍ فائرة، وقد يصير حقداً يتفجّر في النفس تفجيراً يحيط لهيبُه بالسلطة. فلا تعود تجد الى الافلات منه سبيلاً. واذا عُرِفَ التجويع انّه كان مرّةً في عمر التاريخ ملهاةً للشعوب ومشغلةً، فقد عُرِفَ انّه كان مرّاتٍ كثيرة محرقةً للسلطات ومهلكةً للحكّام.

والغلاء الذي عشّش في بلادنا، باضَ وفرّخ ورشح امراضاً وادواءً، كان من اخفّها واهونها، هذا الربح الفاحش الذي لا تطيق الأسماع أن تتلقى خبره، وهذا التهريب الذي يتسرب خفيةً في الدهاليز، كما تتسرب الأوباء خفيةً عن الحسّ والنظر. والخبراء بما يجري والمطّلعون على خفايا الزوايا، يصرّحون بأنَّ عائدات هذا وذاك، تستمتع باكثرها بطون في السلطة، وتستمرئها حلوقٌ فيها. وامّا الرشوى فحدّث ثم حدّث، ولا تخف على نفسك من الوقوع في الاخطاء أو من الوصول الى الزيادة. فلم يعد هناك عَمَلٌ من الأعمال، حقاً كان او باطلاً، وحلالاً كان او حراماً، إلّا واصبحت الرشوى طريقاً تقود إليه، وصارت شريعةً يُقضى بها. وللراشي

حجّته وللمرتشي حجّتهُ ، فالراشي يقول : إنها تقرّب عليَّ البعيد ، وتهوّن العسير ، وتُصيِّرُ المستحيل موجوداً مقبولاً ، وتردّ العسرة وتدفع المضرّة . والمرتشي يقول : وكيف تريدون منّي أن أردّ هديةً تُهدى اليَّ ، أو أدفع رمزاً أكرَم به ؟ ولماذا يسمّونها رشوى ، ولا يسمّونها تحيّةً لي على تعبي وإرهاقي لارضاء الآخرين والتفاني في انجاز أعمالهم وتسيير أمورهم ؟ وأنا عندي أيضاً أسرةٌ كبيرة ، والتفتُ الى أقاربَ لي ، فأسخو عليهم وأمدّهم بالعون أحياناً ، وما أتقاضاه من الدولة لا يكفي إلّا لشراء الخبز ، وأين هو الذي لا يتناول الرشوى في هذه الدولة ؟ وواضحٌ أنَّ في حجج كليهما من القوة والوجاهة ، ما يدلُّ على أنَّ الفساد عندنا ، أصبح له فلسفةٌ تحميه من أن يُسمّى فساداً ، وتردّ عنه الهجوم الذي تنوي فلسفة الاصلاح في يومٍ من الأيام أن تقوم به . ولا نرى أنَّ هناك ما يمنعه من النماء والازدياد ، فقد يأتي اليوم الذي يصبح فيه أشدّ قوّةً وصلابةً من الاصلاح ، فيقوم عليه ويهاجمه ويمحوه من الوجود ، اذا لم تدركه عناية السماء .

وكثيرة هي الأسئلة الأخرى التي اصبحت الأجوبة تنساقُ إليها إنسياقاً ، بعدما أحسسنا أنَّ الفساد هو وجه البلاد ، وهو الرخاء الذي كان شعبنا قد وُعِدَ به في أوّل يومٍ من عمر هذه السلطة . فإذا احببنا أن نتساءل : وهل هناك سرقات وغشٌّ وخيانات ؟ وهل هناك سمسرةٌ وتقوادٌ وتخميش للشرف والأعراض ؟ وهل هناك موجاتٌ من الهجرة والفرار لاصطياد اللقمة ودفع المضرّة ولقاء الكرامة المغتربة الضائعة ؟ فإنَّ الأجوبة بجانب هذه الاسئلة ، تنهض من غير أن يُنادى عليها ، وتأتي من دون أن يُسعى إليها . لكن هذا الذي ذكرناه من أنواع الفساد ، والذي نسمّيه الأوبئة المادّية الحسيّة ، يبقى صغيراً هيّناً أمام هذا الذي نسمّيه الأوبئة النفسية ، وخطره

اشدّ من خطره، وعلاجه ايسر من علاجه.

وما اسهل ما يكتشف الانسانُ هذه الأوبئة النفسيّة! فمنذ اليوم الأول لمعايشة الشعب في بلادنا، يُحسُّ انّه لا حَرَج هناك من أن يطرح على نفسه هذه الاسئلة. ولا حَرَج عليه ايضاً أن يرى أجوبتها روْيةً وان يعاينَها معاينةً: هل يشعر الفرد عندنا بقلقٍ وخوفٍ على امنه وسلامته، وعلى اسرته وسلامتها؟ وهل عند الفرد ثقةٌ بالفرد الآخر قريباً له كان أو بعيداً وصديقاً او جاراً، في المعاملات والأحاديث والاهتمام بقضايا الوطن؟ وهل هنالك ثقةٌ بين الشعب والسلطة؟ واذا لم تكن هنالك ثقة، فمن هو المسوْول عن ضياعها؟ وهل من الضروري أن تكون هذه الثقة لتوسيع النعيم والاعمار ونشر الرخاء والازدهار؟ وما هي علاقة الفرد بالسلطة ونظرته اليها، وعلاقة السلطة بالفرد ونظرتها اليه؟ وهل يمتلك الفرد أدنى حدّ من حدود الحريّة للتعبير عن آرائه وقضاياه ومشاعره، وعن أعمال السلطة وسلوكها وتصرّفها، وعن السياسة التي هي محور من محاور حياته؟ وهل عند الفرد اشتهاء لنقد السلطة؟ وما هي الموضوعات التي ينتقد فيها السلطة؟ وكيف يعبّر عن نقده للسلطة اذا اتيح له نقدها؟ وما هي القواعد والمبادىء التي ينطلق منها الفرد في نقده للسلطة؟ وهل يختلف حديثه على السلطة في السرّ عن حديثه عليها في العلَن؟ وهل يُحسّ بأنّه مسوْول عمّا يجري في بلاده، أم انّه مسوْولٌ امام السلطة؟ وهل يُحسّ المواطن بأَن له كرامةً مصونة عند السلطة، وانَّ كرامةَ السلطة مصونة عنده؟ وهل هنالك قمع واعتقالات في البلاد؟ وما هي أسبابها؟ وهل يُحسّ المواطنُ بكرامته أثناء اعتقال السلطة له وتحقيقها معه؟ وكيف تكون علاقة اسرته معه وعلاقتها مع السلطة بعد اعتقاله؟ وهل اعتقاله يوْثر على اسرته واقربائه؟ وهل هناك تمييز كبير في

العيش والمظهر والسلوك لرجال السلطة وأُسَرِهم واقربائهم ؟ وما هو اثَرُ هذا التمييز على ابناء الشعب ممّن يرَوْن ولا يقدرون على الكلام والنقد والاحتجاج ، وعلى الإشارة باليد أو بالراس أو بالعين ؟ وهل هنالك في البلاد قانون ينتظم أمورَ الناس ويحفظ حقوقهم ؟ وكيف هي علاقةُ الشعب بالقانون الموجود الساري وعلاقة السلطة به ؟

ونريد أن نلتفت ونسأل ايضاً عن قضايا التربية والتعليم : فما هي سويّة التعليم في المدارس والمعاهد والجامعات ؟ وهل تتعب السلطة وتسهر لوضع خطط تكفل تنمية عقول الناشئة وتوسيع مدارك الكبار والصغار منهم ، واكتشاف المواهب ، وتعهّدها بالعناية والسقاية حتى تأخذ حقّها من التفتّح والنشاط ؟ واذا أعرنا التعليم التفاتةً خاصّةً وأوليناه اهتماماً بيّناً ، فلأنه علامةٌ على تقدّم البلاد اذا كانت متقدّمة ، وعلى تخلُّفها اذا كانت متخلفة ، ولا جدال في أنّ السلطة هي المسؤول الأوّل عن هذا التقدّم أو عن هذا التخلّف . وهذه مسألة التربية التي تأخذ مكانها الى جانب التعليم ، وربّما جاءت قبله بدرجة ، هل اثرُها فعّالٌ ومشهود على بناء النفوس بناءً محكماً صلباً . لتكون قادرة على خلقِ الحياة وصيانة عهود الشعب وذممه ورعاية أخلاقه وآدابه وتاريخ وتراثه ؟ وما هي المُثُل والقيم التي تُرَبي عليها الأجيال وتزرعها في نفوسهم وأعمارهم ؟ وما هي الرموز التي تُعطى وتُقدّم لتغذّي شخصية النشء وتنمّي فيها حبّ المبادىء السامية والمُثُل العليا ؟ وما هي الأفكار والأخبار التي تعتمدها السلطة لتجهيز النشء وتزويده؟ ولا عجب اذا كانت الأسئلة كثيرةً وطويلةً كِثَرَ المشكلات وطولَها . وربّما كان في هذا القدر الذي تحرّك في خاطرنا ما يمنعنا عن الاسترسال في طرحها الى ابعد من هذا الحد ، فما تثيره في النفوس من تطلّع ، وما تقودُ اليه من

اجوبة ، يكفي ليضع السلطة امامنا عارية على حقيقتها ، لا سترَ عليها ولا لبسَ فيها ولا غموض . واذا نحن تقصّدنا ، أن نمتنع عن الاجابة على هذه الأسئلة ، فلأنها لم تعد مجهولةً على فردٍ واحدٍ في بلادنا ، ولأنها تأخذ منا وقتاً وتأخذ من الكتاب حجماً نرى من الأوْلى أن نعطيَهما الى جوانب أخرى من الحديث .

ونحن لا نرضى لأنفسنا أن نجور ونعتدي ، ولا نجيز لأجوبتنا ان تشتمل على زمن ليس هو بزمن حافظ الأسد ، وعلى تاريخ ليس هو بتاريخه ، فنحمّل سلطته أكثر ممّا هو من حقّها أن تحمله من المسؤولية عمّا يقوم في البلاد من أحداث ، وما يجري فيها من تحوّل وتغيّر . فلا بدَّ لنا من أن ننظر الى حياة الشعب قبل سلطته بعقد أو بعقدين ، وما كانت عليه من مبادىء وقيم ومن أخلاق ورموز ، ومن نظم وقوانين ، ومن سياسات قائمة على التدبير ومراعاة التغيير ، والى سُبُل اجتناء العيش وطرائق تنمية الاقتصاد ، وإلى سيرة السلطات ، ونخصّص بالنظر نواحي الفساد والتردّي والتأخّر ، ثم نقارن ذلك كلّه بحياة الشعب في زمن حافظ الأسد ، وما طرأ عليها من تغيّر وما اصابها من انخفاض وارتفاع أو تقهقر وانحدار ، ومن تفتح وانطلاق أو من انطواء وانغلاق . أقول إذا فعلنا ذلك ، فإنّنا سننتهي الى نتيجة ، هي إلى العدالة والاستقامة أقرب منها الى الظلم والاعوجاج . وسنَطلع بحكم يرضى به أعداء هذه السلطة ولا يرفضه أصدقاؤها وشركاؤها ، ونترك لغيرنا ان يقطف بيده خلاصة القول ، ويُصرّح ولا يخاف ولا يهاب ولا يبالي عن رأيه وعقيدته بحافظ الأسد : هل هو خطيئة من اخطاء الشعب أو حسنةٌ من حسناته ؟ وهل هو نعمةٌ للبلاد او هل هو نقمةٌ عليها ؟ وهل هو مظهر لصحّة الشعب وعافيته ام هو مظهر لمرضه ووجعه ؟ وهل هو مكافأةٌ أم هو بليّةٌ عليه ؟ ولا نريد ان نسوق الآخرين الى آرائنا

سوقاً ، ولا ان نجرّهم بالكذب والاحتيال والتضليل الى أنْ يقولوا ما نقول ، ولا أن يعتقدوا ما نعتقد . فهذه سلطة حافظ الأسد بارزة غير مخفيّة ، وهذه اعمالها وسيرتها جليّة غير مستورة ولا محجوبة ، وهذا هو الشعب يقف أمامها وجهاً لوجه ، في رضاه عنها وفي غضبه عليها ، وفي رفضه لها أو في قبوله إياها . ولا يصعب على من ينشغل بهذا الموضوع ويتفحّص مواردَه ومصادرَه ، ويراقب ابعادَه الطيّبة والخبيثة ، وينتهي إلى ما انتهينا إليه من قولٍ أو من رؤية ، فيكون الى جانبنا او يخلد الى رؤية أخرى ، يصير فيها مخالفاً لنا أو قريباً منّا . فنحن نكره أن نغصبَ الإنسان اعترافه او إنكاره ، ونكره أن نحمله على تصديق أمرٍ ليس بصدق وليس له في الواقع أثَرٌ او خبر .

ونحن لا نرضى لأنفسنا ايضاً ، أن نقارن بلادنا ، في زمن سلطة حافظ الأسد ، بما هي عليه البلدان في اوروبا الغربيّة ، ونتّجه باللوم والعتاب إليه أو بالنقمة والغضب عليه ، لأنّه لم يحوّل بلادنا الى واحدة من هذه البلدان في رقيّها وتقدّمها ، او في تجديدها وانطلاقها . وإنّما نريد أن نقارن مع البلدان المجاورة لها ، في منطقة الشرق الاوسط ، من عربية وغير عربية ، بل نريد أن نقارنها مع بلدان اميركا اللاتينية ، بل مع بلدان أفريقيا السوداء ، سواء في الأقتصاد والسياسة ، أو في الثقافة والفنون ، أو في الزراعة والتصنيع ، أو في أخلاق الشعب وروحانيّته ، ونوازن بين ما عندنا وما عند هذه البلدان ، لنقف على ما لا سبيل الى نكرانه من الحقائق المرّة التي هي الخيبة والسقوط والتمزّق . واين يجد الشعب عندنا معاذاً يعوذ به من مواجهة دوره في صنع مصيره ؟ واين هي التعلّات والذرائع التي تدفع عنه حمل القسط الأكبر منْ المسؤولية ؟ ومهما قال واطال ، بأنّه الخوف والترويع ، وانّه التهديد والتجويع ، وأنّ

جهنّم الحامية نزلت على الأرض . فلن ينفعه قول ولن ينجّيه فرار ، ولن يحول بينه وبين الاعتراف بمسؤوليته عذرٌ ولا اعتذار ، ومهما وَصَفَ سلطةَ حافظ الأسد ونعتَها بأنّها عنيفة قاسية ، وأنّها مترصّدة لا تأتي على شيء إلّا جعلته كالرميم ، فإنّ التاريخ سيقول له ، كما قال لمن قبله : أنتَ الذي شاركت في صنع سلطته ، وأنتَ الذي سكتَّ على ما رأيته منه ، وأبيتَ أن تُضحّي ، وانتظرتَ الجنودَ ليخرجوا من تحت الأرض وليضعوا عنك أوزار التعاسة وأثقال البؤس والشقاء ، ويبدلوك بها جنّةً ونعيماً وسعادة . وأنّ الأجيال ستتّهمه ، بأنّه هو الذي ابتلاها بهذه التركة ، وهو الذي ورّثها هذا المصير .

وهل هنالك ثقافةٌ في الدنيا أو حضارة ، إلّا وصاحت بالشعوب المضطهَدة المظلومة ، ونبّهتها إلى أنّ مصيرَها هو بيدها ، وليس بيدِ مَنْ يضطهدها ويظلمها ؟ فهي قويّةٌ كلّ القوة إذا أرادت ، وهي ضعيفة كلّ الضعف اذا استسلمت لإرادة حاكمها . وإذا لم يكن عندها إحساسٌ ، بأنّ ما تعانيه هو ظلمٌ واضطهاد ، وأنّه أشدُّ وأدهى من كل موت ، وكل مجابهة وعصيان وتمرّد ، فهي تستحقُّ أن تلاقي ما تلاقي من حاكمها ، وهي جديرة بكل ما يرميها به ، ولا يحقّ لها أن تقف عند الشكوى وتقطيب الوجوه وتذراف الدموع ، كما تفعل الأرامل حين يفقدن مدقّات اللذّة . وإنّي وإن كنت لا أستهين بكلّ حركة من حركات الشعوب وكلّ غمزةٍ من غمزاتها ، في مقاومة المتسلّطين عليها ومجابهتها لهم ، فإنّني لا أستطيع إلّا أن أستهين بها ، إذا هي وقفت عند هذه الحركات وحدها ، واكتفت بهذه الغمزات . وكيف لا يطيب لنا هنا أن نتذكّر صرخةَ أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب : ما وجدت ظالماً إلّا وتحته مظلومٌ يستحقُّ ظلمه حتى يقوم عليه ويردّه عنه بسيفه أو بدمه . فإن ردّه بسيفه فقد انتصف ، وإنْ ردّه بدمه فقد استراح ، ونغّص على الظالم عُمْرَه وقرّب

له أجَله!

وإنّه لحقٌ لي أن أقول وأزعم، بأنّني عَرَفتُ شعبنا وخبرتُه، وعايشته وأنا أستاذٌ في جامعة دمشق لمدّة عامين اثنين، وقرأتُ وجوه الغادين والرائحين، وسافرت في نفوسهم، وعلمت علمَ اليقين أنّهم لا يحبّون حافظ الأسد، ولا يريدون أن يرَوه سلطاناً عليهم، بل إنّهم ليكرهونه أشدّ الكره ويمقتونه أشدّ المقت. وهو وإنْ قطع ألسنتهم بأنواع التسلُّطِ والخوف والمراقبة، أو قل بأشكال الترغيب والترهيب، فإنّ وجوههم تتكلّم بالتقطيب، وأعمالهم يتحدّث فيها العبث والفوضى، وحركاتهم تتلذّذ بألفِ لونٍ من ألوان التعبير عن الرفض والنفور، لكأنّهم تذوّقوا لذّة الرفض، فأحبّوا أن يكونوا هذه المرّة روافض. ففي الجامعة عبوسٌ وتقطيب، وفي الأسواق قَرَفٌ وامتعاض، وفي المؤسّسات والدوائر صَبْرٌ على مضض ومضض على صبر، وفي التجمّعات والتنظيمات شكاوى وزفرات وأنين. وجميعهم يُشيرون إلى المجهول في مصدر شقائهم ومنبع تعاستهم وبلائهم، وهو عندهم معلوم، وإلى النكرة وهي عندهم معرفة، بل هي أعرف المعارف. وإذا أمكنتْ لأحدهم الخلوة وسنحتْ له الفرصة، فإنّه يصرّح باسمه ويُجري ذِكرَه على لسانه، ويشعر عند ذلك أنّه أظهر بطولةً نادرة.

وإذا وُجد هنالك من يقول، إنّ سبب كُره الشعب لحافظ الاسد ومَقته له، هو لأنّه من هذا المكان وليس من ذاك المكان، ومن هذه الفئة وليس من تلك الفئة، نقول: قد يكون لذلك شيء من ظلّ أو شيء من اثر، لكنه ليس هو الأسباب كلُّها، ولن يستطيع ان يصير هو الأسباب كلُّها. فلو لم يكن هنالك هذا الاستفحال الشديد لعناصر الفساد، ولو لم يكن هنالك هذا التمييز البارز الفاقع للسلطة والحاشية ولأدوات التحكُّم والتنفيذ، وهذا البطر والغرور وما

عندهما من وسائل السقوط، والتردّي، لَمَا أُخَذَ الحقد طريقه الى قلوب ابناء الشعب، ولَمَا تمكَّنَ منها هذا التمكّن العجيب، ولما استعرَت النقمة في النفوس هذا الاستعار الذي لا مثيل له ولا ضريب. ومهما قلنا في شعبنا من النقد وسلّطنا عليه أمواجاً من الرثاء والهجاء، فهو لا يزال طيّباً بأخلاقه، أصيلاً بعاداته، لم يألف ابناؤه، منذ انقشاع الشبح العثماني عن صدره، ان يتّخذ بعضُهم موقف العداء والكراهية من بعضهم الآخر، لأنّه من هذا المكان أو من تلك الفئة، ولم يتعوّدوا ان يمتلئوا غيظاً وحقداً على الحاكم لهذا السبب وحدَه، لو لم تكن هنالك أسباب كبيرة وخطيرة بجانبه، عدّدنا بعضاً منها قبل قليل، ونعدّد منها هنا: التفريط بالقوانين، وضياع الحقوق، والاستهتار بالكرامة، وإيثار الذات إيثاراً قبيحاً موجعاً. فهذا فارس الخوري، كان مسيحياً، وكان لشعبنا مثلاً من الأمثلة النادرة في التضحية والوفاء والإخلاص. رضي به الشعب زعيماً وآثَره على غيره، عندما اتى ببطولةٍ لم يأتِ بها غيره، وعندما صَنع من الأعمال الجليلة، ما سيظلّ خيرُها وفضلُها ممدوداً على البلاد ما بقيت البلاد، وسيبقى فَيْئُها يظلّل على الشعب ما بقي الشعب. فما كان أشدَّه في مواقفه وأصلَبه في حملاته ومواجهته، حتى انتزع استقلال البلاد من يدِ غاصبيه! وما كان أرأفَه بشعبه وارحمَه ببلاده، حين هدأت العاصفة واصبح رئيساً لمجلس الوزراء فيها! فقد أعطى للقانون حقَّه من السيادة، وللنظام دوره في البناء والتسوية، وكان حامياً لتراث الشعب، كما كان حامياً لأسرته وأهل بيته. وحين أشاد جامعة دمشق، اوجد فيها أوّل ما أوجد كليّة الحقوق، وهي موردٌ من موارد الشريعة الاسلامية ومصدر من مصادرها. وصار فيها استاذاً من كبار أساتذتها، ولم يتردّد لحظةً، عن إذاعة رأيه بتفضيل الإسلام على قوانين الغرب، في صيانة

حقوقِ الانسان وحفظ عهوده وتهيئة تقدّمه .

وها هو اليوم فارس الخوري ، ذكرى في نفوسنا ، ومثالٌ طيّبٌ من امثلتنا التي تعيش في ضمائرنا ، بما قدّمه من أعمالٍ لبلادنا ، وبما اداه من مآثرَ لشعبنا . ومهما احتال التاريخ وخادع الزمن والأيام ، فإنَّ الشيشكلي وحسني الزعيم والسرّاج وأمين الحافظ وأمثال هؤلاء من رجال السلطة ، لن يرقى بهم انتسابهم الى هذه الفئة ، الى ما رقى اليه فارس الخوري من مكانة في ضمير الشعب ومن حبّ في القلوب ، عندما هوت بهم أعمالهم وأسقطتهم خلالهم وافعالهم . ومهما شَرَح الشُرّاح وحلَّل المحلّلون ، وكتب الكتّاب ، في قيمة الانتساب لهذا الدين دون ذاك ، ولهذه العائلة دون تلك ، ولهذا العِرقِ دون غيره ، فإنَّ عَمَلَ الانسان هو قيمة الانسان وهو قدره وميزانه ، وهو هويّته وشخصيّته ، وما أروعَ ما قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب : «قيمةُ كلّ امرىء ما يُحسنه» .

وليس من حقّنا أن نعجبَ ، اذا رأينا الشعب ينفر من حافظ الأسد ويُضمِر له حقداً وكراهية . فعنده من الأعذار ما يقولها ، ومن الأسباب ما يقدّمها ويدافع بها ، وقد سمعنا شيئاً من هذه الأعذار ، ورأينا بعضاً من هذه الأسباب ، لكن من حقّنا أن نعجب ونُفرط في العجب ، عندما نرى الحاشية نفسها ، ومن عندها من الأفراخ ، ومن حولها من الأقرباء والمقرّبين ، يرمون حافظ الأسد بالذمّ والقدح غير هيّابين ولا وجِلين ، ويعرّضون به في كلّ مناسبة ، ويتّهمونه بما يتردّد الشعب المظلوم أن يتّهمه بمثله . ولا أقول ذلك نقلاً عن فلان وفلان ، من هذه الشائعات التي تدور على الأفواه ، والتي فيها المكذوب والمنسوب ، وفيها الصحيح والقبيح ، ولكنّني اقول بعد أن استمعت اليهم أنفسهم في خلواتهم وفي مجالسهم ، وبعدما أصغيت الى افراخهم ، وهم يروون كلّ غريبة مدهشة ويَحكون كلّ حكاية

عجيبة . عمّا يدور حول حافظ الأسد ، وعمّا يجري من خلفه ومن امامه . من مكايد ومفاسد ، ومن مساوىء وقبائح .

ولا بدّ للإنسان من ان يحدّث نفسه ويتساءل ، وهو يسمع كلامَهم ويقرأ نفوسَهم : هؤلاء الذين يرتعون في مروج نعمته ، ويتفيّأون ظلاله ، وهم معه مشتركون في السوداء والبيضاء ، وفي الحمراء والصفراء ، ولهم ما له وعليهم ما عليه ، كيف يُجيزون لأنفسهم ان ينالوا منه ؟ وماذا يبتغون من وراء صنيعهم هذا ؟ وما هي الأسباب التي تجرُّهم الى هذا التطاول المشكوك ويحدوهم الى مثل هذا الموقف المزدوج ؟ ولا يخفى على الخبير الفطن ، منذ الوهلة الأولى لاستماعه الى هؤلاء ، انّهم مطبوعون على حبّ التقلّبِ والخيانة . شأنُهم شأن العبيد الذين اذا خرجوا عن حدّ العبوديّة ، وجدو انفسَهم انّهم قد خرجوا من محيط الحياة وساحتها . وربّما كان مِن بينهم مَن ادركتْه الصحوة . وربّما كان فيهم مَن قرصه الضمير وانّبه الوجدان على ما يقوم به من المنكر وما يُعاين من القبيح الشنيع ! واذا نحن اتينا على ذكرهم ، فقد أردنا أن نقول ، إنّهم نذيرٌ من النُذُر الكثيرة المحسوسة على تهدّم السلطة وتفسُّخها وانقسامها على نفسها . ونذيرٌ على ما تحمله الأيّام القادمة من مفزعات ومُهلكاتٍ للسلطة وللشعب معاً . وكذلك اردنا أن نقول ايضاً ، إنَّ هؤلاء هم الأعداء الألدّاء لحافظ الأسد ، وهم المصيَدة التي وقع فيها . وإذا لم يكن الوقت قد تأخّر ، وإذا لم يكن موعد العودة قد مضى عليه زَمَنٌ طويل ، فليس له مُنقِذٌ من ايديهم إلّا عودتُه الى الشعب والتحاقُه به .

ولستُ انسى ، انَّ واحداً من هؤلاء قال لي ، وقد ضمّنا ذات يوم مجلسٌ في دمشق : الا تخجل انْ يطول لسانُك على حافظ الاسد ، وهو الذي اخرجك من سجن الشاه وانقذك من الإعدام ؟ فأجبته

وقلت: ذلك أمرٌ لا أنكره له، وإنْ كان الأصوبُ والأدق أن تقول: إنه شارك في إنقاذي، ولا انكره له، وإن فاتك ان تعلم، انّني لولا قيامُه بالحركة التي قام بها، لما امضيتُ هذه الفترة التي امضيتها في السجن. ولا انكره له، وإن فاتك أن تعلم أنَّ مشاركته في إنقاذي، لم تكن منه هديّةً ولا منّةً ولم تكنْ تعطُفاً، وإنّما هو حقٌّ من حقوقي أعيدَ إليَّ. وهذا جهاز الدولة من أوّله الى آخره لا يجهل ذلك، ولا يجهل قضيّتي ايضاً. واذا رايتَ أنَّ لساني قد طال، فلأنّه أرادَ أن يعوّض بطوله عن هذا القِصَر الذي حلَّ في عقولكم، فلولا تَقاصُر العقول عند قومٍ لَما طالتْ الألسنة عند قومٍ آخرين. ولا أحسبُ انَّك تستطيع أن ترى عندي تُهمةً اخرى غير طول لساني. امّا انتَ وامثالك فلم يبقَ فيكم شيء إلّا وطالَ ما خلا العقل والفكر. لقد طالتْ ألسنتكم، فما بقي حقٌّ إلّا وانكرتموه، وما بقي باطلٌ إلّا وذكرتموه، وطالت أقدامكم، فمشَيْتم إلى كلّ منكرٍ ورذيلة. وطالت ايديكم حتى وصلتْ إلى المعلوم والمجهول في الشعب. وانتَ! هذه الدورُ التي تملكها، داخلَ البلاد وخارجَها، كيف جاءتْ تسعى إليك على طبقٍ من الورد؟ وهذه المخازن التي هنا وهناك، لكَ فيها أسهمٌ وحِصَصٌ، من أين حصلتَ عليها؟ وهذا الذهبُ والألماس، وهو موزَّع في يديك واصابعك، ومعلَّق على صدركَ، كيف ساقتْه الريح حتى سقط عليك، ولم يسقط على محظيّةٍ أخرى؟ وهذه الاموال الطائلة التي تلعبُ بها ولا تدري كيف تنفقها، من ايّةِ كُوّةٍ دخلتْ إليك، ونحن نعلم انّكَ عِشتَ في بيتٍ ليس فيه كوّة، ولا يزال بعضه قائماً يشهد عليك حتى الآن؟ وفي أيّ دهليزٍ تسرّب إليك، والدهليز الذي كان يعمل فيه أبوك، وهو ما بقي لكم من الشرف، لن تغيب صورتُه عن أذهان الناس عندنا، وإن غاب ولم يَبقَ له اثر؟ وانتْ في الجيش، وكأنّك لستَ في الجيش! وانتَ في جهاز الأمن، وكأنّك

لستَ في جهاز الأمن! فماذا تعمل؟ إنَّ من رآك أنتَ وأمثالك، ولا يطول لسانهُ على حافظ الأسد، فهو ولا شكّ له ذيلٌ طويل. وليتَ انَّ التفكير عندكم، صار بطول التفكير عند ذلك الصبيّ في قصّة الأصمعي: فقد سأل الأصمعي صبياً من الأعراب: هل يسرّكَ أن يكون لك خمسة الآف درهم وانتَ احمق؟ قال: لا، قال: ولِمَ؟ قال: لأنّي اخشى أن أجني جناية، يذهب بها مالي ويبقى على حُمقي. وانتم، مهما بلغ صنيع الخوف والرعب منكم في هذا الشعب، فإنّه لن يحميكم ولن يحولَ بينكم وبين السقوط. حتى ولو نبتتْ للناس أنيالٌ من الترويع والتخويف، فإنّ الزمان سيصنع لكم يومأمن هذه الأذيال حبالاً تلتفّ حول أعناقكم. وذهبت في الكلام الى أبعدَ من ذلك، ولم يكن عنده ما يصنعه، إلّا ان يحمرَّ وجهه حيناً، وأن تصفرَّ سحنته حيناً آخر، إلى أن قال: ليتني أكلت كذا وكذا، ولم أقل لك شيئاً! قلت له: ليتكَ أكلت!

وما اكثرَها تلك القصص والحكايات والفصول التي تُروى عن السلطة وعن حاشيتها، والتي تسكن، مجتمعةً أو متفرقةً، في ذاكرة كلّ فردٍ من افرادِ شعبنا! وما اكثر ما كانت تعمد السلطة وحاشيتها الى الاختباء خلفَ رفعت الأسد يوم أن كان في داخل البلاد! لقد حسبوا أنهم يستطيعون أن يجدوا فيه كهفاً يُؤوون إليه قصصهم وحكاياتهم وفصولهم، ويظهرون أمام الجمهور أبرياءَ أنقياء، لا لَوثةَ على سمعتهم ولا انحراف في سيرتهم وسلوكهم. ورأوا أنّهم كلّما عَمِلوا عملاً واخرجوا فصلاً، إذا هم نسبوه إليه وعلّقوه في عُنُقه، فإنّهم يجدون لهم مخرجاً يُنقذهم من نقد الشعب المترصّد، ويزيد في فوران النقمة عليه. وذلك لأغراضٍ، لم تبقَ قابعةً في بواطنهم، بل انكشفتْ عنها صدورُهم أوانَ الفتنة بينه وبين أخيه الأكبر. ولَشَدَّ ما عُرِف عن هؤلاء من ذكاء ودهاء، ومن درايةٍ في

مداخل الأمور ومخارجها، فقد حسبوا لكلّ امرٍ حسابه، واعطَوْه صيغتَه التي تناسبه، ما سوى امرٍ واحد، لم يدروا كيف افلتَ من ايديهم، وخرج عن دائرة حسابهم وتقديرهم ونظرتهم، وهو انَّ هذه السيرة التي صنعوها لرفعت وتأنّقوا في صنعها، لن تقبل العقول التي ستقف عليها وتحيط بها، أن تأخذها كلَّها وأن تصدّقها كلَّها.

وزاد في انكشافهم، وفي حسرتهم وقرعهم سنَّهم، انّه منذ ان اصبح خارج البلاد، بدأتْ تلك القصص والحكايات التي كانوا قد خبّأوها خلفه ونسبوها اليه ونسبوه اليها، تظهر الواحدة منها بعد الأخرى، ثمّ تأوي الى الموضع الذي كانت قد ضاعت عنه، وتتعلّق من جديد في العنق الذي تبرّأ منها، وظهر هؤلاء على حقيقتهم، ولم يكونوا كما وصفوا انفسهم من البراءة، فقد كان لهم نصيبُهم الذي لا يرحمهم، وظهر رفعت على حقيقته، ولم يكن كما نعتوه من الدنس والاتّهام، فقد كان له نصيبه الذي لا يظلمه، ولعلّه لو لم يخرج من البلاد، لم يُتَحْ للشعب فرصةٌ يُشرف منها على معاينة الواقع والمقارنة بين رفعت وبين خصومه الذين اتّهموه وأسرفوا في اتّهامه. فكان نزوحُه عن الوطن وابتعادُه خيراً كبيراً أصابَه، من حيث راح يظنّه محنةً كبيرة نزلتْ عليه وبلاءً ابتُلِي به. وصار كثيرٌ من الناس الذين كانوا يرَون في رفعت مصدراً لشقائهم ومنبعاً لمصائبهم والويلات التي تحيط بهم، يتراجعون عن هذه الرؤيّة، ويعاوِدون النظر ليرَوا الرؤية التي هي أكثر جلاءً واكثر قرباً الى الواقع والصواب.

وما اشبهَ رفعت بحالته التي كان فيها وهو داخل البلاد ثم تطّور عنها بعد نزوحه وابتعاده، بتلك الحال التي كان عليها جُحا، هذا الرجل الذي يعيش في نفوسنا جميعاً رمزاً للحريّة والتفاؤل

واللطف والدعابة. فقد تعوّد الناس في زمان جُحا أن ينسبوا اليه ما يُحظَّر عليهم فعلُه. فاذا حكَوْا حكايات فيها استهتار بالأعراف والعادات، نسبوها الى جُحا. واذا قصُّوا قصصاً فيها غضٌّ من السلطان وازدراءٌ لمن حولَه، علّقوها في عُنُقِ جُحا. واذا حَدّثوا بأحاديثَ تسخر من رجال الدولة وتهزأ بالقُضاة وبأرباب الشعائر الدينية، وضعوها على لسانِ جُحا وحَشروها في ذمّته. وقد أحبَّه الناسُ أيَّ حُبّ وتعلّقوا به أيَّ تعلّق، إذ لم يكن عندهم وسيلة للانفراج إلّا قصصُه ولا سبيلَ الى الانعتاق من الهموم إلّا نوادره وطرائفه، ورفعوه في حياتهم اينما حلّوا شعاراً للتعبير الحرّ. حتى اذا مات جُحا، أخذ كلّ إنسانٍ ينظر الى نفسه، فيعاين فيها جُحا الذي كان يفتقده. والسلطات مثلُهم مثلُ الناس، يعلمون أنّه لا بدَّ لكلِّ زمانٍ من جُحا، تأوي اليه الأشياء المحرَّمة، وتلوذ به الأقوال الممنوعة والأفكار المحظورة.

ولم يكن هنالك من حَرَجٍ للسلطة عندنا، ولا من صعوبة في أنْ يصنعوا من رفعت الأسد جُحَا لهم. ولكن الحَرَجَ أصبح، فيمن سيكون هو الذي يليق به أن يقوم بهذا الدور الذي يُنقذ السلطة من الوضوح والانكشاف، بعد أن خَرَجَ رفعت من البلاد وأدار ظهره لهم. وهم عندما عزَّ عليهم ان يجدوا جُحا جديداً لهم، أو ان يصنعوه، اصبح كلُّ فرد منهم يرى في صاحبه جُحا له. وامتدّت الأيدي الى الرقاب، يريد الواحدُ منهم ان يفكَّ رقبة الآخر، وبعضُ الفكّ، أخذتْ أعينُ الناس تشهده، وبعضه الآخر لا يزال مخفيًا عن أعينهم. وأرى أنّهم قادمون ولا بدّ على الوقيعة فيما بينهم، ثم على الوقيعة الكبرى بينهم وبين الشعب، وهذا هو الوعدُ الذي ينتظرونه. سنَّة الله في الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

ولا أستطيع إلّا أن أعذر أولئك الذين سيقفون ويقطعون عليَّ

طريق الكلام ويقولون : نراكَ تميلُ ميلاً واضحاً الى رفعت الأسد ، وتحاول أن تخلّصَه من شِباك المسؤوليّة لتُلقيَها على غيره . وكأنّه لم يَمْضِ فترةٌ طويلةٌ ، وهو سيّد السلطة في البلاد وصاحبها الأوّل ؟ أو لعلّك تحاول أنْ تمرَّ به على المَطْهر الذي مرّ عليه الشاعر الايطالي دانتي في ملحمته الشهيرة (الكوميديا الالهيّة) ، وتغسلَه من الأخطاء والموبقات ، كما اغتسل هو وحبيبته ، ثم تُدخلَه الفِردَوس كما دخلاها . وانا لا اريد أن أتخلّص من مواجهة احتجاجهم والإجابة على تساؤلهم الذي ظهر بمظهر الحيرة والدهشة ، اذا قلت لهم : لا تخلو صفحةٌ من صحفات هذا الكتاب ، من الخوض في هذه المسألة بالتلويح او بالتصريح ، ومن الردّ على هذا التساؤل بالمقارعة أو بالملاينة . وانا عندما وقع اختياري على رفعت الأسد ، وعمدتُ الى تحليل شخصيّته بالطرائق التي إلفتُ ان أحلّل بها ، وتعوّدتُ ان أفهم منها واستخلصَ الأفكار الحرّة التي تُرضي الأذواقَ الطُلَعَة والعقول الحرّة ، لم تكن هذه المسألة وحدَها ، هي التي ظهرتْ امامي واستأثرتْ باهتمامي ، وإنّما كانت هنالك مسائل أهمّ وأولى وأجدُ وأكبر ، ومنها : مسألة السلطة والشعب ، والسلطة والتاريخ ، والسلطة والفكر . فلا بدّ من الصبر إذن على قراءة هذا الكتاب ، اذا ارادوا أن يصادفوا الإجابة على تساؤلهم ، بل على مجموعةٍ كبيرة من التساؤلات التي ستنهض من هنا وهناك في اذهانهم .

ولعلّهم يتذكّرون من الآن ما سأقوله لهم ، وهم يهمّون بقراءة هذا الكتاب ، أنَّ حافظ الأسد لم يُفلح في سعيه ، حين سعى إلى أن يجعل الناس في حيرةٍ ودهشة من أمرهم وممّا يجري في البلاد ، وهو يوحي اليهم ايحاءً او يلقي عليهم إلقاءً قولين اثنين له : أمّا الأوّل منهما ، فهو قوله ، إنّه هو الذي انشأ اخاه رفعت وعلّمه ،

وجعل منه رَجُلَ دولة ، واحلَّه في الحزب والسلطة هذه الأمكنة التي حلّها ، ودرَّبَه على فنون السياسة وتسيير الأمور ، ولولاه لما كان له هذا الشأنُ الذي وصل اليه ولا ارتقى في مراقي التمكين ، ولا بلغ هذا المبلغ من الشهرة وذيوع الصيت ، فهو وليُ نعمته ، وهو القيّم على صنعه . وأمّا الثاني منها ، فهو قولُه عن أخيه رفعت ، وهما على أعتاب الفتنة وفي أثنائها : يكفينا ما لاقيناه منه من العبث والفساد ، ومن سوء الصنيع ، ومن الفوضى في التدبير ، ومن نشر المنكَر ، ومن إذاعة التخبُّط والتسوّل . لقد نَفَدَ صبرُنا عليه ، ولم تبقَ لدينا طاقةٌ لنتحمّل منه اكثر ممّا تحمّلنا . وعليه الآن أن ينتهي بأي ثمنٍ كان ، وبأيّة وسيلةٍ كانت ، قبل أن يداهمنا طوفان الأخطار التي سيجرّها علينا ، وقبل أن تفاجئَنا الويلات وتطرقَنا المهالك ، فلا تبقي لنا باقية ولا يظلّ لنا اثرٌ او خبر .

ونراه في قوله الأوّل يعترف ، من حيثُ لا يشعر ، بأنَّه هو المسؤول عمًّا قام به أخوه رفعت من أعمال في الحزب والسلطة ، وما أقدم عليه من أفعال ، ومن تدابير في سياسة الدولة والشعب ، وفي الشؤون العسكرية والإدارية . ونراه في قوله الثاني ، وهو يتراجع عن الاعتراف بالمسؤولية ، من حيثُ يشعر أو لا يشعر ، عندما هيّأ الأسباب للإقدام على مجابهته ، وراح يبسط الأعذار للتخلص منه ، بقوله : إنّه هو الذي خرّب البلاد ، وافسد العباد ، وهو الذي أذاع المنكَر ، وأشاع السوء ، وقَتل وشرّد ، وأضاع وبدّد ، ولكنَّ الناسَ ، لم تكنْ لتنطلي عليهم أقوالُه ولا أقوالُ غيره ، ممن جاء قبله من ذوي السلطات ، ولا ممّن سيأتي بعده . فهم يعلمون حقّ العلم ، أنّه منغمسٌ من أسفله الى أعلاه في المسؤولية ، وُجِدَ أخوه بجانبه أم لم يوجد ، وبقي معه في السلطة ام خرج منها . ولن يستطيع أنْ ينفض عن كاهله أعباء هذه السنوات الطوال التي قضاها

في المسؤولية ، بكل ما فيها من قحط وخصب ، ورطبٍ ويابس ، واسود وابيض . ولْيَقُلْ ما اوحى له فكره أنْ يقول ، وليعملْ ما أراد له عقله أن يعمل ، فلن يقوى على خلقِ حيرةٍ في نفوسِ الشعب ، يوهمهم بها انه ، لا يدَ له فيما زرعه الآخرون ، وفيما حصدوه ، ممن هم شركاء له في السلطة ، ولن يجد سبيلاً الى إقناع الشعب ببراءته مما وقع وجرى .

ولستُ ممن يدفع الرأي القائل ، بأنَّ كلَّ فردٍ من الشعب مسؤولٌ من موقعه الذي هو فيه ، عما يجري من حوله ، وما يحدث في بلاده . ومن الظلم ان نجمع المسؤوليات كلَّها ، ثم نعلّقها في عنق الفرد الواحد الذي هو القائم على أمر البلاد او الحاكم . وأما إذا علمنا ، انَّ حافظ الأسد ، لا يرغب ان يُشرِك معه في سلطته إلّا الذين لا يعرفون ما هي المسؤولية ولا يقدرون عليها ، ولا يختار لمقاسمته الأحمالَ والأعباء إلّا من يُؤْثِرون السمع والطاعة فيما يقول وفيما يعمل ، بل أولئك الذين يطلبون إليه أن يتكلم عنهم ويعمل عنهم ، ولا دور لهم إلّا القبول به والسكوت عليه . إذا علِمنا ذلك ، فلن نكون مغالين حين نروح ونلقي المسؤولية كلَّ المسؤولية على عاتقه ، ونحمّله العواقب كلَّ العواقب عما يقوم ويقعد في البلاد ، وما يعود عليها بالنفع وما يعود عليها بالضرّ .

ولا اتردّد لحظةً في أن أقول وأعتقد ، بأنّ مسألة التفرّد بأزمة الأمور هي من كُبرَيات المسائل التي عجّلتْ في تأزّم الفتنة بين الأخوين حافظ ورفعت ، ومن الأسباب المُلِحة التي دفعت بها الى الانفجار . فقد كان حافظ يرى دائماً ، انَّ من حقّه أن يُمْلي أوامره على اخيه رفعت إملاءً ، وأن يفرض عليه رغباته فرضاً ، ويرى أنه ليس لأخيه من حقّ الا أن يسمع ويُطيع ، فلا يَعصى له امراً ولا يوغِر له صدراً ، ولا يتحرّك إلّا اذا قال له تحرّكْ ، ولا يسكن إلّا اذا

قال له اسكنْ . وماذا نريد لرفعت أن يصنع في مثل هذه الحال ؟ لقد خُلِقَ وفي جبلّته ان يتمرّد على الأمر اذا لم يُعجبه ، وأن يخالف الراي وينشقّ عليه اذا لم يحتلّ مكاناً في قناعته ، وما أكثر ما كان يتنازل عمّا يراه حقاً . ويتراجع عمّا يعتقد انّه الأرجح والأصوب ، حبًا بأخيه وإجلالاً له ، وإيثاراً لرغبته ورضاه ، لئلا يُدَقّ بينهم عطرمِنْشَم ، وكيلا تبدرَ بينهم بوادرُ الشقاق ، وتعصفَ ريح الخلاف في القلوب المتوحّدة والعقول المنسجمة . لكنّه حين استقرّ عنده ، أنّ اخاه مُمعِن في عناده وصلابته ، وانّه لن يقنع إلّا بما تصوّر له نفسه ، ولن يرضى ان يشاركه في الراي الأخير ، لا أخٌ ولا صاحبٌ ولا صديق ، شرع يردّ عليه وينتقده ، ويدعوه الى إعادة النظر ، والى اعتبار الآخرين والاعتراف بوجودهم وبوزن آرائهم . واخذ يزحزحه قليلاً قليلاً عن مكانه الذي تلبَّث به تَلَبُّثاً يُحِسّ الناظر اليه ، انَّه اصبحَ قطعةً منه .

ولا نستطيع أنْ نقبل قولَ القائلين وزعمَ الزاعمين ، بأنَّ حافظ الأسد ، كان يزقُّ أخاه رفعت بالخبرة والتجربة كما يزقّ العصفور فراخه ، وانَّه كان يشْرف على تدريبه بفنون الحنكة ، وتزويده بألوان المهارة في القيادة والتوجيه . ثم يجعلون من أقوالهم هذه جسراً يعبرون عليه ، ليصلوا الى الخوض في سيرة رفعت ، وتشقيق الكلام على أخباره وأحواله ، وما حدث في الفتنة المشؤومة ، وما قام وقعد فيها . وهنا لا يفوتهم أن يَميلوا على حافظ بالاطراء والتمجيد ، وعلى رفعت بالمَلامة والتأسّف والحسرة لخروجه من ربقة الأفضال والمنن ، وقد يرشقونه بوابلٍ من التجريح العنيف أو الخفيف لأغراضٍ معلومة في نفوسهم أو مجهولة . اقول ، لا نستطيع أن نقبل هذا كلَّه ، ولا أن نرفضه كلّه . فإذا كان رفعت قد لقيَ من أخيه الأكبر في بدء أمره تحناناً واحتضاناً ، وحظيَ منه برعايته ، فليس

في الأمر من عجب ، وليس فيه ما يبعث على الدهشة . وإنها لعادة مألوفة وعُرْف دارج ، أن يحنوَ الأخ على اخيه ، وان يمنحه منه العطف والالتفات والإشراف . لكنّ رفعت لم يتلقَّ من اخيه الأكبر رجولةً . ولم يستقبل منه شجاعةً ، ولم يستَدُرّ منه ذكاءً وموهبةً . وقد وُلِدَ وفي نفسه هذه الطباع والمواهب ، فهو قد انطبع على رجولةٍ ضاقت بها مَسَامُّ جسده وخلاياه ، وقد انطبع على شجاعة ، لم تتّسع لها آفاق قوته ، فأوقعته في مواقع التهوّر احياناً ، وعلى ذكاءٍ قلّما خانه في المآزق والمفاجئات ، وقلّما استنجد به في المواقف الحرجة إلّا ولبّاه وانجده . ولم يكن رفعت الأسد مخفيًّا على احد ، يوم انْ كان داخل البلاد ، وعلى راسها يصرّف الصغير والكبير فيها ، ويشيل ما يريد ويَحِطّ ما يشاء . واخوه ينظر اليه ويراقبه ، مسروراً كان او غير مسرور ، ولا يُملي عليه ولا يعلّمه ولا يرشده ولا يدرّبه . ولا نخشى من الوقوع في المبالغة إذا قلنا ، إنَّ رفعت هو امهر من اخيه الأكبر في تصريف المقاليد ، وفي تاليف القلوب ، وايقاظ الهمم والنشاط والحياة في النفوس ، وابرعُ منه في تنمية الخطط وتحريك الإعمار والاقتصاد . ولا نخاف من الدخول في الغلوّ إذا نحن قلنا : إنّه لولاه لما تهيّأ لاخيه الأكبر ان يُقدم على حركته هذا الاقدام ، ولما استتبّ له امر السلطة وكيانها هذا الاستتباب ، فقد كانت حركته في بدء امرها نوعاً من المغامرة ، استطاع رفعت أن يُسبغ عليا شيئاً من الثبات والاطمئنان ، وان ينشر فوقها ظلًّا من مهابته ، تحوّلتْ معه الى صورةٍ من صور الدولة ، واتّخذتْ شكلاً من اشكال السلطة المعروفة في البلدان العربية ، بل ربّما كانت من انصعها واميزها .

وما كان اسهل على رفعت ، انْ ينتزع السلطة من احضان اخيه الأكبر انتزاعاً وان يستلّها استلالاً ، سواءٌ بالقوّة او بالمكر

والخديعة، أو بوسيلةٍ أخرى ، في ليلةٍ داجيةٍ شاتية، لا إنس فيها ولا أنيس إلا الرعود والبروق. ولا يوجد من يشكّ بأنّه، عندما تدفّقوا عليه وهاجموه وادخلوا حصان طروادة وظنّوا أنّهم أحاطوا به من أمامه ومن وراءه، كان يستطيع أنْ يفجّرها عليهم حمراءَ لاهبةً، ويُدخلَ راس أوّلهم في عَقِب آخرهم، ويتركَ البلاد قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتاً. لكنّه استسلم لعاطفة القربى ولم يستسلم لعدوٍّ له، واستجاب لنداء الدم ولم يستجبْ لنداء التهديد، وأعطى عن طيب خاطر، ولم يُؤْخذ منه بالقوّة والاغتصاب، وآثرَ أن يُطلق هذا الشعب من أسْرِ هذهْ الفتنة الطخياء، وأن يُعيد عليه فرحَه الذي سرقَتْه منه، وأمنَه الذي هرب من عينيه ويديه، منذ أوّل يومٍ من أيّام استيقاظها وقيامها، ولا يكبر هذا الكلام على التصديق، عند من يعلمون أنّ رفعت عاش حياته كلّها، داخل السلطة وخارجها بين المخاطر والمخاوف وبين النار واللهيب، وقضى عمره وهو يمشي على الألغام المزروعة والمتفجّرات المطمورة.

فهل يُصدَّق عن رَجُلٍ عاش مثل هذه الحياة، أن يقال إنّه جَبُنَ عن مقاومة أخيه، وتخاذل أمامه، وألقى سلاحه، وسلّم جيشه، وأطلق ساقيه للريح، وانهزم؟ وهل يُصَدَّق، أنّ هؤلاء الذين كانوا يتسوّلون على باب مكتبه ومنزله، ويشحدون منه الابتسامة، ويستعطفونه النظرة، ويستدرّونه الالتفاتة، ويسألونه عوناً لأسرهم، ومراكزَ لأقربائهم، وامتعةً واجهزةً لمنازلهم وأعراسهم، هل يُصَدَّق أنّ هؤلاء مرّوا في حساب رفعت أيّام الفتنة أو عبروا في خاطره، أو كانوا في العير والنفير بينه وبين أخيه إلا مثل المسحاة في يد الوليدة؟ بل هل لهم من شأنٍ وقيمةٍ بين شعبنا وفي بلادنا اكثر من ذَرْقِ طائرٍ عابر؟ ونَظَارِ الأيامَ القادمةَ، فإنّها ستُطلعهم على حقيقتهم هذه، وستكشف لهم أنّ الشعب يعرفها فيهم ويعرفهم

فيها .

ولعلّ من يتعرّف على سيرة نابليون ويتجوّل بين قصصه وأخباره، ينتهي الى ما انتهيتُ اليه من رؤية، ويطّلع بما طلعْتُ به من رأي. واعني ان اقول إنّه بسيعثر على أوجه تقاربٍ وتماثل في الأخلاقِ والطباع بينه وبين رفعت، ويقع على الوان متشابهةٍ في مزاج كل منهما وفي حياته. فذاك الفرنسي كان كثير الحركة والنشاط، لا يكاد يهدأ ولا يريد أنْ يلامس الأرض. وهذا العربي مثله كثير الحركة والنشاط، تخاله وهو جالس، كأنه يريد أن يمشي ويتحرك ويقوم ويدور. وذاك كان سريع الانفعال والغضب ، سريع الهدوء والرضا، وهذا ايضا مثلُه ، فما أسرع ما ينفعل ويغضب! وما أسرع ما يهدأ او يرضى! وذاك كان شديد الذكاء قويّ الفِراسة، وهذا ايضاً شديد الذكاء قويّ الفراسة. وذاك كان كثير الشكوك متأرجح الظنون، وهذا مثلُه كثير الشكوك متأرجح الظنون. والذين أخلصوا لنابوليون من ضبّاطٍ وجنود، لم يعرفوا أن يُخلصوا بعده لرجلٍ آخرَ مثلِه. وكذلك الذين أخلصوا لرفعت من ضبّاطٍ وجنود، جنى عليهم أنّهم لن يعرفوا أن يُخلصوا لرجلٍ آخرَ مثلَ إخلاصهم له. وذاك كان مولَعاً بالنساء الى حد الفتنة والجنون، وهذا كان مولَعاً بهنّ إلى ما هو ابعد من الفتنة والجنون. ولست أدري إنْ هو لا يزال وفيًا لولَعهِ هذا او انّه خفف منه او تغيَّر عنه. وأمّا ما هو بينهما من تمايز واختلاف وفروق، فلا يعنينا منها إلّا أبرزها وأظهرها وأميزها، وهو انَّ ذاك الفرنسي لم يكن اخاً لحافظ الأسد، أمّا هذا العربي، فهو أخوه وابن أمّه وابيه، وأجرُه على الله.

فإذا وُجدَ هناك من يرى ويعتقد، انَّ هذه القُربى وهذه الأخوّة، كانت نعمةً لا نظيرَ لها بين النِّعم، وحظًّا لم يَصبحً إلّا للقلّة من بني البشر، فإنَّ هناك من يأسَف لها، ويعتقد انّها وقفت عائقاً

امام تقدم رفعت في الارتقاء، وحالت بينه وبين ما فيه من مواهب انْ يكتمل تَفَتُّحَها، وانْ تأخذَ مداها، وان تنتهيَ الى غايتها. فالمعجزة كلُ المعجزة في نظر مثِل هؤلاء، هي أن تقع على رجلٍ في السلطة، بجانب حافظ الأسد لا يكون خامل الذكر مدفونَ الصيت، او يحقُ له ان يتحمّل قدراً، مهما كان صغيراً من المسؤولية معه، او يجروُ على انْ يُظهر شيئاً من طموحه، او يكشفَ عن رغبةٍ من رغباته، إلّا اذا كان ذلك كله ينتهي الى تمديد ظله وترسيخ سلطانه وتوسيع مهابته في النفوس. وفي نظرهم انّه لم يكن لرفعت من ذنب عنده إلاّ انّه اراد ان يحرِّر نفسه من رقّ الخمول، وان يُثبت أنّه قادر على تحمّل المسؤولية وعلى بسطها، وانّه يمتلك مواهبَ لا تقِلُ عن مواهب اخيه، اذا لم تكن اجدَ منها وافتى، واقدرَ على العطاء. وعندهم، انّه اذا كان صحيحاً ما رواه حافظ الأسد وما تذرّع به، من انّه لم يعد قادراً على تحمّل اخيه لتماديه في الغَيِّ والفساد، ولم يعد عنده صبرٌ على رؤيته بجانبه في السلطة، وهو مطلَق اليدين، يتصرّف على هواه، لا يرتدع عن سوء ولا يتراجع عن منكر، فلماذا صبر عليه اعواماً تبلغ العشرين او تزيد قليلاً، وهو منه عينه الساهرة ويده الضاربة وقلبه الخافق؟ ولماذا لم يأخذ على يده منذ العام الاوّل، او العام الخامس، أو العام العاشر؟ وكيف سمح له بهذا التمادي الذي لا يفتأ يذكره ويصفه، ولم يعاقبه، ولم يقتصٍّ منه؟ واذا ظنَّ بأنْ ما صنعه بأخيه، إنما هو قصاصٌ له أيّ قصاص، وعقابٌ ليس بعدَه عقاب، وانّ الشعب صدّقه بذلك واعتقده له، فعليه أن يراجع ظنّه او انْ يتخلّى عنه. واذا كان صحيحاً ما حدّث به على ملىء من حاشيته المتحلّقين حوله، مِن انّ اخاه تزعّم موامرةً طويلةً محبوكة، كانت ستقصم ظهر البلاد، وتهدُ أمجاد الشعب وتطوي تاريخه، لو انّها نجحت واستقامت له، فلماذا لم

يشرح أبعادَ هذه المؤامرة ويُطلع الشعب على أهمية إحباطها؟ ولماذا لم ينبّهِ الشعب الى مدى أخطارها، إنْ لم يكن أوانَ رغاء الفتنة، فليكن بعد انكشافها وجلاء غُمّتها؟ وما أجمل هذه المؤامرة التي يبقى صانعها ومنشئُها عضواً في قيادة الحزب والدولة ونائباً لحافظ الأسد؟

ولستُ أدري كيف سينطلي قوله على الشعب: إنّها مؤامرة، رسمت خطَّتها أمريكا، وأشرفتْ على إدارة سيرها، واستهدفتْ بها خلع النظام وإنهاك الشعب كأنَّه ليس لأمريكا من القوّة والنفوذ في السلطة والشعب أكثر ممّا لحافظ الأسد من القوّة والنفوذ! وكأنَّه ليس لها في البلاد من الهيمنة وبسط الظلّ والحضور أكثرُ ممّا للشعب نفسه! ثم ها هي علاقته بأمريكا، وها هي وسائل ارتباطه والتحاقه بها، وانصياعه لخططها، ونزوله تحت هيمنتها وتأثيرها، مكشوفةً بينةً معلومةً في الأمس واليوم، فهل يقوى على أن يفسّر ذلك كلّه، بأنّه ارتباط المِثل بالمِثل وعلاقة النّدّ بالند، أم هل يقدر على أن يدفع تفسير الغرب والشرق له بأنه علاقة السيد بالعبد؟ لقد طغى عليه حبُّ السلطة، فمنعه من أن يرى أمريكا على وجهها الصحيح، وأن يعرف ماذا بيّتَتْ لملاعبته وأعدّتْ لتذوبيه وإنهائه. ولم يتّعِظ بما صنعته بجاره سفّاك العراق وأفّاكه ولم يشدَّ ذهنه الى التفكير والاعتبار ما لاقاه منها آخرون غيرُه، ممّن بذلوا حياتهم كلَّها قرباناً لسياستها وخططها، ولم يُقنعه ما رأى حتى الآن من مكائدها ومصائدها في الشرق وفي الغرب. إنّها ستأخذه أخذاً لا شفقة فيه ولا رحمة، وستضربه ضرباً وجيعاً، يكون عنده هيّناً ليّناً ما لاقاه غيره من ضرباتها. فأمريكا مثلُها مثلُ المرأة الجميلة المغرورة، لا تحبّ الذي يستسلم لها بسهولة، ولا ترى فيه عاشقاً قويًا لها، بقدر ما ترى فيه عبداً ذليلاً محمولاً عليها ومحسوباً على حركاتها

وخططها. وليس لها من خيار عندما يكثر حولها أمثال هؤلاء العُشاق المحبّين، إلّا ان تتبدّل عبداً بعبد، وان تتسلّى بتنكيس هذا وتنصيب ذاك مكانه. ولعلّ الذين تذوّقوا طعم سياسة أمريكا وخَبِروا اسرارها، لا ينكرون عليَّ إذا رحت امثِّل طبعها بطبع ذلك النوع من الأفاعي الذي، لا تتلذّذ الأنثى فيه بذَكَرها إلّا عندما تشدّ عليه شداً عنيفاً تنزع به روحه، وتتركه جثّةً هامدة خالية من الحركة، ثم تنقلب عليه وتبتلعه.

وكيفما كانت علاقة حافظ الأسد بأمريكا وسياستها وخططها، وأيًا كانت لغته في مخاطباته لها، ومهما أوغل في ارتباطه معها أو مع غيرها، فلم أكن لأحسب نفسي من المُغالين في انتقاده، لو انّه التفتَ إلى هذا الشعب الذي أمّنه على مقدّراته وسلّمه ازمّة قياده، راضياً او مكرهاً، ثم راح يبثُّ فيه قيماً خلّاقةً ويُلهمه نشاطاً جديداً ويحرّك عنده التفكير تحريكاً يقوده الى الإبداع، ويحقّق له بعض تطلّعاته في تنمية آفاق العلم والمعرفة، وتطوير وسائل الاقتصاد وتبديل ما عاناه من بؤس وشقاء وحرمان، بنعمةٍ ورفاهٍ وازدهار. ومنذ متى راح يتّهم أخاه رفعت بالتواطىء مع أمريكا والإعداد لمؤامرةٍ طنّانةٍ رنّانة، وهو منذ تولّيه السلطة، الى ما قبلَ الفتنة بأشهر، بل بأسابيع، كانت مدائحه به لا تنقطع، وثناءاته عليه لا تتوقّف، في المناسبات وغير المناسبات؟ وهذه كلماته فيه وخطبه واقاويله، بعضُها محفور في ذاكرة الشعب، وبعضُها محفوظ في بطن الكتب، وبعضُها على ظهر الصحف، لا يستطيع أنْ يُنكرها أو أنْ يهرب من انتسابها اليه.

وكيف تأخّرَ اكتشافه لهذه المؤامرة الطنّانة الرنّانة، وكلُّ شيء في حياة اخيه بين يديه وتحت عينيه، سواءٌ في اتّصالاته، او في قيامه وقعوده، او في تحرّكات جنوده وفصائل وحدته؟ ولقد اخترق على

اخيه حصونَه وسياجاته، من كلّ الجهات، وعن كلّ الطرق، عن طرق الضبّاط والجنود، وعن طرق اعضاء القيادة في الحزب والدولة. وحوّطه بأحدث أجهزة المراقبة ووسائل الملاحقة كما حوّط غيره، ولم يترك أداةً من أدوات السمع والبصر والفكر والظنّ والخيال، إلّا واستعملها في رصد حركاته وسكناته، فكيف زَمَقَت المؤامرة الطنّانة الرنّانة من بين هذه الاشياء كلّها، وكادت أنْ تُفلِح وتخرّب البلاد وتقضيَ على العباد؟ وفي أيّ خفاءٍ مرّتْ ولم يشعر بها احد حتى نزل فيها وحيّ مخصوص؟

ولم يتهيَّب رفعت الأسد، بعد أنْ ودّع أسلحته وعتادَه، وبعد انْ فارق عسكره ومراكز تحصينه وقيادته، أن يتمطّى وهو لا يزال في دمشق، في حفلةِ غداءٍ أو عشاء، ويعرّضَ بأخيه الأكبر وسياسته، وبما قام به وبما ينوي أن يقوم به، تعريضاً قارصاً، وينتقدَه انتقاداً لاسعاً، ويحذّرَ من المستقبل الغامض الذي ينتظر البلاد على مفترق الطرق، تحذيراً فيه إشارات إلى سياسة أخرى، ستكون اشقَّ على الشعب وادهى وامرّ من كلّ ما مرّ عليه. ولَشدَّ ما تذكّر الناسُ هذا التحذير، ولمّا يمضي على خروجه من البلاد إلّا بعضُ عام، عندما أخذتْ ضائقة الغلاء الفاحش تعصرهم، وحين اشتدَّ هدير أمواج العَوَز والحِرمان، وصار من يظفر بخبزِ يومه محسوداً من اشقّائه وجيرانه. وحين اخذ الشعب يتلمّس أسباب عَوَزه وشقائه وحرمانه، فلا يرى أنّها تتولّد من رفعت وعساكره، كما كانوا يخبرونه ويقولون له. وكيف سيصدّق بعد اليوم أخبارهم ويطمئِنُّ الى اقوالهم، وهو يرى أنّ هذه الأسباب، لم ترحل عن البلاد برحيل رفعت، ولم تتضاءل وتخفّ بعد غيابه، بل اشتدّتْ قوّةً وتأثيراً وازدادت انتشاراً وتوسّعاً.

ولم يتهيّبْ رفعت أن يدفع عن نفسه التّهم ويقولَ لخصمائه:

تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بيني وبينكم، تُظهرون ما في أنفسكم وأُظهر ما في نفسي، وتَعرضون ما فعلتم وأعرض ما فعلت، وتكشفون عمّا عندكم من اموالٍ واملاك، واكشف عمّا عندي من اموالٍ واملاك، ونقولُ للشعب الذي يسمعنا ويُبصرنا، احكُمْ بالحقّ وقل فينا كلمة الفصل. وانا راضٍ بما يَحكم وبما يقول، فهل انتم راضون؟ وها انا موجود، فلماذا تصبّون عليّ التُهَم، وتجعلونني سببَ كلّ علّةٍ وعلّةَ كل بليّةٍ، ولا تأتون الى مُفاتحتي ولا تُقدِمون على محاكمتي؟ فما كان جوابهم إلّا السكوت، وكأنّهم أرادوا بسكوتهم هذا أن يوحوا أنّهم اقوياء اشدّاء، وأنّهم فاتحون منتصرون، وانّ كلامه هو كلامُ اليائس المنهزم المستسلم. ولكنْ مهما كان من أمر أقواله وأقوالهم، فقد استطاع أن يطبع على جباههم التُهم، وأن يخلق لهم إحراجاً وأن يكبِتَهم كبتاً قويًا، جعلهم يتحرّقون ندماً على التهاونِ بمسؤولية أعمالهم، ويتحسسون من أعماق نفوسهم، بأنّ الأبواب انفتحت من كل صوبٍ وجانب، ولم يبقَ للعواصف إلّا أن تدخل عليهم رويداً رويداً.

وكيف سيسمّونه ظالماً في حكومته، هذا الذي يحكم، بأنْ يُترك الشعب حرًا على هواهُ في الاختيار بين حافظ الأسد وبين أخيه رفعت، سواءٌ وقتَ اندلاع الفتنة أو في وقت آخر، فأيُّهما اختار فذاك هو الذي ينبغي ان يُؤْتَمن على المسؤولية وتُعهدَ إليه السدّة ويسلَّمَ الراية.

واذا رحتُ اتعمد تصديق حافظ الأسد عن أخيه رفعت حين قال، إنّه كان يتزعّم مؤامرة ستمزّق وستشتّت العباد، فلأنّني أريد أن أسأل: ولكنْ ما هو شأن البلاد اليوم بمؤامرةٍ وبدون مؤامرة؟ هل في شأنها ما يرضي؟ وهل هي لا تزال تحت وطأة المؤامرات أم أنّها خرجت من تحتها؟ ثمّ ما هي أحوال العباد وأوضاعهم، قبل

إحباط هذه المؤامرة وبعد احباطها ؟ هل طرأ عليها تَحسُّنٌ وتقدّم ؟ وهل حلّتْ بها البَركات وأصابها الخير العميم ؟ وهل في الأفق ما يبشّر بالتجديد ويقود الى الاطمئنان ؟ ولأنّني اريد انْ اقول ايضاً : إنّ اسباب التآمر موجودةٌ ولا تسألْ ما هي لكثرتها وتنوّعها . فهي الفوضى ، وهي القمع والتهديد ، وهي الإذلال والتشريد ، وهي العَوَز والحرمان ، وهي غيابُ القانون والعلم ، وهي السلب والنهب والأنانية ، وهي تراجع الحضارة وتقهقر المدنيّة . فمَن ذا الذي يلوم أيًا كان من الناس ، يرى هذه الأسباب الضارية ، ثمّ تتحرك فيه النخوة ، ويستيقظ عندَه الاحساس ، ويصرخ بالنيام انْ ينتهوا من نومهم ، وبالكسالى ان يتناهَوْا عن كسلهم ، وبالمتفرّجين الاّ يكتفوا بتفرّجهم ؟ وكيف نسميه متآمراً ، هذا الذي يريد أن يقتلع هذه الأسباب الضارية الحارقة في عروق بلاده وفي دم شعبه وضميره ؟ إنّ مَن يرضى أن يرى هذه الأسباب ويتفرّج عليها لهو المتآمر عينُ المتآمر ، وإنَّ من يُعاين الذين يتمرّغون في جحيمها ولا يأسى لهم ولا يبالي بهم لهو الخائنُ المتواطىء ذات الخائن المتواطىء .

وأين هو الذي يعمل الى جانب حافظ الأسد ويعاشره ، ويحيا بين خُططه ورسومه وبين احكامه وازلامه ، ولا يفكّر انْ يثور في وجهه وانْ يقومَ عليه ، إلّا اذا صار من هؤلاء الذين تمرّغتْ ضمائرهم وتعقّرتْ احاسيسهم وتشوّهتْ ارواحهم ؟ ولا اقول ذلك نفوراً منه ومقتاً له وازدراءً ، ولا اقول ذلك لأنّني أكِنُّ له سخيمةً وبُغضاء ، او لأنَّ في نفسي هياجاً لا يُطامِن منه إلّا التعريض به والتقبيح ، وغلياناً لا يبرّده إلّا التشنيع . ولكنّني اقول ذلك ، وأنا أسعى السعيَ كلّه على انْ لا أُنقصَ شيئاً من مرارة الحقّ عندما اقوله ، واقول ذلك وانا اشعر انّه حقٌّ لي أن اقوله ، كما انّه حقٌّ لكلّ مواطن جُبِلَ من تراب هذا الوطن وعاش على أرضه وتماوجتْ

في جبلته آماله وآلامه، أنْ يقول ما يراه حقًا، وما يرى انه يشارك في حفظ وطنه ويُسهم في تقدّم شعبه، اكان على ضَلال في ذلك أم على رُشد. وأقول ذلك وأنا أرى الشعب من أقصاه الى اقصاه يقول مثل قولي، وإنْ لم يكن بأسلوبٍ مثلِ أسلوبي. ولعلّ اسلوبي هو أخفّ الأساليب على حافظ الأسد وأرحمُها به. فمن الشعب من يعبّر بخوفه وهلعه من الدخول في الحَديث على السلطة. ومن ذكر البلاد وما فيها وما يعانيه أهلها. ومنهم من يعوذ بالصمت، وصمت الأبرياء والخائفين فيه من النطق ما هو أبلغ من بلاغة البلغاء وشجاعة الشجعان. ومنهم من يعبّر بفقره وسوء وضعه، ومنهم من يعبّر بشقائه وعوز أطفاله وعياله. وكلّ أساليب التعبير هذه، قاسيةٌ في لهجتها، شديدةٌ في وطأتها على السلطة، لو أنّ السلطة تعرف القراءة والكتابة، وتُحسن استخراج المعاني من الكلمات وانتزاعَ الدلالة من العبارات.

واذا رحنا جميعًنا في البلاد، نقول هذا القول بألمٍ وحسرة، فلأنّنا نشعر بمرارة الخيبة التي طرقَنا بها حافظ الأسد طرقاً، عندما لم يرضَ لنفسه أنْ يكبر كما كنّا نريد له أنْ يكبر، وعندما رغب عن المكان الذي حلمنا له به، وقنع بأن يكون والياً عند السلطان العثماني، أو أنْ يصير قائداً لعسكرٍ عند الملك الفلاني. فما كان أحلاه على قلوبنا وأبهجه لنفوسنا، أنْ نرى حافظ الأسد يعيد سيرة بطلٍ من ابطال هذه الامّة وسيدٍ من سادتها، مثلِ سيفِ الدولة الحمداني! وذلك لم يكن عليه بعزيز، لو أنّه صنع بعض صنيعه، واقتفى أثراً من آثاره، وترسّم درباً من دروبه، فما تمادى سيف الدولة في العظمة حتى بهر الخلائق في زمانه وطغى ذكرُه على ذكر الخليفة العباسي في أيامه وعلى ذكر من جاء بعده من الخلفاء والسلاطين، إلّا لأنّه حمَلَ بطولة السيف والرأي في يد وبطولة القلم

والفكر في يدٍ أخرى مدة عشرين عاماً أو تزيد ، كان خلالها اذا عاد من مقارعة الأعداء الأشدّاء انبرى لمُصاولة العلماء ومباراة المفكّرين والشعراء . ومَن هناك يجهل انّه آوى إليه سادة الشعر وسادة النحو واللغة وسادة الفكر والموسيقى وسادة العلوم والفنون في الميادين المختلفة الأخرى ؟.

وإذا قيل لنا ، إنَّ التحدّيات التي واجهتْ حافظ الأسد هي أشدُّ وأدهى من تلك التحدّيات التي واجهت سيف الدولة وهي أخطرُ وأمكر ، فإنّنا لا نهرب من الاعتراف بذلك ، ولكنّنا نقول : ولماذا لم يكنْ اذن مثلَ كاسترو الذي هزّ العالم من جزيرته الصغيرة ، وجعلَ من بلاده مارداً جبّاراً في حضن أمريكا التي تختال بعظمتها وتستكبر بقوّتها ؟ لقد استطاعت كوبا ان تصمد بزعامته ، وكادت ان تُفجّر حرباً عالمية ثالثة ، من وراء أزمةِ الصواريخ ، لولا أنَّ الحكمة سبقت الحماقة الى رأس كل من كندي وخروشوف . وصمدت بزعامته أمام هذه المستحدثات الجديدة التي غيّرتْ وجه العالم ، حين أخفقَ الشرق الشيوعي كلُّه في صموده وتهاوى صرحاً بعد صرح ، أمام اندماغ موجات الغرب وعلى وقع ضرباته . وما ذلك إلّا لأنَّه حصّن بلاده تحصيناً قويًا صلباً ، وبنى شعبه بنياناً متماسكاً ، لا تنجع قوّةٌ مهما بلغت من العتوه والاغراء في مراودته عن نفسه والوصول اليه .

وليس هناك من يذمُّ التحدّيات ويخفض من شانها إلّا صغارُ الناس ومن هم على شاكلة الزواحف منهم . فهل هنالك ما يخلق الشعوب ويعجّل بها الى المحلّ المنيف والمكان الأرحب ، وما يفجّر فيها الحضارة ويؤبّدها مثل التحدّيات ؟ وهل هنالك ما يصنع رجولةً في الرجال وما يشكف عن بطولةٍ في الأبطال مثلُ التحديات ؟ وبالتحديات وحدها فرّق البشر بين صغار العزائم وبين كبارها ،

وميّزوا بين الأعمال الجليلة وبين الأعمال الهيّنة الوضيعة. واذا كانت التحدّيات تَلِد الرجال العظام، فإنّ الرجال العظام يَلِدون التحديات ايضاً. بل إنّهم هم انفسهم نوعٌ من التحدّيات الكبرى، في اعمالهم وافكارهم، وفي نظراتهم وانماط عيشهم. وربّما كان حظًا لحافظ الأسد، انّه وُجِدَ في زمان، عصفتْ فيه التحدّيات النادرة في كلّ زاوية من زوايا العالم. وكان حظًا له، انّه حين وصل الى السلطة، انّ التحدّيات اغارت عليه من كلّ صوب، وازداد التفافُها حولَه، ساعيةً لتمتحن جوهره، ثم تعرّيه على حقيقته وتكشف عن معدنه. فهل تكشف بعد هذا الامتحان عن رجلٍ عظيمٍ شأنُه، كبيرٍ وزنُه، ام تكشف عن رجلٍ صغير، لا شأنَ له ولا وزن؟

وهنا سيحتدم الصيال، وسيشتدّ اللغط والنزاع، بين مَن يُحبّونه كلَّ الحبّ، ويقولون: لقد اظهرت التحدّيات فيه عن رجلٍ كبير، وبين مَن يكروهونه كلّ الكره، ويقولون: بل اظهرتْ فيه عن رجلٍ هيّنٍ صغير. وليس يَفُضُّ خِصامَ القولَيْن المتنازعين ويقضي بينهما بالحقّ، إلّا انْ يُنادى على ما اتى به حافظ الأسد نفسه من اعمالٍ، ثمّ يَنظر اليها من اراد ان ينضمَّ من الناس، إلى قول هؤلاء أو إلى قولِ اولئك. وصارَ لا بدَّ من أنْ نفتح الباب لتدخل منه الاسئلة الكبيرة، وهي تجرُّ خلفَها أجوبتها، من غير أن نتدخَّلَ في شأنها، ودون أن نرفدَها بإشارةٍ أو إيماءة. فهذه اسئلة قد ألِفنا انماطها وتعوّدنا على أشكالها في حالات سابقة، فهي من طبعها، انّها لا تحتاج الى أجوبة، ولا تكلّف شيئاً من المشقّة والعناء، فما إنْ تلامس السمع، حتى يحضرَ جوابُها في الحين نفسه. نقول: ماذا عملَ حافظ الأسد حتى الآن من اعمال، يقف بها كبيراً امام التحديات الكبيرة او يقف بها صغيراً؟ هل كانت البلاد محتلّةً فحرّرها، أم كانت مجزّأةً فوحّدها، أم كانت مغتصَبة الاستقلال فأعاد إليها

استقلالها ؟ وليس فينا من يُنكر انَّ بلادَنا تعاني من سيطرة التخلّف والتأخّر عليها ، فهل استطاع حافظ الأسد ان يحررّها من هذه السيطرة أو يقرّبها من التحرير ؟ وليس بيننا من يُنكر انَّ بلادنا تعاني من امراضٍ مُزمنةٍ ثقيلة ، فهل استأصل حافظ الأسد مرضاً واحداً من هذه الأمراض ؟ وما هو هذا المرض ؟ بل هل عنده الرغبة ، أو المقدرة على استئصال مرض العشائريّة الذي ينعم بالعزّ والمنعةِ في بعض أجزاء بلادنا ونواحيها ؟

واذا جاء دور الحديث على التقدّم ، فالتقدّم يظهر في انطلاق الفكر وترقيته أو في انطلاق الاقتصاد وتنميته ، فهل الفكر في بلادنا منطلقٌ ، مسموحٌ له أن يتجوّل بين الناس ؟ وهل الاقتصاد في نماءٍ وارتقاء ؟ وهل هو منطلقٌ انطلاقةً تُسَدُّ بها الحاجة ويُرفَع بها العَوَز ؟ وعن ايّ شيء اسفرتْ حرب تشرين ؟ وما هو رأيُ ابناء الشعب فيها ؟ وما هو اللون الذي تتميّز به سياسة حافظ الأسد ؟ وما هو وزن سياسته وقيمة أعماله كلّها ، من أجلِ قضيّة فلسطين ، وفي مقابلة وزن اسرائيل وقيمتها ؟ وبماذا يتميّز فكر حافظ الأسد في السياسة والاقتصاد والثقافة ؟ وماذا عنده من خُطط ونظريّات لحاضر البلاد ومستقبلها ؟ وهل خَلَقَ تطويراً في الزراعة او خَلَقَ تطويراً في الصناعة ؟ وهل ساعدتْ سياسته على الوصول الى مكتشَفات ومختَرَعات ؟ وليس هناك مِن مبالغة إذا قلنا . إنَّ البلاد مهدَّدة بالعَطش لقلّة المياه ، فهل استطاعتْ سياسة حافظ الأسد حتى الآن ان تخلق خُطّةً ، تدفع بها شبح العطش من اذهان الناس ؟

وإذا اردتُ انْ اكتفيَ بهذا القَدْر اليسير من الأسئلة ، فلأنّني اعلم انّه سيُحرّك في نفس كلّ فردٍ من شعبنا تساؤلات لا تنتهي ، ومعها اجوبتُها التي تُرضيه وتُقنعه ، والتي لا تنتهي ايضاً . وإذا كان من حقّي ، مثلَما من حقّ كلّ مواطن ، انْ اصرّح عن رايي وأنْ

اقول ما في نفسي ، فلن ازيد على ان اصِف بواعث قيام حافظ الأسد على راس البلاد واصِف اسبَاب انفراده بالسلطة ، وأعرِّف سياسته تعريفاً لائقاً بها لا يفارقها ولا تفارقه ، بقول ذاك الشاعر :

وَمَنْ رَعَى غَنَماً في ارْضٍ مَسْبَعَةٍ وَنَامَ عَنْهَا تَوَلّى رَعْيَهَا الأسَدُ

ولا يهمّني أنْ اسمع ما يقوله المبغضون لحافظ الأسد ، عندما يجعلونه صغيراً هيّناً امام التحدّيات ، ولا انْ أذكر لهم ذلك . ولكنْ يهمّني ، انْ اسمعِ ما يقول عنه المحبّون له ، وانْ اذكر بعضاً منه . فمِن اقوالهم مثلاً ، انّه استطاع ان يُقاوم العواصفَ العاتية هذه المدّة الطويلة من الزمن ، وأن يثبت في مهبّ الرياح ، فلم يَمِلْ إلى هنا ولم يَمِلْ الى هناك ، مثلما فعل غيرُه من الذين ثبتوا عقوداً من الزمن ، واقاموا حياتهم كلّها في السلطة . وإذا راحوا يعدّون ذلك فخراً له ومجداً ، ويحسبونه ألمعيّةً منه وعبقريةً ، فهل يريدون أن نسمّيَ لهم من الملوك والسلاطين القدامى والمحدَثين ، ومن الرؤساء ، ممّن اقاموا في السلطة أكثر ممّا اقام ، وابدَوْا من المهارة أكثر ممّا ابدى ، وصنعوا من الأعمال أحسنَ مما صنع . ومع ذلك ، فإنّ التاريخ سلّط عليهم غضبه ، ولم يكن بقاؤهم في السلطة مدّةً طويلة من المحامد التي ذُكرت لهم ، ولا من الصنائع التي نمّتْ على مواهبهم وعبقريّاتهم ؟ وهؤلاء الذين عمرُهم في السلطة أطولُ من عُمر حافظ الأسد فيها ، من ملوك الدول العربية ورؤسائها ، هل يحسبون طول بقائهم مفخرةً لهم ، ويعتبرونه معجزةً من معجزات الزمن ؟ ومن أقوالهم ، أنّه استطاع أن يضعِ حدًّا لأسطورة اخيه رفعت ، دون أن يُحدث ضجّةً ، وأن يجريَ قطرةً من دم . وليس لي هنا ، إلّا أن أضع يدي على وجهي حياءً من هذا القول ، ثمّ أن أُمسك عن التعرّض له بالحديث أو بالإشارة .

ومن أقوالهم ، أنّه حارب اسرائيل بالقوّة الرادعة ، وكسر

الحصار الذي صنعته من الخوف واليأس وضربته على النفس العربية . ثمّ جابهها بالسياسة الشجاعة والرأي الجريء ، وسدّ عليها أبواب اللعب ومنافذ الخروج والولوج ، ممّا جعل الشرقَ والغربَ معاً في دهشةٍ لذكائه وتحيّرٍ من إقداماته وتحرّكاته . وليس لي إلّا أن أعترف بأنّهم صَدَقوا كلَّ الصدق في هذا القول ، فهذه النفس العربية ، لم يبقَ فيها أثَرٌ للخوفِ من اسرائيل . بل تبدّل خوفها أمناً وطمأنينة ، ولم يبقَ تأثيرٌ لليأس عليها ، بل انقلب يأسُها الى أمَل . والنفس العربية ، أصبحتْ مستعدّة أكثرَ من أيّ وقت مضى لنَبذ الأحقاد ومواجهة إسرائيل براية السلام واستقبالها في ربوع البلاد مهما كان السبب الذي ستأتي به ، وبأيّ لونٍ من الألوان ظهرت وجاءت . ولولا القوةُ الرادعة والسياسةُ الشجاعة اللتان اعتدّوا بهما ، ولولا أمثالهما في البلدان العربية الأخرى ، لَما صحَّ للنفس العربية ، أنْ ترتَعَ في نعمة الأمن والأمل هذا الرتوع الذي انتظرَتْه من زمن بعيد .

وأيُّ انتصار تريد اسرائيل ، من أن ترى النفسَ العربيةَ مملوءةً بالرضا والقناعة عن إبرام السلام والصلح معها واستقبالها على أرضها وفي ديارها ؟ وأيُّ وَهْم يلعب في عقول القوّام على السلطة في البلدان العربية ، عندما يفكّرون بأنّ اسرائيل ، تسعى الى أن تتودّد إليهم ، ويهمّها أنْ تفتح معهم عهداً جديداً مَشيَّداً على السلم والتصالح ونَبْذ الأحقاد ؟! وما أشدَّ جموحَ الخيال عندهم اذا هم راحوا يتخيّلون ، أنّ اسرائيل ستجزيهم على تقرّبهم منها ونزولهم عند قبول صفقة السلام معها ، بمنحهم عُمراً أطولَ في السلطة أو مدّهم بالتأييد والتخليد أو بإعطائهم شهادةَ حسن سلوك ؟! إنَّ هؤلاء القوّام على السلطة ليسوا في تعريف اسرائيل أكثرَ من ثقوب ترمي من خلالها على أهدافها في النفس العربية وفي الأرض العربية ،

وهي كلّما استهلكتْ ثقباً ، ورات انّه لم يعد له محلّ للاستعمال فإنها تسدّه أو تتخلّى عنه . ولكلّ قائم منهم عندها موعدُه المضروب الذي لن يتقدّم عنه ولن يتأخّر . فهل يا تُرى اقترب الموعد مع حافظ الأسد ؟

٢

إشارة الدخول

ولي فَرَسٌ للحِلم بالحِلم مُلجَمٌ ولي فَرَسٌ للجهل بالجهل مُسرَجُ
فمَن رام تقويمي فإنّي مقوَّمٌ ومَن رام تعويجي فإنّي مُعَوَّجُ

محمّد بن وهب الحميري

وحَسبكمُ هذا التفاوتُ بيننـا وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

حَيْصَ بَيْصَ

إشارة الدخول

هل بقي هنالك، من يجهل أنّني أستبق المحدّثين في أيّ مجلس أو مجمع يؤتى فيه على سيرة السلطة في بلادنا سورية، وذلك لأتحدّث عليها، وارميها بهبّاتٍ ساخنةٍ من رياح الانتقاد، ثم أعقبها بأخرى باردة. وأحياناً أوغِلُ في الانتقاد، حتى أكاد أخرج منه إلى شيءٍ آخر، وحتى أرى المجتمعين يلوذ بعضهم بالصمت والوجوم، وبعضهم الآخر يلوذ بالانهزام والفرار من المجلس، وهم يهمسون أو يصرخون، هل تريد أن تقطع أعناقنا وأرزاقنا؟ أرِحْنا ممّا تقول وعدْ بنا عن سماعه، فنحن لا طاقة لنا بهذا الحمل، ولا نريد أكثر من أن نعيش وأطفالنا وأهلنا في أمانٍ وراحةٍ من قولِ هذا وذاك. ولم أكن في أكثر الأحيان لأردَّ على هؤلاء بأكثر من ابتسامةِ رفقٍ وتواضع، وأنا أخاطبهم: لم أفجأ أسماعكم بما قلت إلّا لأريحكم وليس لأتعبكم، وإلّا لأنقلكم من الجمود والخمول إلى ثَوران في التفكير والتساؤل، يسمح لكم أن تزرعوا مكان اليأس في نفوسكم أملاً تنشرحون بموسمه ساعةَ الحصاد. وإذا هو تمنّع عليكم بقطف جناه الطيّب الشهيّ، فإنّه سيلين ويسلس لمن يأتي بعدكم من الخَلَف، ثم لِمَنْ بعدهم ومن بعدهم إلى أجيالٍ بعيدة.

وما من مرّة أسوق فيها الحديث عن السلطة عندنا، إلّا وأصدر

عن إيمانٍ واطمئنان بما أقوله وليس عن رعونةٍ وعبث. وأحاذر أن أخلط كلامي بأيةِ صبغةٍ من صباغاتِ الحقد، أو أضيف إليه أيَ لونٍ من ألوان الموجدة والضغينة. فأنا أسعى كلَّ السعي إلى أن أكون أكثر الناس بعداً عن المواجد والضغائن، في صنع الأحكام وفي تهيئةِ الأقوال، أو عندما أهمُّ بالتفريق بين الحق والباطل في الأشياء الملتبسة المختلطة. فمتى دخلت الأحقاد في النقد بطل أن يُسمَّى نقداً، بل أصبح تخميشاً وتجريحاً لا يُعْبَأُ به ولا يدخل في البال. وعندما يأخذ الهوى والانحراف سبيلَهما إلى وصف وتحليل، فلن يكون هناك وصول إلى غاية ولا وقوف على حقٍ أو حقيقة. بل سيكون الضلال هو الغاية والضياع هو البداية والنهاية.

وأنا لا أبرّىء نفسي، فربما غشيني شيء من الانفعال أثناء الحديث، فارتسمت عليه صورةُ القسوة، وخيل إلى من يسمعني أنَّني أجرح وأطعن. ولا لوم عليَّ في ذلك ولا تثريب، فالنقد في ذاته هو قسوة، ولكنّها قسوة العاقل التي هي خيرٌ من رحمةِ الجاهل. وربّما تكون قولة الحق تكفي وحدها عند الناس لتكون حجّةً على قائلها في الطعن والتجريح. وإذا كان المفكّرون لا يرضون بالانفعال في الحديث، فأنا أوافقهم عل ذلك، لكنّني لا اتّفق معهم، ولا أستطيع أن أكون إلى جانبهم، إذا هم أنكروا أن يكون في الحديث حرارةٌ، أو إذا انصبغ الحديث بلونٍ من الحماس الذي هو أقربُ إلى أن يكون فرحةَ الإيمان الثابت وضجّة الحق المكين.

ولست أحتاج إلى أن أقول هنا، أنني أخُصُّ رفعت الأسد بحصة غير يسيرة من الحديث، كلما وجدتني أُفيض في الكلام على السلطة عندنا. وكيف يستطيع محدّث أو محلّل أن يتجاوز ذكر هذا الرجل، وقد أمضى زمناً طويلاً في المسؤولية، وناء بأعباءٍ غير هيّنةٍ، وكان السببَ الأقوى في الحركة، والصورة الأظهر والأبرز

على ساحات الأحداث ؟ ولعلني أصدق ، إذا قلتُ أنّه ما مرّةٍ جعلت من رفعت حديثاً لي ، إلا وكنت أقصد إلى هذه المسؤولية المعلّقة في عنقه وإلى وزن أعماله وقيمتها وأثرها ، وليس إلى حَسَبه ونسبه ، وليس لأنّه أخٌ لفلان وابنٌ لفلانٍ من الناس ، أو لأنّه يُنسب إلى هذا المكان دون ذاك المكان ، أو لأنّه يذهب هذا المذهبَ في السياسة وينتمي إلى هذا المذهب في الديانة أو لأنه أبيض اللون . فتلك أمور لم تخطر لي على بال ، ولم تكن لي وجهةٌ إليها . وهي لا يحقُّ لها أن يكون لها صلةٌ في الحديث ، إلّا إذا كان لها صلةٌ في المسؤولية التي يتحمّلها رفعت ، أو أي شخص آخر يكون في مكان مثل مكانه .

ولشدّ ما أحرصُ أثناء الحديث على رفعت الأسد ، أن لا أرمي كلماتٍ عابرةً في الهواء لا معنى لها ، أو أنثر عبارات قاصرة لا تفي بتأدية المعنى المرغوب ، أو أطلع عن حديث رخيص ينتهي إلى مرمى رخيص ، كأنْ يكون في مطمع فاتني أو حاجةٍ عزَّ عليَّ نيلُها والوصول إليها . وهذه مزالق لا يقدر الباحث أو المحلّل أن يتجنّبها إلّا بامتطاء الأسلوب الحكيم في معالجة الموضوع واستنطاقِ الواقع ، ومواجهة الأحداث القائمة والأفعال الجارية بروْية صحيحة ، ومقارنةِ بعضها ببعض ، للوقوف على نفوس فاعليها وما يستتر فيها من دوافع ، وعلى الأسباب الخارجية الأخرى التي شاركت في صنع هذا الواقع وما يمرُّ فيه من أحداث . ولعلّي أستطيع أن أزعم أنّني في كل ما كتبته من بحوث ، لا يخلو أن تكون الصفة الغالبة عليه هذه الصفات ، وفي كلّ ما أقوله من أحاديث ينطبع بهذا الطابع الجميل الأصيل .

وإذا كنت عزمتُ عل أن أجعل من رفعت الأسد موضوعاً للحديث ، واطّلع على الواقع من خلال تحليله واطّلع عليه من خلال تحليل الواقع ، فذلك لا يعني أنني سأصنع له مدائح وسأزفّ إليه

إشادة وتبجيلاً ، وذلك لا يعني ايضاً أنني سأسوق الغبطة والأفراح إلى قلوب مبغضيه وشانئيه ، فأنا أعرف قلوب هؤلاء وما تنطوي عليه من سخائم وأضغان ، وما تزخر به من الأقوال ومن الميل إلى الأفعال . فهم لا يرضون منك إلا أن تفحش في القول لرفعت إذا أردت أن تقول فيه شيئاً ، وأن تفحش في العمل إذا اردت أن تعمل له شيئاً . وأنا ليس من طبعي أن اكون فاحشاً في القولِ لأيٍ كان ولا فاحشاً في العمل ، إلّا حينما أُكلّف نفسي نقلَ الواقع من عَمَلٍ أو حَدَث ، فإذا كان القبحُ والفحشُ في الواقع نفسه ، فمن هو الذي سيعدُ ذلك ذنباً عليّ ؟ ومن هو الذي سيأخذني به ؟ فكفى بالشيء نفسه دلالةً على ما فيه من قيمة ووزن ، قولاً كان أو عملاً .

وهل تريدون منّي أن أنكر وقيعةً من هذه الوقائع التي تطالعني في كل يوم ، من كلّ افقٍ وجانب ؟ فقد استمعت في مجلس ، اتّسع فيه الحديث وتشعّبَ حتى اشتمل على الدقيق والجليل من قضايا بلادنا ، إلى متحدث أطلقَ لسانَه في الغالي والرخيص من الحديث ، وقال ما يفهم وما لا يفهم ، في أثر الأفكار والعقائد الدينية على توجيه الأنفس وبثّ الحماس فيها ، وعلى رسم الأحداث في الواقع ، وما يجري أمامَ أعيننا من الوقائع الهامّة . وضرب أمثلةً من الأشخاص الذين تحرّكوا بوحي من عقائدهم فأثّروا تأثيراً خلّاقاً في الشعوب والمجتمعات . ثم عاد وضربَ أمثلةً من أولئك الذين تحرّكوا بوحي من عقائدهم أيضاً . لكنّهم خرّبوا الشعوبَ والمجتمعات ودمّروا الأخلاقَ والقيمَ فيها . وعدَّ رفعت الأسد واحداً منهم وقال : إنَّ هذا الرجلَ ، لا يتحرّك إلّا بوحي من عقيدته الفاسدة التي يكنّها في قلبه . ولقوّةِ ما فيها من الفساد ، لا يَرِدُ عليه إلّا الفساد ولا يصدر عنه إلّا الفساد .

وقد رأيت ألا أتركه يتمادى هذا التمادي، وأن أقرصه قرصاً وجيعاً بعض الشيء. ليس من منطلق الغيرة على رفعت والمحاماة عنه، ولكن لأنّ هذا المتحدث شمس في جريه وابتعد في قصده ورميه. فأخذت منه عنان الحديثِ وقلت: وأنت أيضاً تتكلم بوحي من عقيدتك وتُقاد بأخيلة من أفكارك. فهل تعتقد أنّ الإسلام هو عقيدة فاسدة أو عقيدة صالحة؟ قال: بل هو أصح العقائد وأصلحها، قلت له: وهل هناك من يصدّق بأن المسلمين اليوم والمسلمين بالأمس، يتحرّكون في حياتهم بوحي من هذه العقيدة ويسيرون على ضوءٍ منها؟ لو كان الأمر كذلك، لما فجعوا بما فجعوا به من الأماني والآمال، ولما وقعوا بما وقعوا فيه من الدواهي والنوازل. وهذا هو واقعهم أمامنا جميعاً نشهده ونعاينه، فهل بقي بيننا من لا يعلم، أنهم بوحي شهواتهم وأحقادهم المحقونة يجرون، وبأوامر من سادةٍ بُغضاء إلى النفس يتحرّكون؟ وهل أنتَ إلّا واحدٌ منهم؟ وليس رأيك أو فتواك هو الذي يخرج رفعت أو غير رفعت من الإسلام، ويحكم على عقيدته بأنها صحيحة أو فاسدة، وإنما عمله هو الذي يصفه ويعرّفه، ومواقفه هي التي تحكم عليه. وهل ترى حرجاً في أن نعقد الآن مقارنة بين رفعت وبين حكّام المسلمين، بل بينه وبين كثير من فقهاء السلطة وعلمائها الملتفّين حولها، لترى أنّه أفضلهم وأصلحهم وأنّه أصدقهم عقيدة وأكثرهم تمسُّكاً بالإسلام وغيرةً عليه؟ ولشدّ ما استساغ المستمعون هذا القول وقتئذٍ وهشوا له، وأثار عندهم الشهيّة للكلام على فساد الأوضاع عند المسلمين وسقوط حكّامهم وسلطاتهم في حلقوم الرذيلة وبؤرة الفساد!

ولا يذهبنّ الظنّ بأحدٍ، إذا وجد أنني أنتقد رفعت في بعض أعماله وأحمل عليه في بعض مواقفه، أنّ ذلك جاء متأخراً، أو أنني

لجأت إليه وأنا خارج البلاد، وبيني وبين رفعت مسافات شاسعة، حيث لا سبيلَ عليّ لصولته ورهبته. فليس الأمر كما يظنّ هذا وذاك من الظانين المتوهمين، ولستُ ممن يتمتّعون بشيء من الجبن ولا ممّن يتمتّعون بشيء من التهوّر. وليغفر لي الذين يحبون الغفران إذا وصفت نفسي بالشجاعة، وليصدّق الذين يحبّون الصدق قولي إذا قلت، إنني كنت أنتقده، وانا في بلادي سورية مواطنٌ متواضع وهو فيها الدولة كلّ الدولة، وأنتقده في جواره وبين أهله وأقربائه ورفاقه، بل كنت أنتقده في وجهه. ولعلّي بدأت الآن أعرض شيئاً جديداً، وأكشف عن فكرة لم تكن مستترةً، ولكنّها لم تكن معروفةً عند كل واحدٍ من الناس، وهي انني كنت على علاقة طيّبة مع رفعت، وكانت تربطني به وشيجةٌ محكمةٌ وصِلةٌ متينةٌ، سنأتي بالحديث عليها في محلّها من هذا الكتاب.

وإذا رحتُ أختلف في نقدي له اليوم عن نقدي له بالأمس، فلن يكون ذلك في الغرض الذي أرمي إليه وهو مواجهة الواقع وقولة الحق، وإنّما سيكون في توسيع مدى التحليل وتطوير أسلوبه، وفي إعطاء المقارنة حقّها من الوجود والظهور، واستيفاء الموازنة شروطها. وأعني أن أقول، إنّ فعل الفاعل، سواء كان الفاعل رفعت أو غيره، لا يؤخذ منفصلاً عن الشروط التي وقع فيها، ولا معزولاً عن الأسبابَ التي هيأت له، ولا عن أمثاله وأشباهه من الأفعال، فلا بدَّ لنا إذن، عند قراءة كلّ فعلٍ من قراءة كثير من الأفعال التي تحيط به، حتى يتكشّف لنا عن معناه ويبين لنا عن ماهيته. وسأسعى ما وجدتُ إلى السعي سبيلاً، أن يأتي تحليل اليوم أكثر إحكاماً وجدّةً، اجمع فيه بين تحليل الأحداث وسيرة الذات من جانب وبين التاريخ المستمرّ من جانب آخر. ثم سأسعى إلى أن أحرّك التاريخ في هذا التحليل تحريكاً تنبعث فيه روحه من الخزائن

المجهولة . ويتجلّى مرآةً صافيةً ، يشهد فيها الرائي قديمَه وحديثه وغدَه . ويحسّ معها أنّ هذا التحليل يُصيبه مثلما يُصيب رفعت ، وأنّ الكلام يجري عليه كما يجري على رفعت ، ثم يدرك بعد ذلك ، أنّ الأحداث لا تأتي من عبَث ، ولن تمضي إلى عبَث ، وأنّه لا بدّ أن يكون لها معنى مخصوص وغاية منشودة . وأقول بعبارةٍ أخرى ، أنّه ما من حدث يقع إلّا وهناك حكمةٌ غير مرئية تختبىء خلف وقوعه ، وسبب غير معلوم يدفعه إلى إن يكون . وعندما لا ينفذ الناظر البصير إلى الحكمة الكامنة في الحَدَث ويراها ، وعندما لا يخترق الحجبَ ليمسك بالسبب الذي لا يختلف مع غاية التاريخ ، والذي هو بوجه من الوجوه عينها ، فإنّ عملَه سيبقى خفيف الوزن هيّنَ القيمة ، لا يتعدّى أن يكون نَقلاً للحَدَثِ ، أو وضعه في حكاية مشوقة تمتّع السامعين وتسرّي عن خواطرهم .

ولستُ أرمي في قولي هذا ، إلى التقليل من أهمية الأحداث والوقائع التي هي المادّة الأولى للتاريخ ، بقدر ما أرمي إلى التمييز بين الراوي والحاكي وناقل الأخبار ، وبين الناقل والمفسّر أو المحلّل الذي يوزّع على الأشياء دورَها ، ويضعها في أماكنها ، ويجلو لنا قيمتَها ومعناها . وأمامنا فيضٌ من الأمثلة على ذلك ، نختار منها السيرة التي صنعها ابن هشام . فهو لم يَزِدْ على أن يكون ناقلاً وراويةً للأخبار التي تنتظم حياة الرسول الأعظم ، وفي هذه الأخبار ما هو صحيح موثوق ، وفيها ما هو مكذوبٌ مصنوع . وهو حين جمعها لم يتحرَّ الضبط والدقّة ، وإن زعم ذلك ، فأصبحنا نرى الخبرَ الذي يبالغ بمقام النبوّة فلا يكاد العقل يصدّقه ، إلى جانب الخبر الذي لا يليق بمقام النبوّة وصاحب الرسالة ، فيحار العقل كيف يصدّقه وكيف يقبله . ومع ذلك ، فالباحث لا يستطيع إلّا أن يقدّر لابن هشام عمله وأن يعطيه حقّه من التكريم . لكن عندما يأتي مفسّر

التاريخ ، وأعني به ذلك الذي نمّى إحساسَه وقوّاه حتى أصبحَ خبيراً في دراية الأمور والكشف عن العلل والأسباب ، فانّه سيهتدي بسهولةٍ إلى معرفة الخبر الصحيح من الخبر المنسوب أو المصنوع ، ويحلّل من الملامح الأولى والبشائر المتقدّمة على مولدِ الرسول الأعظم وبعثته ، ثم يبيّن كيف أنَّ المجتمع العربي قد تمَّ استعدادُه ، ليستقبل تغييراً جديداً ، وحياةً ثانيةً تختلف عن حياته الأولى التي هي آخذةٌ بالغروب ، والتي أصبحت منبوذةً ومرفوضةٍ منه ، وإن لم يكن قد توضّح ذلك في جهات هذا المجتمع ونواحيه كلّها ، فهو في أكثرها ماثلٌ واضح .

ولو شئتُ ان اسمّي من الذين اتقنوا صناعة التاريخ وجوّدوا في فنّه ، لسمّيتُ أبا جعفر محمّداً بن جرير الطبري وأبا علي أحمد بن محمد مسكويه وعبد الرحمن بن خلدون . ولكن غرضي اليوم هو مع الذين اساؤوا إلى صناعة التاريخ والسيرة وتعدّوا على هذا الفنّ الجميل . ولذلك أريد أن اتعجّل إلى إيرادِ مَثَلٍ آخر ، وأقف عنده وقفةً غير قصيرة ، وأعني به سيرة صلاحِ الدين ، وما انضمّت عليه من أحداث وأحاديث . فقد كتب عنه وأرّخَ له ، من الذين عاشوا معه وعاصروه ولازموه في أسفاره وإقامته ، من مثل ابن شدّاد وآخرين غيره . كما كتب عنه كلُ من رَاح يُعنى بالفاطميين وأخبارهم ، وبالحَمَلات الصليبية ووقائعها وما جرى فيها وبتحرير بيت المقدس وما ترتّب عليه من آثار . وكلُ هؤلاء الذين كتبوا عنه ، ممّن فصّل ووسّع وممّن اكتفى بذكر خبرٍ من اخباره ، غمروه بالثناء وأفاضوا عليه من المدح ما يَبهر العقول ، إلى أن جعلوه فارساً من فرسان تراثنا وبطلاً من أبطال تاريخنا العربي الإسلامي . ولا يزال الناس مأخوذين بذكره ، فهم يُردّدون اسمه صباحَ مساء ، لينقشوا خبره في ذاكرة الأجيال ، وليهيبوا بالطلّاب والأبناء أن يلتمسوا منه قيماً

وعبراً وان يتّخذوه لهم مثلاً أعلى في الحياة.

وإنّه من المحال ان تعثر له على خطيئة فيما كتبوه عنه، وان تقع له على هفوةٍ ارتكبها ولو غفلةً فيما أرّخوه عن سيرته. فكأنّه ولد عظيماً وعاش عظيماً ومات عظيماً. وهو لم يقارف إثماً ولم يرتكب ذنباً. وذلك يعني انّه عندهم معصوم وإن لم يصرّحوا بعصمته وإن لم يقولوا بها. وإذا قلت لهم، نقرأ في سيرته، انّه قضى على الخلافة الفاطمية شرّ قضاء، ونكّل بهم وبأتباعهم اسوأ تنكيل، ولاحقهم في السهل والجبل والخضراء واليابسة والبرّ والبحر. قالوا لك: هكذا كان عليه أن يفعل، وهكذا يستحقّون! فقد كانوا قوماً أشراراً، نشروا الفسادَ في انحاء البلاد وتحكّموا برقاب العباد، وقتلوا وشرّدوا، ويُغدِقون عليك من لهو الحديث حتى ليضعوا في ذهنك، انّه لم يكن للفاطميين من أثرٍ حسنٍ، جدير بالذكر على مسافة حكمهم الطويل. وإذا أخبرتهم، بأنّه لاحَق العلماء والكتّاب والمفكّرين الذين لم يشتركوا في الحكم ولا في نشر الفساد المزعوم، قالوا لك: إنّهم كانوا علماء محتالين، يخدعون الناس ويزرعون الإفك والشكّ في أذهان البسطاء، ويقامرون بالشريعة الإسلامية. وإذا اعترضت عليهم وقلت لهم: وهذه كتبهم تشهد بغير ذلك، ففيها الشريعة والحقيقة، وفيها الإسلام والإيمان! قالوا لك: انت متأثرٌ بهم، مخدوع بحيلهم. وإذا تَلَوْتَ عليهم ما صنع صلاح الدين في قلعة الموت، حينما لجأ إليها الأطفال والنساء والعجائز. ومعهم ثلّةٌ من الرجال، واشعل النار من فوقهم ومن تحتهم، وصلاهم بحرّها، وشواهم كما تشوى العصافير، ثم نثرهم للحيوانات الضارية المفترسة ومنها جنوده. قالوا لك: هذا هو مَصيرٌ كُتِبَ عليهم، والله أشقاهم ورمى بهم صلاح الدين العظيم، حتى يكسر شوكتهم ويُبيد جموعَهم. وهم من الباطنية الذين

يكرهون الإسلام، ويكيدون للمسلمين. ولا نصيب لهم غير ذلك، ولا يستحقون غير ما لاقوه. وإذا قلتَ لهم: حرق تلالاً من الأوراق والوثائق، وجبالاً من الكتب والنفائس والذخائر العلمية التي كانت في الفلك والرياضيات والصيدلة والطبّ والهندسة والآداب والشعر واللغة والفقه والتاريخ، قالوا لك: كانت كلُّها خيوطاً من حبال الشيطان، والله اراح عباده منها. وكلّما أتيت على عملٍ من أعمال صلاح الدين، تريد أنْ ترى فيه خطيئةً له، أو تحسبه غفلةً من غفلاته، دون أن تتقصَّد قدحَه والنيلَ منه، قلبوه له حسنةً وعدّوه فضيلة، أو وجدوا عذره، ورفضوا أن يعتبروه إلّا حقاً.

بهذه اللغة كتبوا عنه، وأرّخوا لسيرته، وبهذا المنطق كانوا يدافعون عنه في حياته وبعد موته إلى يومنا هذا. وإنّه لمن المحال أنْ تقع على فقيهٍ واحدٍ من الفقهاء الذين عايشوه، استنكر عليه فعلةً واحدةً من هذه الفعلات، أو ترى عالماً من العلماء هَمَس في أذنه، يذكّره بأنَّ القتلَ في الإسلام له شروطه وأسبابه المعروفة، وأنّه لا يحقُّ له أن يقتل دون النظرِ إلى هذه الشروط والأسباب. ثم إنَّه من المحال أن ترى الفقهاء ورجال الفتوى، منذ زمانه وحتى زماننا هذا، يحسبون انّه قارفَ إثماً أو مارس خطيئةً، من مثل التنكيل بأهل العلم ورجال الفكر وتخريب بيوت الثقافة المشهود لها، ومن مثل المجازر والمذابح التي قام بها هو وجنوده في الأرض بغير حقٍ وبدون عدل.

ولا تحسبنَّ أنَّ وراء كلامي هذا شَهِيَّة، لأنْ أعرِضَ بصلاح الدين، ولأن ارميَه بالقوارص والغمزات. فتلكَ عادة أمقتها، وأعلم أنَّها لا تخفي باطلاً ولا تظهر حقّاً، ولكن لديَّ شهية، كما أشرت قبل قليل، إلى أنْ اسحبَ من زوايانا المملوءة بالعبر العجيبة أمثلةً لمن كتبوا في تاريخ السيرة، فأفرطوا في المديح حيث ينبغي أن

يكون المديح معتدلاً، وأفرطوا في الذمّ، حيث يجب أن يكون الذمّ مقبولاً ومعقولاً. ولست أدعو إلى تشويه صلاح الدين ونبذه ولا إلى الامتناع عن تكريمه، وإنما أدعو إلى نقد أعماله وإعادة النظر في سيرته، فما أشدَّ ما أساء وأفرطَ في الإساءة عندما أنهى الفاطميين بهذه الأساليب التي لا يُقرّها دينٌ ولا يقول بها عرف. فقد قتل أفظع تقتيل وَمَثَّل أفظع تمثيل، وَخَنَق الأطفال والنساء، واعتدى على الآمنين، وحرق البيوت على مَن فيها، وأبادَ تراثاً علمياً وثقافياً، لو لم يُبده لأغنى الحضارة العربية الإسلامية ورفع من شأنها أكثر ممّا خفض منها الجناة الحاقدون. ومن بين الأقوال الكثيرة، أكتفي بانتزاع هذا القول من خطط المقريزي. ومع أنّه صورةٌ هيّنةٌ خفيفة من صور الجناية، لكنها صورةٌ تعبّر عن فظاعة الحقد، وفيها اعتبار للذين يطلبون العبرة والاعتبار: «نُزِعَ من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة ختمة مكتوب عليها بماء الذهب والفضة، أخذها الأتراك لهم من الأرزاق، واتّخذ العبيد والإماء من جلود الكتب الجليلة نعالاً وأحذية، بعد أن أحرقوا أوراقها، وأغرقوا وأتلفوا عدداً كبيراً، وما بقي أتت عليه الرياح وغمر بالتراب فصار تلالاً». وسيقول الحماة المدافعون، هؤلاء هم الجنود الجهلة السفلة الذين فعلوا هذه الأفعال. أقول: نعم! ولكنهم جنود صلاح الدين.

ونقرأ لهؤلاء الذين أرّخوا للفاطمين من أصدقائهم وأعدائهم، فلا نراهُم يُنكرون عليهم مشاركتهم في الأعمال الجليلة، من بسط الأمن والرخاء، وبناء معاهد الثقافة ودور العلم وتشجيع العلماء على العطاء والتأليف والتصدّي للأفرنج. ولا يخفون ما كان لهم من الأعمال القبيحة والتصرّفات الحمقاء، وانتشار الفساد في بعض الجهات والأماكن، ووقوع خيانات تُزري بشأنهم في حربهم ضد الإفرنج. وليت الذين تعصّبوا لصلاح الدين تعصّباً أحمقَ عندما

أرّخوا له ، صنعوا مثلما صنع الأمير الفارس أسامة بن منقذ ، وهو الذي عاش الهزّات والزلازل في أيّام الحافظ لدين الله الفاطمي ، وعاين عن كَثَبٍ مغيبَ هذه الخلافة وفواجعَها الدامية . وكان الذي كتبه هو عين ما رآه وعاش فيه وعاني منه ، فجاء كتابه (الاعتبار) لساناً معبّراً عن عصره وشاهداً حيًا على أحداثِ زمانه . وإن كان البصير يقع فيه على بعض المزالقِ ، فلا يستطيع إلّا أن يُجلّ الكتاب أيَّ إجلال ويقدّر صاحبَه أيَّ تقدير .

ولستُ اريد أن أبكي أطلال الفاطميين أو أندبَ ذكرياتِهم وانقاضَهم ، ولستُ داعية لما أَتَوْا به من انحراف وجهالات في عهودهم الأخيرة وما ارتكبوه من حماقات ، ولقد كان عليهم ، إمّا أن يستقيموا في حكوماتهم وأحكامهم ويقوّموا ما انتهوا إليه من اعوجاج ، وإمّا أن يزولوا ويُستَبْدَلوا بمن هم خير وأقوم . أمّا التراث والمعاهد والعلم والعلماء ، فهذه حقوق الشعب وممتلكات الأمّة ، كان ينبغي أن تُصَانَ من لَعِبِ الأحقَادِ بها ، ومن وُصول السنةِ النيران إليها ، وكان من حقّها أن تصير إلى النفوس والصدور وليس إلى الرماد والهباء .

ولو لم يكن لصلاح الدين من منكر أتاه أو حماقة ارتكبها ، إلّا إعدامه الفيلسوف العظيم ، شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي ، لكفاه ذلك عاراً وشناراً ، وكفى أن يُحسَب به في عداد الحمقى المجرمين . فقد كان السهروردي الذي عُرف بعد هذه الفجيعة باسم المقتول ، أمةً في رجلٍ ذكاءً وتجديداً وعلماً وفراسةً وأخلاقاً . وهذه آثارُه ومؤلفاته لا تزال محطَّ أنظار العلماء والمفكّرين ، عند الأقارب والأباعد في الشرق والغرب ، ومحلَّ إعجاب أولئك الذين ينشدون المعرفة العقلية والفتوحات الروحية في آنٍ واحد . وما دبّجته يداه من الفكر الرائع وما جادت به قريحته من

الأعمال الخلّابة، كان وهو لم يأت على آخر الثالثة والثلاثين من عمره، ولاقى مصرعه ولمّا يزل في السادسة والثلاثين. ولم يكن له من ذنب إلّا أنَّ تفكيره سبق زمانه، وكان عنده ذهن وقّاد، وله نظرات بعيدة، طوى بها علماءَ عصره تحت إبطه وبزَّ المفكّرين. وازرى على الفقهاء قِصَرَ نظرهم واهتمامَهم فيما لا يقدّم ولا يؤخّر في تمدّد الروح وتوسيع افق التفكير. فما كان من هؤلاء الفقهاء إلّا ان اشتعلوا غيظاً منه وحقداً عليه، واتّفقوا أن يكيدوا له شرَّ كيد عند الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي كانت حلب آنذاك تحت ملكه وسلطانه. ولمّا تباطأ عن الاستجابة لهم، خفّوا بكيدهم إلى أبيه واستعانوا به، فكان لهم منه ما يريدون، وظفروا عنده بنجاح مكيدتهم. «فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب، كتاباً في حقّه، بخطّ القاضي الفاضل، وهو يقول فيه: إنَّ هذا الشهاب السهروردي، لا بدَّ من قتله، ولا سبيل أن يطلق، ولا يبقى بوجهٍ من الوجوه». كما حدثنا كتاب ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء.

ولم يزل المسلمون يسترشدون بكتب هذ الفيلسوف العظيم، والإسلام يتوسّع في الغرب بفضل ما فيها من العلم والعبقرية. ولم يزل اعتراف المفكّر الفرنسي هنري كربان، يتردّد في كلّ مكان وهو، أنّه وجد في فلسفة السهروردي المقتول ومن كان على شاكلته من المتفوّقين في الفكر عند المسلمين، ما كان يفتقده في الفلسفة الألمانية والفلسفة الغربية بوجهٍ شاملٍ، من حلولٍ لمشكلات المعرفة وارتياحٍ في حضنِ التبصّر واليقين. وبقدر ما صار الفيلسوف السهروردي ملفت انظار الغربيين ومكان الإعجاب والتقدير عندهم، بقدر ما صار صلاح الدين في أعماله وسيرته باعثاً لنفورهم ومثيراً لنقمتهم، ومحرّكاً لشراستهم في وجه العرب

والمسلمين منذ ذلك الزمن إلى آخر الزمن. وإنّا وإن كنّا لا نريد أن يتشابه حكمنا مع حكم الغربيين على صلاح الدين ولا نظرتنا مع نظرتهم إليه، فلا نستطيع ان ننكر ما للعلم من الدور ومن الوجاهة، في رفع كيان الأمّة وتأثيل صَرْحِ عظمتها وحضارتها، أكثر ممّا للسلطان وللصولجان.

وإذا رحنا نسلّم بقول من قال في سبب قتله، بأنّه كان على اختلافٍ شديدٍ مع فقهاء زمانه الذين هم من حولِ الملك الظاهر، في مسائل ترتبط بالذات والأسماء والصفات، وأخرى بالإمكان والمحال والتأويل والتفسير، أو بغير ذلك من وجوه القول والاعتقاد. فهذا لا يرقى إلى أن يكون سبباً يسوقونه به إلى المصير الذي ساقوه إليه، ولا يجوز أن يقضوا عليه بالقتل الذي لاقاه منهم ظلماً وعدواناً. ولم يهتدِ الفقهاء إلى الحقّ والصواب في إصدار الفتوى التي اباحت قتله، بل اهتدوا إلى زور القول وتدبيج الاتّهام وتشويه الحقيقة. فإباحة القتل عندنا في الإسلام لها شروطها التي لا تخفى على السادة الأحرار من العلماء! إذا هي خفيت على السدنة العبيد منهم. وليس في الإسلام نصٌ يقضي بقتل الفرد على عقيدته مهما أسرفت هذه العقيدة في التشويه والانحراف، إلّا حين يتّخذ من عقيدته منطلقاً ينطلق منه ليجاهر الإسلام بالعداء الشديد، أو حين يصنع من عقيدته سبباً لنشر فتنة، أو التحريض على الإيقاع والاقتتال. وليس في روح الإسلام ولا في فكره ما يمنع عن معتقد عقيدته أو يحجز عليه حريته في الاعتقاد الذي يريد والتفكير الذي يختار. ولاأخاف أن أجزم جزماً لا ارتخاءَ فيه ولا تردّد، بأنّ البشر لن يعرفوا روحاً ولا فكراً، ينزل من السماء أو يخرج من الأرض، يستطيع أن يتفوّق على الإسلام في صيانته اختيار الاعتقاد، ويبلغ من المدى ما بلغه في إباحة الحرية للفكر والتفكير.

وربّما كان من الوضوح بمكان بحيث لا يخفى على باحث أو متتبّع، أنّ معاوية كان من الأوائل الذين اصطنعوا شرعة القتل على المبدأ والعقيدة والصقوها بالإسلام إلصاقاً، حتى صارت فيه سنّةً جارية. اقول ذلك، وأنا أستحضر في خاطري حكاية الصحابي العظيم ابي ذر الغفاري، فمعاوية كان من وراء تعذيبه، وكان سبباً لنكباته المتلاحقة: من ترحيله إلى الشام، ثم من الشام إلى المدينة، ثم تهييج غضب الخليفة الراشد عثمان عليه، حتى رماه بالإبعاد والنفي الى الربذة. ولم يكن لذلك من سبب إلّا أنّ ابا ذرٍّ أنكرَ على ولاة الأمر أن يتفكّهوا بالثراء الفاحش، وأن يبعثروا حقوق المسلمين وأموالَهم في قضاء الشهوات والتمتّع بالرغبات واللذّات الفارغة. فردَّ عليه معاوية واعتبره شاذًا في الاعتقاد، منحرفاً عن الوجه الصائب لنصوص الإسلام وروحه، ومحرّضاً على الخليفة وداعياً إلى الفتنة. وكتب بشأنه إلى الخليفة يقول: إذا طال بقاء هذا عندنا فإنّه سيُفسد بيننا وبين الناس. وما اكتفيت بذكر هذه الفعلة، وامسكت عن الخوض بغيرها من الفِعلاتِ الكثيرة التي فعلها معاوية، من مثل: تقتيل الصحابة، والإيقاع بين جماع المسلمين، ومن مثل مباشرة أتباع امير المؤمنين بأنواع الكيد والمضايقة والتعذيب بعد أن استوى على ولاية الأمور، إلّا لأنني لا أريد أن أبعث الأشباح السوداء من جديد، ولا أن انبش الأخيلةَ الصفراءَ المدفونةَ في مقابر الحزازات والأحقاد.

والآن، أحِسُّ بانني بدأتُ أمسُّ حركة التاريخ مَسًّا رفيقاً، لأفهم معناها او لأوضحه قبل أن افهمه. وفي هذه الجملة من الغرابة ما فيها. فكيف سيُوضح الإنسان معنًى أو مفهوماً، إذا لم يكن واضحاً له؟ أو كيف سيُبيّن أمراً إذا لم يكن قد وقف هو على تبيانه؟ وأرى أنّ الجواب يأتي بهذه البساطة التي اتى بها السؤال،

وهو انني سأشرح ، كيف أنَّ رفعت الأسد ، كان في رحم الأيام قبل أن يصير في رحم امّه . وانَّه تكوّن في بَطْنِ الأيام وخرج منها كائناً تاريخياً قبل ان يتكوّن في بطن امّه ويخرج منها كائناً بشريًا . وسأحاول قدرَ المستطاع ان أترك للمطالع المتأمّل فرصةَ اقتناص النتيجة بالطريقة التي تعجبه . وسأخلي بينه وبين ما أطلع به من اقوال وافكار واحوال ، وأعطيه الحريّة كلَّها ليفهم ما يشاء ، وليقتنع بما يشاء . ولست اشك ، انَّه سيكون من بين المطالعين المتأملين من سيُقصّر عنّي في الفهم ، ومنهم من سيكون معي في الدرجة والمستوى الذي انا فيه ، ومنهم من سيتفوّق عليَّ في الفهم ، فيرى من الأمور ابعد ممّا أرى ، ويعلم منها أكثر ممّا أعلم . وهذا الصنف من الناس ، هم الذين سيدركون المعاني بطريقة أفضل ممّا أدركها ، وهم الذين سينالون نصيباً من فَهمِها اقوى واشدّ ممّا انال . وأكون بذلك قد حملت مسؤولية السبق في الإشارة والتنبيه والإثارة ، ويكونون بذلك قد حملوا مسؤولية السبق والتقدّم في الفهم والإدراك .

ونريد أن لا نتعجّل الآن في الحديث على حركة التاريخ ، فهي ستأتي في محلّها الذي ينتظرها من هذا الكتاب ، ونستأنف ما كنّا به من الحديث على الحرية في الإسلام . فليس هنالك أكثر ولا أصرح من النصوص التي يحفل بها الإسلام ، والتي تواجه الإنسان وتعطيه حقَّ الاختيار في العقيدة التي يشاء وحقَّ القناعة في الفكرة التي يريد . وهل هنالك أشدُّ ظلماً للإنسان من أن يُجْبَر على اتخاذ عقيدة ، ثم يُلام عليها ، ويعاقَب لأنّها باطلة فاسدة ، ولأنها لم تكن العقيدة القائدة له في الدنيا والمسؤول عنها في الآخرة ؟ ونحن لا نحتاج إلى التعمّق في التفكير ، أنَّ الإسلام عندما منح الإنسان حريّة الاختيار في العقيدة والأفكار ، فلكي لا يجعل منه آلة بريئةً من الإرادة خالية من المعنى ، لا دور لها إلّا أن تسمع وتطيع ما يُملى

عليها ، وأن تكون مسخّرة مصرّفة بيد الزمان والمكان والأحداث . وكذلك لا نحتاج إلى كثير من الحوار حتى نقف على أنّ الإسلام لا يحمّل الإنسان مسؤولية قوله وعمله ، إلّا بعد أن يكون قد أعطاه حقّ الاختيار في القول وفي العمل . والحياة بدون مسؤولية عبثٌ وضياع ، وهي بدون اختيار حيف وظلم وحماقة .

ونرى أن هذا الكلام ، سيوقظ في الأذهان أسئلة كثيرة ، وسيأتي من يرفع صوت الاحتجاج ويقول لنا : لقد نظرنا في تاريخ العرب والمسلمين ، فما رأينا إلّا القمع والمضايقة من أجل العقيدة . وما قرأنا إلّا الأخبارَ التي تقصُّ علينا خنقَ الحرّيات على أيدي رجال السلطة ، وملاحقة من خالف عقيدتهم بالقتل والأذى ، أو من احَبَّ أن ينفرد بالعقيدة التي يرضاها ، وإن هي لم يكن فيها خَطَرٌ على عروشهم وسلطانهم . وليس أكثر من الأمثلة التي لم يعد الأمّي في شعبنا يجهلها ، فهؤلاء المعتزلة كان لهم من العزّ والصولة ما كان ، لم يقصّروا في التشنيع على من خالف عقيدتهم وفي اضطهاده ، ولم يسمحوا لرأي يعلو رأيهم ولا لفكرة أن تقوم إلّا تحت جناح فكرتهم . وتلك المحنة التي نزلت بالإمام أحمد بن حنبل ، ليس هناك أشهر منها في شدّةِ وطأتها . وفي آلامها القاسية ، من السجن والعذاب والإهانة والحرمان ، وكلُّها لم تكن ، إلّا لِأنّه رفض أن يعتقد بأن القرآن مخلوق . وعندما دارت الأيام ، وجاء المتوكّل ، أذاق المعتزلة من التنكيل أشرَّه ومن العذاب أمرَّه ولاحقهم في كل مكان ، وتتبع إثرهم في الحاضرة والبادية ، حتى لم يبق لهم أثر . وربما لا يُخطىء من يقول ، إنّ تاريخنا هو سفينة سوداء تجري في بحرٍ من الدماء التي سالت من نحر العقائد ومن قتل أصحابها . وليس من شكّ في أنّ حَبْسَ الفكر ومَنْعَه عن العمل وحجزَ الاختيار وخنقَ الحريّات ، هي الأسباب البادية والخافية في انزلاق هذه الأمّة

ووقوعها في مستنقع من الأوجاع والأمراض، وهي من وراء تفرقها وتناثرها في جهات شتّى، لا تعرف حتى الآن كيف تجتمع ولا أين تلتقي.

وإن كنّا لا نطعن في مقالة من يقول، إنّ تاريخنا العربي الإسلامي مضرّجٌ بدماء الحرّيات المنحورة، فإننا لا نستطيع إلّا أن نردّ تُهمَته عندما يتّهم القيادة الإسلامية الأولى التي هي نصوص القرآن المجيد ونصوص الحديث المُثبَت الموثّق، ويجعلها سبباً ومحرّضاً يلطو خلف مصادرة الحرّيات وقتلها والاعتداء على من يطلبونها ويسألون عنها. وها هي هذه النصوص كلُّها أمامنا صادحةٌ واضحةٌ بمعناها ومدلولها، لا تحتاج إلى من يفسّرها ولا إلى من يَتعب في تأويلها، وهي تقول: كما أنَّ الإنسان يُولد حرًّا وليس عبداً، فهو حرٌّ في اختيار العقيدة، وفي اختيار القول وفي اختيار العمل، وهو وحده المسؤول عن اختياراته كلّها في حياته الدنيا.

وما ذنب هذه النصوص، إذا هي سرقها السارقون وتأوّلها المتأوّلون من رجال السلطة؟ هؤلاء الذين صنعوا ماصنعوا، ممّا ليس خافياً على أحد، من تزوير مفردات في النصوص ومن تسخير كلمات فيها، لم يصنعوا ذلك من أجل إحياء عقيدة دينيّة لأنها صحيحة صالحة، ولا من أجل إماتة عقيدة دينية فكرية أخرى لأنّها باطلة فاسدة. بل من أجل التفرُّد بالسلطة والاستقلال بأزمّة الأمور وتصريفها على ما تقضي به المصالح والرغبات، وما تشتاقه النزوات والشهوات. وفي بداية تاريخنا نرى أنَّ الذين تعاقبوا على السلطات من الأمويّين، لم يكتموا السرَّ عن الهاشميّين العلويّين، بل واجهوهم وجهروا لهم بالقول: إنّكم في مأمن عن الملاحقة والتقتيل، ما دمتم أنتم بمنأى عن التفكير في الحكم والسلطة.

وصارحوهم، بأنهم لن يكفّوا عنهم، إلّا إذا تنازلوا عن ولاية الأمر وكفّوا عن المطالبة بها. ولهم أن يقولوا بعد ذلك ما يشاؤون، وأن يعتقدوا بما يريدون ولا حارس عليهم ولا رقيب. وكلّما خلف من بعدهم خَلَفٌ تزيّدوا في تأويل النصوص وأفرطوا في تفكيكها والتلاعُبِ بها، حتى أصبحت النصوص لها دينها المعزول، وليس هناك من يحمله ويعتقد به. وأصبحت السلطات، لها دينها القائم على كلّ نفس والساري في كلّ بيت، وليس هناك من يستطيع أن يشذَّ عنه أو أن يعبث به. وما كان أشدَّ مهارةَ أصحاب السلطة في اصطناع الأساليب التي تجعل من الإسلام مطيّةً ذلولاً لركوبهم، وتُظهر لهم في أعين الناس على طول التاريخ، وجهاً مصبوغاً بالعدل والاستقامة، وتخلق لهم في الأذهان قناعة للدفاع عن دولتهم والخضوع لإرادتهم.

وأعتقد أنّنا في أمانٍ من الخطأ إذا قلنا، أنّه ما من سلطة في تاريخنا العربي الإسلامي صنعت سيرتها بوحيٍ من العقيدة الإسلامية، ولا هي استلهمت الفكر الإسلامي في تصرُّفها وتحرّكها. وهذه الأخبار والسير كلّها أمامنا منقولةٌ مدوّنة، نطالعها فلا نرى فيها إلّا السلطات التي يتنافس أوّلها مع آخرها، في استيحاء حبّ السيطرة وبسطِ النفوذ والتملّك وتشديد القبضة، أكثر من استيحاء روح الإسلام وفكره، وتعتمد العناصر التي تُؤْمَرُ فتطيع، أكثر من العناصر التي تُحبّ أن تفكر، وتحب أن تفهم، ثمّ تتّخذ بعد ذلك موقفَها، فإمّا أن تطيع وإمّا أن تعصى.

وإذا نحن كُنّا من الذين يؤْثرون، أن يسلك الفرد بوحي من العقيدة التي يختارها، وليس بوحي من العقيدة التي تفرضها عليه السلطة فلكي يعيش مع الفرد الآخر بوضوح، وتقوم بينهما علاقة من الوئام والاطمئنان، وتكون الثقة هي مبدأ تعاونهما وأساسه.

ومتى أكرِهَ الفرد على اعتناق عقيدة لا يختارها ولا يرضاها، إنه في السياسة أو في الدين أو في اي لونٍ من الوانِ الحياة، فأول شيءٍ يزداد تعلّقه فيه وميله إليه هو العقيدة الممنوعة عنه، والمحظور عليه أن يمارسَها، والتي هي مورد ارتياحه ومصدر توازن شخصيته. وسيصير في هذه الحال مدفوعاً إلى إسدال ستار على عقيدته مهما كانَ روحها وشكلها، ثم يظهر ما يُعجب الآخرين ليرضيهم، وهم منه غير راضين، وهو ساخطٌ عليهم وموتورٌ منهم. والعقيدة تصبح مع الزمن قطعة من شخصية الفرد، أو الصفة الأم الجامعة للصفات الأخرى عنده، ليس من السهل عليه أن يتجاوزها أو أن يغيّر منها. وانا اسمّيه عبقرياً ذلك الذي يتوصل إلى استحداث اداةٍ عقلية، أو يخترع وسيلةً نفسية تخلق القناعات عند الناس لرفض هذه العقيدة واستبدالها بتلك العقيدة. وأسمّيه بطّاشاً غشوماً، ذلك الذي يجعل من الاستبداد والتنكيل اداةً لتغيير العقيدة في الأذهان ووضع اخرى مكانها.

ومما لا يجوز لنا أن نغفل الإشارة إليه، هو أنَّ تَفَتُّحَ القيم الخالقة ونموُّها لا فكاك له عن الحرية، ولا تستطيع القيم أن تولد وتعيش إلّا في ظلّ الحريّة وتحت إشرافها. فكيف يقدر العقل الأسير الذي هو منبع القيم وصانعُها أن يتحرّك ليؤدي دورَه؟ إنَّ الإنسان الذي سُلِبَتْ منه حرّيتُه هو ضائعٌ عن حقيقته، بل يؤذيه أن يتعرّف على حقيقته، ويطّلع عليها أو على عقيدته، ولا فرق بين هذيه، فحقيقة الإنسان هي عقيدته. ومن الظلم والتعسُّفِ أن نحاسبَ الفردَ على فقره من القيم، حين لا يمتلك شيئاً من الحريّة، وحين تُفْرَضَ عليه عقيدة ليست عقيدته ولا هي قمينة بأن تأخذ محلَّ عقيدته. ولا ينبغي عندما نقول كلمة عقيدة، أن نذهب إلى معنى الديانة أو نتذكّر مذهباً من المذاهب الدينية، فكلّ رأي يصنعه الإنسان في شأنٍ من

شؤون الحياة الدنيا والآخرة هو عقيدة خاصّة به .

ولا يعني حرمان الفرد من الحريّة أنّه يصبح خلواً من القيم ، فذلك أمرٌ لا يصحُ أن يكون ، ومفهومٌ أقرب إلى الخيار منه إلى شكلٍ من أشكالِ الواقع . ولا بدَّ لكلّ فردٍ مهما انخفضَ شأنه ، أن يكون عنده قيمة من القيم يعيش بها . لكن شتّان بين قيم الفرد وهو مالك لحريته وبين قيمه وهو فاقدٌ لها . فقيمه في حالته الأولى تنبع من ذاته وتعبّر عنها ، أو قل هي ذاته عينها . وقيمه في حالته الثانية تكون مجلوبةً إليه ، معارةً له من حاكم مستبدٍّ أو من سلطةٍ ظالمةٍ غاشمة ، بينها وبين ذاته أَمَدٌ بعيد ، لا هي تدخل في حياته فتُغنيها وتُخصبها ، ولا هو يُحبُّ أن يفارقها ، لأنّه يرى فيها وِقاءً وغطاءً على بقائه وأمن عيشه . وبقدر ما نعطي الفرد من حريّة العقيدة ، بقدر ما يولّد في ذاته قيماً ويتمسّك بها ، ويكون أثره بعيداً في حياته وفي حياة الآخرين . وبقدر ما نحجب عنه حريّةَ العقيدة بقدر ما يميل إلى الانقباض والانطواء على الذات حتى يصير في حالةٍ لا نعرفه فيها ولا يعرف هو نفسه من هو . وعندما نُلحُّ هذا الالحاح على منح حريّة الاعتقاد فلسنا نذهب إلى القول بالعبث والتحريض على الفوضى أو القول بأي نوعٍ من أنواع الحريّة الخالية من المعنى ومن المسؤولية ، فنحن لا نريد أن يكون الإنسان بمعزلٍ عن الإحساس بالمسؤولية ، أو الشعور بضرورة الإجابة عندما يُسأل عن مواقع لا بدَّ من السؤال فيها عن هذا القول وعن ذاك العمل .

ولا يوجد هناك مثل حريّة الاعتقاد ما يسمح للنفوس أن تنكشف على حقيقتها وتكشف ما عندها ، ولا يوجد مثلها أيضاً ما يعين على تلاقي الآراء والأقوال وخلقِ فُرَصٍ لقيام صراعٍ ومجابهة فيما بينها ، أو قل حوار ومغالبة ، يعود معها من حقّ القوي أن يغلب الضعيف ، والسمين أن يأكل الهزيل . ويشعر هذا الفرد أن الخطأ في

عقيدته أكثر من الصواب فيميل برغبةٍ واشتهاء إلى التقويم والتصحيح ، ويُحسّ ذاك الفردَ ، أن عقيدته وهم في وهمٍ وضلالٌ في ضلال ، وأنَّ عليه أن يستجير بصاحبه الآخر ويستمدّ منه عقيدته الصائبة المتينة . وتأخذ الأشياء بالتحوّل والتغيّر بسرعةٍ أو ببطء ، وبقوةٍ أو بضعف ، وذلك على قدر ما يكون الحوار بين هذه المعتقدات ساخناً أو بارداً . فلا نكاد نعرف إضاءة انتشرت بين النفوس إلّا في هذا الحوار ، فهو الذي يعجّل في خلقِ تحاكٍّ بين المعتقدات وتوليد شرارات ، تتوضّح فيها الرؤية ويرتسم على ضوئها المسير . وهكذا نستطيع أن نسمّي هذا الحوار وأن نعدّه سبباً كبيراً وعاملاً فعّالاً في توليد القناعات وخلق تحرّك وتموّج في العقول ، ممّا يدعو إلى الإسراع نحو التقدّم والسير في الطريق الصحيح إلى النماء والتطوّر .

ولو ذهبنا نستنطق التاريخ عن البواعث التي تبعث فيه الشوق إلى الحركة وعن الأسباب التي تخلق عنده الانتقال من سمت إلى سمت ومن طورٍ إلى طور ، لنطقَ وأفصَحَ بأنَّ الحوارَ بين المعتقدات هو من أهمّ البواعث وأظهر الأسباب التي تحدّد حركته وتعجّل بنقلته . فمن هذا الحوار تنشب الحروب والمعارك أحياناً ، وذلك عندما لا يتوصّل المتحاورون ولا يهتدون إلى عقد صلةٍ وخلقِ قناعة فيما بينهم . ونحن لا نجهل دور الحروب والمعارك في إخفاء أوجهٍ للحضارةِ وإبداءِ أوجهٍ أخرى لها . ومن هذا الحوار ، يولد سلام يعيد الشباب إلى الحضارة مرّةً أخرى ، ويجدّد في معناها وحيويّتها ونشاطها . وبوسيلة هذا الحوار تسافر المدنيّات والحضارات من بلدٍ إلى بلد ، ومن شعب إلى شعب . ولا يستطيع الناس على هذه الأرض أن يستمرّوا بدون هذا الحوار ، ولا هم قادرون عن الاستغناء عنه . وإن هم أشهروا السلاحَ ، بعضهم على بعضٍ ، وأوقعوا فتناً كبرى ،

وأحدثوا خراباً هائلاً وإبادة واسعة ، فذلك لكي ينتهوا إلى الحوار ، ويتعرّفوا من جديد على أوجهٍ جديدةٍ لحياةٍ جديدة .

ولن يُصيب أولئك الذين يحسبون أنَّ التاريخ هو ما مضى من الزمان وما وقع من الأحداث ، فالتاريخ هو الزمان كلُّه ، وهو الأحداث كلُّها في هذا الزمان . ولن يُصيب أولئك الذين يقطعون الزمان إلى أجزاء ويفصلون بين هذه الأجزاء ، فهم واهمون عندما يجعلون الماضي منه غير الحاضر ، ويجعلون الحاضرَ فيه غير المستقبل ، إلّا إذا قصدوا إلى السبق والتأجيل في وقوع الأحداث ، وإلى التقديم والتأخير في تسلسلها وترتيبها . فالأحداث يولد بعضُها من بعض ، كالأبناء يولدون من الآباء . وكما يكون أحياناً بين الابن وجدّه العاشر شَبَهٌ في السِمَاتِ والطباع أكثر ممّا يكون بينه وبين أبيه ، فكذلك يكون هناك شبه بين حَدَثٍ وقع هذا اليوم وبين آخر مثله وقع قبل ألف عام . ولهذا التشابه والتماثل في الأحداث ، قالوا إنَّ التاريخ يعيد نفسَه ، وهي مقولةٌ خاطئة ، لا نصيب لها من الصحّة . ولمّا كان الجدّ العاشر لا يعود في وليد اليوم إلّا بتشابه السمات والطباع ، فكذلك هو التاريخ ، لا تعود أحداثه نفسها إلّا بالتشابه والتماثل . وللتاريخ نَفْسٌ واحدة هي حركته وتطوّره ، وأمّا أنفاسُه فهي كثيرة غير محصيّة ولا معدودة ، وهي أحداثُه ووقائعه .

٣
لماذا رفعت الأسد ؟

ماذا لَقيتُ من الدنيا ؟ وأعجبُها   أنّي بما أنا باكٍ منه محسودُ

المتنبّي

قد قيلَ ما قيلَ إنْ صِدقاً وإنْ كذِباً   فما اعتذارُكَ مِن قولٍ إذا قيلا ؟

أحدهم

لماذا رفعت الأسد ؟

ولسائل أن يسأل ويقول: ولماذا اخترت رفعت الأسد موضوعاً لكتابتك وحديثاً من أحاديث فكرك ؟ ألم يكن لك فيما تحويه السماء والأرض، وما بينهما، وما فيهما من عجائب وأسرار وغرائب، وما في الإنسان، وما في التاريخ من حضارات، وما بين الناس من أحداثٍ وفِتَن، موضوعٌ آخر يجذب إليه تفكيرك ويحتلُّ اهتمامك غير هذا الرجل؟ وماذا ستقول فيه، وهو الذي لا تنفرجُ شفةٌ عن أختها في بلادنا إلّا بذكره والحديث عليه ؟.

وعليَّ هنا أن أتعجَّلَ إلى قطع كلام هذا السائل والشروع بالإجابة، فأقول: وهذا أيضاً سَبَبٌ من الأسباب التي حملتني على الكتابة عن رفعت الأسد. فإذا كانت الأفواه تتناقل ذكره والألسُن تلوك حديثه وأخباره، منذ ما يقرب من ربع قرن، فلماذا لا أكتب عنه؟ وها هي سيرته في كلّ مكانٍ من بلادنا، فهي على المائدة حديث الآكلين، وهي مطرحُ التعجّب والتساؤل في السهرة بين السامرين، وهي لغزٌ يتسابق إلى حلّه أهل السياسة من الداخلين والخارجين. فماذا لا أسعى مثل واحدٍ من هؤلاء إلى كلمةٍ أقولها في هذا الرجل؟ ولماذا لا يكون لي نصيبٌ من المشاركة في إيجادِ حلٍ لهذا اللغز، أو تحليل لهذه الظاهرة الغريبة أو المألوفة ؟

وسأسعى إلى أن يكون بين وبين هؤلاء السائرين بذكر رفعت الأسد والمتحدثين بسيرته تباينٌ واختلاف. فعندما يقولون ما لا يكتبون ويكتبون ما لا يقولون، فأنا ما أقوله هو هذا عينه الذي سأكتبه. وعندما يتحدثون ولا مسؤولية هناك في أحاديثهم ولا تفكير، فأنا لن أتحدّث إلّا عن مسؤولية وبعد تفكير. وإذا هم شغلوا بتأليف الروايات وتسيير الأخبار، فأنا سأشغل بتحليل هذه الروايات

والأخبار وتركيبها ، ثم بمقارنتها مع أخواتها ومثيلاتها ، ووضعها إلى جانب أشباهها ونظائرها ، ثم بالنفوذ بعد ذلك إلى فهم حركة التاريخ ورصد نقلته وتطوّره . وإذا هم وجدوا في رفعت ظاهرة شاذّة غريبة ، لأسباب تسرُّ قلوبهم وترضي خواطرهم ، فأنا لا أجد فيه إلّا ظاهرة طبيعية مألوفة ، لأسباب سأكشف عنها ، غير عابىء بما يَسرُّ قلوبهم وبما يسوءها ، ولا بما يرضي خواطرهم وبما يُغضبها .

وإذا كان في سيرة رفعت ما يبعث على الحديث والكتابة ، وما يقود إلى التصوير والتأليف ، فإنَّ في أخلاقِ هؤلاء الذين يعنون بتوسيع سيرته وبسطها ، وفي أنماط سلوكهم وطرائق تصويرهم وتأليفهم ، ما يحثُّ على الكتابة حثًّا وما يسوق الى الحديث سوقاً . فلا غرابة إذا هم أصبحوا سبباً وجيهاً ملحًّا من هذه الأسباب التي هيَّجت عندي الشوق لصنع هذا الكتاب وتأليفه . أقول ذلك وأنا أعني أنَّ هؤلاء دخلوا في سيرة رفعت موادَّ أولى من مواد تركيبها أيام البسط والرخاء ، وصنعوا ما طاب لهم أن يصنعوا من السوء والمنكر . ثم إنّهم عندما عاينوا أنَّ أيّام رفعت تتّجه إلى الأفول ، وأنَّ بساطَ العزّ تحته آخذٌ بالانطواء والانحسار ، أخرجوا أنفسهم من هذه السيرة ، وكأنهم لم يدخلوها ولم يكونوا فيها ، وراحوا يتهيأون لتمثيل ادوار أخرى في أيام أخرى .

وكيف لي ، وأنا أرى هؤلاء يلعبون هذا اللعب ، في وقت تهمُّ فيه الفتنة بين الأخوين بالانكشاف ، لا أنصت إلى نفسي وهي تحثّني بالكتابة عن رفعت الأسد ؟ فما أكثر ما رُحت أسعى إليهم واستمع في حالات شتّى إلى كلامهم ، وأنا أوثر الصمت ، وأشاهدهم في أطوارهم المختلفة ، وأنا أعتصم بالوجوم ! فلا يكاد المجلس يستقرُّ بهم حتى تنفتح لهواتهم عن أحاديث يوهمون بها السامع ،

أنّها من أسرارِ رفعت، التي ينبغي ان تذاع وتُنشَر على الملأ، وانهم وحدهم المخصصون بمعرفتها، ووحدهم الذين لهم شرف السبق إلى كشفها. ويقولون إنهم لا غَرَضَ لهم في ذلك، إلّا ان يبيّنوا للشعب كيف يرعَوْن مصالحَه، وكيف يهتمون بشؤونه ويحافظون على حقوقه. وهم كلّما انتهَوْا من حديث وهمّوا أن يدخلوا في حديث آخر، تزداد أعينهم حملقةً، وتأخذ حِدّةُ الصوت عندهم بالارتفاع، ويغلّظون في القسم واليمين، لعلّهم بذلك يسيطرون على نفس السامع، ويدخلون في عقله أنّهم يَصْدقون بما يقولون. وإذا سألتهم عن هذه الصلة التي كانت بينهم وبين رفعت، ما معناها؟ وماذا جَنَوْا منها؟ أجابوا، وقد خلطوا أصواتهم بنغمةٍ هادئة توحي بالصدق والاطمئنان، بأنَّ هذه الصلة جنت عليهم أكثر ممّا جَنَتْ لهم. وهم إن كانوا في الحقيقة عند رفعت خدّاماً يجيدون فنَّ التخديم، يرجعون سببَ هذه الصلة إلى المصادفة، أو إلى مبادرات كانت تمتد إليهم من طَرفِ رفعت. فيتعزّزون عليه في البدء، ثم يستجيبون إليه، ولا نيّة عندهم إلّا ان يضمّوا جهودهم إلى جهوده في النضال القائم ضدَّ العدوّ المشترك.

ومواقع الضعف في كلّ سلطة على طول التاريخ، انها لا تستطيع ان تكشف عن هؤلاء اثناء سيرهم في الطريق إليها، ولا اثناء وصولهم، ولا ينكشفون لها إلّا بعد ان يكونوا قد تمكنّوا من عُنقِ السلطة واستفحل امرهم. ولا ارتاب أنّني اصدق في القول حين اقول، إنّه ما من سلطة في التاريخ إلّا واضطرت في بادىء امرِها واوّل قيامها إلى الاعتماد على مثل هؤلاء العبيد في تعريف الأمور وتشغيل الموازين، لأنها ترى عندهم طاعةً وعبوديةً اكثر من غيرهم. وترى فيهم الأداة التي لا تخالف رغبة السلطة. والآلة المسخّرة بين يديها، فهي قابلة للحركة والسكون، وحاضرة للقيام

والقعود. لا تردُ رأياً للسلطة ولا تجادل في أوامرها ورغباتها، فليس همّها في ذلك، وإنّما همُّها أن تجمع وتلتهم، ثم تسعى لتدّخرَ لنفسها الأمن والسلامة بتشويه السلطة وتجريحها.

وهكذا، فإنَّ رفعت لم يكن الرجل الأول الذي تعرّض لِحيَلِ أمثال هؤلاء العبيد، وسوف لن يكون الأخير. فأمثال هؤلاء يوجدون في كلّ زمانٍ ومكان، في بلادنا وفي غيرها. وهم لا همَّ لهم إلّا أن يتلمّسوا الطُرُقَ والوسائل للوصول إلى رجال السلطة وأن يتسلّلوا رويداً رويداً إلى قلوبهم فيتمسّكون بقيادتها ويأخذون بتمييلها وتوجيهها إلى الصوب الذي يريدون، ولا صوب لهم إلّا مصالحهم ومنافعهم. ولشدّة خبثهم وخفاء دهائهم، يستدرجون السلطة إلى مواقع، يظهرون فيها أنّهم من أشدّ خلصائها، وأن السلطة هي بأمسّ الحاجة إليهم وإلى خدماتهم وخبراتهم وتوجيهاتهم.

وأشهد، انّني ما تعرّفت عل أدبٍ في بلدٍ من بلدان هذا العالم، إلّا ورأيته عانى من مثل هؤلاء العبيد، ودخل معهم في صراعٍ مرير، كانت الغَلَبَة فيه لهذا حيناً ولذاك حيناً آخر، ولولا أنَّ الأدب خُلقَ ليكون غالباً لا مغلوباً، لانهزم من وجوههم وسلّم إليهم كلَّ شيء. وأشهد، انني، ما قرأت فكراً لأمةٍ من الأمم إلّا ولقيته مثل الأدب في محنةٍ من أيدي هؤلاء العبيد، يقطع حياته معهم في كرٍّ وفرّ. لكنَّ الفرق بينه وبينهم، أنهم كلّما احتدّ هجومهم عليه واشتدّ رشقُهم له بالضربات القاسية العنيفة، كلّما ازداد خصوبةً ونماءً. أمّا هم فكلّما استقبلوا منه هجوماً وضربات كلّما ازدادوا ضعفاً وأوغلوا في الانحدار والهزيمة. وأولئك الذين انكبّوا على قراءة علي بن أبي طالب والجاحظ والتوحيدي والمتنبي والسهروردي وشكسبير وفولتير وروسو وهوغو وأمثالهم، لمسوا بقلوبهم صدق

ما اقول ، واحسّوا بعقولهم حرارَته وإخلاصه .

وهذه السيرة الطويلة العريضة ، التي لا تكاد تصدَّق حين يسمعها السامعون ، والتي تكاد تتحوّل إلى اسطورة وكأنَّ شهرزاد قد صنعت منها حكاية أخرى وضمّتها إلى حكاياتها السالفة فصارت الف ليلة وليلتين ، والتي من حقها أن تلقى العناية كلَّ العناية وأن تكون مطرح دراسة الدارسين وبحث الباحثين ، أقول هذه السيرة التي اذاعوها عن رفعت الأسد أو صنعوها له ، ربما كان من اكبر محنةٍ لها ، انَّها وُلِدت من أبوين عدوّين ، لا رَحِمَ بينهما ولا رحمة ، ولا حبَّ ولا صلةَ ، وليس عندهما إرادةٌ للالتقاء والاتّفاق . امّا احدهما فهو محبٌّ اعمى لا يفهم ، وأمّا الآخر فهو مبغض أعمى لا يرحم . وأنا لا أريد أن اكونَ أعمى فأنضمُّ إلى جوقة العميان ، بل أريد أن أبقى كما خلقني الله مفتوح العينين ، أرى الأشياء وأميّز بينها ، وأعرف صحيحَها من سقيمها . وأريد أن أظلَّ منفتح العقل ، أسمع ما يمكن أن يُسمع ، وأفهم ما أرى أنَّ من حقّه أن يفهم .

وإذا كان من السهل على مفتوح العينين أن يرى بين الطرفين الأعميين ، فإنَّه ليس من السهل عليه أن يُقنعَ واحداً منهما بما يراه . وهنا يكمن العسر الذي سأعاني منه والصعوبة التي سألاقيها ، فإذا سُرَّ أحدُ الطرفين بما نقلته إليه من رؤيتي ، فإنَّ ذلك سيسوءُ الآخر وسيجعله عدوًا لي . ولستُ أدَّعي بأنني سأقول الحقَّ محضاً خالياً من الباطل ، او انني سأنصف الإنصافَ كلَّه فيما سأحكي ، فذلك لا يفعله إلّا مَلَكٌ مقرَّبٌ او نبيٌّ مرسَل او مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان . وما أدّعي أنّني سأفعله ، هو قهر النفس على قولةِ الحق وحملها على إظهار الباطل للطرفين الأعميين . ولن يخلو أن يكون في بقية الناس من يرى أصحَّ وأوضَحَ من رؤيتي ، وفيهم من يفهم بعقله وينظر بحدسه ، اكثر ممّا افهم بعقلي وأشدَّ مما أنظر بحدسي .

وهؤلاء وحدهم، هم الذين سيعلمون انني مُخلصٌ في المحاولة، وانني جاهدٌ في الوصول إلى الإنصاف، ومجاهدٌ لإظهار الحق.

فإذا تقدّم مثلاً هذا المحب الأعمى الذي لا يفهم وأخَذَ يحدثنا عن شجاعة رفعت الأسد، فإنّه سيجعله منها في ابعد حدٍّ يستطيع العقل أن يتصوره للشجاعة. ونحن ندرك انّه لا يعرف ماذا يقول، وندرك أن مثل هذا الإنسان الذي يحكي عنه ويصفه، لا يوجد إلّا في قصص الأطفال وفي الأساطير المحكيّة، والخرافات السائرة المنقولة. ومثله يصنع الطرف الآخر، وأعني به العدوَّ الأعمى الذي لا يرحم، فهو يأبى على نفسه أن يصف رفعت بشيء من الشجاعة، ويستنكر عليه أن يكون عنده شيء من اللياقة لحمل بعضها. ولمّا لا يرى له حيلةً لدفع ما وصل إليه رفعت من مكانة، يقول: ذلك هو عمل الظروف والمصادفات، فهي التي ساقته إليها، وإنّه لذو حظ عظيم، إلى غير ذلك من العبارات المألوفة الشائعة التي يلجأ إليها الناسُ ليستريحوا من التفكير ومن التحليل والإنصاف. ونحن لا يسعنا إلّا ان نرفض قوله ونردّه عليه، إذ إنّه ليس من شكٍّ عندنا ولا عند غيرنا، أن رجلاً مثل رفعت لم يكن ليصل إلى ما وَصَلَ إليه من الجاه والمكانة لو لم يَتَمَتَّعْ بقدرٍ لا يُستهان به من الشجاعة.

ولا تحسبَنَّ انَّ ما نقلته هو من صنيع الذهن أو من حياكة الخيال، وإنّما هو حقيقةٌ قائمةٌ مشهودة، أواجهها مثلما يواجهها غيري كلَّ يوم. فما من مرَّةٍ التقي فيها واحداً من هذا الطرف أو واحداً من ذلك الطرف، إلّا وأعاني من سماع ما لا يُطاق سماعه من الحبّ الشديد ومن المقت الشديد. ومرَّةً يدور الحديث على شجاعة رفعت، ومرَّةً على اخلاقه وسلوكه، وثالثة على ثروته وأملاكه، ثم على وطنيته ومواقفه، ومن أراد العجبَ الذي ليس مثله عجب، ما عليه إلّا أن يسمع ويصبر على ما يسمع. ولعلنا إذا ابتعدنا قليلاً

في التأمّل والتفكير، راينا الناس فيما هم عليه من الأحوال والآراء والعقائد، مثلهم مثل هذين الطرفين الأعميين. فريقٌ منهم في الطرف الأقصى من التعلّق والحبّ، وفريق آخر في الطرف الأقصى المقابل من النفور والكره. سواء في الديانة أو في السياسة أو في فنون الأخلاق والسلوك والأذواق. وهم كلّما ازدادوا في الحوار والجدل والمناقشة، كلّما ازدادوا اختلافاً وتباعداً. فلا حقيقة يعرفون ولا إلى اتفاقٍ يصلون. ولست أسعى هنا إلى أن أتفرّد عن هؤلاء الناس وابرّىء نفسي ممّا اتهمهم به، فأنا واحدٌ منهم يصيبني ما يصيبهم من الميل إلى الهوى، وانغمس فيما ينغمسون فيه من اللغو والقيل والقال. لكنني أجتهد في السعي، وأُشدّد على نفسي، واعذّبها لتتعوّد الاعتراف بالحق ثم لتتعود الإقرار بالخطأ. وإنّه لطبع لن يصل إليه الإنسان إلّا بالمشقة وإن بدا أنّه سَهلٌ قريب. يعرف ذلك من بدا يتحسّس لذّة هذه المشقة واخذ يكتشف معالم الطريق للوصول.

ونحن لا نرى من الصواب والخير في شيء، للكاتب حين يكتب وللشاعر حين يُحسّ ويسكب إحساسه، أن يقول الواحد منهما في قضية او في رمز او في شخص، او في أيّ شيء من الأشياء عقيدته دفعةً واحدة، ولا ان يخفي شيئاً منها. وقد يظهر في البدء أنَّ هذا الكلام هو نوعٌ من اللعب والتسلية، ولكنَّ الحال ليست كذلك، وليس في الكلام لا لعبٌ ولا تسلية. فالعقيدة عند كلّ الناس، ويأتي في الطليعة منهم الكاتب والشاعر، عُرضةٌ للنقص والزيادة والتغيّر والتبدّل. إن لم يكن ذلك في روحها واصولها، فهو كائنٌ ولا شكّ في شروطها واسبابها وظروفها. فلا نعرف عقيدة وُجدت إلّا من وراء اسباب، ولا عاشت إلّا في شروط وظروف، وهي من حقّها ان تتلقّى اثراً من هذه الشروط والظروف، ومن حقها أن تُلقي فيها

أثراً . وهي في تلقيها وفي إلقائها لا بدَّ لها ، إمّا أن تتغيّر وإمّا أن تُغيّر .

ولا نتأخّر أن نأخذ قصّة الحرية مَثَلاً على ذلك ، فليس من شك في أن الشاعر والكاتب هما أشدُّ الناس حماساً للحرية وإيماناً بها . وعندما يُسأل أحدهما عن رأيه بها ، يجيب قبل أن ينتهي السؤال وبدون أي تفكير ، أنَّه يؤثرها على طعامه وشرابه وعلى نومه ولباسه ، وأنَّه يُحبّها حتى العبادة ، ويتمنّى لأهل الأرض جميعهم ، أن يتمتّعوا بعطائها ويرفلوا بنعيمها . لكن عندما لا تتهيأ الأسباب التي تكفل للحرية بقاءها وتشدّ من صمودها ، كأن تضعف روح المسؤولية في الشعب ، أو يصاب الوعي عنده بالوهن والضمور ، فإن الكاتب والشاعر ، ومثلهما الناس كلُّهم ، سيخفُّ عندهما الحماس للحريّة ، وسيتهيّبان من نشدانها والدعوة إليها . بل سيؤثران عليها قوّةً متحكمة أو سلطة متنفّذة ، ريثما يبدأ الشعب باستعادة ما كان فقده من الوعي ويأخذ بالتدرُّج نحو المسؤولية . وهما في صنيعهما هذا لا يعني أنهما تأخّرا عن الوفاء للحرّية ، وأنَّ اعتقادهما بها صار هيّناً رقيقاً ، بل يعني أنَّهما رفضا أن يُعرّضا دورها إلى الانتهاك والاستغلال ، وأنهما لم يسمحا بتغيير معناها من النعمة إلى النقمة . وما ألطف هذه النادرة التي تقول : إنَّ جماعة من الصوفية ، هالهم أن يروا واحداً من بينهم ، ينتحي زاويةً ويشرع بالبكاء . وعندما سألوه عن سبب بكائه ، قال : عقيدة كنت أعتقدها منذ ثلاثين عاماً ، والآن تبيّن لي خطؤها وضلالُها ، فأنا أبكي على زمنٍ ضاع منّي بدون جدوى ولا فائدة .

وعندما نقول ، إنَّ الكاتب أو الشاعر ، لا يستطيع أحدُهما أن يكتب إلّا عن عقيدة . إذا هو رغبَ أن يكون لكتابته حَظٌّ من تأثير أو حظٌّ من بقاء . فما عنينا إلّا أن الكتابة لا تحتاج إلى دليل وبرهان

على إيمان كاتبها بها وعلى صلتها به ومحلها منه. فالكتابة هي نفسُها دليلٌ على هذا الايمان، والايمان المبثوث فيها هو الذي يقرّبها الى القارىء ويولجها في قلب المطالع. فحين يكتب كاتب أو يقول شاعر عن العدالة، وهو يرمي أن يخلق في النفوس حُبًّا للعدالة وكرهاً للظلم ومقتاً للإسراف في التمايز بين أصحاب الثراء الفاحش والفقر الكافر، فعلى هذه الكتابة أن تحمل: قطعة من قلبه، وحرارةً من إيمانه، وقبساً من عقله، وخلاصات ناضجة مطوّرة عن تجارب الأشخاص الأوائل المتفوّقين وأمثلة للشعوب الناهضة المتقدمة.

ونحن نقدّر أنّه، لا يوجد هناك من يرفض تعريفنا للكتابة الحرّة المتفوقة التي تنبع من عقيدة كاتبها، عندما نقول بأنها: تلك الكتابة التي لا تحتاج إلى تصديق وتدليل وبرهان بأنّ صدورَها هو عن إيمان صاحبها وعن عقيدته. ونقول ذلك من غير أن نشترط وجوداً للصواب أو الخطأ في هذه الكتابة. فالناس لا يجتمعون كلُّهم، في أكثر المسائل، على الصواب، ولا يتفقون كلُّهم على الخطأ. ويكاد يكون لكلّ فرد أو لكلّ مجموعة من الناس ميزان خاصّ، يَزِنون به صوابهم ويَزِنون خطأهم، لكنّهم لا يستطيعون إلّا أن يتفقوا كلُّهم على القول، بأنّ هذه الكتابة تحمل عقيدة وإيماناً وأنّ تلك الكتابة خالية من العقيدة والإيمان.

وليس هنالك ما يقرّب إلى الأذهان هذا المعنى، إلّا أولئك الذين كتبوا في العقائد المنحرفة كعبّاد الأصنام والملاحدة وكالمسرفين في تعظيم الطبيعة من قديم الأيام إلى هذه الأيام. فقد أصدروا في كتاباتهم عن عقائدهم التي يحملون، ودافعوا عن أفكارهم فأحسنوا الدفاع. وكان في كتاباتهم إيمان وحرارة، وكان في دفاعهم البرهان القويّ والدليل الشجاع والحجّة الماكرة. وإذا كان أكثر

الناس قد نفروا منهم، لأنّهم لم يجدوا الصواب الذي يريدون بل وجدوا الخطأ الذي يكرهون. لكنهم اقبلوا على قراءة ما طلعوا به من كتابة، ونهلوا من بيانها، واسترقوا من اسلوبها، واحاطوها بالإعجاب. وستظلّ كتابتهم باقية خالدة، وسيظل يقرؤها المؤمنون بها وغير المؤمنين، لأنَّ فيها رقّةً وجمالاً، وعليها طلاءٌ من الفنّ الرفيع، يجعلها تربح عند الطبع والذوق، إذا هي خسرت عند العقل والإيمان في ميزان الخطأ والصواب.

ولعلّه لن يعودَ من حق أولئك الذين يكرهون رفعت الأسد ويمقتونه ان يعجبوا ولا انْ يُشهروا عليَّ الطعنَ واللومَ لأنني اخترته موضوعاً للكتابة ولأنّني أمسكت عن التعريض به واكتفيت بمسّه مسًّا رفيقا، عندما يعلمون أن بلاداً طويلةً عريضةً وفيها حكومةٌ تعتزّ بنفسها، شمّرتْ ونهضت إلى إحياء يزيد بن معاوية إحياءً يجلّله التبجيل والتعظيم، من غير أن ترعى في ذلك حرمةً للاسلام ولا أن تنظر إلى قدر المسلمين وكرامتهم. وقد وضعت بين هذه الصفحات نسخةً مصوَّرة عن عنوان الكتاب الذي غصَّ بحيل التعظيم وبدَع التجليل. ويكفي أن يقرأ المرء هذا العنوان: «حقائق عن أمير المؤمنين يزيدِ بن معاوية»، ليعلم انّه لا تثريب بعد ذلك على أولئك الذي يتخذون من رفعت رمزاً لهم أو يتخذونه صاحباً وخليلاً، ويهبّون فينافحون عنه نِفَاحاً عنيفاً ويصولون دون سيرته صيالاً لا خَوَرَ فيه ولا هوادة.

ولا استطيع إلّا ان اعترف بأنَّ هذا الكتاب، كان على وعدٍ مع فصل آخر اتحدث فيه على دور المراة في حياة رفعت الأسد وفي تمدّد شخصيّته وتقلّصها. ثم لا أستطيع إلّا أن أعترف بأنني قد أنجزت كتابته، لكني وجدتُ نفسي مرغماً على أن أفرده عن هذا الكتاب وأن أعرّيَه جانباً لثراءه بالأحاديث الممتعة وانضمامه على مادّة غنيّة

بالأخبار والتحليل. وهذا يعني أن من حقه أن يستقلّ بنفسه وأن يصير كتاباً بمفرده ويتخذ اسماً له من الآن: «رفعت والنساء».

والآن، ليس لي إلّا أن أنبّه الأدبَ العالميَّ ليتهيأ ويترقب، فسأرفده بألوانٍ من الأدب ترضيه وتغنيه وتزيده قوة على قوة وفتوّة على فتوّة وخلوداً على خلود، فيها الشعر كأنّه النثر، وفيها النثر كأنّه الشعر، وفيها الحكاية المثقلة بألف متعة وألف معنى، وفيها الفلسفة والفكر يختالان بين التحليل والتقويم، يحار من أية واحدةٍ منها يقطف القاطف، وإلى أيّة واحدة يأوي ناشد المتعة وسائل المعرفة. وكلُّها نابعةٌ من عَرقِ هذا الشعب الذي أرهقه حافظ الأسد بسياطه اللاهبة الظالمة، وكلُّها نافرةٌ من دموعه النافرة ومن عذاباته الخانعة النائمة. وكلُّها معبّرة عن يأسه المرير في حاضره المرير وفي مستقبله المرير. وليس هذا الكتاب إلّا القطرة التي تنذر بالسيل، فمن هو حافظ الأسد حتى يقف أمامه؟ إنّه لن يكون إلّا ذلك الخبرَ الذي سيمرُّ بالأجيال والأجيال، فلا يُحرّك عندها إلّا النفورَ ولا يثير فيها إلّا الغثيان.

٤

أيّام مع رفعت

ولم أقضِ حقَّ العِلم إنْ كان كلَّما | بدا مَطمعٌ صيَّرتُه لي سُلَّما
ولم أبتذِلْ في خدمة العِلم مهجتي | لأخدمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخدَما
ولو أنّ أهل العِلم صانوه صانَهم | ولو عظَّموه في النفوس لَعظَّما
ولكنْ أهانوه فهانوا ودنَّسوا | محيَّاه بالأطماع حتّى تجهَّما

أبو الحسن القاضي الجرجاني

أيام مع رفعت

وسواءٌ أرَضِيَ الذين سيَقرأون ما كتبتُه عن رفعت الأسد وما سأكتبه أم لم يَرضَوا ، وسواءٌ ابتهجتْ عندهمُ الظنون بهذه الكتابة أم لم تبتهج ، فإنّ ذلك لن يدعُوَني إلى كتابةٍ أخرى ، ولن يخلُقَ عندي زُهداً فيما كتبتُه ، ولن يُغيِّرَ لي نيّةً فيما سأكتبه . وما كتبته عنه ، لم يكنْ مكتسَباً من أقوال قائلٍ ، وما سأكتبه عنه لن يكون مقبوساً من أخبارِ راوية أو من أحاديث كاتبٍ متجوّل أو من أمتعةِ صحافيٍّ عابر وإنّما هي ثمراتُ صُحبةٍ كانت لي معه ، ونظراتٌ كنت أنظرُها بعقلي قبلَ أن أنظرَها بعيني وأنا بجانبه ، وكلماتٌ كنتُ أسمعُها بفكري قبلَ أن أسمعها بأذني ونحن نجلِس معاً أو نسير .

والذين سيَقرأون هذه الكتابة ، لهمُ الحقُّ كلُّه أن يقولوا فيها ما يَشاؤون ، ولهمُ الحرّيّة كلُّها أن يصِفوها بما يرغبون . فهم أحرارٌ أن يقولوا إنَّها ملأى بالحرارة أو بالبرودة أو يقولوا إنَّها تَرشح بالصدق أو بالكَذِب ، وإنَّها لُعبةُ لاعبٍ وسخريةُ ساخر ، إلى غير ذلك من الأحكام التي يمكن أن تُقال أو أنَّها ستُقال ، ولي الحريّة مثلَهم أيضاً ، أنْ أقول إنَّ هذه الكتابة لم تكن إلّا لإثبات واقع وحقيقة وكشفِ وهمٍ وادّعاء . ولم أهدِف من ورائها إلّا لإحقاق حقٍّ وإبطالِ باطل ، ولم يَمُرَّ في خيالي أن أكتب لأُرضيَ هذا مهما تعاظمَ وزنُه واعتبارُه عند نفسه وعند الناس ، ولا لأُغضبَ ذاك مهما تصاغرَ وزنُه عند نفسه وعند الناس . فأنا لا أفهم الكتابة أن تكون إلّا كالصلاة ، خُلقَتْ لتُطهِّرَ داخلَ الإنسان وتُصفِّيَه وتنشُرَ فيه الطهْرَ والشروق ، وفُرضَتْ لتوصلَ إلى الحقّ وتَغمرَه بالأمل كلّ الأمل وبالطمأنينة .

كان يوماً من أيّام ربيعِ عامِ ثلاثةٍ وسبعين وتسعمائة وألف، ذلك اليومُ الذي لبّيتُ فيه الدعوة لزيارة صاحبٍ يعمل في مجلّة (الفرسان). وكانت لي مفاجأةٌ أن أرى محلّها لا يزيد على غرفةٍ، ليست ضيّقةً ولكنّها ليست واسعةً، ومعها توابعُها من الأماكن الضرورية، وهي في مكانٍ من دمشق يواجِه قصر الضيافة ولا يَسمح لها أن تراه، وكذلك تَختبىء من الشمس تحت الأرض، وكأنّها تَخجل منها، فلا هي ترى الشمسَ ولا الشمسُ تراها. وقد توَقّف صاحبي عن الحديث ووقف على قدمَيْه، ووقفْنا نحن معه نسلِّم على هذا القادم الجديد، وكانت دهشتي كبيرة عندما علِمتُ أنّه رفعت الأسد وكذلك كانت دهشتُه كبيرةً عندما رآني، وأخَذَتِ الحرارة تنتشر في وجهَيْنا سروراً بهذا اللقاء، وقد تَبيّن لي أنّه يعرِفني جيّداً ممّا تسرّب إليه من اخباري وممّا سَمِعَه عن قصّة وقوعي في سجون الشاه في طهران وما عانَيْتُ من آلامٍ وكابدتُ من عذابات، كان منها صدورُ حكمٍ يَقضي بإعدامي، ثم ما جرى بين الحكومتين السورية والايرانية من مراجعات ومحادثات، انتهتْ جميعُها إلى الاتّفاق على المقايضة والتبادل. وكنت السجينَ الوحيد الذي استعادتْه بلادُه سورية في مقابل السجين الوحيد الذي استعادته بلاده إيران. وقد سَرَتْ هذه القصّة سرياناً كبيراً بين افراد السلطة في سورية، وبين أجهزة الأمن، وعند عددٍ كبير من ابناء الشعب، وتحدّثَتْ عنها صحفٌ عربية واجنبية. وإذا رُحتُ أطوي الحديث عنها الآن، فلأنّني انتظر الفرصة التي ينبغي أن تَحين وتَسنح.

ومنذ اللحظات الأولى من لقائنا الأوّل، أبانَ عن رغبته في أن أصير إلى قطعته العسكرية، عندما أُشرِف على النهاية من هذه الدورة التدريبية التي أمرُّ بها، والتي لا بدّ لكلّ مواطن أن يعرفها في الشهور الأولى من مدّته، عندما يُدعى إلى اداء خدمةِ العَلَم،

وكانت قطعتُه العسكرية تُسمّى (سرايا الدفاع)، وهو مقرونٌ بها وهي مقرونةٌ به، لا يُذكر أحدُهما إلّا ومعه قرينُه.

وتتابعتْ لقاءاتنا بعد ذلك، في هذا المكان وفي غيره من الأمكنة التي تتْبَعُ عملَه أو ترتبط بشأنٍ من شؤون قطعته. وفي كلّ لقاءٍ جديد كان لنا أحاديثُ جديدةٌ تقودنا إلى انفتاح جديد. وأصبحتِ السُبُلُ إليه ميسّرةً، أزورُه متى شئتُ في مكتبٍ من مكاتبه الموزّعة في مطارحَ عدّةٍ، وأدخلُ وأخرج وأذهب وأجيء بحريّة إلى الأمكنة التي تنزل فيها عناصرُ من وحدته، وكأنّني صرتُ محسوباً من هذه الوحدة قبل أن يخرج قرار أو يصدُرَ أمرٌ يقضي بذلك. وأحسستُ بأنّني أصبحتُ في موقع يسمح لي بالوقوف على أشياءَ كثيرةٍ وبرؤيتها جليّةً واضحة، لولاه لَما تيسّر لي هذا الوقوف ولا مثلُ هذه الرؤية. وتوثّقتْ بيني وبينه آصِرةُ الصحبة والصداقة، إلى درجةٍ أصبح معها يبوحُ لي بأسرارٍ قلّما يبوح بها إلّا إلى الأدْنَين من أهله ومن الحافّين حوله. وأصبحتُ أُحْسَبُ من هؤلاء المقرّبين الخُلَصَاءِ الذين يُطلعهم على خفايا أعماله القائمة وعلى نواياه فيما سيقوم به من أعمال ومِن امتداد، ويطارحُهمْ الحديث عن الخطط التي أعدَّها لليوم وعن الخطط التي هي في طور الإعداد من أجل الغد. ثمّ يسألني، كما يسأل كلّاً منهم، أن أُعطيَ نظرة أو أُخرجَ عن رأيٍ يُبقي على الخطة أو يزيد فيها، أو يعدّلُ منها بعضَ التعديل.

ولم يكن يفوتني أن أَلمَحَ أحياناً، وأنا في موقعي منه، أنّ ما يُسِرُّ إلينا به، وما يُشعرنا أنّه من خفاياه المضنونِ بها، لم يكن هو الواقعَ القائمَ ولن يصير واقعاً قائماً. وأنّه يفعل ذلك تَسْتيراً لما هو واقع ولِما سيقع. ولعلّه كان يرى نفسَه أنّه على حقّ في صنيعه هذا معنا وكان يرى أنّه لا ينبغي لمثله أن يسلّم مفاتيحه كلَّها دفعةً واحدة لأيّ إنسان مهما حظيَ عنده بمنزلة ومهما بلغت قرابته منه.

ثم إنَّه في الوقت نفسه لا بدَّ لكلّ شخصٍ مثلِه، من أن يكونَ له خاصاءُ مقرَّبون يَستأنِسُ بهم ويُفضي إليهم بأسراره ويستعين بآرائهم وما عندهم من تجاربَ ونظرات، ولذلك كان يَعمَد إلى أن يَشعَنا فيما يصنعه من خيالٍ حيناً، ثمّ يَنقلنا منه إلى ما يَصنعه من واقعٍ وحقيقةٍ احياناً اخرى. وكنتُ احتفظ لنفسي بما تَنفذُ إليه ظنوني وما يقع في فكري أنَّه هو الهدفُ المصوَّب إليه. وكنتُ أمتنع عن قوله والتحدّث به خوفاً من ان لا اكون قد اصبتُ الإصابة كلَّها في هذه الظنون وخوفاً على نفسي مِنَ الابتِلاء والوقيعة.

وكنت من هؤلاء القِلّة الذين يَخلُصون له في الاستماع عندما يتحدّث إليهم ويَخصلُون له القول والرأيَ عندما يَطلب إليهم القول والرأي. وكنت لا أخدعه لأنتفع منه او لأبتزَّه، ولا اتَّخذه خديعةً عند الآخرين لأنتفع منهم وابتزِّهم. وهؤلاء الذين كانوا يرَوْنني إلى جانبه ويسمعونني اخاطبه وأحاوره، يعلمون حقَّ العلم أنّني صادق كلّ الصدق فيما اقول. نعم كنتُ الجأ في مواطنَ من حديثي إلى المجاملة وليس إلى المخاتلة والمداهنة، وإلى التَورية وليس إلى الرياء والكَذِب الفاحش، وإلى اللياقة وإشعارِه بالاحترام وليس إلى الغلظة والغباء. أمّا في المواطن الأخرى التي تؤذيها المجاملة في الحديث، ولا ينفع معها الرمز والتورية، فكنتُ أُخرجها مكشوفة واضحةً، لا يَصحبها إلا قليل من الطلاء الناعم الذي يدفع عنها الهَمَجية في الأسلوب ويردّ عني ما يؤذيني من الزجر والتعنيف.

وإذا كان في الأمثلة ما يخفّف الشكوك عن الأقوال أو ما ينتزعها منها ليضع مكانَها اليقين والثقة، فأنا لا اقدر أن أنسى تلك المرّة التي دخل فيها رفعت إلى مكاتب المجلّة، وقد انتقلتْ إلى مكانٍ اوسعَ وابهى، وكنتُ وحدي في المكتب الرئيسي، فسلّم وجلس. وبعد قليل نظر إليَّ وقال: ماذا تسمع ما يقوله الناس عنّي؟

فأدهشني هذا السؤال ، وحدّثتُ نفسي في أن أكون صادقاً معه مهما تكنِ العواقب ، فنظرتُ إليه ، وقلت له وقد ارتسمت على وجهي دهشة ممزوجة بالابتسامة : يقولون بأنك ضرّابٌ نهّابٌ وقمّارٌ خمّار . فاستلقى على قفاه وضحك ضحكةً عالية ، جعلتِ الجندَ المجتمعين في المكتب المجاور يتعجّبون لما جرى . ثم إنّه اعتدل في جلسته وعاد كما كان ، وسألني مرّةً أخرى ، وكأنّه رأى في جوابي مفاجأةً أبهجَتْه ، وقال : وما رأيك أنتَ بما يقولون ؟ فامتلأتْ نفسي حيرةً ورَوعاً ، ورأيتُ أنّه لا بدَّ من جواب . فحرّكتُ رأسي يميناً ويساراً ، وأجبتُه بصوتٍ يُفهم منه أنّ الجواب هو للتخلّص : اللهمَّ العَنْ هؤلاء الناس ما أكذبَهم وما أطولَ ألسنتَهم! فضحك ضحكةً أعلى من الأولى وضرب بيده على المكتب ضربةً خفيفة ، علِمتُ عندها أنّ الله خلّصني بلطفه ، وأنّني أحسنتُ في الجوابْ ، فهو قد أحسَّ بما في نفسي من جهةٍ ، وهو من جهةٍ أخرى أعجبه الجواب الأوّل حين قلتُ له ما سمعتُه حقًّا ولم أكذب عليه ، وأعجبه الجواب الثاني لأنّه رأى فيه خوفاً وهرباً ممزوجين بلباقةٍ وحُسنِ تخلّص .

لكنّني تجمّعتُ على نفسي من جديد ، وحاولتُ أن أرسم ملامحَ الجدّ على وجهي ثمّ قلتُ له : إنّك تعلم كما أعلم ، أنّ من بين الذين يَحُفّون بك والذين هم من حولك ، منْ يَطيب لهم أن يتصرّفوا على هواهم من غير أنْ يُراقبوا مبدأ من المبادىء أو قيمةً من القيَم ، وأنّهم لا يتهيّبون أن يأخذوا أموالاً من الناس بحججٍ مصنوعة ، وهي رَشوى أو نَصْبٌ أو اغتصاب ، ويَنزِلون البيوت باسم الاستئجار ثم يبيعونها ويتقاسمون أثمانها مع المالكين تحت الوعيد والتهديد ، ومنهم من يلاحقون النساء ويفوزون بهنّ طوعاً أو كُرهاً ، إلى كثيرٍ من مثل هذه الأعمال الشائنة ، والناس يعدّون ذلك عليك ويحسبون أنّك من ورائه أو أنك تسمح به . ورحتُ أقترب نحوه

الكثر ، فقلتُ له : ولا تنسَ أنَّ في بعض اقربائك ، وسمَّيت له فلاناً وفلاناً ، من يقومون بالأعمال التي لا يصدِّقها عقلُ عاقل و لا يقتنع بها جنونُ مجنون ، وهي تكفي وحدَها لتشويه سمعة شعبٍ طويل عريض ، فكيف بك أنتَ وحدك ؟

وانقطع الكلام حينما دخل الحاجب وبيده أقداح الشاي ، لكنّه التفت إلي ، وأخذ مني مبادرة الكلام ، وراح يفصِّل في الحديث ويأتي على أمثلةٍ من الواقع الحي الذي نعيش فيه ، واعترفُ الآن ، على ما بيني وبين تلك الحادثة أو الجلسة من مسافةٍ في الزمان ، أنَّه كان على حقٍّ وصواب في أكثرِ ما حدَّثَ به وحكاه . وممّا لا يزال منقوشاً منه في ذاكرتي قوله : إنَّ اكثر ما تسمعه عنّي هو من صنيع التجّار ومن تآليفهم وغَيرتهم وحسدهم . فهم قد تعوّدوا أن يضعوا أيديَهم على كل ما في البلاد ، وإذا لم يكن لهم ذلك ، فلا يرضَون بأقلَّ من ان يَقسموا البلاد بينهم وبين السلطة : تنفرد السلطة بالحكم وآلة التنفيذ ، وينفردون هم بالمال وبوسائل التصريف والتدبير . لماذا يحقُّ للتاجر ان يعمل ما يشاء ولا يحقّ لغيره أن يعمل مثلَه ؟ ولماذا إذا اقدم التاجر على عملٍ أو قام بمشروع ، يخلقون له أعذاراً يجعلونه بها مقبولاً عند الناس ، وإذا اقدم غيره على مثل عمله أو قام بمشروعٍ مثل مشروعه فإنّهم يَنزِلون به تشويهاً ويُسلّطون عليه الآفاتِ ويخلقون له العقبات ؟ نحنُ في الوحدة عندنا ، لا نريد أن نلجأ إلى التجّار ، كما تصنع وحداتٌ عسكريّة أخرى . ونخلق معهم مقاولات ليسهّلوا لنا حركة بناءٍ للضبّاط والأفراد ، ولا نريد أن نستعمل إلا آلاتنا ، وليس أموالَهم ، وإذا وُجدَ منهم من يدخل معنا في مقاولة أو في مشاركة ، قالوا عنّا نحن نغتصبُ أموال الناس ، او نستغلّ وجوداً في السلطة ونجعلُ من الناس آلةً مسخَّرةً لأعمالنا ومصالحنا . نحن لا نعلم ماذا يريدون منّا ولا ماذا يريدون لنا ،

ولكنْ ليعلموا هم أنّنا نريد أن نعيش، فليتركوا لنا عيشَنا نترك لهم عيشَهم.

ولا أودُّ أن أغفلَ القول هنا، بأنَّ من أوائل الأشياء التي شَغلتْ بملاحظتها والانتباه إليها، بعدما توثّقَتْ آصرةُ الصحبة بيننا، هو المقارنةُ بين ما كنتُ اسمعه عنه من أخبار، وبين ما صرتُ أراه منه وأشاهده وأنا معه. وكان لا بدَّ لي أنْ أدهَش وأنا ألاحظ، أنَّ ما أراه من أحوال وما أشاهده من وقائع، هو أهون وأدنى من هذه الأخبار التي كنتُ أسمعها، والتي يريدون لها أنْ يكبرَ دويُها وأن يبتعد انتشارُها، وليس ذلك انحيازاً إلى رفعت ولا دفاعاً عنه، فأنا لا حاجة لي عنده لكي انحاز إليه، وأنا ليس في نفسي شيء آخر غيرُ قولة الحقّ لكي أدافع عنه «وما شهدنا إلّا بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين»، ولكلّ فردٍ حريّته في أن يقول ما يشاء. فمَنْ أراد فليتّهمْه ومن أراد فليبرّئه فما كنت عنه ذابًا ولا مُحامياً، ولنْ أرضى أن أكونَ كذلك، ويكفي أن أقول كلمتي وأنا في الطريق غيرُ عابىء بمن يقبلها أو بمن يرفضها، ولا يعني هذا أنّني كنت شريكاً له فيما شيّعوه عنه والصقوه به، وأنّني اسعى إلى أن أجد مخرجاً لنفسي عندما أحاول التخفيف من عُنف الحملات ومِنْ شدّة الأحكام على رفعت الأسد، فهذا قول لم يصدر من أحدٍ حتى الذين يجهرون لي بالكراهية والبغضاء، وإذا وُجِدَ هناك من يتغنّى به ومن يقوله، فلا أزيد على أنْ أردّد قولي وأنا أمضي: لكلّ إنسانٍ حريّته فيما يقول وفيما يعمل.

أمّا عن الوحدة العسكرية التي كان يرأسها، فهناك الحديث العَجَب الذي لا ينبغي أنْ يفوتنا طَرَفٌ منه، إذا كنّا لا نستطيع أن نأتيَ على سرده أو على سردِ أكثره. فأنتَ تستطيع أن تحسب هذه الوحدة قطعةً من الجيش السوري وتستطيعُ أن تحسبها مفصولةً

عنه . وهي كأنّها موجودة فيه وكأنها غير موجودة . وإنْ أردتَ أن تقول ، إنَّ فيها نظاماً فهناك حالاتٌ ومظاهرُ تؤيّد قولك ، وإنْ أردتَ ان تقول إنَّ فيها فوضى فهناك حالاتٌ ومظاهرُ تؤيّد قولك ايضاً . وانت لا تستطيع انْ تعرف لون هذا النظام الموجود فيها ولا لونَ هذه الفوضى التي هي بجانبه ، ولستَ بقادرٍ مهما حاولتَ ، ومهما استعملتَ طرائقَ الدراسة واساليبَ الحِيَل أن تُدرك ، هل فوضاها في النظام أم نظامُها في الفوضى ؟ وفي بعض الأجزاء من هذه الوحدة ، يصعب عليك ان تَدريَ من هو الذي يراس الآخرَ ويُسيّره ، هل هو الضابط أم هو الجندي ؟ وفي أجزاءٍ أخرى منها ، لا بدَّ لك أن تسأل نفسك وتقول : اين انا ؟ هل في قطعة عسكرية أم في سوقٍ تجاري ؟

وإنكَ لتقع في دهشةٍ ما بعدها دهشةٌ ، إذا انتَ أبصرتَ في نواحٍ من هذه الوحدة ، من الأسلحة الثقيلة والحديثة النادرة ، وسوف تقول ، إنَّ بلداً يملك مثل هذه الأسلحة لا يمكن له أن يُقهر ، ولن يُصاب بهزيمة ولن يعرف إلّا النصر ، لكنَّ الدهشة نفسَها ستعود إليك وهي اشدُّ ممّا كانت عليه ، عندما تُبصر في نواحٍ ثانيةٍ منها ، وقد ملأتْها انواعٌ مختلفة من السيّارات الفخمة الفارهة ، وستسأل نفسك : هل انا في معرضٍ اقامه العالم كلُّه لعرض أحدث ما وصَلَتْ إليه المهارة في صنع السيّارات وإخراجها ؟ وإنّك لترى من بين ضبّاط هذه القطعة ومن بين افرادها رجلَ الحرب وإلى جواره رجلَ الشرب ، وترى الفرد المهذَّب المجرّب وإلى جانبه الفردَ المذنب المخرّب . ولا تستطيعُ إلّا انْ تميِّز عناصرَ هذه الوحدة وتعرفهم عندما تراهم ، وإنِ اختلط عليك أمرُ اللباس لاتّفاقِ غيرهم من الوحدات الأخرى معهم فيه ، فهم قد اتّخذوا من صورة قائدهم رفعت الأسد شعاراً لهم وعلّقوها جميعُهم على صدورهم ، بافتخارٍ ما بعده افتخار ، وباعتزازٍ ليس مثلَه اعتزاز ، وإلى جانبها وضعوا هذا

الشعار : «الاستشهاد طريق الخلود».

ومهما بلغ بك العَجَبُ لِما سمعتَ من الاختلاف والائتلاف في مظاهر هذه الوحدة واحوالها ولما ستسمع ايضاً، ومهما اصابك من الذهول والحَيرة لِمَا علِمتَ من التشابه والتباين ولِما ستعلَم، فإنّ ذلك كلَّه سيظلُّ ضئيلاً امام عَجَبِك وذهولك وحَيرتك، من توحُّدِ قلوبهم كلِّهم على حبِّ رفعت الأسد واجتماعِهم كلِّهم على طاعته والهتاف باسمه في الصباح وفي المساء. فأوامره عندهم هي قوانينٌ مسنونةٌ ، لا يجوز مخالفتُها والخروجُ عنها، ولا يرضَوْن بغيره عِوَضاً ولا عنه بَدَلاً. ويُفدّونه تفدِيةً لا يعدلها إلّا تفديتُهم آباءَهم وأمّهاتِهم وربّما تتفوّق عليها أحياناً، ويدافعون عنه دفاعَهم عن أعراضهم وربّما اكثر. ولم يكن مِنَ الصعب فقط على رجلٍ آخرَ غيرِ رفعت، أنْ يرأسهم ويكونَ قائداً لهم، بل إنَّه كان من المُحال على غيره، أنْ يأخذ المكانة التي أخذها في قلوبهم، وأنْ يكون عنده القدرةُ على تسيير هذه القطعة بهذا الأسلوب الذي كانت عليه. وهذا أمرٌ سيُضاعِف من إثارة التطلُّعِ عندنا للتفكير في شخصيّة رفعت، والتساؤل لفهم هذا اللغز إذا أحببْنا أن نسمّيَه لُغزاً.

فلم يكن بالقوّة وحدها يملِكهم ويقودهم، وللقوّة أثرُها الذي لا يُنكر في التملّكِ والاستئثار. ولم يكنْ بالكرَم والأعطيات والإنفاق يستهوي قلوبَهم ويشدّهم إليه، وإنْ كنا نعترف بأنّ لهذا العنصر دورَه المؤثّر الفعّال في بسْطِ السيطرة والهيبة. وكذلك لم يكن بهذا التمييز الذي خلعه على افراد وحدته، فصار لهم شأنُهم الذي حسدتْهم عليه الوحدات الأُخرى من الجيش الكبير. واخيراً لم يكن لأنّ أكثرَ مَنْ في هذه الوحدة ينتمون إلى فئة معيّنة وإلى مكان معين كما زعموا ذلك وأفاضوا في ترويج هذا الزعم وتسييره، فقد كانت هذه الوحدة خليطاً مزيجاً من كلّ الفئات ومن كلّ الأمكنة بِنِسَبٍ

متفاوتة، وربّما كان يَغلِب وجودُ أهل حوران والبادية وشرقي الجزيرة على وجود من سواهم.

واخيراً لا استطيع أنْ أبرّىء واحداً من هذه الأسباب في ترك أثرٍ ضعيفٍ أو قويّ على حصر قيادة هذه الوحدة بشخصيّة رفعت. وبعبارةٍ أخرى، على جعل هذه الشخصية تتفرّد وحدها بإدارة هذه الوحدة العسكرية، كما هي على تركيبتها التي قدّمتُ وصفاً وجيزاً عنها. ففي الحال التي تشاهد معها هؤلاء الجنودَ على أتمّ ما تكون الفوضى، لا يحتاج رفعت إلى أكثرِ من نداءٍ بسيطٍ بصوته، أو توجيهٍ مؤلّفٍ من عبارتين، حتى ينقلبوا إلى حالةٍ يصيرون معها على أتمّ ما يكون النظام. ثمّ إذا قال لهم، ادخلوا إلى باطن الأرض، فإنّهم ولا بدَّ داخلون، وإذا قال لهم اخرجوا فإنّهم ولا بدّ خارجون. ولا يُنقِص من طاعتهم له إذا عاقبهم، لكنّه يزيد فيها إذا هو كافأهم.

وهنا لا بدَّ أن ينطلق هذا السؤال ويتردّد: ولكن ما هو السرُّ في هذه الشخصيّة التي لا تزاحمها شخصيّةٌ أخرى، مهما بلغتْ من النفوذ والتأثير على قيادة هذه الوحدة؟ وما هو اللغز الموجود فيها؟ وربّما يزيد في حدّة هذا التساؤل، أو ربّما يُعين في الجواب عليه، إذا علمنا أنَّ شخصيته سيكون لها هذا الدورُ عينُه، من التأثير ومن أسلوب التصريفِ والتسيير، في أيّ مكانٍ يتسلّم فيه أزمّة القيادة، عسكرياً كان أو غيرَ عسكري. فهل نستطيع أن نقول الآن، إنَّ في شخصيّةِ رفعت وما يتمتّع به من صفات حيّة ومن خصال متوثّبة قويّةِ الحضور، يَقبعُ السببُ البارز في دخوله إلى القلوب وانبساطِ ظلّه على الأقران والعُشَراء وعلى الأصحاب والمرؤوسين من جنود وضباط. ولو لم يُتَحْ لي أن أكون قريباً منه كلَّ القرب، لَما عرفتُ ذلك فيه، ولَما أذِنتُ لنفسي بذكره في هذه القوّة وفي هذا التثبّتِ الذي أنا منهما على يقين.

ولقد كنتُ أقرأ في شخصيته وهو يقود هذه الوحدة، أنّه إذا قَسا على فردٍ أو على مجموعة، فليس لكي يتشفّى أو لكي ينتقم منهم، ولكنْ لكي يُثبّتَ في أنفسهم الأصول العسكرية التي هي الصلابة والطاعة والنظام، والامتثالُ للأوامر، والاهتمامُ بالصغير والكبير من شؤون الحياة اهتماماً لا رَخَاوَة فيه. ولا يَغيب عن باله هؤلاء الذين تنزل بهم قسوتُه، فهو يترقّبُ الفُرَصَ الطيّبةَ والمناسباتِ المحبوبة، ليفاجئَهم بالعفْو وبالمكافآت التي تعيد إلى أنفسهم الرضى والطمأنينة، وتحول بينهم وبين أن يتعرّضوا إلى القسوة مرّة أخرى، فهو لا يحبّ أن يرى في القسوة على الجنود نوعاً من التسلية، أو نوعاً من تفريغ الذات ممّا تنضمُّ عليه من نِقَم الحياة ومن غصّات الألم والحرمان، وإنّما يحبّ أن يجعل من القسوة مَطْهَراً، تتطهّر فيه النفوس لتصبح معه أكثر استعداداً لملاءمة الحياة ومجابهتها.

وكنتُ أقرأ في شخصيّته وهو يقود هذه الوحدة، أنّه يهتمُّ بالجندي في سويّته كما يهتمّ بالضابط في سويّته، فلا يكاد يُحرَم فردٌ واحدٌ من عنايته واهتمامه. فهو يخفّ إلى تفقّدِ أوضاع الجنود والإشراف على وسائل عيشهم وراحتهم داخل الوحدة، ولا يترك يوماً من الأيّام يمرُّ من غير أنْ يكون له فيه اجتماعٌ إلى فئةٍ من ضبّاطه، يتدارس معهم أوضاعَ الجنود الذين هم في عُهدتهم، ويسأل عمّا لديهم من خطط واقتراحات، وينتهي إلى الاتّفاق معهم على وضع خطةٍ تكفل تحسين أحوالهم في وحدتهم وخارجَها. ولا يكتفي بذلك بل يواظب على مراقبة الخطة ويسهر على سيرها وتنفيذها حتى تصيرَ أمامه واقعاً قائماً، وحتى يرى في هذا الواقع، أنّ الجندي له مسكنُه كما للضابط مسكنُه، وأنّ للجندي قدرةً على تأمين وسائل العيش والراحة في مسكنه كما للضابط قدرة، وإنْ هما

اختلفا في الدرجة والسويّة. وكثيراً ما كان يتعدّى، في تفقّده وعنايته، أحوالَ جنوده وضبّاطه إلى أسَرِهم وعائلاتٍ في قُراهم وفي مدنهم. فيرى المريضُ منهم أنَّ عنده من يعالجه، ويُحس الطالب أنَّ مستقبل دراسته وعملِه أصبح أكثرَ قرباً إلى الأمن والاستقرار، وأنَّ مَنْ تُعْوِزُه الوسائل لتنشيط أوضاع معيشته، أصبح من اليسير عليه أن يراها قريبةً منه. وكان يأمر أن يُخبِروه بِمَنْ تنزل به فاجعةٌ أو تحُلّ به مصيبة من ضبّاطه وجنوده، ليُسارع إليه بغَوْثٍ منه ومعونة، يستردُّ به المفجوع أو المصاب أنفاسَه، ويشعر بالعَزاء يَغمره ويُهوِّن عليه ما لاقاه وما حلَّ به.

ولسنا ننفع قولَ من يقول: لم يكنْ رفعت الأسد وحدَه هو الذي يَسلك هذا السلوك مع أفراد وحدته ويتدفّقُ عليهم هذا التدفُّقَ من العناية والرعاية، وإنّما كلُّ رئيسِ وحدةٍ عسكرية يفعل هذا الفعلَ عينَه، ولا يبعُد أن يكون هنالك من الرؤساء من هو متفوّقٌ في بذل رعايته لجنوده وفي اهتمامه بكلّ ما يَمَسُّ أحوالهم ويدخل في تقويم أود حياتهم وتقويته. ولا يقدر أحدٌ أن يدفع قولنا حين نقول أيضاً بعد أن استمعْنا إلى هذا الكلام: ولكنّنا لم نلقَ رئيس وحدةٍ استطاع أن يملِك قلوبَ جنوده كما مَلَكها رفعت، ولم يستطِعْ أنْ يأخذ منهم ولاءَهم وطاعتهم كما أخذها رفعت. ولم يتمكّن أنْ يحتفظ بعلاقة الودّ والاعتبار مدّةً طويلةً من الزمن كما تمكّن أن يحتفظ بها رفعت.

فلم يبقَ هنالك إذاً، ما يميِّز رفعت عن غيره من قادة الوحدات العسكرية، بل وعن غيرهم من القادة السياسيّين أيضاً في بلادنا إلّا فنُّ القيادة. ونعني بها هذه الطريقةَ التي تنتظم مجموعة من الصفات المختلفة التي لا غِنى لمَنْ يتولّى شؤون القيادة عن أنْ يتحلّى بها. وبعضُ هذه الصفاتِ ملحوظٌ وبعضها الآخر معلوم، لكنّه غير

ملحوظ ولا مشاهَد. وهي تشترك كلّها في إدخالِ القناعة إلى النفوس بهذه الشخصية القائدة وتُولِّد الثقة فيها، ومن ورائها تنعقد علاقاتُها مع الناس، تنتهي فيها إلى وحدةٍ لا انفصام لها وإلى اتّفاق لا اختلاف عنده. ومن شأن بعض هذه الصفات أن يقوم في الجسد ويختصَّ به، كالملامح في الوجه وكالقامة والصوت، ومن شأن بعضها الآخر أن يقوم في النفس كالرقّة في الطباع وصَفاء الإحساس وكحبِّ الناس والميلِ إليهم. ومهما ذكرْنا فستبقى هنالك في هذه الشخصية صفاتٌ واضحةٌ كلَّ الوضوح للبَصَر والبصيرة، لكنّها لا تخضع للعبارة، وتأبى أن تنزل تحت تعريف. وقريبةٌ كلَّ القرب من الفهم لكنّها لا تنقاد لشكلٍ من الأشكال ولا تندرج في لونٍ من الألوان.

ولو انّنا رحنا نستعين بما يتردّد على أفواه الناس من جُملٍ وعبارات وما هو سائرٌ وذائعٌ بينهم من أمثالٍ وامثلة، لعثرْنا على ما يقرِّب إلى الأذهان معنى قولنا فنُّ القيادة.. فهم يقولون: فلان قريبٌ من القلب، وكأنّهم يريدون، مِنْ حيث لا يشعرون، أن يعبِّروا عن هذه الصفات التي ذكرناها. ويقولون فلانٌ ثقيلٌ على القلب، ويَعنون وهم لا يعلمون، انَّه لا يَحمل شيئاً من هذه الصفات. ومِنْ أقوالهم: هذا خفيفُ الظلّ وهذا ثقيلُه، وهم يَرمُون بذلك إلى الحبّ الذي تُولِّده العلاقة مع هذا الشخص وإلى النفور الذي تخلقه العلاقة مع ذاك. ومن أقوالهم ايضاً: وجهُ فلانٍ يوحي بالراحة والثقة، ويَعنون بذلك تلك الملامحَ التي يَشِعُّ منها معنًى يُدخِل إلى النفوسِ راحةً وثقة. ووجه فلان يوحي بالشكّ والقلق، ويريدون بذلك، أنَّ ما في نفسه يتجمّع ويخرج، ثم يتشكّل ملامحَ وسماتٍ على وجهه. ثمّ تقوم هذه الملامح والسمات فتنطق بفصاحة وتعبِّر ببيانٍ عن الحبّ والاجتذاب أو عن الكُره والابتعاد. والآية القائلة في القرآن

المجيد: «تَعرِفُ في وجوهِهِم المُنكَر»، تشتمل على هذه المعاني، فالمنكر هو في النفس، ولكنّ الوجه يعبّر عنه بصورة أو ينقله بملامح يعرضها امام الآخرين. وفي القول المنسوب إلى الرسول الأعظم «استَعينوا في قضاء حوائجكم بصِباح الوجوه»، صورةٌ اخرى من البَيان عن هذه الملامح التي تَبعث على الرضى أو على الغضب في نفوس الآخرين.

والذين عَرَفوا رفعت الأسد من قريب وعاشوا معه، شهدوا له بأنه أُتيَ حظاً غيرَ قليل من فنّ القيادة وأنّه وُهبَ من الصفات ما يُمكّنه من الدخول إلى النفوس برضىً وسهولة، فليس في ملامح وجهه ما يدعو إلى الانقباض منه وإلى النفور عنه، وليس فيها ما يوحي بالميل إلى الإجرام ولا ما يدلّ على تعاطي المُنكَر، وليس على وجهه رسومٌ يَقرأ فيها القارئون البُصَرَاءُ انّه فاسدُ السلوك متحلّل الطباع. والذين جلسوا معه واستمعوا إليه، احبّوه أم لم يُحبّوه، لم يُنكروا عليه أنَّ فيه وداعةً ولطفاً يجتذبان إليه محدّثيه وجلّاسَه، وأنَّ عنده إنساً يتسرّبُ به إلى القلوب، ويتّخذ منه طريقاً إلى سامعيه يحمل إليهم معه الانبساط والراحة. وليس في صوته ما يبعث على جمود الإحساس أو على انقباضه منه، ولا على مضايقة الشعور واشمئزازه.

واحسَبُ انّ القرّاء والمطالعين، سيَجِدون في هذا الكلام ما يَبعث على الغرابة وما يُثير الدهشة، وربّما راح بعضُهم يتعجّب أيَّ تعجُّبٍ، حين يرى انّنا نُعطي للوجه وملامحِه دوراً غيرَ هيّن في التعبير عن الشخصية، وفي زيادة تأثيرها على النفوس أو نقصانه، وفي التعجيل بخلق الوفاء والانسجام او في التباطؤ والتقصير. ولا ارى لنفسي بدًا من خلقِ أعذارٍ لهؤلاء على تعجّبهِم الذي هم فيه، فقد لحِقَني ما لحقَهم من التعجب والغرابة، في أوّلِ

مرّةٍ رأيت فيها، من زمنٍ بعيد، اهتمامَ الباحثين بهذه الأشياء، واطّلعتُ على ما انتهتْ إليه أبحاثهم من خَطَراتٍ ونظرات، من حقّها أن تجد العنايةَ كلّ العناية. وإخالُ أنّهم لن يُحسّوا بهذه الدهشة التي أحسسْتُ بها يومَ أنْ ذهبتُ أقرأ فيما ذهبوا إليه من تفصيلات وتدقيقات. فذَكَروا من ذلك مثلاً قيمة الضحكة العالية وقيمة الابتسامة اللطيفة، ووازنوا بين أثرَيْهما على الإقبال والنفور وعلى التقارب والتباعد. وذَكَروا أثَرَ حركة اليد والرأس في الإيضاح وفي تقريب المعاني وتبعيدها. وأشاروا إلى أدقَّ من ذلك وأخفى ونَوّهوا بما لكلّ شيء من هذه الأشياء، من معنى، وإلى ما فيه من أهميّةٍ أو دور في استكمال الشخصية وجعلها قريبةً من القلوب أو بعيدةً عنها.

ولعلّنا أصبحْنا الآن نمتلِكُ عذراً مقبولاً، في ذكر ما ذكرناه عنِ السمات التي تطغو على الظاهر المرئيّ في شخصيّة رفعت الأسد. ولعلّه لم يعد مجهولاً على أحد ممّن يتعاطَوْن الحديث أو البحث في هذه المسائل، أنّ ظاهرَ كلّ فردٍ ليس معزولاً عن باطنه، وأنَّ الفردَ مهما حاول أن يَعزِلَ ظاهرهُ الذي هو وجهُه وملامحه، عنْ باطنه الذي هو نفسُه وأسرارُها فلن يجدَ إلى ذلك سبيلاً. نعم يستطيع أن يَحبِسَ نفسَه ويمنعَها أنْ تصعد من أغوارها إلى ظاهرِ وجهه، ويستطيع أن يَحول بينها وبينَ خروجها من مكامنها لتبدوَ على ملامحه، ولكنْ ليس إلى أكثر منْ فترةٍ قصيرة من الزمن، وإذا ألحَّ الفرد على حبسها وأمعن في كَبْتها ومنعها، فإنّها ستخرج عن طريق الغفلة والسَّهْو أو عنْ طريق القوّة والثورة.

وهكذا هو الشأن عند رفعت الأسد، إذ إنّه إنسانٌ لا يختلف عن غيره من الناس، له نفسٌ تحمل صفاتٍ وله جسدٌ يعكس هذه الصفات ويُظهرها. وإنَّ ما حكَيْناه ممّا شاهدنا من ظاهره لا يمكن

ان يظلَّ في منأىً عن هذا الذيَ في داخله ، ولا يَصِحُ عندنا أن نعتقد انَّ ظاهره ليس له صلةٌ بباطنه . وما قلناه عن اوصافه وبيّناه مِن سماته ، لا يجوز الحكمُ عليه بالبَراءة من طباعه وممّا في أعماق نفسه مِنَ الأخلاق او من التخلّق ، فنحن عندما شَهِدْنا له بالإنس والمعاشرة مثلاً ، اردنا ان نشهدَ من جهةٍ اخرى ايضاً ، انَّ الرجل في داخله يَميل إلى حبِّ الناس والتودّد إليهم ، وإلى كَسب حبّهم ووِدادهم ، اي انْ يأخذَ منهم وانْ يُعطيَهم ، كما يفعلُ كثيرٌ من الناس او كما يُحبُّ كثيرٌ منهم أن يفعلوا . ولا نرى لنا الحقّ بأنْ ننهض ونشهد عليه انَّه يصطنع اللطفَ والإنس في ظاهره ، ليَلفت الأنظار عمّا في داخله من ميولٍ تختلف اشدَّ الاختلاف عن لطفه وإنسه .

ولا يستطيع السامع ، وهو يستمع إلى رفعت الأسد ، إلّا أن يشهدَ له بأنَّ كلامَه يَصدر عن شهيّة وعن حبّ ، في أن يكون هو صاحبَ المبادرة في كلامِه وتحريك الرغبة عند الآخرين إلى الإصغاء والإنصات . ولا يستطيع وهو يتحدّث إلى رفعت ، إلّا ان يلحظه وقد مال ميلاً شديداً إلى الحديث ، ليس ليسمَعه فقط ، بل ليحاول أن يقرأ في وجه محدّثه ما يسمح له بمضاعفة الاستيعاب ، او بإضافةِ شيء جديد إلى ما يسمعه ، او باستلال الوجه الآخر للحديث الذي لا يريد المتحدّث ان يُظهرَه او انْ يَكشف عنه . ولا نُنكِر انَّ كثيراً من الناس يحاولون مثلَ هذه المحاولة ويَجهَدون مثل هذا الجهد ، وإنّما نُنكِر أن يفوز كثيرٌ منهم بما يفوز به رفعت من محاولته وجُهده . وهو يكتم عن محدّثه انَّه سمع منه شيئاً آخرَ غيرَ الذي اظهرَه من حديثه ، ويحتفظ به إلى وقتٍ يَعلم انَّه سيتّخذ منه سلاحاً يُهاجم به ، فينتصر او يدافع عن نفسه ويصمُد في وجه الهجوم . وهذا يعني انَّنا شَهِدْنا له بقوّةٍ في الفراسة ونحن لا ندري . وإذاً فلننقلِ الآن ، هل قوّته في الفراسة تعدل قوّتَه في الذكاء ؟ وما الفرق بين الذكاء والفراسة ؟

والحقّ انّ الفرق بينهما لا يكاد يُلحظ بهذه السهولة ، فإذا قلنا إنَّ الذكاء هو قوّة التفكير وسرعةُ الفهم ، فتكون الفراسة هي الرؤيةَ الواضحة او المعرفةَ الملقاة ، أو هي الفهمَ الذي يسبق قوّة التفكير . ونحن نميل إلى الاعتقاد أنْ يكون رفعت في فراسته أقوى منه في ذكائه ، وكذلك نميل إلى الاعتقاد ، بأنّه سيظلّ يعاني من الم يتحرّك في داخله ، لأنّه غلّب قوّة تفكيره وذكائه على فراسته في مواقفَ هامّةٍ مشهودَة من حياته سنأتي على ذكر بعضها عند الحديث على اختلافه مع أخيه . ولعلّنا لا نخطىء إذا اعتقدْنا وقلنا ، إنَّ عامل الوراثة هو من الأسباب الوجيهة التي جعلَتِ الداخل عند رفعت يتهيّأ لاستقبال موهبة الفِراسة ، ثمّ جاءت الطبيعة الواسعة الخضراء التي وُلِدَ فيها كما تولد الطيور ، فرَفَدتْ هذه الوراثة وامدّتْها بخصوبة الاستعداد ، ثمّ جاءت هذه القرية التي شهدت ولادتَه في عائلةٍ ، كان أوّلَ ما طرق سمعَه منها آياتٌ من القرآن المجيد ، والفاظٌ تُوحي بالغيوب والأمداء البعيدة التي تقبل أن تكون الطبيعة الممتدّة الخضراء باباً لها . وفي القرية مثقّفون يُعنَوْن بالمباحث الروحية ويُوقِظون مسائلَها في نفوسهم ، كما يوقِظونها في نفوس الآخرين . فلا بدَّ أن يكون رفعت قد أخذَ بنصيبٍ من هذه المباحث واطلّع على قَدْرٍ منها ، وهي ولا شكَّ تغني الخيالَ وتَزيد في خصوبته ، ثم تتحوّل فتصير سبباً آخرَ من الأسباب التي تَزيد في فِراسته أو تزيد في تهيئته لاستقبال الفراسة . ومهما حاول الباحثون واجتهدوا في السعي للكشف عن علّة الفراسة والوصول إلى الأسباب التي تخلقها او تساعد على صنعها ، فإنَّ حجاباً كبيراً سيبقى مسدولاً بينهم وبين الاطّلاع على حقيقة الفراسة .

وقدْ تَناقل الرُّواة والمحدّثون ، انّه كان للنعمان بنِ المُنذِر في العام يومان : يومُ بؤسٍ ويومُ نعيم ، وكان مَنْ يَفِدُ عليه في يوم

بؤسه، يقع في البؤس والهلاك، ومن يَفِدُ عليه في يوم نعيمه كان يصيب نعيماً وسعادة. ولم يكنِ النعمان يدري لماذا يفعل ذلك، ولم يكنْ غيره من الناس يدرون أيضاً. وهذه هي الحالُ عينُها تكاد تكون موجودةً عند رفعت الأسد، ولكنْ ليس في العام مرّةً، وإنَّما في اليوم الواحد، وربَّما في الساعةِ الواحدة. وأعني أنْ أقول من وراء ذلك، أنَّه يتعرّض في الحين الصغير الواحد لانفعالات مِنَ الغضب ثمّ لانفعالات أخرى من الرضى، وقد يَعلَم سبباً لذلك وقد لا يَعلم. وكلّ ما يَعرِض له في أوان انفعالات الغضب، من معاملة أو شخص أو سيرة أو أيّ شيء، فإنَّه سيناله نصيبٌ مِن انفعاله، وقد يكونُ أخفُّه الجمودَ والبرودة، وقد يكون أقصاه أن يرتفع الصوت أو تقوى حدّةُ الانتهار. ومِنْ ذلك أنَّ جنديًّا من جنوده وَجد يوماً بابَ مكتبه مفتوحاً، ورآها فرصةً سانحةً لعلّه يحظى منه بحُظوة، فدخل عليه وعظّم له التحيّة، ولم يَعلَم أنَّه وقع على حظّه العاثر. فقد كان رفعت في انفعالات الغضب، ما إنْ رأى الجندي حتى صرخَ في وجهه وانتهره، ثم نادى مديرَ مكتبه، وقال له: خذ هذا وضَعْه في السجن ولا تذكِّرْني به إلّا بعد خمسةِ الآف سنة. ولكنْ لم يطُلْ عليه الوقت، فقد أخذتْ غيوم الغضب تنكشف رويداً رويداً من سماء نفسه، وبدأ الصحْوُ يأخذ مكانَه فيها قليلاً قليلاً. وعادتْ نفسه صاحيةً صافية، فهمسْنا في أذن مدير المكتب، أنْ يُذكّره بأن الجندي قد قضى الآن في السجن خمسة الآف سنة وأنّ من حقّه أن يخرج الآن، وعندما ذكّره به، ضحك وأذِن بإطلاق سراحه.

ولم يَقَع لي أنّني تعرّضتُ في يومٍ من الأيّام إلى غضبه أو إلى أثرٍ من آثار انفعالاته وهو في حالة الغضب، ولم يوجّه إليّ كلمةً قاسيةً أو نابية، ولم يَرشُقْني بنظرةٍ واحدة من نظرات الزجر والإهانة. وعلى مدى عامين وبعض العام، وهي المدّة التي قضيتُها

إلى جانبه في خدمة العَلَم ، لم يَمضِ عليّ يومٌ إلّا وكنتُ اسعى إلى لقائه ما سوى اوَيقاتٍ كان يَغيب فيها لعملٍ او لأمرٍ من الأمور ، أو أويقاتٍ كنتُ اغيب أنا فيها للاستمتاع بالعطلة ، أو لأمرٍ من الأمور . وقد سمحَتْ لي هذه المدّة التي قضَيتُها إلى جانبه ، أن أراه بحالاته كلّها ، في غضبه ورضاه ، وفي عبوسه وطلاقته ، وفي اجتماعاته بجنوده ، وفي السلم وفي الحرب ، فما واجهني يوماً إلّا بوجهٍ يطفح بالبِشر ونفسٍ تَفيض بالرضى . وكنتُ مغبوطاً من ضبّاطٍ ومحسوداً من ضبّاطٍ آخرين في الوحدة على هذه المنزلة التي آثرَني بها . ولعلّي لا أبالغ إذا قلت ، بأنّني شاهدتُ اكثرَ ضبّاطه يمُرّون به جالسين معه أو واقفين ، وهم يتلقَّوْن منه قوارص الكلام عقوبةً على إهمالٍ او تأنيباً لارتكاب سيّئة ، أو تحذيراً مِنَ الإقدام على مُنكَر ومَفسدة في المستقبل . ولشدّ ما كنتُ أُمسِك على نفسي وأراقبها ، لكي لا اغمز من قدْر واحدٍ من هؤلاء الذين رأيتُهم في موقع التأنيب والإهانة او اسخرَ منه ، فكلّهم كانوا اصحابي ، واكثرُهم كانوا يتلقَّوْن منه هذا الموقف بكلّ حبٍّ ورضًى ، لأنّهم لم يلمُسوا فيه إلّا تربيةً لهم وإشفاقاً عليهم . والذين حزَّ في نفوسهم الألم منهم لتكرار مثل هذا الموقف منه ، لم يَمنعهم مِنَ الانتقال إلى وحداتٍ أخرى عندما اظهروا عن رغبتهم في ذلك ، ولم يَقطع عنهم صلته إذا هم حاولوا عقدها معه من جديد .

وكيف اقول عن هذه الصحبة التي كانت بيننا ؟ أم كيف تراني أهتدي إلى اكتشاف الأسباب التي خلقتْها وجعلتْها تعتلق برباطٍ من الودّ ، لا هو رباطٌ بين ندّين ولا هو رباطٌ بين رئيس ومرؤوس ؟ ومهما حاولتُ ان التمسَ من اسباب لتعليل هذه الظاهرة ، فلا مفرَّ لي مِنَ الاعتراف ، بأنّ عناية الخالق عزّتْ قدرته هي التي هيّأتْ لها ، وهي التي احاطتها ومَنّتْ عليها باللطف الخفي ، ولم أدرِ بذلك ولم

أعلم به. أمّا انا فلم يكُنْ عندي سحرُ ساحرٍ لألقيَ في رَوْعِ هذا الرجل أخيلةً واشباحاً تُصرِّف قِياده، ولم يكُنْ لديَّ كهانةُ كاهنٍ، لأحضِر له الجِنَّ واجعلَهم عبيداً يعملون بأمري عنده، ولم أكن أمتلِك حَجَرَ الكيمياء او حَجَرَ الفلاسفة الذي، إذا سُلِّطَ على المعادن والأشياء ينقلُها عن حالاتها؛ ويغيِّرُ فيها طباعها وخصائصَها، وتصير إلى مقام أرقى ووضع أشرف.

وإلى ذلك كلّه، فلستُ على حقٍّ عندما أُنكِر لنفسي دورَها وأهملُها وأدّعي انّها لم تكنْ ذات شأنٍ وقيمة في صياغة هذه الصحبة وتلوين رسمها بهذه الألوان التي ظهرت بها. فلا أعرف، ولا يعرف غيري معي، انّني اتّخذتُ من النفاق وسيلةً عنده، لأستلبَ منه مالاً او لأبتزَّ مكانةً او لأقضي امراً لا يُقضى إلّا بعد إذنه وتدخُّله. ولكنْ لا انكِرُ المجاملة التي كثيراً ما كنت امتطيها للدخول إلى عقله والاتّفاقِ معه على قناعةٍ في أمرٍ أو في قضيةٍ. ولم تكن تخفى عليه ولا على احدٍ في انها مجاملة محمودة، وانّها غايةٌ في الأناقة واللباقة في بعض الأحيان. فلا اعرف، ولا يعرف غيري معي ايضاً، انّني جعلت من مقامي عنده وسيلةً لدى الآخرين لأكتسبَ منهم ثروةً او لأفوزَ منهم بصيد، يَهمُّ الناسَ أن يفوزوا به، إلّا ما كان من إعانة مضطرٍّ أو غَوْث ضعيفٍ أو رفعِ ظُلامة. وها هي حياتي مكشوفةٌ لكلّ من يريد أن يعاينها ويشاهدَها، فلا دُورَ ولا قصور، ولا حاشيةَ ولا ماشية، ولا رياشَ ولا مَتاع، ولا أسفَ لذلك ولا حسرةَ عليه. وها هي عيناي في عيون من يتقوّلون ومَنْ يروِّجون ومن يوحون بغير ذلك. وكذلك لا أعرف، ولا يعرف غيري معي، انّني صنعت من مكانتي عنده، سلاحاً أُغير به على الآخرين لأوقع بهمِ الأذى والضرور، أو لأحبس عن الآخرين رزقاً أو لأوغر صدره ضدَّ هذا وذاك، ثمّ إنّني لم امشِ بسلوكٍ شائنٍ إلى مكان آمن،

ولم أسعَ إلى مستنقع او إلى منزلق، ولا إلى مظهر من مظاهر الطيش والعبث، ولا إلى لَوثةٍ مهما كانت ضئيلة، تُرمى على سمعته وشَرفه وكرامته. اللّهمَّ إنّي لا أبرِّىء نفسي من هناتٍ ومن سقطاتٍ ومن خطيئات، ولكنّها كانت تنزل بي وحدي، ولا تقترب من الآخرين ولا تهمُّ بهم.

كان رفعت يعلم ذلك كلَّه، ولا ينسى أن يُشيدَ به بين الحين والحين، وكان يعلم حقًّا ويطمئنّ كلَّ الاطمئنان، إلى أنّني لن أغدُر به ولا بواحدٍ من أعمدةِ السلطة بهذه الطرق القبيحة الفاجرة التي يلجأ إليها الحمقى، كالمباغتة أو الطعن في الخفاء، أو زرع متفجّر أو التغرير بحارسٍ أو جنديّ مقرّب، ولا هدف لهم من ذلك إلّا بثُّ الاضطراب وإشاعةُ القلق والفوضى بين الهانئينِ الآمنين. كان يطمئنّ إلى ذلك وإلى السلوك السويّ الذي لا يستطيع أن يعثر على شيءٍ آخرَ غيره عندي، وإنْ هو راح يُعجَب لِما أُفاتِحُه به، في كلّ لقاء بينَنا، من تنديد بخطر هذه المفاسد التي تتكدّسُ يوماً بعد يوم من عَبَثِ رجال السلطة ومن تخبُّطهم وجرائمهم على صدر هذا الشعب الذي يكاد يقضي من شدّةِ الاختناق. وكنت أُمعِنُ أحياناً أمامَه في انتقاد أجهزة السلطة وهيكلِها وروحِها وطرقِها الملتوية إلى حدّ التعنيفِ والتجريح، بل وأتجاوز ذلك إلى التسفيه وإلى الاتهام.

وكنتُ أخشى أن أتعرّض لأخيه الأكبر حافظ ولو من وراء إشارة، وأُبقيه في مكانه من الزينة والأبّهة، إلّا إذا رأيتُه هو تعرَّض له وأشار بإصْبَعِه إليه من دون تورية. فلا أترُك الفرصة ساعتئذٍ تمضي دون أن أثبَ وأرميَهُ من وراءِ كنايةٍ رشيقةٍ أو استعارةٍ خبيثة أو تورية قارصة، وأعود إلى مكاني وكأنّني لم أقل شيئاً. ولكنَّ اللعبة لم تكنْ لتنطليَ عليه، فكان يقابلها أحياناً بابتسامةٍ لا تخلو من معنًى أو بنظرة، ألمح منها أنّ الغمزة لم تفتْه، وأنّه إنْ لم يُحِبَّ

ان يُظهرَ ارتياحاً لها فهو لا يرضى ايضاً أن يُظِهرَ امتعاضاً ولا تضايقاً.

وكانت تقع عليَّ القرعةُ احياناً، كما يقولون، فيختارُني لأكتب له خطابَه الذي سيلقيهِ بعد فترةٍ في مؤتمرٍ او في إحياء ذكرى او في احتفالٍ وطنيّ أو قومي. واحياناً لأنشىء له محاضرته التي لا بدَّ أن يُحاضِرَ بها في ذلك المكان بدعوةٍ من هيئةٍ وطنية أو من تنظيم شعبي. وكان يكتفي أن يَذكر لي المناسبة، من غير أن يتعرّض إلى إملاء افكار رئيسية، ومن دون أنْ يُفصّل فيما ينبغي ان يُذكَر ويقال. وكنت اكتب له بإخلاص ما اتوقع انّه سيأخذ محلًا في افكار الآخرين وفي اعتبارهم، وذلك كما اتحدّث معه بإخلاص وكما اسلك معه بإخلاص. ولم ينسَ بعدَ كلّ مرّةٍ يُلقي فيها خطابَه أو يحاضر بمحاضرته، أن يُسِرَّ لي بالرضى ويُقابِلَني بالانبساط، ويحدّثَني بما سمعَه مِنَ الإعجاب، وبما شاهده في الأعين وعلى الوجوه من السرور والراحة والاطمئنان. ولن أترك الفرصة تمرّ الآن دون أن انكر تلك الحادثة التي لا انساها، وهي انّني التقيْتُ يوماً احمد اسكندر أحمد، وكان بيننا ودٌّ مَزيقٌ وصداقةٌ مَشوبة، فحدّثني بأنّه استمع إلى محاضرة، كان رفعت قد القاها في الزبداني، ثم سألني قائلاً: هل انت الذي انشأتَ له هذه المحاضرة؟ فقلت له: نعم، ولعلّه لم يَفُتْكَ الاصغاء إلى محاضراتٍ أخرى، كان قد القاها في هذا المكان وفي ذاك المكان. ولست أدري لماذا توقّعتُ أن لا اكتب له بعد هذه الحادثة محاضرةً أخرى؟ ثمّ لست أدري لماذا كان الذي توقّعتُ؟

وكان قد عهدَ إليَّ اكثرَ من مرّة مهمّةَ تمثيله في احتفال أو مهرجان لم يَسَعْه أن يَحضُره بنفسه لأسبابٍ، لم يكن يعنيني أن اعرفها، وكنتُ ارتجل كلمةَ التمثيل ارتجالاً بهذه الحريّة التي كنت

اكتب بها تلك المحاضرات التي يَعهدُ إليّ مسؤولية كتابتها . فلا أرى في هذه حَرَجاً ولا ضيقاً من عرض الفكرة التي أشاء بالأسلوب التي أريد ، كذلك لم أرَ في تلك لا حَرَجاً ولا ضيقاً ، لا في العَرض ولا في الأسلوب. ولعلّي كنت أحسن اصطناعَ الفُرص وأُفلِحُ في اختلاقها ، لبَثّ مغامزَ غيرِ هيّنة من سيرة السلطة الفاسدة ومن أركانها الموطّدين ، أو من مواقفَ لا تنبىء بخير البلاد .

ولا أريد أن أُنكر أنَّ رفعت الأسد ، كان يطّلع على هذه المغامز وكان يضحك لها ويراها جميلةً في مواقعها ، معبِّرةً عن زمانها ومكانها . وما كان يُخفي عنّا في جلساتنا ، أنّه ليس مستريحاً لسيرة السلطة ، وأنَّ الواقع القريب الذي يترقّبه للبلاد والواقعَ البعيد لا يحملان لها بشرى بخير ولا بسعادة . ولا تزال بعض كلماته الجميلة المعبِّرة تحتفظ بمكانها الآمن من ذاكرتي ، وتَرِنُّ أحياناً في اذني فأذكرُها وهو على حالته التي قالها فيها من الامتعاض والألم : عندما يَصنع سيّدُ السلطة جهاز سلطته من لُعَب فلن تَجنيَ البلادُ منهم إلّا التعب. وعندما لا يكون لهم دورٌ ولا عمل ، فسيختلقون الأدوار وسيفتعلون الأعمال .

وأذكر أنّه كان يوجد في جلساتنا اكثرُ من محتجّ ومن سائل متعجِّب ، وكان يقوم الاحتجاجُ منهم وينهضُ التساؤل عن هؤلاء المُفسِدين : لماذا لا يؤخذ على أيديهم ؟ وعن هؤلاء المتمرّسين في إحداث الفوضى واصطناع الخلل : لماذا لا يُؤتى على معالجتهم أو على استئصالهم وهم في موقعهم أشدُّ خطورةً على النظام منهم على الشعب ؟ وإنْ يبدو لنا أنّه لا يستطيع أنْ يقول كلَّ شيء ، فيأوي آنذاك إلى الإيجاز في ذكر الأسباب ، أو يأتي على شرحٍ عابرٍ بسيطٍ لها ، لا يخلو أن يتأوّه فيه بين الحين والحين ، أو أن ينفُخَ ويتنهّد ، وكان لكلٍّ منّا أن يجتهد عند ذلك وأن يحتفظ لنفسه باجتهاده. وربّما

أصيبُ إذا قلتُ إنّ اجتهاداً واحداً كان يجمع بيننا وهو : أنّ رفعت ينطوي في نفسه على نوايا تتّجه إلى قلب هذا الجهاز ، وليس إلى تغييره ، ولكن لا بدَّ له من إعداد العدّة أو العُدَد ومن رسم الخطة أو الخطط ، ولا بدَّ له من أن يشدَّ شَدّةً كبرى لكي يُزيحَ هذه البليّةَ المُتكمّشة بعروق الشعب والمسيطرةَ على حقوقه ومصيره . ولبثْ قليلاً فنحن سنتعرّف عليْ هذهْ البليّة ، وسيكون لها فيما سيأتي من بحثنا وحديثنا نصيبٌ رجراج ، ومن تُرى ستكون هذه البلّية غيرَ اخيه الأكبر حافظ ؟

وإلى هنا ، ربّما لم يعد خافياً على أحدٍ أنَّ هذه الصحبة التي انعقدتْ بيني وبين رفعت الأسد ، أزاحتِ الأستار والحُجُب من أمامي ، فأخذتُ أنظر إليه وهو يتكلّم ويفكّر وينوي ، وعرفتُ سلوكه وخَبِرتُ طِباعَه واخذتُ انظر إلى أعمدة السلطة من مكانٍ قريب ، بل اشرفتُ عليهم ورأيتُهم أوضحَ ممّا يرَوْن أنفسَهم ، وعَرَفْت مواقعهم وكيف يتحرّكون اكثر ممّا عرفوا ، وقرأتُ شيئاً كثيراً مِنْ مستقبلهم ومِنْ مستقبل البلاد ، واحياناً مستقبلِ هذه الأمّة التي لم يَبْقَ لها من أعمدةٍ ترتفع عليها وتقوى بها إلّا أمثالُ هؤلاء . وكذلك اخذتُ أنظر إلى جهاز السلطة ، وهو الذي تقوم عليه أعمدتُها ، واتأمّلُ فيه ، فأحزَن ، ثم أتأمّل واصمت ، لأنّه لا يريد أنْ يَسمَع إذا أنا تكلّمتُ ، ولا يريد أنْ أسمع إذا هو تكلّم .

ومن اهمّ ما اكتسبتُه في هذه الصحبة ، بل اكثرِ ما أفرحني فيها أنّني واجهتُه وعثرتُ عليه ، هو التفرّج على الجهاز الخفيّ المبعثَر في مختلِف طبقات الشعب . وأعني به أولئك الذين يحبّون أن يكونوا عبيداً لرجال السلطة وخدّاماً أمناءَ لأصحاب النفوذ ، فيأكلون من الفضلات ويشربون من الثمالات ، ويهيّئون الفُرُشَ الوثيرة ، ثمَّ يسلّطون بعد ذلك سِحرهم على رجال السلطة فيجعلون

منهم عبيداً لهم في السرّ، ويصنعونهم إمّعاتٍ يحرّكونهم على هواهم، ولا يَرمون لهم من الفضلات إلّا القليلَ، ولا يَسقونهم إلّا ما يبلّ الريق. نعم رأيت هؤلاء وهم ينسجون الحيلَ من كل الخيوط ويصنعونها البسةً فيها كلُ الألوان، وعلى كلّ لون عينُ ساحرٍ تبثّ السحر، ولسانُ كاهن يدمدم بالنبرات ويسفح العبرات. لقد نظرتُ إلى هؤلاء وعرفتُهم، ولا يصدّق أحدٌ من الشعب أنّني نظرت إليهم وعرفتُهم. بل لا يعتقد بهم أنّهم موجودون، لأنّه لا يرى على مسرح الأحداث وفي وجه الوقائع إلّا السلطةَ ووسائلَها وآلاتِها. وعلى الشعب أنْ لا يرى بعينيه فقط وأنْ لا يسمعَ بأذنيه فقط، ويكفي أنْ يرى بعقله مرّةً واحدة ليستغنيَ بعد ذلك عن كلّ رؤية، وأن يسمع بفكره مرّةً واحدة ليستغنيَ بعد ذلك عن كلّ سمع، وأنْ لا يَلحق أولئك الذين لهم أعينٌ ولكن لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ ولكن لا يسمعون بها.

وإلى ذلك كلّه، فلستُ على حقٍّ عندما أُنكِر لنفسي دورَها وأُهملُها وأدّعي أنها لم تكنْ ذات شأنٍ وقيمة في صياغة هذه الصحبة وتلوين رسمها بهذه الألوان التي ظهرت بها. فلا أعرف، ولا يعرف غيري معي، أنّني اتّخذتُ من النفاق وسيلةً عنده، لأستلبَ منه مالاً أو لأبتزَّ مكانةً أو لأقضي أمراً لا يُقضى إلّا بعد إذنه وتدخُّله. ولكنْ لا أنكِرُ المجاملة التي كثيراً ما كنت أمتطيها للدخول إلى عقله والاتّفاقِ معه على قناعةٍ في أمرٍ أو في قضية. ولم تكن تخفى عليه ولا على أحدٍ في أنها مجاملة محمودة، وأنّها غايةٌ في الأناقة واللباقة في بعض الأحيان. فلا أعرف، ولا يعرف غيري معي أيضاً، أنّني جعلت من مقامي عنده وسيلةً لدى الآخرين لأكتسبَ منهم ثروةً أو لأفوزَ منهم بصيد، يَهمُّ الناسَ أن يفوزوا به، إلّا ما كان من إعانةِ مضطرٍّ أو غَوْث ضعيفٍ أو رفعِ ظُلامة. وها

في حياتي مكشوفةً لكلّ من يريد أن يعاينها ويشاهدَها ، فلا دُورَ ولا قصور ، ولا حاشيةَ ولا ماشية ، ولا رياشَ ولا مَتاع ، ولا أسفَ لذلك ولا حسرةَ عليه . وها هي عيناي في عيون من يتقوّلون ومَنْ يروّجون ومن يوحون بغير ذلك . وكذلك لا أعرف ، ولا يعرف غيري معي ، أنّني صنعت من مكانتي عنده ، سلاحاً أُغير به على الآخرين لأوقع بهم الأذى والضرر ، أو لأحبس عن الآخرين رزقاً أو لأوغر صدره ضدَّ هذا وذاك ، ثمّ إنّني لم امشِ بسلوكٍ شائنٍ إلى مكان آمن ، ولم أسعَ إلى مستنقع أو إلى منزلق ، ولا إلى مظهر من مظاهر الطيش والعبث ، ولا إلى ما يخلقُ ظلًّا من الظلال ، مهما كان خفيفاً ، يُحسب سوءاً على رفعت ، ولا إلى لَوثةٍ مهما كانت ضئيلة ، تُرمى على سمعته وشَرفه وكرامته . اللّهمَّ إنّي لا أبرِّىء نفسي من هناتٍ ومن سقطاتٍ ومن خطيئات ، ولكنّها كانت تنزل بي وحدي ، ولا تقترب من الآخرين ولا تهمُّ بهم .

كان رفعت يعلم ذلك كلَّه ، ولا ينسى أن يُشيدَ به بين الحين والحين ، وكان يعلم حقًّا ويطمئنّ كلَّ الاطمئنان ، إلى أنّني لن أغدُر به ولا بواحدٍ من أعمدةِ السلطة بهذه الطرق القبيحة الفاجرة التي يلجأ إليها الحمقى ، كالمباغتة أو الطعن في الخفاء ، أو زرع متفجّر أو التغرير بحارسٍ أو جنديّ مقرّب ، ولا هدف لهم من ذلك إلّا بثُّ الاضطراب وإشاعةُ القلق والفوضى بين الهانئينِ الآمنين . كان يطمئنّ إلى ذلك وإلى السلوك السويّ الذي لا يستطيع أن يعثر على شيءٍ آخرَ غيرِه عندي ، وإنْ هو راح يُعجَب لِما أُفاتحُه به ، في كلّ لقاء بيننا ، من تنديد بخطر هذه المفاسد التي تتكدّسُ يوماً بعد يوم من عَبَثِ رجال السلطة ومن تخبُّطهم وجرائمهم على صدر هذا الشعب الذي يكاد يقضي من شدّةِ الاختناق . وكنت أُمعِنُ احياناً امامَه في انتقاد أجهزة السلطة وهيكلِها وروحِها وطرقِها الملتوية إلى حدّ

التعنيف والتجريح، بل واتجاوز ذلك إلى التسفيه وإلى الاتهام.

وكنتُ اخشى ان اتعرّض لأخيه الأكبر حافظ ولو من وراء إشارة، وأبقيه في مكانه من الزينة والأبّهة، إلّا إذا رأيته هو تعرّض له واشار بإصْبَعِه إليه من دون تورية. فلا اترُك الفرصة ساعتئذٍ تمضي دون ان اثبَ وارميَهُ من وراءِ كنايةٍ رشيقةٍ او استعارةٍ خبيثة او تورية قارصة، واعود إلى مكاني وكأنّني لم اقل شيئاً. ولكنَّ اللعبة لم تكنْ لتنطليَ عليه، فكان يقابلها احياناً بابتسامةٍ لا تخلو من معنًى أو بنظرة، ألمح منها انّ الغمزة لم تفُته، وانّه إنْ لم يُحِبَّ أن يُظهرَ ارتياحاً لها فهو لا يرضى ايضاً أن يُظِهرَ امتعاضاً ولا تضايقاً.

وكانت تقع عليَّ القرعةُ احياناً، كما يقولون، فيختارُني لأكتب له خطابَه الذي سيلقيهِ بعد فترةٍ في مؤتمرٍ او في إحياء ذكرى او في احتفالٍ وطنيّ او قومي. واحياناً لأنشيء له محاضرته التي لا بدَّ أن يُحاضِرَ بها في ذلك المكان بدعوةٍ من هيئةٍ وطنية أو من تنظيم شعبي. وكان يكتفي أن يَذكر لي المناسبة، من غير أن يتعرّض إلى إملاء افكار رئيسية، ومن دون أنْ يُفصِّل فيما ينبغي ان يُذكَر ويقال. وكنت اكتب له بإخلاص ما اتوقّع انّه سيأخذ محلًّا في أفكار الآخرين وفي اعتبارهم، وذلك كما أتحدّث معه بإخلاص وكما أسلك معه بإخلاص. ولم ينسَ بعدَ كلّ مرّةٍ يُلقي فيها خطابَه او يحاضر بمحاضرته، أن يُسِرَّ لي بالرضى ويُقابلَني بالانبساط، ويحدّثني بما سمعَه مِنَ الإعجاب، وبما شاهده في الأعين وعلى الوجوه من السرور والراحة والاطمئنان. ولن أترك الفرصة تمرّ الآن دون أن اذكر تلك الحادثة التي لا انساها، وهي انّني التقَيْتُ يوماً احمد اسكندر احمد، وكان بيننا ودٌّ مَممذوقٌ وصداقةٌ مَشوبة، فحدّثني بأنَّه استمع إلى محاضرة، كان رفعت قد القاها في

الزبداني ، ثم سألني قائلاً : هل أنت الذي انشأتَ له هذه المحاضرة ؟ فقلت له : نعم ، ولعلّه لم يَفُتْكَ الاصغاء إلى محاضراتٍ أخرى ، كان قد القاها في هذا المكان وفي ذاك المكان . ولست أدري لماذا توقّعتُ ان لا اكتب له بعد هذه الحادثة محاضرةً أخرى ؟ ثمّ لست أدري لماذا كان الذي توقّعتُ ؟

وكان قد عهدَ إليَّ أكثرَ من مرّة مهمّةَ تمثيله في احتفال أو مهرجان لم يَسَعْه أن يحضُره بنفسه لأسبابٍ ، لم يكن يعنيني أن اعرفها ، وكنتُ ارتجل كلمةَ التمثيل ارتجالاً بهذه الحريّة التي كنت اكتب بها تلك المحاضرات التي يَعهدُ إليَّ مسؤولية كتابتها . فلا أرى في هذه حَرَجاً ولا ضيقاً من عرض الفكرة التي اشاء بالأسلوب التي أريد ، كذلك لم أرَ في تلك لا حَرَجاً ولا ضيقاً ، لا في العَرض ولا في الأسلوب . ولعلّي كنت أُحسن اصطناعَ الفُرص وأُفلِحُ في اختلاقها ، لبَثِّ مغامزَ غيرِ هيّنة من سيرة السلطة الفاسدة ومن اركانها الموطّدين ، أو من مواقفَ لا تنبىء بخير البلاد .

ولا أريد أن أُنكر أنَّ رفعت الأسد ، كان يطّلع على هذه المغامز وكان يضحك لها ويراها جميلةً في مواقعها ، معبِّرةً عن زمانها ومكانها . وما كان يُخفي عنّا في جلساتنا ، أنّه ليس مستريحاً لسيرة السلطة ، وأنَّ الواقع القريب الذي يترقّبه للبلاد والواقعَ البعيد لا يحملان لها بشرى بخير ولا بسعادة . ولا تزال بعض كلماته الجميلة المعبِّرة تحتفظ بمكانها الآمن من ذاكرتي ، وتَرِنُّ احياناً في أذني فأتذكّرُها وهو على حالته التي قالها فيها من الامتعاض والألم : عندما يَصنع سيِّدُ السلطة جهاز سلطته من لُعَب فلن تَجنيَ البلادُ منهم إلّا التعب . وعندما لا يكون لهم دورٌ ولا عمل ، فسيختلقون الأدوار وسيفتعلون الأعمال .

وأذكر أنّه كان يوجد في جلساتنا أكثرُ من محتجّ ومن سائل

متعجّب ، وكان يقوم الاحتجاجُ منهم وينهضُ التساؤل عن هؤلاء المُفسِدين : لماذا لا يؤخذ على أيديهم ؟ وعن هؤلاء المتمرّسين في إحداث الفوضى واصطناع الخلل : لماذا لا يُؤتى على معالجتهم أو على استئصالهم وهم في موقعهم أشدُّ خطورةً على النظام منهم على الشعب ؟ وكان يبدو لنا أنّه لا يستطيع أنْ يقول كلَّ شيء ، فيأوي آنذاك إلى الإيجاز في ذكر الأسباب ، أو يأتي على شرحٍ عابرٍ بسيطٍ لها ، لا يخلو أن يتأوّه فيه بين الحين والحين ، أو أن ينفخَ ويتنهّد ، وكان لكلٍّ منّا أن يجتهد عند ذلك وأن يحتفظ لنفسه باجتهاده . وربّما أُصيبُ إذا قلتُ إنّ اجتهاداً واحداً كان يجمع بيننا وهو : أنّ رفعت ينطوي في نفسه على نوايا تتّجه إلى قلب هذا الجهاز ، وليس إلى تغييره ، ولكن لا بدَّ له من إعداد العدّة أو العُدَد ومن رسم الخطة أو الخطط ، ولا بدَّ له من أن يشدَّ شَدّةً كبرى لكي يُزيحَ هذه البليّةَ المُتكمّشة بعروق الشعب والمسيطرةَ على حقوقه ومصيره . ولبْثْ قليلاً فنحن سنتعرّف على هذه البليّة ، وسيكون لها فيما سيأتي من بحثنا وحديثنا نصيبٌ رجراج ، ومن تُرى ستكون هذه البليّة غير أخيه الأكبر حافظ ؟

وإلى هنا ، ربّما لم يعد خافياً على أحدٍ أنَّ هذه الصحبة التي انعقدتْ بيني وبين رفعت الأسد ، أزاحتِ الأستار والحُجُب من أمامي ، فأخذتُ أنظر إليه وهو يتكلّم ويفكّر وينوي ، وعرفتُ سلوكه وخَبِرتُ طِباعَه وأخذتُ أنظر إلى أعمدة السلطة من مكانٍ قريب ، بل أشرفتُ عليهم ورأيتُهم أوضحَ ممّا يرَوْن أنفسَهم ، وعَرَفتُ مواقعهم وكيف يتحرّكون أكثر ممّا عرفوا ، وقرأتُ شيئاً كثيراً مِنْ مستقبلهم ومِنْ مستقبل البلاد ، وأحياناً مستقبل هذه الأمّة التي لم يَبْقَ لها من أعمدةٍ ترتفع عليها وتقوى بها إلّا أمثالُ هؤلاء . وكذلك أخذتُ أنظر إلى جهاز السلطة ، وهو الذي تقوم عليه أعمدتُها ، وأتأمّلُ فيه ،

فأحزن، ثم أتأمل وأصمت، لأنَّه لا يريد أنْ يسمع إذا أنا تكلّمتُ، ولا يريد أنْ أسمع إذا هو تكلّم.

ومن أهمّ ما اكتسبتُه في هذه الصحبة، بل أكثر ما أفرحني فيها أنّني واجهتُه وعثرتُ عليه، هو التفرّج على الجهاز الخفيّ المبعثَر في مختلف طبقات الشعب. وأعني به أولئك الذين يحبّون أن يكونوا عبيداً لرجالِ السلطة وخدّاماً أمناءَ لأصحاب النفوذ، فيأكلون من الفضلات ويشربون من الثمالات، ويهيّئون الفُرُشَ الوثيرة، ثمَّ يسلّطون بعد ذلك سِحرهم على رجال السلطة فيجعلون منهم عبيداً لهم في السرّ، ويصنعونهم إمّعاتٍ يحرّكونهم على هواهم، ولا يَرمُون لهم من الفضلات إلّا القليلَ، ولا يَسقونهم إلّا ما يبلّ الريق. نعم رأيت هؤلاء وهم ينسجون الحيلَ من كل الخيوط ويصنعونها البسةً فيها كلُ الألوان، وعلى كلّ لون عينُ ساحرٍ تبُثّ السحر، ولسانُ كاهنٍ يدمدم بالنبرات ويسفح العبرات. لقد نظرتُ إلى هؤلاء وعرفتُهم، ولا يصدّق أحَدٌ من الشعب أنّني نظرت إليهم وعرفتُهم. بل لا يعتقد بهم أنَّهم موجودون، لأنَّه لا يرى على مسرح الأحداث وفي وجه الوقائع إلّا السلطةَ ووسائلَها وآلاتِها. وعلى الشعب أنْ لا يرى بعينيه فقط وأنْ لا يسمعَ بأذنيه فقط، ويكفي أنْ يرى بعقله مرّةً واحدة ليستغنيَ بعد ذلك عن كلّ رؤية، وأن يسمع بفكره مرّةً واحدة ليستغنيَ بعد ذلك عن كلّ سمع، وأنْ لا يَلحق أولئك الذين لهم أعينٌ ولكن لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ ولكن لا يسمعون بها.

٥

أيّامه الأولى

حَمَلتْه امّه كرهاً ووضعته كرهاً .

قرآن مجيد

أيّامه الأولى

و لماذا لا نهتف بالأيام الأولى التي عاشها رفعت الأسد، لعلّها تعود إلينا من الغيب الذي صارت إليه؟ أو لعلّ بقيةً منها تُفلت من النسيان الذي يُحاصرها، وتأتي حاملةً معها من الذكريات والأخبار ما يكشف لنا عن التركيب الأوّل لطباع رفعت، وعن بدء تكوين ملامح شخصيته وأطواره؟ فقد أحسن أولئك الذين قالوا، وإن لم يكونوا أصابوا الصوابَ كلّه، انظر إلى غدِ الانسان ومستقبله من طفولته. ففي طفولةِ كلّ إنسان تُلقى بذور صفاته التي ستزهر وتورق وتثمر المراحل التالية من حياته، وفيها تنثر العناصر التي ستكوّن شخصية هذا الانسان. وقد بات من الشائع المألوف أن يعود الكاتبون الدارسون والباحثون المحلّلون الى عصر الطفولة لكلّ شخصية من الشخصيات التي تعنى بها دراستهم وابحاثهم. بل إنّ بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك، فراح يدرس مزاجَ الأمّ أثناء الحمل، وأطوارها في علاقتها مع الأب، وما كان يجري بينهما من حلوٍ ومرّ. وقد صار من الثابت عند العلماء والأطباء معاً أن الجنين يُحس بكل ما يفعله الأبوان ويفهم ويتأثر به. وبعضهم الآخر ابتعد في فروضه وغالى في البعد، فأحبّ أن يعلم، كيف كان مزاج الأبوين، ساعة وضع النطفة التي خلقت منها تلك الشخصية البارزة في مكانها

من الرحم.

وإنّا وإنْ كُنّا نقدّر الأبحاثَ كلَّها ونهتمّ بما يعنينا منها اهتماماً كبيراً وجادًا، فلا نحبُّ إلّا ان نبقى في حدود المألوف والمعقول، ونحن نتوجّه إلى الحديث على رفعت في طفولته وفي ايامه الأولى. فقد ولد الطفل قبل ولادة الحرب العالمية الثانية بسنتين، أو ادنى من سنتين؛ كان ذلك في الثاني والعشرين من آب عام سبعٍ وثلاثين وتسعمائة والف، لأبوين لا يخفى بينهما الفرق الكبير في السن، وكانت امّه هي الزوجة الثانية لأبيه. وقد وُلِدَ وله إخوةٌ معمَّرون، عندهم زوجات ولهم منهنَّ أولاد، وهم يسكنون بجوار أبيه. ولا بدَّ لأي طفل ينزل مثل هذا الوضع، أن يصير تعلُّقه بأبويه خارجاً عن المألوف. كأنَّ اللاشعور عنده، يوحي إليه بأنَّ الاخوة اللكبار قد نهبوا ما عندهما من العطف والحنان، أو كأنّه يوحي إليه بأنَّ الزمن يسابقه عليهما، فقد يأخذ منه أحدَهما، وقد يأخذهما كليهما، ولا يُبْقي له منهما شيئاً إلّا الحسرة. فلا غرابة إذن حين نشاهد الطفل رفعت، يتعلّق بأبويه تعلّقاً غير مألوفٍ، ويُحبهما حبًا يطبع حياته كلَّها بعاطفة لا يعرف كيف يخفّف من حدّتها وجيشانها.

ولا نريد ان يفوتنا الانتباه، إلى أنَّ الطفل رفعت دَرَج ونما جنباً إلى جنب مع نموّ الحرب العالمية الثانية، وعندما انتهت الحرب، كان رفعت قد أنهى طفولته وغادرها وصار صبيًا. ولعلّه لا يتذكّر شيئاً مما كان يجري في العالم من الخراب والدمار في تلك الحرب، بل لعلّه يحتفظ بأشباح منها، وصلت إليه من تلك الأخبار التي كان يسمعها من أبيه ومن السُمّار الذين كانوا يتحلّقون في السهرات، يأكلون ويشربون، ويتفكّهون بتبادل القصص والنوادر في فنون شتّى، ومنها وقائع هذه الحرب وتطوراتها. ولسنا نشكّ

في أنَّه، وعى أحداثاً هامّةً منها، بعد أن خمدت نارها وانطفأت، لا سيما وأنَّ هذه الأحداث كانت وثيقة الصلة بفرنسا التي ذاقت من ويلات الحرب ولاقت من أهوالها، ما جعلها تغادر مُجبَرةً عدداً من البلدان التي كانت واقعةً تحت سيطرتها ونفوذها. وكانت بلادنا سورية واحدة من هذه البلدان، فقد حَظِيَتْ باستقلالها في السابع عشر من نيسان عام ست وأربعين وتسعمائة وألف، بعد حَشْدٍ من الظروفِ الدولية المواتية، وبعد اشتعال ثورة شعبيةٍ وطنية شملت سورية من أقصاها إلى أقصَاها.

وإنّنا لنحسبُ أن الصبيَّ رفعت، وهو آنذاك في التاسعةِ من عمره، كان قد تأثَّر بهذا الحدث وانفعل به، وإن لم يكن قد عانى منه، أو عاش في دوّامته، أو وعى حقَّ الوعي مراحل وقوعه حتى النهاية. وقد وصل إليه هذا التأثر من أبيه، الذي لم يكن قريباً من هذا الحَدَثِ فحسب، بل شارك فيه وقام بواجبه نحو وطنه، من موقعه الذي هو فيه، خير ما يقوم به مواطن صالح. يشهد له بذلك، من لا يزال يعيش ممن شاهدوا الأحداث أو ممّن شاركوا في صنعها من أهل البلدة. وتشهد له أيضاً وثائقَ حيّةٌ شاخصةٌ لا تزال تحتفظ بها خزائن الخارجية الفرنسية. وكان أبوه في موقع، إن لم يُعتبر فيه، من أبرز وجهاء المنطقة آنذاك، فهو بدون ريبة واحدٌ من وجهائها، استطاع أن يصنع لنفسه وزناً لائقاً به، وأن يتمتع بسيرة محمودة مرضية، اكسبته احترام الناس وتقديرهم، على اختلاف ميولهم وطبقاتهم.

وقد عُرِف عنه بأنّه كان يهتم بكل شيء يجري حوله، ويُعنى بالأحداث الوطنية والأحداث الكبرى التي تستأثر باهتمام العالم كلّه، والتي يقدّر البُصَراء الأذكياء أنّها ستلقي ظلاً من ظلالها على الأحوال في منطقتنا، وسيكون لها اثرها على مصير بلادنا. وكان يحكي

لأولاده الكبار ما يجتمع لديه من اخبار ويشرحها لهم ، ثم يسألهم ان يبدوا ما عندهم من آراء ومن وجهات نظر ، ليطلع على طريقة فهمهم للأحداث واسلوب نفوذهم إلى معناها . وكان إلى جانب اهتمامه بالوقائع والأخبار ، لا يهمل الانصراف إلى الشؤون الثقافية الأخرى ، من مثل القصص والنوادر ، وقضايا الأدب ، والمسائل الدينية والأخرى التاريخية ، ويهيب بأولاده أن يجعلوا وجهتهم إلى العلم ويحرضهم على الانصراف إليه .

وليس بخافٍ على احدٍ في منطقتنا ، انّه كان يتمتّع بنظر بعيدٍ وحسّ دقيق ، يقدر معهما ان يميّز بمهارة بين الخطأ والصواب في امور الناس وقضاياهم . فاتّجهت إليه الأنظار في كل حادثةٍ تقع ولا يعثر الفُرَقاء على حلٍّ لها ، ليجدوا عنده الحلَّ الذي يعجبهم ويرضيهم . وفي كلّ قضيّة يستعصي على الأطراف المتنازعة فيها ان يصيروا إلى الاتفاق ، ليستعينوا بدقّة فهمه وبعد نظره ، فيعينهم بحنكته ودرايته ، ويقضي بينهم قضاءً لا يختلفون فيه . وقد سمّوه بلغة اهل منطقتنا في تلك الأيام (متشرعاً)، وهو الذي يعرف الشريعة او القانون معرفةً تؤهله لأن يصدر عن رأي او ينكشف عن حكومة ، ترضي المتنازعين المختلفين وتحول بينهم وبين اللجوء إلى السلطة وإلى محاكم الدولة ، فيتفادون بذلك تكبُّدَ الخسائر واحتداد الصراع .

وما كانَ احدٌ انفعالَه واشدُّ غضبَه ، حين بلغَه انَّ أخاه عزيزاً قد انخدع وغُرِّرَ به ووقع صيداً في شبكة التبشير الكنسي ، وأنّه تنصَّر واعلن انتماءَه إلى الديانة المسيحية ، لأسباب لا نرى محلاً لها هنا ولا غَرَض لنا في ذكرها ومعرفتها ! فاستدعاه إليه ، ولم يمهله حتى يتكلم حين حَضَرَ امامَه ، فأخذه من تلابيبه أخذاً قوياً وجَلَد به الأرض ، ثم ربطه ربطاً محكماً بحبلٍ متين ، واقسم أن لا

يُسرحه وان لا يفكّ رباطَه إلّا بعد ان يفسخ عقد انتمائه إلى المسيحية وان يتوب ويعود إلى الإسلام الحنيف ، وإن لم يفعل ذلك فإنّه سيتركه يموت شرَّ موتة ولا اسف عليه ولا حسرة . ولم يستطع اخوه عزيز ان يتحمّل وطأة غضبه ولا ان يصبر على ما رماه به من عنفٍ وعقوبة ، فنزل على امره ، وانصاع إلى رغبته ، وعاد إلى رشده سالماً واناب إلى دينه تائباً . وإنّها لقضيّة من حقها ان تذكر ، فهي مليئة بالتعبير والإيحاء لمن ارادَ التعبير والإيحاء ، ومليئة بالعبرة والاعتبار لمن سعى إلى العبرة والاعتبار .

وما كتبت هذا القدر عن ابيه ، إلّا ليصير من السهل تقدير قولنا حين نقول : إنَّ رفعت تلقّى تربيته الأولى في مدرسة أبيه وتخرَّجَ فيها ، وقد اخَذَ منه كثيراً وتأثّر به كثيراً . وانّه تنشّأ تنشئة ، هيأت فيه الاستعداد لأن يبلغ ما بلغه من المكانة في الوجاهة والسياسة . وكان له من امّه عناية خاصّة به ، جعلته يرى نفسَه رؤيةً خاصّةً بين إخوته . وفي سنوات طفولته الأولى ، كانوا يردّدون على مسامعه في البيت بعضاً من الأشعار التي تشبه الأناشيد والأغاني ، فيردّدها لهم ، ويحكون له بعضاً من الحكايات اللطيفة فيعيدها عليهم . وكان من حقّه عليهم أن يحرّك فيهم إعجابَهم ، وأن يدفعهم إلى التفكير بإرساله إلى الكتّاب ، أو كما نسميه في منطقتنا الشيخ والخطيب ، ليصيب شيئاً من مبادىء القراءة والكتابة ، ولينال حظًا من القرآن الكريم ، وذلك كما تعوّد الناسُ في القرى أن يسلكوا بأبنائهم في الفجر الأوّل من حياتهم . فقد كان تقليداً منتشراً ، أن يتّفق الآباء في قرية كبيرة أو في مجموعةٍ من قرىً صغيرة ، على أن يكلّفوا شيخاً معروفاً بسلوكه الحسن وذكائه وإلمامه الطيّب بالقراءة والكتابة وإقراء القرآن ، ويعيّنوا له ما يكفيه مؤونة عيشه ويؤمن له حاجات عياله . وكان في العادة أن يأوي الشيخ مع تلاميذه

الصغار إلى البيت في الشتاء. أمّا في الصيف، فكانوا يتوزّعون تحت فيءِ شجرةٍ كبيرة، بجانب مرقد وليّ من الأولياء أو مقام نبيّ من الأنبياء. وما نجا من الدخول في هذا التقليد من ابناء الجبل والساحل إلّا اليسير. فأكثرهم اخذوا عند الشيخ أوليات القراءة والكتابة، وانطلقت السنتهم بترديد الآيات القرآنية. ولا يزال أثَرٌ من هذا التقليد باقياً، تحتفظ به بعض القرى، في زوايا نائيةٍ من الجبل، وعند عائلات يسرُّها أن تُبقي على عادات موروثة، كأنّها ترى فيها وفاءً لتراث الآباء والأجداد وأشباحاً لذكرى الأسلاف والأعراف.

ولم يكن الصُبِي رفعت هادئاً عند الشيخ، كما يحدثون، بل كان كثير الحركة، ما إن يستقرّ في المكان الذي يعيّنه له شيخه حتى ينتقل منه إلى مكان آخر، يقرّبه أكثر من رفاقه، فيلغون ويتلاعبون بالأيدي والأقدام، ويتسلّون بما بين أيديهم من الأوراق. وكان كثيراً ما يهرب إلى البيت، فتعيده أمّه إلى الشيخ، وتوصيه أن يشدّد في الرقابة عليه. ثم إنّه تعلم أن يهرب إلى مكان آخر غير البيت لينصرف إلى اللهو ما وسعه الانصراف، وليتمتّع مع رفاقه في فنون من اللعب، لا يعرف أن يتمتع بها إلّا الأطفال. وكأنّ إرساله إلى الشيخ قد حرّك فيه ما كان كامناً من شقاء الطفولة، أو كأنّه أتاح له أن يرى مجموعة أكثر من الأطفال، فيختلط بهم ويأخذ منهم، والطفلُ بطبعه سريع التحاكّ بالطفل الآخر، وسريع الالتقاط لما ينقدح عن ذلك من أثر. وتطوّر الشقاء عنده، فأصبح لا يُطيق رؤية الشيخ، وإذا رآه كان يرشقه بشقائه، وأحياناً يؤذيه، فيخرج الشيخ عن صبره ويشكو إلى أبويه هذا السلوك الذي لا ينبغي، برأيه، أن يمرَّ دون حساب أو عقاب.

وكلّما كبر الصبيُّ كبر شقاؤه معه، لكنّ أباه لم يكن ليتركه على

هواه دون مراقبة . فما كان من هذا الشقاء فيه ذكاء ولا يُصيب أحداً بأذىً ، حبَّذه له وشجّعه عليه . وما كان فيه أذىً زجره ونهاه ألا يعود إلى ارتكابه مرّة أخرى ، وأحياناً يأخذه بشيء من القسوة خوفاً عليه من الانفلات والضياع . ولكنَّ الصبيَّ رفعت تعلَّم أن يكون بارعاً في حبس شقائه أمام أبويه وأمام من يعتقد أنَّهم يراقبونه . فكان يبتعد عن البيت مع رفاقه ، ويسرحون في الشقاء ويمرحون ، وكأنه بدأ يُحسّ في هذا المرح بفروق بين البنات والصبيان من رفاق اللهو والطفولة .

وهو بعد ان أُرسِلَ إلى المدرسة وقضى فيها بضع سنوات ، ولم يعد صبياً ، لم يشأ أن يترك شقاءه وأن يفارقه . وأنَّى له أن يفارقه ، وهو قد تحوّل عنده في هذه المرحلة الجديدة إلى صورة جديدة ، من حقّها أن تتّخذ لنفسها اسمَ النضوج المبكّر ؟! فها هو الآن أسرع انتباهاً إلى رؤية ما يُحيط به من معالم وأشياء ، وأكثر شوقاً إلى معرفة هذه المعالم والأشياء . وأصبح يرى في رفاقه وفي الناس الذين هم من حوله معاني أخرى لم يكن يعرفها من قبل . فهو يرى عندهم ديناً وطقوساً ، ويرى لديهم حدوداً وأعرافاً وتقاليد ، توحي لهم بألوانٍ مختلفةٍ من السلوك . وهو يلاحظ اختلافاً بين الفقير والغني ، ويشاهد فروقاً تفصل أحدَهما عن الآخر فصلاً ، كان كثيراً ما يدعوه إلى التوقّف والتفكير . ولعلَّ أجملَ صورةٍ من صُور نضوجه المبكّر ، أنّه كان يعجبه ، أن يتخذَ مواقف من هذه الأشياء الجديدة التي يتعرّف إليها ، غير عابىء بمن يرضى من مواقفه وبمن يغضب منها . وكانت مواقفه تلك بداياته الأُولى التي نرى فيها تعبيراً عن حبّه للخروج عمّا ألفه الناس ، وعن كرهه لأكثر ما يسود بينهم من ألوان في تبادل السلوك والمعاملة .

ولا أريد أن أتأخر أكثر من ذلك ، عن الحديث على هذه القرية

التي وُلِدَ فيها رفعت وعاشَ طفولته وصباه، وأجزاء متفرقة من شبابه وما بعد شبابه، والتي اعتبرها قطعةً من قلبه واعتبر قلبه قطعةً منها. والقرداحة هي قريته التي تقع في مكان تُحسب فيه من الجبل حيناً وتحسب فيه واسطةً بين الجبل والساحل حيناً آخر. وموقعها جميل، كيفما اتّجه الناظر منه لا يرى إلّا ما يُدخل البهجة إلى نفسه. وهي تُعدُّ منذ فترة طويلة، من أشهر قرى الجبل، وربما من أشهر قرى الريف في سورية. والحديث على أهلها وقَطينها لا يخلو من عجبٍ وغرابةً. فهم موزَّعون على عائلات، لكل عائلةٍ منها تقليد خاصٌ بها، وتاريخ متميِّزٌ لا تكاد تتّفق فيه مع العائلة الأخرى، ولها مطرحٌ من الزعامة، لا تقبل أن ترى فيه غيرها. وربما كان أحلى ما يَسمر به السُمّار وما يلهو به الرواة، هو سيرة التنافس بين هذه العائلات على الزعامة، بل التناحر الذي يقود إلى معارك طويلة، تكون حاميةً حارّةً أحياناً وتكون باردة جامدة أحياناً أخرى. ومن العائلات مَنْ لها رُوَاةٌ يحكون تاريخها بطرقٍ، تشعّ فيها الطرافة وتنتشر فيها المفاجآت. ممّا يبعث على الضحك والاستغراب وحبّ الاستزادة من هذا التاريخ. فأنت تسمع فيه الشعر الطريف، والزَّجل الأنيق، وتسمع الحكايات التي لا تصدّق أنّها من الواقع أو أنها قابلة للوقوع. وإنّه لمن المعتاد المألوف، منذ زمن غير قصير، أن يطلع من هذه العائلات نوّابٌ يمثّلون الشعب في مختلف فئاته وأطرافه. ومن هذه العائلات خَرَجَ وزراءُ أكفّاء، ووصل قوّادٌ عسكريون ممتلئون حنكةً وخبرة إلى مراكزَ حسّاسة ومناصبَ هامة في الجيش والدولة، وذلك قبل أن يصل حافظ الأسد إلى السلطة.

ولعلَّ السامعَ، بعد أن يسمع هذا الكلامَ الوجيز عن القرية وأهلها، يستطيع أن يدرك بسهولةٍ، أنَّ الذكاء والدهاء وما يُشتقّ

منهما هي طِباع تسيطرُ على كثير من أفراد هذه العائلات. ويُدرك أيضاً، أنّ كثيراً منهم يتمتّعون بمواهبَ متنوّعة وقدرات مختلفة. فمن هذه المواهب ما ظهر في فنّ الزعامة، ومنها ما ظهر في فنّ السياسة، ومنها في الثقافة، ومن هذه القدرات ما ظهر في اصطناع السبل لتحسين وسائل الزراعة وتجميع الثروات. وإلى جانب هذه العائلات التي انصرفت إلى الزعامة والسياسة، وجدت عائلات أخرى صرفت همّها إلى الدين، واعتنت بفهمه وتفهيمه، وسَعَتْ إلى نشره بطرق يتعايش فيها الدين مع ألوان الحياة المتطورة. وقد نجحت في ذلك نجاحاً، خلقت لنفسها منه زعامةً دينية، ثم عرفت كيف تُطوّرها إلى أن صيّرتها استراحةً تلتقي عندها الزعامات المتنافسة كلُّها. ومن هذه القرية خَرَجَ مفكّرون لهم شأنهم، وطلع شعراء لهم وزنهم وقيمتهم، ووُجد فقهاء ورجال دين عُرفوا بفقههم وعلمهم. وشهرة هؤلاء كلّهم، تجاوزت الجبل، بل قطعت حدود سورية، وذلك قبل أن يصل حافظ الأسد إلى السلطة.

ولا تحسب أنَّ حديثنا عن اجتماع النقائض في هذه القرية قد انتهى، فنحن لم ننْسَ أن نقول لك، إنَّ فيها الغِنَى الفصيح إلى جانب الفقر الأخرس، وفيها الملكية الواسعة مع الحرمان الأوسع، وفيها التسامح يعيش مع خصمه التعصّب. ولن ننسى أن نُحدّثك عن الأحزاب السياسية، وما كان يجري بينها من كرّ وفرّ، وما عرفته من صراعٍ ومواجهة، من أجل التوسّع والتمدّد، وفي سبيل ظهور أحدهما على الآخر واستيلائه على واجهة القرية ثم على واجهةِ المنطقة. ولم يكن في القرية، بل في الجبل والساحل كليهما من حزبٍ له شأنه وامتداده، إلّا حزبان اثنان هما: الحزب القومي السوري، ومؤسسه انطون خليل سعادة، وهو من لبنان. وحزب البعث العربي الاشتراكي، ويتنازع دعوى تأسيسه زكي الأرسوزي

وميشيل عفلق، وهما من سورية. ولم يكن لهذين الحزبين من حصّة ولا نصيب في سلطات البلاد في تلك الأيام، وإنّما كانت السلطات بيد تجمّع وطنيّ تشارك فيه أحزابٌ عدّة وجبهات متنوعة. وسوف يكون لنا عودة إلى الحديث قليلاً، على الحزب القومي السوري، وسوف نفرد لحزب البعث حديثاً طويلاً، لأنّه حظي بالأهمية الكبرى بين أبناء الشعب، واستطاع أن يتوصّل إلى السلطة، وأن يحتفظ بها إلى الآن في قطرين عربيين هما سورية والعراق.

وفي هذا المزاج العجيب من التناقض ومن تقابل الضدين واجتماع الأضداد أحياناً، كبر الصبيُّ رفعت وقضى حداثته والمرحلة الأولى من شبابه، وتفتّح وعيه في قريته القرادحة. فقد رأى هذه الأشياء تموج من حوله، وعلم أنّه سيكون مجبراً على الاختيار منها، ما يجعله يتلاءم مع محيط العيش ويتماشى مع المفاهيم المنتشرة المفروضة، إذا هو أراد أن يطمئنّ إلى البقاء في قريته أو في المناطق المجاورة لها. ولكنه كان يحدس، بأنّ فضاء القرية سيضيق عنه، وسوف لن يكون مكاناً لتحليقه. وهذا أخوه حافظ الذي يسبقه في الزمن بسنوات عدّة، قد ترك القرية ورحل إلى اللاذقية، فهي المدينة الأقرب إلى قريته، وفيها المدرسة التي تستطيع أن تحتضن من الطلّاب، مَنْ أكملوا المرحلة الأولى وجزءاً من المرحلة الثانية من دراستهم. وهو يريد أن يصير مثل أخيه، في طموحه وفي وصوله إلى هذه المدرسة، ثم إلى غيرها ممّا هو أبعد منها في المكان والمكانة.

ولسنا نعني بذلك أن نقول، إنّ رفعت قدبقي في القرية هذه المدّة، ينتظر حتى يختار من ألوان الحياة التي يشاهدها ما يروق له وما يعجبه، ثم يأخذ باستقبال أثرها والانفعال بها. ولم نعن بذلك أنّه بقي حتى الآن بدون تأثر وانطباع، فقد تأثّر بما رآه،

وانفعل بما أحَسَّ به ، وطَبَعَتْ في نفسِه أثرَها تلك الأحاديث التي سمعَها من الأطفال في أوقات جدّهم ولهوهم ، والأحاديث التي وصلت إليه من السُمَّار في السهرات التي كانت تدور عن وسائل العيش في الريف وفي المدينة ، وعن مسائل متنوعة في هذه الحياة . وكان أشدَّ ما تأثَّرتْ به نفسُه وما استقبلته من انطباع ، ما حملته تلك الأقوال والأحاديث التي كان أبوه يخصُّ بها أبناءه مجتمعين أو منفردين ، من توجيهات ومقاصد وتنبيهات . ولأنَّ تعلّقه بأبيه كان قوياً شديدا ، فقد استمع إلى أقواله وأحاديثه بشغف ، وأحسَّ أنَّ عنده قدراً كبيراً من الخبرة ، استلَّها من الحياة استلالاً ، بعد أن ذاق المرَّ من صعوباتها وقاسى الويل من دواهيها . وكذلك أحسَّ أنَّ أباه يحرص حرصاً شديداً على أن يورّث أبناءه خبرته هذه ، وأن يضعها في حلوقهم لقمة هانئة ، لعلّهم يتجنّبون الآلام التي عاناها ، ولعلّهم يحيدون عن الكوارث إذا رأوها مقبلة ، فلا يقعون فيها ولا يتهدّمون .

وهو في صنيعه هذا ، الذي يصنعه الآباء كلُّهم أو أكثرهم ، أهدى إلى أبنائه تربيةً ، تحمل على الوعي وعلى مواجهة الأمور بإرادة وصلابة . وزرع في نفوسهم حبَّ العلم والسعي إليه ، وزوّدهم من عاطفته وحبّه ما زاد في الثقة بنفوسهم ، وأعطاهم نَفْقاً من الطاقة الروحية ، لا يستطيع الأبناء أن يأخذوها إلّا من الآباء ، بل إنّهم لا يجدونها إلّا عندهم ، ولعلّه هو السرّ المتواصل بين الآباء والأبناء . ومهما بالغ الآباء في إعطاء ما عندهم ، من نصحٍ وتوعية ، ومن إشراف وإرشاد ، ومن خبرة وتجربة إلى الأبناء ، فإنهم لن يحموهم من صولة الحياة ، ولن يردّوا عنهم المواجهة التي ستقوم بينهم وبينها بسلاح لا ينفع معه سلاح الآباء ، وبطرائق لا تُجدي معها طرائقهم . فلكل نشءٍ خبرته ولكل جيل تجربته .

والخبرات والتجارب تؤدي نفعاً، لكنها لا تُغني عن غيرها ولا تقوم مقامها.

ثم جاء اليوم الذي سينتقل فيه رفعت إلى المدينة، وهي اللاذقية التي لم يعد يجهلها، ومعه أصوله الأولى، وهي ما أودع الريف في نفسه من الطباع والشمائل بل ما غرسه فيها غرساً. ولكن ليس معه أبواه لكي يحرساه ممّا يُصيب أولادَ القرى من تخلّقٍ غير مرغوب، عندما تجرّهم المرحلة الدراسية إلى المدينة، إذا لم يكن هنالك من يحرسهم ويتولّى شؤونَهم بالمراقبة والعناية. ولأنه كان شقياً في طفولته كثير الحركة وشقيًا في يَفاعه ولانّه كان يهمُّ أن يدخلَ طوراً هو من أخطرِ أطوار الحياة وأدقّها في النموّ والتكوين، واعني به طورَ المراهقة، فقد راح أبوه يتردّد كثيراً على زيارته في المدينة، ويقضي معه أياماً يؤنسه فيها بالحدب والمراقبة، ويشرف على سير أعماله وعلى توجيهه وتدبير شؤونه.

وفي المدينة الجديدة كان لا بدَّ له أن يرى حياة جديدة لم يتعوّدها، وأن يواجه أشياء جديدة لم يألفها. ولعلَّ من أبرز ما يجدر بنا أن نهتمَّ بملاحظته والاشارة إليه فيما شاهد وواجه من الأشياء الجديدة، هذا الضيق الذي أخذ يُخيّم عل نفسه من نظرات تقدحها عليه عيونٌ تفيض بالنفور منه. من غير أن يعلم سبباً لهذا النفور. وقد ظنَّ الفتى المراهق رفعت في البدء أن ذلك خُلقٌ يلحق فريقاً من أهل المدينة، أو أنّه طَبَعٌ مجبولةٌ عليه نفوسهم. ولكن لم يمضِ عليه زَمَنٌ طويل، حتى علم أن النفور الذي يطالعه من العيون، هو لونٌ من ألوان الحقد عليه وشعور بالقَرَفِ من رؤيتِه بينَهم، ولَه مقعدٌ في الصف مثل واحدٍ منهم، ويتعلّم كما يتعلّمون، والأساتذة يعاملونه مثلَ أيّ طالب آخر. ثمّ تبيّن له بعد ذلك أنَّ سببَ هذا النفور المعجون بالحقد، هو لأنّه ليس من المدينة مثل أيّ واحدٍ

منهم، ولأنّه ريفيّ لم يمتّ بعد إلى أسباب الحضارة التي كانوا يحسبون أنّها وقف عليهم وحدهم. ولهذا المعنى ما له من الرمز البعيد الذي كان مألوفاً عند أهل المدينة في ذلك الزمن، وله من الدلالة ما لم يكن يُرضي القناعة والمفهوم الخلقي، إذا هو أرضى ذوق العامّة في تلك الأيام.

وراح الفتى المراهق يتساءل في نفسه: هل يحقّ لهم ذلك؟ ومن أين جاء إليهم هذا الحق؟ وهل سيظلّ هؤلاء يلاحقونه بنظراتهم، ويرمونه بأحقادهم، ويدخلون الضيقَ إلى نفسه، وأحيانا يبعثون عنده الهلعَ والرعب؟ وراح ينقل إلى أبيه ما يراه من هذه النظرات وما يسمعه من الكلمات أحياناً، ويسأله تفسيراً لهذه المشكلة وحلًا لها. فطمأنه أبوه، وهدّأ من روعه، وأطلعه على ما وراء ذلك من أخبار، ثم نصحه بأن يصبر، وأن يتجنّب أيّة مجابهةٍ معهم، وأن يسعى إلى حياكة علاقات منفردة مع واحدٍ أو اثنين منهم، فذلك يساعده على تسكين خواطره وعلى تبديد ما في نفسه من وساوس لا تجني عليه إلّا المضايقة والإزعاج. وصنع ما أوصاه به أبوه فأفلح بعض الشيء وأفلح أكثر عندما انضمَّ إليه رفاق مثله من الريف، وانقشع ما ران على نفسه من الاختناق والضيق، وحاول أن ينتقم لكنَّه أقلع خشية أن تقع أمور، لا يدري ما ستكون عواقبها، وهو يُحسُّ أنّه غريبٌ في مكان غريب.

ولم يمضِ على الفتى المراهق وقتٌ طويلٌ في مرحلته الجديدة، حتى أحسَّ بأنّ إغواءَ المدينة، أخذ يتسلل في الخفاء إلى لبّه رويداً رويداً ويشدّه إليه شدّاً رفيقاً أنيقاً، حتى احتل قسماً من قلبه وأسرَ زاويةً كبيرة من إحساسه. ففي المدينة حَشْدٌ من السكّان، وفيها المنازلُ مصفوفةٌ متلاصقة أو متداخلة ومتقاطعة، وهي موصدة الأبواب دائماً، وبينها حدودٌ من الأعراف وسدود من

التقاليد ، فلا تستطيع أن تكون حرّةً مستريحةً في الفضاء كمنازل الريف ، أبوابها مُشرعة مفتوحة ، وللضيوف فيها حصّةٌ ونصيب ، يكادون يتساوون مع أهلها وأصحابها في اقتسام العيش والراحة .
وفي المدينة أسواق ، وفي الأسواق تقوم المخازن الملأى بالأطايب والأشياء الفارهة الجميلة التي تدعو المتفرّجين من المارّة إليها ، ومنهم من شغل بلذيد المأكل ، ومنهم من شُغِل بشراء الثياب والأحذية واللعب ، وفي الأسواق دور لعرض فنون اللهو من مثل السينما وصناديق الفرجة وأزياء الرقص وحفلات الفرح والغناء إلى غير ذلك من الألوان التي تجتمع فيما بينها وتأتلف ثم تتفق على تكوين هزج المدينة وصخبها المتناثر والمتراكم .

وكان من أشدّ هذه الألوان قرباً إلى نفس الفتى المراهق وأكثرها تحريكاً لشوقه ، رؤية الصبايا وهن يعبرن الطريق خاطرات متمهّلات ذاهبات من البيت إلى المدرسة ، أو عائدات من المدرسة إلى البيت . فقد تعوّد أن يتبع إثرهن إمّا منفرداً وإمّا بصحبة رفاقٍ وعشراء . وكان يحاول أن يعقد علاقةً مع واحدةٍ منهنّ أو مع أكثر من واحدة ، لكنَّ الطريق إلى ذلك لم يكن بهذه السهولة التي عرفها في القرية . فالانقباض في المدينة يسيطر على أوجه الصبايا ويَشيع في نفوسهنّ ، والخوف من شبح الأهل ومن الأعراف السائدة يقضي بأن لا تلتفت الصبيّةُ إلى واحدٍ من المعجبين وأن لا تستجيب ، إلّا بعد جهودٍ عسيرةٍ يبذلها ، فيفوته من ذلك دروسٌ كثيرة ، ويلحقه شيء غير قليل من اللوم والتعنيف . وكان للفتى المراهق نصيبٌ من بذل هذه الجهود ، حتى أحسَّ أبواه من جهةٍ وأساتذته من جهةٍ أخرى أنّه مُنْشَغِلٌ بأمورٍ تقضي المراهقة عليه وعلى أمثاله أن ينشغلوا بها ، فكان له نصيبٌ من اللوم والتحذير من هذين ومن هؤلاء . وقد أثّر ذلك في نفسِه فانقطع إلى فترة قصيرة ، ثمَّ عاوده

الحَنينْ فعادَ إلى ما كان قد وقع فيه من إغراء ، وكأنّه استطاب لذّته ، أو كأنّه نَسَجَ علاقةَ عشقٍ ومحبّةٍ مع واحدة من الصبايا الطالبات ، فما أراد لهذا النسيج أن يتقطّع وتتفلّغ عراه وخيوطه بهذه السرعة. ثم ما أراد إلّا أن يتمتع بحقّه من الإحساس بأنّه أصبَحَ في طور الشباب ، وأن الشباب يقضي عليه ويهيب به أن يباشر العشقَ والحبَّ وأن يتذوّق منهما وينهل ما لذَّ وطاب له أن يتذوّق وينهل.

وهكذا كان للمدينة دورها في تنشيط تطوّر الفتى المراهق رفعت وفي تفتيح عقله ، على معرفة هذه الموازين التي تعوّد أهل المدن أن يزِنوا بها شروط الحياة وأسبابَها ليجنّبوا أنفسَهم السقوط في الخلل والاضطراب ، وليستمرّوا في دفء الراحة والطمأنينة. ولا نريد أن نكلّف أنفسنا هنا بسطَ هذه الموازين ومعالجتها بالبحث والتحليل ، لنحكم لها أو نحكم عليها ، ففيها ما هو مقبول ، وفيها ما هو مرفوض. ولكنَّها في أكثرها تميل إلى حبس العواطف وإلى تقييد العقل ، ممّا يدعو ويُلحّ في الدعوة إلى الانطلاق أو إلى الانفلات أو إلى الثورة. ولم يكن التطورَ الذي أحلَّ بالفتى أمراً شاذًّا ، فالإنسان ، ومثله الأشياء ، مجبور على أن يتطوّر كلّما مرٌ به الزمن. ولم يكن تفتّح عقله وضعاً خارجاً على قانون الطبيعة وأوضاعها ، فالعقل لا بدَّ له أن يستقبل معرفةً جديدة كلّما واجه شيئاً جديداً.

ثم لم يكن هذا الاختلاف البيّن بين موازين الحياة في المدينة وبين موازينها في الريف ، قادراً على أن يمنَع الفتى المراهق ، من أن يصير محلاً لتصالح الحياتين وانسجامهما انسجاماً تُصبح الفروق بينهما والاختلافات لا دور لها ولا وزن ولا اعتبار ، من دون أن يفرّط بالأمانة التي أودعها الريفُ في عروقِ نفسه. فقد انتصر على النظرات الغريبة التي كانت ترشقه بها العيون الغريبة ، وعادت عليه نظرات أنيسة حبيبة. واكتسبَ أصحاباً وأصدقاءَ جُدَداً ، يصرف

معهم من الوقت ما قُدِّر له أن يصرف في اللهو والإنْس وفي الجدّ والدرس . وتعوَّدَ أن يصطحبهم معه إلى الريف ، فيدهشون لما يعاينون من مفاتن في الطبيعة ، ومن سهولة وبساطة في حياة أهل القرى وفي موازينهم التي يَزِنُون بها سلوكهم وأعمالهم . وبدأت تنمحي من نفسه ومن نفوسهم ايضاً ، هذه الفوارق التي تفرق بينهما ، وتزول تلك الحدود التي صنعتها الحياة هنا والحياة هناك . واستقرَّ في نفسه ، أنَّ بلدَه كبيرٌ جدًا ، وهو اكبرَ من القرية ومن المدينة ، وأن شعبَه كثيرٌ جداً ، وهو اكثر من أهل القرية ومن أهل المدينة .

ونحن لا نرى لنا حقًا ، انْ نُغفل الإشارة إلى دور الأخ الأكبر حافظ في التأثير على نفس أخيه الفتى المراهق وفي صنع أفكاره ، فقد كان اكبر منه في الزمن وفي العقل والحياة . وكيف لا يكون ذلك ، وهذا التقليد المنتشر السائد في بلادنا كلّها يقول ، إنَّ للإخوة الكبار في العائلة حقًا بأن يتولّوا شؤون الإخوة الصغار فيها وأن يتعهّدوهم بالرفق والعناية ! الأمر الذي يقضي بأن يخلّف الكبارُ في الصغار من التأثير ما يصل أحياناً إلى أن يكون أشد من تأثير الأبوين وابعد في البقاء . وقد عرف هذا التقليد في عائلة الفتى رفعت رعايةً له واحتراماً اكثر ممّا عَرَفَ في عائلةٍ أخرى . فعلى الصغار من الإخوة أن يسمعوا كلام الكبار منهم ، وأن يطيعوا أوامرَهم ، وأن يسترشدوا بآرائهم . بل فرضوا على الصغير أن يُهرع إلى لقاء الكبير الذي آب من سفرٍ ورَجَع من غياب طويل أو قصير ، ويقبّل يده ويحتفي به كثيراً ، ويسارع إلى تلبية الطلب وتأمين الراحة .

ولشدّ ما كان لهذا التقليد دوره وأثره الفاعلان في ارتفاع الروابط وانخفاضها وفي العلاقات بين الأخوين قبل السلطة وأثناءها وقبل الوقيعة وفي حينها . ممّا سيحملنا على أن نأتيَ على ذكره ،

مرّة أخرى بأسلوب أكثرَ عمقاً وإيضاحاً، عندما يحين دور الحديث عن الوقيعة أو الفتنة. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا التقليد بقي مصوناً مرعيًا منذ البداية من الأخوين، كلّ حسب مقامه. وأكبر الظن أنّه سيبقى مصوناً مرعياً ما داما حيّين، إلّا إذا وُجِدَتْ مفاجآت لا ندري ما هي، ولا هما يدريان ماذا ستكون.

ولا نستطيع أن نقول، إنّ أيامه الأولى كانت قد انتهت بعد أن تعرَّف على حزب البعث وانتسبَ إليه، أو أنّها ستنتهي بعد الانتساب إليه بقليل، لكنّنا نستطيع أن نطمئن إلى القول الذي اطمأن إليه جَماعةُ التحليل من العلماء والمفكّرين، وهو أنّ الأيّام الأولى لأيّ إنسانٍ من الناس، ليست بعيدةً في الزمن وإنّما في التأثير. وهم لم ينظروا إليها من حيث أنّها طويلة المدّة أو قصيرة المدّة، وإنّما نظروا إليها وحسبوها طويلةً أو قصيرةً من حيث الانفعال الذي تحدثه والطاقة التي تختزنها والأثر الذي يتولّد عنها. وربّما كانت الأيام الأولى للفتى المراهق قد توقّفت عن الامتداد في الزمن وهو لا يزال في القرية، وربما كان بُعيد احتكاكه بالمدينة، أمّا أثرها فلن ينتهي منه حتى تنتهي عنده الحياة. ويغلب علينا الاعتقاد بأن اقتناعَه بأفكار حزب البعث وانتسابه إليه، كان من ثمرات البذور التي استقبلتها أيّام طفولته الأولى. وفي اقتناعه بحزب البعث وانضمامه إلى صفوف الشباب الطليعة، بدأ تاريخ جديد لرفعت الأسد وابتدأ عمرٌ ثانٍ له. ولن نلتفت إلى هذا التاريخ الجديد والعمر الثاني، إلّا بعد أن صار يفعل في الأحداث كما ينفعلُ بها، ويؤثّر فيها كما يتأثر منها، وهذا منا ليس ببعيد.

٦

قول في حزب البعث

الا كلُكم راعٍ وكلُكم مسؤولٌ عن رعيّته .

الرسول الأعظم

والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنّه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنتُ من ادهى الناس .

امير المؤمنين علي بن ابي طالب

قال الوليد لعبد الملك : يا ابتِ ما السياسة ؟ قال : هيبةُ الخاصّة مع صدق مودّتها ، واقتياد قلوب العامّة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

ابن قتيبة ـ عيون الأخبار

قول في حزب البعث

وهذا الحزب الذي تعرّف اليه رفعت وهو صبيٌّ، وانخرط فيه وهو في المرحلة الأولى من شبابه، ولقيَ في سبيله ما لقيَ من الأتعاب والأوصاب وناضل من أجله ما وسعه النضال، هذا الحزب الذي تسلّم مقاليد السلطة في سورية لأسباب فيها المعلوم وفيها المجهول، منذ الثامن من آذار عام ثلاثٍ وستين وتسعمائة وألف، وصار رفعت واحداً من أكبر القادة فيه، جامعاً لسلطات وليس لسلطة واحدة، لا نرى حقًّا علينا أن نُغفل النظر إليه، بل ينبغي أنْ ينال حظَّه الكبير من عنايتنا ومن بحثنا، لنرى إلى أيّ مدى شارك في بناء شخصيّة رفعت وصناعتها، ونتبصّرَ من قريب حجمَ هذا الأثَر الذي تركه عليها، ثم نتبيّن القيمة التي أعطاها لشخصيّته والقيمة التى أخذها الحزب من هذه الشخصيّة.

ولستُ أريد أنْ أنصرفَ إلى النظر في تاريخ حزب البعث، وإلى مراحل نشوئه وتطوّره منذ ولادته حتى السلطة، ثم مراحلِ تطّوره في السلطة، فهذه مسائلُ لا يهمّنا أمرُها ولا تعنينا إلّا في بعض جوانبَ قد نُضطرّ الى استحضارها والاستشهاد بها لتأكيد أثَرٍ او لنفيه، ومَن أراد التعرّف على ولادة هذا الحزب وتاريخ نموّه وتطوّره، فالكتب والمصادر والصحف والمجلاّت والأشخاص، كلُّ

ذلك عن يمنيه وعن شماله ميسورٌ موجودٌ بكثرة، لا يكلّفه أكثر من ان يمدَّ يده ويختارَ الصفحات التي يريد، أو يسمعَ ما يشاء من الأحاديث من شخصٍ يتكلّم أمامه أو يتكلّم من خلف إذاعة. ولا أريد ان أشغلَ في الكلام عن المبادىء التي طَلَع بها والنظريات التي اخرجها للناس، وافصّلَ في الحديث عليها مبدأ مبدأ، ونظريّة نظريّة. فتلك موضوعات لها مصادرها الكثيرة التي تبحثُها وتفصّل في بحثها، ولها مظانُّها ووثائقها الميسورة التي تغصُّ بها دور الكتب والمؤسّسات العامّة على امتداد الوطن العربي الكبير.

وإنّما اريد أن اكتب حديثاً نقدياً، وأُثبتَ قولاً تحليليًا، أكشفُ فيه عن جهات القوّة في افكاره وعن جهات الضعف فيها، وعن دوائر النور في نظريّاته وعن دوائر الظلمة، ثم انعطف الى الحديث على صِلته بالتُراث وبالشخصيّة العربيّة الاسلاميّة الموروثة. وبعد ذلك كلّه أميلُ الى الكلام على عقيدته في السياسة ونظرته اليها، من غير ان افصّل ولكنْ من غير ان أوجز ايضاً وأرى أنّنا لسنا نحتاج بعد كلِّ مسافة من الحديث او الكلام أن نقول، لنلفتَ النظر إلى أنّ رفعت الأسد ومن كان يشاركه في السلطة من الحزبيّين، في هذه الأفكار تربُوا وفيها نَمَتْ شخصيّاتهم واستوتْ ميولهم. بل يكفي أنّنا ذكرناه في البدء مرّة واحدة، ولن نقصّر في الاشارة إليه مرّة أخرى اذا ما وُجدت ضرورةٌ تدفعنا الى الإشارة إليه.

وفي البدء اقول، إنَّ حزب البعث اصبح الآن حزباً سياسياً بيده السلطة في بلدين عربيّين، لهما قيمة كبرى منذ قديم الأيام الى هذه الأيام، وهما سورية والعراق. وله انتشار واسع أو ضيّق في بلدانٍ عربيّة أخرى، يسعى من وراءه ايضاً الى استلام السلطة في هذه البلدان. وهو من حيث افلح انْ يصير حزباً سياسياً وان يُمسك بمقاليد السلطة، فقد تضاءل ولم يُفلح بأنْ يصير عقيدة ويدخلَ إلى

النفوس وينعقدَ فيها مبدأ. فهو لم يَخْلُقْ عقيدة ولم يُصبح عقيدة، وإنّما اكتفى أنْ يستعير لوناً من ألوان العقيدة عند العرب والمسلمين، فيتلوّن بها ويظهر للناس بمظهر جديد، جعله ينتزع الإعجاب ويشدُّ اليه الأنظار، ويكسب به تأييداً منظوراً من الطبقات المظلومة في الشعب، ويكسب تأييداً غير منظور من آفاق غير منظورة، عرفَ كيف يركبُهما بمهارة، وكيف يُوازن بينهما على طريق الوصول الى السلطة حتى وصل واطمأنّ الى الجلوس والاستلام.

ولعلَّه لم يعرفِ انتشاراً واسعاً في انحاء سورية، اكثرَ من هذا الانتشار الذي عرفه في ناحيتَيها الشماليّة والجنوبيّة، حيث يوجد الفقر الأقوى والحرمان الأشدّ، وحيث النفوسُ مهيّأة لاستقبال عقيدة يظهر بها بَطَلٌ مناضلٌ او فاتحٌ عنيد وهم لا يحتاجون منه إلى اكثرِ من إيماءة أو إشارة لينضمّوا اليه ويصيروا جنوداً وراءه، وقد رفعوا معه راية عقيدته، يُظلّلون بها على انفسهم وعلى غيرهم من أبناء هذا الشعب المنهوك. لذلك ما إنْ ظهر حزب البعث بهذا اللون من ألوان العقيدة، حتى أسرع كثيرٌ منهم إليه وأتجهوا صوبَه، يتعرّفون عليه ويَدخلون فيه افواجاً. امّا في الناحية الشماليّة من سورية، وتذهب الإشارة فيها اكثر إلى الساحل وإلى الجبل الموازي له، فكان صَيْد هذا الحزب منهما سميناً، حيث لم تبقَ هنالك قرية من القرى إلّا ووَجد له فيها انصاراً يُرحّبون به واتباعاً ينضمّون إليه، ويناضلون في سبيله، ويتحمّلون لأجله انواعَ الضَنَى والمشقّة. وسيرةُ نضالِ الحزب في الساحل والجبل عندنا معروفةٌ مشهورة، لا نحتاج الى رواية قصصها وحكاياها. وإذا رحنا نشير إليها هنا، فلكي نجعلَ منها فاتحةَ حديث لا بدَّ منه في البداية، ولنتّخذَ منها جسراً نعبر عليه ونَصير إلى الموضوع.

ولا ينبغي ان يفوتنا القول، بأنّه كان قد وَفَدَ إلى الساحل والجبل معاً قبلَ حزب البعث وافدٌ جديد، وتقدّم عليه في الظهور حزبٌ آخر. وكان هذا الوافدُ من لبنان هو الحزب القومي السوري الذي اسّسه واشاد بناءه وشكّل مبادئه وشرّع قوانينه أنطون خليل سعادة. وقد تبيَّن لي من ثنايا كتبه ومؤلَّفاته، انّه اطّلع على فكر الغرب وتمكّن منه، واطّلع على أديان الشرق وعمّقَ نظرتَه في جوانبَ منها، فاجتمعتْ فيه قوّة الثقافة إلى قوّة الشخصيّة. وليس هنالك ايسرُ شكّ في انّه انطبع انطباعاً هائلاً بتربية أبيه الدكتور خليل سعادة وبأفكاره، وتأثّر تأثُّراً عميقاً بآرائه وتوجيهاته. ويشهد على هذا أولئك الذين عايشوه، وتلك الأقوالُ التي يذكرها مُسْنَدةً الى ابيه، والتي يبثّها بين الحين والآخر في صفحات ما يكتب وما يؤلّف. ومن هذه العوامل، ومن غيرها التي لا تقلُّ عنها عمقاً وبُعداً وتأثيراً، والتي لا نرى حاجةً إلى ذكرها، تكوّنتْ شخصيّة سعادة، ومنها انبثقتْ، فأتتْ وفيها من الصفات ما جعلها تترك أثراً بعيداً وعميقاً على اتباعها وانصارها، وتحتلُ في نفوسهم مكانةً، ليس من السهل على رجلٍ آخرَ غيرِه ان يحتلّها، حتى صار مألوفاً عندهم ان يسمّوه (الزعيم)، وبه عُرِفَ بعدُ اكثرَ ممّا عُرِفَ باسمه.

ونحن لا نختلف في أنّ الفرصة كانت مواتية، لينهض هذا الزعيم الى تأسيس الحزب القومي السوري، ويمضيَ في نشره ودعوة ابناء مجتمعه لتأييده والوقوف خلفه، ولا نختلف في أنّ قلمه، اخرج كتباً لها قيمتُها وشأنها، وفيها اتى على ذكر الأسباب التي دفعته الى خلق حزبه وتأليفه، وعَرَضَ من التحليل ما لا يَسَع المطّلعون عليه إلّا ان يقدّروه له وان يعترفوا بعمقه ودقّته في اكثر جوانبه. وقد جمع في هذا التحليل بين الدرّةِ والبعرة كما يقولون، فعلى حينِ تراه يُحدّثك بمنطقٍ قويّ وفعّال عن أسباب نشوء الأمم

واسباب انحلالها وتدهورها ، يعودُ فيطالعُك بتحليل لا تَكادُ تُصدّق انَّه هو قائلُه ، ولا يليق بمثلِه ان يَطْلَعَ به لولا حاجةٌ مدفونة في نفسه .

ومن ذلك قولُه في المحاضرات العَشْر : «العربُ اسمُهم عرب ، ليس لأنَّهم ولَدَ جَدٌ يُدعى يعرب ، بل لأنّهم سكّان العَرَبة . والعَرَبة اسمٌ للصحراء ، فالعرب هم سكّان العَرَبة» . فهذا تخبُّطٌ وليس تحليلاً ، نعرف ذلك عندما ننظر في الأقوال المشهود لها بأنّها حقٌ صريحٌ أبلج . ومنها قول الرازي في مُختار الصحاح : «العرب جيلٌ من الناس ، والنسبةُ إليهم عربي ، وهم اهل الأمصار . والأعرابُ منهم سكّان البادية خاصّةً ، والنسبة إليهم أعرابي» . فأمّا الأمصار التي عناها بقوله ، فهي المدن والأمكنة المتحضّرة ، وهي التي نزلها العرب وأقاموا فيها ، وامّا البادية ، فهي المساحة الواسعة النائية عن الأمصار ، والذين يؤمّونها ويحلّون بها هم الأعراب .

ونحن لا نُنكر عليه هذه الثقافة القويّة المحكَمة التي من علائمها أفكاره وآراؤه المبثوثة في كتبه ومؤلّفاته . فقد عَرَف كيف ينتقي من الموضوعات ما هو أشدُ مَساساً وأوثقُ ارتباطاً بحياة أبناء مجتمعه وعَرَف كيف يواجهُهم وكيف يخاطبُهم ، واهتدى الى الطريقة التي ينقُفُ فيها إحساسَهم نقفاً ، وإلى الأسلوب الذي يحرّك به مشاعرهم تحريكاً . وإنْ كان يعاني في بعض جوانبه من الضعف والاهتراء لكنّه بقيَ في مكانته من الفعل والتأثير . وأصبح له من هذه الثقافة فيما بعد مدرسة تخرّجَ فيها عددٌ غيرُ قليل من المفكّرين ، وهم وإنْ تمرّدوا عليها بعد ما ادركَهم الفهم الأصحُ الأصوبُ ، فقد ظلّوا مطبوعين بأثرها ، وبَقُوا معروفين بأنّهم من تلامذتها وتخرّجَ فيها من الكتّاب والشعراء ومن الفنّانين ، من قدّموا عَطاءً توهّج في بعض جوانبه ، والقى بأثره قليلاً على من حولَه من

القطاعات الأخرى ، فلا يجوز الاستهتار به ، ولا يجوز أن يُحْرَم من الالتفات والعناية . وتخرَّج في مدرسته من السياسيِّين ، من لعبوا دوراً وجيهاً ، لا يُستهان به في لبنان وسورية . ولا تزال مدرسته قائمة حتى الآن ، وإنْ هي وَهَنَتْ وإنْ أصابها ضعفٌ وحلَّ بها إنهاك ، فقد احتفظتْ ببقيّة ، يتخرَّج فيها مفكّرون وأدباءُ وشعراءُ وفنّانون وسياسيّون .

ونقتصر هنا على ذكر طَرَفٍ يسير من مبادىء هذا الحزب ، نأخذها من كتب الزعيم سعادة وهي مبذولةٌ معروفة . فالحَجَر الأوّل في أساس حزبه ، والذي قام عليه البنيانُ هو إحياؤه الأمّةَ السورية ، في مكانٍ جغرافيّ له حدودُه المعلومة ، واسمُه «الهلالُ السوري الخصيب ، ونجمتُه جزيرة قبرص» ، والوجه الآخر لهذا الحَجَر هو أن «سورية للسوريين ، والسوريون أمّةٌ تامّة» . والحَجَر الثاني هو دعائمُ الدولة التي يحلم الحزب لها أنْ تقوم على رأس الأمّة السورية ، في المكان الذي عيّنوا مساحته على هذه الأرض . وتنحصر هذه الدعائم في أربع كلمات واسعة جامعة وهي : الحريّة ، الواجب ، النظام ، القوّة . وهي «التي ترمز إليها أربعة أطراف الزوبعة القوميّة الاجتماعيّة الممثّلة في عَلَم الحزب السوري القومي الاجتماعي» .

ويحاول سعادة بكلّ ما أوتي من سعةٍ في الثقافة ، وما امتلك من أنماطٍ في طريقةِ المخاطبة ، وجدّةٍ في أسلوب الكتابة والمواجهة ، أن يجعل لحزبه روحاً ، تدخل خِفيةً إلى نفوس الذين يقتربون منه ليلتمسوا حقيقته ويتعرّفوا عليه . وجعل قِوام هذه الروح «من مواهب الأمّة السوريّة وتاريخها الثقافي السياسي القومي» ، كما يذكر في المبدأ السابع من مبادىء الحزب . ويذكر من شرحه في كتاب المحاضرات العَشر أمثلةً ورموزاً من التاريخ

الثقافي والسياسي والحضاري «كاختراع الأحرف الهجائية التي هي أعظم صورة فكرية ثقافية حدثت في العالم ، وانشاءِ الشرائع التمدنيّة الأولى . ناهيك بآثار الاستعمار والثقافة السورية المادية الروحية ، والطابع العمراني ، الذي نشرته سورية في البحر السوري ، المعروف في الجغرافيا بالمتوسط . وربّما خلّده سوريّون عظام ، كزينون وباصليبي ، ويوحنّا فم الذهب ، وافرام ، والمعرّي ، وديك الجنّ الحمصي ، والكواكبي ، وجبران ، وطائفة كبيرة من مشاهير الأعلام قديماً وحديثاً . أضف الى ذلك قوّادها ومحاربيها الخالدين ، من سرجون الكبير ، الى اسرحدون ، وسنحاريب ، ونبوخذنصّر ، وأشوباني بال ، وتقلاط فلاصر ، إلى حنّون الكبير ، إلى هاني بعل ، أعظم نابغةٍ حربي في كلّ العصور وكلّ الأمم ، الى يوسف العظمة الثاوي في ميسلون» .

فكأنَّ الإنسانَ يشعر ، وهو يقرأ فكر سعادة أنّه اخذ يحفر جسدَ التاريخ حتى وصلَ الى أعصابه ، وأنّه وجد على كل عصبٍ منها شبحاً من الأشباح الهائلة التي تريد أنْ تغازلَ روحه لتتعلّق بها وتدخلَ إليها . ويعود من الصعب عليه ، بعد ذلك ، انْ يتذكّر أنَّ الهلال الخصيب ، هو قطعةٌ تَتْبع شبه الجزيرة العربية من حيثُ الأرضُ والطبيعة ، وانّ الأقوام الذين تتابعوا عليه وأقاموا فيه ، هم من الدفقات البشرية التي خرجت وانطلقت من شبه الجزيرة ، وأنّهم في تاريخهم وحضارتهم وثقافتهم ولغاتهم وعلومهم لا ينفصلون ، وإن ابتعدوا قليلاً أو كثيراً ، عن أصول تلك الدفقات وعن موطنها الأول .

ومن الموضوعات التي تنبض بالاحساس نبضاً ، والتي لا يستطيع الإنسان أنْ يترك الاهتمام بها ، وهي رفعُ الظلم ودفعُ الحرمان ، واستبدالُهما بنشر العدالة وتوسيع الرخاء حتى يَنغمرَ

الشعب بالنعمة كلّه دون تمييز ولا استثناء. وإلى مثل هذه الموضوعات، عرف أنطون سعادة كيف يتوجه وكيف يصنع منها مركباً حديثاً وسريعاً، يمرّ به بين طبقات الشعب كلّها، ويلوّح بالوعود، ويَقرع الأذهان بالخُطب وبالأحاديث المحمّلة بالأماني. واستمع اليه الناس. واختلفتِ الاستجابات من مكان الى مكان. ففي بعض هذه الأمكنة كانت نسبةُ الاستجابة منخفضة، وفي بعضها الآخر كانت نسبتُها عاليةً كهذه النسبة التي خَفَّتْ إليه من صوب الساحل والجبل عندنا، لأسبابٍ وجيهةٍ كنّا أومأنا الى بعضها إيماء، ولا نحب إلّا أن نشير الى بعضها الآخر على عجل لما له من الوجاهة والأهمية، وإنْ كنّا لا نقوى على التفصيل فيه الآن. من مثل هذا الاضطهاد الذي تكدّس على نفوس أبناء الجبل، من دون ان يُوجَدَ له تفسيرٌ معقول، وإذا وُجد له تفسير فإنّه لا يقلُ عنه قبحاً وشناعةً بل يَزيد عليه ويُوفي. ومن مثل الحرمان والفقر الشديد، وهما نابعان من الإهمال والاستهتار في جوانبَ منه، ومن الملاحقة والمضايقة في جوانبَ أخرى. ويُحسَبُ من هذه الأسباب، أنّ الجبلَ لا يزال منزلاً مغلقاً، لم تُفتحْ فيه نافذةٌ ليدخلَ اليه منها هواءٌ جديد، يجدّد في نفوس أبنائه الحيويّةَ ويبعثُ فيه النشاط. ومنها هذا الاختلاف بين ما عليه أبناءُ الجبل من مذهب إسلامي وبين ما عليه الفئةُ الأخرى من مذهب آخرَ إسلامي.

وبفعل هذه الأسباب وبأثَرٍ قويّ منها، كَثُرَ أتباع الحزب السوري في الساحل والجبل، وصار له فيهما مراكزُ قياديّةٌ متعدّدة، ينطلق منها بنشاطٍ قويّ، يتمثّل في النشرات والكرّاسات، وكتبٍ مترجمة وأخرى مؤلّفة، وزياراتٍ يقوم بها رجالٌ مرموقون من الحزب، يتكلّمون ويحاضرون. وسُمّيَتْ أمكنةٌ معلومةٌ مشهورة، باسم الزعيم وباسم سعادة، وتسابقَتْ عائلات منظورة للانتساب إليه

واكتساب مركزٍ مرموقٍ فيه، وكان لهم ما ارادوا وما رغبوا فيه انْ يكون. واحدثَ هذا الحزبُ ضَجَّةً وصلت الى عنان السماء كما يقولون، وربّما لم يكنْ املُه في لبنان اكبرَ من أمله في هذا الجبل لإحياء الأمّة السورية التي يعيشون لها، ولخلق الحكومة أو القيادة التي هي حلمُهم في المنام واليقظة. وأعطَتْ فلسفة الحزب وقيادتُه تفسيراً جديداً للساحل والجبل معاً شدّتْ به القلوبَ إليها شدًا كبيراً، وهو انهما مركزٌ تاريخي قديمٌ واصيل من حضارة الفينيقيين، وفيهما قام التمدّن الأوّل في العالم، ومنهما نشأتِ الأبجدية والحروف وانتشرت في الأرجاء والأصقاع، وعلى أرضهما قامت التشريعات الأولى واليهما تُنْسَبُ أعظمُ الآلهة واحلى ما كُتب من الأساطير وما جاء من الديانات.

ولم نُرِدْ في هذا الموجز المبسّط عن الحزب القومي السوري، إلّا انْ نبيّنَ الأسباب التي لأجلها كان الصراع حادًا بينه وبين حزب البعث، فلم يكَدْ حزبُ البعث يُعلن عن نفسه، وتبدأ خلاياه الأولى بالتشكّل والظهور في زوايا الساحل والجبل، ويشرَعُ أتباعُه ببثّ نشاطهم، حتى أعلن القوميّون السوريّون حربَهم على الحزب الجديد وعلى أتباعه الجُدُد، وأخذوا يكيلون لهم الضربةَ بعد الضربة، ويقذفونهم بداهيةٍ بعدَ داهية.

ولم يَكُنِ السلاح بين الفريقين المتخاصمين في بداية حربهما إلّا الكلامَ والجدالَ والحوار، الذي يحتدّ ويشتدّ، وينتهي في أكثر الأحيان الى التهديد والوعيد والمراهنة على الغد الذي يدّعي كلٌّ من الفريقين، أنّه سيستقبل منه الفوزَ والظفر، وسيُرمى عدوُه منه بالسقوطِ والاندحار. ولكنَّ الحال تطوّرتْ بعد انْ توسَّع حزب البعث وانتشر، وبعد انْ كَثُر اتباعه ومؤيدوه، فلم يعدْ للكلام من دَوْرٍ بينهما إلّا ان يكون باباً للدخول الى المجابهة والضرب بالأيدي

وبالعصي والحجارة وغيرها من الأدوات البسيطة، وأحياناً تكبر المجابهة وتتسع حتى تشملَ عائلات وأقرباء لهذا الفريق وعائلات واقرباء للفريق الآخر.

ولم يكن من السهل على رفعت الأسد، أن يتفرّج على هذا الصراع دون أن يكون له فيه دور، وهو الشاب الذي تعرّف على حزب البعث فأحبّهُ وانضمَّ اليه. فما إن يسمع بمكان ينشب فيه صراع، في قريته او في قرى مجاورة أو في المدينة، حتى يخفُّ اليه، ويقفَ إلى جانب رفاقه البعثيّين، ويضيفَ قوّتَه الى قوّتهم، ويناصرَهم بضراوةٍ وحماس. وقد اضاف حماسَه إلى حماسِ اخيه الأكبر حافظ الذي امتدَّ شأنُه في حزب البعث، فصار كلاهما هدفاً لرميات الخصوم الذين هم القوميّون السوريّون، في أيّ خصامٍ يقع، وفي ايّةِ معركةٍ تقوم. ولَشَدَّ ما لَقِيَ منهم رفعت في تلك المرحلة من الكَيْد ومن الشراسة في المجابهة والأذى، ولَشدّ ما كان ردُّه عليهم شرساً وعنيفاً. واحسبُ أنَّ هذه الحرب بينه وبينهم لم تنقطع، وإنْ هي خفيتْ واختبأتْ في شعارات جديدة، في المراحل التالية من نضال حزب البعث، ثم بعد أن قبض الحزبُ على أزمّةِ السلطة. واحسبُ انّه سيظلُّ يعاني من كيدهم وأذاهم على مدى حياته.

وأمّا عن حزب البعث، فإنّه يختلفُ اختلافاً شديداً في ولادته ونموّه مع الحزب القومي السوري، ولا يتّفق معه في شيء إلّا في استخدامه الأحوال السيّئة التي تُحيط بالشعب منطلقاً له، وفي جعله من الظروف القاهرة التي تخيّمُ على وضع البلاد مادّةً تزوّده بالطاقة الحيّة المشعّة، كلّما اراد ان يَقْوى ويتحرَّكَ الى الأمام. وهما من حيثُ المبادىءُ لا يلتقيان في شيءٍ ولا يتّفقان على شيء، وإذا لاحَ أنَّ بينَهما نقطاً مشتركة، فذلك لا يعني انّه اتّفاق، بقدْر ما يعني

انَّ الأضداد تتشابه احياناً من اجل أن يزداد الصراعُ بينهما وتَقوى الحياةُ في هذا المولود الذي يتكوّن من صراعهما .

ولكنَّ موْسسَ الحزب القومي السوري الذي هو انطون سعادة ، والذي أجاد قراءة افكار الغرب ، واهتدى الى فنّ التفكير عندَه ، عرف كيف يَستخدمُ هذا الفنَّ في توليد افكار حزبه ، وكيف يجعلُها تنمو وتكبُر بدهاءٍ عجيب ، وكأنَّها تحوّلتْ الى موجودات مسحورة ، فهو من هذه الناحية ، ومن ناحية عمق ثقافته وتلوينها ، يتقدّم على هاتين الشخصيّتين اللتَين وُلِد منهما حزبُ البعث ، وهما زكي الأرسوزي وميشيل عفلق ، لكنّه يقصّر عنهما من حيث ارتباطُه بالتُراث العربي وحبُه له ، ومن حيث تمثُّلُه للشخصية العربية وتعلّقه بها . ولو أُتيح لهذَين انْ يفهما ثقافة الغرب بقدْر فهمه لها ، وان يُتْقنا فنَّ استنباطِ الأفكار وتأليفِ القول والحديث كما أتقنَهما ، لازْدادَتِ الجودةُ عندهما في العطاء ، وكان اثرُهما اشدَّ قرباً الى النفوس وابعدَ عمقاً ونفاذاً فيها .

ويتنازع الأرسوزي ، وهو من لواء إسكندرون ، وعفلق وهو من دمشق ، فضيلةَ السبقِ إلى تأسيس حزب البعث ، فهناك من قال وكتب ، بأنّ الأرسوزي هو المؤسّسُ الأوّل ، وهناك من قال وكتب ، بل إنّه عفلق . ومهما يكنْ من أمر ، فإنّهما كلاهُما كانا السابقين الأوّلين الى تأسيسه وهندسة افكاره وصياغة بنيانه ، ويكادُ يكون لكلٍّ منهما حصّتُه أو اختصاصُه في مباشرة التأسيس وهندسة البناء وتشييدِه . فكان من اختصاص الأرسوزي أنّه وسّع في خلايا فكر الحزب وزاد في خصوبة عقله الفاعل وذهنه المتحرّك . وكان من اختصاص عفلق اتقانُ فنّ الدعوة الى فكر الحزب ، وحذقُه في الجمع والتأليف ، وفتحُ طرق التنظيم ، وهذا يعني ايضاً ، انْ يكونَ له حظُه ونصيبُه من تنشيط الفكر وتسويقه الى الأذهان ، وان تكونَ له

مشاركته في صنع فكر الحزب .

وربما نكون على حظ كبير من الصواب إذا قلنا ، إنَّ الأرسوزي كان المؤسس الأوّل للحزب وإنّ عفلق كان المهندسَ الأوّل له . وعلى كل حالٍ فقد اتفقا في البداية واتّحدا ، وسارا معاً على الطريق مسافةً طويلة . وكانت سيرتهما في النضال ، انّهما تقاسما حملَ الأعباء والأتعاب في سبيل إنشاء فكر الحزب ونشره بين الطلاب والمعلمين وبين العمّال الكادحين والمحرومين والمستضعفين . وبقيا على ما كانا عليه من إتفاقٍ وتآزر ، الى ما قبلَ استلام عفلق وزارةَ التربية ، ثمّ انّ رياحَ الاختلاف هبّتْ عليهما فجأةً ودبَّ الشقاقُ بينهما ، فكان لكلّ واحدٍ منهما وجهتُه ولكنْ في فضاء الحزب ، ولكلٍّ استقلالُه في الفكر والهندسة ، ولكنْ على ارض الحزب وفي طبيعته ، وتميزَ الأرسوزي عن عفلق ، في انّه لم يسعَ الى السلطة ، وظلَّ يكتبُ ويوسّع في دائرة الثقافة عند الحزب ، ويزيدُ في خصوبة افكاره وتلوين مفاهيمه . وكثيراً ما سَعَتِ السلطةُ إليه . فكان يعتذر ويعتزلُ ليفكّر ويكتب ، وكان يجتمع إلى رجالها ، فيستمع إليهم ، ولا يضنُّ بالمشورة عليهم ، وامّا عفلق فكان يسعى الى السلطة دائماً ، وحجّتُه في ذلك ، انّ الحزب لم يوجد ليقول ويكتفيَ بالقول او ليحدّثَ الناسَ بأفكاره ويقفَ عند الحديث ، وإنّما وُجدَ ليقولَ ويعمل ، وليحدِّث ويمارس . وكيف يُعطي الحزب ابناءَ الشعب وعوداً في أقواله واحاديثه ، ولا يسعى الى تحقيق هذه الوعود ! ولا يستطيع أنْ يحقّقَ وعداً اذا لم تكنْ ازمّة السلطة في يديه ، ووسائلُ التحقيق والإنجاز طوعَ أمره في الاستخدام والتصريف . ولا نستطيع إلّا ان نُقدّر لكلّ منهما حجّتَه في اتّخاذ موقفه واختيار سبيله . فمَنْ ينصرفُ الى الكتابة والفكر يكون له دورُه الفعّال وحجمُه الكبير في توليد الأفكار وخلقِ التوعية . ومَنْ ينصرف الى السلطة وإدارة الأمور يصبح اكثر

قدرةً على تحقيق ما يطمح إليه الفكر وما يريده له أن يكون .

ونرى انّه لا بدَّ أن نتحدّث عليهما قليلاً فذلك يسمح لنا وللمطالعين ، أن نخترق معاً حُجُباً واغشيةً ، تَرين على محلّاتٍ في مبادىء الحزب الذي اشتركا في تأسيسه والدعوة إليه . وهذه الحجب والأغشية ستَظهر أمامنا ونحن في الطريق لمعرفة ماهيّة حزب البعث والجبلة الأولى التي خُلِقَ منها . فكلاهما ارتحلا الى فرنسا لاستئناف الدراسة في جامعاتها ، وكلاهما كان على اطّلاعٍ طيب بالثقافة الفرنسية والغربية معها . ولكنّهما لم يتمكّنا من إتقان معرفة الفكر الغربي والنفوذ الى جذوره وأصوله ، وهذا شيءٌ يختلف اختلافاً شديداً عن الاطّلاع على الثقافة والإلمام بها . وأعيدُ القول بعبارةٍ أخرى ، إنّ مَنْ يقرأ الثورة الفرنسية وما حَدَث بعدها من تحوّلٍ وانقلاب في المجتمع الفرنسي ، لا يرقى إلى درجة من يّمسك بيديه الخيوطَ التي نُسجت منها الثورة الفرنسية ، ويكتشفُ الأسلوب التي تمّ به صنعُ لباسها ، فقراءةُ الفكر لا تبلغ مستوى اكتشاف فنّ التفكير ، والذي يَقطف بيديه زهراتٍ ملوّنة ، ويجمعُها ليصنعَ منها باقةً انيقةً ، لا يصير خبيراً بطبيعة النبات ومعرفة تركيبه وأساليب إنباته والعناية به .

ولست أجانبُ الصوابَ إذاً في الاعتقاد بأنَّ عفلق كَسبَ ظواهرَ فكرية من الغرب ولم يكسَبْ طبيعةَ التفكير . ومنْ هنا خَلَقَ لنفسه وللمجتمع العربي مشكلةً ، عندما أعلن عن تأسيس حزب يعتمدُ على إحياء العواطف والتأليفِ فيما بينَها اكثرَ ممّا يعتمد على إحياء العقل . وهذا الحزب الذي اتّفقوا على تسميته حزبَ البعث جاء بعثاً للعاطفة ولم يكنْ بعثاً للفكر . ولا أميل في هذا الاعتقاد إلى ظلم عفلق واتّهامه بما اتّهموه به من انّه صنيعةُ الغرب ، يعمل بإيحاءٍ منه . فهو الذي أوحى اليه ، أن يخلُقَ حركاتٍ واضطرابات وليس تحرّكاً

منظماً، وانْ يكدّس حجارة فوقَ بعضها البعض، تُشابه البناءَ وليستْ بناءً. وإنّما أميل إلى القصد بأنّه، صنع حزباً ولم يصنع مجتمعاً ولا شعباً، وخلق طريقةً في البُكاء على الأموات وأناشيدَ يُندَبون بها، ولم يُؤلّف فكراً أو اسلوباً في التفكير يُدبّر به الأحياءُ انفسَهم بعدَ الأموات.

ولا ازال اتذكّر تلك الحادثة، وكأنّني اسمعُها الآن من جديد، وكنت استمع إلى عبد الناصر، وهو يُلقي خطابه على الشعب العربي ويتكلّم في قضايا اليوم وقضايا الغد. وقد اتى على ذكر لقائه بوفد حزب البعث الذي خَفّ إليه من دمشق برئاسةِ ميشيل عفلق، ليقيم معه حواراً ينتهيان فيه معاً الى إقامة وحدةٍ قويّةِ الأساس سليمةِ البنيان. وقد عَرضَ اللقاءَ بأسلوب ساخر، تحوّل بعدَه الى مَثَلٍ يُذكر في السخرية والى نادرة تُحكى عند الهزء والاستهتار. وكان منه قوله: ثم إنّني سألت عفلق وهو يحاورني في موضوع الديمقراطية وقلت: والآن اذكُرْ لي ما هو تعريفُك للديمقراطية؟ فنظر اليَّ عفلق قليلاً ثم اجاب قائلاً: «الديمقراطية يعني، يعني، هي يعني...». واستأنفَ عبد الناصر خطابه بهذه العبارة الساخرة سخريةً مرّةً: «وهو لا يعني ماذا يعني» او بهذه العبارة: «وهو لا يعني أنّه يعني». ومن السهل على من يحاول ان يستمع الى هذا الخطاب كاملاً، انْ يطلبه من الأمكنة التي تحتفظ بمجموعة خُطَب الراحل عبد الناصر في مصر، كالإذاعة والتلفاز فإنّه سيلاقي فيه ولا بدَّ أحاديثَ أخرى تُعجبه وتُرضيه.

وانا لا أرمي من ذكر هذه النادرة إلى انْ أسخَرَ من عفلق، او انْ اجدَ عذراً لعبد الناصر في السخرية منه، بقدْر ما أرمي الى القول، بأنّه لم يكن أسهلَ على عفلق، من انْ يُعطيَه مجموعةً من التعريفات للديمقراطية، ويقدّم له امثلةً عنها، ويضعَ امامَه الواناً

من معانيها ، لو انّه كان قد اتقَنَ فنَّ التفكير ، وحمَّل نفسَه مشاقَّ العناء في الكتابة عن الديمقراطية ، وهكذا الأمر في مسائلَ اخرى غيرِها ، ممّا سنمُرُّ ببعضه بعد قليل .

ولم يقصِّر عفلق في الاطّلاع على التُراث العربي الاسلامي ، ولا في قراءة المجتمع العربي الإسلامي الذي وُلد فيه وعاش وأعطاه كلَّ اهتمامِه . ولكنّني اقول بأنّه قصَّر تقصيراً ملحوظاً في فهم هذا التراث فهماً عميقاً ، والإحاطة به إحاطةً تمكّنه من خلقِ الأداة التي تُحسِن الهدمَ ومن تركيب الأداة التي تُحسِن البناء . وسيوجد من يَدفع هذا الرأيَ ويقول : إنَّ وضع عفلق وانتماءَه الديني ، لم يكنْ يمسحُ له بأن يصنع أكثر ممّا صنعه . فما أسهلَ ان يُقالَ عند ذلك : إنّ ما قام به عفلق لم يكنْ أمراً هيناً ، وما صنعه عن المجتمع العربي الاسلامي لم تصنعه حكوماتٌ كاملةٌ ، منذ التحرّر والحصول على الاستقلال ، ولم نرَ المجتمع العربي الإسلامي وقفَ ليمنعَه من العمل والنشاط محتجًا عليه بإنتمائه الديني ، بل سارَ خلفَه ، ورَضِيَ له أنْ يكونَ على راس السلطة في سورية فترةً طويلةً من الزمن ، وأن يكونَ على راسها ايضاً وملهِماً لها في العراقِ فترةً أطول ، وهي ما بَقِيَ له من حياته بعد ذلك ، فلو أنَّه مَحَضَ نفسه للفكر ، واهتدى إلى فنّ التفكير الذي ذكرتُه وأشرتُ إليه أكثَرَ من مرّة ، ثم اضافه إلى قراءته الواسعة للمجتمع العربي الاسلامي ، لاستَخْرج نظرياتٍ جعلتْ تأثيره اشدَّ وأقوى ممّا كان عليه ، وربّما كان قد توصَّلَ إلى تغيير بنيةِ المجتمع تغييراً كاملاً ، وليس إلى صبغه وتلوينه . ونحن لا نحبُّ ان يمنعنا ما أوجدَه عفلق من تأثير في مجتمعه ، ومن مقامه في السلطة ومنزلته في قلوب رجالاتها من مشاهدة هذا التقصير الذي وَقَعَ فيه . وإنّه لتقصيرٌ لا يُستهان به ، أنْ يكون ميشيل عفلق مؤسّساً لحزب وليس مؤسّساً لفكر .

والآن وأنا أهمُّ بالانتقال الى الحديث الوجيز على زكي الأرسوزي حديثاً نقدياً، أوَدُّ أن أرسُمَ له صورةً من نسيج هذه الذكريات التي أحتفظُ بها عنه. فربّما وجدْنا فيها من العناصر ما يساعد على النظر إليه نظرةً صحيحة والقولِ فيه قولاً صادقاً. فقد كنتُ أراها مُتعةً، أنْ ألتقيه في دمشق، وأنا إذّاك طالبٌ في الجامعة، في المقهى أو في مسكنه الذي لم يتجاوز أنْ يكون غرفةً عادية، تشغل مكاناً من بيتٍ عاديٍّ متواضع. ولأنّه لم يكن يفصل بيني وبينه من مسافةٍ، يَحتاج قطعُها الى أكثرِ من دقيقتين، فقد كنّا نلتقي دائماً. وكان لنا في كلّ لقاءٍ جديد حديثٌ جديد ومفاكهةٌ جديدة نُؤْخَذُ بها فننسير بعضَ الوقت ولا نشعر أحياناً، وأحياناً يسألني أنْ أصحبَه إلى مسكنه، وهناك يُخبرني بما عندَه من جديد.

وكان في حديثه لا يكاد يختلف عنه في كتابته، يتحدّث وكأنّه يكتب ويكتب وكأنّه يتحدّث. ولا يقدر السامع، أنْ يقاومَ إغراء الاستماع إليه طويلاً حتى يَقَعَ فريسةَ المُتعة في حديثه. وما ذلك إلّا لأنّه كان يمتلك موهبةً، تساعده في خلق كلمات تأخذ الواحدة منها محلًا على قدّها في التعبير عن المعنى المصوَّب إليه. وكان لديه مقدرةٌ عجيبة على استحضار الأمثلة في مكانها المناسب، فتنطلقُ العبارة منه وهي مشحونةٌ بطاقةٍ قويّة من الخيال، وبروحٍ متدفّقةٍ بالإحساس، لا غموضَ فيها ولا تعقيد، تدخلُ إلى نفس السامع فتملأ مكاناً كان ينتظرها. أو تسدُّ فراغاً كان يعيش على أمَلِ لقائها. وما إنْ يبدأ بالحديث ويمضي فيه قليلاً، حتى يشعر وكأنّه دخل إلى حَرَمٍ آمن، لا يجوز للسامع أنْ يأتيَ بعملٍ محظورٍ يُفسد عليه أمنَه، كأنْ يُقاطعَه في الكلام، أو لا يُظهرَ على وجهه أنّه شديدُ الاهتمام بما يسمع. وقلّما كان يعجبه أنْ يستمع الى حديث صاحبه أو جَليسه، إلّا إذا كانت كلمات يسيرة عابرة تعني الموافقة

على افكاره، او تحمل مسايرةً له وملاطفة. وكان أشدَّ ما يغيظُه ويخلقُ الضجر والنفور في نفسه، انْ يُواجِه انتقاداً ممَّنْ يستمعون اليه، أو رفضاً للأفكار التي يَعرضها او غمزاً من اقواله، ولو انّه خرجَ على صورة مُزاحٍ لطيف ومحبوب.

وما كان أشبَهه في أسلوب حديثه بأسلوب العصفور، ينطلق من عشّه، ويذهب قريباً وبعيداً، يبحث عن قوت له ولفراخه. فإذا شَبِعَ حملَ ما يستطيع حملَه من الزاد وعاد إليهم يزقّهم ويزقزق معهم، ثم ينطلق من عشّه مرّةً بعد مرّةٍ، ويعود إليه مرّةً بعد مرّةٍ، وهكذا هي حياة العصفور دائماً، وهكذا كان أسلوبُ الأرسوزي في الحديث دائماً. وعشّه الذي هو مكان راحته وحياته، بل ونفسُه الثانية ليس إلّا العربَ وقضاياهم الأولى التي هي مصيرُهم. وهي الخروج من الاحتلال الى التحرّر، ومن التجزئة إلى الوحدة، ومن التخلُّف إلى التقدّم، ومن الضعف الى القوّة. وهو إذا خرج من عشّه هذا وابتعد عنه قليلاً أو كثيراً في الكلام، كأنْ يقدِّم أمثلةً من التاريخ القديم والحديث لحياة الشعوب، وكأنْ يحلّل ظاهراتٍ في مجتمعه ويقارنَها بظاهراتٍ مماثلة في مجتمعات اخرى، فإنّه يعود إليه بعد ان يكونَ قد اصطحبَ معه عدّةً من المعاني وزاداً من الأفكار إلى هؤلاء الذين ينتظرون عودتَه، فيُرضيهم أو يَرضى عن نفسه بما فعل.

ولم يكنْ همُّه في الكلام أن يُرضيَ عندَه غريزة حبّ الكلام أو التكلّم، بل كان همّه ان يُخرج من ذهنه فهمَه لقضايا العرب ويُعطيَه الى اذهانِ الآخرين، ليُزيح غفلةً ويضعَ مكانها يقظةً، وليَصنعَ من المعاني الكامنة في صدره بُذوراً يَنثرُها في نفوس المستمعين، لعلّها تنبتُ فيها وتؤتي أُكلَها. وكان يَحرِصُ كثيراً على أنْ يُحرِّضَ في اذهان طلابه ومن يجلسون معه ويستمعون إليه حبّ

التساؤل والبحث عمّا ينبغي انْ يُقال ويُبحث، ويَسعى الى خَلق المشكلة في نفوسهم وهي : كيف نُفكّر في مشكلاتنا ؟ وكيف نعملُ لكي نتهتديَ إلى الصواب في القول وإلى الصواب في انتقاء الحلول وتدبيرها، وإلى الصواب في العمل على وضعها موضعَ التطبيق ؟ وكان يُعجبه كثيراً ان يَرى اثَرَ حديثه بادياً على الوجوه، ويُرضيه انْ يلمُسَ تجاوباً من المستمعين، بل لم يكنْ يهدفُ إلّا الى إلقاء الأثر وخلْق التجاوب. وما كان يُرضيه او يُعجبُه، ان تشتدَّ مشاركةُ الآخرين له في الحديث، إلّا إذا كان تساؤلاً عن شيء أو إعادةً لما ذُكر من معانٍ بأسلوب آخر، أو إعجاباً بما طَلَعَ من افكار.

وكان أصحابه واصدقاؤه يعرِفون هذا الطبع فيه، ويَفهمون انّه لونٌ من الوان الغرور وحبِّ الذات. وكانوا يَرضَوْنه منه، ولا يَجدون فيه حَرَجاً وضيقاً، لأنّه لم يكنْ غُروراً شامساً ولا عجرفةً جامحة. ولا أُخفي انّني كنت اتمتّع برؤية هذا الغُرور كهؤلاء الذين يتمتّعون به، وكنت اتعمّدُ أحياناً الى إثارته فيه، فتثور عندَه الجِدّة في الحديث وتزداد عندي متعة الاستماع. ولا ينبغي أن نختلف في انّه لا يوجد مفكّر او كاتب او شاعر او فنّان، إلّا وعندَه من هذا الغُرور نصيب وله فيه حصّة. ومن الناس منْ يعتدلون في تسميته ويقولون هو معنًى مرادِفٌ للثقة في النفس أو لنوعٍ من أنواع الثقة. ومن المفكرين من يَرَوْنَ انّه محلٌّ مشرفٌ في النفس، يسكن فيه اليقين، فيُشْرف منه على رؤية الواقع كما يقع وعلى رؤية الغد كما سيقع. فإذا افصَحَت النفس، وهي في هذه الحالة عمّا تراه وتعلمه، فإنّها ستتعرّض لسخرية الآخرين منها وإلى وصفِهم لها بالجنون والغرور، واتّهامِهم إيّاها بالشذوذ والخروج عن المألوف المرغوب.

ولنْ ابالغَ في القول واضعَ الأرسوزي في هذه المرتبة. ولن احاولَ ان أصفَه بأكثرِ ممّا اعتقدُ انَّه: وَصْفُه حقًّا وطبعُه حقًّا. فغرورُه بنفسه او اعتدادُه برايه، إذا احببْنا ان نهذِّب العبارة اكثر، كان يحتلّ موقع الرضى ويُقابل بالصَّفح من الناس، ربّما لأنَّ عنصرَ البَراءة كان واضحاً فيه. وكان يُرفَضُ من الجُلاّس والمستمعين ولا يَنال اعتباراً، إذا لم يَرَوْا فيه ما يُقرّبهم من القناعة او ما يَحملُهم على الاقتناع. ولا يوجد هنالك من يشكّ في انّه كان كثير الإخلاص لأُمّته العربية، قويَّ الاعتداد بحضارتها وتُراثها، كثيرَ المفاخرة بصفاتها العريقة ومزاياها الفريدة، حتّى وَصلَ الى درجة المبالغة وكاد انْ يتجاوزَها إلى الوسْوسة. وربّما كان لا يحقُّ لن أنْ نلومَه اكثر مِن أنْ نَعذُرَه، فما انفتحَت عيناه إلّا على ظُلم الأتراك، يسوط الشعبَ العربي ولا هَوادة، ويَخنق تُراثه ولا شفقة ولا رحمة، ويَمنعُ عليه انْ يتكلَّم لغةَ أمّه وأبيه حتى تنقطعَ الصلةَ بينه وبينهما. وما تفتّح وعيُه إلّا وهو يَرى نفسَه وأهلَه وشعبَه يرسفون جميعاً بالذلّ ويُرشَقون بالإهانة. ليس إلّا لأنّهم عَرَبٌ، يتكلّمون العربية ويَنتمون إلى تاريخ عربي.

وقد حدّثنا انّه عَجِبَ اشدَّ العجب، وانتابَته حمّى من الحيرة والدهشة، حين راى القائمين على تسيير الأمور في فرنسا وغيرها من بلدان الغرب، يُبيحون لأنفسهم ولشعوبهم أنْ يتمتّعوا بكل ألوان الحرّية معتبرين ذلك حقًّا من حقوقهم التي لا ينبغي لأحدٍ في الدنيا أن ينتقصَ منها ويخدشَها، وحينَ لا يُبيحون للشعوب الأخرى أن يتمتّعوا بحقّهم، حتّى من الهواء والشمس والماء. وروى لنا مرّةً، انَّه بعد عودته إلى بلاده سورية وبعد أن شَرَعَ يُلقي دروسَه في مدرسةٍ من مدارس انطاكية، دخلَ عليه المفتّش او المراقب، وكان فرنسيًّا، فأصيبَ بالدهشة ثمّ بالغضب، حين سمعه يحدّثهم عن

الحريّة والتحرّر والانتماء إلى الشعب والبلاد. ولم تكَدْ مدّةُ الدرس تنتهي حتى خلا به المفتّش في زاوية واخذ يلومُه على طريقة درسه والأفكار التي يُلقيها على طلاّبه، وينْهاه عن العودة الى مثل هذا السلوك. فردّ عليه الأرسوزي، بأنّه يُلقي على طلاّبه ما تلقّاه هو من اساتذته في فرنسا، وانّه فوجيء بهذا اللّوم الذي لا مَطرحَ له، في الوقت الذي كان يعتقد انّه سيَنال منه جائزةً على صنيعه هذا. فأجابَه المفتّشُ مرّةً اخرى بلوْمٍ وخِسّةٍ: إنّ ما تعلّمته في جامعات فرنسا هو للفرنسيّين وحدَهم، ولا يجوز انْ يخرجَ إلى غيرهم من شعوب هذه البلدان.

فهو إذاً قد لَقِي من الجُور والتعسّف في ظلّ فرنسا الغازية المحتلّة اشدَّ وادهى ممّا لَقِي من تركيا التي أناخَتْ بظلّها الأسود على العرب قروناً عدّة. وأثّر في نفسه كثيراً، أنْ يرى العربَ يتقاعسون عن النهوض ويتحاربون فيما بينهم، ولا يهتدون إلى طريق يجدون لأنفسهم فيه منفذاً إلى التحرّر والخلاص، وربّما كان لِما عاناه من عَنَتِ المتسلّطين وما لاقاه من شراسةِ المتحكّمين اثره الكبير على نفسه حتى امتلأتْ بأنواع القلقِ والشكوك من الناس، فآثرَ حياة العُزلة والانفراد. وقلّما سُئلَ عن شخصية في جهاز الحزب والدولة، إلاّ ورماها بالضعف او بالغباء واحياناً يتّهمها بالخيانة والتآمر، وصارت له كلماته المعروفة بهذا الشأن واسلوبُه المشهور بهذه المغامز. ولم يكنْ اسرعَ من غضبه إلاّ رضاه، وكأنّه طفلٌ لا حقدَ عندَه ولا ضغينة، وأمّا غضبُه من اجل بلاده، فليس هو مثلَ غضب الأطفال، وإنّما هو موقفٌ جَعلَ منه سُنّةً لم يَحِدْ عنها مدى حياته وثورةً نَذَرَ نفسَه لها من غير انْ يطلب اجراً او مكافأة.

وارى انّه لا مفرَّ لي من القول والاعتراف، بأنّ الأرسوزي اسلمَ نفسَه إلى التراث وانصرف إليه انصرافاً كاملاً، يبحث في

زواياه ويُقلّب في طبقاته البعيدة قبلَ الاسلام وبعدَه . ولم يَشأ أن يَقصُر عمله في التراث على الحفظ والإعادة والتّكرار ، أو أنْ يكون راويةً كما تعوّد ان يعملَ القرّاءُ والمطالعون وعددٌ كبير من الدارسين والباحثين ، وإنّما دَخَل إلى النصوص دخولَ السائلِ الرقيب ليراقب ويحاسب ، واحتلَّها احتلالاً كما يحتلُّ الغزاةُ بلداً من البلدان ، فيتصرّفون بالأرض وبالشعب على هواهم ، ويستخرجون من كليهما الخير والكنوز لينقلوها إلى بلادهم وشعبهم . وكلّما توغّل في قراءته للتراث كلّما توغل في حبّه والتعلّق به . واتّسع فهمُه للكيان العربي من خلاله وازدادَت روُيته صفاءً ، فأصبح أكثر قدرةً على مشاهدة الأسباب الأولى التي ابدعَتْ حضارة العرب والمسلمين ، والأسبابِ الأولى التي أضعفَت هذه الحضارة واغرقَتها بالعَجْزِ والتخلّفِ والانقسام . وسعى سعياً محموداً ليُصالحَ بين أصول حضارتنا وبينَ الأصول التي قامت عليها النهضة المعاصرة في الغرب وفي الشرق . واجتهد أن يُزاوجَ بينهما مزاوجةً لا تطغى معها الأصول الخارجية المجلوبة على اصولنا الداخلية العريقة .

ولا يشك أحدٌ ، أنّه اهتدى إلى الطريق ، وعرف كيف يعمل ، وماذا يعمل ، ولكنَّ جهداً واحداً يظلّ ضئيلاً في اكتشاف المحيط الكبير ، وإنْ كانَ له قيمتُه ومكانتُه . وهل أظلُمُ الأرسوزي اذا امتنعتُ أن أسمّيَه مفكّراً مجدّداً ، واكتفيتُ بتسميته كاتباً أو مفكّراً حاولَ التجديد فأخطأه ، وما استطاع أن يفعلَ أكثر من صناعةِ طِلاءٍ طلى به أفكاره ، وصباغٍ صبغ بها افكار الآخرين وجعلها في بضاعته . فهو عندما كتب في لسان العرب وفي لغة العرب ، ليبيّن ما فيها من عبقرية ، لم يَزِدْ في عمله هذا على أن ردَّدَ اقوالاً لبعض الأئمّة القُدامى في اللغة ، وحاول أن يُصالح بينها وبين أقوالٍ ونظريات لبعض المفكّرين في الغرب عن نشأة اللغات وأصولها . ولا بدَّ أن

نقول، لكي لا نظلمَ عمَله وجهودَه، إنّه الحّ على إظهار قدرة الإحساس عند العرب وما له من دور في تطوير اللغة ونموّها وفي استيعاب مفرداتها لما يُصيب الحياة من تطوّرٍ ومن نموّ، وكأنّه يريد أن يقول، إنَّ الإحساس الذي قدِرَ أن يطوّر اللغة كلّما تطوّرت الحياة، لتُسايرَها وتُماشيَها، وأنْ يُوسّع اللغة كلّما توسّعتِ الحياة لتستوعبَها وتحتويَها، إنَّ هذا الإحساس، لنْ يَضيقَ عن استيعاب الحياة مهما نَمَتْ وتطوّرت، إذا هو بقي حيًّا، وفي حياته تكون النهضة، بل إنَّ حياته هي النهضة. وإذا استطعتُ أن أصدق بهذا الاستنتاج من كتابة الأرسوزي وأبحاثه في اللغة، فذلك يعني أنَّه صَعِد في التجديد إلى مرتقًى لا يُغْضى عليه ولا يُستهان به.

والأرسوزي عندما كتب في المجتمع العربي وأشار إلى المصادر الأولى التي انبعث منها تقدّمه ونبعَت نهضته في عصوره الزاهية، اتَّجه إلى الشعر العربي وإلى الأمثال العربية وإلى مفردات اللغة، يلتمس شواهده الناطقة وأدلّته الصادقة. وهو عندما كتَب في الشخصية العربية، يصفُها ثمّ يُحلّل صفاتِها وطباعَها، ويحفرُ في أعماقها ليستخرج من جواهرها وكنوزها ما يستطيع أن يستخرج، اتَّجه أيضاً إلى الشعر العربي والأمثال والمفردات، يسأل عن الشاهد والدليل، وينبّه العقلَ العربي الغافل، ويبعث الحياة من جديد في الإحساس العربي الذي يكاد يُشرف على الموت.

ولقد ساعدَه على أن يُقيم هذه العلاقة الوثيقة مع التراث وأنْ ينقطع إليه وإلى الكتابة انقطاعاً يكاد يكون تامًّا، هذه المهنةُ التي اختارها على غيرها من المهن، وأعني بها مهنةَ التدريس، فقد ظلَّ يزاولها طوالَ حياته. وكما رأى فيها طريقاً تنتهي به إلى توسيع آفاق المعرفة عنده، وتُيسّرُ له الاطّلاع الأوسع على العلوم والفنون عند العرب وعند غير العرب، فكذلك رأى فيها مفتاحاً، يفتح له

ابواباً كثيرةً واسعة على مختلف طبقات الشعب، ربّما كان من العسير عليه لولا هذه المهنة، أنْ يلاقيَها، ويشافهَها، ويبثَّها ما في نفسه، من شعورٍ واقوال، وما عنده من نوايا وآمال. فهو مع الطلاب نهارَه كلَّه. ومن الطلاب يكون رجال البلاد في الغد، وفي الطلاب توجد الأرض الخصْبة التي تَنبتُ فيها الأفكارُ الطيبة. وقد احسنَ صُنعاً عندما عَرَفَ كيف يخلُق فيهم النُوى الأولى التي تستقبل أثرَه وعنايتَه، وكيف عَرَفَ ان يجعل منهم وسيلةً للاتّصال بهم وبأقربائهم، مِنَ الذين عندهم مثلُ الذي عند الأرسوزي، من مشاعرَ تريد أن تعرف طريقها إلى الحياة، ولديهم مثلُ ما لديه، من الطموح إلى نشر الوعي الوطني، وحبِّ العلم، وإذْكاءِ الشُعلة الحضارية التي تكاد تخمدُ في هذه الأمّة، وبثِّ اليقظة في النفوس لإحياء الروح القومية التي عَصَفَت بها النكبات والنوازل، فطمَسَتها تحت رُكامٍ هائل من الجهل والتمزّق والنسيان.

وكذلك ساعَدَه اختصاصه في دراسته وفي تدريسه معاً، وهو الفلسفة وعلم النفس، على أن يعرف منطق العرب، ويهتديَ إلى أنماط التفكير عندَهم اكثر ممّا لو كان لديه اختصاصٌ آخر. ونحن لا يراودُنا شكٌّ في أنَّ هذا الاختصاص، يَرفدُ اطّلاعه على أدبِ العربِ ولغتِهم، بل يتّحدُ معه في تكوين شخصية الأرسوزي وتلوينها، لكنّه يختلف عنه بعضَ الاختلاف. فهو لونٌ آخرُ من الوان ثقافته، به يستطيع انْ يحاكم بين الظواهر الحضارية بعضها مع بعض، ثمّ بينها وبين الأشياء المتقاربة وبينها وبين الأشياء المتباعدة، وانْ يتّخذ الحكمَ الذي يراه مناسباً، ويحدسَ بالنتيجة التي تكاد تكونُ هي عينها التي ستقع وهو بفضل هذا الاختصاص، قويَ حِسُّ المحاكمة عنده، وبه استطاع أن يُوازن موازنةً هي أقربُ إلى الصحّة والدقّة بين حضارتنا العربية الاسلامية وبين غيرها من حضارات

الشعوب الاخرى.

ونحن لا بدَّ لنا أن نميّز بين من يملكون هذا الحسَّ المزوّد بمنهج في دراستهم للتراث ونظرتهم إليه، وبين الذين يملكونه خالياً من الزاد والتزويد، فعند أولئك تكثر النظرات النقدية للتراث وتنقدح باحتكاكهم به شرارات "تضيء الطريقَ أمام المتّجهين صوبه والناظرين إليه. وكان ينازعُ هذا الحسَّ عند الأرسوزي ميلٌ إلى الروحانيات. فحيناً تراه وهو يشرح ظاهرةً ولا يهتدي إلى رؤية أسبابها. إذا به يُحيل الأمر إلى المجهول الذي هو الطاقة الروحانية، وليس العدمَ والعبث. وكان كثيراً ما يُعلن عن إيمانه بهذه الطاقة، ولا يتحرّج أن يعتزَّ به ويدعوَ إليه. ثم لا يتحرّج أن يفرّق بين أصحاب هذا الايمان الذين عاينوا فيه البرهان وتذوّقوه وبين جماعة المتواكلين المهرولين الذين هم في إيمانهم على شفا حفرة. وهو بهذا الرأي كان يعتبره التقليديون من جماعة التراث ومن دارسيه، منحرفَ العقيدة، تَجِبُ محاربتُه وإبعادُه عن التدريس وعن مناحي التأثير. ويبدو أنّ تألُّبهم عليه وإلحاحَهم في هذا التألّب لم يمضِ دون أثر، فقد استجابتِ الحكومة لرغبة هؤلاء وأصدرَت قراراً بكفّ الأرسوزي عن العمل ومنعِه من مزاولة التدريس مدّةً من الزمن. ثم إنّهم أعادوه إلى ما كان عليه ومتّعوه باعتبارٍ أعلى وامتيازٍ افضل، واستمرَّ لسانه يحاضر في مدارس دمشق ومعاهدها، واستمرَّ قلمه في الكتابة والنشر، ومن لسانه وقلمه ملأ المكتبات بالكتب الثمنية وملأ الصحف والمجلات بالمقالات الجميلة والأبحاث الطريفة. وكان نشاطه في هذه الأشياء كلّها يتوزّع بين الفكر القومي، وبين فنونٍ مختلفة من العلم والمعرفة، لا يجوز للأجيال أن تُغفلها ولا أن تتغافل عنها.

ولعلّه بات من السهل علينا الآن أن نقول، إن ميشيل عفلق، كان على جانبٍ كبير من القدرة في فنّي التنظيم والتأليف، سواءٌ أردنا أن نعنيَ التنظيم السياسي والتأليف الحزبي، أو أردنا أن نَعنيَ تنظيم خططٍ وأفكار وتأليفَ اسلوبٍ ومنهج لعرض هذه الخطط والأفكار وتسييرها. نقول ذلك ونحن ننظر إلى ما صنعه في سورية وفي العراق، فقد نجحَ في سورية نجاحاً لا نظيرَ له، في تأسيس حزب سياسي، افكارُه تتجوّل في مخيّلة الشعب بشيء غير قليل من الغموض والقلق، وتدور في ذهن المجتمع على حذر وتخوّف، ربّما من انزلاقها في القول والكلام، في وقتٍ كان اللسان العربي طفلاً، لم يتعوّد بعدُ على القول والكلام، وكان العقل العربي معصوباً بالجهل والتخلف والقصور عن معاينة الوعي القومي ومباشرته. ونجحَ ايضاً في تأليف حِزَمٍ أو مجموعاتٍ من الجيل المتطلّع الناهض الذي درس بعضُ أفراده في أوروبا، وبعضُه الآخر ينتسبُ إلى بيوتات عرفت بأنها مصدرٌ لاشعاع الثقافة العربية والفكر القومي. ثم عَرَف كيف يقود هذه الحِزَم والمجموعات ويوجّه نشاطها حتى استطاعوا في بضع سنوات أن يضمّوا إليهم عدداً كبيراً من أبناء الشعب، وأصبح لهم شأنُهم الفعّال المميَّز، الذي أخذ يهدّد بقدرته وسَعة انتشاره الأحزاب الأخرى، وصار لحزبهم الرأيُ المؤثّر في البلاد، والكلمةُ الأولى التي إذا نَطَقَتْ أَخْرستْ غيرها من الكلمات عند الأحزاب الأخرى. فليس هناك من يشكّ، في أنّ دور هذا الحزب كان كبيراً في صنع الوحدة مع جمال عبد الناصر، ولولا قوّته ونموّه لما كان له هذا الدورُ الذي ما فَتِيء يتنامى حتى بلغ الذروة في انقلاب الثامن من آذار عامَ ثلاثٍ وستين وتسعمائة والف. وبعدَها استحْوَذ على كلّ شيء في البلاد، واستطال حتى لم يعُدْ هنالك صغير ولا كبير خارج قبضته، ولم يَبْقَ لحزب آخرَ مكانٌ

آخر . ثمّ إنّ الحزب انفجر مرّةً ومرّتين ، ووصلَت آثار انفجاره إلى مؤسّسه ومنظّمه الكبير ، فاضطرَّ أن يذهب إلى العراق حيث نبت الحزب هناك من جديد . وفي العراق أخذ عفلق وسعَه كلّه وأبعادَه كلّها ، وصار لكلمته الأمرُ والنهيُ واحيطَ بكثير من الاهتمام والتقدير . ولو لم يكن عفلق ينطوي على شخصية تتمتّع بكثير من الدهاء والذكاء ومن القدرات الفعّالة كالثقافة والخبرة ونضوج الحسّ القومي والتمرّس في فنون التنظيم والتأليف ، لما استطاع أن يظفر بهذا النجاح الذي ظفر به بين ابناء مجتمعه ، ولَمّا توصّل إلى بناء سلطتين في بلدين عربيّين كبيرين .

اما زكي الأرسوزي ، فلم يستحْوِذْ على هذه القدرة في فنّ التنظيم والتأليف ، التي كان ميشيل عفلق قد استحْوذ عليها ، ولم يكن اهلاً لتنظيم حزب ، وإنْ هو إبدى قدرةً ملحوظة على طبع الناس بأفكاره والتأثير عليهم تأثيراً فعّالاً بعيد المدى . وربّما لا يعود ذلك ، لأنّ افكاره كانت ضعيفةً مهزولةً ، فقد كانت قويّةً حيّةً ، أو لأنّها غريبةٌ ، فلم تكن غريبةً إلّا في هذه الجراة التي طُرِحتْ بها ، او لأنّها شاذّةٌ ، فقد استقبلها الشعب فيما بعد وألِفَها . ولكنْ ربّما يعود ذلك إلى شخصيته التي كانت تَجمع فيها بين البراءة والسذاجة . وكانت حصّة السذاجة فيها اقوى من حصّة البراءة ، فهو على استعداد لأن يصدّق كلُّ شيء وان يكذّب كلّ شيء في آنٍ واحد . فما كان اسهلَ على ايّ واحدٍ من الناس انْ يكون قريباً منه أثيراً عنده ! ثمّ ما كان اسهلَ واسرعَ على الأرسوزي أن ينقلب على هذا الذي يتقرّبُ منه ويُصبحَ عدوًّا له ، اذا ما انقدحَت أدنى بادرةٍ تومىء إلى شكّ فيه أو إلى ظنّ غير حسن . وقد رُمي بالوسوسة عندما لم يعرِفِ السبيل للتخفيف من غُلواء هذا الطبع الساذَج ، ولم يَهتدِ إلى كبح جُماحِ احكامه المتطرّفة على المتنفّذين في الحزب والدولة . يُضاف

إلى ذلك، حماسُه الشديد لآرائه، وتعصُّبُه لها تعصُّباً قاده إلى نبذ آراءٍ كثيرة، لم يكنْ من حقّها أن تُنبَذ، وإلى الغرور بنفسه، حتى تجاوز فيه حدَّ الاعتدال أحياناً، وإلى السخرية من الذين يشاركونه الآراءَ والأفكار، سخريةً جعلَتِ الناس يَسخَرون منه أيضاً في بعض أقواله ومواقفه.

وإنَّ هذه الأسباب، ولا شكّ، وحدَها لَتكفي، في أن تستَلِب من شخصيّته هذه القدرة التي تجعلُها صالحةً لخلق تنظيمٍ أو لتأليف حزب يكون له قدرةٌ على الصمود والبَقاء. فإنشاء تنظيم أو تأليف حزب يحتاج إلى كثير من الصبر على الاستماع إلى الآخرين والأخذ والردّ معهم، وإلى المداومة على استقبال الانتقادات الخفيفة منها والعنيفة، ويحتاج الى حسٍّ كاشف، يعرف به كيف يصدِّق ما يمسع وكيف يكذِّبه، من غير أن يسارِع إلى التصديق أو التكذيب، بطريقة يغلب عليها الاضطراب والقلق أو العفوية والارتجال. وإلى هذه الأسباب عينِها، وربّما معها غيرُها، انحلَّت عُرى الصداقة التي كانت بينه وبين عفلق وتفكّكت، وانقطعَتِ الأوصال التي قامت بينهما مدّةً طويلة، وحلّ محلّها الجفاء الذي انتهى إلى خصومة، كانت ليّنةً من جانب عفلق وقاسيةً من جانب الأرسوزي.

ولكنَّ هذه الأسباب لم تحُلْ بين الأرسوزي وبين وصوله إلى أيّة سلطة في الحزب أو في الدولة، ولم تكن معدودةً ولا محسوبة في انحساره عن ممارسة الحكم. بل كثيراً ما الحّ أصدقاؤه وتلامذته الذين قبَضوا على مقاليد الأمور، أن يأخذ حصّته التي يختارُها من قيادة الحزب أو الدولة أو من كليهما. فرفَض العروض والأعطيات كلَّها، ولم يشَأ أن يفوز بحصّةٍ ولا نصيبٍ من هنا أو هناك. ولا نريد أن نُنكر حقيقةً قائمةً، ربّما يبحث عنها كثير من الناس في مجتمعنا وفي غير مجتمعنا، وهي أنَّ ميشيل عفلق كان يجمع في

شخصيته مواهبَ كبيرةً مختلفة، ظهرت في تأسيس حزب البعث وتوسيعه وتنشيطه خلال مراحله كلّها، وظهرت في صناعةِ دولة البعث في سورية وفي العراق، وظهرت في ثقافته وفي أفكاره التي تنضمّ عليها كتبه وخطبه ولقاءاته. ومع نجاحه الذي لا يخفى في هذه الميادين، فما رأيناه رَقِيَ إلى أكثرَ منْ أنْ يكون مؤسّس حزبٍ أو صانعَ دولة، وليس مؤسّس فكرٍ ولا باعثَ نهضة. وعلى النقيض منه يَقِف زكي الأرسوزي، فقد كان يتمتّع بمواهبَ ضخمة، سخّرها لخدمة الفكر والعِلم والأدب، فقدّم عطاءً رفيعاً متميّزاً، تفوّق به على عفلق. ولو كان سخّرَها ليصْنع مثل صنيع عفلق في الحزب والدولة لقصُر عنه كثيراً، وربّما هوى في الضَياع وسقط في النِسيان.

ولسنا نشكّ، بعد أن عرَّفنا بهاتين الشخصيتين، أنّنا أعددنا أنفسنا إعداداً حسناً، لنقول كلمتنا الحرّة التي وعدْنا أنْ نقولها في شخصيّة حزب البعث وتجربةً وفكراً. وأنّنا أعددنا معنا القارىء والمطالع، ليسمع منّا هذه الكلمة، وله بعد ذلك أنْ يأخذ منها ما يشاء ويتركَ ما يشاء. وإذا كان في العادة أن تتّجه أقلام الكتاب والدارسين، إلى الخوض في تعليل الظواهر التي تنشأ في المجتمع، وإلى البحث عن الأسباب التي تكمُن وراء نموّها أو موتها، فأنا لنْ أشغلَ نفسي بذلك ولنْ أعيرَه اهتماماً. لأنّني لا أعدُّ نفسي في عِداد الكتّاب والدارسين. فما أنا إلّا عابرُ طريق، يريد أن يُبصر أمامه كي لا يقع، وأن يعرفَ إلى أين ستنتهي به الطريق فلا يضيع. وأرى لنفسي العُذر كلّه إذا امتنَعْت عنِ الانشغال بالحديث عن أسباب نشوء حزب البعث، فما أكثر الكتبَ التي امتلأت بالحديث عليها! وما أكثرَ ما تتشابه الأحزاب في كلّ مكان في أسباب نشوئها! حتى لتكادُ تكون هذه الأسباب واحدةً في حزبين متناقضين أو في أحزاب متصارعة. فالتخلّف والتجزئة ووجود الفوارق الكبرى في حياة

ابناء الشعب، والاحتلالُ والأمراض الأجتماعية المختلفة، وغيرُ ذلك من الظواهر، يسمّيها الدارسون أسباباً باعثة على نشوء أحزاب، وحدوثِ تنظيمات، وقيامِ ثورات في المجتمعات الانسانية. ثم يُسمُّون الغايات والأهدافَ التي ترمي إلى وصولها هذه البواعث والأسباب، فيقولون إنّها التقدّمُ والعدالة الاجتماعية، وتوحيدُ الشعب المتفرّق في الوطن الواحد والاستقلال، وغيرُ ذلك من الظواهر الحضارية التي هي أمل الانسانية كلها.

ولا يختلف حزب البعث في أسباب نشوئه عن هذه الأسباب التي عدّدْنا نماذجَ منها، وإنّما يختلف في قوّتها وضعفها وفي قربها من الكمال او في بُعدها عنه. ويختلف في روحه التي منها تتشكّل شخصيته، ومنها يستمدُّ غذاء حياته واستمرارَ وجوده. ولكلّ حزب من الأحزاب روحُه التي يستلهمها من كِيان أمّته ومن تاريخها. وليس بضائره بعد ذلك ان يمُدَّ عُنُقَه إلى تجاربِ غيره من الأحزاب المختلفة، وإلى تعاليمها، فيأخذَ منها ما يتّفق وروحَه ويطرحَ منها ما ليس يتّفق معها. ولقد بدأتُ أحِسُّ باننّا اصبحنا على أهبةِ الدخول إلى المنطقة الملأى بالألغاز، من الباب الكبير الذي هو هذا السؤال: ما هي الروح التي اختارها حزب البعث لتكون مادّةً، يُقيم بها وجودَه من جهةٍ ويسعى بها إلى تجديد أمّته من جهةٍ اخرى في آن واحد؟ وفي الجواب على هذا السؤال، يكون المفتاحُ الذي تُفتَح به الألغاز المنتشرة في المنطقة المجهولة.

ونحن لن نعود إلى النصوص التي كتبها عفلق والأرسوزي وغيرُهما لنلتقط منها الإجابة عليه، فالنصوص كثيرةٌ وطويلة، والاجابةُ فيها غيرُ مباشرة. ولم يَرِدْ عندهم هذا السؤال بهذه الصيغة، وإنّما وَرَدَ عندهم في اسئلةٍ كثيرة بصيغٍ اخرى، احببْنا أن نُجنِّب انفسنا طرحَها، مكتفين به وحدَه عنها كلِّها، وليس بين

المؤسسَيْن الكاتبَيْن منَ اختلافٍ في القول، فهما يقولان، بأنَّ روح حزب البعث منفطرة من شخصية الأمّة ذات الحضارة العريقة التي امدّتِ الأمم والتاريخ بأسباب غير مجهولة من النموّ والتقدّم، ورفدَتْهما بعناصرَ حيّةٍ مشرقةٍ مشهودة في ماضيها البعيد والقريب. وليس لأنّها اليوم تعاني من واقع مرير، يتألّف من التخلّف والتجزئة والتفرقة وامراضٍ اجتماعية كثيرة، ينبغي أن نتّهمها بالعجز عن الحياة مرّةً اخرى، وعن مماشاة التطوّر المتقدّم، وأن نيأس من نهضتها وقيامها، ونزهدَ بِغدِها ومستقبلها. فالأمّةُ العربية هي صامدة باقية، ولن تموت وإنْ مرضَتْ، ولن تسقط وإنْ ضعُفَتْ، ولنْ نعترف أنَّ اصولها خُلقَتْ لتموت. وإنْ هي توقّفتْ عن الحركة والعطاء، فليس السبب في ذلك يعود إليها، وإنّما يعود إلى ابنائها الذين انقطعتِ الأسباب بينهم وبين هذه الأصول، فتسلّطَ عليها الإهمالُ وابعدها عنهم، وتسلّطتْ عليهم الغَفلة فأبعدتهم عنها.

والتاريخ، والحضارة، والعطاء والإشراق، وكثيرٌ من أمثال هذه الكلمات التي وَرَدَت في النصوص التي تُعرِّف بالحزب عند الكاتبَيْن المؤسسَيْن، عفلق والأرسوزي، لم تُتْرَك بدون شرح وإيضاح، وبدون أمثلة. فعن ازدهار تاريخ هذه الأمّة، تأتي النصوص بأمثلة من الحياة الجاهلية، تصف الطبع العربي وخبرتَه الناضجة ومشاركتَه في بناء الحياة واستعدادَه في توسيعها مهما امتدَّ وترامى هذا البناء. وتأتي النصوص أيضاً بالإسلام سيّد الأمثلة على عبقرية هذه الأمّة وحيويّتها ونشاطها وقوّتها، وإسهامها في إخصابِ الحضارة الإنسانية وإغنائها بالسطوع والعافية. وبعد الإسلام تأتي النصوص على ذكر المراحل الباقية الأخرى، ومنها المرحلة الأمويّة في المشرق والمغرب، والمرحلةُ العبّاسية وفيها

توسّعتْ رقعة الأمّة حتى اخذَتْ اهمَّ ما في الدنيا من البلدان ونشرَتْ فيها ظلالها من التقدم والعلوم. وكذلك لم تُهمِلِ النصوصُ ذكر المراحل المتتابعة التي أعقبَتِ المرحلةَ العباسية، وإنْ كانت في جوانبها المظلمة هي اشهرَ منها في جوانبها المضيئة. ويمكن أنْ نَخلُص إلى القول، بأنَّ هذه النصوص صَبَّتِ اهتمامها على إنعاش الماضي الحيّ في النفس العربية التي تعاني من نحولٍ وهزالٍ ومن ضيقٍ في التنفّس يُسرع بها إلى الاختناق.

ونحن نستريح إلى القول بأنَّ حزب البعث، استطاع أن يَركب صَهوة الحضارة العربية ويَسرحَ بها في آفاق الشعب في سورية. واستطاع أن ينجح في تكوين حزب، ظاهره بعث ماضي الأمّة العربية في حاضرها المتجدّد، وباطنُه الملحوظ سياسةٌ وسلطةٌ وحكمٌ ونفوذ. لكنْ سُرعانَ ما وَجَدَ نفسه في مواجهة زحامٍ كبيرٍ من التساؤلات، يقودها هذا التساؤل الذي هو إمامُها وموجِّهُها الأكبر، والذي هو عُقدةُ العُقَدِ والحلُّ معاً، وهو السدُّ والمخرجُ بآنٍ واحد: إنّه ليتعذّر إحياءُ هذه الأمّة وبعثُها في غياب الإسلام، والاسلامُ ليس للعرب وحدَهم، وليس لهم في صنع تراثه أكثرُ ممّا لغيرهم من الشعوب والأمم التي أوَتْ إليه ودخلتْ فيه. فكيف نَخُصُّ الأمّةَ العربية وحدَها بهذا التراث ونسمّيه بها، ونحرمُ غيرها من الأمم والشعوب هذه التسمية؟

إنَّ الأمّة العربية هي جسدُ الإسلام والإسلام قلبُها، ولا حياةَ لهذا الجسد بدون هذا القلب. وكما انتشر الإسلام بين العرب فقد انتشر الإسلام بين غيرهم من الشعوب والأمم، وكما شارك العربُ في شرح مفهوم الإسلام وتوسيع علومه فقد شارك غير العرب أيضاً في شرحه وتوسيع علومه، وفيهم من سبق العرب وتفوّق عليهم في العطاء والتجديد وفي الحماية والتضحية. فلا يستطيع حزب البعث،

بعد ذلك ، أن يدّعي أنّ هذا التراث هو من صنع الأمة العربية وحدَها ، وهذا يعني أنّ استلهامَه المبادىء والروح لن يكون منها وحدَها ، ولم يعدْ احياءُ قديمها وبعثُ ماضيها إحياءً وبعثاً لها وحدَها . فقد رفدتْ تراثَها عقولٌ غيرُ عربية وامتزجتْ به امتزاجاً أصبح الانفصالُ بينهما محالاً ، ودخلتْ أممٌ مختلفة وشعوبٌ شتّى في الإسلام ، فكان من حقّهم أن يشاركوا العربَ في صنعِ تاريخهم وبناء حضارتهم ، وأن يصبحوا قطعةً لا تنفصل من هذا التاريخ ومن هذه الحضارة .

وهذا حزب البعث يعلن عن نفسه ، بأنَّه حزبٌ حضاري وسياسي لأبناء الشعب العربي كلّه ، وانفتح ليستقبل من يَفِدُ إليه منهم ، غيرَ ناظر إلى الانتماء الديني ولا إلى الانتساب المذهبي . فهو ليس حزباً خاصاً بالمسلمين وحدَهم ، لكنّه حزبٌ خاصٌ بالعرب ، يستوي فيه المسلمون منهم وغيرُ المسلمين . وصار من الحق وليس من شك ، في أنّ هذه المشكلاتِ كلَّها بأجزائها وابعادها ، كانتْ في ذِهنِ كلٍّ من الأرسوزي وعفلق أوانَ تأسيس الحزب وبعد تأسيسه . فكان لا بدَّ لهما من مواجهتها وإيجاد حلولٍ ومخارجَ لها ، تسمح للحزب أنْ ينتشر ويتوسّع ، وأن يمتلك منطقاً يحمي به نفسه ويُدافع عن توسّعه وانتشاره ، ولا يصطدم مع الدين ومع رهطه ورجاله . ونحن عند العودة إلى قراءة النصوص التي كتبها كلُ منهما ، نخرج بمفهوم يكاد يختلف عن سيرة الحزب وسلوكه وممارساته ، وعن واقع الإسلام نفسه ، ثم عن واقع العرب والمسلمين أيضاً . وهذا المفهوم هو أنّ حزب البعث الداعية الرائد إلى إحياء الأمّة العربية في بعث تاريخها وتراثها ، لا يختلف مع الإسلام الذي هو راس هذا التاريخ وعنوانُ هذا التراث ، بل هو لون من الوان الحبّ له ونغمةٌ من نغماته وصورة صحيحة ناطقةٌ عنه ،

وإنْ لم يكن الحزب داعيةً دينياً ، فإنّه يرى في الإسلام خيرَ نصيرٍ له وأوّلَ رافدٍ يرفده بالقوّة والحركة والحياة . والعروبة في العرب هي أصلهم وجذرهم ، والإسلام هو الذي غذّاها حتى نبتَتْ ، وهو الذي نشأها حتى قويَتْ واستطالت ، ولا يجوز لها بعد ذلك أن تبتعد عن الإسلام وأن تتنكّر له . وأصبحنا مع هذا المفهوم لا ندري ، هل نحن مع حزب يعتمد العلمانية أم الإسلامَ مذهباً له ؟ وما هو الواقع الذي يريد أنْ يخلقه للعرب والإسلام ؟ ولا ندري كيف يعتبر الإسلامَ من جهةٍ مُلهماً له في سيره ومبادئه ويرى فيه الروح الحيّة المحرّكة له ، ثم يقول إنه ذو نظرةٍ علمية مضاءة بالحب ؟ ثم لا ندري كيف نصالح بين الطرفين ونُزيح هذا الغموض الذي يلفُّ كلًّا منهما .

ولا بأس علينا ولا نرى حرجاً ، في أن نورد من كلام عفلق شذرات يسيرة ، ينكشف لنا فيها هذا المفهومُ بجلاءٍ ووضوح . فمن خطابه الذي وجّهه في الذكرى الأربعين لتأسيس الحزب عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف : «والحزب يعتزُّ أكثر ما يعتزّ بنظرته الجديدة إلى القومية العربية وإلى الإسلام ، وعلاقتِه العُضوية بالعروبة ، واعتبارِ الإسلام وفقَ مفهوم العرب هو الثقافة القومية الموحِّدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . وأنَّ مبادىء الإسلام الإنسانية وقِيَمه الأخلاقية والحضارية هي روح العروبة ومصدرُ إلهامها الدائم المتجدّد . ولئنْ كان ثمّةَ ما يميِّز نظرة الحزب هذه ، فهو أنّها نظرة علمية مضاءة بالحب . فالبعث هو قبل كلّ شيء حبٌّ للعروبة وحبٌّ للإسلام» .

فقوله واضح لا يحتاج إلى شرح ، واضح في هذا التناقض الذي لم يستطع أن يتخلّص منه الحزب طوال حياته . فالحزب يستلهم الإسلام مبادىء وقيماً له ، والحزب نظرة علمية . ولا يدري بعد ذلك عقل العاقل وفهم الفهيم كيف سيُلائم الحزبُ بين الحبّ والنظرة

العلمية وبين الإسلام الذي يكاد يصرّح باتّخاذه عقيدة له. ونراه في قوله انّه يعلّق القومية العربية بالإسلام ويربطها به ربطاً، لا تعرف بعده الانقطاعَ عنه والانفصال. أيْ إنَّ تماسك العرب وتوحّدَهم، وهو المفهوم القومي للعرب، لا يكون بغير الإسلام ولا يُفلح بدونه. وكذلك الإسلام، لا يكتسب «التجديد والانتشار والصلابة مرّةً أخرى إلّا إذا وُجد القومُ الاشداء المؤمنون الذين يَحمونه ويُدافعون عنه. ولئنْ وُجِدَ من غير العرب مَنْ اظهر قوّةً وجدارةً في هذا الميدان، فإنَّ العرب هم الذين سيظلّون يُؤْلِّفون القوّة الأصلب والأبقى تجدّداً وحيويّةً. فهم الذين شَهِدوا ولادته وتولَّوْا إرضاعه، وهو إليهم ينتسب وهم إليه ينتسبون. ولا يستطيع غيرهم أن ينفرد بريادة الإسلام وان يتولّى قيادتَه، مهما أبدى من مشاركةٍ وقدّم من عطاء. وفي الخطاب نفسه يصرِّح عن هذا المعنى تصريحاً لا لَبسَ فيه، فيقول: «ولقد عبّرَتِ الشعوب الإسلامية في أكثرَ من مناسبة عن حاجتها الملحّة إلى وجود الأمّة العربية بكامل مقوّماتها، وإلى دورها الرائد لكي تقدر على حمل رسالة الإسلام، لأنّه قَدَرُها الذي لا ينازعها فيه أحد».

وإذا كان في كلامه ما يُعبِّر عن تناقضٍ في مفهوم الحزب وماهيّتِه، فإنَّ فيه وضوحاً عن اعتقاده بأنَّ الثقافة العربية احتضنتِ الإسلام واستوعبتْه، وفيها زَرَع الإسلام بذوره التي هي مبادئه ومفاهيمُه، وفيها نبتَتْ هذه البذور نباتاً طيباً، فكانت قيَمه الروحية واخلاقه السامية وسلوكه الرفيع. ولم يُسافر الإسلام، لا في الشرق ولا في الغرب إلّا بمراكبَ ووسائلَ مصنوعةٍ من الثقافة العربية، وهي كلماتها وعباراتها ولغتها. فمن أراد أن ينشر الإسلام ويشرحَه للناس، فإنّه لنْ يستطيع أن يستغنيَ عن كلمةٍ واحدة فيها، ولن يَقدِر أن يستبدل كلمةً واحدة بما يقابلها في اللغات الأخرى عند

الشعوب الأخرى. واذا هو فعل ذلك، فإنه لن يُصيب إلّا مفهوماً ناقصاً، بل ربّما اصاب مفهوماً بعيداً عن روح الإسلام ولا علاقة له بها. فالثقافة العربية هي لباس الإسلام، اذا خرج لا يخرج إلّا بها، واذا قام لا يقوم إلّا بها، فلا هو يقدر أن ينزعها عنه، ولا هي تريد ان تُنزَع عنه ايضاً. وهي شخصيّته التي اينما حلَّ وارتحل لا يُعرَف إلّا بها ولا تُعرَف إلّا به. وبذلك قضَتْ حكمة الحكيم العليم ولا رادَّ لقضائه. وفي هذه الشذرة الأخرى من خطابه، يبيّن عن ذلك فيقول: «فارتباط العروبة بالإسلام، ظلَّ خلال التاريخ عبارة عن الحياة التي يحياها العرب ويتنفّسونها كالهواء، ولا يحتاجون إلى براهينَ وادلّةٍ عليه، وعلى كونه ارتباطاً عضوياً حيًّا مصيريًّا، هو ناتج القرون والأجيال، ولكنه قبل كلّ شيء هو إرادة إلهية طَبعَتِ الحياة العربية، وهو قد ظلَّ ايضاً بالنسبة إلى الشعوب الإسلامية غيرِ العربية بمثابة الحقائق البدهية».

وهذه النظرة الواضحة التي ينظرها الحزب في القول الواضح لمؤسّسه ميشيل عفلق إلى الإسلام، كانت قد لاقت إقبالاً عليها منذ اليوم الأول الذي انطلقَتْ فيه، وكان الإقبال يزداد عليها كلّما تتابعتْ في الانطلاق، وما ذلك إلّا لأنّه يعبّر تعبيراً صحيحاً عن ضمير ابناء الشعب العربي، ويُجسِّد آمالاً ورغبات هي في أذهانهم خطرات وفي داخلهم نبضات. ولا أُنكِر أنني من هؤلاء الذين اقبلوا على هذا الحزب وانضمّوا إليه، وكيف لا! وانا واحد من هؤلاء القوم الذين نشأتْ عندهم اللغة العربية، واستقبلوا الإسلام تلك الرسالة الخالدة، احملُ ما يحملون من الأحلام والآمال، وارغب كما يرغبون في حماية ثقافتنا العريقة وصيانتها من التبدّد والضَياع. فنحن لا نقوى إلّا بها ولا نعرف مادّة للحياة إلّا منها، وذلك بعد ان استوعبَتْ اصولَ الإسلام ومبادئه واخلاقه الروحية وقيَمه الحضارية، وابعاده

المتوهّجة ، وانطلقتْ به في داخل الأمّة وخارجها ، فما بقيَتْ أمّةٌ من الأمم إلّا واقتبستْ من وهج ثقافتها نوراً واستعارت من حرارتها دفئاً .

ولم تَزِدْ نظرة حزب البعث إلى الإسلام ، على أنْ تُردِّد الكلام الطويل في تعلّق الحزب بالإسلام وارتباطه به ، من مثل هذه الشذرات التي انتزعناها من الخطاب المعبّر لميشيل عفلق . ونقرأ عند الأرسوزي مثلَ هذا الكلامِ وأكثرَ منه تشديداً على استلهام روح الإسلام والاعتزاز به واعتباره الرسالةَ الخالدة للأمّة العربية إلى البشر . ونقرأ عند غيرهما أيضاً ما هو أقوى في الحماس وما هو أضعف ، ونرى أنفسنا بعد ذلك ، أنّه لا مفرٌ لنا من مجابهةِ هذا التساؤل : إذا كانتْ نظرةُ حزبِ البعث إلى الإسلام كما رأينا وعرفنا ، واذا كان الحزب يعتقد ، كما يقول عفلق ، «أنّ مبادىء الإسلام الانسانية وقيَمه الأخلاقية والحضارية هي روحُ العروبة ومصدرُ إلهامِها المتجدّد» ، فلماذا لم يضعِ الحزبُ ، في الموادّ الأولى من مبادئه مادّةً تُلزِم المنتسبين إليه أن يقرأ من الإسلام نصوصاً مُختارةً تكون أمثلةً ونماذجَ لجوانبَ حضارية متعدّدة فيه يُراعى فيها مشاعر الذين لا ينتسبون إليه ، وتخلق عندَهمُ القناعة بصواب هذا الإلزام ، وتزيد المسلمين منهم إيماناً بإسلامهم وتثبيتاً له في قلوبهم ؟

ولا يحقُّ لأحدٍ أن يُعجب لهذا التساؤل بعد أن يعلم أنّ حزبَ البعث جعل من نفسه قائداً لثورة في الأمّة العربية ، وجعل الإسلامَ مصدرَ إلهام لهذه الثورة ، ولا يحقُّ لساخر أن يسخر ويقول : تعالَوْا إذاً لنُطيلَ اللّحى ونضعَ العمائم ونعتكفَ في المساجد والزوايا ! فليسَ في تساؤلنا ما يبعث على الهزء والسخرية ، ولسنا نخبّىء في أنفسنا نيّةً ترمي إلى تحويل المنخرطين في حزب البعث إلى وُعّاظٍ وخطباء وإلى فقهاءَ ورجالِ فتوى . ولكننا نرمي إلى القول ، ونشدّد عليه ،

بأنَّ حزب البعث ، كان ينبغي عليه أن يتّخذَ موقفاً يَظهرُ فيه أكثر قرباً من أقواله التي انطلق بها ، وأن يختار سلوكاً تظهر عليه روح الإسلام وتفوح منه رائحته أكثرَ من الخطبِ والمحاضرات . وكان ينبغي عليه أيضاً أن يعرف كيف يقطعُ الطريق على الأحزاب الدينيّة التي اتّخذتْ من الإسلام غطاءً لها ، وذلك بأن يعمد هو ، من زاوية الغيرة والمفهوم الصحيح ، إلى اتّخاذ الإسلام درعاً يصونه ويصون الإسلام من الباعةِ والسماسرة ، دون أن يفقد دوره في قيادة ثورة هي للمسلمين وغير المسلمين ، من العرب ومن غير العرب .

وإذا كان حزب البعث قد رأى في الإسلام ثورة ، كما قال الأرسوزي وعفلق وغيرُهما ، فلماذا امتنع هذا الحزب أن يأخذ من هذه الثورة نصوصاً تَرفد اتباعَه بطاقةٍ روحيّةٍ متجدّدة ، وتزيد في إيمانهم برسالةِ الأمّة العربية التي هم أبناؤها وطليعتها ؟ وإذا وَجدتُ نفسي أنّني أعيد هذا السؤال مرّةً أخرى ، فلكي أحتجَّ أمام الناس على حزب البعث مرّةً أخرى ، وأقول : إنّنا لم نعترض عليه يومَ أنْ مَدَّ يده إلى الثورة الشيوعيّة في العالم ، ليأخذ ما يختار من ألوانها المنتشرة في العالم ، كاللون الروسي ، واللون الصيني ، واللون الكوبي ، واللون الكوري ، ويلّونَ بها واجهة بنائه . ولم نرفض ما استعاره منها ، ولم نتّهمْه باستيراد بضاعةٍ عندنا مثلُها وأجودُ منها . بل أيّدناه ونصرناه في عمله ، ورأينا أنّه على حقّ عندما يطّلع على تجارب الثورات في المجتمعات الأخرى التي عانتْ من عنفوان شروطِ الحياة مثلما نعاني ، ولاقتْ من الظروف العاتية كما نلاقي ، فيأتي بما يلائمه ويَدَع ما لا يلائمه .

ولعلّه كان حظًا كبيراً للإسلام ونصوصه ، أنَّ الحزب لم يصنع بها هذا الصنيع ولم يرتكب معها من القبح والتشويه ، كما ارتكب مع النصوص التي اجتلبها من الشيوعية ومن حركات ثوريّة تحرريّة

اشرى في العالم. فقد لجأ إلى نسخ تلك النصوص التي تعبّر عن تجارب الآخرين في ثوراتهم نسخاً غير مصحوب بالخبرة ولا مرفقاً بطرائق العمل في الميدان لترسُمِها وتطبيق قواعدها، ثمّ وزّع هذه النصوص على جهاز الحزب والدولة وفرضها على الناس. وكأنّه أراد أن يُوهِمَ هؤلاء جميعاً، انّه ارتقى إلى مرتبة الثورات في العالم، واحتلَّ مكاناً بينها يُرى فيه انّه ثورةٌ مثلُها. ولا يسَعُنا هنا إلّا ان نميل عليه من جديد بانتقاد شديد، عندما لم يصنع في استلهامه الثورات الكبرى في العالم قيَماً ومبادىء، إلّا كما صَنَعَ في استلهامه الإسلام قيَماً ومبادىء. فقد نسخ هذه النصوص ولم يُجهِد نفسَه في قراءتها ولا فهمِها، وكذلك صنع عندما قال وردّد القول، بأنَّه استلهمَ روح الإسلام وجعلها ينبوعاً له يعود إليها كلما أعوزَتْه الحاجة، لكنّه لم يَزِد على أنْ طلا واجهة بنائه وزخرف ظاهرها بالألوان الفاقعة الخادعة.

وإذا كنّا نُغمض العين عنه ولا ننتقدُه، لأنَّه ارتحل إلى الديار الغربية من اجل ان يطّلع على ما فيها كما تعوّد الناسُ أن يصنعوا، فإنّنا لا نستطيع أن نُغمض العين ونُمسكَ اللسان عن نقده، عندما نراه عاد إلى داره وهو يحمل بضاعةً هي أدنى قيمةً من بضاعته الموجودة في دياره وهي الإسلام، ويجرُّ أمتعةً اقلّ جودةً من أمتعته، وحين يفرش امامنا حمولته، ويخاطبنا وهو يعتزُّ بما فيها: انظروها، هذه هي الاشتراكية، لقد جئتكم بها، فلا فقرَ عندكمْ بعد اليوم تعانون منه ولا حِرمان تشاهدون. ونحن نقول له: الاشتراكية كلمة مترجَمة تحمل المعنى الذي نريده بعناء ومشقّة، فلماذا اختَرْتَها وهي الضعيفةُ الهزيلة، وتركتَ كلمةَ العدالة التي هي اقوى منها واسمنُ والیق بمجتمعنا والصق بمفهومنا وعاداتنا وتقاليدنا؟

فمن لا يشاهد منّا ، أنّ الظلم يغمر حياتنا في شطريها المادي والمعنوي ؟! فهو في المُلكيّة وفي الوضع الطبقي ، وهو في الأسرة والعلاقات الزوجية ، وهو في التربية الوطنية والتعليم والجيش ، وهو في الأخلاق والسلوك . ونحن عندما ندعو إلى الثورة على هذا الظلم ، فاننّا نرغب بذلك ونريد أن نطهّر منه أحوالنا المادية والمعنوية ، بطريقةٍ تنتشر بعدها العدالة في هذه الأحوال ، فإزالةُ الضدّ تعني أن يأخذ الضدُّ مكانَه ، والأمثلة كثيرة لا تُحصى ، فمِنْ ذلك أن المرأةَ في مجتمعنا تعاني من ظلمٍ كبير ، ولا سبيلَ إلى دفعه إلا بوضع قانونٍ يَكفَل لها حفظ حقّها وترتيبَ عيشها براحةٍ وأمان ، فمن حقّها أن تتعلّم وأن تعمل ، وأن تقاسم شريكها الزوجَ مسؤوليّةَ الحياة بجَدارة وسلام ، وأن تعيش معه بالاتفاق ، وليس بالإجبار ولا بالإكراه ، ونحن عندما نجتلبُ إلى مجتمعنا مبادىء من خارجه ، فلا ينبغي أن نُغفِل النظر إلى ما يلائم روحَه من هذه المبادىء ، وإلى أنّها سترى لها محلًّا ، فنسعى ونأتي بها . وأنّ ما لا يلائم روحه منها ولا يتّفق معه وليس له محلٌ فإنّنا نتركه ونمضي عنه ونكون بذلك قد استرحْنا من مشقّتين : مشقةِ نقلها إلى غير مكانها ، ومشقةِ تحميل شعبنا ما لا يُحبّه ولا طاقة له به .

وليت أنَّ حزب البعث الذي شهدَ وأقرَّ بأنَّ الإسلام هو ثورة ، قام وكَلّفَ نفسَه قليلاً عناءَ النظر في القرآن المجيد الذي هو عنوانَ هذه الثورة وقانونها ، والتفَتَ إليه التفاتةَ الدارس المتأمّل ، إذن لوجدَ فيه هذه الطبيعةَ التي يفتقدها ويبحث عنها . فهو منبتٌ للقيم ، لمن شاء من الناس ، من عرب وغير عرب ، وفيه المبادىء التي نبعَتْ منها الثورة الكبرى ، وخرجت الحضارة التي علّمتِ الإنسان من معنى الحياة ما لم يكن يعلم . وبالقرآن توحَّدَ العرب وكانوا متفرّقين ، وبالقرآن توسّعتْ شخصيّةُ العرب وكبرتْ ، وكانت قبله

ضيقةَ المدى صغيرة الحجم ، وبالقرآن عرفوا قانون الحياة وقانون المجتمع ، وبالقرآن عرفوا معنى السياسة ومعنى الدولة ومعنى الأحكام المختلفة المتعددة ، إلى كثير من الأمور التي يصعب علينا حصرها . فكيف يُغفلُ حزبُ البعث القرآن ويكتفي بالاشارة إليه إشارةَ تعظيم ، لكي يرفع عتباً ويقمعَ احتجاجاً ؟ فهل لا يزال من حقنا ان نعتقد ، أنّ الوقت لم يفُتْ ، وانّ الفرصة لا تزال سانحةً امامه ، لكي يُعاودَ حزبُ البعث نظرَه من جديد ، ويشخِّصَ علاقتَه بالقرآن على أنَّه التجربةُ الرائدة الكبرى التي ينبغي أن يستقيَ منها ويستلهمَها ، وعلى ان يُعطيَه دوراً ملحوظاً هامًا تتجدّد فيه حياة الحزب ، وتعود طريقه اسهلَ سلوكاً وأوضحَ رؤيةً .

وليس في هذه الدعوة ما يوقظ الغيرة في نفوس غير المسلمين ، ولا ما يحرّك النفورَ عندهم من الحزب ، ولا ينبغي لهم ان يعتقدوا أنَّ هذه الدعوة تنطوي على خطّة تجرّهم إلى الإسلام . وكيف لهم أن يعتقدوا ذلك وهم يرَوْن أنَّ كثيراً ممّن وُلدوا في مهودٍ إسلامية وفي أُسَرٍ إسلامية ، لا يقراون القرآن ولا يعرفون ما هو ولا ماذا فيه ، وعلاقتُهم به ليست هي أكثرَ من علاقة انتماء ؟ وليس من العسير على قيادة حزب البعث أن تستجيب لهذه الدعوة ، إذا لم يكن اوان الاستجابة قد مضى . وعند التشاور والتحاور بين اعضائها ، ومعهم القائمون على أمور الفكر ، يستطيعون أن يخرُجوا بإجابةٍ تُرضي المسلم وغيرَ المسلم من العرب وغير العرب ، ويكبر فيه الأمل وتقوى عنده الهمّة وتمتدّ ، حتى يصبح حزباً عربياً فكرياً داخل حدود العرب وخارج حدودهم . ومن زمنٍ بعيد وأنا أردّد هذا القول أمام حزب البعث وأمام غيره ، والِحّ على هذه الفكرة وابيّن ما فيها من تأصيل علاقة الحزب في نفوس ابناء الشعب أكثر ممّا هي عليه . ثم ابيّنُ ما لها من قيمةٍ بعيدة الأثَر في تخليص القرآن

من الأيدي التي رفعته بين صفوف المسلمين، لتستثيرَ به عواطفَهم وتجمعَهم حولَها وليس حول القرآن. ورفع القرآن بالأيدي لا يُغيّر شيئاً في واقع العرب ولا في واقع المسلمين، إذا لم يُرفع إلى الفهم وإلى الفكر. والذي جعل بين العرب وبين القرآن حجاباً وستراً مستوراً هو وقوعه بين أحزابٍ متخاصمة متناحرة، بعضُها يُنكره، وبعضُها يكتفي بتوجيه المديح إليهِ والتعظيم له، وبعضها يرفعه ليستغلّه في سوق البيع والشراء.

ولن انسى أن أكرّر هنا ما كنت أردّده في محاضراتي وفي أماكن البحث والحوار، من قولٍ ليس إلى ردّه ودفعه من سبيل، و هو أنّ العربَ، لم يكن عندهم قبلَ القرآن في حياتهم وفي شخصيتهم شيء كبير يعتدّون به، ولا عرفوا حدثاً عظيماً يعتزّون بذكره وتخليده. وهم بعد أنْ نزل القرآن فيهم، لم ترَ حياتُهم شيئاً إلّا ومن القرآن مصدرُه، ولم تعرف شخصيّتهم حَدَثاً إلّا ومن القرآن منشأه وإليه مرجعه. فهذه فتوحاتهم في الجهات الأربع من الدنيا وانتشارهم فيها، لم تكن لتحدث كما حدثتْ ولم تَصِرْ إلى ما صارت إليه لولا القرآن. وهذه علومُهم لم تتّسع هذا الاتّساعَ الهائل، ولم تتنامَ هذا التنامي الكبير لولا القرآن. وهذه لغتهم لم تأخذ مدى كبيراً، وتصبحْ واحدةً لشعبٍ واحد لولا القرآن. وكلُّ الأخطار التي أحدَقتْ بالعرب من الهزّات والنكبات، لم يصمدوا لها ولم يقفوا امامها لولا القرآن. فلماذا خَلِيتْ ساحةُ العرب وعقولهم وأفئدتُهم من القرآن؟ ولماذا يجدونه عاراً وعيباً أن يكون عندهم وفاء لهذا القرآن؟ ولماذا يمتنعون أنْ يعطوه دوراً في قوام حياتهم وتقويمها، وأن يجعلوا له اعتباراً هامًا في سلوكهم وأخلاقهم؟

وإذا كان العرب، يرَوْن في القرآن بضاعة صغيرة، يخجلون من عرضها اليوم بجانب ما وصل إليه التقدّم والعلم من أهمّ

الاختراعات وأدقّ المكتشفات في العالم المتقدّم الراقي، فليسوا على صوابٍ في هذه النظرة، وليسوا على صواب إنْ هم اتّهموا القرآن وجعلوه عائقاً أمام لحاقهم بتطوّر العلوم وتقدّم الاختراعات، أو أنْ يزهدوا به، لأنَّهم طلبوا فيه أحدث النظريات فلم يقعوا عليها، أو لأنَّه لم يُنزِل لهم السماءَ على الأرض، أو لم يأتِهم بالجنّة وما فيها.
أقول: اذا كان لا يحقّ لهم أن ينظروا إلى هذا القرآن هذه النظرة ولا أن يسلكوا معه هذا السلوك، فلا يحقّ لهم من جهةٍ أخرى أن ينسَوْا انَّه كان من وراء فتوحاتهم، ومن وراء تقدّمهم في العلوم وفي اتّساع لغتهم وانتشار حضارتهم في كلّ مكان، فلماذا لا يرَوْن فيه اليوم روحاً دافعةً إلى التقدُّم والتوسّع كما رأوْا بالأمس؟ ولماذا، عندما انحَجَبَتْ عقولُهم عن رؤْية روحه حِيلَ بينهم وبين التقدُّم والتوسّع، فتوقّفَتْ عزيمتهم وتقلّصتْ حياتهم؟

والذي يثير عاصفةً من الحيرة والتعجُّب في النفس هو، أنّ حزبَ البعث يُشيد بالإسلام اذا وَجَد فرصةً أو لم يجد، ويستلهمهُ المبادىء والقيم، ويشدّد على اعتباره محوراً تلتقي عنده نظرات القومية العربية من كل الجهات، وإرثاً لا تتكامل الشخصيّة العربيّة إلّا به. نعم تراه وهو يتكلّم بهذه الحرارة المشبوبة على الإسلام، اذا به ينتقل فجأة ليحدثك بالحرارة نفسها وبأشدّ منها، عن ضرورة اتّخاذ المنهج العلمي في معالجة شؤون حياتنا كلّها، من قومية واجتماعية وثقافية وسياسية. وليشدّد مرّةً أخرى على اعتبار العلمانية المذهبَ الأبهجَ سلامةً والأكثرَ ضماناً وأمناً للوصول إلى نهضةٍ رفيعة وإلى تقدّم مزدهر مستمر. وإذا سألتَ حزب البعث عمّا إذا كان يرى تناقضاً بين التشديد على الأخذ بالعلمانية واعتمادِ المنهج العلمي أسلوباً في المعالجة والتفكير وبين التشديد على استلهام الإسلام قيماً ومبادىء لا تتكامل حياتنا إلّا بها، ولا تقوم

شخصيّتنا إلّا عليها، فإنّكَ لا ترى عنده جواباً بيّناً مميّزاً، يُزيل الغموضَ عن هذه المسألة، ولا تقع عنده على مفهومٍ واضح عن العلمانية وعن المنهج العلمي.

وأخيراً لا تعرف كيف يَجمَع حزبُ البعث بين الإسلام روحاً وقيَماً واخلاقاً وبين العلمانية والمنهج العلمي طريقةً وأسلوباً، وأنا لا أعني هنا أن أقول، إنَّ بينهما تناقضاً وتنافراً أو بينهما توافقاً وتلاؤماً، ولا أريد بحثَ الموضوع وإثارتَه من جديد. وإنّما أعني أن أقول، إنَّ حزب البعث حرّك الموضع تحريكاً، وصل فيه إلى الاضطراب وليس إلى السكون، ووقع في مأزق، لم يعد يهتدي فيه إلى بابٍ للخروج والنجاة. وزاد في دهاء المصيبة، أنّه أوقع غيره معه، ولم يعد يعرف كيف يساعد أحدُهما الآخر ولا كيف يتخلّص أحدُهما من الآخر. ولن أتردد أن أختار مرّةً أخرى نصّاً صغيراً من خطاب عفلق، فقد نرى فيه تعبيراً عن هذه المشكلة، وعن الحيرة التي يخلقها في النفس. فاستمع معي إلى قوله:

«إنَّ القومية في مفهوم البعث، لا تنفصل عن التقدّمية، ولكنّها التقدميةُ الأصيلة المعبّرة عن تكامل الشخصية الحضارية. فإذا كان حلّ مشكلات المجتمع العربي في الحاضر والمستقبل يتطلّب فهم هذه المشكلات بمنطق العصر، فإنَّ فهم البعث للإسلام بأنّه ثورة روحية وحضارية كبرى، يجعل من استلهام قيم الإسلام النضالية والانسانية، ومن جرأته في الحقّ وصبره ونظرته التجديدية ورفضِه الجمود على ما كان عليه الآباء، ونظرتِه المتوازية إلى الحياة، إلى المادّة والروح والطبيعة والإنسان والدنيا والآخرة، يجعل من استلهام هذا التراث الفني أمراً ممكناً، بل واجباً في أيّ تغيير ثوري للمجتمع العربي، يتطلّع إلى بعث الأمّة وتجديد شخصيّتها الحضارية. إنَّ خيارات النهضة العربية خياراتٌ مصيرية، وفي

مراحل الانبعاث في حياة الأمم، تبرهن الشعوب من خلال معارك النضال الكبرى على خياراتها الأساسية وعلى جدارتها بشق طريق مستقبلها وبنائه على الأسس الأصيلة والعقلانية التي تسمح بالتطور والتقدم، وتحفظ الوحدة والفاعلية، بدلاً من الضياع والحيرة والتجاذب بين مختلف الاتجاهات واهدار الطاقات بالتناحر والانقسام».

فهذا النصُّ وإن كان من خطابٍ، فإنّه يختصر مَقُولة عفلق في كتبه كلّها حول هذه المشكلة. وهو كما ترى، لا يكتفي بخلق المشكلة مقرونةً إلى الحيرة في النفس، ولكنّه يخلق تساؤلاً عامًا عن حزب يكاد الغموضُ يلفُّ شخصيتَه. فنحن لا نتعجّبُ عندما نسمعه يقول بأنّ الإسلام ثورةٌ روحية وحضارية كبرى، ثم يلتفت ويقول، إنّ خيارات النهضة مثلُها مثلُ غيرها عند الأمم والشعوب، لا تبنى إلّا على الأسس الأصلية والعقلانية التي تسمح بالتطوّر والتقدّم. وإنّما نتعجّب عندما لا يتّضح أمامنا الطريق إلى التوفيق بين هذين المفهومين، ولا نعرف للحزب نظريتَه البيّنة في مصالحتهما والجمع بينهما. فنحن لا نقول بامتناع الجمع بينهما، وما نريد أن نعرفه هو كيف يكون هذا الجمع؟ وهل للحزب خطّةٌ مرسومة لهذا الجمع؟ وما هي هذه الخطّة؟

ولم يكنْ حزب البعث وحدَه هو الذي كَبا في هذا الميدان، وإنّما جَرَتِ الأحزاب السياسية كلُّها مثلَ جريه فنالها مثلُ كبوته. وبعض هذه الأحزاب ركب صهوة الإسلام، من غير أن يعرف كيف يجري به، فارتدَّ وقد امتلأ غيظاً وحنقاً على العلمانية ورجمها كما يُرجم الشيطان، وقال: هي من مخترعات الغرب، ذرّها في عيوننا ليمنعنا الرؤيةَ الواضحة، والقاها في نفوسنا ليملأها شكوكاً، فنعودَ لا نُبصر الطريق أمامنا، ولا نعرفُ كيف نتّجه إلى الصواب.

وبعض هذه الأحزاب انصرف عن الإسلام، من غير أن يُشهر عليه العداوة، واختار عليه العلمانية، زاعماً أنَّ الجمع بين الإسلام والعلمانية هو كالجمع بين الماء والنار. ووُجِد في غير الأحزاب، من الكُتّاب الأحرار الذين لا ينتمون إلى تنظيمات سياسية، مَنْ زعم أنَّ في الإسلام علمانية، وحاول أن يربط بينها وبين هذه التي قال بها الغرب، فأحرز نجاحاً ليس من الحقّ أن يُهمَل، ولكنّه لم يَرقَ إلى أن يكون حلّاً، ولم يَصل إلى أن يصير جواباً واضحاً على تساؤلنا السابق الذي سيظلّ قائماً.

ولا اريد أن انصرف إلى الحديث على هذه القضية، وإن كان الحديث فيها يُغري ويُطمع بالإطالة. ولكنّني أريد أن أقول كلمتي وأعتبرها حكماً بين مَنْ انكروا العلمانية كلَّ الإنكار وبين مَنْ اقرّوا بها كلَّ الإقرار. فأقول: ليس من الحقّ في شيء أن نجعل بين العلمانية والإسلام عداءً ولا أن نجعلَ بينهما صداقة، فلكلٍّ منهما سمتُه في الاتّجاه. ولا تستطيع العلمانية أن تنهض بتفسير كل شيء، وإنِ ادَّعى أصحابها وبالغوا في الادّعاء. وهؤلاء في مبالغتهم بحبّ العلمانية يتساوون وأولئك الذين يُنكرونها كلَّ الإنكار ولا يعتقدون بأيّ دور لها أو أثر. وسألتمسُ مثلاً من القرآن المجيد أستغني به عن الدخول في تعريفات العلمانية وتفصيلاتها، ولا أدّعي بأنّني اصبت، وإنّما أدعي بأنّني هكذا أفهم العلمانية. والمثل هو قول إبراهيم: «ربِّ أرِني كيف تحيي الموتى، قال: أوَ لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكنْ ليطمئنَّ قلبي». فهو إلى جانب إيمانه الذي لا يعرف الشكَّ بالله، أراد أن يزداد إيمانُه أكثر، عن طريق معرفة الكيفيّة التي بها ينتقل الفعل إلى المرحلة الأخيرة له من الوجود، والتي يصير فيها الشيء سويًّا كاملاً. فهل نُصيب إذا قلنا إنّ العلمانية، هي السعيُ إلى معرفة الأسباب التي تقف وراء وجود الأشياء وخلقها،

وإلى معرفة الطريقة او الهيئة التي بها تصير هذه الأشياء كما هي اشياء ؟ وقد يُفلح هذا السعي ، وقد لا يفلح ، وهو في كلتا حالتيْه لا يخرج عن العلمانية ، والعلمانية ذاتُ وجوهٍ كثيرة ، ربّما كان احلاها واشهرَها واقربُها إلى الاعتدال والدقة هذا الوجهُ الذي ذكرناه .

ونحن اذا رحنا نقرا الصفحات التي شرح فيها حزبُ البعث مفهومه للقومية العربية ، والأسبابَ التي جعلته ينهض لكي يمدّها بالحياة والقوّة من جديد ، لكي يحرّض في ابنائها النخوة والحماس للانتصار لها وحمايتها ، فإنّنا لا نتردّد أن نعتقد بأكثرِ ما قاله وطَلَع به من أفكار ، ونؤيده في مجموعةٍ كبيرة من آرائه ، ولا نتردّد أيضاً أن نختلف في أفكارٍ وآراء ، ربّما وَجَد في يوم من الأيام طريقاً إلى معاودة النظر فيها ، وإلى تعديلها تعديلاً يجعلها أكثر قوّةً وتحصيناً أمام غارات النقد وهجمات النقّاد . فممّا لا نُنكر عليه صوابَه في القول حين يقول ، إنّ العرب قومٌ معيّنون يسكنون رُقعةً من الأرض معيّنة . وهم مثلُ ايّ شعبٍ من الشعوب ، لهم تاريخ مشترك ، اجتمعوا كلّهم على صنعه ، ولهم حياة مشتركة ذات لون واحد ، وعندهم لغةٌ واحدة استطاعتْ أن تستقبل كلُ ثقافات العالم وتجعل منها ثقافةً واحدة غنيّةً متنوعة . فليس بِدْعاً أنّ العرب اتّحدوا في فجر حياتهم . وشكّلوا أمّةً مثلُها مثلُ باقي الأمم . وليس بدعاً أن يفكّر العرب وان يهبّوا قُبيْلَ غروب حياتهم ليستعيدوا وحدتهم من جديد ، وليكون لهم معها فجرٌ جديد ، بعد أن زلزلتْ بهم الأرض زلزالها ، ففرّقتهم قطعاً متناثرة ، لكلّ قطعة منها بلاياها ومِحنُها التي تكاد معها أن تنسى أخواتِها . فلو لم تكن أسبابُ الوحدة موجودة ، لَماَ ذَهَبَ تفكير العرب إلى إنعاشها وإلى إحيائها ، وكان من حقّ النقد ، بل الحقدِ الذي انصبّ على العرب من أعدائهم أن يكون

وجيهاً مقبولاً له دوره الفعّال .

والحقُّ الذي لا ينبغي ان يُنكر ، هو انَّ حزب البعث اعتمد اعتماداً هيّناً ، في الدعوة إلى إحياء القومية العربية ، على الأنساب والقرابات ووحدة الأصل في الدم والمنشأ . واذا تردّدت بعض هذه الأفكار في ثنايا كلامه واحاديثه ، فلأنّها واقعٌ عَبَر وانتهى ، لا يجوز إغفاله ، وأمانة تاريخية كان لها دورُها في وقتٍ من الأوقات . وهو لا يفهم القومية العربية إلّا انّها شعورٌ يحيا في ذات الفرد العربي ، ترتبط معه بأمّته ارتباطاً لا يقبل الانفصال ، ويُصبح قطعة متحرّكة منها ، يحمل تاريخها بما فيه من بياضٍ وسواد ، وصعودٍ ونزول ، ويعيش عاداتها وأعرافَها وتقاليدها . وينطق بلسانها ويفكّر بأفكارها وثقافتها . ولا يَضْعَف هذا الشعورُ إلّا إذا نزلَتْ به الخيبة تلوَ الخيبة من تردّي اوضاع أمّته التي ينتمي إليها . ولا يقوى هذا الشعور ، إلّا إذا رأى الأمل يلوح ولو على مسافةٍ بعيدة منه ، أو عاين أسباب نهضة أمّته ، وهي نائمة تنتظر الأحداث التي ستوقظها وتحلم بالرجالِ الشجعان الذين يُعيدون إليها صحوتها .

ولا يستطيع دُعاة القومية العربية أن يتّخذوا من وحدة الدم أداةً للدعوة إلى هذه القومية ، فذلك امرٌ غير موجود ، وإذا وجد فهو مرفوض ومردود . وليس عندَهم من وسائلَ قويّةٍ فاعلةٍ مؤثّرة ، يتّخذونها لتوسيع دعوتهم إلّا وحدةُ الفكر ووحدة اللغة ثم وحدة الثقافة ووحدة التاريخ ، بل ليس هنالك من وسائلَ سواها ، تورّث حرارةَ الشعور بحبّ القومية العربية والميل إليها . ولا اجدني قادراً على فهم طبيعة هذا الشعور ونشأته ، وربّما لا يقدر غيري أيضاً ، اكثرَ من انّه غريزة تولد مع الفرد على أرضه وبين أهله ، وتنمو بنموّه ، وتقوى إذا وُجدت أسباب قوّتها ، وتَضعُف اذا وُجدت أسباب ضعفها . وهذا الشعور لا يشبه ذلك الشعور الذي يتولّد من المسلمين

غير العرب، عندما ينصرفون إلى الاطّلاع على ثقافة العرب بلغتهم العربية، ولا يختلف عنه في شيء، إلّا في أنه عند العربي يأتي بالولادة ويحتفظ بحرارة الغريزة، وانَّه عند غير العربي، يأتي وهو أقل حرارة، واضعف قدرةً على تحمُّل الحرارة التي قد تنمو كلّما نما الاطّلاع على الثقافة واللغة.

ونرى انَّه لا مَحيدَ لحزب البعث من ان يعترف الآن بقيام معضلةٍ امامَه، وانَّه لم يجدِ المسلك الميسَّر للاهتداء إلى السيطرة عليها واكتشاف الحلّ الموجود لها. والمعضلة هي انَّه قدّم مفهوماً للقومية العربية يقول: إنَّها الثقافةُ الواحدةُ في التاريخ الواحد، ولا يوجد هنالك من يزعم انَّ العربَ وحدَهم هم الذين صنعوا هذه الثقافة وذلك التاريخ، فقد اشترك في صنعهما إلى جانب العرب شعوبٌ اخرى، بدأتْ تتّجه إلى الإسلام منذ ان ظهر أوّل نور له، وهي بعد امدٍ يسير من دخولها حَوزةَ الإسلام، أخذت تزاحم العرب على فهمه ونشره وصُنع ثقافته وتاريخه، وكان لها سبقٌ عليهم في ميادينَ مختلفة غير مُنكرة ولا مجهولة. ولا يُعجزنا ان نسمّيَ من هذه الشعوب الشعب الفارسي، وهذا تاريخه ناصع أبلج لا قدرة لناظر على طمسه وإخفائه. فقد تفوّق في علوم اللغة وفي ميدان الفكر والترجمة والتجديد وفي أنماط الادارة ووسائل العيش عند الفرد والجماعة.

وقد رأتْ هذه الشعوب انَّ حزب البعث قد خَطَفَ منها حقَّها او سرقه، عندما هبَّ ونادى بالقومية العربية، واختصَّ العربَ وحدَهم بهذه المَقُولة. ووَجَدَتْ انَّ من حقّها ان تغضب في وجهه وان تقوم عليه وتحمِّلَه تبعاتِ هذا التعصّب، وان تحاسبه على اقواله، فتدفعَها وتبيِّنَ ما فيها من زور وباطل. وكان لهذه الوقفة من الشعوب المسلمة غير العربية، اثرُها الكبير في إثارة الحركات

الإسلامية القائمة في المجتمع العربي ضدَّ حزب البعث وتأجيجِ نار العداوة والبغضاء بينه وبينها ، وكان أخفَّ هذه العداوة هو اتّهامُ حزب البعث ، بأنّه يقوم على مبادىء ضالّةٍ منحرفة ، ترمي إلى تشويه الإسلام والتنفير منه وإلى تأريثِ حِدّةِ الانقسام والتفرقة بين المسلمين .

وبعد أن توضّحَتِ المعضلة لنا وعلمنا أنّها : اختصاصُ العرب بما لا يحقُّ لهم أن ينفردوا بالاختصاص به دون غيرهم من المسلمين الذين شاركوهم كلّ شيء في الحياة عندهم ، كيف ينبغي أن يتصرّف حزب البعث ليخلق حلًا لهذه المعضلة الملحّة ؟ لقد عَمِلَ ولكنَّه لم يُحسن العمل ، ولقد قال ولكنَّه لم يكن جادًا في القول . فهو في عمله لم يَفتأ يحشدُ الحشود من أبناء الأمّة العربية ، ويشحنُهم بطاقات من الفخر والاعتزاز ، حتى لم تعد أعينهم تبصر أمامهم إلّا أنفسَهم المتصلةَ بماضيهم ، وأصبحوا يعتبرون غيرهم من الناس أولادَ صنائعهم . وهو في قوله ، كما عند الأرسوزي وعفلق ، لم يُنكر على المسلمين ما قاموا به من مساهمة نشيطة ومشاركة فعّالة في بناء صرح الثقافة العربية وتوسيع مداها ، ولكنَّه أنْ يبقى عند الاعتراف دون أن يزيد عليه ، ودون أن يُقْدِم على إشراك المسلمين بالتسمية . أو أنْ يجعل لهم نصيباً في العنوان ، فيقول مثلاً : الثقافة العربية الإسلامية ، أو الحضارة العربية الإسلامية .

صحيح أنَّ عفلق ردّد اعترافه في أكثرَ من مطرحٍ من كتاباته ، بدور المسلمين في صنع تراث الأمّة العربية وثقافتها ، من مثل قوله : «ويُصبح مفهوم الأمّة مرادفاً للثقافة ، وهي ثقافة عربية إسلامية تحمل القيَم الإنسانية للإسلام» . لكنَّ الكلامَ في الأبحاث والخطابات ، لا يحمل من التأثير ما يحمل إذا هو انتقل وراح يدخل عنصراً من عناصر المبادىء التي تُردَّد كلَّ يومٍ على شفاه الأتباع

والمنتسبين وتصير رمزاً من رموز حياتهم . ونحن لا نرمي أن نقول في هذا الانتقاد أنَّ على حزب البعث ، أن يسارع إلى سدّ هذه الثغرة وتدارك ما وقع فيه من الخطأ وما حلَّ به من نقصان ، فيصنعَ صياغة جديدة لمبادئه ورموزه ، يجعلُ فيها اعترافه بالقومية الإسلامية واحداً من أهم هذه المبادىء والرموز ، ولكنّنا نرمي إلى القول ، بل نتعمّد أن نقول ، إنَّ من حقّ المسلمين أن يشاركوا العربَ في التسمية والعنوان ، كما شاركوهم في تأليف الثقافة وصياغة هيكلها ، وفي صنع الحضارة وتوسيع رقعتها ، وشاركوهم في حمل أثرها وفاعليّتها إلى كل مكان . وهذا التاريخ شاخصٌ أمام أعيننا ، فلا يكاد الباحث يُميِّز بين العملَيْن ، مهما بَذَل من جهد ومهما أتعبَ نفسَه .

والاعتراف للمسلمين غيرِ العرب بجهودهم الكبيرة المشهودِ لها ، لا يؤذي الاعتقاد بالقومية العربية ، ولا يُنقص من أهمّيتها ، ولا يشوِّه معناها وقيمتها . لأنَّها ثقافةٌ وحضارة اشتركتْ في رسمها وتكوينها ، وفي بسطها وإعلاء شأنها شعوبٌ شتّى ، كانت وما فتِئت تعتزُّ بالشخصية العربية ، وتنطوي تحت قيادتها ، ولا تأنف أن تكون في ظلّ صفاتها وروحانيّتها . وما كان يَضُرُّ حزب البعث لو أنَّه راح يكرِّم هؤلاء المسلمين ويمدُّ يده إليهم من جديد ، يعقدُ معهم عهداً جديداً لإنماء هذه الصفات وهذه الروحانية . كأنْ يدعوَ في كلّ عام مرّةً أو مرَّتين كبارَ مثقَّفيهم وقادةَ الفكر والأدب عندهم ، فيحتفلَ بهم ، ويقيمَ لهم المهرجانات ، ويوطّد العلاقة بينه وبينهم . وهو بهذا العمل ، لو أنَّه أقدم عليه أو على مثله ، سيحتفظ لنفسه بدور القائد الذي يخطّط ويوجّه ويأمر ، فلا يرى إلّا السمع والطاعة ، وسيرضى منه المسلمون العرب وغيرُ العرب لهذا الصنع ، ويعترفون برايته وينضمّون إلى قيادته .

وليتَ الألسنة التي انهالت بالنقد والطعن على حزب البعث وافردَتْ لمؤسّسه وبانيه ميشيل عفلق وابلاً لا ينقطع ولا يرحم من الاتهامات، ترفّقتْ في نقدها، وبقيتْ في أفق النظر إلى أفكار حزب البعث ومبادئه ومسيرته، لاستطاعتْ أنْ تشدَّ إليها العقول القلقة التي لا تطمئنُّ إلى هذا الحزب، لما يلفّه من غموض في مواقفه وفي نشأته وظروف تشكّله، وفي جوانبَ من مبادئه ومن القيم التي يؤمن بها ويدعو إليها. وليتَها اتّخذت من نقدها سبيلاً إلى الحوار مع حزب البعث، إذنْ لوجدتْ في زواياه خبايا لا يجوز إغفالُها والاستهتار بها. لأنّني اشعر انَّه كان في قيامه أو في قيام حزب يماثله ويشابهه ضرورةٌ ملحّةٌ، تفرضها مكانةُ الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ، ومكانتُها في الزمن الحاضر إذا تهيّأت لها فرصُ النهوض وأسبابُ الانبعاث.

ولنْ تعرف هذه الحضارة نهوضاً ولا انبعاثاً مهما سنحَتِ الفُرَصُ وقويَتِ الأسباب لذلك، في غياب العرب أو في تجاوز الأمّة العربية، وقد أخطأ اولئك الذين اتّهموا ميشيل عفلق، بأنّه يرمي إلى نزع صفة الوحي عن القرآن المجيد وإلى إنكار الإسلام ديناً أوحي من السماء إلى الأرض، عندما شدّد على العلاقة الوطيدة بين أفكار حزب البعث وبين الإسلام، وعندما قال بأن الإسلام كلَّه، متناً وشرحاً، أُفرغ في المَنطق العربي وارتدَتْ معانيه لباساً عربياً جَهيرَ الزيّ والألوان. ولو انّهم غيّروا نظرة الاتّهام وتبصّروا تبصُّرَ الفاحص، لعلموا حقًّا انه قولٌ ردَّده المفكّرون القدامى قبل عفلق بقرونٍ طويلة. ثم إنَّ الاعتقاد بالوحي لا يتعرّض إلى القلق والتشويش ولا يرتفع، عندما نقول: إنَّ القرآن نزل بلغة العرب ليَفهموه وليُبلّغوه مَنْ سواهم. وكذلك قضتْ حكمة السماء الّا تُرسِلَ كلاماً أو رسالةً إلى قوم في الأرض إلّا بلغةٍ يعلمونها ويفهمونها.

ويكفي أن يقرأوا هذه الآية ليكفوا عن اتهامهم : «وما أرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلا بِلِسانِ قَوْمِهِ» ، واللسان هو اللغة ، وهو المفهوم والفكر أيضاً .

ولا نختلف ، ونحن نعاود قراءة حزب البعث ، على القول بأنَّ هذا الحزب استعار عيوناً له من وراء الحدود ، ليَرى بها قضايا شعبه ومشكلاته التي يعاني منها ، واستعار عقلاً ليفهمَ به طبيعة هذه القضايا والمشكلات وأسباب نشوئها ، واستعار حلولاً وخططاً جاهزة . ولا ابالغ اذا قلتُ إنَّه استعار نتائجَ تكفيه مشكلةَ القيام بتطبيق الخُطط وإفراغ الجهد على ما هناك من قضايا ومشكلات .
واقصد أنْ أقول بهذا الكلام الذي يبدو في ظاهره أنَّه يميل إلى التطرُّف ، إنَّ حزبَ البعث عاش ببصره أكثرَ ممَّا علِمَ ببصيرته ما عاناه شعبُه من الويلات والمحن . وليس في ذلك من عجب ، وإنَّما العجب أن يكون الذين اتَّبعوه ونصروه ، هم ممَّن أرهقتْ نفوسَهم المعاناةُ القاسية ، وممَّن فتح الألم في قلوبهم شقوقاً وأخاديد ، وفيهم عقلٌ عطَّلوه عن العمل ، وعندهم الوسيلةُ التي تقوى على تبديد هذه المحن وعلى استبدالها بنِعَمٍ ورخاء ؟ ولكنْ لم ينتبهوا ، إلّا بعد أن اطّلعوا على الحزب الشيوعي ، أو بعد أنْ غزتهم أشواكه في عُقر دارهم منذ بدايات الحرب العالمية الثانية وقرصَتْهم ، فأحسّوا بوطأة ما يُعاني الشعب ، وانتقلَتْ إليهم نظرياته ونظريات غيره من أحزاب أوروبا ، فأسرعوا إلى نهب ما وجدوه سائغاً منها ، وخلطوه بأفكار عربية اسلامية تحمل ملامح من الشعب والمجتمع .

وساعدهم على تغطية ما صنعوه ، أنَّ مِحَنَ الشعوب في كلّ مكان تتشابه ، وأنَّ معاناة الأمم من الويلات والمشكلات تكاد تكون واحدة ، فلا يختلفُ الفقر والحرمان في بلغاريا وتركيا مثلاً عن الفقر والحرمان في سورية والسودان ، ولا تختلف الأمراض

الاجتماعية كلُّها من بلدٍ إلى بلد إلّا بالضعف والقوة وبمقاومة الشعب لها أو انهزامه من أمامها ووقوعه في قبضتها. وكذلك أوجدَ لهم العذر في صنيعهم أيضاً، أنَّ العربَ عرفوا في بلادهم أقسى أنواع الظلم والاضطهاد من الغرب، وأنَّه يترقّب الفرصة ليجدَ لنفسه مُخلّصاً له من طغيانه وعنفوانه. وهذا الشرق أخذ يتقدّم اليوم نحو العرب، فلماذا لا يفكّر في أن يستقبله ويمدَّ اليه يدَه ويتعاونَ معه، وهو الذي سمع من أخباره، أنّه يُعين الشعوبَ الضعيفة التي أنهكها الغزو والتخلّف، وينصرُها ويساعدها في إيجاد حلول لمحنها ومشكلاتها!

ولسنا ننتقد حزب البعث، لأنه استعان بما عند الحزب الشيوعي وبما عند غيره من الأحزاب في كل أطراف الدنيا من التجارب والحلول، فذلك أمرٌ شائع بين الدول والشعوب وسنّةٌ جارية في كل مكان. ولكنّنا ننتقده لأنَّه استعار تجاربَ وحلولاً لمشكلات لا يعاني منها شعبنا. فهو عندما وصل إلى السلطة، لم يكن له من همّ إلّا أن يشدّد في الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، بل إلى نبذ الدين والامتناع عن الحديث فيه إلّا بتشويه دوره في المجتمع وتجريح قيَمه وأبعادها، وما تخلقه من مزاعمَ وأوهامٍ وما تبثُّه من أحقاد واضطرابات في المجتمع الذي تتفشّى فيه وتَشيع. ولا أزال أذكر أنّ المجلة التي يُصدرها الجيش في بلادنا، كانتْ قد نَشَرتْ بعد مرور ما يقرب عامين على الحزب في السلطة مقالاً، يدعو فيه كاتبُه إلى اقتلاع الدين من جذوره والاستعاضة عنه بالدولة العلمانية وبالأسلوب العلماني، لتخليص البلاد دفعةً واحدةً من أهم الأمراض التي تسبّب له أوجاعاً كثيرة، ولم يمضِ على ظهور المقال إلّا أيامٌ قليلة حتى انتشر الغليان في الشعب وقامت قيامته، ونزلت أمواجه إلى الشوارع في أكثرَ من مدينة، تتظاهر وتعلن غضبتها

على الحزب والدولة، ممّا أوقع القلق والهلع في القيادة آنذاك وفَرضَ عليها شيئاً من التغيير في بعض أركانها، أسلت الشعبَ ولكنّه لم يُرضِه ولم يجلبِ القناعة إليه.

وليس بخافٍ أنّه إلى جانب هذا المقال الذي راح يعبّر عن جانبٍ كبير من جوانب الحزب ويعكس وجهةَ نظرِ قسمٍ هامٍّ من السلطة، يقرأ المرءُ في كتب الأرسوزي وعفلق وفي مقالات غيرهما ممّن كتبوا في شأن الحزب، مدحاً للإسلام وثناءً عليه، وتَبياناً لما بينه وبين الحزب من علاقة قويّة وآصرةٍ متينة. أضف إلى ذلك، أنَّ الإسلام عندنا ليس عائقاً يعوق الشعب عن الانطلاق والتقدّم. وإنّما سوءُ استعماله والتصرُّفِ به هو السببُ وهو المشكلة التي تخلق العوائق كلَّها. وأقول هنا مرّةً أخرى، إنَّ ما عندنا من أساليب في التفكير وما هو في أيدينا من طرقِ التدبير، لا يستطيع أن يصالح بين حياتنا وبين الإسلام، ولا يدع الدين يأخذ دوره الذي به تنبعث النفس وتسعد في الحياة.

وهل هنالك بيننا من يجهل أنّ سورية هي بَلَدٌ زراعي، ليس فيه من الصناعة شيء إلّا ما يدخل إليه من البلدان الصناعية. فلمّا تهيّأ للحزب أن يقبض على السلطة، ما كان منه إلّا أن صار صدىً من أصداء الأنظمة الشيوعية، وهو عدوٌّ لها وهي عدوّةٌ له، يجاهرها البغضاء وتجاهره العِداء، يُصدر في الصباح قانوناً وفي المساء يُلغيه ويأتي بآخَرَ ينقضه. وفي كلّ يومٍ ترى لوناً من ألوان التأميم وقد صنعوا له من الصيغ القانونية ما يصلح أنْ يكون في بلادٍ أخرى غير بلادنا، وفي كلّ يومٍ تسمع بمصادرة أملاكٍ لا يعلمون سبباً لذلك إلّا الحقد والعبث، ثم يتركونها فلا هم يشتغلون بها، ولا يتركون للآخرين فرصةً للاشتغال والتعمير، ولو أنّهم استعملوا عقولهم، دون أن يستعيروا عقول الآخرين، وأحسنوا في

المعاملة إلى أصحاب هذه الأملاك وابقوْهم عليها رمزاً، لعادت عليهم بربح كثير وكسبوا ودّ هؤلاء الذين هم من الشعب ايضاً.

وفي كلّ يوم، كنّا نسمع بموقف جديد للحزب والسلطة يختلف فيه عن الموقف الذي قبله والذي بعده، إمّا في القوّة وإمّا في الضعف، يشجب به ما فعله هناك ويؤيّد به ما شجبه هنا، وقد تعلم اسباباً وقد لا تعلم، ولكنْ لم يبقَ احدٌ إلّا وقد علِم، بأنّ وسائل الزراعة لم يطرأ عليها تغيير، ولم تقم هناك صناعة في البلاد ولا رسمَتْ خطّةٌ لانشاء صناعة. وكذلك لم تقوَ السلطة على ابتكار أساليبَ جديدةٍ تؤدّي إلى تطوير التربية والتعليم في نفوس الطلاب والنشء الجديد، فيعودَ أشدَّ قدرة على النهوض بالأحمال وعلى تأدية الأمانة والرسالة إلى من ستعقبه من الأجيال.

ويبدو أنّ هذا الكلام، خرج بأسلوب يوحي بشيء قليلٍ أو كثير من المبالغة، لكنّه يُعبّر تعبيراً صادقاً عن واقع أصاب البلاد كلّها إلى بضع سنوات، منذ أن قبض الحزب على مقاليد السلطة. ولا يرجع السبب، كما يذيع المبغضون الحاقدون، إلى تآمرٍ خفيّ كان بين قيادة الحزب آنذاك وبين سلطات أجنبية لتدمير البلاد وتقويض أمنها وسلامتها، فهذا القول لا نصيبَ له من الصحّة، وهو أولى أن يُعلّقَ في أعناق الحاقدين أنفسِهم. كما لا يرجع إلى جهلِ تلك القيادة بتصريف الشؤون على الوجه الذي ينبغي أن يتمّ تصريفها عليه، فلم يكن عندنا في البلاد، في ذلك الوقت، من هو متفتّحُ العقل مكتنزٌ بالثقافة الحيّة القويّة والعلوم المتنوّعة القديمة والحديثة، أكثر من جهاز حزب البعث، سواءٌ في القيادة والدولة أو في الأجهزة الأخرى المبعثرة.

فلم يبقَ أن يكون السبب، على رأينا، إلّا أنّ وصولَ حزب البعث إلى السلطة كان شبه مفاجأة، اذا لم يكن مفاجأةً كاملةً. ومن

طبيعة المفاجأة، انها تصيب من يتلقاها في البدء بالانشداه والذهول، يحتاج معها إلى شيء من الوقت لكي يسترجع انفاسه ويعودَ إلى الحال التي ينبغي أن يكون عليها. واذا كان هذا على مستوى الفرد الواحد، فكيف نريد أن يكون صنيعُ المفاجآت على مستوى مجموعة من الأفراد أو على مستوى دولة أو على مستوى سلطة وحزب وشعب بآن واحد؟ وإنّها لخطيئة ينبغي لحزب البعث ان يعترف بها بملء فمه، وهي انّه لم يُهيّىء خطّةً شاملة، بعد أن اخذ انتشارُه يمتدّ في صفوف الشعب وبعد ان أصبح من أقوى الأحزاب في البلاد، تُهوّن عليه نشرَ سلطته وتمكينَها، وتجعلُ له تصريف الشؤون اكثرَ سلاسةً وطواعية. بل كان عليه أنْ يُعِدَّ وهو في طور الامتداد والانتشار اكثرَ من خِطّة، تشمل كلُّ واحدةٍ منها الصغير والكبير في البلاد، حتى إذا وجَدَ في إحداها ضعفاً، استبدلها بأختها الأخرى التي هي اكثرُ قوّةً وتأثيراً وكان ينبغي له في زمنِ اعداد الخطّة او الخطط، أن يراعيَ قبل كلّ شيء روحَ الشعب وتاريخَه، ولا ضيرَ عليه بعد ذلك أن يأتيَ ويُلقّحَ خططه بتجاربَ وخبراتٍ من ثورات متفرقة في العالم. فنحن لا نعرف ثورةً قامت في بلدٍ إلّا واخذت من أخواتها الثورات في البلدان الأخرى. ولا نعرف حزباً من الأحزاب استطال اثرُه وامتدّ في بلده وفي خارجه إلّا بما يطلع عنه من خطط، تكون قادرةً على تخليص شعبه من أوضاعٍ فاسدة ومن مشكلات مزمنةٍ مستعصية ومن تخلّفٍ عنيد.

ولأنَّ حزب البعث لم يكن قد رسم خِطّةً ولا هندسَ مشروعاً في زمن الإعداد والتحضير، فقد لاقى صعوباتٍ جمّةً قاسية، بعد ان وضع يده على السلطة وبدأ يلتفت يميناً وشمالاً لبسط كيانه وتمديد ظلّه. ولم يحظَ من الشعب إلّا بالرفض والامتناع عن التعاون معه، وما كان يزيده موقفُ الشعب هذا إلّا إيغالاً في ارتجال الخطط

وفرضها بالقوّة. ممّا أحدث توتّراً في العلاقات بين الحزب وبين الشعب، لم ينتظر إلّا فترةً قصيرة حتى تحوّل فيها إلى حربٍ غير معلنة، يَكيد فيها كلٌّ منهما لصاحبه، ويسعى إلى إسلاس قيادة او السيطرة عليه. وقد اثّر هذا الصراع تاثيراً كبيراً على الحزب واحدث فيه هزّاتٍ عنيفةً، كانَ ينقسم على نفسه في أعقاب كلّ هزّة، ثم تقوم اضطرابات وصراعات بين اقسامه المختلفة، حتى عاد الآن وهو يحتاج إلى نضال جديد بلونٍ جديد من اجل تكوينٍ جديد.

ومهما بالغ الناقدون في نقدهم حزبَ البعث وشدّد الطاعنون في توجيه الطعنات إليه، فإنّهم قد يوجعون سلطة، وقد يَرمون تسلُطاً، لكنّهم لن يُفلحوا في التسديد على روح القومية العربية وقصدها، وتغييرها عن موقعها الذي هي فيه، إلى موقعٍ أحطّ واضعف. فهي حضارة قائمة شاملة مستمرّة، وليس نظرةً ضيّقةً تجول في مكان ضيّق يقطنه شعبٌ صغير. وهي رسالةٌ استطالت ابعادُها فاكتنفتِ الجهاتِ الأربعَ من الدنيا والقت عليها شيئاً من صفاتها وبعضاً من طباعها، فلن تستطيع قوّةٌ مهما قويَتْ ولا قدرةٌ مهما اقتدرَتْ ان تقلّصَ من امتدادها وان تضيّق من توسّعها. ولم يَسْرِ حزبُ البعث هذا السريانَ بين الشعب إلّا لأنّه قام على اسمها واعتصم برايتها وحمل وجهاً من وجوهها. ولنقل إنّ حزب البعث تلاشى ظلُّه وانتهى كيانه، فإنّ روح القومية العربيّة هي باقية دائمة، فقيامها ليس مربوطاً بقيامه ولا زوالُها موقوفاً على زواله. ولا بدَّ ان يحمل المستقبل حزباً بل احزاباً كثيرة، تتعاقب في الظهور والغيبة وهي تحمل اسماءً والواناً من روح القومية العربية ومن خفقان رسالتها وحضارتها. ويا ليتَ انّ الفرصة تسخو بقليل من الوقت، لأبيّنَ كيف انّ القومية العربية كانت تقهرُ اعداءها على مدى التاريخ بصمودها، وبما تحمله من أسباب القوة وأسباب

البقاء. وأنّها لم تكن عنصراً خاصًا معيناً لشعب معين، وإنما كانت لغةً خاطبتِ الإنسانية كلَّها ومعنًى أصاب العقل البشري كلَّه. ولعلّنا نصحو في يومٍ ونلتمسُ الأعذار لحزب البعث فيما ارتكبه من أخطاء وما وقع فيه من تخبّط، إذا أدركنا أنَّه حمل حملاً أكبر من طاقته، ولم يعرف كيف يدعو الشعب ليستجيب له وينهض معه في حمله. وأنّه وقف موقفاً لا تمرُّ به إلّا الزوابع والأعاصير، ولا يصمد فيه إلّا الشوامخ الراسيات، فكيف سيصمد هو في شعبٍ مهملٍ غيرِ مهيأ ولا معبأ وفي أمّة نائمةٍ غير مجهّزة ولا محضّرة؟

ومع أنَّ حزب البعث قام باسم الحضارة العربية الإسلامية وحمل راية القومية العربية التي هي وجه هذه الحضارة، ويكفيه ذلك أرضاً ليقف صامداً ويستمرّ صامداً، فقد بقي حزباً سياسياً، ولم يستطع حتى الآن أن يتجاوز هذه المرتبة ليصبح عقيدة. وكنّا اكتفينا أن ننكر هذا الكلام من قبلُ ذكراً، دون أن نتكلّم على الفرق بين الحزب والعقيدة. وليس لدينا الآن ما يمنع من الكلام، فنقول: إنَّ العقيدة ليس من الصعب عليها أنْ تصير حزباً متى شاءَتْ، ولكنْ من الصعب على الحزب أن يتحوّل إلى عقيدة، إذا هو لم يمتلك صفات العقيدة أو أكثرَ صفاتها على الأقل. وأوّل صفات العقيدة أنّها تُولدُ من الذات وتتّخذ لها من القناعة مسكناً تعيش فيه ولا تفارقه أبداً. وأمّا الحزب فتأتي به إلى الذات شروطٌ من الخارج تتّفق معها اتفاقاً، أو تحرّك له حاجةٌ ومصلحة، فترى عند الذات قبولاً واستعداداً، يبقى ما بقيَتِ الحاجة والمصلحة. فالعقيدة غريزة داخلية، لا بدَّ من أن تُوجَد في أيّ شكلٍ من الأشكال وعلى أيّ حالٍ من الأحوال. والحزبُ نداءٌ خارجي، يُستجاب له بقدْر ما يكون قريباً من القناعة، ودعوةٌ خارجية، تُلبّى بقدر ما تُلامس الإحساس وتُحرّك الضمير، ولعلّي أجدُ في الحزب الشيوعي خيرَ مثالٍ يكشف هذه المعاني ويزيد

في إيضاحها ، فهو حزبٌ دعَتْ إلى تشكيله وقيامه ظروفٌ اجتماعية واقتصادية سيّئة ، كان يعاني منها المجتمع الروسي كثيراً . وفي العقد الثاني من هذا القرن ، استطاع لينين مع مجموعةٍ من رفاقه ، أن يصهروا هذه الأوضاع القاسية والظروف السيّئة التي تمرّ بها بلادهم ، وأن يصنعوا منها ثورة أطاحت بسلطان القياصرة . وأقامت نظاماً جديداً وَجَدَ فيه الشعبُ حاجاتِه وأمنَه ولمَس العدالة الضائعة التي كان ينشدها ، فالتفَّ حول نظامه وحول ثورته ، وصار يُعطيها أكثر ممّا يأخذ منها . ولكنْ لا يجوز لنا ، أن نُغفل النظر إلى الاستعداد الذي كان قد هيّأه الحزبُ الشيوعي قبل قيام الثورة ، وإلى الخطّة التي أعدّها والتي تشمل أوضاع البلاد كلّها وأحوال الشعب كلّها . ولم يكتفِ لينين ورفاقه بتهيئة الاستعداد ورسم الخطة فحسب ، وإنّما مَزَجوها مزجاً بما عند ماركس وانجلز من أقوال وأفكار . ولم يَعْنِهم أن يكون هذان المفكّران من خارج بلادهم روسيا ، وإنما الذي عناهم هذه العقيدةُ الجديدة التي صدرتْ عنهما ، والتي لم تترك شيئاً في الحياة والمجتمع إلّا وقدّمتْ له تفسيراً ، يجيب على تساؤلات الناس ويرضيهم . ومن مزج الأفكار الماركسية خرجتْ الشيوعية ، وهي حزبٌ وعقيدة بآنٍ واحد يصعب تمييزُ أحدهما عن الآخر ولا يمكن الفصل بينهما ، بل إنَّ الحديث في ذلك يُحسَبُ لوناً من ألوانِ الهزء والسخرية .

ومن أبرز صفات العقيدة أيضاً ، أنّها شاملةٌ تنتظم كلَّ شيء في حياة الفرد ، ما يتّصل منها بأسباب عيشه وتأمين سيرته اليومية كما يريد لها أنْ تجري ، وما يتّصل بحياته النفسية وشعوره بالأمن على حاضره وغده ، وأخيراً كل ما يتّصل بحياته الداخلية الروحية . ولعلَّ هذه الناحية من أهم ما يعاني منه الفرد في عالمنا اليوم ، لكنَّ الناسَ لا يرغبون أنْ يتحدثوا بها أو أن يُشيروا إليها ، ربّما لأنهمْ

انغمسوا كثيرا في تهيئة أسباب عيشهم والحفاظ عليها، أو ربّما لأنهم يخشَوْن ان يتكلموا في المجهول و لا يعرفون ماذا يقولون، فيُؤْثرون الحديث فيما هو تحت أسماعهم وأبصارهم على ما لا يطمئنّون إلى وجوده ولا يثقون بما يسمعون عنه من أخبار. واحسب أنَّني على حقٍ إذا رحت أعتقد، بأنَّه ما من إنسان يخلو إلى ذاته، قليلاً من الوقت أو كثيراً، إلّا ويفكّر بمصيره في حياته ومصيره بعد موته، ويتساءل: هل نعيش هذه الحياة وحدها ثم ينقطع بنا الوجود، أم أنَّنا نستمرُّ بعد الموت في وجود آخر وفي حياةٍ أخرى؟ ومن الناس من يعتقدون بالحياة الأخرى ويَرجونها ويَسْعَوْن إليها، وهم في موقفهم من حزب البعث ومن غيره، يهمّهم أن يكون لاعتقادهم في الحياة الأُخرى أثرٌ على هذا الموقف. وبعبارة أخرى: إنَّهم لا ينصرون الحزب ولا يخذلونه إلّا بعد أن يزنوا سلوكهم وموقفهم منه بميزان الآخرة، وأن يطمئنّوا إلى لون الجزاء، أهو مكافأة أم عقاب. وبعد خمسٍ وسبعين عاماً من الصيال والمقارعة قضاها الحزب الشيوعي في نفي هذه الفكرة ومحوها من أذهان الشعوب التي يحكمها ومن أذهانِ أتباعه في الدنيا كلّها، ظهر له وكأنَّه لم يفعل شيئاً، وكأنَّ الناس كانوا يخدعون هذا الحزب، فينبذون من أنفسهم ما يلقي إليهم من أفكارٍ ومعتقدات، ويمارسون في خلواتهم ما يعجبهم وما يرَوْنه حقاً من نظرات إلى الدين والحياة، ومنها اعتقادهم بعالم الغيب وبما وراء هذا الكون الحسّي.

ولسنا نجهل، أنّ موقفَ حزب البعث من المسائل الروحية، كان يتأرجح بين أنْ يكون غامضاً مضطرباً وبين ان يكون ساخراً مُزْرِياً. ولعلّه أحبَّ أن يستقبل العدوى التي انتقلت إليه من الحزب الشيوعي، فصرّح في مواقف وكتابات له، أنَّ عالمَ الغيب لا علاقة

لنا به، ونحن نريد أنْ نعيش واقعنا كما هو في عالمنا. وصرَّح في مواقفَ وكتاباتٍ أخرى، بأنّ علاقته بالإسلام تُملي عليه احترام هذه المعتقدات، وتمنعه من أنْ يمسَّها برفضٍ او إنكار واَمّا الداخلون في الحزب والمنتسبون إليه، فهم في بواطنهم يعتنقون الأفكار التي تتوازنُ بها نفوسُهم. ولكلّ فرد حريّتُه في اختيار العقيدة التي يشاء من غير نظرٍ إلى رأي الحزب في بياناته وكتاباته.

ولا نريد هنا أن نأتي على إحصاء المسائل الروحية والحضارية والفكرية التي وَجَدَ الحزبُ نفسَه في اكثرها مهزوزاً متناقضاً وليس متماسكاً ولا واضحاً، فهي خارجةٌ عن مدار حديثنا، ويكفي ما قدّمْنا من القول، لنُجيز لأنفسنا ان نحكم على حزب البعث بأنه لم ينتظم كلَّ شيء في حياة الفرد العربي كما تنتظم العقيدة، ولن يتجاوز أن يكون أكثرَ من حزب، ينظر إليه الشعب على أنّه سلطةٌ تمتلك القوّة وتسيطر على أدوات التنفيذ في البلاد.

وأرى أنَّ الوقت لم يفُتْ حزب البعث، وأنّه ينتظره ويُغريه بالفرصة بعد الفرصة لعلّه ينتبه ويُعاين ما لديه من ضعفٍ في سيره وتخطيطه، فيستدركه بالقوة والتنشيط، ويشاهد ما عنده من عجزٍ وقصور في افكاره وأساليب مواجهة قضايا الشعب والبلاد، فيغيّرُ ويبدّلُ في نواحٍ ويزيدُ ويعدّل في نواحٍ أخرى، فيعود وكأنّه قد ولِدَ من جديد وأنّه يعيش حياةً جديدة. وهذا الذي يبعث على الحيرة في النفس، وهو أنَّ حزب البعث بيده السلطة وبيده وسائلُ التدبير والتغيير، والطرقُ كلُّها امامه سالكةٌ مفتوحة، فلا هو يوجّه السلطة إلى ناحية التطلّع والتقدّم، ولا يمد يدَهُ إلى وسائل التحسين والتطوير، فيُحسِّن من أوضاعه وسلوكه ويطوّر مفاهيمه ونظراته إلى حاضر شعبه وإلى غده، ولا هو يُعطي الحرّيّة لغيره من الأبناء الطامحين في الشعب ليُنفقوا ما عندهم من جهود في التنمية. وما

يزيد في الحيرة ايضاً، هو انّه يرى الحزب الشيوعي في البلدان الشيوعية يتراجع ويُغيّر من سيرته السياسية والاقتصادية والثقافية. ويحذف افكاراً من عقيدته ويعدّل من افكار اخرى ليتلائم مع المعطيات الجديدة في الحياة، وليكتسب مرونةً اكثر جدّةً واقوى فاعليةً وتأثيراً في مواجهة التحدّيات العنيفة التي يجبهه بها أعداؤه. اقول إنّه يرى ذلك كلّه، ولا تختلج فيه حركة، ولا يسمح لهذه العدوى أن تنتقل إليه وفيها تباشير العافية والنهوض، وهو الذي كان قد سمح لها ان تصيبه، وهو الذي دعاها لكي تنتقل إليه يوم كانت سقماً ومرضاً.

وارى انَّ حزب البعث إذا عقد العزم على إعادة بناء نفسه وعلى تطويرها فإنّه لا يحتاج إلى سحْر ساحر ولا إلى جَبَروت جبّار. وليس امامه إلّا أن يُعَاوِدَ النظرَ والتدبّرَ في أعمدته الثلاثة قبل ان يصيبَها الضعفُ والتصدّع، وقبل أن تدنوَ من السقوط والانهيار. واعني بها فكرَه، وخططَه في السياسةِ والاقتصاد ووسائلَ صلاته بالشعب. فهو إذا أذِنَ لفكره أن يتبصَّر من جديد في الحضارة العربية الإسلامية، وفي تاريخ نشأتها وامتدادها بين العرب وبين الشعوب الأخرى، وتأمّل في التراث المتراكم أمامه، وعاودَ النظر في مجمل فلسفته لبناء الفرد والمجتمع، فإنَّه سيكتسب بعمله هذا قوةً تزيد في بقائه مدة طويلة. وهو في خططه السياسية والاقتصادية، لا يزال يعرج عرجاً ويُهَرْول هرولةً، وليس أسهلَ من أن ينفض الكسل عن جسده، ويزيل الاحلام الذابلة المنهكة عن اجفانه، وان يبدأ بدراسةِ واقعه ويختبرَه في أعماقه، ما يتّصل منه بالاقتصاد وما يتّصل منه بالسياسة، ويضعَ كلَّ خطوة يخطوها على ارضٍ صلبةٍ من الحلول القويّة الفاعلة. ولَيْتَه كان قد تنبه من قبل إلى هذه المسألة، واعدَّ لها جيلاً كبيراً من ابناء شعبه إعداداً متنوعاً

متيناً ، إذن لرآه الآن يؤتي أُكلَه طيّباً ناضجاً ولَرَفع عن البلاد كثيراً من الأعباء الثقيلة التي جناها عليه فسادُ آلةِ الاقتصاد وعُطْلُ أداة السياسة .

وأما عن وسائل صلاته بالشعب ، فليس فيها من وسيلة أهمَّ واقوى من أن يُشرِكَ الشعبَ في كلّ شيء وأن يجعلَه شاهداً على كلّ شي . فلا يستأثرُ دونه بالسلطة ، ولا ينفرد وحدَه برسم خطط الاقتصاد والسياسة ، وأنّى له أن يفعل ذلك وحده ، والسلطة تعني إدارةَ الشعب ، والخطط في الاقتصاد والسياسة تعني تسييرَ أوضاع الشعب وتوجيهَها ، والتعبير عنه وعن تطلُّعاته داخل البلاد وخارجها ؟ ونحن لم نقل إنَّ الأحزاب التي وصلتْ إلى السلطة في بلدانٍ كثيرة من العالم ، أمطرتها السماء بالذهب والياقوت ، وخلعت عليها خططاً جاهزةً في السياسة والاقتصاد ، فما عليها إلّا أن تُوزِّعَ ثروات السماء ، وتقرأ خططها وتباشرَ تطبيقَها وتنفيذها ، ولا نقول فيها إلّا إنّها مثل حزب البعث ، سَعَتْ إلى السلطة سعياً حثيثاً ولاقتْ من المشقّات ما لاقى ، وأنَّ بعضها تعثَّر في بدء استلامه بخبرته الضئيلة وتجربته الهزيلة . ولكنّه لم يلبث أن استردَّ عافيته واستعاد صِحّتَه وعَرَفَ الطريق الصحيح إلى شعبه ، فمشى عليها وأمِنَ مِنَ العثار ، وحمل إلى شعبه التفتح والازدهار .

وهكذا نقول لحزب البعث ، إنَّ ما عاني منه كان طبيعياً أنْ يُعانيَ منه ، وإنَّ ما تعثَّر به لم يكن خارجاً عن التوقع من أنَّه سيتعثر به ، ولكنَّ الأمر الذي لم تقبله الطبيعة ، والذي خرج عن دائرة التوقّع والحسبان ، هو أنْ لا يكتشف حزب البعث حتى الآن طريقه إلى الشعب ، وأن لا يعرفَ كيف يدخل إلى عقله ، ويصنع له قناعةً تقوده إلى الاعتراف به عن طيب خاطرٍ ونفسٍ رضيّة ، وتحمله على التعاون معه ومقابلة خططه بالترحيب والانجاح . وكذلك الحال بالنسبة

للشعب ، فنحن نقول ، كيف صَبَرَ حتى الآن على ما هو فيه ، وعلى هذه المنطقة العازلة بينه وبين الحزب ، فلا هو يسمح للحزب أن يخترقها إليه بالقوّة ، ولا يعرف كيف يذلّلها ويتسلّل إلى الحزب ليخادعَه ويسرقَ منه القوّة والسلطة .

٧
في السلطة

إنّ اللهَ يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حَكمتم بين النّاس أن تَحكُموا بالعدل.

قرآن مجيد

نِعمَ الشيء الإمارة لمن أخذها بحقّها وحلّها.

الرسول الأعظم

في السلطة

من أجل ذلك بسطنا الحديث على حزب البعث في مساربه التي يتسرّب النظر منها إليه ، أعني من أجل أن نُشَقِّقَ الكلام على رفعت الأسد وهو يتقلّب في السلطة ، ونُبيِّنَ كيف صنعتْ به وكيف صَنع بها . وكان لا بدّ لنا من مثل هذا الحديث ، لنتعرّف على العناصر الأولى التي تركّبتْ منها شخصيّة رفعت ، وفيها تَرَبّتْ طباعه وتنشّأتْ ، ومنها استقتْ نفسه النظرات التي نظر بها إلى المجتمع والسلطة والحياة بجملتها وتفصيلها . وكان حزب البعث أحدَ هذه العناصر ، بل كان أبرزَها ظهوراً عليه ، وأكبرَها فاعليّةً وتأثيراً على سيرته وطباعه . فقد عرفَه في يَفاعه ، وانتسبَ إليه وهو في المرحلة الاولى من بزوغ شبابه ، وتشرّبَ أقواله ومبادئه وأهدافه . وكان عنيفاً في دفاعه عنه ضدّ خصومه القوميّين السوريّين داخل منطقته وخارجِها . ولم يَرهَبِ التهديد والوعيد ، إنْ كان من طرف هؤلاء الخصوم ، وإنْ كان من طرف الدولة التي لم تفتأ تنظرُ بعين الحَنَق والمراقبة إلى نشاط حزب البعث وتمدّده في ذلك الوقت .

وما كنتُ خرجتُ به في الحديث المبسوط على حزب البعث من نظرات ناقدة قاصدة ، فإنّي لم أصوِّبها إلا إلى الفئة التي قادتْ أعماله وصنعتْ سيرته من الكتّاب والمفكّرين فيه ، ومن قادته الذين أشرفوا

على جهاز الدولة عندما صارت إليه الدولة، ومن الطليعة الذين لم يصيبوا موقعاً مُشرفاً في أروقة السلطة لكنّهم علموا موقع الخطأ وموقع الصواب، فآثروا السكوت والصمت على الإقدام والكلام، وكانوا في سكوتهم وصمتهم يستوُون في المسؤولية وحمل الأعباء مع أولئك الذين أقدموا وتكلّموا. وهل يعني هذا الكلام إلا أنّ رفعت سيصيبُ نصيبَه مثلَ غيره من التصويب المرشوق والنظرات التي رُمِيَ بها حزبُ البعث، من غير تخصيص بذكر ولا إشارةٍ بتسمية. ولا ريبَ في أنّ النقد واللوم أو قصاص القول والنظرات، يصبح هيّناً عندما ينصبّ على الجماعة أكثرَ ممّا يكون هيّناً عندما ينصبّ على الفرد الواحد. شأنه في ذلك شأنُ الحِمل الثقيل الذي تنهض به جماعة من غير كَبَدٍ ولا مشقّة، ويعيا عن النهوض به فردٌ واحد. ونحن بعد قليل من الحديث سنصير مع رفعت الأسد على انفراد، نحدّثه ويحدّثنا وجهاً لوجه، ولا رقيبَ علينا ولا حَسيب إلّا الضمير، ونتّهمُه، ونستمع إليه وهو يدافع عن نفسه، ولا قيدَ بيننا ولا شرطَ إلا الاحتيالُ لقَوْلةِ كلمةِ الحقّ وإلّا الكشف عن وجه الحقّ.

وكانت النفس قد همست إليّ، تغريني بالحديث على رفعت الأسد في انتمائه إلى فئة من هذا الشعب تحمل الإسلام في عروق روحها حَملاً وتُغذّيه خلايا نفسها تغذيةً. وهي إلى جانب ذلك لا تكاد تختلف عن واحدةٍ من الطرق الروحيّة مثل: الشاذلية، والنقشبندية، والمولوية والرفاعية، والخَلْوَاتية، وغيرها من هذه الطُرُق التي انبثقت من الإسلام، ثمّ أروحُ فأبيِّن أثَر ذلك على حركاته وسكناته في السلطة. ولكنّي امتنعتُ أنْ أنقاد إلى نفسي في همسها وإغرائها، لأسبابٍ لا أحرص على كتمانها. وبعضُ هذه الأسباب كنتُ أشرت إليها في أثناء الحديث على نشأة رفعت وتطوّره في مراحله الأولى من الطفولة إلى اليَفاع إلى الحداثة. وقلت هناك: إنّه

انفعل مع هذا الذي القاه إليه ابوه، من تربية وتوجيه في الأخلاق والدين وفي السلوك الوطني والاجتماعي، وتأثّر به تأثراً عميقاً، سيبقى في نفسه ما بقيَ حيًّا. واقول ايضاً، إنّه كان يختلف بين وقتٍ وآخر لينصت إلى الأحاديث المشوّقة التي كان يفيض بها شيخٌ او محدِّث، والتي كانتْ كثيراً ما تدور بين رجال الدين من جهة وبين النشْء الجديد من جهةٍ اخرى. واحياناً كانت تُثير في نفسه تساؤلات تَسوقه إلى الجدال، ولكنْ كان يُحاذِر مِنَ الانفعال بها والحماسِ لها.

ومن هذه الأسباب ايضاً، انّ الحديث على هذا الانتماء، لن يَخلع على رفعت تمييزاً يخالف به طبيعة الناس في مجتمعه وما الِفوه في حياتهم، ولن يُضيف إليه عنصرا غريباً يَكشِف عن شخصيّةٍ أخرى مخبوءةٍ عنده. ولن يُخرجَه عن انْ يكون عربيًّا من هذا الشعب العربي، دمُه من دمه ومن روحه، ومسلماً من هؤلاء المسلمين، لا يختلف في حياته عن حياتهم ولا في آرائه وافكاره عن آرائهم وأفكارهم. ومن هذه الأسباب، انّ هذا الانتماء كان الباعثَ الأكبرَ على اتّجاهه إلى حزب البعث وإلى دخوله فيه مع الداخلين الذين كانوا يرَوْن انفسَهم حَمَلَةَ الوعْي العربي وحُماةَ التراث الذي في استمراره وبقائه استمرارُ الهُويّة العربية وبقاؤها. وأوانَ الحديث على حزب البعث، لم اتأخَّرْ عن التصريح بالقول الكاشف الواضح عن عقيدة هذا الحزبِ وفِكرِه وعن ممارسته للسلطة والقيادة وعلاقتِه بالقومية العربية، ثمّ عن صلته بالإسلام، سواءً في سياسته أو في سلوكه ومنهجه أو في اقواله وآرائه.

وقد تكون هذه الاسباب مُرضية، ولي فيها عُذرٌ في الإقلاع عن الحديث على انتماء رفعت، وقد لا تكون مُرضية وليس لي فيها عُذرٌ ولا تَعِلّة. وعلى كلّ حال، فلم يَعُد خافياً على أحد، أنّ هذه

الفئة التي ينتمي إليها رفعت، هي قطعةٌ عربيةٌ من جَسَد الأمّة العربية، محلُّها منه محلُّ القلب أو الوجه أو اللسان. يَشهد لها على ذلك سيرتُها في الأخلاق والعادات والتقاليد، وفي هذه اللغة العربية التي تُعَدُّ لهجتُها فيها أصفى اللهجات وتُحسَب أقربَها إلى الأصل الأمّ. وفي هذه الأنساب التي لا يزال الأبناء يتوارثونها عن الآباء والتي تعود إلى قبائلَ عربيةٍ مشهورةٍ معروفة، سكنتْ من الجزيرة العربية في أقدم الأمكنة حضارةً وعمراناً، ومنها هاجرتْ وانتشرتْ في بقيّة الربوع والأصقاع. ومن هذه القبائل التي يتردّد اسمها عندنا: الأوس والخزرج وهمدان وتغلب وربيعة ومُضر وغسّان وآل المهلب، وغيرُها. وهناك عدد غيرُ قليل يعودون في انتسابهم إلى بني حمدان، أصحاب الإمارة المشهورة بالصيت الحميد، كانوا قد غادروا حلب وعاذوا بالجبال تحت سياط الظلم والملاحقة والإكراه.

وهذه الفئة التي يُشرِّفها أنْ تنتميَ إلى الإسلام، لا تكاد توجد عائلةٌ ترضى أن تتخطّى تقليداً موروثاً من أقدم الأيّام، أو أن تُقَصِّر في صيانته والحفاظ عليه، وهو العنايةُ بالقرآن الكريم وتقديسُه، لأنّه الوحيُ المنزَل والكتابُ المفصَّل، فليس هنالك فرد فيها إلا وهو يَحفظ منه قليلاً أو كثيراً. ثم اعتبارُ الرسول الأعظم أبي القاسم محمد بن عبدالله مبلِّغاً أميناً لهذه الرسالة التي اختصَّه بها الله عزَّتْ قدرته. فلا تقعُ العين على أحد من هذه الفئة، متعلمٍ أو غير متعلِّم، إلّا ويقُصّ من أخباره وأخبار أهل بيته، ويَحكي من سيرته وسيرتهم، ويتلو من أحاديثه وأحاديثهم، ما لا يَدَع شكًّا ولا ريبةً في انتمائهم إلى هذا الدين الحنيف. ومن التقليد الموروث أيضا هذا الاهتمامُ البيِّن بكتاب نهج البلاغة وبشخصية صاحبه أبي الحَسَن أميرِ المؤمنين عليّ بنِ أبي طالب، وما حولهما من قصص وأخبار ومن قِيَمٍ وأبعاد.

ولستُ ادري بعد هذه المصادر الثلاثة، التي تتفجر منها علوم الإسلام كلُها ومنها تنبع افكارُه ومفاهيمُه، إلى اين يريدون لهذه الفئة ان تلتفت وان تغرّب وتشرّق لتُلاقي المظهر الأجلى للإسلام وتعانقَ المعنى الأصفى والأصدق له؟ وليت ان الطاعنين بانتماء هذه الفئة إلى الإسلام وبالقربى بينه وبين معتَقَداتها، تذكّروا قبل ان يَطعنوا، انّ عندهم من المطاعن اكثرَ ممّا عندَها. وليتَهم تذكّروا ان في كلّ مذهبٍ ما يَرفعُه وفيه ما يَضعُه، والبصير اللبيب يتشاغل بما يَرفع ويَهتمُ به ويحرِص عليه، ويأبى عن الاشتغال بما يضع ويمتنِع ان يُعنى به او يلتفتَ إليه، وما ذلك إلا لأنّه بصير ولبيب وعاقل، وانه يرضى أن يظل رفيعا.

ولست أزعم انّ رفعت الأسد، تخلّى عن انتمائه إلى هذه الفئة منذ أن تعرف على حزب البعث وبدأ نضاله فيه، ولا عندما أصبح في السلطة وتفرّغ إليها. ولكنّني اقول إنّه جعل منه قوّةً تنضاف إلى هذه القوّة التي عرفها في انتمائه إلى حزب البعث. وبعبارة اخرى أقول: إنّه عثر في البدء على ما يُرضي طموحَه وتطلعَه في هذا الحزب، ووَجَد في مبادئه وفلسفته ما يصون له حقه وحياته وما يحمي أمنه وشروط عيشه، واطمأنَّ إلى وثوق صلته بجذور أمّته وإلى رباطها القويّ الأمين بتاريخها وحضارتها، وكأنّه في مرادف آخر لفئته، ربما لأنّ الأحلام التي كانت تسكن في رأسه أرادتْ له ان يَصْنَع هذا الصنيع. ولست أدري الآن بعد أن تبدّى لعينيه تقصير حزب البعث في حَمْل الرسالة وتَراجعُه عن صيانة الأمانة هل بَقِيَ عازماً على انتماءه إليه، او انّه ينوي الإقلاع عنه واستبدالَه بما هو الصق بالحياة وأجدر بالبقاء.

وكان رفعت، كلّما تقدّم في طيّ مراحل الحزب، ازدادَ منه قربًا واشتدّ به تمسّكاً، ووهب له من نشاطه ما يستطيع، وما لا

تقدُّمها وتأخيرها، ولا في الهزّات التي ألمّتْ بالحزب فأحدثتْ فيه تصدّعاً وانقساماً، وإنّما أريد أن يكون الحديث على رفعت وهو في السلطة، يمارس أعماله ويقوم بدوره، ويعيش سيرة حياته يوماً فيوماً، وعن هذه السلطة التي صارت له كما صار لها. وأعني سلوكَه فيها وأثَرَه عليها وعلى الشعب والدولة والبلاد، ومفهومه لها، ثمّ سلوكَها فيه وأثرَها عليه وعلى حياته كلِّها. وعن السلطة في معناها الواسع، والفرقِ بينها وبين الحُكم ثم بينها وبينَ السياسة. ولن نريد للحديث أن يتجنَّب الخَوض في أخيه الأكبر حافظ، أعني شخصيتَه ومفهومه للسلطة ودورَه فيها وأثَرَه عليها، وكيف نريد ذلك، وهو الراعي الأوّلُ لشؤون رفعت، والمتعهِّد لترتيب سير أوضاعه على الخطّة التي سارتْ عليها والطريقِ التي سلكتْها.

وإذاً، فإنّ عملي لنْ يكون صناعةَ تاريخ لمرحلةٍ من مراحل الحزب كما ذكَرْتُ من قبل، ولن يكون تدوينَ سيرةِ حياةٍ لشخصين اخوَيْن. فأنا لا أسعى إلى تسجيل وقائعِ حياةِ كلّ منهما، ولا إلى تَدوين أحداثها من حيثُ أنّها سيرةٌ تُروى للاطّلاع، أو قصّةٌ تُحكى للمُتعة والتسلية. وإنّما هو تشقيقُ الكلام في هموم السلطة وتفريعُ الحديث على أبعادها وآثارها، والاطّلاعُ على وصفها، ومقارنةُ بعضِها ببعضٍ في مظاهرها وألوانها في بلادنا وفي غيرها من البلدان. وسأعمَد إلى التقيّد في الحديث على رفعت وهو على صهوة السلطة، منذ أن وقعتْ عيني عليه، ومنذ اللحظات الأولى التي انفتل فيها الخيط الأوّل من بِساط صُحبتنا. فأنا وإن كنت مطمئنًا إلى صحّة ما سأقوله قبل بدء الصحبة بيني وبينه، أوثِر أن أقول ما شاهدتُه يَجري أمامي وما سمعتُه يُحكى بحضوري، وفي ذلك ما يَجعل للحديث قيمةً لِمَن أراد أن يَهتمّ بالحديث.

اقول هذا منذ البدء للذين ينتظرون انْ يقراوا عندي أخبارَ رفعت كما تعوّدوا انْ يقراوها في وسائل الإعلام والتبليغ، مِنْ كتبٍ وصحفٍ ومجلّاتٍ ونشرات، ومِن إذاعةٍ وتلفزة، وأن يسمعوا سيرته منّي كما سمعوها من هذه الوسائل. فذلك شأنٌ آخر لا يَعنيني منه شيء، ولا يَهمّني ان اتّفق معه في احاديثَ او أن أختلف معه في احاديثَ أخرى. وما سارتْ به وسائل النشر والإعلام من اخبار رفعت، لا يعدو انْ يكون احدَ امرين: إمّا انّه نَظَراتُ عينٍ حاقدةٍ قاصدة، او انّه نَظَراتُ عينٍ عاشقةٍ وامقة. وأنا أرفض وأُلحُّ في الرفض انْ انظر بواحدة من هاتين العينين إليه او إلى غيره. لأنّني اريد انْ ارى وانْ اعلم ماذا ارى، وألّا أخدع غيري بما ارى وبما اعلم. وإنّني وإنْ سبق لي انْ قلتُ مثل هذا الكلام، فقد احببتُ أنْ اردّده هنا مرّةً اخرى، لأنّ في ترديده إثارةً لي وللآخرين على التمسّك بالإنصاف والعدل، وتذكيراً على توثيق الصِّلة مع قول الحقّ والانقياد إليه. وهذه طريق لا يَضُرُّ سالكيها ما يواجِههم فيها من نَصبٍ وإعياء، بقدْر ما يَضُرُّهم غيرُها حين يسلكونها وإنْ لم يواجِهْهُم نَصبٌ ولا تعب، إذا هم عدَلوا عن قَوْلة الحقّ وعَنِ الاعتراف به.

وسأبدأ الحديث بالإجابة على هذا السؤال الذي لن يَتعَبَ الناسُ عندنا من إلقائه، وهو: هل كان رفعت سيفوز بحظّ من السلطة لولا اخوه الأكبرُ حافظ؟ بل يَذهبُ الناس إلى ابعدِ من ذلك، فيجعلون هذا السؤال أُمّاً يُوَلِّدون منه اسئلة متعدّدة، لا ارى محلًّا لذكرها والتشاغل بها. فهي تابعة للسؤال الأمّ، وفي الإجابة عليه تكون الإجابة عليها ايضاً. ولست اعتقد انّ ما قلتُه قبل قليل يَفي بالجواب على هذا السؤال، او يكونُ اكثرَ من بداية له. فقد قلتُ: إنّه لولا اخوه الأكبرُ حافظ لَما وَجَد طريقه مُيَسَّرةً هذا التيسير الذي أسرع

رويداً ، انّه في بداية محنة سيعاني منها كثيراً في غدِه القريب أو البعيد ، وأنّه لن يكون هناك من يَشعر معه بهذه المُعاناة إلّا هو نفسَه ، ولن يستطيع ، مهما التَمس السبيل إلى ذلك ، أنْ يَعثُر على الأسلوب الذي يتيح له الإفصاح عن شعوره الكئيب المكبوت . وليستْ محنته إلّا انّه مكتنِزٌ بالطاقات معبّأ بالمواهب ، ولا يَعرف كيف يَطلع عنها ، وكيف يجد لها الأفق الذي يحقُّ لها أنْ تَمتدَّ فيه وتتَّسع . لقد اعْيَتْه الحِيَل ولم يجِد منفذاً صغيراً ، يُصرِّف فيه واحدةً من مواهبه ويستقلّ فيه على ألسنة الناس باسمه وبشخصيّته دون أنْ يكون لأخيه الأكبر دَخْلٌ أو علاقةٌ فيه . فموقِع أخيه قبل أن ينفرد بالسلطة وبعد أنِ انفرد بها ، وموقعه هو من أخيه ، هذان هما السدّان اللذان يُحيطان بجوانبه وجهاته . ولكنّهما سدّان من زُجاج ، يَنظر من خلالهما ويُنْظَر إليه ، ولا تَسمحُ له نعومةُ الزجاج وملاستُه أنْ يتسلّق احد السدَّين ليَخرج حرًّا بنفسه ، ولا يقوى على كسر أحدهما ، لأنّ الشظايا لن تقع إلّا عليه .

فكأنّ أخاه الأكبر ، من حيثُ هو الذي احتضنه واختارَه واحتمل من اجله حرارة وبرودة ، قد أصبح أمامَه عقبةً دون قَطعِها فكُّ رقبة . وكأنّه من حيث أحاطَه بالمِنّة والخير والتقدير ، قد أصبح يُحيط به الآن بالدويّ والهدير من كلّ مكان ، فلم يعد هو نفسُه يسمع صوتَ نفسِه . ولم يكن رفعت في شعوره هذا يحمل لأخيه كُرْهاً أو حِقداً أو حَسَداً ، ولا ما يُشبه هذه الأشياء ويَقرُبُ منها ، ولكنّه كان شعورَ الموهوب المجهول والقويّ المظلوم . فهو يملك كثيراً ويُعطي كثيراً ، ولكنّ صيتَ العطاء لا ينتشر عنه ، وهو قويّ يَهَب كلّ ما عندَه من قوّة ، ولكنّها تخرج باسم أخيه الأكبر الذي أصبح على يقين من أنّ رفعت يكنز طاقات غيرِ هيّنة من الذكاء والوعْي ومن التطلّع والإشراف ، وأحسّ أنّ عنده ميلاً شديداً لأنْ تَصدُر عنه أعماله

وتجاربه، وهي مطبوعةٌ بشخصيّته التي يريد لها أنْ تتكامل مع شخصيّة أخيه، لا أنْ تذوب فيها وتتلاشى. فما كان من أخيه إلّا أنِ استجاب لرغبته وانقاد إلى ميله، وأرخى له الحبل على غاربه، وأطلقَ يدَيْه ليَفعل ما يشاء، ولكنّه هل فعل ذلك ليُرضيَ طموحاً في نفسه هو أو ليُرضيَ طموحاً في نفس أخيه رفعت؟ ولا عَتَبَ على الجواب إذا جاء متأخّراً بعد مسافة من الحديث.

وليس من الحقّ أنْ أتوقّف لحظةً عن الاعتراف بأنّ رفعت يمتلك من المهارة في تصريف المقاليد وتدبير الأمور أكثرَ ممّا يمتلك أخوه الأكبر حافظ، وأنّه رجلُ المبادرات، في حينِ أنّ أخاه يستطيع أنْ يكون بصعوبة رجلَ الفرص والمناسبات. وليست هذه هي المرّة الأولى التي أقول هذا الكلام فيها، ولا يَشقّ عليَّ أن أقول أكثرَ منه، وأنا الذي لديَّ خبرةٌ عميقة تُجيز لي إنْ أقول، وتسمح لي أن أصفَع مَنْ يَدَّعي ومن يتقوّل. فليس صحيحاً أنّ رفعت توصّل إلى صدر السلطة لأنّ أخاه الأكبر هو الذي آثره بذلك ونهض به، وليس صحيحاً أنّه نال هذه المكانة من غير جدارة ولا استحقاق، كأنّه رأى قطاراً أمامَه يقوده أخوه، فوجدها فرصةً طيبة ليكسب الوقت والمتعة ويركبَ معه. كلّا! فليس الشأنُ كذلك، بل إنّما هو، أنّ رفعت كان قد ملأ مكانه الذي احتله في السلطة بنشاط ومهارة في العمل، وبُعدٍ في التوسّع والتخطيط، وأنّه صرّح عن شخصيّة عجيبة بطاقتها وقدرتها على الاستمرار في العَطاء والتجديد. وليس تلك بمُنكَرٍ عند أخيه الأكبر ولا بمجهول عند من عرفوا رفعت وعاشروه، وما أكثرَهم. فليُسرِع إلى أحدهم، هذا الذي يظنّ أنّ في كلامي مبالغة، وليَسأله عن الخبر، ولربّما سمع منه هذا الذي سمع مني وأكثر.

ولا أرى حَرَجاً في أنْ أتابع المقارنة وأقول، إنّ رفعت يُتقن

بإبقائهم في أدوارهم وصان للعبيد حقّهم في العبوديّة. وليتَه نظر إلى تجاربِ غيره وأخذ منها الدلالة ورأى فيها المستقبل القريب. فقد حدّثوا أنّ السلطان سنجر، وهو أشهر ملوك السلاجقة، كان في حربٍ ضروسٍ مع الغرنويين، فانهزم أمامهم ووقع في أسرهم. وعندما سألوه: إنّك مع هذا الحكم الراسخ والمُلك الواسع المترامي الأطراف، لم تُحسنِ العمل والتدبير، فما هو السبب في ذلك؟ أجاب قائلاً: لقد أودعتُ الأمور الجسام إلى الرجال الأقزام وأعطيتُ الأمور الصغار إلى الرجال العظام، فلم يقدر الأقزام على حَمل الوديعة، وأبى العظام القيام بما أعطيتُهم، فخاب الأمل بهما وفَسُدَ العمل عند كليهما. وحدّث سعدي الشيرازي، وهو الكاتب الفارسي الشهير القديم، في كتابه السائر روضة الورد: أنّهم سألوا هرمز، بعد أنْ أصبح صاحب التاج: ما هو الخطأ الذي رأيتَه من وزراء أبيك حتى أمرتَ بحبسهم جميعاً، فقال: ما عرفتُ منهم خطأ، ولكنْ رأيتُ مَهابتي شديدةً على قلوبهم، وأنّهم ليسوا معتمِدين اعتماداً كليًّا على عهدي، فخَشِيتُ أنْ يلحقني من خوفهم الضررُ فيَقصِدون هلاكي.

انقل ذلك، وأنا أريد أنْ أقولَ لحافظ، كما كنتُ أقول أمام الناس دون خوف ولا تردّد، إنّ أحرارَ البلاد لا يستنكرون عليه أنْ يَستأثر بالسلطة كلّها وأنْ يَجمع في شخصه مقاليد الأمور، وإنّما يستنكرون عليه أنْ يجعل وسائل سلطته وآلاتِها هؤلاء العبيد، وأنْ يُحَكِّمَهم في رَقبة الشعب ورقاب الأحرار، فإنّهم لا طاقة لهم أنْ يُحسِنوا البناء في السلْم ولا أنْ يَدفعوا البَلاء في الحرب. وكان من الخير له، لو انّه أعطى الأحرار من السلطة كما أعطى العبيد منها، وكان من الخير أيضا لو انّه خلق طريقة يخفِّف بها من عبودية العبيد، ويُنقذ مِنْ نواجذهم مَنْ يقدر على إنقاذه. وكما أنّ فكر المفكّرين يَجهد دائماً ولا يتعب من أجل أنْ يَعرف كيف ينبغي أن

نعمل لنصلَ إلى السلطة وندخلَ فيها ، فكذلك يجهدُ ليعلمَ كيف نصنع لنُخرج أمور السلطة ونَخرجَ منها . فليس صعباً أن يَصلَ المرء إلى السلطة ، ولكنّ الصعب هو كيف يصنع بها وأين يُصرِّفُها ؟ وإذا عرف السبيل إلى ذلك وانتهجها ، فقد أسَّس حُكماً وبنى حكومة ، واستحقّ أنْ يسمَّى حاكماً . وإذا ضلّ السبيل ولم يَهتدِ إلى حُسن الصنيع ومواقع التصريف ، فإنّه سيبقى له الحقّ في أن يحمل رَجُل السلطة فقط .

ولستُ أذهب إلى القول في أنّ السلطة هي شيء آخرُ غيرُ الحكم ، أو أنّ الحكمَ هو غيرُ السلطة . فهما يتمايزان في صِفات ويتشابهان في صفات أخرى ، وما يتمايزان به من صفات هو أكثرُ ممّا يتشابهان به . وفي العودة إلى أصل الكلمتَيْن عند العرب ، نرى أنّهم فرّقوا بينهما تفريقاً بيّناً ، فقد جعلوا الحُكمَ هو ترجيحَ واحد من الطرفين في النظر بينهما والمقارنة ، واختيارَه على الآخر . وخلعوا على السلطة معنى الغلبة والقهر على كلّ الأوجه التي تظهر فيها الكلمة في أصولها الأولى . فكأنّ الحُكم هو القول الفصل والرأي الأسدُ الذي ينتهي إليه العقل المتميّز بالاتِّزان الكبير والدقّة في الرؤية ، وقد وصفوه بأنه البعدُ النظريُّ للشيء . وكأنّ السلطة هي الآلةُ التي بها ينتهي طرفٌ إلى الغَلَبة والقهر على طرف آخَرَ ، ويجعلُه في نطاق تأثيره وتحت سيطرته ، وقد وصفوها بأنها البعد العمليُّ للشيء .

ومن النظر في الأمثلة والكلمات التي أوردوها في أقوالهم وكتبهم ، يتبيّن لنا أن الحُكم عندهم يَشترك فيه أطرافٌ وليس طرفاً واحداً ، سواء كان في المتخاصمين أو في القضيّة المتَخاصَم عليها . وفيه معنى الحريّة ومعنى الاختيار الذي هو ترجيحُ شيء على أشياءَ متعدّدة مختلفة وأخذُه من بينها لصِفةٍ فيه ، تَجعله أفضلَ وأرقى

مظلمةٍ ، ومنهم من كان ممقوتاً من الشعب لخيانته وإجرامه . وليس هنالك أدنى ريبةٍ في أنهم لم يكونوا على صلةٍ به منذ الأمس القريب ، ولم تكن هذه الصلة للتوادّ والتراحم . نقول ذلك ونشهد له بالحقّ ، لأنّهم عندما رأوه يختال في السلطة ، خرجوا كلّهم من بؤرهم ومن مقامعهم ، ودبّوا إليه وفي يد كلّ واحدٍ منهم بطاقته التي تحمل اسمه واسمَ وليّ أمره ومكان عمله المخصّص له . ولم يكن في وسع حافظ إلّا أن يُحسن استقبالَهم ويوزّعَهم على أمكنتهم المنصوص عليها .

ولم يمضِ بعد ذلك إلّا زمنٌ يسير ، حتى أدرك الشعبُ كلّه في سورية ، أن حافظ الأسد صنع ما صنع ، وليس له هدفٌ آخر إلّا أنْ يتفرّد بالسلطة ، وأنّه في قيامه وقعوده وتشريقه وتغريبه لن يعمل شيئاً إلّا إذا كان ينتهي في خاتمته إلى الحفاظِ على سلطته ، وأنّ أيّ شيء ، عملاً كان أو خطةً أو موقفاً ، يوحي بأنّ فيه أدنى خَطَرٍ على كيانِ سلطته ، لن يُلاقيَ عنده إلّا البطشَ أو التشويهَ أو التغيير . وماذا عسى يريد الشعب من هذه السلطة أكثر من أمْنِه في شروطِ عيشه ليومه وغده ؟! لذلك سكتَ مضطرًا صابراً ، ينتظر تَفتُّح المواعيد التي انهمرتْ عليه ، لكنه لم يشعر بها إلّا وقد تحوّلتْ إلى سيولٍ تجرف أمامَها كلَّ شيء ، بدلاً من أن تكون مَطَراً يحيا به كلُّ شيء .

وإنّها لَخدعةٌ أحسَّ بها الشعب ، فخلقت عنده في إحساسه قدْراً كبيراً من النكوص وحجماً هائلاً من الإحباط ، لم يفتأ أن تحوّل بعدهما إلى براكينَ كامنةٍ من الحقد والغضب ، تنتظر اللحظة التي تراها مناسبةً للخروج والانفجار . وما أكثر الأحداثَ والحوادث ، الصغيرة منها والكبيرة ، التي وقعتْ في داخل البلاد وخارجِها ، بأسلوبٍ فرديّ أو أسلوبٍ جماعي ، وبطريقة ساخنةٍ جداً أو باردة جداً ، وكلّها تعبّر عن سُخطها وغضبها ، وتُنبىء عن الإنفجار الكبير الذي لا بدّ أنّه سيقع . ولستُ معنيًا هنا بإحصاء هذه الأحداث ولا

بدراستها، لكي أذكرها وأنشغلَ بها . وقد تعمّدتُ أن أكتفيَ بذكر حادثة، هي صغيرةٌ جدًا، لكنّها أوضحُ من كلّ واضحٍ في بلادنا، وأظهرُ من كلّ ظاهر، يعيش معناها وإحساسُها في كلّ فردٍ من شعبنا. فهذا حافظ لم يكد يسمع بخبر اغتيال الدكتور محمد الفاضل، حتى نقلتْه قدماه على جناح البَرق إلى منزله، يُظهر حزنَه ويُقدّم أسفَه وتعازيَه إلى زوجته المفجوعة وأولادها المنكوبين، وهو يقول لهم : إنّها فاجعةٌ لنا وللشعب كلّه، وليست لكم وحدكم، ونحن لن نَصمتَ أمام هذه الفاجعة. فما كان من زوجة الفقيد الفاضل، بنتِ الرائد مَزْيد، إلّا أن ردّتْ عليه وهي تبكي وتنتحب وتصيح قائلة : ألا يكفيكَ أنْ تسبّبْتَ في قتل زوجي حتى جئتَ الآن تقدّم تعازيَكَ ؟ هل كان يصعبُ عليك أنْ تَحميَه أم انّك اشتركتَ في قتله ؟ ولا عيب ولا حرج ولا ضيق، أنْ تصبح النساء أراملَ وأن يعود الأطفال أيتاماً، إذا سلِمتَ أنت للسلطة وسلِمَتْ لكَ السلطة، وبقيتَ منصوبا على الكرسي في أمان واطمئنان قوياً منصوراً، لا ينازعُك منازع ولا يدنو منك طامع. فاقتُلْ من الشعب ما شئتَ ودمّر في البلاد ما شئت، وستلاقي اللهَ أمامَك، والله هو خصيمك وهو حسيبك.

وفي هذا الأفق المشحون بألوانٍ قاتمة من الدخان وبأنواعٍ من الغازات الخانقة التي خلقتْها السلطة حول نفسها لتحتميَ بها، وتبثُّها بين الشعب، لتَشغلَه عنِ النظر اليها وعن التفكير بها، في هذا الأفق، كان رفعت الأسد قدِ ارتقى إلى المكان الأرفع في السلطة. فكيف سنواجه هؤلاء الذين يقفون ليتّهموه وهم يتساءلون : هل شارك رفعت في خلق هذا الأفق أم لم يشارك ؟ وما هو مدى مشاركته ؟ وإذا كنتم تقولون ببراءته، فكيف تعتقدون بوصوله إلى هذا المكان الأرفع، دون أن يكون قد اشترك في تهيئة هذا الأفق أو

رُمِيَ بها رفعت إلّا وهي تقف بين حُكمَيْن اثنين لا ثالثَ لهما : إمّا أنها مكذوبة ، لا لون لها من الوان الوجود والصحة ، وإمّا أنّ اخاه الأكبر هو وحده المسؤول عن صنعها وهو مولِّدها ومشيِّعها .

وارى أننا لا نُخطىء إذا قلنا ، إنّه ما من إنسان يصل إلى السلطة إلّا ويصبحُ نصفُ الناس في بلاده ، منذ اليوم الاول ، ينظرون إليه بعين الغيرة والحسد . ويصبحون مهيّئين لاستقبال سيرته وما يَشيع من أخباره على انها حقائقُ واقعة ، ويَخِفّون إلى إذاعتها والتزيُّد فيها على هواهم . وأمّا النصف الثاني منهم ، فإنّه يعود موزَّعاً بين مَنْ لا يَهمُّه ما يحدث في السلطة ولا يُعنى بأخبارها وبين مَنْ يتقرَّب إلى اربابها ، ويسعى لنيل حظوة منهم أو للوصول إلى مكان يأذن له باصطياد ما يريد . والذي حدث لرفعت هو مثلُ هذا واكثرُ منه ، فقد اصاب بعض الشهرة على إثْرِ أحداث الثالث والعشرين من شباط عام ستٍ وستين وتسعمائة والف . وفيها وقع زلزال في الحزب اطاح بالفريق الأكبر من قيادته ، وغيّر وجهه ومجراه ، فقصد إلى جهة اخرى في أعماله وخططه . ثمّ توالتْ بعدها احداثٌ صغيرة ، لم يَفُتْ رفعت أنْ يضرب فيها بسهم كبير من المشاركة ، وأنْ تكون له الكلمة الاخيرة في حَسم الموقف وتوجيهه إلى ناحية النصر .

ويجب أنْ لا ننسى أنّ سيرته هذه ، بدأت تأخذ طريقها إلى الأسماع قبل أنْ يقبض أخوه الأكبر على السلطة ، وبدأتِ الألسنة تتحدّث بها وهو في غُرَّة شبابه وفي عُنفوانه . ولا رَيْبَ في أنّ مِثْلَ هذه السيرة سيخلق له في قلوب الحزبيِّين الذين سقطوا وأُزيحوا عن الطريق شيئاً غيرَ قليل مِن الضغينة والمَوجدة . وسيبعث في نفوس الحزبيّين الذين لا يزالون علي رأس أعمالهم في قيادة الحزب والسلطة شيئاً غيرَ قليل ايضاً من الخوف والقلق على وضعهم

ومصيرهم، من طموحات مجهولة أو متوقّعة تتماوج في أعماق رفعت وفي أعماق أخيه الأكبر. ومَثَّل هذه السيرة، سيُطلق أخيلة الناس في صنع قَصَص عنه وتركيب حكايات من أخباره، فيها الطريف الجميل وفيها السمج القبيح.

وما أكثر ما حذَّرتِ الحكماء من أخطاء السُّكر، ونبّهتْ إلى المهالك التي تقود إليها. وهم لم يقصدوا إلى السكر الذي يحدث من تناول فنون الخمر، وإنّما قصدوا إلى السكر في كل شيء، أو قُلْ إلى البطر الذي هو مثْل السكر بلْ أشدُّ وأدهى. وقد اتّفقوا على أنْ يَحصروا هذه الأخطار في أربعة أشياء، عندما أطلقوا حكمتهم المشهورة فقالوا: احذروا سكر المال وسكر الجَمال وسكر السلطة وسكر الشباب. وإذا قلتُ، إنّ هذه الاشياءَ الاربعة كلُّها، قد تجمّعتْ في رفعت وتألّقت عليه، فلا أقصد إلى أنّه أسلمَ نفسه إلى جنون السكر وارتفع عنده غليان البطر، أو أنّه انغَمَس في الموبِقات وهوى في المنزلقات. وإنّما أقصد إلى أنّ هذه الأشياء، وهي الشباب والجَمال والمال والسلطان، لا يخلو فردٌ واحد من بني البشر، ما سوى الأنبياء، مِنْ أنْ يأخذ بطرفٍ منها أو بأكثرها أو بها كلّها. ولا بدَّ لأيّ إنسان، مهما انعزل عنها ومهما احتاط لنفسه وحَذِرَ عليها، مِنْ أنْ يُرمى بأثَر من آثارها ويُرخي عليه ظلٌّ من ظلالها.

ولا عيبَ على رفعت في أنْ يكون مثلَه مثَل واحد من هؤلاء الناس، يسعى إلى نصيبه من هذه الأشياء، ويُصيب حظَّه المقدور له، فيقتصدُ أحياناً في الإصابة ويُسرف أحياناً أخرى. وفي حوارٍ لنَفَر من الصحابة مع الرسول الأعظم، سأله أحدهم، إذا كان للشيطان عليه سبيل، فأجابه: «... وإنّ لي شيطاناً، وإنّ الله أعانني عليه فأسلم على يديّ». فإذا كان هذا شأنه مع الشيطان، وهو الرسول الأعظم، وإنّه لم يَغلِبه إلّا بعونٍ من الله وبعد أنْ أسلم على

صورة ، وعلى ألسنتهم ذكرٌ ونشيد ، وفي قلوبهم محبّة ، ولولاه لم يكونوا على هذا الوضع ولا في هذه الأحوال من الجنون والفوضى والتدمير . وهمْ الذين نَشروا الذعر والفساد في الشعب ، وروّجوا للكبائر والصغائر بين كباره وصغاره .

وليتَهم علِموا ، بأنّهم سيفتحون على انفسهم باباً كبيراً ، تدخل منه رياح النقد لاسِعَةً لاذعة ، إذا هم نطقوا بهذا الكلام . والآن وقد نطقوا به ، فليس لنا إلّا أن نقول لهم : إذا كان صحيحاً ما ذكرتموه عن سرايا الدفاع وعن رئيسها رفعت ، من الصنائع والأفعال ، فإنها لم تكن تحدث في الليالي الحوالك ولا في الخفاء ولا خارج البلاد ، وإنّما كانت تجري أمام سمعكم وأبصاركم ، فلماذا لم تُعبّروا عن مَقتكم واستنكاركم لها ، بمظاهرةٍ شعبية ، أو بتعليق العمل وإغلاق المخازن مدّةً قصيرة أو طويلة ، أو بإرسال برقيّات كثيرة تحمل اسماء الآلاف من جمهرة الشعب ؟ واذا قلتم إنّ الخوفَ هو الذي منعكم ، فتلك ذريعةٌ واهية ، يتذرّع بها من يحبّ أنْ يأخذ كلّ شيء ولا يريد انْ يُعطيَ شيئاً . ولو انكم جرّبتم ان تقولوا كلمةً بعد كلمة ، وأن تقوموا بحركةٍ بعد حركة ، وبعملٍ بعد عمل ، على إصرارٍ وقناعة ، لَمَا وجدْتم هذا التمادي الذي زعمتم أنّه كان موجوداً .

ثمّ إنّ رفعت كان يعيش بينكم ، يتجوّل في كلّ مكان من البلاد ، ويذهب إلى قيادة الحزب ورئاسة الجيش ، وتُقام له الاحتفالات الشعبية ، ولم نسمع بأنّ معترضاً قد اعترض عليه ، أو انّ الجمهور انطلق بصيحة في وجهه ، إلّا ما كان مِنَ الإخوان المسلمين ، وقد افسدوا بأعمالهم وخرّبوا أكثرَ ممّا أصلحوا وعمّروا . ولماذا لم يُواجهه في ذلك الحين رفاقه في الحزب والسلطة مواجهةً فعّالة تُخفّف من هذه الظواهر أو تُزيلها أو تَقضي عليها ؟ ولماذا كانوا

يكتفون بالكلام من وراء ظهره، ويُظهرون له البشاشة والطاعة عند المقابلة والمواجهة؟ ولماذا كان فريقٌ كبير من الحزب والسلطة وفريقٌ أكبرُ من وجهاء الشعب وأعيانه يتعاونون معه ومع وحدته العسكرية؟ وأخيرا، إذا كان صحيحاً ما ذكرتموه، فلماذا أغفلْتمُ النظر إلى أخيه الأكبر حافظ، أتُريدون أن ترفعوا عنه المسؤولية؟

ولماذا أُصْمُتُ الآن، ولا أقولُ كلمتي في هذه الوحدة العسكرية، وقد قضَيْتُ فيها خدمة العلم، وعاشرتُ ضبّاطها وجنودها في ظلّ رئيسها رفعت؟ ولم تكُنْ عِشرتي لهم عابرةً هيّنة، ولم أكتفِ فيها بالنظر إلى الواجهة، بل نفذت إلى الأبعاد وتغلغلت في الأعماق. ولا يمنعني من الاعتزاز بهذه الوحدة ما روّجه المتقوِّلون عنها من أخبار، ولا ما سيّره المؤلّفون من قَصَص وحكايات. وليتّهم ازاحوا غشاوة الحقد عن أعينِهم ونظروا إلى الواقع نظرة صحيحة، لأبصروا أنّ المبالغة عندهم أوهنتْ حقّ النقد وضيّعتْه، وأنّهم خسروا الفرصة التي كانت سانحةً ليطلعوا منها رَمَياتهم وليوجعوا ويصموا. فلست أنكر عليهم حقّهم في النقد والجَهْرِ بالخطأ والإشهار بمظاهر السوء والفساد، بل أُنكر عليهم المبالغة والتهويل. ولقد كنتُ في هذه الوحدة أرى واسمع ما يدور فيها وما يجري، من حُسْن وسوء وجميل وقبيح. فلا أخفي أنّني شاهدت الواناً من الفساد والمروق والفوضى تنتشر بين ضباطها وجنودها، ربّما كانت أبينَ وأوضحَ مما هي عليه في وحدات عسكرية أخرى، لكنّها على كل حال لم تكن كما أذاعوا عنها وكما نقلوا. وربّما لو أنّنا كَنَسْنا هذا الفساد الذي عُزِيَ إليها وجمعناه، لَمَا راح يعادل أكثر ممّا صنعَه ضابط في جهاز الأمن أو ضابط في جهاز حماية أخيه الأكبر حافظ من فساد، أو قام به تاجرٌ سُفيانيٌّ من عُهْرٍ وسمسرة.

والدولة. وكما قلتُ قبل قليل من أنَّ النقدَ إذا تطوّرَ إلى التشهير والتهجّم، فإنَّ ضرره سيكون أكثرَ من نفعه وخطأه أكثرَ من صوابه. فكذلك أقول الآن، إنَّ الطعنَ الذي انصبَّ على هذه الرابطة وعلى مؤسّسها وأهدافها، كان يقصد إلى التمزيق والتخريب لا إلى إهداء العيوب والاهتداء إلى الإصلاح والإنجاح. وقد عَرَفَ أخوه الأكبر حافظ كيف يهتدي إلى هذا الطعن، وكيف يحتضنه ويتعهّده بالتغذية والعناية حتى تطوّر وانتقل إلى خطّةٍ، بدأتْ معها الرابطة تنتقل في أعمالها وسلوكها من مرحلة القلق إلى مرحلة الاضطراب، ثم إلى الفوضى وبعدها إلى التَخَبُّطِ وإلى المجابهة والصراع. وتَشلَّعَتْ أعمدةُ الرابطة وسقفُها وانهدمتْ حيطانها وعافها مؤسّسُها وارتحل عنها، ولا يزال الطعنُ والضربُ يَنْهَالان عليها، كأنَّها لا تزال قائمةً، أو كأنَّ خطَرَها يكاد يُحدِق بالبلاد وبأمنها من جديد.

وأمّا عن شأن هذه الرابطة والتعريف بها، فقد أنشأها رفعت في عام أربعٍ وسبعين وتسعمائة وألف. وكان يهدف من إنشائها، كما قال في أوّلِ اجتماعٍ له من اجتماعاتها الرسميّة العلنيّة، إلى تجميع أنشطةِ الباحثين والدارسين والمؤلّفين، بعضِها إلى بعضٍ بدلاً من تشتيتها، وإلى خلقِ كتلةٍ موحدةٍ منها، تجعل تحسين الأبحاث أمراً ميسوراً. وقال أيضاً: إنَّ رعايةَ المواهب والتشجيع على الإبداع في ميادينِ العلوم والفنون كلِّها، هي أولى مهمّات هذه الرابطة. ولا يأتي ذلك بقولٍ ولا بخطاب، وإنّما يأتي بوضع خطّة تشتمل على احتواء الباحث الدارس صاحبِ الموهبة وتعهّده من جهةٍ وعلى العناية بموهبته وتحريضِ الإبداع فيها من جهةٍ أخرى. وتعمل الخطّة في شطرها الأوّل، وهو احتواء الباحث وتعهُّده، على تحسين عيشه وتأمين الوسائل التي تعود عليه بالراحة والهدوء، وتَدفع عنه وعن أسرته قلق اليوم وقلق الغد، وتُعينه على تجميع

شَتات فكره وتقريبِه بدلاً من توزّعه وتباعده، وتُساعدُه على الانشغال بأبحاثه والانقطاع إليها وحدَها. وهذه الوسائل ليست مجهولةً، بل هي ضرورةٌ ملحّةٌ، لا بدَّ لكلّ إنسان أنْ يُفكّر بها ويسعى إليها، فكيف بالباحث والدارس! وهي السَّكن وما يُعْوزه من أجهزةٍ ووسائل، ثم تأمينُ أداة الحركة والنقل، وتأمينُ العناية الطبيّة من معالجة وأدوية، ثمّ تخصيصه بمرتّبٍ شهريّ يسدُّ به نفقاته ويَدفع عنه حاجاته. وتعمل الخطّةُ بشطرها الثاني، وهو رعايةُ الموهبة والإبداع العلمي على استحداث المختبرات واستحضار الآلات والوسائل العلميّة، وكذلك المصادرِ والمراجعِ القديمة والحديثة، وتأسيسِ دارٍ لطباعة الأبحاث ونشرها وجعلها ميسورةً لِمَنْ يطلبها ويسعى إليها. ثم عَقْدِ ندوات ومؤتمرات دوريّة، يُدعى إلى حضورها باحثون ودارسون من أنحاء العالم كلّه، ممّا يُسَهِّل عليهم توسيع العلاقات العلمية، ويَخفّون إلى تبادل أحدث الخِبرات وإلى الاطّلاع على آخِر الآراء والتطوّرات في آفاق العلوم والفنون على السواء.

هكذا قال رفعت، ومن أجل تحقيق هذا القول أنشأ الرابطة. وهي منذ نشأتها وَجدتْ من يَكُنُّ لها العداء، وينطوي على مخطّطٍ لضربها وبعثرةِ ترتيبها، وذلك من الحزب والسلطة. لكن سأصرفُ النظرَ الآنَ عن بحث هذا الموضوع وأقول، إنَّ استحداث الرابطة كان من خير الأعمال وابعدِ الأحداثِ أثَراً في تاريخ بلادنا منذ بداية النهضة، لو أنّه لَقِيَ التعهُّدَ المخلصَ اللائقَ به، أو لو أنَّ اليدَ التي جَنَتْ عليه حَنَتْ عليه. وأعتقدُ أنّه لا يوجد هناك مَنْ يستحقّ اللوم والتعنيف أكثرَ من هؤلاء الذين هُرِعوا للانضمام إلى هذه الرابطة بأعدادٍ كبيرة، ثم أخذوا يُلحّون إلحاحَ المرأة الجائعة ويُلحفون إلحاف الدابّة العطشى، وهم بين مَنْ يريد سيّارةً أو يريد هاتفاً،

لتصريفه بدلاً مِنَ الاستسلام لها والنزولِ تحت حكم سيطرتها . ولا أنسى هنا أن أشير إلى أنَّ تقدُّم الإنسان يكون على قدْر علاقته بهذه الشروط، وعلى تعيين محلِّه في الصراع معها . فإذا كانت علاقتُه بها علاقةَ الخاضع لها، ومحلُّه منها محلَّ الجاهل لمنعرجاتها وآفاقها، فإنَّ بينه وبين التقدُّم أمداً بعيداً . وإنْ كانت علاقتُه بها علاقةَ الغالبِ لها، ومحلُّه منها محلَّ المُشْرف عليها، فإنّه في أرفع درجات التقدُّم وأعلاها .

وكيف يَرضى أساتذة الجامعات وحَمَلَةُ العِلم في بلادنا أنْ يكتفوا بقراءة الصفحات على الطلاب في فضاء القاعات والأروقة، معتبرين أنَّ ذلك هو الغاية في أداء أمانةِ العِلم؟ وكيف يَسمحون لأنفسهم أنْ يتوقّفوا في فهم التوعية والصَّحوة واليقظة عند قراءة هذا اللون من الكتب دونَ غيره، ورؤْية هذا الوجه من الثقافة دونَ اعتبار غيره من الوجوه؟ إنَّ اليقظة هي أن يرى الإنسانُ ما حولَه بعينيه، وإنّ الوعْيَ هو أنْ يُدرك ماذا يفعل، وكيف يفعل، ولماذا يفعل . وما أسهلَ أن نقول هذا الكلام وأنْ نكتبه! ولكنْ دون اختراق الحُجُب القائمة بيننا وبين بلوغه، تضحياتٌ جِسام، وتفديةٌ تكاد تَعدل الموت أو ما يشابهه ويدنو منه .

ولستُ أرمي في كلامي هذا كلّه إلى القول، بأنَّ الذين انضمّوا إلى هذه الرابطة، كان عليهم أنْ يَجِدوا فيها الفرصة لإعلان العِصيان والتمرّد في وجه الحزب والسلطة، أو أن يجعلوا منها عُقدةً مستعصيةً على الحلول كلّها، بل اريد أن اقول، إنَّ الرابطة كانت فرصةً، لم يعرفوا قيمتها إلّا بعد أنْ عبروها . ولو أنَّهم أدركوا في أوانها، كيف يحتالون على استحداث دارٍ للطباعة والنشر أو على توسيع مختبراتٍ علميّة أو على إنشاء مكتبةٍ كبرى، وهذه الأشياء كانت أيسرَ ما يؤتى به ويُصنع، لَقلنا إنّهم نجحوا في المحاولة،

وتلك خطوة في الطريق إلى الغاية. وأريد أن أقول أيضاً، إنّهم أضاعوا الفرصة مرّةً أخرى، عندما لم يعرفوا كيف يخلقون، وهم في الرابطة، حواراً ساخناً بينهم وبين السلطة، بأسلوبٍ تصل سخونته إلى أطرافٍ مؤثّرة في الحزب وأطرافٍ مسؤولةٍ في الشعب، تَبعث على التنبيه واليقظة إنْ لم تكنْ قادرةً على القَلْب والتغيير.

وقد اعتدْنا أنّنا إذا سمعنا كلاماً يُذكرُ فيه: التضحية، والتعب، والألم، والعذاب، والمشقّة، والعطاء، والفداء، والصبر، أنْ لا ننظرَ إليه شزْراً وأن لا نرفضَه فقط، بل نتّهمَه بأنّه غوغاء ولا ينطوي على معنىً. وأنّه أجوفُ حُشِيَ بالفراغ، ولا وزن له ولا قيمة. وليس أسهلَ علينا من أن نجدَ البرهان في تأويل كلمةٍ من هذا الكلام وحَمْلِها على المعنى الذي نريده، أو أنْ نتَّهم القائل بأنَّه مارقٌ أو خائنٌ متواطىء، ليصبح منبوذاً لا مطرح له عندنا. وإذا وُجِدَ بيننا منْ يُؤْثر الاعتدال على هذه الأحكام الجائرة، فإنَّه يقرَأُه ويلتزم عنده الوجومَ والانعزال. ولكننا سواءٌ أغضبنا من هذا الذي نقرَأه أم انهزمنا من مواجهته ورشقناه بالتُّهم، فإنّه لن يُعطيَنا أمناً، ولن يُهديَ إلى مشكلاتنا حلّاً، وإنّما سيزيد في وضع الركام على الوجه الذي نبحث عنه لنظهر به، وسيُضيف إلى سمائنا سحابةً قاتمةً أخرى، وكما أنَّ السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضّةً، فكذلك لن تُمطر حلولاً لمشكلات بني البشر ونحن قطعةٌ منهم. فمشكلاتنا وهمومنا لو حدَّقْنا النظر فيها، لوجدنا أنَّها خُلِقتْ بأيدينا، وأنَّ حلولها لن تُهدى إلينا إهداءً، وعلينا أن نخلقها نحن بأيدينا، ولسنا نُنكر أنّ الملائكة نَزَلتْ وحاربتْ مع المؤمنين في بدر وحُنين وفي غيرهما من المواقع والمعارك. لكنها نزلتْ والمؤمنون بين الضرب والطعن والفداء والاستشهاد، ولم تنزِل وتحاربْ وهم قاعدون لاهون، وفي التجارة وجمع الأموال منغمسون. والذين ينتظرون أن

تأتي الملائكة وتحاربَ عنهم وتبدّدَ مشكلاتهم وهمومَهم، لماذا لا ينتظرون أيضاً أنْ يُرمَوْا بحجارةٍ مِنْ سجيل؟

وربّما وصلنا الآن إلى محلٍّ من الحديث، يسمح لنا بأن نُلقيَ على أنفسنا سؤالاً يقع في شطرين وهو: هل كان في ذِهن رفعت الأسد نظريةٌ معيّنةٌ للحكم وتصوُّرٌ واضحُ المعالم قبل أن يكون في السلطة، يُسهّل عليه تصريفَ الأمور حين يصير إليها؟ وإذا كان عنده مثلُ ذلك، فهل أعدَّ نفسه وجهّزها تجهيزاً صلباً متماسكاً للقيام بأعبائها ومجابهة الأخطار التي ستحُف بها؟ واعتقد أن البدءَ في الإجابة على هذا السؤال يقعُ في الفصل السابق الذي أفردْناه للحديث على حزب البعث. وأنَّ الاستمرارَ بهذه الإجابة هنا يدعونا إلى أن نتذكّر شيئاً ممّا قلناه هناك. فقد قلنا إنَّ نشأة حزب البعث جاءت من هذه الغُربة التي كان يُعاني منها الإنسان العربي في وطنه، وهو غيرُ قادر على أن يتخلّصَ من غربته ويعودَ إلى أصله ووطنه إلّا إذا بَعَث تاريخَ أمّتِه وأحياه في نفسه من جديد، وأعاد النظر إلى تُراثه وحضارته بعقلٍ متطوّرٍ ورؤْية متجدِّدة. وكيف سيقوى على صنع ذلك في هذه الحال الكئيبة البائسة التي جرّتْ على شعبه التفرُّقَ والتشعُّب وساقتْ إليه التخلُّفَ والظلم والاضطهاد وأدواءَ كثيرةً أخرى؟ فلا بدَّ له إذاً من محاربة هذه الأدواء، إمّا بعلاجها أو باستئصالها.

وليس من شكّ في أنَّ رفعت تشرّبَ روحَ حزب البعث وتخرّجَ في مدرسته وثقافته منذ بزوغ فجر شبابه، وآمنَ بأفكاره إيماناً دفعه إلى أن يخاطر بنفسه في كثيرٍ من المواقف قبل السلطة وفي حينها. فكان طبيعيًا أن يتّخذ من نظرية الحزب في الحكم ومن آرائه في السلطة عقيدةً ومبدأ له أيضاً في الحكم والسلطة. ونحن إذا عدنا لنقرأ نظريّة الحزب وآرائه، وجدْنا أنّها واسعةٌ وغامضة، ليس لها

شكلٌ محدّد تتميّز به عن غيرها من الأشكال، وليس لها شخصيةٌ واضحةُ السمات، تُعرَف بها وتصونُها في أيّ صراع وقعتْ فيه وفي أيّ مكانٍ حُمِلت إليه. ولا غرابة في أن ينتقل هذا الغموض إلى من آمنوا بالحزب وانضمّوا إليه ووصلوا إلى السلطة. ومنهم رفعت. ثم لا غرابة أيضاً إذا رأينا هذا الغموض يبعث في أنفسهم ألواناً من التأويل لا تنتهي إلى وضوحٍ أكثرَ ممّا تنتهي إلى مشكلات.

وإذا شئنا أنْ نتّخذَ مثلاً على ذلك، فلنذهب إلى ما قاله حزب البعث في تحليل الخَلَل والاضطرابات التي يعاني منها المجتمع العربي وإلى العلاج الذي اقترحه للشفاء من هذه الاضطرابات وإبادة أثرها. فهو يقول في منطلقاته النظرية، إنَّ انتشار الفقر والحرمان في أوساطِ الأكثرية من الشعب من جهةٍ وتكديس عائداتِ وسائل الإنتاج في أيدي الفئة القليلة من جهة أخرى، هو الذي خَلَقَ هذا الخَلَل وحرّض على نشوء هذه الاضطرابات. وبعبارةٍ أخرى، إنَّ توزيع الثروات توزيعاً غيرَ عادل بين صفوف الشعب وطبقاته، هو من وراء نشأةِ هذه الحال المتردّية في أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولا سبيل لنا إلى الخلاص من معاناةِ هذا التردّي إلّا بالاقتسام العادل في العمل وفي الإنتاج، وقد أطلقوا على هذا الحلّ اسمَ الاشتراكية. وما إنْ وصلَ الحزب إلى السلطة حتى أسرع إلى الاعتراف بهذا الأسلوب، واتّخذه الحلَّ الأمثل لهذه العُقدة التي تَجثم بهمّها الثقيل على صدر شعبنا. وراح يأخذ الأراضي من كبار المالكين ويوزّعها على المحرومين الذين ليس عندهم شيء، حتى من الهواء والماء. ونحن عندما نُشير إلى موقع الغموض في هذا المثل، فإنّنا نقصد أن نقول، إنّه عائدٌ إلى سوء الفهم وإلى سوء الاقتراح والتخطيط، ثمّ إلى سوء التطبيق والإنجاز. ونعني بسوء الفهم: أنَّ مصدر التخلّف والتردّي في شعبنا، ليس كما ذكر الحزب

من انَّه يعود إلى تحكّم فئةٍ قليلةٍ بالثروات والأموال وحرمان الفئة الكبيرة منها، وهو يُغمض عينيه ويتغافل عن آثار الأسباب الأخرى، ومنها الأسبابُ النفسية والتاريخية والأسبابُ الدينية. ونعني بسوء الاقتراح والتخطيط: أنَّ الحزبَ اخذَ الأرض من مالكها بدون دراسة يوضح فيها كيف سيتمُّ الأخذ وسيتمُّ التملّك، ولا رَسْمِ خطّةٍ يُظهر فيها الحال التي ستصير العلاقة بين المالك المأخوذ منه وبين المالك الجديد المأخوذ له، وكذلك العلاقة بين الارض وبين مالكها الجديد. ونعني بسوء التطبيق: هذا الذي ذكرناه نفسَه ونزيد عليه أنَّ الحزبَ اغتصب الأرض من مالكها اغتصاباً، وكان من اللائق أن يأخذها منه برفقٍ ولينٍ، ولو انَّه رأى فيه عدواً له. ثم إنَّه أعطاها إلى من يستحقّها، من غير أن يُزوِّده بآلةٍ أو بخبرةٍ أو بإرشاد، ومن غير أنْ يستمرَّ بالإشراف عليه إشرافاً يزيد من قدرة الفلّاح على العمل ومن طبيعة الأرض وقدرتها على الانتاج، فكأنَّما كان عملُ الحزب هو لونٌ من ألوان التشفّي والأخذ بالثأر، وليس تطبيقَ خطّةٍ تهدف إلى تشجيع الاقتصاد وإنمائه، وإلى إرساء سياسة جديدة في أفُقٍ جديد.

وهذا مثلٌ واحدٌ من أمثلةٍ كثيرة، لا شكَّ بأنَّه قادرٌ على أن يخلق في نفوسنا قناعةً بأنَّ رفعت وجَدَ في حزب البعث مدرسةً وطنيةً قوميةً فاغتنى بالمشاعر الوطنية القومية، واكتسب حسًّا جعله يرى وطنه واسعاً وغنيًا جدًا، ويرى شعبه عريقاً بتاريخه كبيراً بحضارته، ولكنَّ هذا شيء وتربيةُ العقل على تفُهم طبيعة المجتمع، وكيف تنشأ فيه المشكلات، وكيف نهتدي إلى حلولها شيءٌ آخر. وكأنَّ هذا الكلام يَعني أنَّ حزب البعث أيقظ عاطفةً من النفس وألهبها، وهو يظنُّ أنَّه صنع يقظةً، وأحدث ثوراناً، وهو يعتقد بأنَّه بعث ثورةً. وإذا خرج كلامنا وفيه شيءٌ من الهزء بالعاطفة أو عَبَث

بأهميّتها، فلا يدلُّ ذلك على أنَّنا نذهب إلى حذفها أو نقول بإلغاء دورها، في التخاطب والتفاهم، وفي تربية الأجيال وبنائها، وفي مواجهةِ الحياة وكلّ ما فيها. والذي لا نشكّ فيه، هو أن حزبَ البعث كان يعتقد بأنّه يُنَمّي عقلاً ويخلق وعياً، عندما راح ينادي الشعب العربي ويدعوه إلى الصحوة والنهوض، وكأنَّه ينادي جموعاً من الناس ويدعوهم إلى مائدة حافلة بألوانٍ من الطعام الشهيّ، ولم تكن مشكلتُه تكمنُ في أنّه كيف يقول، ولكنْ في أنّه ماذا يقول. وعندما التفتَ الى الحزب الشيوعي ليستعيرَ منه ماذا يقول زاد في الأمر ضِغْثاً على إبّالة، فلا هو أفلحَ في استعارة ما يلائم طبيعة الفكر العربي ويتَّفق مع روح الحضارة العربية، ولا هو أفلحَ في نقد ما استعاره وردِّه إلى موطنه، عندما حَمِيَ الصراعُ بين روح حضارتنا، وبين الأفكار الشيوعية. وربّما بات من السهل علينا، أن نقولَ الآن إنَّ حزب البعث لم يمتلك منذ البدء قدرةً على تربية العقل وإخراج طاقاته بأساليبَ تَهونُ عندها مواجهةُ المصاعب ومجابهةُ المشكلات، وأنّه لم يرسم خطّةً تُظهر للشعب اين يسير وإلى اين يسير. وهو عندما وَضَع أعمدةً ثلاثةً لبنائه، وهي الوحدة والحرية والاشتراكية، لم تجد عنده بعد ذلك في كلّ ما قاله وما كتبه وما اختطّه ورسمه مادّةً قويّةً تَصلح لإكمال البناء، فلا عَجَبَ، إذا كنّا قد سمعنا ورأينا بأنَّه انتصرَ فريقٌ من الحزب في الانفراد بالسلطة على فريقٍ آخر، كان يهدم ما بناه ويخرّبُ ما صنعه ليَبنيَ هو على هواه ويصنعَ ما يريد، وليس على خطّةٍ مدروسة وتصميم مرتّب.

وكيف نريد لرفعت أنْ يصنع الآن وقد اصبح في السلطة؟ إنَّه لا يستطيع أن يكون حرًّا طليقَ اليدين في كلّ شيء، فأخوه الأكبر حافظ يقف في وجهه ويحجب عنه رؤية الآفاق الواسعة، فلا يعود

يرى إلّا ما يُريه أخوه ولا يسمع إلّا ما يُسمِعُه إيّاه . ثمّ ماذا يفعل غير السكوت والانتظار ، عندما اطّلعَ على أنّ أخاه الأكبر لا يملك من الحرّيّة إلّا مقداراً يسمح له بأن يحافظ على السلطة ، إذا لم نقل إنّه ليس في وسعه أن يبلغ إلّا إلى هذ المقدار ، أو أنّه لا يريد أن يتجاوزه وأن يرتقيَ إلى ما فوقَه . فهو لا يريد إلّا السلطة وحدها ، ولا يسعى إلّا أن يحافظ عليها بأيّ أسلوبٍ كان ، ومهما حَدَث في البلاد من دمار ، ومهما أصاب الشعبَ من ويلات ، ومن أجل ذلك احتضن أخاه رفعت وامدَّه وقوّاه ، ومِنْ أجل ذلك أيضاً أحبَّ أن يُخضعه إلى قبولِ ما يقوله وما يفعله وأن يُرضخه إلى إرادته وأن يَربط مصيرَه بمصيره .

وماذا نريد منه أن يصنع إذاً ؟ هل ننتظر منه أن يأتيَ بمعجزة تقتلعُ مشكلاتنا من جذورها وتُلقي بهمومنا إلى الرياح ؟ لقد بدا لعينيه كلُّ شيء واضحاً منذ الأيّام الأولى التي انفتح له فيها بابُ السلطة على مصراعَيْه ، وأدركَ أنّ الأقوال النظرية التي زَوّده بها الحزبُ شيءٌ ، وأنّ الواقع الذي يمرُّ به الآن هو شيءٌ آخر ، وأنّ بينهما اختلافاً كبيراً وتناقضاً ، يتعذر الجمع بينهما في عَمَلٍ أو مفهوم ، بل إنّه هو المحال عينُه . ثم إنّه صحا على نفسه ، وعَرَفَ أنّه كان من قبلُ في الأوهام وأنّه صار الآن إلى الحقيقة . لكن لا بدّ له من مواجهة هذه التجربة ، ومن تحمُّلِ عواقبها ، حُلوةً كانت أو مرّة ، والطريقُ أصبحتْ خلفَه مسدودةً لا يستطيع أن يتراجع ولا أن يقف في مكانه أيضاً ، فليَمضِ إذاً إلى المصير .

وقبل أن يتقدّم نريد أن نعرف هذه الحقيقة التي صحا عليها وأصبح يعيش بها الآن . إنّ شطراً منها يعود إلى الهزّات العنيفة التي عَصفتْ بالحزب ، فجعلته فِرَقاً وأحزاباً . وبعضُ هذه الهزّات حَدَثَ في شهر شباط عام خمسٍ وستّين وتسعمائة وألف ، وكان دورُه

ابرزَ وأدهى من سابقه. وفي أعقاب كلّ هزّةٍ وبعد أن تسلّمَ الأمور كانوا يفاتحون الشعب بأسبابها ويقولون له: إنّها انحراف القيادة عن النهج الصحيح للحزب، وإنها خيانةُ مبادىء الشعب وإضاعةُ حقوقه في سوء التصرّف والتدبير، وإنّها تجربةٌ أخفقتْ بها القيادةُ لقِصَرٍ في النظر عندها وخطأ في التقدير، ولابتعادها عن و اقع الشعب وعن طموحه وتحقيق آماله. أو يقولون إنّه العناد الذي استشرى في رؤوس أفرادٍ من القيادة، والاسرافُ في طرح الشعارات التي نحتاج إلى نصف شعوب العالم، من أجل تحقيقها وجعلها واقعاً يُعاش، ويقولون أشياءَ أخرى تقترب أو تبتعد عن هذه الأصول التي لخّصناها وذكرناها.

وهل يستطيع رفعت أن يقول بعد ذلك إلّا هذه المقولة التي طَلَعَتْ بها قيادةٌ حزبية، أخوه الأكبر حافظ هو بانيها وقائدها وهي أنَّ الحزبَ قد عادَ الآن إلى سيره الصحيح، وأنّه يقطع على نفسه الوعود بأنّه سيُرضي طموحاتِ شعبه، وأنّه سيُحقّق له الأهداف التي آمن بها وانتظرها من عهودٍ بعيدة في القِدم، وأنّه سيُحرّر الأرض المظلومة المغصوبة من الظالمين الغاصبين، وأنّه سيَزرع في البلاد بذورَ التقدّم والتطور وسيحصد الشعبُ عمّا قريب مواسمَ الرِضَى والنِعَم التي لا تعرف الزوال ولا الانقطاع، ولكنّ أقوال هذه القيادة لم تنزل من نفوس أبناء الشعب منزلاً مقبولاً كريماً. مثلُها في ذلك مثلُ أقوال القيادات التي تقدّمت عليها، وإنْ هم أظهروا لها التهليل والترحيب. فلا بدَّ إذاً من أساليبَ جديدة ومن أعمالٍ جديدة، تنسج بين الشعب وبين السلطة الجديدة خيوطاً من الثقة وتعيد إليه اطمئنانه الذي كان قد ودّعه منذ وقوع السلطة في قبضة الحزب في الثامن من آذار عام ثلاثٍ وستّين وتسعمائة وألف.

وإنّها لمسألة تستَحقُ أن نهتمَّ بها كثيراً وأنْ نتأمّلها طويلاً،

وهي أنّ الشعب في سورية التفّ حول الحزب قبل أن يصل إلى السلطة، لكنّه تفرّق عنه وابتعد عندما وصل إليها، بل عندما التفّتِ السلطةُ حول عنقه. فهل يعود السبب في ذلك إلى أنّه وجدَ الحزبَ صغيراً أمام السلطة، وانّه ضعيفٌ لا يقوى على النهوض بأحمالها الثقيلة في داخل البلاد وفي خارجها. فهو في الداخل يفرض نفسه بالقوّة وليس بالرضى والقناعة. وهو لا يملك في الشعب رصيداً قويًا. بعد أنِ انقسم إلى فرقٍ متعدّدة، وكلّ فرقة تدّعي أنّها صاحبةُ الحقّ في الأمر وأنّها الوصيُّ الشرعيّ على تراث الحزب وأفكاره وتوجيهه، وتتّهم الفِرقَ الأُخرى بالمروق عن مبادئه وبالانحراف عن النهج السويّ المرسوم له. وليت أنّ الصراع بين هذه الفرق، كانَ قد توقّف عند حدّ تراشُقِ التُهم وتبادل الدعاوى والمزاعم، لَوجدَ الأملُ طريقه إلى التفاهم وإلى الصلح والاتّفاق فيما بينهم. ولكنه تأرّث إلى درجة، أصبح الأقرباء فيها يذبح بعضُهم بعضاً، واشتدّ عنفه حتى صارتِ الظنّةُ أو أثارةٌ من شكّ تقود الإنسان إلى الموت والمهلكة. والحزب في الخارج، لم يكن وضعه بأحسنِ ممّا هو عليه في الداخل، فالكتلة الشيوعية تتعاون معه بحذرٍ وتخوّف. والكتلة الغربية المتورّمة بالمال والتآمر تشتدّ في محاربته أحياناً وترتخي أحياناً أخرى، لكنّها لن تدعَه يلتقطُ انفاسه ولن تترك له فرصة للراحة والهدوء.

وكان في هذا الوضع المتردّي الذي انتهى إليه حزبُ البعث ما يدعو الأخ الأكبر حافظ إلى التفكير في اختراع أساليبَ جديدةٍ لمخاطبة الشعب وتغييرٍ في هندسة الطرق المرسومة لتسيير البلاد. ومن هذه الأساليب ما يزيد في إباحة فُرصِ الحريّة، ومنها ما يخفّف من الرقابة ويهوّن من وطأة الكابوس المُسلّط على الأحزاب الأُخرى وعلى الزعامات التقليديّة والدينيّة التي عرفتِ اضطهاداً غيرَ

مشروع وغيرَ مقبول في أكثر وجوهه. وأمّا التفكير في تغيير هندسة الطرق المتّبعة، فإنّه يَرمي إلى إشراك أطرافٍ شعبيّة في السلطة، وإنْ كانت لا صلة لها بالحزب ولا تنتمي إليه، وتوسيعِ مساحة التعاون بين المنظّمات الحزبية والمنظمات الشعبية التي هي أضعفُ ارتباطاً بالحزب، ويَرمي كذلك إلى تنشيط الاقتصاد وتنميته بوسيلة الانفتاح على الخبرات الخاصّة التي هي محصورةٌ بأيدي فئاتٍ وطنية، وفئاتٍ تجارية تُقدّم تجارتها ومصلحتها في العمل على الوطن والمواطنين ولا ترى حَرَجاً في ذلك. وبعض هذه الفئات لها شركاتُها ومشاريعها في الخارج، وليس لها في الداخل إلّا الانتماءُ إلى هذا الوطن، وإلّا علاقاتُ القربى، وعلاقاتٌ قائمةٌ على صِلاتٍ خاصّة.

وليس من شكّ في أنّ هذا التفكير الجديد الذي طَلع به الأخ الأكبر حافظ، كان من الأسباب الوجيهة التي عجّلت في قيام حركته، وقرّبتْها من الجماهير، وخلقتْ لها استحساناً لا نظير له من جهاز الحزب والسلطة. وبَعثتْ في النفوس أملاً في أنْ يُلاقوا عندها فِردَوْسهمُ المفقود الذي يبحثون عنه وأملاً في أن يَثبُت الحزب على وضعٍ من الأوضاع، وأن ينتهي تموّجُهُ واضطرابه إلى استقرارٍ وثَبات. ولم يكن رفعت وهو الأخ الأصغر، يختلف مع أخيه حافظ في هذه الخطّة التي شاركه في رسمها واضطلع مثلَه في تحمُّلِ المسؤوليّة الكبرى، بل زاحمه في الانبراء والتصدّي للمواجهة والحوار وللمجابهة في السلاح والصراع، بل ربّما راح يُمثّل النبرة الحادّة في لغة السلطة ولهجتها الوثّابة التي تُجيد الحماية وتُحسن الهجوم. ولكنّه لم يكن يتّفق معه كلَّ الاتّفاق، في مسائلَ تتعلّق بأسلوب التدبير والمعالجة، ومسائلَ تتعلّق بطبيعة المعالجة نفسها.

فأخوه الأكبر حافظ، لا يفكّر أن يذهب بعيداً أكثر مِن احتواش

السلطة والحفاظ عليها، ولا مشاحةَ بعد ذلك في الأسلوب والطريقة ولا في التخريج والتدبير. وإذا هو فكّر في الترويح عن الشعب بإعطائه بعض النَّسَمات من الحرّيّة، فلكي يُنسيَهمُ السلطة السابقة ويزهّدَهم بها، ويرغّبَهم بسلطته ويشدَّهم إليها. وإذا هو اقترح توسيع مشاركة أطرافٍ غيرِ حزبية من الشعب، فلكي يضمن سكوتهم ويشتريَ وُدَّهم ويحرّضَهم على التعاون معه بدلاً من التآمر عليه، كما كان صنيعَهم مع من تقدَّمَه من رجالِ السلطة، يومَ أنْ عزلوهم وشدّدوا عليهم في النكير والمراقبة. وأمّا عنِ الإنماء والتقدُّم ومشاريع التطوّر والترقّي، فليس هنالك من طريقٍ أقربَ وأسرعَ في الوصول إلى هذه الأشياء من إجراء عمليّاتِ تحسينٍ في المظهر وتجميلٍ في الوجه والأطراف وترتيبٍ في اللباس والزينة. وقد اعتقدَ أنّه برَعَ كلَّ البراعة عندما اختصَّ لنفسه بقلب السلطة ورأسِها، وهما الجيش وجهاز الأمن، وفوّضَ إلى الشعب تدبير ما بقي من أعضائها وهيكلها. ولم يَدُرْ في ذهنه، أنَّ الشعبَ كان أكثر براعةً منه حين راقبه وأدرك ما يصنعه، وعندما استشفَّ أيضاً ما سيصنعه وما سيلاقيه ثم حين آثر السكوت والانتظار على البطش والترويع.

وأمّا رفعت، فقد رأى أنَّ الاكتفاء بالتحسين والتجميل سيجرُّ إلى الشعب غثياناً وضَجَراً، وهو أسلوبٌ معهودٌ مُتَّبَع، لم تأتِ سلطةٌ متقدّمة إلّا واعتمدتْه مرتكَزاً ترتكِز عليه ومركباً تمتطيه لقطع الطريق. ولن يستطيع الصمود والبقاء طويلاً أمام صبر الشعب وانتظاره، فقد اكتشفَه وعَرَفه وملَّه، ولم يعد ينخدعُ بطَلائه، ولذلك لا بدَّ من التفكير بأسلوبٍ أكثرَ فاعليّةً وأدومَ بقاءً. وهنا بدأت المشكلة تظهر له بوجهٍ جديد، ما كان يعتقد يوماً بأنّه سيعاينه، وبدأتْ تأخذ أبعاداً، لم يَحسب لها من قبلُ حساباً. والوجه الجديد للمشكلة هو أنَّ أيَّ أسلوبٍ مهما كان جديداً وجادًا، تقترحه السلطة

لمخطابة الشعب ومواجهته في ظلّ حزب البعث وتحت إشرافه لن يلقى إقبالاً نشيطاً، ولن ينظر إليه الشعب بارتياح. فالشعب لا ينسى ما عاناه من التجارب التي أجراها حزب البعث عليه، وكأنَّه كان مختبَراً مصنوعاً له، يستورد نظريات في السلطة والاقتصاد ثم يُجريها عليه ليرى مدى نجاحها، ومن ثَمّ يتّخذ قراره في اعتمادها مبدأ له أو في رفضها وإبعادها، ولا تزال هذه التجارب ماثلةً تجري أمامه وتقذفه بحُمَمٍ من الترويع والقلق، وتحرّضه على الهجرة أو على مشاكسة السلطة ومقاومتها، فماذا ينبغي إذاً على الحزب أن يفعل أمامَ هذا الوضع الجديد؟ وما هي مسؤولية السلطة؟ وكيف يجب أن يتحرّك؟ إنَّ الوقت لَيمضي، وإنَّ الشعب لَينتظر ويُراقب. ولمّا لم يكن من خيارٍ لرفعت، ولا للسلطة أيضاً، إلّا الصبرُ والانتظار، ولمّا لم يكن له بدٌّ من مسايرة أخيه الأكبر حافظ فقد صبر وانتظر وسايره فيما انتهج من نهج وفيما اختطَّ من خطّة، ريثما تَطلُّ الفرصةُ السانحةُ، ليُطلَّ هو معَها وقد امتلأ خبرةً واكتنز تطوّراً، ويُفجِّرَ خطّتَه في البلاد وهي **التغيير**.

ولا نرى من الحقّ لنا، أن نختلف مع رفعت في مسألة التغيير أو نتّفق معه إلّا بعد أنْ نُلِمَّ بأطرافها ونطّلع على جوانبها كلّها. فما هو معنى هذا التغيير وماذا يُراد به؟ هل يُراد به جهازُ الحزب أم جهاز السلطة أم هل يُراد به كلاهُما معاً؟ ثم هل يُراد تغييرُ الحزب كلّه ونقلُه إلى صورةٍ أخرى مع الاحتفاظ بروحِه ومضمونه؟ وهل يُراد تغييرُه بكامله واستبدالُه بنظامٍ آخرَ يلتقي مع الغرب في صفاتٍ ومزايا أم يكون مثلاً له ونسخةً عنه؟ فالناسُ كلُّ الناس عندنا في البلاد قد ملّوا حزب البعث وضجروا منه، لأنَّه أشبهَ الشرقَ الشيوعي في كثيرٍ من ملامحه وسماته، بل يُحِسّون أنَّه مستعارٌ منه في روحِه ومعانيه ونظامه. وهم لا يجهلون أنّ بلدان الشرق الشيوعي، لا

ترتقي في مستوى حياتها وازدهار اقتصادها إلى مستوى بلدان أوروبا الغربية المتورّمة بالمال والاحتكار.

ونحن لا نكابر في أنّنا نجد التساؤلات السابقة كلّها أبناء شرعيّين لهذا التساؤل الكبير: وما هي أسبابُ هذا التغيير الذي صار هاجساً لا يفارق رفعت الأسد؟ ثم لا نكابر أنّ الجواب على هذا التساؤل، هو نفسه جوابٌ على تلك التساؤلات، وإنْ هي راحتْ تختلف عنه في حاجتها إلى تفصيلات في جوانبَ منها وإلى أجوبةٍ فرعيّة. فنحن لن نتخلّف عن تسديد حاجتها، ولن نُقصّر في السعي إلى تجميع الأجزاء والأجوبة المتفرّقة التي بها تكتمل صورتها أو تصبح أقرب إلى الاكتمال والوضوح، وربّما أخذ هذا السعيُ منّا أكثر ما بقيَ من صفحات هذا الكتاب إنْ لم يأخذها كلّها.

ولا يستطيع الناسُ إلّا أن يخضعوا لهذه الدهشة التي ستثور، إذا هم سمعونا نقول، بأنّ أميَزَ خصال رفعت وأبرزَها هو حبّه للتغيير وولعُه به. فلا بِدْعَ إذا عدَدْنا هذه الخصلةَ التي هي كالغريزة فيه، واحداً من الأسباب التي نبحث عنها. ولكنْ لا ينبغي أن يذهب الظنُّ عند الناس إلى أنّ حُبَّ التغيير فيه، يرقى إلى أن يكون مرضاً من الأمراض العاتية العنيدة التي تُصيبُ النفس وتمتلكها وتتصرّف بها، ولا هو لونٌ من ألوانِ العَبَث الذي لا يَحمل معنًى من المعاني ولا يَرمي إلى هدفٍ من الأهداف. بل يكاد يكون نوعاً من البحث عن شيءٍ مفقودٍ له، وهو لا يعرف صفةً من صفاته، أو عن حاجةٍ أضاعها ولم يعد يتذكر ما هي. وكأنّ له من نفسِه دليلاً، فهو عندما يصل إلى الشيء المفقود، يجد نفسَه قد أنستْ به وارتاحتْ له وهدأتْ. وحينما تقع يده على حاجته يشعر بأنّه استرجع قطعةً من نفسه كانت قد انفصلتْ عنها وضَلَّتْ طريق العودة إليها. ولقد رأيتُ ذلك فيه وعرفتُه منه أيّام صحبتي له، وكان هو لا يُخفي على

أصدقائه وجلّاسه هذا الطبع المكنونَ في نفسه، وهو حبُّه للتغيير في كلّ شيء، في الآراء والأفكار، وفي المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وفي الرفقاء والأصدقاء، وفي غير ذلك من الأشياء التي تشتمل عليها الحياة. ولا أنسى أنّنا كنا في جلساتٍ كثيرةٍ معه، نستمع إلى آراءَ متنوّعةٍ في الموضوع الواحد، وأحياناً تكون متباينة متناقضة. وإذا نهض أحدُنا ولفتَ نظره لِما شاهدَ عنده من هذا التباين والتناقض، كان يعترف له، ويقدّم أسباباً لذلك أحياناً، وأحياناً كان يعترف ويسكت ولا يَحير جواباً.

ولا أعتقد أنّنا نختلف في القول، بأنَّ الميلَ إلى التغيير في الآراء والأفكار هو علامةٌ من علامات الصحّة في العقل، وليس علامةً على مرضٍ فيه، وهو دليل على بعد النظر وسعته، وليس دليلاً على القلق والاضطراب في النفس. إلّا إذا أريد به ذلك القلق الذي هو نوعٌ من أنواع الاهتمام والتدبّر بقضيّة من القضايا التي لها دورٌ كبير في مصير الانسان. وبهذا القلق عينه اهتمَّ الكاتب الفيلسوف الدانمركي كيركيجارد، واشتغل به فكرُه طوالَ عمره، وجعله سببَ الأسباب في تقدُّم الانسانِ وتطوّره ورُقيّه. وأمّا الذين أصيبتْ أنفسهم بمرض القلق، فليس حبُّ التغيير عندَهم نوعاً من أنواع النظر والتفكير وليس لوناً من الوان الاجتهاد، وإنّما هو حالٌ نفسيّةٌ دائمةُ السيَلان والانتقال لا تَثبت على مظهرٍ واحد. وما التفكير والاجتهاد إلّا بعضُ أعمال العقل يتحرّك بهما ويَظهر فيهما.

وما أسهلَ أن نَعرف القلق الذي هو حالةٌ نفسيّة من القلق الذي هو مادّة فكرية ونميّزَ بينهما، عندما ننظر إلى شخصَيْن مختلفين في موقفٍ من مواقف الخوف والجزع، كالوقوع في أزمةٍ اقتصاديّة خانقة، أو كالوقوع في مأزق الحرب وبين أخطارها. فالذي يسيطر عليه القلقُ من الخوف والارتياع، يكون ممتقِع الوجه كثيرَ الحركة

ضيق النفس، يسيطر عليه الارتعاش فيفقدُ التوازن في التصرُّف والتفكير، ويخشى العزلة عن الناس. والذي يسيطر عليه القلق من التفكير في مصيره، يكون أميلَ للعزلة، يخلو إلى نفسه ويسعى إلى أن يَطردَ عنه الارتعاش، وأن يَشعرَ بالهدوء، ويحاول أن لا يتركَ للخوف عليه سبيلاً، لكي لا يَضيع منه وقتُه ولا تَضيعَ منه الفرصُ الممكنة التي تأذن له بالنجاة والخلاص.

ولا نُريد أن ننصرفَ أكثرَ من ذلك إلى التذكير بقيمة القلق والإشارة إلى مفهومه الفلسفي. فما يهمّنا منه هو أن نعترف له بعمله المُؤثِّر ودورِه الفعّال في توليد فكرة التغيير في نفس رفعت وفي تغذيتها وتنشئتها حتى استقامت في ذهنه خلقاً سويًا. ونُحبُّ أن نقول فكرةً أخرى، وهي أنَّ قلقَه، لم يكن باعثُه الفزعَ والرعونةَ والطيش، كما ادّعى ذلك أعداؤه وبالغوا فيه. وإنّما كان باعثُه الخوفَ على مصيره والخوفَ على إفلات السلطة من يده، وأخيراً الخوفَ على حزبه الذي باسمه وصل إلى ما وصل، والخوفَ على هذا الشعب الذي رضيَ به طائعاً أو مكرهاً. ولا يجب أن يغيبَ عن الأذهان أنّ هذا النوعَ من الخوف، هو من جهةٍ أخرى يوحي إلينا بمعنى العناية والأمل، فما من إنسانٍ يكون عنده ميلٌ أو اندفاعٌ إلى التغيير، إلّا ونفسُه تُريه آمالاً من بعيد، وتخلق له تطلُّعاتٍ تسوقُه إليها سوقاً.

ولسائلٍ أن يسأل ويقول: وعلى أيِّ شيء يدلُّ هذا الميل إلى التغيير في نفس رفعت؟ وأجيب ولا أتردّد، بأنَّه يدلُّ على حبِّ الانعتاق من التقليد الذي ذهبتْ إليه السلطات المتقدّمة في بناء أجهزتها، ومنها سلطةُ أخيه الأكبر حافظ، ومن هذه الشاكلة التي ألِفَها الحزب في إعداده وتنظيمه ثم بَقي عليها. ويدلُّ على حبِّ التطوّر والتجديد في الآراء والأفكار وفي وسائل العيش، والدخولِ

في تجاربَ جديدة، تتّكىء على تَبصِرةٍ وعلى استشفاف للمستقبل وتكوينِ رؤيةٍ واضحة عنه. ولا اختلف مع اولئك الذين يقولون بأنّه لا يوجد إنسانٌ في الدنيا إلّا وعنده ميلٌ للتغيير، ولعلّهم لا يختلفون معي إذا قلت: وما أشدَّ التباين بين مَنْ يفكّرون بالتغيير ويعملون له وبين مَنْ تاتيهم هذه النعمة فتَبهَتُهم، ولا يشعرون إلّا وهم منغمرون فيها. وما اقلّ أولئك الذين يُحسنون التفكير في التغيير ويُصيبون في أكثرِ ما يفكّرون! ولا أجِد هنالك حَرَجاً وعَنَتاً، إذا رُحتُ أعُدُّ رفعت من هؤلاء. إنّما الحرجُ والعَنَت على الذين يهوّنون من شأنه ويستصغرونه. ولا يركبون لذلك سبباً ولا يتّخذون ذريعةً، وعلى الذين ستمتدّ السنتُهم وتَرشقني باللوم، لأنّني أعدتُ له حقًّا ضائعا وقلت فيه ما شهدْته منه. وأمّا ما لم اشهدْه منه ولم أكْتَنِهْ حقيقته وأنفذْ إلى الأعماق فيه، فهي النوايا التي انطوى عليها وادّخرها، وتلك التي لا أقحم نفسي في الحديث عليها، ولا أجد مطرحاً لكلمةٍ واحدة أقولها فيها لا مدحاً ولا قدحاً. ولستُ أعُدُّ نيّته في وثوبه على السلطة واستقلالِه بها واحدةً من هذه النوايا. فهي لم تعد منطويةً ولا مخفيّةً، ولم يكن بينَها وبين أن تصير إليه إلّا رفّةُ عين.

ولم يعُد خافياً على احد ما طارتْ بذكره الأخبار المكتوبة والمنطوقة، والتي تحدثُ، انّ رفعت كان اكثرُ ما يُصوّب إليه في ميله إلى التغيير، هو تغييرُ حزب البعث نفسِه وإنشاءُ حزب آخر يَحلّ محلَّه ويأخذ دوره. وقالت الأخبار، إنَّ هذه هي المفاجأةُ الأولى التي كان سيطلع بها رفعت على الشعب منذ الأيّام الأولى لاستقلاله بالسلطة، لو أنّه نجحَ في وثبته واستحوذ على المقاليد. ثمّ قالتِ الأخبار أيضاً، وكانت النيّة عند رفعت أن يجعل من هذا الحزب الجديد مَراحاً للديمقراطية والحريّة، شأنه في ذلك شأنُ المذاهب

الغربيّة في الاقتصاد والسياسة . فيصير للشعب واحةً يستريح بها من عناء لاقاه من السير في قفرة حزب البعث وبيدائه . ويصير وكأنّه عَقَدَ صلحاً مع الشعب بعد سنواتٍ من القطيعة والجفاء ، كان السبب فيها يعود إلى حزب البعث أيضاً .

ولستُ أريد في بُحثي هنا أن أثبتَ هذه الأخبار أو أنفيَها ، ولا أحبَ أنْ أُعنى بها أكثرَ من هذا التذكير الذي ، إنْ قصدتُ إلى شيءٍ منه ، فإنّما أقصد إلى القول بأنَّ اليأسَ والضجر من واقع حزب البعث ومن مصيره المشهود كانا فاشِيَيْن بين أتباعه وأنصاره وفي هيئات الشعب وتنظيماته وأصبحتِ النفوس تترّقبُ خلاصَها بلهفةٍ من هذه المحنةِ القاسية التي رماها بها حزب البعث ، بل إنّ الحزبَ نفسه أصبح عند أطرافٍ كثيرة من الشعب هو محنةُ المِحن . وكان لهذا الموقف أسبابُه التي اختصّ بها الفصل المتقدّم من هذا الكتاب ، وأشرتُ إليها في مطارحَ متفرّقةٍ أخرى وسيكون لنا معها وقفاتٌ ولقاءاتٌ أيضاً . وما ينبغي أن أقوله هنا ، هو أنّني كنت أحسُّ من زمنٍ بعيد ، يعود إلى ما قبل صحبتي مع رفعت ، أنّ حزب البعث يعاني من فجواتٍ كثيرة ، تدخل عليه منها رياحٌ صرصرٌ عاتية تهزُّ أركانَه ، وستظلُّ تهزّها حتى تَهدمها ، إذا هو لم يَسُدَّ هذه الفجوات ، إمّا بتجديدٍ في فكره يرتقي به إلى مستوىً أعزَّ وأرفع ، وإمّا بتجديدٍ في تنظيمه وإعادة ترتيبه ، فهو بؤرةٌ للفوضى ومحلٌّ للتخبّط وإذا هو لم يمتّع الشعب بحلاوةِ الحريّة وإعادة النظر في خططه الاقتصادية ورسومه السياسية ، وقد وُجِدَ قبلَ رفعت من نادَوْا نداءً وصاحوا صياحاً بضرورة تجديد التبصُّر والاعتبار في حزب البعث لتدارك ما فيه من نقصٍ وتلافي ما عنده من أخطاء ، سببها له عجزه وقصوره .

وإذا صحّ شيءٌ من الأخبار التي ألمعْنا إليها في الموجز

العابر ، والتي توحي بأنّ رفعت فكّر بتجديد حزب البعث او بإنشاء حزب آخر يأخذ دورَ حزب البعث ، ولا ارى إلّا انّ عليها مخايل الصحة ، فذلك يعني انّ هذا الرجل يمتلك نظراً بعيداً حاداً رأى به قبل ان يرى قادة الشيوعية ضرورة التجديد أو التغيير ، وادرك قبل ان يأتي الزعيم ميخائيل غورباتشيف انّ خطّةً واحدةً ليس من شأنها ان تنظّم البلاد ، ولا هي قادرةٌ على ان تتحكّم بسيرها والصوب الذي تتوضّع فيه . ثمّ ادرك ايضاً ، انَّ النظامَ الواحدَ لن يعرف قبولاً ولن يلقى استجابة ، إذا كان من صناعة عقلٍ واحدٍ لرجلٍ واحد . أمّا إذا اشتركت في صناعته فئات الشعب واطرافه ، فإنّه يُصبح آنذاك ميزاناً صالحاً لتُوزَن به أمورُ البلاد وما يَستجدُّ لها من تطوّر وتغيير ، وقد شاهدْنا انَّ زعيم الكتلة الشرقية ، كما اقدم على خطوته التاريخية الجريئة ، ومَنَحَ البلاد ، التي كانت تحت قبضة الحزب الشيوعي ، حرّيتها في صنع مصيرها ، كيف انَّ شعوبَ هذه البلدان قامت قيامتها من النشوة والمتعة ، وكيف كانوا يعبّرون عن فرحهم وسرورهم بالدموع ، وكيف راحوا يُنشدون اناشيد الاستقلال والحرّية والانفكاك من العبودية ، وهم يرَوْن في غورباتشيف المخلّصَ الذي وعدَتْهم به السماء والنعمةَ التي نَزَلتْ عليهم في زمن القحط والجوع الأسود . ولم تكن شعوب هذه البلدان المأسورة وحدَها في بحرانٍ من الحيرة والدهشة ، لِمَا اصابها من تطوّر ، ولِما طرأ عليها من تغيير ، وإنّما كانت الشعوب في الدنيا كلّها تعيش حالة البحران هذه ، وتُشارك في مهرجانات الفرح بعودةِ الحرّية من اسرِها ومنفاها .

وكما تعوّدنا انْ نستقبل من خارج بلادنا وخارجِ نفوسنا أيّ شيء ونرى فيه روعةً وجدّةً ، فقد استقبلْنا قرارات الزعيم غورباتشيف بكثيرٍ من الفرح والنشوة ولم نعلم لماذا ، ولم ندرِ

السبب في ذلك. وليت أنَّ السلطة في بلادنا تَلَقَّتْ منه أثراً صغيراً، وسمحتْ لهَبّةٍ يسيرة من العدوى أن تتسرَّبَ إليها، كما كانت قد تلقَّتْ أثرَ الشيوعية من قبلُ وجعلتِ البلادَ كلَّها حضناً ناعماً لحلولِ عَدواها، إذنْ لأعادتْ لبلادنا شيئاً من حقِّها الضائع المهدور، وارجعتْ لها وجهَها الصحيح وخلَّصَتْها من وجهها المستعار. ولكنْ يبدو أنَّ السلطة استطابتِ لذَّة التحكُّم فلا تريد أن تتركها أبداً، وأنَّ الشعبَ وجَدَ في العبودية متعةً فلا يُحبُّ أن يفارقها أبداً، وأمَّا إذا قام واحدٌ من بيننا مثل رفعت يتكلّم بالتجديد أو يَهمسُ همساً بالتغيير، فإنَّهم يَرجمونه بالتّهم ويُحيطونه من كلّ جهةٍ بالمكائد، ويجعلون بينه وبين الجِنّةِ نَسَباً، ثم يضيفونه إلى سلالة الشيطان. ولست أدري من أين عَرَفوا أنَّ للحياة مكاناً تقف فيه وتنحصر فلا ينبغي لها أنْ تُغادره، وأنَّ للزمان حفرةً ينزلها ولا يقوم منها أبداً ؟!

وإذا نحن فَرَضْنا وقلنا، بأنَّ رفعت لم يفكّر بالتغيير ولم يخطُر له على بال، أليس في البلاد والشعب آخرون غيرُه يفكّرون به ؟ ألاَ يوجد هنالك من يُعاين واقع الحزب، ويلحظ نقصاً في مواطنَ من أفكاره وتنظيمه ويرى ضعفَ الخطط التي رسمها في تسيير اقتصاد البلاد وتوجيه سياستها ؟ إنَّ العقل لا يستطيع أنْ يصدّق أنّ مجتمعاً كبيراً يخلو من رجلٍ مشهودٍ له داخلَ السلطة أو خارجَها، يهتف بالناس ويحرّضهم ليعاينوا حركة الحياة المستمرّة، وينبّه أذهانَهم وضمائرهم ليُواجِهوا تطوّرَ الحياة بتطوّرٍ مثلِه، ويقابلوا تجديدها بتجديدٍ يتلاءم معه. وإلّا فإنَّ الحياة تسير عنهم وتتركهم وكأنَّهم أموات يتحرّكون بالطبيعة ويعيشون بالغريزة. وهؤلاء الناسُ في بلادنا، إنَّ أكثرهم يُعبِّرون بأوجهٍ شتَّى عمّا يعانُون من كبْت واختناقٍ وعن حبّهم للحريّة والانطلاق في الأعمال الاقتصادية والسياسية. فمنهم من يُعبّر بالتنهُّد العميق، ومنهم من يُعبّر بغمزةٍ

العين ، ومنهم من يُعبّر بالإشارة العَجلى المرموزة ، ومنهم بالطرفة الطريفة والفكاهةِ النادرة . وحتى الذين يصمتون ، فإنَّ صمتهم هو نوعٌ من التعبير الذي يكون أبلغَ من النطق أحياناً . ونحن نستطيع أن نجد في كلّ ما يصدر عنهم نوعاً من التفكير بالتغيير ، وإن لم يأخذ حقَّه كاملاً من التبيين والتوضيح . ونستطيع أيضاً أن نتّخذ منها الشواهد الحيّة المعبِّرة عن الخذلان الذي فاجأهم من حزب البعث ، عندما أسلموا إليه قيادهم ، وانتظروا أن يَنعَموا بالأماني في عهده وعلى يديْه بعد صبرٍ مرير وبعد حرمانٍ طويل .

ولم يفُتنا أن نذكر ، أنَّ الخيبة وحدَها كانت هي الموسمَ الذي جناه الشعب من حزب البعث ، فقد وَعَده أن يمتّعه بالحرّيّة ، ولكنّه كاد أن يقضيَ ولمّا يذقْ طعما من طعومها . ووعده بالاشتراكية ، وكان مِنَ الأجود لو سمّاها العدالةَ الاجتماعية ، وزيّنها في عينيه ، ولكنّه بعد تصبرٍ طويلٍ اشتهى أن يراها حتى في المنام ، فما رأى إلّا الارتجال والتخبّط وأشياءَ أخرى من الخير أنْ لا تُذكر . ولستُ بهذا القول دَعِيّاً ، فهذه بلادُنا موجودة حاضرة لمن أراد أن يعاينَها ، وهذا شعبُنا بَقِيَ منه ما يكفي لاختبار هذا الادّعاء ثمّ الحكمِ عليه بنفي أو إثبات . وكان لا بدَّ لهذه الخيبةِ أن تَقرع أكثرَ ما تقرعُ سَمْعَ رفعت وبصرَه . وذلك لأنَّه وهو على أبواب السلطة كانت نفْسه مكتظّةً بالحماس ، وكان كالمِرجل يَغلي فيه الاستعدادُ والاندفاع ليجعلَ من أفكار الحزب وقيمه واقعاً مجسّداً في أشكال حياة الشعب وأنماطِ حركة البلاد ، ولكنّه عندما صار في رأس السلطة ارتطم بالحقيقة المرّة ، ولم يعد قادراً على نُكران الواقع الكئيب . فهذا فكرُ الحزب الذي تربّى عليه لم يَمتلِك قوّة الإقناع ، ولم يَنفَذ إلى أعماق الحضارة العربية الإسلامية ، بل لامَسها ملامسةً ، ولم يَستحوِذ على فسلفةٍ حيّةٍ مؤثّلة ، بلِ اكتفى بأن يَحلم بها . وهذا الاقتصادُ الذي لا تتّفق

في خِطّة الصيف مع خِطّة الشتاء، ولا يدري احدٌ أين يَصلح تطبيقُ ما يقترحه، هل في الأرض أم في السماء؟ وهذه السياسة التي تتناقلها الرياح، وليس للحزب يدٌ في توجيهها، فإذا هبّت رياحٌ شرقية ساقتْها إلى الشرق، وإذا هَبّتْ اخرى غربية حملتْها إلى الغرب. والشعب يرى كلَّ شيء ويسمع بكل شيء ولا يستطيع أن يقول شيئاً، وعاد وكأنّه غيرُ موجود. ثمّ لماذا وجودُه وها هو الحزب يتكلّم باسمه ويعمل باسمه، وها هي السلطةُ تُكمِلُ ما ينقص الحزب في قوله وعمله؟ ولا عجبَ بعد ذلك إذا رأينا رفعت يقع في الإحباط من وقوفه امام هذه المفاجأة، وأنْ يقوى عنده الإحباط ويفور بقدر ما كان الحماسُ عنده قويًا فائراً من أجلِ تأصيل الحزب وتحصينه. ولا انكر أنَّ له عذراً في ذلك، ففداحةُ المفاجأة أقوى من الصبر عليها، وكما أصابتْه فقد أصابتْ كثيرين غيرَه من جهاز الحزب ومن قيادته، لكنّهم سَكَتوا واستسلَموا لحظِّهم العاثر، فليس لهم ما لرفعت من الشأن في السلطة ولا يملكون ما يملكه من الأثرة والتقريب.

ولستُ هنا اريد أن أُلقيَ درساً في الإحباط، ولكنْ لا أريد ايضاً أن تفوتَنا الإشارة إلى ما له من أثرٍ كبيرٍ على النفس إذا هو أصابها. فلا يكاد المرء يشعر معه أنَّ احداً من الناس له الحقّ أن يدنوَ منه أو أن ينال شيئاً من تقديره ومحبّته. ويظلّ يُعايش الضعف والكآبة والقلقَ حتى ينالَ من الثروة أو من الجاه ما يُعوِّض عليه ما كان قد فقَدَه من أملٍ اركسَه وسبَّبَ له هذا الإحباط. وإنْ لم يُصِب شيئاً من ثروةٍ أو جاه، فلم يبقَ له آنذاك إلّا أن يزداد لديه الإحباطُ حتى يسيطرَ عليه ويُهلكَه، أو أنْ يَختلق الفرصةَ، ليقوم بعملٍ خارقٍ لا يقوى على فعله إلّا الأبطال. وكثيراً ما خَلَقَ الإحباط أبطالاً وشعوباً وأعطى إبداعاً في العلم والحضارة. وكثيراً ما خَنَق أبطالاً

في مهودهم ، فلم يُقدَّر لبطولاتهم أن تُولَد وأن تحيا ، وأزهقَ شعوباً وهي في طريقها إلى الولادة .

ومهما حاولنا أن نُخفيَ هذا الإحباط الذي مُنِيَ به رفعت من اهتزاز الحزب وتضعضعه أمام تقدُّم الحضارة ، فإنَّنا لا نقوى على إخفائه . ثمَّ لماذا إخفاؤه وليس فيه ، على حرِّه وبرده ، ما يَشين رفعت ويُزري به عند مَنْ ينظر بعينين إلى الأحداث وأسبابها من الجهات جميعها ، وليس بعينٍ واحدة من جهةٍ واحدة . فلا نسمح لأنفسنا أن نُنكر أنَّ الإحباط أذاع في نفس رفعت شيئاً من القنوط ، ولوَّنها بقليلٍ من الغيظ ، وزاد في ميله إلى العنف والحدّة . حتى بدا وكأنَّه لا يسمع بردٍّ أو حوارٍ حين يتكلّم ، بل كأنَّه يريد أن يُهاجم ويَبطش إذا عَقَدَ صِلةً وأقام مواجهةً مع أفرادٍ أو مع جماعات . وكان إلى جانب ذلك يَكبت في أعماقه موْجةً كبيرةً من الحزن لِما ألقى عليه الإحباط من ظلالٍ قاتمة ورسم فيه من أشباحٍ باهتة . وكذلك لا نسمح لأنفسنا أن نُنكرَ أيضاً ، أنَّ الإحباط تحوّلَ في نفسِ رفعت إلى عنصرٍ ، يُوَلِّد في كلّ سانحةٍ وبارحة إشعاعاً من التفكير في ضرورة التغيير والتجديد ، ويحرّضه على القيام بعملٍ يبدِّد له من أفقه هذه الأشباح ، وهل تُرى يكون هذا التفكير ينصبُّ على غير الحزب الذي سبَّبَ له هذا الإحباط؟ وإنَّه لَيَعلم حقًّا أنَّه لم يكن في البدء قادراً على تغيير حزبِ البعث دفعةً واحدة وإحلالِ الحزب الذي يرغب به محلَّه . وأنَّه لا بدَّ له في الخطوة الأولى من وضع الحزب في صورةٍ شاحبة ثم في صورة أخرى أكثرَ شحوباً ، إلى أن يُحدث التغييرَ وكأنَّه حَدَثَ من تلقاء نفسه ، فلا يخلقُ فتنةً ولا يقودُ إلى تصدّع . ومن حقّ الرجل علينا أن نقول ، إنَّ الإحباط لم يُوهن عنده عزيمته ولا هذه الطاقةَ الهائلة التي يختزنها من العملِ والأمل ، فهو يَدأبُ الليلَ والنهار على شحن النفوس وإعدادها ، وعلى تجميع

الأسباب وترويضها حتى تستجيبَ له في الوقت الذي يريد أن تستجيب .

وليس لدينا ما نقوله في ماهيّة التغيير والتجديد ، ولا نريد أن نحدسَ به حَدْساً ونُخمِّنَه تخميناً . ولكنّنا نمتلك القدرةَ على القول وعلى الاطمئنان إلى صوابه ، بأنّ رفعت لا يستطيع أن ينخلع من روح حزب البعث وأن يُفارقها مفارقةً لا عودةَ له إليها ، وإنْ هو نجح في التغيير وأفلح في التجديد . ولا سببَ له في ذلك ولا برهانَ عليه إلّا ما يَحمل في نفسه من إيمانٍ وطيدٍ بالحضارة العربية الإسلامية المؤثّلة التي حملتْ أمّتُنا عنوانها وقيادتها ، وشَهِد العالمُ كلُّه لها بالتميُّز والرفعة والخصوبة والقوّة على الاستمرار في العطاء من جديد . فهو يَعشَق هذه الحضارة ويتفنّن في عشقها ، وهو يُحبّ شعبَه وأمّتَه حبًّا بلغ فيه حدَّ اللهفة . وهو أينما وُجِدَ وكيفما تحدَّث ، لا يحمل إلّا الاعتدادَ بأمّته والاعتزازَ بحضارتها ، وليس عنده الاستعدادُ والميلُ إلى تشويه تُراثها أو تزويرِ وجهها أو تغييرِ معناها . وروحُه جزءٌ مقطوع من روحها ، وجسدُه من جسدها ، ومصيره مربوطٌ إلى مصيرها ، لا انفصال ولا فكاك عنها ، مهما خيَّم عليه أعداؤه بالمزاعم والأراجيف .

وليس هنالك من حَرَجٍ على رفعت أو غيرِه من قيادة الحزب أو وجهاء السلطة ، إذا لمسَ في نفسه قدرةً على التغيير في صورة الحزب أو التجديد في رسومه وهندسته وملامحه ، أنْ يَصنَع هذا التغيير وأن يبادر إليه ، بل نقول إنّ من حقّه ومن واجبه أنْ يسعى إلى ذلك ، وأن لا يتأخّر أحدٌ في الحزب والسلطة عنِ الاهتمام بصنيعه والتطلّع إلى مبادرته والتعاونِ معَه في كلّ ما يَرفِد الحزبَ بالإخصاب والقوّة والتجديد . وإذا نحن وجدْنا أنفسنا نبتهج بالتسابق إلى التغيير والتجديد ، فلأنّ مِنْ طبيعة الأشياء أن لا تبقى

جامدةً على شكلٍ واحدٍ في أزمانٍ مختلفة، وإذا هي بقيتْ جامدة، فأين هو التطوّر وكيف يكون؟ والتغيير الذي يتقبله حزب البعث بقبولٍ حَسَنٍ، هو إعادة النظر في الخطط الاقتصادية التي اقترحها الحزب منذ استلامه السلطة، والتي لم تُصِبْ إلّا حظًّا يسيراً من النجاح، أو من إعادة رسوم هندستها من جديد. ثمّ النظرُ إلى الأنماط السياسية التي عرفها الحزب واعتمدها في مراحل تحرّكه ومواقفه، وإخضاعُها إلى المرونة وإلى قبول التطوّر والحيويّة، وأنْ تتخلّصَ من هذا الجفاف الذي سيجعل من صلابتها استعداداً لتقبُّل الكَسْر وليس إلى المقاومة والصمود. فالتغيير في خطط الاقتصاد والوان السياسة إذاً هو ضرورةٌ ملّحة، لا يجوز لحزبٍ أو لسلطة أو لأيّ لونٍ من الوان التنظيم والتخطيط أن يتغافل عنه أو أن يُهمله، وبدونه لا يكون هنالك تطوّرٌ ولا مرونة ولا بقاء لواحدٍ منها في صورة لائقةٍ مرغوبة. بل إنّنا نذهب إلى أبعدِ من ذلك، كما نظنّ أن رفعت يذهب إليه، ونقول إنّ التغيير ينبغي أن يَلحَقَ روحَ حزب البعث، بمعنى أنْ يُصيب توسعةً في مفهومه وتمدّداً في روحه، وليس بمعنى أنْ ينالَه تحويرٌ أو أن يذهب به تبديل، فيعود وكأنّه غيرُ موجود أو يصير منسوخاً. فهذا ما لا تستطيع قدرةٌ على الأرض، مهما تنامتْ واستطالت أن تقوم به، أو أن تجنيَ إلّا الذلّ والنكوص والتقهقر إذا هي سَعَتْ إليه أو حاولت أن تقدم عليه. وما ذلك إلّا لأنّ روح حزب البعث هي حضارةُ الأمة العربية الإسلامية، وهي التُراث كلّه، وهي القرآن العزيز، وما بُني حولَه من قلاع وحصون، وهي العلوم والآداب والوانُ الفكر والفنّ والتربية. ولكنْ اين مَنْ يَفطنُ لذلك، وأين مَنْ يدري به ويُصدّقه؟

ولعلّه قد حان الآنَ موعدُ الحديث عن المحرّك الأكبر الذي قَدَحَ في نفس رفعت الشرارة الأولى من لهيب التغيير، وهو الذي جعلها

تتنامى إلى ان اشتعلت ، وهو الذي أحرقها وجلس يبكي عليها .
وهل هذا السبب الأكبر إلّا اخوه الأكبر حافظ ؟ وإذا نحن آثرنا أنْ نفرد له الفصل الأخير منَ هذا الكتاب ، فلأنّه سببٌ مباشر ، يحتاج على حضوره وظهوره وقوّته إلى تشريقٍ وتغريبٍ في التحليل حتى يتّضحَ دورُه ويَبين ، ولا لَبْسَ فيه ولا إبهام . ولأنّ حجمَه يعود أكثر بروزاً ، عندما يكون محلُّه من الحديث بعد الأسباب الأخرى التي هي غيرُ مباشرة ، ولا هي مرئيّة إلّا للحسّ الناقد البصير .

وإنّه لا بدَّ أن يَثِبَ امامنَا هذا السؤال ، وهو كيف يكون أخوه الأكبر حافظ سبباً وباعثاً على التغيير ، وماذا يعني هذا القول ؟ وماذا تُرى نعني به إلّا هذه الأفعالَ التي فعلها اخوه منذ أنِ استأثر بالسلطة وهذه الأحداثَ التي شاركَ ، طوعاً او كُرهاً ، في تدبيرها وترتيبِ وقوعها جزءاً فجزءاً وحَدَثاً فحدثاً في داخل البلاد وخارجِها . ولستُ بحاجة إلى التذكير بموقع رفعت من السلطة التي هي أخوه الأكبر ودورِه عندها وعلاقته بها . فقد بلَغ منها مبلغاً كاد أن يحسبَه الناس أنّه المالكُ لكلّ شيء والقائمُ على كلّ أمرٍ فيها . وقد سَمح له هذا الموقع أن يعرف الأحداث قبل أن تحدث ، وأن ينفعل بها انفعالاً مؤثّراً ، ويأخذَ دوره فيها دورَ السائق لها أكثرَ من دور المَسوق بها في أكثر الأحيان . وسَمح له أن يطّلع على خفايا التحرّك في السياسة وكيف ترتسم وتجري . ثم سمح له أن يكتشف ما يجول في خاطر اخيه الأكبر حافظ من افكار وصور ، وما ينوي أن يفعله في يومه وفي غده . وأخيراً سمح له ان يمتلك القدرة على تخمين ما يمكن ان يفكّر به اخوه الأكبر تخميناً يَحمل من الصواب اكثر ممّا يحمل من الخطأ . ونعني بهذا القول الأخير ، أنَّ اخاه الأكبر كان لا يُلقي إليه بأسراره كلّها . وكان يُحاذِر أنْ يطلعه على كلّ شيء ، لأمرٍ في نفسه لا نعلمه ولا يَهمّنا أن نعلمه . لكنّ رفعت ، بعد مِراسٍ

ودِربةٍ ، كان يَحدس به ، وكان يُصيب ، ثمّ كان يسكت ويتألّم .
وكان يُكبِرُ في اخيه همّته ونشاطه وبُعدَ نظره ، ويعتبره أشدّ الاعتبار ولكنّه كان يُنكر منه شدّة حَذَره في كلّ حركة يتحرّكها ، ولا يُفسّر له ذلك بأنّه حكمةٌ واناة ، بقدر ما يفسّره بأنّه نوعٌ من اصطناع التمهُّل لكسب الوقت واستعادة الثقة الضائعة ، أو ربّما لإيهام الناس ، بأنّ السلطة قويّةٌ ساهرة على إذاعة الأمن واستتبابه ، وكان يُهيب به أن يجعل مكانَ حذره هذا رباطاً وثيقاً بينه وبين الشعب ، عن طريق استحداث مكاسبَ اقتصاديةٍ جديدة ، إنْ بتسهيل إيرادٍ وتصدير أو بتشجيع الخِبرات الوطنية الخاصّة التي يسمّونها القطاعَ الخاص وتنميةِ مواهبه وإشراكِه في تسيير اقتصاد البلاد وإعمارها ، أو إنشاءِ مصانعَ تقوم بتغطية حاجات الشعب ، وتستوعبُ عدداً غيرَ قليل من العاملين الذين لا عمل لهم إلّا الانتظارُ والتأرجح بين الهموم والمشكلات ، أو باقتراح وسائلَ أخرى ، يستطيع الشعب أن يجد فيها مُتَنَفَّساً ، فيوسع على نفسه وعلى الحزب والسلطة ، وتأخذ الثقة مكانها الصحيح ، وتستريح ممّا تعاني من القلق الذي توحي به خطابات الحزب وبياناته والذي يزرعه في النفوس مظهرُ السلطة وسلوكها .
وكان لا يُحبّ لأخيه الأكبر أن يتدخّل في الكبير والصغير من الأمور ، ويريد له أن يبقى كبيراً ، يحتضن المسؤولية كلّها ، ويجمعُها إليه من اطرافها وأن يَترك صغار الأمور للصغار الذين عنده ، يتعلّمون فيها صُنعَ الثقة بأنفسهم ، ويتدرّبون على حمل الأعباء ، ويشعرون بأنهم يملكون شيئاً في هذا الوطن . وهو عندما يتدخّل بكلّ شيء ، فإنّه يَزرع الريبة بينهم والبَلادة ، ويُعوّدهم على الكسل والتراخي ، ويَحِسّون أنهم لا وزن لهم ولا اعتبار ، فيتصرّفون على هواهم ، ويأتون بأعمالٍ مثلِهم ، لا وزن لها ولا

..تبار . ولن نستعجل انفسنا لاستدعاء الأمثلة حتى تَشهدَ على صدقِ ما حكيناه ، فهي ستُطلّ بعد مسافةٍ من الحديث ، بدون استدعاء ولا اجتلاب .

وكان رفعت يُفضي بما في نفسه من آراء ومقترحات لأخيه الأكبر ، ويبثّ ما عنده من المخاوف والرجاءات في الحاضر والمستقبل . وكان يُحِسّ به انَّه لا يريد أن يختلفَ معه في شيء ، وأنْ لا يكون بينهما تفاوتٌ في نظرة أو تقدير . وبعبارة أخرى ، لم يكنِ الأخ الأكبر يرغب أن يرى أخاه يَشُبُّ عن الطوق ، ويسعى ليَخرج من تحت ظلّه ويكونَ له ظلّه الخاصّ به . فهو يريد له أن يبقى ريشةً في جناحه ، لا قيمة لها دون الجناح . ولكن ما حيلةُ رفعت في الأمر ؟ وماذا يفعل بهذا الواقع الذي يعانيه ولا بدَّ له من أن يعايشه ؟ فليس صحيحاً أنّه لا يزال صغيراً ، وليس حقًّا أن تظلّ آراؤه مدفونةً في صدره ، أو تصيرَ مطرودةً إذا هي صَرَّحتْ عن نفسها وخرجتْ . ولا بدَّ من أن يكون له موقعُه الذي يَجمع فيه بين الحفاظ على وُدّ أخيه الأكبر وثقته ، وعلى الحوار مع الواقع الذي شهد أخوه بعضَه وغاب عن بعضِه الآخر ، ومتابعةِ ما يطرأ عليه من تحوّل وتطوّر ، وما يتولّد فيه من أمورٍ ، قد لا يستطيع أخوه أن يُلِمَّ بأطرافها وأن ينفذ إلى دقائقها . لكنّه آثر أن يهتمّ بالواقع وأن يَطمئِنَّ إلى قوّة الرباط معه ، لاعتقاده بأنَّ رباطَه بأخيه لن يَضعف ، وإذا ضَعُفَ فإنَّ آصرة القربى ستُعيده إلى القوّة كما كان . أمّا الواقع فلا يخضع إلّا للتماسك والقوّة ، ولا ينصاع إلّا لِمَنْ ينظر إليه بدِراية واهتمام ، ويُروّض طباعَه ويَعرف متى يسلس قيادُه ومتى يَجمح ، وهو لا يرحم الضعيف ، فلا بدَّ من إعداد العدّة ومواجهته بعزيمةٍ وصرامة .

ونحن لا نشكّ بأنَّ الاختلافات التي كانت تَنشب بينه وبين

اخيه الأكبر حافظ، ليس فقط من أجل اقتسام السلطة وتوزيع الحصص من النفوذ، وليس لتعبئة الأفق بالتمويه والتعمية، حتى لا يلتفتَ الشعب ويسترقَّ شيئاً من خارطةِ التحرك السياسي كما يقولون. وإنّما كانت ترجع في القسم الأكبر منها إلى اختيار أسلوب الحوار مع الواقع. فنحن، على رأي رفعت، في بلادٍ، وأمام شعب، ولنا السلطة، فكيف نعمل لتنمية البلاد، ولترضية الشعب، وللحفاظ على السلطة؟ وإذا أردنا أن نبتعد أيضاً في التمعُّن في مسألةِ الاختلافات أكثر من ذلك، فإنّنا نراها في أوّلها وآخرها وفي مجملها وتفصيلها تعود إلى الصراع على التوفيق بين هذه المسائل الثلاث، فالاستمرارُ في السلطة بالقوّة أو بالتمويه والخدعة لا يقود البلاد إلى تنمية ولا يقرّب الشعب أو يهمُّ بتقريبه وإرضائه. وكذلك التنمية في البلاد، فإنّها لا تأتي إلّا مِن تعاون الشعب والسلطة معاً وعلى اسلوبٍ يمكن أن نسمّيَه فنَّ السياسة، تأخذ فيه السلطة دورها في التوجيه والقيادة كما يأخذ فيه الشعب دوره بالاستجابة والتلبية.

لذلك نرى أنَّه كان من الطبيعي أن يختلف رفعت مع أخيه الأكبر على أسلوب العمل وعلى أهداف العمل أيضاً، وأن يَقوى هذا الاختلاف ويشتدّ إلى حدّ المجابهة والصراع ثمّ الانفجار. ولم ننتظر أن يكون بينهما غيرُ ذلك، وقد أخذ الاهتزازُ يَعصف بهذه الأقانيم الثلاثة، وهي: تنميةُ البلاد، وترضيةُ الشعب، والحفاظُ على السلطة؟ وأخذَ الخطر بغزوها مرّةً بعد مرّة، وفي كلّ مرةٍ كان لا ينقشع إلّا بالبطش والارهاب والقوّة. ممّا جعلَ الخطرَ يعود بشكل آخر أشدَّ تجهُّماً وكلوحاً ويزيدُ من غليان النقمة في النفوس.

وإذا بدا أنَّ التأزّم ظلَّ في الشعب يتموّج بهدوء، ولعلّه أقوى ما يكون إذا بدا هادئاً، فما ذلك إلّا لأنّه يَحسب حساباً للقمع الذي عَرَفَ طعمه وذاق من ويلاته، ولكي يحافظ على هدوء التأزّم فيه،

فهو خيرُ ملجأٍ له ريثما يَحين موعد الساعة التي ينتظرها . وعندها يَخرج كلُ شيء من ملجأ الهدوء ليُمارس حقَّه في التعبير بالأسلوب الذي يريد . وعندها لن تنفع الأقوال الغاضبة من مثل : انا الذي آويتك وربّيتك وعلّمتك ، انا الذي صنعتك واوصلتك . وهي الأجوبة التي تعوّد رفعت ان يُرشَقَ بها من اخيه الأكبر حافظ ، كلّما أوى إليه وحدَّثه في شأنٍ من شؤون البلاد او السلطة ، يريد ان يدفع خطأ او يطردَ غائلةً او يردَّ خطراً .

ونريد الآن أن نأويَ إلى أصعب المسائل واكثرها بروزاً في حياتنا وفي سير تقدّمنا ، وأشدُّها تأثيراً على نفوسنا وسلوكنا وقيَمِنا ، وذلك لنمهرَها بالتعريف والحديث ، وربّما اتّفق هذا الذي سنقوله مع ما يذهب إليه رفعت من رأي وقول ، وربّما اختلف معه . فنحن لا نقصد في الحديث على هذه المسائل أن نَصْدُرَ عمّا عنده من آراء فيها ، ولا أن نجعلها محصورةً في مفاهيمه لها ، وإنّما نقصد ان نُصدِر فيها عن فلسفةٍ عامّة ، لا نشكّ في أنّها ستقع موقعَ الرضى والقبول من كثيرٍ من الناس ومنهم رفعت ، وستكون موضع تساؤل مَشوق ومرغوب ، ومطرحَ جدالٍ يزداد خصوبةً بقدر ما يزداد حدّةً وحرارة ، ولعلَّ الناسَ يجدون في جملةِ ما يجدون فيها تلك الأسباب الخفيّة غيرَ المباشرة التي سوّغتْ لرفعت حركتَه نحو التجديد ، وكأنّنا بذلك قد ذكرناها ونحن لا نُحِسُّ بأنّنا ذكرناها .

ولا ندري ، إذا كنّا نُفلح في الإقناع بأنَّ التجديد في هذه المسائل سيظلُّ مطرحَ نظرٍ وعناية ، وسيبقى له شأنُه وقيمتُه بأيّ اسلوب خَرَجَ وفي أيّ اتّجاه مشى . وإذاً فليس هو بالضرورة تجديداً يحمل رايته رفعت في مواجهةِ تقليدٍ يحمل رايته اخوه الأكبر . وإنّما هو فكرٌ أحَبَّ ان يَتحرّك وأن يَصدُرَ عن آراءٍ ونظريّات بحريّة ، مِنْ غير انْ نقصد فيه إلى انْ نكافىء رفعت وان نُجزيَه الجزاء الأوفى ،

إذا وُجد أنّه يميل إلى هذا الفكر بعض الميل ، ولا أن نغضّ من شأن اخيه الأكبر حافظ وأن نوجعه في النقد ، إذا وُجِدَ فيه ما يُعرّضه للنقد . ولا أظنّ أنّ رجلاً مثلَه استطاع أن ينوء بأعباء السلطة هذه المدةَ الطويلة ، يَضيق عن حَملِ النقد الذي لا أرضى له بأيّة صورةٍ خرج ، أن يَحمِل روحاً أخرى غيرَ روحِ النقد ، ليس في هذا المكان وحده ، وإنّما مِنَ الكلمة الأولى في هذا الكتاب إلى آخر كلمةٍ فيه .

أ ـ مفهوم السلطة

بلى والله! إنّه لَمُمتع هذا الكتاب الذي يسمّونه ، الجوهرة الطالقانية . وهو مجموعةٌ من المجالس ، يروي فيها أبو الطاهر سابور بن القاسم الزاهد قصَّةَ كشف المعرفة ، ويحكي كيف يتدرّج الإنسان في الفهم ويترقّى من مرحلةٍ إلى مرحلة في الانفتاح والتجديد . فلا يكاد المرء ينتهي من قراءة مجلس حتى يَخفَّ إلى قراءة المجلس الذي يَليه ، لكي لا يُفارق هذه النشوة التي يُغرِقه فيها المحدّث الراوية . ولا غَروَ أنّه كان ماهراً في اختيار هذا الأسلوب الذي اعتمدَ فيه سرد الحكايات الملأى بالمفاجآت ، ونقل الأخبار والأسفار التي هي العجائبُ بعينها والغرائبُ نفسُها . وفي المجلس الثالث من مجالسه ، يروي لنا أنّ ذلك الشابَّ دُهِشَ لسَمَاع محدّثِه وهو يقول له : إنَّ في هذا الوادي المُسْبعِ سباعاً ، يتجوّل الرعاةُ بينها ومعهم مواشيهم ، ويقترب منها العارفون ولا تمسّهم بأذىً ، بل إنّهم يسخّرونها في أعمالٍ لهم ، فتُطيعهم وتتنزل تحت رغباتهم . ولما سأله الشابُّ عن سبب هذه الظاهرة العجيبة ، أجابه المحدّث : ليس لها من سبب إلّا **المعرفةُ والايمانُ والخوفُ من الرحمن** . ثم

سأله : أيُّ شيء يدلُ على ذلك؟ فأجابه المحدِّث : يدلّ عليه قولُ مولانا منه السلام (يريد جعفرَ الصادق) : «من خافَ اللهَ خافَ منه كلُ شيء، ومن لم يَخَفِ اللهَ خافَ من كلّ شيء».

وفي كتاب الفتوحات المكيّة، وهو من أشهر وأنصعِ ما عَرفَه تراثُنا من الكتب، يروي لنا مؤلّفه الشيخُ الأكبر محيي الدين بنُ عربي، أنَّه قبل أن تنعقدَ الصِلةُ بينه وبين المعرفة وقبل أن يُلاقيَ الطريق إلى الله، كان مولَعاً بالخروج إلى الصيد، وكان كلّما خرجَ إلى الجبال أو الغابات، كانت الطيور تبتعد عنه والوحوشُ تنفرُ منه. لكأنَّها كانت تُحسّ وتعلم أنَّه يسعى وراءها ليصير إلى نصيبه منها. أمّا بعدَ أنِ انعقد قلبُه بالمعرفة وتمكّن منها، ظلَّ أيضاً يخرج إلى الجبال والغابات ولكن للخلوة والتحنُّث، وليس للصيد والقنص. وما أشدَّ دهشتَه هذه المرة، عندما رأى أن الطيورَ تأنَس به والوحوشَ تقترب منه وتألَفه، وأنَّه يَمرُّ بجانب السبع ويُلامسه وكأنَّه يُلامس عجلاً أو ماشيةً. وفي كتاب حِليةِ الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، يروون أن إبراهيمَ بنَ الأدهم تَكلَّمَ مع السبع، وطلب إليه أن يبتعد عن الطريق ويتركَها للمارّة.

وهذه الأخبار، صدقتْ أم لم تَصدِق، هي مُتعةٌ لنا نستمتع بها ونأخذ منها ما له صِلةٌ بحديثنا وما يزيده إيضاحاً وإشراقاً. وهو أنَّ التخاطبَ موجودٌ بين الإنسان وبين الحيوان من غيرِ لغة مصنوعة، وأنّ التفاهمَ بينهما موجودٌ من دون شرحٍ ولا تفسير. وأنَّ الإنسان هو الذي ينبغي أن يسعى إلى خلقِ هذه الوسيلة التي تهوّن عليه التخاطبَ والتفاهمَ، وأنّ الحيوانَ هو ذلك الطرف الآخر الذي يملك الاستعداد للاستجابة والانصياع. فهو عندما يستعمل آلة الصيد، فإنَّ الحيوان سيفرّ منه أو سيهجُم عليه من غير لُغةٍ ولا شرحٍ ولا تفسير. ولماذا اللغة والتفسير، وهو مزوّد بإحساس

يكشف له ما يحتاج إليه في تقويم حياته وعيشه، وبه يُميّز بين حالة السلم وبين حالة الحرب عند الإنسان؟

والآن، أليس من حقّنا أن نعجبَ وندهل ونقول: إذا كان الحيوان عنده الاستعداد لكي يتفاهم مع الإنسان، فكيف إذن بالإنسان نفسه الذي هو الذروة بين المخلوقات على هذه الأرض والذي هو مزوّد بقدراتٍ هائلة وطاقات خلّاقة، لا يهتدي إلى تفتيح قدراته واستخدام طاقاته في التفاهم مع أخيه الإنسان والتعاقد على الإلفة والمحبّة بينه وبينه؟. ثم لماذا لا يعرف الإنسان قيمةَ ما عنده، فلا يعود يُفرّط به ويُضيّعه، ويصير بعد ضياعه أدنى من مرتبة الحيوان؟ وإذا كان الإنسان يملك الوسائل التي تمكّنه من استجماع هذه العناصر الثلاثة في شخصيّته وهي: المعرفة، والايمان، والخوف من الرحمن، فلماذا يتقاعس عن القيام بذلك؟ وهو بهذه العناصر وحدَها استحقّ أن يُسمّى إنساناً، وبدونها لا يملك من الإنسان إلّا صورتَه، ويملك من الحيوان معناه كلَّه.

وينبغي أن لا نتباطأ في القول، بعد أن وصلنا إلى هنا، بأنّ السلطة، ليست هي آلةً من الكلمات يستعملها اللسان، ولا هي عدّة معدودةٌ من الوسائل المتنوّعة الأُخرى، كأنْ يكون لليد منها وسيلة، وللقَدَم وسيلة، وللعين وسيلة، وإنما هي **طاقةٌ روحيةٌ**، محلُّها الإنسان كلُّه، وهي للإنسان كلّه دون تمييز ولا تخصيص، من غير أن نَغفَلَ عن قول القرآن المجيد «الله أعلم حيث يجعل رسالته». وليس يؤذي هذه الطاقةَ أن يكون لها وجودٌ في غير الإنسان، فهي بمعناها الواسع المطلق ليست دينيّةً محصورةً على رجال الشعائر والفقه والطقوس في سائر الملل والنحل المعروفة المنتشرة، وليس بالضرورة أنَّ كلَّ معنىً روحيًا هو معنىً دينيّ، إذا اكتفينا بما هو شائع مألوف عند الناس لكلمة الدين. فما بقي أن نعني بقولنا طاقة

روحية . إلا أنَّها مجموعةٌ من القيم التي من شأنها أن تأخذ في النفس اشكالاً وصوراً للحياة على هذه الأرض ، تستطيع بها أن تكفل التفوّقَ ثم الخلودَ للكائن البشري الذي هو معنيٌّ بهذه الأشكال والصور . ولو ذهبنا نلتمس مثالاً لهذه القيم ، ينعكس عليه معناها ، ويتَّضح به مفهومها ، فربّما لا نجد افضلَ من جواب المحدِّث لصاحبه الشاب ، أعني هذه العناصرَ الثلاثة التي هي : المعرفة ، والإيمان ، والخوف من الرحمن .

فلم يعد خافياً الآن ، أنَّ القيمة هي المفهوم الذي به يكون العمل ولأجله يكون العمل . فالإنسان الذي يقرأ الكتاب ، يريد من وراء قراءته ان يُوسّع اطّلاعه ويزيدَ في مقدار فهمه . فعمل القراءة إذاً ، لولا توسيعُ الاطّلاع وزيادةُ الفهم ، لم يَقُمْ به الإنسان القارىء . ولعلّنا قادرون أن نجدَ في هذه العناصر الثلاثة ، الأمّهاتِ الأولى التي تتولّد منها القيم كلُّها . فلولا المعرفةُ بالأشياء واصولِها المادية والروحية ، ولولا الفكرُ والعلمُ والفهم ، لا يمكن للحياة أن تُوجَد وتستمرّ ، وإذا فرضنا انَّها موجودة ، فإنّها ستكون بدون معنى وغيرَ ذاتِ قيمة . ولولا الإيمانُ ، لكانت المعرفةُ مثلَ السلاح الذي يوجّه نفسَه ويعمل بنفسه ، دون أن يكون عليه قائم يقوم بتوجيهه ، ورقيبٌ يراقب عملَه . وأمَّا الخوفُ من الرحمن ، فيعني الاعتراف بوجود المسؤولية في العمل والالتزامَ بها . وهذا المعنى لا يختلف عليه مَن يعتقد بوجود الرحمن ومَن يُنكر وجودَه . وينفرد الذين يعتقدون بوجود الرحمن في القول ، بأنَّهم مسؤولون أمامَ رقيب آخر هو أعلى من ضمائرهم وأرفعُ من القانون ، يكون له وحدَه الحكم والتقدير .

ونستطيع أن نقولَ بعبارةٍ أخرى اكثرَ اتّضاحاً واكثرَ قرباً من مَنطق اليوم ، إنّ المعرفة هي : ماذا نريد ؟ وهي تشتمل على الأقوال

والأعمال والسلوك. وإنّ الإيمان هو: لماذا نريد؟ وكيف نريد؟ وهي الغايةُ التي لأجلها يكون القولُ ويسعى العملُ ويتجّه السلوك، ثم اختيارُ الشكلِ الأدقّ في التعبير والوجه الأنقى في المظهر. ولا نريد ان نفهمَ من الخوف معناه الشائع المألوف، بل نريد أن نفهمَ أنَّه إقدامُنا على العمل واعترافُنا بما نعمل وارتباطُ مصيرنا به. وهو يدخل في سؤالنا: لماذا نريد؟

وكما نشترط على من يتولّى شؤون السلطة ان يستحوذَ على هذه العناصر الثلاثة وانّه بدون امتلاكها لا يستحقّ أن يكون له نصيبٌ من السلطة وليس له فيها محلّ، فإنّنا نشترط كذلك على الطرف الآخر الذي هو المجتمع، ان يكون عنده استعداد لاستقبال ما يَرفِده به القائمون على السلطة من إيحاءٍ ومن اقوالٍ وأعمال. ثم ان يكون استقبالُه لها استقبالَ المُنفعِل بها المُتأثِّر منها، وان يعرفَ كيف يتّخذُ امامَها موقفَه بالقبول أو بالرفض او التعديل. وأن يكونَ شأنُه شأنَ الآلة الصمّاء التي تستجيب لمحرّكها بالحركة وتُطاوع إرادتَه وهي لا إرادة لها معه.

ولكي لا نُتَّهَم بأنّنا أسرفنا إسرافاً كبيراً، وألححْنا في المبالغة على هذه العناصر الثلاثة التي هي أُمّهاتُ القيم في تكوين رجال السلطة وإعدادهم، فإنّنا نقول: نحن لا نعمل مجتمعاً إنسانيًا في الخيال، ولا نؤلّف له سلطةً من الأوهام لتقوم بإدارته، ولم نَزِدْ على ان قلنا في السلطة هذا التعريف الحقّ الذي لا نعتقد بباطلٍ فيه، ووضعناها في موضعها الصحيح الذي لا خطأ فيه ولا خلل ولا اضطراب. وبقدْر ما يقترب الذين يرغبون بأن يتولَّوا السلطة، من تعريفنا لها ومن موضعها الصحيح الذي لا خطأ فيه ولا خلل ولا اضطراب، بقدْر ما ينالون حظًا من الفلاح في سلطتهم ومن النجاح والتوفيق في حمل مسؤولياتها والنهوضِ بأعبائها. وبقدْر ما

يبتعدون عن التعريف السليم والموضع الصحيح بقدْر ما يتعثَّرون في سيرهم ويَكْبون في خطوهم.

ثم نقول ايضاً لمن سيتّهموننا بالإسراف في جعل الطاقة الروحية نبعةَ السلطة وعقلَها المدبّر وحصنَها الحصين عند الذين يرغبون انْ يمارسوا أعمالَ السلطة ويقوموا بدور الحاكم المتنفِّذ، رويداً رويداً في الاتهام، فلا نكاد نجد عصراً يخلو من رجال أشرفوا على نصيبٍ كبير من هذه الطاقة، فَسَعِدوا في حَمل سلطتِهم وأسعدوا غيرَهم، ولم يكونوا بُعَدَاء عن هذا التعريف السليم والموضع الصحيح للطاقة الروحية. وهذا روح الله الموسوي الخميني ليس منَّا ببعيد، وقد شهد له العدوّ مثلَ الصديق او أكثرَ من الصديق، انَّه لم يكن يمتلك المال ولا السلاح والعتاد في معركته الطويلة الكبيرة، وإنّما كان يمتلك طاقةً روحيّةً كبرى، استطاع أن يتفوّق بها على كلّ مالٍ وعلى كلّ سلاحٍ وعَتاد، وأن يمتلك كلَّ شيء في بلاده، ويمتلك الاعتبار كلَّه من الناس في كلّ مكان. وهذا غاندي الذي جاء قبل الخميني بأعوامٍ قليلة، كان ما يملكه في عيون الناس هو نصف ثوب يستر عورته وعصا نحيفة مثلَه يتوكّأ عليها. ولكنّه مَلَكَ العقولَ والقلوبَ بهذه الطاقة الروحية التي كان يحملها في قلبه، وبها استطاع أن يتغلَّب على اكبر قوّةٍ في الدنيا وأخبثِها في عصره وهي انكلترا. بل قهرَ آلتها ووسائل مكرها قهراً، وانتزع منها استقلال بلاده وحقّ شعبه انتزاعاً. وجاء بعده تلميذه جواهر لال نهرو، فكان له من هذه الطاقة حظٌّ محسود عليه. وكان لابنته أنديرا من بعده حظٌّ آخر، لم يبقَ رئيس دولة في زمانها إلّا وغبطها عليه وشهد لها بالتفوّق.

ولست انسى أنَّ صديقي الرئيسَ احمدَ بن بلّه، حدَّثني مرّةً عن عبد الناصر حديثاً، قال في بعضه، إنّه كان يمتلك طاقةً روحيّة

متميّزة ، لم تخفَ يوماً على احدٍ ممّن قابله . وانّه إليها وحدَها تعود هذه الشهرةُ الكبيرةُ التي اخذها وهذا الأثرُ الواسعُ الذي تركه على العرب وعلى العالم كلّه . وكانت الصحفُ الغربية قد اعتادت أن تَصِفَ شخصيةَ عبد الناصر بأنها جذّابة وفيها نوعٌ من السحر الذي يوقظ النخوة عند العرب ، وأنَّ لديه لغزاً لا يهتدي الناسُ إلى حلّه برغم وضوحه . إلى غير ذلك من الأوصاف التي تحومُ كلُها حول هذه الطاقة الروحية التي كانت تُغَطّي عبد الناصر ، والتي كانت تعيش في داخله أيضاً . ولو عدنا إلى صفحات التاريخ نراجعها ، لقرأنا فيها سِيَراً عجيبةً لأشخاصٍ ملأوا حياة الناس بأخبارهم ، رغم بعدهم في الزمن السحيق ، من امثال الإسكندر الأكبر وقيصر وكسرى . ولا تكاد تسأل عنهم أيًا كان في الشرق أو في الغرب إلّا وعنده ذكرٌ عنهم وطَرَفٌ من اخبارهم ، ويحتفظ لهم بأقوالٍ مأثورة ، يردّدها كأنها جزءٌ من الكتاب المقدّس أو آيات من القرآن المجيد .

وهؤلاء وامثالهم يستحقّون ولا ريبَ هذا التبجيلَ واكثرَ منه ، ليس لمآثرهم الخالدة وما قاموا به من فتوحات وبطولات فحسب ، ولكن لأنّهم كانوا يختزنون في بواطنهم طاقاتٍ جبّارةً من النفوذ الروحي . وقد نقل مسكويه في كتاب الحكمة الخالدة ، أنّ سائلاً سأل كسرى العظيم عن رجل السلطة ، وهي المسألةُ التي نحن بصددها ، وقال : أيُ الناس احقُ بالمُلك ؟ فأجاب : أشدُهم محبّةً لإصلاح الناس واعلمُهم بالتدبير . قيل : ثم مَنْ ؟ قال : أشدُهم سلطاناً على هواه واقهرُهم له . وسُئِلَ ايضاً : أيُ هيبةٍ تكون انفعَ للسلطان في سلطانه واعمَّ نفعاً في رعيّته ؟ قال : هيبةُ العدل والنزاهة ، وحسمُ مواقف الأشرار واهلِ الريب . فهل استطاع البشر على كثرةِ ما قالوا أن يتجاوزوا مقولةَ كسرى هذه في تعريف رجل السلطة أو أن يخصّوه بغير ما خصّه به من صنعةٍ مميّزة .

وأظنُّ أنَّه لا يستطيع أولئك الذين يتعرَّفون إلى شارل ديغول، ممَّا كتبه في مذكَّراته ومن أحاديث مَن عاشروه وتعاونوا معه، أن ينكروا أنَّه كان يمتلك حدساً يسمح له بأن يخمِّن ما سيكون غداً في الآفاق من أشباح وألوان، وكان يُصيب في أكثرِ تخمينه وينجح في وصف العلاج واستعمال العدَّة. وإلى أمثاله قصد الشاعر الجاهلي أوسُ بنِ حجر في قوله:

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظَّنَّ   كَأنْ قد رأى وقد سَمِعا

والذين كتبوا عنه من الأقلام الغربية، قالوا إنَّه كان يتمتَّع بمعنويات خارقة تكاد تشبه المعجزة، وإنَّها ولا شكَّ كانت من الأسباب التي مكَّنته من إحياء فرنسا وخلقها من جديد. وليس هنالك من علَّة تحول بيننا وبين الكتَّاب الغربيِّين، من أن نتَّفق في القول وإنِ اختلفنا في التسمية. فنحن نقول طاقةٌ روحيةٌ، وهم يقولون حَدْسٌ، وقدرةٌ معنويةٌ، وتفوّقٌ في المواهب. وهذه كلُّها تأتي من ينبوع واحد وتنتهي إلى مصبٍّ واحد.

وإذا ادَّعى الغرب بأنَّه أفردَ السلطة جانباً وجعلها عِلماً قائماً بنفسه، وأنَّه تخلَّصَ من الأشياء الروحيَّة وطَرَد أشباحَها من أفقه، لأنَّها لم تُعجب ذوقَه في التفسير ولم تُرضِ طموحَه في التحليل. إذا ادَّعى ذلك، فإنَّنا نَلفت نظرَه إلى أنَّه مخدوع في دعواه، وهو يُقِرُّ بها ويُذعن لها وهو لا يعلم، وذلك عندما يقول بالحظ، والمصادفة، والحَدْس، والتوقّع، والمعجزة، وغيرِ ذلك من المصطلحات الكثيرة التي تُعتَبر كلُّها ظلالاً باهتة أو واضحةً للطاقة الروحية. ولعلَّه استطاع أن يَهتديَ إلى أبهر ظلّ لها وألطفِه عندما اتَّخذ لنفسه قوانينَ تنظِّم شؤون الحياة كلَّها كبيرَها وصغيرَها، وأنشأ شرائعَ مدنيَّةً تصون له حقوقه كاملةً وتَحمي حضارته قائمةً إلى أمدٍ طويل. فالقوانين في الغرب هي الصورة الثانية التي تحوّلت

إليها الطاقة الروحية عندما انسلخَتْ من صورتها الأولى ، ولم تفقد معنىً من معانيها وإنْ هي فقدتْ صورةً من صورها . والذي كان يخشى الضميرُ الغربي على نفسِه منه دائماً ، والذي أذاعه عل لسانِ كتّابه ومفكّريه ، هو أن ينتقل القانونُ عنده في يومٍ من الأيام ، إلى صورةٍ جافّة وان تبتعد عنه الطاقةُ الروحية ، ثم يطلبَها بعد فوت الميعاد ، فلا يعودَ قادراً على الوصول إليها ، ولا يهتديَ إلى الطريق . ولستُ أشكُّ بأنَّه اصبح اليومَ في هذه الحالة . وأنَّه سقط في الضُّياع ، وفات الميعادُ ولا أملَ له بالوصول ، وهو ينتظر فاجعتَه الكبرى التي ستحلّ به قريباً .

وإذا كانت بلدانُ الغرب قد رَضيَتْ بالقوانين عِوَضاً عن الطاقة الروحية في مفهوم السلطة ، وإذا وُجدت بلدانٌ في الشرق ، لا يزال بعضها يؤمن بالطاقة الروحية ، وبعضُها يَميل إلى تقليد الغرب في صنيعه ، فما لنا لا نتعجَّل الحديث على السلطة القائمة اليوم في سورية ، لنتبيّن وضعَها من خلال هذه المقدّمة التي عرّفنا فيها السلطة والتي اشتملتْ على مفهومها الحيّ الخالد ، وذكرْنا لها من الأمثلة ما هو واقِع ومجرّبٌ ومشهود ، ثم شوّقنا إلى الواقع الآخَر الذي يأمل ضميرُ البشر يوماً أن يراه قائماً مشهوداً ويعيشَ فيه . وكذلك لنعْرف موضعَها من تاريخنا وموقعها في نظر هذا الشعب النازل عند أمرها والخاضعِ لأحكامها وتصريفها . فأين هو موضع هذه السلطة في بلادنا ؟ وما هي هذه السلطة .

وهما سؤالان ، عَرِقَ الشعبُ كلُّه من التعب وأعياه الجهد ، ولا يزال يدأب ليَظفر بجوابٍ لهما . ولستُ اشكّ في أنَّه عرف الجواب بعد قليل من البحث ، ولكنّه آثر أن لا يتعرّف عليه وأن يتجاهلَه ويتركَه في محلّه دون حِراك ، عندما اطّلع على الحقيقة وعلمَ من أمرها ما علم . ثم استمرَّ يتظاهر بأنّه لا يزال منهمكاً بالبحث عنه ،

وكأنّه، من حيث لا يدري، يعمل بقول الحكيم: «منْ أنكى الأشياءِ لعدوِّك أن لا تُريَه أنّك تتّخذه عدوّاً». ولست أريد أن أفسِدَ على الشعب تظاهرَه في البحث والانهماك لكأنَّ ذلك منه حيلةٌ رأى فيها مَنجاتَه واستراحتَه، فأطارِحُه الحديث بما وقف عليه وبما علِمَه. ولستُ أريد كذلك أن أُفسدَ على السلطة إمعانها في الإختفاء حتى ظُنّ بها أنّها غيرُ موجودة، ولا إسرافَها في الظهور حتى قيل متى تغيب وتستتر؟ فكيف سنصنعُ إذاً لنعلم موضع السلطة؟.

وهلِ الناس على حقٍّ أم على باطل عندما لا يختلفون بأنَّ السلطة كلَّها في بلادنا هو حافظ الأسد كلّه؟ ولكنهم على حقٍّ عندما يختلفون ويعلو بينهم الصياح منَ الاختلاف وهم يَسعَوْن إلى تعيين هذه السلطة وإلى معرفة مكانها. فهل هي في الحزب؟ لقد ذهبوا إلى الحزب فوجدون اطلالاً خَرِبةً ومن حولها عجائزُ شُمْطٌ جلسْنَ يَبكين الأيام الخوالي والزمن الغابر، أيامَ كانت مسكونةً بالخطط المرتجلة مأهولةً بالخطابات اللامعة والبيانات الفاقعة. واطمأنّوا إلى أنَّ الحزب قد انتهى، وأنّه لا ظلَّ له ولا عينَ ولا أثَر. ثم اتّفقوا أن يذهبوا إلى الإسلام، بعد أن تذكّروا بأن الرجل كان قد أرسَل إلى مجلس الشعب في عهده الأول للسلطة، رسالةً يناشده فيها أن يعتمد روحَ الإسلام ومبادئَه مصدراً كبيراً من مصادر التشريع، وبعد أن راوْا تجليلَه لأصحاب السماحة وعنايتَه بالمساجد وتفقُّدَه لها. وعندما اجتمعوا بالإسلام وسألوه عنه، أجابهم بأنّه عَرَفَه من زمانٍ بعيد وأحبُّه، ولكنّه تضايقَ منه وهجره، ولم يأذن له بالدخول إلى منزله، بعد أن رآه يعقدُ يديه في الصلاة وينسى أن يَعقد النيّةَ في القلب، ويطرّزُ المساجد بأقوات الأيتام والأرامل والفقراء، ويبني القصور على جثث الشهداء وعظام الأبرياء. وهكذا انطلق يُعدّد لهم ويشرح حتى غَشِيَهم النوم. ولمّا أفاقوا ودّعوه وهم يعتذرون إليه،

واتَّجهوا إلى الفكر ليسألوه عنه ، بعد ما تذكّروا قوله الذي تضعُه الصحف والألواح غطاءً على وجهها وهو : «لا رقابة على الفكر إلّا رقابة الضمير» . وعندما سألوه ضحك وهزَّ برأسه وقال لهم : جاءني مرَّةً يتودّد إليّ ويسألني زيارتَه ، فأجبته إلى ذلك ، ولكنْ قلت له : «لا أذهب إلّا بعد أن أعلمَ مَنْ عندك في المنزل . فذكر لي أنّ عنده أشباحاً من حزب البعث ، وأشباهاً من الحزب الشيوعي ، وهياكلَ للفقهاء ، وأئمّةِ المساجد ، وخُدّاماً من سَفَلَةِ القوم يخدمون عنده . فاعتذرتُ إليه ، وقلت لا مكان لي بينهم ، ولا اجتماع لي إليهم ولا لقاءَ معهم في مدى حياتي كلِّها ، فإمّا أن تُخلّيَ سبيلي ، وإمّا أن تُخليَ سبيلَهم . فما كان منه إلّا أن آثَرَهم عليَّ ، واحتجَّ لذلك بأنَّهم أسهل ركوباً وأسرع إلى الإجابة والطاعة . ثم سألوه عن هذا الضمير الذي يُراقبه ، فقال : لا أعرفه ولا يعرفني وأغلَبُ الظنّ أنّه غير موجود . وما حاجةُ الضمير إلى مراقبتي وأنا مصفَّدٌ بالأصفاد ، لا أستطيع حراكاً ولا أقوى على النهوض ؟

ونحن مهما بحثنا وأطلنا في البحث ، فإنّنا لن نَعثر على موضع هذه السلطة ، وكأنّها ليس لها وجودٌ في بلادنا . وإذا عثرنا عليها ، فإنّها لن تسمح لنا أن نتعرّف إليها في وجهها الصحيح ، فهي بعيدة عنّا كلَّ البعد وغريبةٌ عنا كلّ الغربة . لكنّها بعد أنِ اهتدَتْ إلى حافظ الأسد ، زعمتْ أنّها أزالتْ ما كان بيننا من بعد ، وحوّلَتِ الغربة إلى أنس وقرابة . ثمّ لماذا لا يكون هو ، وقد جمع في نفسه تلك الشرائط التي تجعل منه لاعباً ماهراً لهذا الدور ؟ ولو أنّها لم تعثر عليه هذه السلطة الخفية لوجدَتْ رجلاً آخَرَ غيرَه ، تُرخيه عليها حجاباً وتَظهر من ورائه . ولماذا يريد الشعب لحافظ الأسد أن يختلف عن غيره من القُوَّام على السلطة في البلدان العربية الأخرى ؟ وفي اختلافه عنهم يتصدّع بنيان الوحدة والتحالف والاتّفاق ، وفي

تشابهه معهم بالدور والأسلوب والأغراض يتوحّدون وهم يحملون راية التضامن والاتّفاق والمحبّة والوئام .

ولولا إيمانه بمثل هذه الوحدة ، لما رضيَ للسلطة أن تبحث عنه وأن تسعى إليه كلّ السعي ، وهي تحمل لهفتها على شفتيْها وتوسّلَها في عينيها وتسأله أن يقبلَها . وليس في هذا الكلام مبالغة ، وليس فيه هزءٌ ولا سخرية ، فقد قال والملأ كلّهم يسمعون أكثر من مرّة ، إنّه زاهدٌ في السلطة ، ولولا حقّ الوطن عليه وحبّه للمسؤولية وحرصُه على مطامح الشعب ، لَما كان له إلى السلطة تطلّعٌ ولَما اعتلق قلبُه بحبّها لحظةً واحدة . وكيف نريد للشعب العربي أن يتوحّدَ من أقصاه في المغرب إلى أقصاه في المشرق ، قبل أن يتوحّد القوّام على السلطات فيه ؟ ولو لم يكن هناك غيْر هذا السبب يدعونا إلى التسليم بما عبّر عنه حافظ الأسد ، لكفى به داعياً ناطقاً وكفى بصاحبه قوّالاً صادقاً .

وإذا كانت الأماني كلُّها مثلَ هذه الأمنية ، فلماذا لا يتمسّك إذاً بالسلطة تَمسُّكَ العاشق الولهان بذكرى حبيبته النائية ؟ ولماذا لا يقبض عليها قبضاً ، يصبح معه قبضُ الروح أهونَ عليه من تركها ؟ وهكذا كان له ذلك ، واستطاع أن ينفرد بالسلطة التي يريدها لنفسه ، وأن يسير في الطريق غير ملتفتٍ لشيء إلّا إذا كان يشدّ من أزْرِ هذه السلطة عنده ، ولا عابىءٍ بأحد ، إلّا إذا شهدَ لسلطته بالحضور ، وانطوى تحت شهيق قدرتها وزفير سطوتها . وقد اعتمد في سيره خُطّةً ، لم يحد عنها منذ وصوله إلى السلطة ولم يُغيّر منها شيئاً . ويقولون إنّ غيمةً نزلت عليه وهي تحمل إليه ورقةً كتبتْ فيها هذه الخطة بلغةٍ غير عربية ، فقرأها وفهمها ، وهي : أن يقول للناس في النهار ما يُرضيهم وأن يعمل في الليل ما يرضيه ، فإنْ هو أخفق في فعله ، فإنّ له في كلامه منجاةً وعذراً عند الناس ، وإنْ هو نجح

فقد حقَّق ما يريد وامنَ شرَّ الناس ، ويهونُ عليه بعد ذلك أرضِيَ الناس من كلامه ام غضبوا . ولست أعجب إذا لم يكن قد خطر في باله مرّةً واحدة ، في خلوته أو مع غيره ، أن يُلقي على نفسِه مثلَ هذه الأسئلة : ماذا افعل بالسلطة ؟ وكيف ينبغي أن أفعل بها ؟ ولماذا أنا في السلطة ؟ نعم ليس عجيباً أن لا يُعنى بها ، إلّا إذا كانت كلّها تنتهي إلى الجواب على هذا السؤال الذي لا يفارق خاطره ولا يزايل ذهنه وهو كيف أحافظ على السلطة ؟

أنْ انفردَ بالسلطة وأن أنقطع إليها وحدَها . هذا هو المفهومُ الأوّل والأخير للسلطة عند حافظ الأسد وهو الهدف الذي انتهى إليه . ومَنْ كان هذا مفهومه وهذا همُّه وهدفه ، فهو للسلطة كلُّه ، ولكنْ ليس له من السلطة شيء ، لأنَّ السلطة هي عملٌ وليست زمناً . والسلطة هي رجولة وبطولة ولكنْ أمام الأقوياء وليستْ على الضعفاء من الأطفال والعجّز والنساء . وهي عِلمٌ وفكر ولكنْ للتهذيب والتربية والترقية وليست للرياء والتسلية . وهي التي تصنع التاريخ ولا يصنعها ، وتؤثّر به ولا تتأثّر منه . وكَم ابتلعتْ هذه الأرض من سلاطينَ وسلطات ، ولكنّها ستظلُّ عاجزةً عنِ ابتلاع سلطةِ كسرى التي هي العدل ، وفي هذه الطُرفة مَثَلٌ خفيف عنها . فقد حدّثوا أنّه جيءَ إليه بطريدة في محلّ الصيد ، فلمّا أرادوا شيَّها أعوزَهم الملح ، فأرسلوا غلاماً إلى القرية ليجلبَ ما يلزمهم منه ، فقال كسرى : اشتروا الملحَ بثمنٍ لِئلّا يكون ضريبةً فتخرب القرية ، فقالوا له : ما هو الضرر الذي يحصل من هذا المقدار ؟ فقال : الظلم في الدنيا كان في بدايته قليلاً ، وكلّ شخصٍ اتى كان يزيد فيه ، حتى وصل إلى هذه الدرجة التي ترونها .

وفي حديث الرسول الأعظم : «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سبعين سنة» ، فهمٌ عميقٌ للسلطة بأنها عملٌ وليست أملاً ، وموقفٌ

والثأر، وليست زمناً يمضي وأعواماً تتلاحق وتتكدّس. وعن هذا الفهم العميق الواسع الكبير نفسه عبَّر أيضاً بقوله، يوم أن صَرَعَ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عَمْرَو بنَ ودّ بضربته التي كبَّر لها المسلمون: «لَضربةُ عليٍّ تعدل عبادة الثقلين». وكانت الحكماء تقول: عدلُ السلطان أنفع للرعيّة من خصب الزمان. ونقل ابن قتيبة في عيون الأخبار: سمع زيادٌ رجلاً يسبُّ الزمان، فقال: لو كان يدري ما الزمان لعاقبته! إنَّما الزمان هو السلطان. ولماذا لا يلتقي الفكر الإسلامي مع حكمة الحكماء، وكلاهما يصدران من نبعةٍ واحدة في القول، بأنَّ الزمان مسخَّرٌ للعمل، وهو موجودٌ فيه، وليس العمل مسخَّراً للزمان، ولا هو موجود فيه. ونحن لا نحتاج إلى دليل اكثرَ من أن نقول، إنّنا لولا العملُ لا نشعر بالزمان. والفلاسفة الذين قالوا بأنَّ الحركة هي دليل الزمان، وهي الميزان الذي يوزن به، ولولاها لما عرفنا وزنه ولا مقدارَه بالساعة واليوم والشهر والسنة وغير ذلك، قصدوا إلى كل حركة من غير تعيين ولا تحديد. أمَّا نحن فقصدنا إلى الحركة الكبرى في العمل الكبير الذي يعطف سير التاريخ ويُضيف إليه شيئاً جديداً يتحكّم في سيره وتطورّه. بل خصَّصنا بالقصد أكثر أولئك الرجالَ الأبطالَ الذين عرفوا كيف يصنعون من السلطة عبداً مسخّراً لإرادتهم وسادناً يستجيب لأحكامهم وتصريفهم.

ولست أبالي أن يقال، إنّني أحمل في نفسي شيئاً من الموجدة على حافظ الأسد، بعد هذا الكلام الذي يقرص قرصاً في نقده. وربّما كان من الأصوب أن يقال بأنّني انطوي على جُرحٍ عميق منه، كما ينطوي عليه أكثر أبناء هذا الشعب. وكيف لا نُصاب بالجراح، ولم تكن مواسمُنا التي افنينا أعمارنا بانتظارها منه إلا الخيبةَ والخذلان؟ لقد فرحنا أشدَّ الفرح يوم أن أطلَّ وهو يحمل

الراية التي رسمنا فيها أمانيَنا، وحوّطناه بالدعاء والقلوب، وفديناه بالدماء والأرواح. وقلنا هذا هو الرجل البطل الذي سيأتي لشعبه بالمعجزة، كما أتى بها لشعوبهم غاندي، ونهرو، وماوتسي تونغ، ولينين، وعبد الناصر، وكيم إيل سونغ، وديغول، والخميني، وغيرهم. ولكن لم نهنأ بفرحنا، حتى انغمرت نفوسنا بسيل من الأسى، لاقَتْ فيه من المرارة والألم والخيبة، بقدْر ما لاقت تلك الشعوب من جذلٍ وغبطةٍ وسعادة في أعمالِ رجالهم الأبطالِ، وفي المواسم الفيّاضة اليانعة التي جنَوْها منهم. ولم يكن أُسَانَا لأنَّه تفرّد بالسلطة، ولا خيبتُنا لأنَّه أحاطَ نفسَه بأشباحٍ سَفَلَةٍ لا يدرون من أين جاؤوا، أو لأنَّه خدعنا وقال: أُنبتُ لكم الملح في السهول وزرعت البحرَ بأشجار الزيتون، ولكنْ عندما رأيناه يتحرّك في الوقت الذي عليه أن يسكن، وأن يسكن في الوقت الذي عليه أن يتحرّك. وعندما سمعناه يتكلّم ولكنّ الصوت ليس صوته، وشاهدناه يقوم ويقعد، ولكنْ لا حرية له في قيامه ولا في قعوده. وعندما عاينّا السلطة وحدها ولم نعاينه إلى جانبها.

وكيف تريدون منّا أن نرى حافظ الأسد كبيراً، وهو الذي أنفق الساعات الطوال مع الموظفين القِصَار من الجهاز الأسود الأمريكي، من أمثال ريتشارد مورفي، وليس له من عملٍ معهم إلّا أن يسمع ما يقولون؟ وماذا تُراهم يقولون إلّا الكيدَ والضرر والأذى لشعبنا المستضعَف الفقير؟ وماذا عساهم يحملون إلّا الويلَ والدمار والبؤس والوبال لأقطارنا العربية، وللأقطار الضعيفة المنكوبة التي تشبهها؟ وأخذَتْ بطولتُه التي كنّا على وعدٍ معها لتصنع المعجزات تنكشفُ لنا رويداً رويداً، حتى ظهرت كلُّها على حقيقتها. فعرفناها عندئذٍ أنَّها لا تقوى إلّا على حمل عباءةٍ لواحدٍ من يرابيع البادية أو ضبٌّ من ضِبابها المنحوسة المغمورة بالأسفلت وليس بالنفط.

وكيف لا نصاب بألف خيبة، وقد كنّا نطمح أن نرى له دوراً في أمّتنا مثلَ دورِ عبد الناصر فيها؟ فقد كان يكفي منه خطابٌ واحد، ليطردَ من الديار العربية رياحاً قديمةً فاسدة، ثم يأذنَ بعدها لرياح جديدةٍ نقيّة تأخذ مكانَها. وكان يكفي موقفٌ واحدٌ منه ليأتيَ للشعب العربي كلّه من خيرٍ وعزّةٍ وسلطان، بما لا يقدر أن يأتي به النفط العربي كلُّه ولا حكّام العرب كلهم.

وارى أنَّ الفرصةَ مواتية، لأسردَ تلك الحادثة التي إنْ عبّرتْ عن شيء فإنّما تعبّر عن الخوف والضعف والخديعة والضَياع والخذلان، وغيرِ ذلك من البليّات التي زادها حافظ الأسد تأريثاً وتأجيجاً ولا اقول خَلَقَها وابتدعها. فقد اويْتُ إلى مجلسٍ في دمشق ضمَّ إليه لفيفاً من الأصحاب، من الذين لهم آصرةٌ قوية مع حافظ الأسد، والذين يقتلون اعمارَهم في خدمته. وكان لا بدَّ لي أن اشركهم في أمرهم بعض الشيء، وهم يتسابقون في تمجيد سياسته وتعظيم مواقفه وأعماله. فمضيت معهم قليلاً، ثم التفتّ وقلت لهم: اتشهدون أنَّ هوشي منه، وكاسترو، وديغول وعبد الناصر، وماوتس تونغ، ولينين، والخميني، وغاندي، ونهرو، هم عظماء أبطال؟ فضحكوا وقالوا: ما هذا السؤال؟ نعم إنّنا نشهد. قلت: وهل جاءت عظمتهم إلّا من معجزات صنعوها؟ أو كانت بطولاتهم إلّا في أعمالٍ خارقة أتَوا بها؟. قالوا: نعم، لولا المعجزات والخوارق لَمَا كانوا ابطالاً عظماء. قلت: إذاً هل تستطيعون أن تسمّوا عملاً واحداً من اعمال حافظ الأسد، يوصله إليهم ويلحقه بهم؟ فبُهتوا جميعهم لحظة من الزمن، واصفرّت وجوههم، واخذ بعضهم ينظر إلى بعضٍ نَظَرَ المَغشيّ عليه، ثم ابتسمَ أحدُهم وقال وهو يجاهد نفسَه ويعاندها. وكأنّه أراد أن يعبّر عن الجميع: نعم إنَّ حافظ الأسد هو معجزة، وفي كل يومٍ يأتي بعملٍ خارقٍ أجلَّ

من أعمالهم ، ولكنَّكَ أنتَ لا ترى ولا تريد أن ترى . فقلت له : بلى ! انا الذي أريد أن أرى ، ولكن ليس هذا الكلام ، وإنّما أريد أن أرى هذا الذي يتحرّك في نفوسكم وفي ضمائركم الآن . ولعلّكم إذا فكّرتم بما قلته لكم ، فإنكم لا تجدون فيه طعناً بحافظ الأسد ولا تهجُّماً عليه .

وانا لا أحبُ أن أرى نفسي مَسوقاً إلى تأييد الطاعنين على حافظ الأسد تفرُّدَه بالسلطة واستبدادَه بمقاليدها . ولا أجد أنَّ أسبابَهم التي يُدَعّمون بها وُجهةَ نظرهم قمينةٌ بأن أعيرَها شيئاً من العنايةِ والاهتمام . فهؤلاء يمهّدون إلى انتزاع مكاسبَ ليست منّي على بال ، وإلى اجتلاب مواردَ هي أهونُ من أن تنال من تفكيري لحظةً واحدة . ولا أخشى أن أقول ، بأنّني لا أختلف مع حافظ الأسد ، في أن يتفرّد بالسلطة وأن يستقلَّ بها ، إذا استطاع حقًّا أن يستقلّ بها ، وأن يفعل بها ما يشاء ، إذا استطاع حقًّا أن يفعل بها ما يشاء . ولكنّي أختلف معه ، إذا انفردت به السلطة وصيّرته مُلْكاً لها ، وأمْلَتْ عليه أقوالَها وأفعالَها ، وما أظهرَ الفرقَ وأبرزَه بين أن يملكها وبين أن تملكه ! فإذا هو ملك ناصيتها وتمكَّن من رقبتها ، فسيكون رجلاً فيه كلُ الرجولة ، وشجاعاً فيه كلُ الشجاعة ، وسينشر العدلَ في بلاده أكثر من الظلم ، والنظامَ أكثرَ من الفوضى ، والصلاحَ أكثر من الفساد ، والأمنَ أكثر من الخوف ، والخصبَ أكثر من القحط ، والعلمَ أكثر من الجهل ، والجدّ أكثر من الهزل ، والمحبّة أكثر من البغضاء ، والتضامنَ أكثر من التفرُقِ والتمزّق . وأمًا إذا ملكتْه السلطة واستبدّتْ به ، فإنّه لن يكون شجاعاً إلّا على الجبناء ولا قويًّا إلّا على الضعفاء . وستنقلب المظاهرُ المحبوبةُ المشتهاة التي ذكرناها إلى أضدادها وهي مكروهةٌ ممقوتة ، وقد باتتْ معروفةً من غير أن تُذكر . والذين سيقرأون هذا الحديث ، سيعلمون حقًّا ماذا في بلادنا ،

وهم لن يتأخروا في تنصيب حافظ الأسد في مكانه اللائق به وتثبيته في موضعه الذي خلق له والذي ينبغي أن يوضع فيه حقًّا .

وقد يوجد هنالك من يعجب ، إذا عَلِم أنني لا أشجب التَفرُّد بالسلطة ، أو إذا استشفَّ من حديثي انّني أميل إليه وأعتقد به . فأنا لا أخفي انّني أهتم بأساليب الحكم وأعنى بها ، وأدرسها وأتدبّرها واحداً بعد الآخر ، ثم أختار منها ذلك الأسلوب الذي تجتمع فيه تطلُّعات الشعب أكثر من غيره ، والذي يَصلح لقيادة الشعب وتصريف أموره تصريفاً تبرز فيه صورة القيم التي تحافظ على إنسانية الإنسان أكثرَ من صورة القيم التي تُفرّق بين الإنسانية فيه والحيوانية . ولا يَهمني بعدُ أن آمن على وجود هذا الأسلوب واطمئنّ إلى مصيره ، أن يكون القائم عليه فرداً واحداً ، أو حزباً واحداً ، أو جماعةً ينتخبهم الشعب انتخاباً ويفوّض إليهم مهمّة التدبير والتصريف . وعندما لا يتيسّر لهذا الأسلوب أن يكون ، فإنني لا أستطيع إلّا أن أحافظ على الميزان الذي به تُوزَن أساليب الحكم في كل زمانٍ ومكان ، وإليه تَرجع معرفة قدْرها وحسبانُ عمرها ودورها . وأمّا هذا الميزان ، فإنّه ينضمُّ على كفّتين لا ثالث لهما ، وهما القانون والعدل . فبهما يُصان الإنسان وتُحمَى حقوقه ، وبهما تُمنح له الفُرص التي من شأنها أن تفجّر مواهبَه وتُفتّح ميوله ، ويصير هو وحده الذي يصنع حياته كما يختار ، ووحده الذي يحمل مسؤوليةَ هذا الاختيار . وإنَّ أيَّ أسلوب في الحكم يخلو من القانون والعدل ، لا يستطيع أن يصنع فيه الإنسان سيرة حياته بملء حريته وملء مسؤوليته ، ولا هو جدير أن يُسمَّى حكماً ، وإنّما هو تحكُّم وتسلّط ، ولا يُسمّى القائمون عليه حكاماً أو حاكمين ، وإنّما هم متحكّمون متسلّطون .

ولماذا تعوّد البشر أن يسفّهوا حكمَ الفرد ويعترضوا عليه ؟

ونحن لو رحنا نتمعّن اشكالَ الحكم كلّها في بلدان العالم ، لَما عثرنا على شكلٍ واحد منها يَخرج في الحقيقة عن حكم الفرد الواحد . ففي الغرب ، حيث يقولون إنّ الديمقراطية وهي حكم الشعب نفسه بنفسه ، هو الشكل الأثير التي استقرّتْ عليه الشعوب الغربية منذ فترة طويلة . لكنّه قولٌ لا يحظى بنصيب كبيرٍ من الدقّة ، فليس فيه بلد إلّا والفرد هو الحاكم ، وهو فصلِ الخطاب وإنْ هو اختلف في طريقة وصوله إلى الحكم مع بلدان الشرق الشيوعي ومع بلدان العالم المتخلّف الضعيف . وفي ايّ شعبٍ من شعوب العالم ، مهما أسرف في اتّخاذ الديمقراطية اسلوباً للحكم ، فإنّه سيبقى يُرجّح جهةً على جهة وستبقى الأطراف المتصارعة فيه ، يجتمع كلُ طَرَفٍ منها تحت قيادة فردٍ واحد ، يكون على الأرجح هو أذكاهم في فنّ التصريف وأمهرَهم في التدبير وخلقِ المبادرات في السلوك والعمل . وهذا شارل ديغول الذي حرَّرَ فرنسا وأحياها من جديد ، لم تكن هناك في أيّامه كلمةٌ تعلو على كلمته ، ولا رأيٌ يقوى على أن يقف بجانب رأيه . رغم أنَّه لم يصل إلى الحكم إلّا بعد استفتاء شعبي وانتخابات حرّةٍ شارك فيها الشعب الفرنسي كلُّه .

ولست اشكّ في أنَّ للبشر أعذارَهم عندما يرفضون حكمَ الفرد المتسلّط على مقاليد الأمور والمستبدّ بتصريفها على هواه ، وأنا لم أتّجه في إشارتي إليه عندما قلت إنّ الحكم للفرد الواحد في كلّ مكان ، وإنّما اتّجهتُ إلى الموهبة الخلّاقة في الفرد وإلى القدرات المبدعة الموجودة فيه ، والتي كنّا قد اتّفقنا على تسميتها بالطاقة الروحية . ولكنّني لا استطيع أن أعترف لأمّتي بأعذارها حين ترضى بأن يكون على كل مصرٍ من أمصارها المبعثرة فرداً واحداً يقضي ويمضي على هواه وكما تسوّل له نفسه . وانظر إليها فلا أراها تزيد على أن تردّد في صباحها ومسائها قولَها من غير إيمان : هكذا قدّر

الله وشاء وما شاء فعل . أو كأنّها لا ترغب أن تخرج عن هذا التقليد الجاري الذي ألِفتْه في تاريخها السحيق حتى راح يُحسب جزءاً من شخصيتها ، بل إنّها في الواقع ألقتْ فيه شخصيتَها كلَّها . وهل ذلك التقليد إلّا تثاقلُها وتواكلُها وانتظارُها أن تُمطر السماء عليها ذَهَباً وفضّةً ، وأن تنزل الملائكة وتحاربَ عنها العداةَ الظالمين ، ولا يسعُني إلّا أن أستر وجهي حياءً وخجلاً ممّا وقعتْ فيه من عجزٍ وممّا آلتْ إليه من تقصير . ولكنَّ ذلك لم يكن ليُصيبَها لولا أنّها استبدلَتِ العقل بالتقليد ، ورغبَتْ بالتشويه عن الحقيقة ، وعدلت عن الواقع إلى الوهم والتزوير ، ولولا أنّها فارقَتْ ما هو واضح بيِّن مُعايَن من نصّ القرآن المجيد ومن أحكامه التي لا تُنسَخ في رفض الظلم والظالمين وفي ضرب المستبدّين المتسلطين . وهذا التاريخ العربي الإسلامي شاخصٌ ماثلٌ ، تشهد صفحاتُه وكلماته وأحرفه وما جرى فيه من وقائع ، أنَّ الحاكم في أمّتنا لم يُنتخَبِ انتخاباً شعبيًا إلّا مرّة واحدة . وهي يومَ أن أخذ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مكانَه في المسجد ، وبدأت تتوافد إليه جموع المسلمين ، محبّوه ومبغضوه ، لمبايعته وتسليم أمورهم إلى عُهدته وذمته . ولم يمتنع أحدٌ منهم عن بيعته ولا تمرّد عليه إلّا معاوية الحربي السفياني الذي جعل من الشام بؤرةً للتواطؤ والعصيان على الإمام الحقّ وعلى الدين الحق .

وليس لأنّ سيرة السلطة في التاريخ الإسلامي كانت وقفاً على فردٍ واحد ، يقف ذلك عذراً قويًا بجانب حافظ الأسد على انتزاعه السلطة وانفراده بها ، وعلى تأييده في مواقفه وخطواته وممارساته . ولكنّه سمح له بأن يعتمد على التاريخ اعتماداً كبيراً ، في حياكة غطاءٍ يَستر طموحَه ، وفي صُنع طِلاءٍ برّاقٍ يَطلي به وضعَه في السلطة وأعمالَه وخططه وما هو مَسوقٌ إلى ترتيب

اموره . لست افرُّ منَ الاعتراف بأنَّ احداث التاريخ كلُّها تُعِينه على ذلك وتغذوه بمادّة حيّةٍ غنيّة بالذرائع والأسباب ، يمتُّ بعضُها إلى اسلوب معاملة الشعب ، ويتعلَّق بعضها بالوسائل التي تعمل بين السلطة والرعية ، ويسمّونها الحاشية او اللحاف الذي يبثّ الحرارة والدفء في دم السلطة وجسدها . إلى غير ذلك من وسائلَ كثيرة متنوعةِ الطرائق والأهداف ، ليس لنا إلى ذكرها والحديث عليها من حاجة .

ولا ينبغي لحافظ الأسد ان يتغافل كثيراً عن حركة التاريخ ، فكما أنَّه يعطي رجل السلطة أسباب القوّة والتفتّح والازدهار بيد ، فإنَّه يأخذها منه بيدٍ اخرى ، ويبدله بها الضعفَ والضمورَ والانطواء . وما أكثرَ ما تكون أيادي السلطة مأخوذةً بالغرور والجنون ، فيتعجّل إليها الشلل ، وتعود لا تقوى على الأخذ والعطاء . وهذه فاجعة شاه إيران ليست منّا ببعيدة ، فقد بقي في السلطة المطلقة ستّةً وثلاثين عاماً ، لا ينازعه فيها منازع ولا يعكّر صفوه معكّر . ثم إنَّه قبل بضع سنوات من ضعفه ونقصانه ، أقام احتفالاً دعا إليه رؤساء الدنيا وملوكها ، وخاطب جمشيد المؤسّس الأول للأمبراطورية الفارسية بأنَّه : ليس وحده ملكَ الملوك ، وإنّما هو أيضاً مثلَه ملكُ الملوك ، بل أعظم منه وأدهى . قال ذلك وهو لا يدري أنّ التاريخ يترصّد حركاته وأنفاسَه ، فما استطاع بعد ذلك الاحتفال أن يرتفع مقدارَ شعرةٍ واحدة ، بل أخذ يهوي هويًا حتى انتهى إلى قرارة الهاوية بعد أعوام يسيرة ، عانى فيها من أمراضٍ قاسية مستعصية ، كان أخفُّها عليه مرض السرطان .

وفي هذا الحديث على السلطة ، بمعناها الشامل العامّ ثمّ بمعناها المنحصر الخاصّ عند حافظ الأسد ، لا نستطيع أن نزعم ونقول ، إنَّ أخاه رفعت لم يكن يشاطره الرأي في فهمها وتعريفها .

وكذلك لا نستطيع أن نقول، إنَّه اتَّفق معه كلَّ الاتّفاق على فهمها وعلى إعداد صورةٍ دائمةٍ لها. لأنَّ الصراع الذي نشب بينهما، لم يكن صحيحاً كما زعموا، أنَّه كان من أجل وراثة السلطة والتنازل عنها من الأخ الأكبر إلى الأخ الأصغر، وإنّما هو في مسائلَ شتّى، لعلَّ فهمَ السلطة والنظر إليها كان من أدقّها وأشهرها.

ولا يمنعنا أن يكون لنا لقاء آخَرُ مع هذا الحديث لنفصّل فيه بعض التفصيل، من أن نقول فيه الآن كلمةً عابرة تكون مثل النواة للشجرة الكبيرة. فنحن إذا كنّا قد رأينا رفعت ينطوي تحت ظلّ أخيه الأكبر، فذلك لا يعني أنّه كان يقبل مفهومَه للسلطة قبولاً لا طعنَ فيه، وينقادُ إليه انقياداً لا رويّة فيه ولا تفكير. بل يعني أنَّه كان يؤثِر أن يتحامى أخاه وما يقرأ من أعماله ويعرف من نواياه، وكان يؤثِر أن يُعِدَّ نفسه إلى الوقت المعلوم ليَخرج فيه على حقيقته كما يخرج السيف في المعركة على حقيقته. فلا بدَّ إذاً للحفاظ على مواهبه وعلى الأمل في الوصول إلى طموحه مِنِ اتّقاء كيدِ أخيه والائتمان على نفسه من سَطوَته، وذلك بإظهار الطاعة له وإعلان الخضوع لرغباته والتحرّك في حركاته والسكون في سكناته.

وإذا نحن رأينا رفعت الأسد يختلف عن أخيه الأكبر في فهم السلطة، كأنْ يكونَ أخفَّ منه غلوًّا في حبّها والاستئثار بها وأقلَّ مبالغةً في خلق العداوات والحزازات من أجلها، فلأنَّه كان يتّعظ من أخطائه الكبرى وما تخلقه له هذه الأخطاء من تبعيد في المسافة بينهم وبين الشعب. ولأنّه كان بطبعه أكثر صفاءً منه إلى حدٍّ يسمح له أن يرى به أنَّ شيئاً آخرَ غير السلطة هو موجود، وهو الشعب. وهو الذي لا بدّ من التفكير فيه وفي متطلّعاته تفكيراً مبنياً على حركة الحياة التي تسير إلى الأمام وليس إلى الوراء، والتي تقضي على البشر أن يعرفوا كيف يألَفون التطوّر ويستجيبون إليه. والذين

يأنسون إلى رفعت ويعرفون فيه هذه الخبايا ، ينصرفون عن تعجُبهم ، إذا هم وجدوا أنّ الشعب اصبح أكثر تعلّقاً به واشدّ ميلاً إليه من أخيه الأكبر حافظ . وإذا نحن حاولنا أن نتلمّس السببَ الألدّ إلحاحاً في تعميق خلافهما حول مفهوم السلطة ، فإنّنا نراه يكمن في أنّ رفعت يربط السلطة بالاقتصاد ربطاً قويًا ، يصير فيه كلّ منهما سببَ قيام الآخر واستمراره . وعنده أنّ تطوير الاقتصاد ورفدَه بأسباب جديدة حيّة ، هو العامل الأوجه الذي يعيد الثقة المفقودة بين الشعب وبين السلطة ، وهو الذي يسرّب حبّ السلطة إلى نفوس الناس في اقنية من الحبّ والرضى ، بَدَلاً من نشرها وتوزيعها بأساليب البطش والإرهاب والترويع . أمّا اخوه الأكبر ، فإنّه يربط السلطة بشخصيته وحدها ربطاً لا خلاص له منها ، ولا عتق ، ولا تسريح ، ولا انفكاك . وعلى ظنّه ورايه ، أنّ من شخصيّته ينبع تحسين الاقتصاد وتطويره ، ومن شخصيّته تتفجّر النظريّات السياسية التي تحرس تطلّعات الشعب وتصون مبادئه وحرّيّاته .

وإنّي لعلى يقين ، بأنّ الأيامَ تستدرجهُ وهو لا يشعر ، بهذه الأساليب الخفيّة المجهولة نفسِها التي استدرج بها الجموعَ الكبيرة من الشعب ومن الحزب ، ثم غمَّسَها تغميساً بالقهر والكيد والتنكيل ، والتي زرع بها في النفوس بذوراً من اللؤم والحقد ، سيظلُّ الناسُ يَجنون من مواسمها ما ظلّوا احياءً قائمين . فكيف به إذا أيقظته الأيام فجأة واشهدته ثمرات اساليبه ، التي اخفُها واهونُها ضَياعُ الفرص ، ونحرُ المواهب والطاقات ، وقتلُ الأبرياء والاتّجارُ بالشهداء !

ب ـ الوسائل والسوائم

حدّثنا ابن قتيبة في كتابه ، عيون الأخبار ، أنّ بعض الخلفاء قال : دلّوني على رجلٍ أستعمله على أمرٍ قد أهمّني . قالوا : كيف تريد ؟ قال : إذا كان في القوم وليس أميرَهم كان كأنّه أميرُهم ، وإذا كان أميرَهم كان كأنَّه رجلٌ منهم» . فهل بقيَ الآن بعد الاستعانة بهذا القول من شكّ في أنّنا أردنا مّن هذا العنوان الذي نصبناه ، أن نتحدَّث عن بطانة السلطة ؟ وأقصد على وجه الدقّة والتخصيص ، هذه البطانةَ التي تلتحم بالسلطة وتلتحف بها التحافاً ، ولا دور لها إلّا الابتزازُ والسرقة ، ولا موهبةَ عندها إلّا قبولُ الذلّ والتسخيرُ وحملُ العار والإهانة . ولأنّها قد أعدّتْ نفسَها إعداداً حسناً لتكون وسيلةً في يد السلطة ، وقنِعتْ أن يكون موقعُها منها موقعَ السوائم من البشر .

وإذا نحن اعترفنا بروعة هذا القول الذي أسنده ابن قتيبة إلى خليفةٍ مجهول ، فلأنَّه يَشفُّ عن معانٍ جمّةٍ في تعبيرٍ بليغ ، ويدلّ عل الأفق الواسع والنظرة البعيدة عند قائله . ولن نكلِّف أنفسَنا عناءَ شرحه ، فهو واضح ، وقد يؤذي المفهومَ الواضحَ أن يُشرح . بل نُريد بإشارةٍ عَجلى أن نضع يَدنا على مكان الروعة ، فنُصيب منه حاجتنا ثم نعود .

فقد أحبَّ الخليفة أن يفوّض عمله الذي يَعنيه أمرُه كثيراً ، إلى رجلٍ مِفَنٍّ بهذا العمل ، مُتْقِنٍ له ، لا ينطوي في داخله إلّا على الوفاء والإخلاص . وعندما استشار أصحابه بشأن هذا الرجل ، سألوه عن الشرائط أو عن الصفة الخاصّة التي ينبغي أن توجد فيه ، وكأنّهم يريدون بذلك أنِ يكونوا له أكثر إخلاصاً في المشورة . فعيّن لهم وصفه تعييناً جمَعَ فيه اللينَ كلّه ، والشدّةَ كلَّها والكبرَ كلَّه ، والطاعةَ

كلّها ، والمروءة كلّها . وبعبارة أخرى ، أحبَّ الخليفة أن يُصالِح في طلبه بين الأخلاق من جهة وبين الدهاء والحنكة من جهةٍ أخرى في شخصيةٍ تحتاج إليها أعماله الكبار ومسؤولياته الجسام . وليس من شكّ في أنَّ الذي سيُولّى هذا العملَ سيعتبره الناس ممثّلاً للخليفة ومعبّراً عنه . وبقدر ما يكون في عمله ماهراً ومتفوّقاً ، بقدر ما يعود ذلك على الخليفة بالسيرة الطيّبة ، ويحرِّض الناسَ على حبّه وطاعته والإخلاص له .

ونحن لا نختلف في أنَّ ما كان عليه الخليفة من تفكيرٍ فيمن سيصيرُ حوله من الرجال ، ومن حرصٍ على أن يكون هؤلاء الرجالُ من أهلِ الفنّ الرفيع والخبرة العالية ، والرعاةِ لعهده وذمّته ، هو ما ينبغي أن يكون عليه كلُّ من يصير إلى السلطة في أيّ زمانٍ ومكان . هذا إذا أحبَّ الصائرُ إلى السلطة والقائمُ عليها أن ينشرَ في ربوع بلاده الخيرَ والنفعَ العميم ، وأن يأخذ بيد الشعب إلى الطريق الواضحة السالكة .

أمّا إذا كان همُّه تمكينَ نفوذه وبسطَ سيطرته ، فإنّه لن يصطنع من أبناء الشعب إلّا من نَزَلَ عند رأيه ودَخَل في طاعته وقَبِلَ شروطه . ولعلَّ أكثر الكوارث والنكبات التي تُصيب الشعوب وتطرقها ، تأتي إليها من هؤلاء المتسلّطين الذين جعلوا من أنفسهم أصناماً وخلقوا من بطانتهم دعاةً إليهم يدعون .

وإذا نحن التفتنا إلى هذا الجهاز الذي عمل على تركيبه حافظ الأسد منذ أن صار في يد السلطة ، ورحنا نقلّبُ صفحاته ونقرأها صفحةً صفحة ، لَمَا سقطنا إلّا على الغموض ، ولا وقعنا إلّا في التيه . ثم إذا استعَرَ فينا الإلحاحُ على أن نفهمَ وبدأنا بالسؤال الأوّل ، فإنَّه لن يقود إلّا إلى سؤالٍ آخر ، ثم إلى سؤالٍ بعدَه ، وهكذا إلى أن ينقضي زمنٌ طويل ، ولا نشعر إلّا وقد أصبحنا أسرى التعب

والإعياء. ولماذا لا نجرّب أن نسأل الآن حتى لا يُقال بأنّنا نغالي في الوصف، أو أنّنا نتحدّث عن واقعٍ هو في أنفسنا، وليس في مكانٍ آخر. وكيف نفسّر هذا الفسادَ الذي استشرى في البلاد، وأصبح يتمرّد على كل دواء ويُنذر بالويل والخراب، إذا كانت الحاشية الحافّة من حولِ حافظ الأسد راعيةً لأمانتها، قادرةً على عملها، واعيةً لمهمّتها، مخلصةً في سعيها؟ وإذا قيل لنا مرّةً أخرى بأنّنا نغالي في طلب واقعٍ لا تتوفّر شروطُ قيامه إلّا في الجنّة، نقول لهؤلاء الذين سيقفون هذا الموقف: إنّنا نرضى بما ترضَوْن به أنتم، وهو أيسرُ جزءٍ يستطيع أن يكون من هذا الذي وصفناه وطلبناه. ونحن على يقينٍ بأنّه غيرُ موجودٍ أيضاً، وأنّه لن يصير بعد اليوم موجوداً إلّا بمعجزةٍ أو بقدرةِ قادرٍ أو بسحر ساحر.

أقول ذلك وأنا ألتفتُ إلى القرآن المجيد، أتحرّى آياتِه لأعلمَ ما أقول ولأصدقَ فيما أقول. فهو عندما وصف أحوالَ الأممِ التي رماها الله بالدمار والهلاك، ذكر بأنّها لم تَصِرْ إلى هذه الأحوالِ إلّا بعد أن أرسل فيهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأبان لهم الحقَّ ودلّهم عليه، وأفاض عليهم المِنَنَ وأعطاهم كلَّ ما يشتهون. وقال لهم: إنْ أنتم آمنتم وأخلصتم النيَّةَ والعمل، نجَوْتم وصرتم إلى المكان الآمن السعيد. وإنْ أنتم جحدتم وأفسدتم في أقوالكم وأفعالكم وأصابكم الغرور والبطر والعَنَاء، فسيحلُّ عليكم غضبي، وسأرجمكم بالعذاب والويل والهلاك. وليس على الذين يفكّرون أنْ يَسخروا من هذا القول، إلّا أن يفتحوا القرآن المجيد ويطّلعوا على ما انتشر في الأممِ البائدة من ظواهر الفساد والبغي، وما تفجّر داخل المجتمعات المرجومة بالهلاك والانقراض من تفسُّخٍ وتحلّلٍ وأمراضٍ في النفوس والأخلاق والعقائد والعلاقات، ثمّ ليقارنوا بينها وبين ما هو حالٌّ في مجتمعنا ونازلٌ في شعبنا من العوارض

والظواهر، ولعلّهم بعد ذلك يعتبرون ولا يَسخرون. والذين يعزفون عن قول القرآن المجيد لا نكلّفهم العودةَ إليه، ولكنّهم لا يستطيعون، مهما حاولوا واجتهدوا في المحاولة أن يعزفوا عن سنّةِ التاريخ وأن يتنكّروا لها، فهي تقول، إنَّ تقهقرَ الأمم وسقوط الشعوب، ترجع أسبابها إلى استشراء الفساد فيها وانحلالِ القيَم وتفسُّخِها. وإنَّ السلطات ومَنْ حولها من الحواشي والبطانات هي التي تقوم دائماً بدور الطلائع في رسم الطريق وتمهيده والتحريض على انتهاجه والمضيّ فيه. وإنّه لم يكن من الصعب علينا أن ننفرد بهذا الموضوع ونفصّل في دراسته تفصيلاً محموداً، لولا أنّنَا التزمْنا الحديث على موضوعنا الذي نحن فيه. ونُحبّ أن يفهم الذين هم معنا في حديثنا هذا، أنَّ تخصيصنا بالقصد مجتمعَنا العربيَّ السوري، لم يكن إلّا لأننا حصرنا الحديثَ على السلطة القائمة فيه. وإلّا فإنَّ هذه الظواهر التي كانت من وراء إبادة الشعوب العاصيةِ المتمرّدة التي قصَّ علينا القرآن أخبارَها، هي مشهورةٌ مرئيّةٌ في جنبات الشعب العربي الواسع كلّه.

وأقول ذلك وأنا ألتفت أيضاً إلى حكمة الحكماء، وأستنطقها فتخبرني، وهي التي عندها الخبرُ اليقين والقالة الصادقة التي احتَوَشَت على خبرة الشعوب وتجارب الأمم. فأصبحنا نرى أنّ ما تنطق به هذه الحكمةُ هو السنّةُ أو أنّه مثلُ السنّة، تأوي إليها العقول، وتتلقّف ما عندها وتُفتَن به لشدّة ما فيه من صفاء، يسمح لها أن تُعاين في الغد ما بَعُدَ من الحوادث والأشياء وما قَرُبَ منها. ومن كتابٍ كتبه بزرجمهر إلى كسرى، يَبثُّه فيه العلمَ ويُرشده إلى محالّه، نأخذ الحكمة التي هي موضع طلبتنا، والتي تقول: «وينبغي أن لا تُسَلِّط على الناس جهّالَهم، فإنَّ الجَهالةَ قائدُ الضلالة، والضلالةُ قائدُ البلاء والفتنة، وفي الفتنة الدمار والهَلكة. وليس

يخاف أنّه يُشير بهذا القول إلى من ترغب يد السلطة أن تمتدَّ إليهم وتختارهم ولاةً على الأمور. وكأنّه عَمِلَ سلالةً من مواليدَ، يلد الواحد منها الآخر، وهم يعودون كلُّهم إلى الأب الأول الذي هو الجهل، وهل غيرُ الجهل من ثروةٍ وخبرةٍ عند سلطاتنا؟ ثم يقول: «ينبغي لذوي السلطان، أن يعلموا أنّهم لا يقدرون على منعِ أنْ تنطق العامّة بعيوبهم، وألّا يتعنَّوْا (يهتمّوا) في أن يُبصر الناس ما فيهم. وليكن اجتهادُهم في ألّا يكون لهم عيبٌ ولا سبيلَ للقالة عليهم». وهذا هو الذي لا يجهله أحد، ويكاد ينطق به كلُ لسانٍ في شعبنا، وكلّما أوغلَ القائمون على السلطة في إخفاء ضعفهم والتستّر على أخطائهم، كلّما ازداد انكشافُها وافتضح أمرها.

ولهارونَ الرشيدِ نوادرُ مملوءةٌ بالحكمة والدهاء معاً، حجبتْها عنّا، أو قُل ضيّعتْها ما أفاضوا فيه من الأحاديث عن تَرَفِه ولهوه. ومن نوادره ما ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار، أنّه أحضر رجلاً ليولّيَه القضاء، فقال له: إنّي لا أُحسن القضاءَ وأنا فقيه، قال الرشيد: فيك ثلاثُ خِلال: لك شرفٌ، والشرف يمنعُ صاحبَه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلَّ خطؤه. وأنت رجلٌ تُشاور في أمرك، ومن شاورَ كثُرَ صوابُه. وأمّا الفقه، فسينضمُّ إليكَ من تتفقّه به. فولّيَ فما وجدوا فيه مطعناً. وقد اجتمع في هذه النادرة أكثرُ من حكمة، اجتمعت فيها حكمةُ السلطة في اختيار من سيشترك معها في حمل المسؤولية. وحكمةُ أهل العلم والفطنةُ في تواضعهم وتعزّزهم، والتزامُهم الرويّةَ والأناةَ قبل الإقدام على قبولِ تولّي شأنٍ من شؤون السلطة. رغم ما في ذلك من إغراءٍ لا يُقاوم، ومن اجتذابٍ يبقى في أكثر الأحيان أقوى من الصلابة والصمود.

ولنمضِ الى التاج، وهو الكتاب الذي ألّفه أبرويز أيّام سَجنِه

لابنه شيرويه، يقدّم له فيه مفاتيح الحياة كلّها، ومنها مفتاحُ الحُكم. ويذكّره بأن الحفاظ على هذا المفتاح يطلب شروطاً عدّة. منها البراعة في اختيار البطانة التي ستشاطره حملَ المسؤولية، أو التي ستنقلب عليه وتقوّض أركانَ حكمه وأساسَ ملكه. يقول: ليكن مَنْ تختاره لولايتك امرءاً كان في ضَعةٍ فرفعتَه، أو ذا شرفٍ وجدتَه مهتَضماً فاصطنعتَه. ولا تجعلْه امرءاً أصبتَه بعقوبةٍ فاتّضعَ عنها، ولا امرءاً أطاعك بعدما أذللتَه، ولا أحداً ممّن يقع في خُلُدكَ أنَّ إزالةَ سلطانك أحبُّ له من ثبوته. وإيّاك أن تستعمله خَرِعاً غَمْراً، كَثَرَ إعجابُه بنفسه، وقلّت تجاربُه في غيره، ولا كبيراً مدبراً، قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ السنُّ من جسمه.

ولن أتردّد أن أقول ما يجول في نفسي الآن، وهو أنَّ هذا النصُّ والذي قبْله من النصوص، لم أستحضرها إلّا لأنَّها صالحة لكلّ زمانٍ ومكان، ولكلّ شعبٍ وأمّة. وهي لا تضيق بواردٍ يَرِدُ عليها ولا بلاجىءٍ يلجأ إليها، فكأنَّها اليوم قد قيلت، وكأنّها معدودةٌ للغد كما كانت معدودةً للماضي في زمانها. وكأنّي بحافظ الأسد قد حظيَ بها وقرأها، ثمّ راحَ وقلَبَها رأساً على عقب، وعاكسها في الاتّجاه، وانتهى هو وبطانته إلى حالةٍ، لو رآهم عليها أبرويز وكسرى وبزرجمهرُ، لآثروا أن يرجعوا إلى قبورهم في مثْل لمح البصر، وهم مشفِقون ممّا هو واقع بهذا الشعب البائس المنكوب. فقد ألّفَ بطانتَه من هذا الشعب، لكنّه اختارهم من الذين لم يسمعوا بالشرف ولم يعلموا أنّه موجود، ومن الذين ليس عندهم استعداد إلّا لقبول الذلّ والإهانة، أو ممّن خُلقوا وهم مطبوعون على أن يكونوا عبيداً أذلّةً. نفخَهم الغرور واستحوذَ عليهم الإعجابُ، ولا يهمُّهم بعدَ أن شبعوا وأصاب بطونَهم الورم أن يبقى سيّدُهم أو لا يبقى. وبعضهم حلَّ به الخَرَف واعتاده نوعٌ من حمّى الجنون، وانخلع من

عقله، وانبعج فيه ضميره، فلا ضميرَ له يَردعه عن ارتكاب القبيح ولا عقلَ ينهاه عن الرقص في الساحات والطرقات. واكتفي أن اذكر مثلاً لذلك محمودَ الأيّوبي ووهيب خنّوس. ولو شئت أن اذكر لهذه الحالة امثلةً كثيرةً لفعلت، ولكنّ الله لا يُحبّ الجهرَ بالسوء وينهى عن الفحشاء والمنكر.

ولماذا لا يقرأ كلُ فردٍ منّا هذا الدعاء الذي يذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار، عنِ ابن هبيرة، قبْل نومه وعند يقظته: «اللهمّ إنّي اعوذ بك من صحبةِ مَنْ غايتُه خاصّةُ نفسه، والانحطاطُ مِنْ هوى مستشيره، وممّن لا يلتمس خالصَ مودّتك إلّا بالتأتّي لموافقة شهوتك إنْ يساعدك على سرور ساعتك، ولا يفكّر في حوادث غدك». فكأنّ هذا الشعبَ لم يعد ينفعُه شيءٌ إلّا الدعاءَ لكثرة ما مرَّ على رأسه من هذه البطانة، وكأنّها سرقتْ منه الإحساسَ، فلم يعد قادراً على أن يُحسّ بنفسه، فكيف له أن يُحسّ بألمه وأوجاعه وبضَياع كرامته وهدر حقوقه؟ وليتَه استرجع شيئاً من بصره المفقود، ثم نظر إلى مكانته بين الشعوب، لاختارَ إذاً أن يموت ويَدفن نفسَه في التراب، او أن يقوم في وجه هذه البطانة المحلولة فيقطّع أوصالَها، على أن يبقى في حالةٍ لا يرضاها لنفسه إلّا الأحمقُ أو المجنون او السائمة.

وليس بيننا من لا يعتقد بأن بطليموس كان صادقاً في هذا القول المنسوب إليه وهو: «ينبغي لذي السلطان أن لا يثق بمن كان له مُهيناً ولا بمن اشتدّ حرصه». وإذا قيل بأنّ الصفة الثانية، وهي اشتدادُ الحرص، لا يكاد يخلو منها إنسانٌ مخلوق على هذه الارض. أقول إنّ ذلك صحيحٌ، ولكنّ الحكيم بطليموس قصدَ أولئك الذين يحرصون على المتع والأموال اكثرَ ممّا يحرصون على القيَم والأخلاق، وأراد انّهم اولئك الذين يعتادون قبولَ الذلّ والإهانة من

سيّدهم السلطة ، ولا يستطيعون بطبعهم أن يكونوا مُخلِصين أوفياء ، في الساعة التي تطلب إليهم السلطة الإخلاص والوفاء . لأنَّ الحرصَ على جمع المال ونيل المِتَع واللّذات شَغَلَهم عن كلّ شيءٍ وأنْساهم كلّ شيء . ولا يقدر الحريصُ أن يكون إلّا مُهيناً ذليلاً ، ولا يقوى الحرص أن يفارق الإهانة ، وكيف سيصبح حرصاً إذا هو فارقها ؟ وإنّ من يألف سجيّة الحرص ويتعوّدها ، سيفقد بعدها الإحساس بأيّ ذُلّ وإهانة .

ولم يحدّثنا التاريخ يوماً عن حاكمٍ أو قابض سلطة ، أنّه استقام إلّا من بطانته أو أنّه اعوجّ إلّا من بطانته . ومن الطرائف التي يَطيب لنا أن نستمتع بها ، ما نقله المبشّر بنُ فاتك في كتابه مختار الحكم ، أن الإسكندر قال لوزيرٍ له ، وقد أقام معه مدّةً طويلة ، ولم ينبِّهْه على عيب : لا حاجة لي في خدمتك . قال : ولِمَ أيُّها الملك ؟ قال : لأنّي إنسان ، والناس لا يفقدون الخطأ ، فإن كنتَ لم تقِف لي على خطأ في هذه المدّة ، فأنت جاهل ، وإن كنتَ وقفتَ منّي على خطأ فسترتَه فأنت غاشٌ . وفي كتاب العزلة لأبي سليمان البستي : إن الذي يُحدِث للسلاطين التيهَ في أنفسهم والإعجابَ بآرائهم كثرةُ ما يسمعون من ثناء الناس عليهم . ولو أنّهم انصفوهم فصدقوهم عن أنفسهم لأبصروا الحقّ ، ولم يَخفَ عليهم شيءٌ من أمورهم ، ويذكر ابو حيّان التوحيدي في كتابه ، مثالب الوزيرين ، حاكياً عن التباطؤ والإهمال في نقد السلطة : «هكذا يَفسد من فقد المُخَطِّىء له إذا أخطأ والمقوِّم له إذا اعوجَّ ، والموبِّخ له إذا أساء ، لا يسمع إلّا صَدَقَ سيِّدُنا وأصابَ مولانا» .

وما أشدَّها بليّةً على الشعب ، أن يرى بطانة الحاكم وهي من لحمه ودمه ، أنّها تُمزّق لحمه وتلعبُ بدمه ، ولا سبب عندها ولا ذريعةَ لها في ذلك إلّا لِشَرهٍ في الجمع والادّخار ، وإلّا الحرصَ على

أن يبقى لها ما في يدها . وليتها سخّرتْ قسطاً يسيراً من ذكائها ، الذي صنعتْ به ما صنعت وجمعتْ به ما جمعتْ ، لترضية هذا الشعب الذي هي منه ، أو لاتّقاء الساعةِ التي ستأتيها وتفجأها بالمحنة .
ولست أعترف لبطانة السلطة بالذكاء إذا هي استأثرتْ بجمع المِتع وأتتْ على كلّ شيء . وكذلك أُنكر على السلطة أن تكون ذكيّةً ، إذا هي راحت تقرِّب إليها من لا همَّ لهم إلّا الشره والإلتهام . ولعلَّ الذكاء الذي يجري ويسبق في ميدان السوء والمنكر لا يقدر أن يجريَ في ميدان الخير والصلاح ويأتيَ سابقاً فيه ، وما ذلك إلّا لأنَّ السوءَ محبَّبٌ للنفس ، قريبٌ منها بحيث لا تحتاج إلّا إلى قليلٍ من التنبُّه حتى تُسرعَ إليه . وهي تستلذُّه ولا تعود قادرةً على مفارقته والابتعاد عنه ، بعد أن تذوقَ الشمّة الأولى منه . أمَّا في ميدان القيَم والخير والصلاح ، فلا تَميل النفسُ إلى دخوله ، وليس أكرهَ عندها من أن تُقْسَر قسراً على أن تصيرَ إليه وتجريَ فيه . والذي يُنغِّص على النفوس التي هذه هي أوصافُها ، لذّاتِها ومِتعَها ، أنَّها تعلم مآلَ أمرِها وعاقبتَها في الحالتين . ولذلك تسارع إلى أن تغتنم في اللحظة الواحدة من الشهوات واللذّات ما قد يضيق عنه الزمنُ كلُّه ، لكنَّها لا تستطيع أن توسِّع اللحظة وتمدَّ في طولها أكثرَ ممّا هي ، فتميلُ على حقوق الشعب وأمواله وخيراته ، وتنهب منها ما تنهب وتدمِّر ما تدمِّر ، حتى لا تبقى هنالك فرصةٌ لأحدٍ بعدها أن يتمتّع بشيءٍ ، حسداً منها ومكاءً وضيقاً .
ولَعلَّ صدرَ الشعب يتّسع فيقبل أعذارَ هؤلاء التجّار السفيانيّين الذي يؤلّفون جزءاً كبيراً مؤثّراً من بطانة حافظ الأسد ، معتبراً أنَّ من حقّ أبي سفيان أن يبقى موجوداً إلى اليوم الموعود . لكنّه كيف يستقبل أعذار هؤلاء الفقهاء الذين أودعهم حقوقَه ومالَه وحياته ونفسَه ، وجعل ذلك كلَّه أمانةً في أعناقِهم ، لكنّهم ضيَّعوا الوديعةَ

وخانوا الأمانةَ فَمَا رعَوْها حقَّ رِعايتها ؟ وكيف يستقبل منهم قولَهم أنَّهم رعَوْها ، وهم الذين يَظهرون في كلّ مناسبةٍ وكلّ فرصة ، أو قُل إنَّهم يَختلقون المناسبات والفُرَصَ ليَظهروا هاتفين باسم السلطة داعين إلى نصرتها وتأييدها ؟ ومَن يقول إنَّهم جاهلون لا يعلمون ؟ وما أفصحَهم وهم يتحدّثون في الخطَب والأعياد وفي الاحتفالات عن قُبح الظلم والفساد وهو من حولهم في كلّ مكان ، وعن خَطَر الفحشاء والمُنكر وهو يُحيط بهم من كلّ ناحية ! أليس قعودُهم عن محاربة الظلم والفساد أقبَحَ من الظلم والفساد ؟ وسكوتُهم على رؤية الفحشاء والمنكر أخطرَ من الفحشاء والمنكر ؟ وإذا كان الفقهاء قد اعتادوا على مدى تاريخنا العربيّ الإسلامي أن يأخذوا مكانَهم إلى جانب السلطة ، مؤيّدين ناصرين على حساب ذمّة الشعب وحقوقه ، ألا ينبَغي أن يَخرق الفقهاء ما تعوّدوه مرّةً واحدةً ويصلوا إلى القرآن الذي أصبح محجوباً وراء هذه العادة ؟ وإذا هم راحوا يؤلّفون لسكوتهم وقعودهم أسباباً وجيهةً مشروعة ، فليس هنالك أكثرُ من الأسباب التي هي موجودةٌ وجوداً طبيعيًا من غير تأليف ولا اختلاق ، والتي هي تملأ علينا وجودَنا بوجاهتها وشرعيّتها ، وكلُّها تُهيب بهم أنْ يَنهضوا في وجه السلطة ، أيَّةِ سلطة ، ليَردعوها عمّا هي فيه من حماقةٍ وطيش ومن حَيفٍ وجَوْر ، وليصونوا للشعب حقوقَه وأمانته وذمّته . ولو لم يكن هنالك من سبب إلّا أنَّ السلطة تضحك عليهم وتسخر منهم ، وتستعملهم مكيدةً لبلوغ أغراضها ومآربها ، وهم كذلك يضحكون عليها ويَسخرون منها ، لكفى ذلك سبباً عند مَنْ في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من خشيةِ الله ، في أن يقوم دفاعاً عن الحقّ والعدالة وعن قيمة الإنسان في دولة الإنسان التي هي الإسلام .

ولماذا لا أقصُّ الآن على هؤلاء الذين يرافقوننا في حديثنا هذا ، برواية حادثةٍ طريفةٍ ممتعة ، إنْ دلّتْ على شيء فإنّما تدلّ على

استهتار جماعة الفقهاء في بلادنا بأصول الفقه الإسلامي ومبادئه الأولى وبالرسالة الإسلامية ومبلّغها الرسول الأعظم محمد بنِ عبد الله، وإنْ هم ظهروا دُعاةً لها مدافعين عنها، وإنْ هم أسبلوا لحاهم أكثر وزادوا في دوائر عمائمهم. وقد وقعتْ لي هذه الحادثة أيّامَ إقامتي في دمشقَ المحروسة عام أربعٍ وسبعين وتسعمائةٍ وألف. وكنتُ يومَها مولَعاً بالصيد، أستقلّ سيّارتي وأخرج كلَّ صباحٍ في المواسم المعهودة لمرور الطيور العابرة. وفي صباحٍ من الأصْبحةِ، وجدتُ نفسي في بستانٍ جميل منتظراً أترقّب وقت المرور. ووجدتُني ألتفت فجأةً على صوتِ أقدام رجلٍ، دنا مني حتى وقف بجانبي، ثم خاطبَني بعبارةٍ أنيسةٍ فيها شيء من التوسّل قائلاً: هذا بستان الشيخ، وهو لا يُحبّ أن يرى فيه صيّاداً، ولا يُحبُّ أن يَسمع أصواتَ بنادق الصيد في الصباح.

فقلت له: ومن هو الشيخ؟

قال: هو سيّدنا كفتارو.

قلت له: وهل هو موجودٌ هنا؟

قال: نعم! وهو الذي رآك من على سطح البناية، فأمرني أن أُنقلَ إليك رغبتَه هذه.

قلت له: إذن أتمنّى أن تقول للشيخ، إنّني سأُمسك الآن عن الصيد، وسأمضي إليه وأجعلُه صيدي هذا الصباح.

فرحّب الرجل ثم ابتسم ومضى. ومضَيْتُ على أثره نحو الشيخ بعد قليل من الوقت وبعد أن حسبت أنَّ الرجلَ وصل وأخبره بحديثنا.

ولم يقع بصر الشيخ عليَّ وأنا أصعد الدرجة الأولى من سلّم الشرفة حتى نهض عن كرسيّه واتّجه إليَّ قدرَ خطوتين. ثم مدَّ يده ورحّبَ بي ترحيباً جيّداً وأجلسني قريباً منه. ثم أخذنا، بعد التقديم والتعريف، نتجوّل في أحاديث، نفصّل في بعضها ونوجز في

بعضها الآخر . وما لا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إليه هنا ، هو حديث الشيخ الموسّع عن زيارته لأمريكا وسروره بما لاقاه من الترحيب والتجليل ، وما وجده من تقدّم ورُقيّ ، ومن رخاءٍ وازدهار في مظاهر العيش ووسائل الحياة وفي أشياءَ كثيرةٍ لا يتّسع لها الحديث ، غمرتْ لبَّ الشيخ بالدهشة وأعجبته وأغرته ، ولكنّها لم تُرجعه إلى صباه . ثم انتقل إلى الحديث على حافظ الأسد ، فمدحه أكثرَ ممّا مدح أمريكا وأطال ، ثم مدحه وأطال . وفي الشيخ عادةٌ تُغري بالإنصات إليه عندما يتحدّث ، وهي أنّه يُجيد تغيير نبرةِ صوته ، كأنّما يريد بذلك أن يجدّد التفات السامع إليه . فرأيته فجأةً قد رفع إصبعه في الهواء ، وكأنّه يريد أن يأتيَ على آخر الخطبة . ثم قال بنبرةٍ ذات معنًى خاصٍّ : أنا وحافظ الأسد ، وحدَنا القادران على ترتيب الأمور في هذه البلاد . قلت له : تقصد أن تقول هو البلوى وأنت الفتوى . فأعجبته العبارة أيّما إعجاب وانفلتَ في ضحك ، بدأت لحيتُه معه بالارتفاع والانخفاض ، حتى ظننتُ أنّها ستفرُّ من وجهه ، أو أنّها تؤدّي لنا رقصةً تعلّمَتْها في أمريكا . وانتظرتُ حتى هدأ قليلاً ثم قلتُ : إليك اللهمَّ نجأر بالدعاء ، وأنت تعلم لماذا ندعو ، فاستجب لنا يا خير من يجيب ! فانفلت ثانيةً في ضحكته ، وكانت هذه المرّة أقوى من سابقتها ، حتى قلتُ إنَّ أحناكَ الشيخ ستنشقّ ، وإنَّ منافذَه ستنفتح إلى آخرها .

ونحن لا نجهل تلك الأحاديث المرويّة والآثار الكثيرة المكنوزة علماً ومعرفةً في ثقافتنا العربية والإسلامية ، والتي تتوجّه كلُّها إلى السلطة القائمة على شؤون العباد وتحرّضهم على تقريب العلماء والفقهاء للاستماع إليهم واستشارتهم في معضلات الأمور وتخصيصهم بنصيبٍ في حمل المسؤولية وفي القيّوميّة على المقاليد . وليس إلى استعمالهم استعمالاً رخيصاً للتغطية على فسادٍ

منتشر أو مُنكرٍ رائج ، أو لقطع السنة العامّة الذين يُرضيهم أن يرَوْا مثل هؤلاء إلى جانب السلطة ويضع في أذهانهم أنّ للإسلام دوره في هندسة حياتهم وترتيب شؤون البلاد . بل إنّه من واجب العلماء والفقهاء أن لا يتركوا السلطةَ وحدَها هي المتصرّفَ المطلقَ في أحوال الشعب وأوضاع البلاد ، وأن يكون لهم طريق إليها ، ليس للجمع والادّخار ، ولا لإصابة المِتع واللّذات ، ولكن لأنّ لهم الحقّ أن يشتركوا في حمل المسؤولية ، وأن يُسهموا في تربية الشعب وتوعيته وفي بثّ قيَم الإسلام وصيانة مبادئه السامية . وإنّه لممّا يبعث على الأسف ويدعو إلى الحزن أن نرى ، أنّ السلطة على مدى تاريخنا العربي الإسلامي لم تترك للعلماء والفقهاء حرّيّتهم ، ولم تسمح لهم أن يقولوا وأن يفعلوا إلّا ما يُرضيها وما يُعجبها . ونحن لا نجهل أنّه وُجِدَ في كلّ عهدٍ من العهود الفائتة مِن العلماء والفقهاء مَنْ عَارض السلطة وناصبَها العداءَ غيرَ عابىءٍ بالحتْف الذي لاقاه ولا بالسجن الذي شاخ فيه وصار قبراً له . ولكنّها حالات بقيتْ عابرةً وظلّتْ عارضةً ، لم تهدّد سيرة السلطة بخطر ولم تَمسّ هيكلها وبنيانها بأذىً ولا ضرر .

وأمّا عن هذه الأنفاق التي يتسرّب فيها جماعة الفقهاء والمرشدين ، من الذي يؤثِرون الحياة الدنيا على الأخرى للتقرّب من الحكّام والسلطات ، فهي كثيرة وهي متنوّعة . ربّما جاء على رأسها صناعةُ النصوص واختلاقها ، ثمّ يليها تأويلُ هذه النصوص وتسخيرُها لخدمة الحاكم وتوطيدِ أركان دولته وسلطته . وما أكثرَ ما نواجِه من الأمثلة التي تشكّل قسماً كبيراً من تراثنا ، في قصّة الحاكم والمحكوم ، والسياسة والسائس والمَسوس ، والشعبِ والدولة والروابطِ القائمة بينهما ووسائلِ الحكم والتصريف ، وكأنّها أصبحتْ من القواعد التي يقوم عليها بنيان تاريخنا . ومن أجل الزيادة في

الإيضاح، نأذن لهذا المَثَل أن يحضر، وهو الحديث الذي يَرويه مسلم في صحيحه: «سيكون عليكم أمراءُ تعرفون منهم وتنكرون، فمن انكر فقد بَرِىء ومَنْ كره فقد سَلِم، ولكن من رَضِي وتابع، ابعده الله تعالى. قيل: افلا نقاتلهم؟ قال: صلّى الله عليه وسلّم: لا، ما صلّوا». فمن الفقهاء مَنْ افتى، بأنَّ حدَّ الإنكار والكره في الحديث، هو النطق باللسان أو السكوت عن المنكر والمكروه الذي يأتي على يد الأمراء وأصحاب السلطة. وافتى بأنَّ حدَّ الرضا والمتابعة في الحديث، هو في مشاركتهم والدخول معهم في العمل. ومِنَ الفقَهَاء مَنْ يتَّخذ من بقيّة الحديث نفَقاً يتسرّب فيه إلى السلطة ويصنع له مكاناً عندها. وذلك حين يتمسّك بنهْي الرسول الأعظم عن مقاتلةِ هؤلاء الأمراء الجائرين المفسدين إذا هم ظلّوا يحافظون على إقامة الصلوات، ويُفتون بأنَّ قتالَهم محرَّمٌ، لأنَّه يُضَيِّع على المسلمين الصلاة، وهي الركنُ الأول والأكبر من اركان بنيان الإسلام.

وبهذه الفتوى تَسلَم للأمراء إمارتُهم، ويدوم على رأس المسلمين ظلمُهم وجَوْرهم، ويبقى لهؤلاء الفقهاء جاهُهم وحظّهم من المِتع الرخيصة واللذّات العابرة. وهؤلاء الفقهاء، هم الذين يُمكّنون المتسلّطين الظَلَمَةَ على شعبنا، ومنهم حذَّر الرسولُ الأعظم عندما سمّاهم «علماءَ السوء» في الحديث المشهور المتواتر. وهم الذين يستحقون أن يُرمَوْا بقول سعيد بن المسيّب: «إذا رأيتم العالِمَ يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنّه لصّ». وإليهم قَصَدَ أبو ذر عندما خاطب سلمة بقوله: «يا سلمة لا تغشَ أبوابَ السلاطين، فإنّك لا تُصيب شيئاً من دنياهم إلّا اصابوا شيئاً من دينك أفضلَ منه».

ونحن لا نرغب أن نتمادى في هذا النوع من الحديث أكثرَ من ذلك. فهو على مُتعته، يَكفينا منه ما جئنا على ذكره، ويكفينا منه

أن نشير مرّةً اخرى إلى أنّ مسألة الحاكم في الفقه الإسلامي وفي الفكر الاسلامي ايضاً، هي التُربة التي يتفتّح فيها الإسلام ويتجدّد ويتطوّر، وفيها تنتعش حياة المسلمين وتتوهّج. فلا عجب إذا أخذتْ من الشأن والقيمة أكثر ممّا أخذت مسألة الصلاة والعبادات كلّها.

وفي هذه الحادثة التي سردها الإمام الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية ابلغُ تعبير واصدقُه عن شأن هذه المسألة وعن قيمتها وابعادها. قيل إنّ أحدَ قادة الاحتلال البريطاني للعراق حين سمع المؤذّن، سأل عن الضرر الذي يسبّبه هذا الأذان للسياسة البريطانية. فلمّا أُخبِرَ بأنّه لا ضررَ من ذلك قال: فليقل ما شاء، ما دام لا يتعرّض لنا.

وقد لا يكون لطبقة الفقهاء والوعّاظ هذا المدى الواسعَ والأثرَ الكبير، إذا هي قورنتْ بهذه الطبقة التي تَصنع منه االسلطة طبولَها وزمورَها. وهي طبقة الكتّاب والمفكّرين والشعراء، مِن الذين لم تعد الطرقات وأماكنُ اللهو تتّسع لرقصهم، فاحتلّوا صفحات الجرائد والمجلّات، وامتطَوُا الهواء، ودخلوا إلى كلّ منزلٍ من الإذاعة والتلفزة، وهم يحملون أوزارهم ويُلقون منها بالشكوك والوساوس والأوهام في نفوس الناس، ثمّ ينثرون عليهم هيبة السلطة والرعب والمخافة. ويجعلون منهم مزارعَ لتربية الأفكار والقيَم التي تَعهَد بها السلطة إليهم. وما أشدَّ حياءَ الكلمات وهي تخرج من أفواههم وتسيل على أقلامهم، حاملةً جراثيم الجهل والحماقة، نابضةً بعروق اللوْم والخسّة والنزالة! فما الكلمات إلّا رسالاتٌ خلقها الله لتربية بني البشر وتعليمهم، وليست إلّا وسائطَ بين عقل الإنسان وبين الإلهامات التي تنزل من خزائن غيب الله عليه. وما أشدَّ خجلَ الفكرِ والشعرِ وهما يُجلَدان جلداً على أبواب السلطة! فمن مفكّرٍ جلَس يُحملق في هيبتها وجمالها، فيستنبط النظريّات، ويضع

المبادىء، ويقرّب ويبعّد، ويحلّل ويركّب، ثم ينتهي إلى ما ينتهي إليه العِنّين. ومن شاعرٍ يَضرب خيالَه القاصرَ ضرباً مبرّحاً ليطير في الآفاق الموجودة وغير الموجودة، ليأتي بالصور العجيبة ويزيّنَ بها السلطة في المهرجان او في الاحتفال.

وإلى متى تبقى هذه القصّةُ مكتومةً ولا تصل إلى أسماع الناس، فيتحدَّثون بها ويَعجَبون لها؟ واعني بها القصّة التي حملَتِ الخزيَ كلَّه والمذلّة كلَّها لهذا الجواهري الشاعر المرجوم. وهو من وُلد في النجف الأشرف وغُذّيَ بأنْعُمِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم جحدها وكفر بها. وعاش في العراق إلى أن ضاق به، فقذفه نطفةً تسرح في الشرق وتسرح في الغرب، لا يعبأ بها إلّا اللاهون العابرون. وبقي الجواهري على هذه الحال من التشرُّد والتبرُّد، وهو لا يعرف ماذا يصنع وإلى أين يذهب؟ وفجأة سوّلتْ له نفسُه ان يذهب إلى الجزائر ويَطرقَ باب الرئيس الراحل هواري بومدين، لعلّه يصيب من فُتاته نثرةً ومن خبزه كسرةً، أو لعلّه يظفر منه بالتفاتة تعيد إليه شيئاً من الإخضرار إلى عروقه اليابسة. وعندما لم يسمحوا له بأكثرَ من أن يقترب من الباب، حَلَفَ عليهم وتوسَّل إليهم ان يأخُذوا منه كذبتَه التي سمَّاها قصيدةً وأن يوصلوها إلى الرئيس. وعندما صارت بين يديْه نظر إليها بومدين وهزَّ راسَه وابتسم ثم كتب على الصفحة الأخيرة منها جواباً له: «لا حاجة لنا في شعرك»، واعادوا له قصيدته وتركوه. ولعلّ صديقي الذي باح لي بهذه القصّة، وهو شخصيةٌ جزائريةٌ كبيرةٌ، كان مقرَّباً من الرئيس بومدين، يسمح لي ويتقبّل عذري إذا انا روَيْتُها كما سمعتها منه. وكان قد حلّفَني أن لا احدِّث بها أحداً ولا ارويَها إلّا بعد موت الجواهري نفسه. اوَليس عذري أنّ الجواهري قد مات من زمن بعيد هو عذرٌ وجيه عند هذا الصديق وعند من علموا

بما دار بيني وبينه ؟

وهل تخفى علينا الأسباب التي لأجلها لم يأبه بومدين بالجواهري، ولم يحتفل به، ولأجلها ردّه محمّلاً بالخزي عن بابه وصكّه بهذا الجواب القاصع ؟ أليس في هذه الأسباب موقف يعتزّ به الشعر والسياسة معاً ؟ لقد رفض بومدين، وهو السياسي البارع، أن يُخدَع بأكذوبةٍ من الشعر وأن يَسكر بالغرور من المديح، فيكيل للجواهري من مال الشعب الجزائري ويمنحَه من الحقوق، ما الشعبُ أولى به وأحوجُ إليه من هذا الراقص الجوّال على أبواب السَفَلةِ السفّاحين. وكان ولا شكَّ قد اطّلع من مصادرَ مختلفة في حكومته على شخصية الجواهري ووُضعتْ أخبارُه بين يديه. وأدرك أنّه شخصيةٌ قميئة وأنَّ أخباره دنيئةٌ، فآثر أن يتجاهله، وعدَّ نفسَه أنّه لم يسمع به. وإنّه لَموقفٌ حكيمٌ من رئيسٍ شَهِد له الساسةُ ورجال الحلّ والربط بالجمع بين الحكمة في الرأي وبين المقدرة على الصمود في الميدان. ولست أشكّ بأنّه حكم على الجواهرجي واتّخذ موقفه منه قبل أن يُحيط علماً بأخباره، وما ذلك إلّا لأنّه يعتقد أنَّ الشاعر الذي يُحِسّ بأنَّ له قيمةً ووزناً لا يتصاغر ولا يقف على أبواب الأُمراء والرؤساء، وإنْ كان يعرفهم، ولا يحني رأسَه لهم، فكيف به إذا كان لا يعرفهم ولا يعرفونه ؟ ولماذا يأتي الجواهري ويدقّ باب قصر الرئاسة على هواري بومدين وهو لا يعرفه ولا صلة له به من قبل؟ لقد رأى أنّه لا يَليق به وهو الرئيس الحكيم أن يستقبل هذا الرجل الذي كان يحلم بأن يَرتعَ في نعمته ويُحسَبَ في بطانته.

ثمّ هل تخفى علينا الأسباب التي لأجلها سارع حافظ الأسد إلى استقبال الجواهري واحتضانه وضمّه إلى بطانته واختصاصه بالمِنح والأعطيات والنعم الفارهة ؟ ونحن لا نحبّ أن نردّ عليه حجّته

في هذه الأسباب ونطعنَ بقوله، إنّه من عادة السلطة، أيّةِ سلطة، أن يكون لها علاقةٌ بأهل العلمِ والأدب والشعر، وأن يكون في بطانتها أناسٌ منهم يفكّرون فتقدّر السلطة تفكيرهم وتعتبره وتُفيد منه، وأناسٌ يُنشدون فيُلهبون الأحاسيس ويحرّكون الضمائر. ولا نريد أن نَمسّ مقالَه إذا هو قال، وأنا من الذين يُحبّون الشعر ويعشقونه، وكنت في أوائل زماني قد جرّبتُ أن أتعاطاه، ولن أسمح لأشغال السلطة أن تحجبني عن الاستمتاع به وعن معاشرة أهله والاستماع إليهم. ولكن الذي نردّه ونطعن به هو مبالغتُه في تكريمه وإسرافُه في الخلْع عليه، وإعطاؤه من المال في العام الواحد ما يكفي لإرواء مائة ضيعةٍ من ضِيعنا المحرومة من المياه، وإشباع مئات الآلاف من الأطفال بالحليب الذي سيعانون من نقصه عندما يكبرون. ومن أجل ذلك كان الرئيس هواري بومدين قد أراد له أن يرجع عن بابه، وآثر أن لا يُفرِّط بحقوق أطفال شعبه ويمنحها هديّةً إلى مُخادعٍ عابرٍ كُرمى لأكذوبةٍ يقولها فيه.

ونحن لا نعتقد بأنّ حافظ الأسد كان يجهل بأنّ خصمَه الألدّ في العراق، تمتّع بمدائح الجواهري قبله وأنّه أفاض عليه من التبجيل والنعم ما لم يقدرِ الجواهري على حمله، فرفس نعمه وغدر به وانهزم من البلاد. أليس الذي يصنع هذا الصنيع بولّي نعمته في العراق هو مهيّأً لأن يصنعه مع وليّ نعمته الجديد في سورية؟ وربّما كان من حقّ حافظ الأسد أن يطمع بأن يقول الجواهري فيه قصائد المدح والثناء، فيغنّى بها في كلّ مكان وتصبح سائرةً مألوفة على أفواه الناس. ولكنْ من حقّنا أنْ نقول، إنّ الشخص هو الذي يصنع قيمة نفسه بأعماله، وليس بشعرِ شاعرٍ ولا بكتابة كاتب. وإنّ الصغير الشأن، لن يزيد في شأنه جبالٌ من الشعر ولا بحارٌ من النثر، ومثلُه كبيرُ الشأن فلن يُقلّل من شأنه أن يقولوا به أو أن

يسكتوا عنه . ومن يدري ؟ فلعلّ هذه القصيدة التي رفضها الرئيس يومدين ، حوّرها الجواهري وغيّر فيها ، ثمّ أهداها من جديد إلى حافظ الأسد ! ولو رحنا نتقرّى ما قاله فيه من الشعر ، لوجدنا أنّ الكُلفةَ هي الغالبةُ على الذوق والطبعِ ، وأنّ النفاق هو البارزُ أكثرَ من الصدق ، وانّ لسانه هو الذي عبّر ونطق وليس قلبُه ، لأنّه لم يعد يحمل قلباً منذ زمنٍ طويل ، وربّما من اجل ذلك أيضاً شدّه إليه حافظ الأسد وضمَّه إلى بطانته ، فهو لا يضمّ إليه إلّا من فقدوا قلوبَهم وفارقوا عقولهم ، وعادوا لا يُحِسّون ولا يفكّرون .

وهل يوجد هناك في بلدنا ممّن لا يزال يحمل مثقالَ ذرّةٍ من شعورٍ وإحساس ، لا يحْمرّ وجهه خَجَلاً ويَندى جبينُه حياءً ، عندما ينظر إلى صحيفة «البعث» ، ويقرأ ما كتبتْه اليد المشلولة بالأحرف الكبيرة العريضة : «ودخلنا عصر الفضاء» ؟ وما أكثرَ ما ضحك الناسُ استهزاءً وسخريةً من هذا العنوان ، واصبحوا وهم يَنطقون بلسانٍ من الحيرة والذهول والتعجّب : ليس صحيحاً انّنا دخلنا عصر الفضاء ، لأنّ الاتّحاد السوفييتي ضحك علينا وصنع منّا لعبةً ، يوم ان ادخل برذوناً من براذين السلطة في جهاز قيادة السفينة الفضائية . وإنّني لأعجبُ لهؤلاء الناس الذين لا يفهمون ما هو التطوّر ، ولا يُرضيهم ان يَرَوْا بلادَهم تأتي في طليعة البلدان المتقدّمة ! ألا يَعلَمون انّنا نحن السبّاقون إلى الفضاء قبل الشرق وقبل الغرب ؟! ألا يَرَوْن انّ عقولنا هي في الفضاء ، وانّ حياتَنا تدور في الفضاء ، وانّ مصيرنا ينتقل من فضاء إلى فضاء ؟! ومهما تعبتِ البشرية واجتهدتْ فإنّها لن تصل إلّا إلى موضع أقدامنا في هذا الفنّ وفي غيره من الفنون العجيبة . وما بالُ الناس يفهمون أنّ عصر الفضاء لبلدٍ من البلدان هو ارتقاءُ هذا البلد مكانةً رفيعةً في العلم والوعْي . وهو ايضاً اتّخاذُه العلمَ أسلوباً للتفكير وللعيش في ميادين

الحياة كلّها ! إنّ بطانة السلطة عندنا هي التي تحمل أعباء التفكير عنّا ، فلماذا نُتعِب انفسَنا ونفكّر ؟ وهي التي تصنع العلمَ في مصانعها وتوزّعه في المعاهد والمدارس والمخازن وفي كلّ مكانٍ من بلادنا ، فلماذا نحن نتعلّم ونُجهِد انفسَنا عبثاً وباطلاً ؟

ومهما رُحتُ ألهو بعجائب هذه البطانة واحدّث عن فصولها والعابها فسأبقى مقصّراً ، ولذلك ارى من الخير ان ننصرف عن ذكرها ، فالناس يرَوْن منها اكثر ممّا ارى ويعرفون عنها اكثر ممّا اعرف . ولن تستطيع البطانة أن تُخفيَ عن الأعين صنيعاً من صنائعها ولا ان تَكتم عن الأفهام سرًّا من اسرارها . ولست أرمي فيما ذكرتُ من حديثها إلى أن اوسّع في الظنّة على سلطة حافظ الأسد ، ولا أن ازيد في اتّهامها كما يزيد المبغضون الحاقدون . ولكنّني ارمي إلى إثارة هذا السؤال في الأذهان وهو : هل من مسؤوليةٍ لسلطته في صناعة هذه البطانة وتركيبها ؟ ولا اعتقد أنّ هناك من يذهب إلى إعفائها وتبرئتها من المسؤولية ، لأنّ في ذلك ظلماً للمسؤولية ، وكذلك لا اعتقد أنّ هناك من يُعلّق في عنقها كلَّ شيء ، إلّا إذا اتّفقنا في القول إنّه لا يوجد في البطانة ولا في الشعب من يملك عقلاً او من يحمل إحساساً ولا يعيش على أرض هذا الوطن .

وفي مجمعٍ للأصدقاء ، رحتُ استمع إلى صديقٍ لي وهو يتحدّث بشأن هذه البطانة ، فقال وأطال ، وكان ممّا قاله : إنّ حافظ الأسد هو على جانبٍ عظيمٍ من الشرف والنبل ، يحمل بين جنبيه نفساً كبيرةً ملأى بالأحلام الكبيرة التي من بعضها ، أن تصير بلاده قويّةً يَحميها جيشٌ قويّ ، وان يرى التقدّم والرخاء يَدخلان إلى كلّ عائلة ويَنزلان في كلّ بيت . ألا ترى انّه فعل كذا وصنع كذا ، وانّه يَسّر الماء والكهرباء في هذه المنطقة ، وبنى المصانع وشقّ الطرقات

ي تلك المنطقة ؟ وهل هناك من يُنكر عليه هذا التفوّق المشهود و النجاح البارز في السياسة الخارجية ؟ لقد استطاع أن يُنقذ البلاد من عزلتها وأن يَجري بها في الملعب الدَّوْلي ، فما قصرتْ في جَرْيها بل أحرزتْ سبقاً طيباً . ثم راح يُسيِّرها بين تيارين أحدهما في أقصى الحرارة والآخرُ في أقصى البرودة ، فأخذ من حرارة هذا ومن برودة ذاك ما جعل له تيّارَه الخاصّ به وهو الاعتدال . وأنا على صلةٍ به ، وأعرف أنّه لا يحمل في داخله إلّا النيّة الطيّبة على بلده وشعبه ، وأنَّ همَّه وشُغله الشاغل في الليل والنهار ، هو أن يَحمل إليها الأمن والرخاء .

فقاطعتُه في الحديث ورحتُ أقول : ولكنّنا لا نرى غيرَ الفساد الذي انتشر وعبّأ أرضَ البلاد وسماءها ، فمن أين جاء هذا الفساد ؟ ومن هو المسؤول عنه ؟ فأخذ صديقي نَفَساً طويلاً ثم أجاب : نحن لا نختلف بأنَّ حافظ الأسد ليس وحدَه في السلطة ، فالسلطة واسعةٌ جدًا وكبيرةٌ جدًا ، يُقاسمه المسؤوليةَ فيها رجالٌ حافّون من حوله ، منهم القائمون على شؤون الأمن ، ومنهم على شؤون الاقتصاد ، وآخرون على شؤون السياسة والثقافة وغيرِ ذلك ، ولا يستطيع هو أن يعمل كلَّ شيء ، ولا أن يَدخل في الكبيرة والصغيرة ، وما ذنبُه هو إذا فَسَدَ بعضُ هؤلاء أو فَسَدوا كلُّهم ؟ ثمّ ما ذنبُه إذا ائتَمَن واحداً من الشعب على أمرٍ من أمور الشعب فخان الأمانة وبَرَعَ في الخيانة ؟ هل يعتقد أحدٌ أنّ حافظ الأسد جاء بهؤلاء ليخونوا البلاد وليُفسِدوا بين العباد ؟ وهل يعتقد أَحَدٌ أنّه أوصاهم بالخيانة والفساد ؟ أنا أعلم أنَّ قسماً من هؤلاء ، كان لهم دورُهم الكبير في توسيع الخلاف والشقاق بينه وبين السيّد صلاح جديد بأساليبَ خفيّة لا يعرفها ولا يقدر على مثلها إلّا جنّ الأرض وأبالستها . وأنّهم هم الذين يلعبون هذا الدور نفسَه بينه وبين أخيه رفعت ، ولا أشكّ بأنّهم

والقصور . وأرى من حقّي أن أقول له ، إنَّ الأمر ليس كذلك ، وإنّني لست قاصراً عن تحليل الظاهرات التي تقوم في المجتمع الإنساني ، ولا عن معاينة الأسباب والعناصر التي تَدخل في تشكيل الأحداث وفي وقوعها على ما ينبغي أن تقع عليه في الزمان والمكان . ولكنّني أعمَدُ أحياناً إلى وصف الحَدَثِ أو الظاهرة وأستغرق فيه استغراقاً يأخذ مني إحساسيَ المتوثّبَ الحارَّ ، ثم أخرُج منه بعد أن اطمئنَّ إلى أنّ ما قلتُه سيلقى في إحساس الآخرين توثّباً وحرارة ، وسيحرّك عندهم ما خمد من العواطف أو كاد أن يخمد . وإذا راح التحليل بكشفِه عن الأسباب وإبانته عمّا يُحيط بها من أشباهٍ ونظائرَ يُقدِّم للنفس إيضاحاً ويَحملُها على الإقناع أو ما يشابه الإقناع ويُقرِّب منه ، فإن الوصفَ يُخاطب الإحساسَ ويحرّكه ويؤثّر فيه ويَبعث صاحبه على المبادرة والإقدام . ونحن لا نشعر بأدنى ضيقٍ ولا حَرَج ، أن نأخذ ظاهِرة سقوط الشاه أو سقوطِ صاحبه تشاوشيسكو ونباشرَ تحليلَها ، فنبدأ بالشخصيّة وما فيها من ميولٍ وطباع ، ثم نأتيَ إلى الأعمال ونُبيِّن ما فيها من رويّة أو عَجَلَة ومن ظلمٍ أو عدل ، ونَميلَ إلى الخطط ونقولَ ما تَحْملُه من قوّةٍ أو ضعف ، وإلى تجاوبِ الشعب مع سياسة السلطة أو معارضتِه لها ، ثمّ نتحدَّث عن الصراع الدَّوْلي ، وعن التحوّلات التي تطرأ على البلدان المجاورة والبعيدة ، وعن أثر ذلك كلِّه على حدوث هذه الظاهرة التي نُعنى بتحليلها ونَهتمُّ بدراستها .

وإذا كانت البطانة في بلادنا ، مثلُها في ذلك مثَلُ أخَواتها في البلدان القلِقة المتأرجحة ، تسعى جاهدةً إلى أن يكون رباطُها بالسلطة رباطَ ابتزاز ، فإنَّها تسعى من جانبٍ آخر ،

بكلِّ ما أُوتيَتْ من قوّة ودهاء، أن لا يَصير هذا الرباط يوماً رباطَ مصير. فهي تريد أن تقاسمَها المَسرَّةَ ولا تريد أن تشاركَها في دفع المَضرَّة. وتُحبُّ أن تَستأثر لنفسها بكلّ المنافع، ولا تُحبُّ أن تَنزل لحظةً واحدةً تحت حكم المسؤولية. أقول ذلك وأنا أذكر الآن نماذجَ من هذه البطانة كيف كانوا يُسارعون في كلّ مكان إلى البَراءة من رفعت الأسد، يوم أن دقَّتْ ساعةُ الواقعة بينه وبين أخيه الأكبر حافظ. وكأنّي بهم وقد غَشِيَتْ وجوهَهم سحابةٌ قاتمةٌ من الهلع، وهم يَختلقون الحُجَّة وراء الحجّة لدفع المسؤولية عن أنفسهم وتحميلها إلى رفعت وحدَه. من مثْلِ قولِهم إنَّهم ضعفاءُ لا قوّةَ لهم، ولا سلطةَ عندهم، ولا سلاحَ في أيديهم، والمسؤوليّةُ لا تقع على الضعيف الذي لا يملك شيئاً، أو إنَّهم كانوا نُصَحاء لرفعت، ولَشَدَّ ما حاولوا أن يُخفِّفوا من غُلْوَاء بطشه وطيشه، وكثيراً ما سعَوْا معه إلى أن يَستعمل الرفقَ واللين أسلوباً في معاملته، والعَدل والإنصاف ميزاناً في أحكامه. وكأنّي بهم وهم يَصنعون القصص التي تَصبغ سيرةَ رفعت بالسوء وتُلوِّنُها بالفساد، ولا حولَ لهم في ذلك ولا قوّةَ لا من قريبٍ ولا من بعيد. بل هم أوفياءُ خُلَصاءُ للقيم الرفيعة والمُثُلِ السامية، فلا يَخونون الشعب ولا يتواطأون على حقوقه مع الفَجَرَةِ الظَّلَمة.

وكنتُ أنظر إلى هؤلاء بازدراء وأستمع إليهم باستهزاء وأنا لا أعجَب من صنيعهم وما هم فيه من خِسّةٍ ودَناءة. وكيف أعجَب وأنا العليمُ بطبعهم وما سيفعلون قبل الواقعة وبعدَها، سواءٌ مع رفعت أو مع غيره! بل كنتُ أغضَب وآسى كلَّ الأسى وأنا أراهم في هذه الحال، ليس لأنّهم يَزعمون ويَرجفون أو لأنّهم انهزموا من وجه العدالة والإنصاف، وإنّما لأنّني كنتُ أحدس بما سيصنعون وهم من حولِ رفعت قائمون وقاعدون، ساعةَ تَحينُ الفرصةُ ويأتي

الميقات الموعود . وكنتُ اتحدّث إليه بشأنهم سرًّا وجهراً على خلوةٍ ومع الناس ، واقول له : لا ينبغي لهؤلاء ومَنْ هم على شاكلتهم ان يتجاوزوا الحدَّ المحدودَ لهم والخطَّ المرسوم عند السلطة التي يَهمّها ان تصون سيرتها وان تُثبِّت مكانتَها في القلوب . وكان يَعرف ذلك فيهم ، بل وكان يُحدِّثني بأكثرَ ممّا عندي ، ويقول كلاماً لا مفرَّ من التفكير به والاعتراف بقيمته . ومن ذلك قولُه : كيف نستطيع ان نستغنيَ عن هؤلاء وهم يمثّلون جمهوراً غفيراً من الشعب ، ولهم كلمتُهم الموقَّرة المسموعة ورايُهمُ المُطاع من كثيرٍ من الناس ؟ وإذا كان يُراد منّا ان لا نُعنَى بهم وان لا نُقيم لهم وزناً ، فلماذا لا يُطْلَبُ إلى الشعب أن يَصرِف النظر عنهم وان يَستبدلَهم بآخرين اصفى منهم طويَّةً واكرمَ اعمالاً ؟ نحن من حقّنا ان نخشى على انفسنا وعلى سلطتنا من نَقمة الشعب وغضبته إذا ازحناهم وجئنا بأناسٍ غيرِهم ، ممّن ليس لهم عنده موقعٌ مثلُ موقعهم ولا وزنٌ مثلُ وزنهم .

وإنَّ لهذا الكلام قيمةً من حقّها ان تُعتبَر ولا تُنكر ، إذا رحنا نتبيَّن دورَ الشعب في اختيار وُجهائه وطليعته ومَنْ هم ممثّلوه عند السلطة وعند كلّ شأنٍ من شؤون الحياة . فليس الشعب قاصراً ولا مجنوناً لكي يُعفَى من المسؤولية في كل ما يَجري له وعليه ، فلماذا نُلقي على السلطة وحدها تَبِعَةَ اختيار هذه البطانة ، عندما يَتّضِح لنا انَّ وضعَها في الشعب وموقعَها منه له دورُه في اختيارها وتقريبها ؟ ولو لم يكنْ لها هذا الموقع وهذا الاعتبار لما القتِ السلطة إليها بالاً ولا سعتْ إلى إعزازها وتمكينها . وإذا نحن رحنا ننظر في كلام رفعت من الجانب الآخر ، فإنّنا واجدون فيه ولا شكّ ، انَّ الميل إلى السلطة وصيانتِها وتثبيتِها هو الباعثُ الأكبر له وهو الغايةُ الكبرى . فليس صحيحاً انَّ الذين لهم وجاهةٌ اجتماعيّة هم

وحدَهم لهم الحقُّ أن يقتربوا من السلطة، وهم وحدَهم عندهم القدرة على أن يشاركوها تسييرَ الأمور وتدبيرَ الأوضاع. ولا ينبغي أن تكون الوجاهةُ وذيوعُ الصيت في المجتمع وحدَها سبباً للتقريب والمشاركة. فأين هوَ إذاً محلُّ الخبرة والذكاء والاستعداد والقدرات؟ وأين هو دورُ القيَمِ والأخلاق في الشخصية؟ وليس صحيحاً أنَّ الشعب إذا رأى السلطة قد اختارتْ اشخاصاً ليس لهم شُهرةٌ ولا وَجاهةٌ صار من حقّه أن يَغضب عليها ويقومَ في وجهها. فهذا الاختيار نفسه لهؤلاء الناس المغمورين يَصنع لهم وجاهةً ويَنشر لهم صيتاً، كما صنع من تَقَدَّمَهم وكما نَشَرَ لهم. ونحن لا نختلف أبداً في أنّ السلطة في بلداننا عندها القدرةُ كلُّ القدرة على أن تَرفع مَن تشاء من صفوف الشعب وتُقرِّبَه إليها، وعلى أن تُخفِض من تشاء وتُبعدَه عنها. ومهما كان عندنا مِن اعتباراتٍ ومن موازينَ اجتماعيّةٍ أخرى، فإنَّ اعتبارات السلطة وموازينَها تظلُّ هي الأرجح وهي الأقوى في نظر الشعب وفي نظر القانون.

ولم يكن حديثُنا مع رفعت عن هذه البطانة مرّةً أو مرّات، بل كاد أن يكون في كلّ يوم. ولماذا لا يكون كذلك، والمسألة ذاتُ شأنٍ كبير، وهي من السلطة عصبُها الحسّاس؟ وممّا لا زِلتُ أذْكره، أنّ الحديث قد أُثيرَ حولَها بتوسّعٍ وتفصيل، فقال رفعت: إنَّ هؤلاء الذين هم حول أخي الأكبر حافظ، لم أكن لأختارَهم وأُقرِّبَهم لو فُوِّضَ إليَّ أمرُ الاختيار والتقريب. وربّما لَو اطّلعنا على داخلِه، لوجدنا أنّه ليس لديه قناعةٌ بهم جميعاً أو بالقسط الأكبر منهم، ولكنّ هناك اعتباراتٍ لا يستطيع أن يَقهَرها وأن يُغيِّرها، ولا بدَّ له من النظر إليها ومن اعتبارها ورعايتها. وأُقدِّر أنَّ لنا معَهم مواجهةً، قد لا يكون الموعد معها قريباً، لكنّه ليس بعيداً أيضاً. ثم إنّه التفتَ إلى هؤلاء الذين هم حولَه هو، وراح يُردِّد من القول

ما كان يقوله لنا دائماً : اعتقد انّني لا اجهل احداً منهم ، فلا يوجد من بينهم من له خَطَرٌ كبير او تطلُّعٌ ايسطوَ على ما في يديّ ويحرمَني منه . ولا اريد ان امنع عنهم حقوقهم إذا هم اخلصوا القيامَ في واجباتهم ، ولا بأسَ عليهم ان يوسّعوا على أنفسهم بعض التوسيع إذا لم يكن في ذلك تهديدٌ ولا إنذار . ومهما بالغتُ في مراقبتهم والحظرِ عليهم ، فسيظلّ إغراءُ ما في الحياة أقوى منّي عندهم ، وستبقى نفوسهم تترقّب لتصطاد الفُرَصَ التي تُمكّنهم من الانبساط في التمتّع . وليسوا هم في هذه المزيّة وحدَهم ، وإنّما يكاد الناس يكونون جميعُهم مِثلَهم ، ينتظرون مرور الفُرَص ويتهيّأون لاستقبالها أو للانقضاض عليها .

وأذكر انّنا عُدنا إلى الحديث يوماً بشأن هذه البطانة ، وكان سبب هذه العودة أحداثاً من بعضهم لم تكن مرغوبةً ولا متوقَّعَةً منهم . وأذكر انّني كنتُ إلى جانب أولئك الذين اظهروا عن مَيْلهم إلى التشديد على المراقبة والتأكيد على الحزم ، فنظر إليّ من بينهم ، ثم حدَّق بي وقال : يا اخي ! باللّه عليك عندما تَصير السلطة في يدَيْك ، اطلب جنوداً من السماء تنزل وتساعدك في تصريف الأمور . يا اخي انا ليس عندي إلّا هذا الشعب ، فمنه يأتي الموظّف والجندي والعامل والصّديق والعدوّ . ولَوِ اطّلعتم على ما يَمرُّ بين يديّ كلَّ يوم من موافقةٍ على عقوبات ومن توقيعٍ على قرارات تقضي بالحزم والشدّة ، لهالَكم الأمر وطلبتم إليّ التلطّف والتخفيف . ثم انعطف يتحدّث على أصحاب الأعمال وعلى التجّار ، وكان ممّا قاله : نحن لا ندري لماذا نُلام على علاقتنا بهؤلاء ؟ بل نُتّهم في هذه العلاقة اتّهاماً لا نرَى أنّه في محلّه . لماذا لا تُلام السلطات السابقة والتي قبلَها ثمّ تلك التي قبلَها على انّها جميعَها تعاونتْ معهم وأبقتْ عليهم ؟ إنّ منهم رجالاً كانوا قد شاركوا فيما مضى في جهاز الدولة

السلطة، وكان لهم قَدَمٌ راسخةٌ في بناء الأجهزة الإدارية، في شتّى ميادين الحياة من مجتمعنا. وليس بين ايدينا تهمةٌ على أحدٍ منهم يستحِقُ ان يُعاقَب ويُطرد أو تُصادرَ امواله وأملاكه، ولا نرى أنّنا في تعاوننا معهم نرتكب جريمةً، ولا نَخون عهداً أو ذمّةً. صحيحٌ أنّهم يَكرهون حزب البعث ولا يَدّخرون له في أنفسهم إلّا النوايا القائمة السيّئة، ولكنْ لا نستطيع ان نحاكم إنساناً على الحبّ والكره وعلى النوايا التي يَطويها في داخله، إذا لم يَقُم بأعمالٍ أو إذا لم يَخلق آثاراً توجِب محاكمتَه او تدعو إلى عقوبته. ونرى أنّه ربّما كان في علاقتنا معهم وصِلَتِنا بهم ما يخفّف من حقدهم وكراهيّتهم على السلطة والحزب معاً. ونحن لا نجهل الشائعات السارية بين الناس، عن هؤلاء وما تَرويه عن الدور الكبير الذي لَعِبوه في السرّ والعلن وفي الداخل والخارج، في بثّ الخلافات بين أعضاء قيادة الحزب منذ قيام الثورة. وربّما يكون صحيحاً ما يُقال عنهم من أنّهم مهيّأون حاضرون للقيام بأيّةِ لعبةٍ لتفريق قِوانا وتشتيت شملِنا. ومهما كان امرُهم فنحن لا نَخشاهم على انفسنا، ونحن يقظون ساهرون، نراقب كلَّ ريحٍ تَدخل إلينا، ماضون لا نَلوي على شيءٍ إلّا إذا كان فيه ما يعزّز وجودنا ويَحمينا وشعبَنا.

وكنت استمع إليه، وهو يتابع الحديث في مثل هذا الكلام، وعلى وجهه التماعةٌ من الانفعال اللطيف الذي يبَشّر بالخير ولا يُنذر بالوَيْل، وانا اقول في نفسي ولا أستطيع أن أشرك معي غيري: وكيف لي ان افكّر بإنزال الملائكة من السماء بعد أن أخرجْتَ أنتَ الجنَّ كلَّ الجنّ من الأرض؟

ج - حرب تشرين

وإنّما كان من حقّها ان يسمّوها معاركَ وليس حرباً ، فالحرب لا تزال قائمة بيننا وبين إسرائيل . وهي قد تَخفّ وقد تضعف ، وقد تَخفى وتتّخذُ أشكالاً والواناً ، ولكنّها لن تنتهيَ ولن تنقطع . ولو لم أكن قد شاركتُ في هذه الحرب وشاهدتُ بنفسي حجمها وشكلها ، لكنتُ مقسوراً على ان اصدّق ما قالتْه السلطة عندنا وما نشرتْه وأذاعته عن هذه الحرب . ولكان من السهل أن يتسرّبَ شيءٌ من قولها إلى نفسي في الظلام ويأخذ مكانه عندي من الاعتبار والتصديق . ولأنّنا سنَجهر برأينا ولن نستتِرَ على شيءٍ رأيناه بأبصارنا ، ولأنّنا لن نَميل إلى الحَيف والظلم فيما سنقوله ولن نتقصّد أن نَجنيَ على رجل أو رأي أو عقيدة ، فنحن سنقدّم خلاصةً جامعةً واضحة عمّا قالته السلطة ونشرتْه ، وما تكاد تقوله وتنشره كلَّ يوم عن هذه الحرب وما خلّفته من آثارٍ ونتائجَ .

فهي تقول ، إنّ العربيَّ تغلّب في هذه الحرب على عقدٍ كثيرة كانت متمكّنةً في نفسه وتخلّص منها . ومن هذه العقد الكئيبة القاتمة ، أنه بات الآن لا يصدّق أنّ إسرائيل هي أسطورةٌ في تفوّقها الحربيّ والعلميّ والحضاريّ ، وأنّها لا تُغلَب ولا تُقهر ، بعد أن كَشفتْ له الحرب عن شكواها ووجعِها من الضربة التي فاجأها بها العرب ، وعن هزيمتها وعنِ انحسار ما رسمتْه من خطط وما وضعتْه من أفكار . ومن هذه العقد استرجاعُ الثقةِ إلى نفس العربيّ ، بعد أن فقدها مدّةً طويلةً من الزمن ، وبعد أن كان يعتقد ، بأنّ إسرائيل هي التي تَرمي بقوّةٍ وكبرياء وأنّ العرب هم الذين يتلقّوْن بضعفٍ وذلّة ، وإسرائيلَ هي التي تبدأ وتباشر وهي التي تُنهي وتَنتهي ، وليس للعرب إلّا أن يقبلوا ما يَأتيهم وما يُملى عليهم . ولماذا لا تعود

الثقة إلى نفسه، وقد عاين في هذه الحرب أنّ العرب هم الذين بدأوا الضرب وباشروا وفاجأوا إسرائيل بقوّةٍ كبيرة وكبرياءٍ قويّة، وطامنوا من غرورها وكسروا عنفوانها. ومن هذه العقد، ولادةُ أملٍ جديد في حياة العربيّ، بعد يأسٍ طويلٍ مرير، يقول ويؤكّد على القول بأنّ العرب قادرون على استرجاع الحقّ الفلسطيني الضائع الذي لا يعترف به العدوّ، ثم على تحرير فلسطين وتخليصها في المدى البعيد. وانّهم أكفاء لأنْ يقوموا من جديد بالدور اللائق في بناء الحضارة الإنسانية، وأن يُسهموا في صنع تقدّم الإنسان، كما كان أوائلهم قد صنعوا في أكثرِ أصقاع الدنيا وزواياها. ومن هذه العقد أيضاً، تحريرُ الإنسان العربيّ مِنَ الأغلال التي تَغلّ عقله حتى صار كالحجر، وتَصفد نفسه حتى أصبح كالجُلمود الصقيع لا حسّ فيه ولا شعور ولا تطلُّعَ ولا أمنيات. فقد الانَتِ الحرب هذا الحجر في عقله وكسرتْ أغلاله وأذابَتِ الصقيع من نفسه، وأحيتْ إحساسه وشعوره وملأتْهما تطلّعاتٍ وأمنيات. ولم يعد بعد الآن من عذرٍ للعربي إذا هو حمل واحدةً من هذه العقد التي ذكرناها أو ما ينشأ عنها من أوضاع أو ما يمتّ إليها بسببٍ قريبٍ أو بعيد.

وتقول السلطة أيضاً: لقد كانت حرب تشرين عاملاً على توحيد شتات العرب والتأليف بين قلوبهم، فأصلحوا ما كان فاسداً من العلاقات فيما بينهم ووصلوا ما انْبَتَّ وانقطع من الروابط. واخضرَّتِ الآمال في كلّ مكان من الأقطار العربية بعد أن دبّ إليها اليباس وتسلّط عليها الذبول. وخَلقتْ عندهم نوعاً جديداً من النشاط ومن التعاون، صاروا معهما أكثر اندفاعاً إلى البذل والتضحية وأكثرَ اهتماماً بالقضايا العربية. وبدَوْا أكثر تفهّماً للمعطيات الدولية وما يجري في الشرق والغرب من تناطح وتنافس. واتّخذوا لأنفسهم وضعاً جديداً أصبحوا فيه أكثر تلاؤماً مع شروط الحياة

ومع التطوّر السريع للعلم ولاستعمال الآلة . وكانت حربُ تشرين وبالاً ونكبةً على إسرائيل ، فقد انزلتْ فيها خسائرَ مُرهقةً في الأرواح والعَتاد والزرع والضرع ، والقت في النفوس رعباً وهلعاً إلى حدٍّ دفع عدداً كبيراً من السكّان للفرار والهجرة إلى اوروبا وأمريكا . وكذلك القتْ ظلّا قاتماً على عقول القادة في إسرائيل ، اصبحوا معه يشكّون بما كان مسلّماً عندهم لا جدال فيه من الاعتقاد والقول ، بأنّ العرب ضعفاءُ اغبياء ، لا رجاء في نهضتهم ولا خوف من قيامتهم ، فهم متنازعون متناحرون فيما بينهم ، وهم مفرّقون ممزَّقون ، وهم اذلّةٌ مرهقون ، من القمع والتسلّط المُشهَرَين عليهم من حكّامهم الذين جعل منهم الغرب آلاتٍ ووسائلَ ، يُسخّرها متى اراد بالأسلوب الذي يرغب إلى الغرض الذي يشاء . وكانت الحرب لساناً عربيًّا مبيناً ، اوضحتْ للشرق وللغرب معاً ، انّ الأمّة العربيّة قادرةٌ في الإنسان وفي الآلة والوسيلة على الدفاع والهجوم ، وانّها لن تصير بعد اليومِ ملعباً أميناً لما يُظهر الغرب ولِما يُخفي من أحلامٍ وأطماع . وهي تطلب إلى المؤسّسة الغربيّة الفاعلة والمؤثّرة في العالم كلّه أن تعيدَ النظر في علاقاتها مع الوطن العربي على ضوء هذه الحرب وما ولّدتْه من معطَيات جديدة ، وتسألها ان لا تبقى مرهونةً بأقوال إسرائيل وافعالها في شرقنا العربي . فالمستقبل هو للعرب اكثرَ ممّا هو لإسرائيل في اضعف الحالات واقواها ، وعلى شتّى الأصعدة . وإذا كان لا يوجد في الأفق ما يشير إلى هذه النظرية ويبشّر بها ، فإنّ حرب تشرين تقوم مقام الإشارة إليها وتَحلّ محلّ البشرى بقدومها . وامّا عن الخسائر التي تكبّدتْها بلادنا في هذه الحرب ، مِن قتلٍ ومن خراب وتدمير وضَياع ، فإنّ السلطة تؤكّد على انّها كانت اقلّ ممّا توقّعته وممّا حسبته في حسابها انّه سيكون . وكذلك لم تقصّر السلطة في صنع كثيرٍ من الدروس ووضعها أمام

الشعب على انّها مستفادةٌ من هذه الحرب منتزَعة من آفاقها ومن الشروط الجديدة التي خلقتها في المنطقة وبين شعوبها المتصارعة .

تلك هي الأفكار الكبرى التي تحوم حولها أحاديث السلطة واقوالها في حرب تشرين . ولا اظنّ انّني نَسِيتُ منها شيئاً او قصَّرتُ في عرضها او تجاهلتُ جانباً من الجوانب التي تَهمُّ السلطةَ وتحتلّ مكاناً كبيراً من عنايتها . بلى ! إنّني اهملتُ ذكر مبالغات السلطة وإسرافها في الحديث والتحليل ، والدخول في التفصيلات التي دخلتْ وتغلغلتْ فيها . وعدَّيتُ عن سرد الحكايات والأخبار التي تُروى عن الاتّصالات والمشاورات والاجتماعات داخل البلاد وخارجها ، وما يدخلُ منها بصورة مباشرة في تركيب الحرب وما يدخل بصورة غير مباشرة . فهذه المسائل كلّها ، قد اشتملتْ خلاصتُنا الميسَّرة على روحها وعلى ما ينبغي أن يُعرف منها . ومَن اراد الاستزادة في مسألةٍ من هذه المسائل ، فليس هناك أمامه أكثر من المصادر التي تُغني وتَزيد في السرد والتحليل ، من صحفٍ ومجلات وكتب وبرامجَ إذاعية ومتلفزة ، أُعدَّتْ كلّها وسوِّيتْ أثناء الحرب وبعدها .

ولسنا نشكّ لحظةً في الاعتقاد والقول ، بأنّ الجندي العربي هو مَثَلٌ اعلى على حفظ الأمانة التي تُعهد إليه وعلى التضحية في سبيل هذه الأمانة التي هي هويَّته وأرضه وحضارته ودينه . وأنّه لم يتردّد في هذه الحرب وفي الحروب التي تقدمَتْ عليها ، في السخاء بعطائه وبَذله ، وسوف لن يتردّد في المستقبل . وكذلك الشعب العربي الذي هو أبُ هذا الجندي وأمُه ، ليس عنده من أملٍ يحيا في داخله إلّا أن يقدِّم ويُعطيَ في الحرب وفي السلم لكي لا يُهانَ بين الشعوب ويَظهرَ انّه ضعيف متخلِّف لا كرامةَ عنده ولا هدف يعيش له ويسعى إليه . فنحن لا نرى لنا حقّاً أن نؤاخذ الجندي والشعب

في القول الذي يقوله كلٌ منهما وفي العمل الذي يعمله ، وإنّما الذي يؤاخَذ ويُنتقَد هو السلطة . وكيف لا يكون ذلك وهي المدبِّر والمسيِّر لحركة الشعب ، وهي الموجِّه القيِّمُ على أعماله وتطلّعاته ، وهي وجهه والممثِّل له في داخل البلاد وخارجِها ؟

ونحن لا نعترض على السلطة عندما تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء ، فهذا حقّها ، وتلك حرّيّتها . وإذا كانت هي الأقوى وبيدها آلة الردع ووسيلة الزجر ، وإذا هي تجاوزتْ ورأتْ أنّ من حقّها أن تمنعنا أن نقول إلّا ما تشاء هي أن نقول ، وأن نَعمل إلّا ما تريد هي أن نعمل ، فإنّها لا تستطيع أن تزرع في نفوسنا إلّا القناعة التي نشاء ولا تضعَ إلّا الاعتقاد الذي نختار . أقول ذلك ، وأنا أشير إلى ما عند الشعب من أوّله إلى آخره من قناعة يحملها في نفسه عن هذه الحرب منذ اندلاعها حتى اليوم . فإذا هو رآها قد تكشّفتْ عن اتّفاقية معسكر داوُود على الجبهة المصريّة بين مصر وإسرائيل ، وانتهتْ إلى فقدان الجولان وضَياع أهلها على الجبهة السورية ، فكيف سيقتنع بما تقوله السلطة من تمديحٍ وتبجيل لهذه الحرب ومعطَياتها وآثارها ؟ وإذا رأى نفسه أنّه لا يستطيع أن يعلن عن رأيه بهذه الحرب كما يريد أن يعلن ، ولا يقدر أن يناقش السلطة في قناعتها بها ويحاورَها فيما تقوله عنها ، فكيف سيقتنع بأنّ الحرب حرّرَتِ الإنسان العربيَّ من أغلاله ، وأعادتْ له ثقته الضائعة ؟

ولو رحنا نستطلع رأي الشعب العربي في مصر من أوّله إلى آخره ، ونتعرَّف على قناعته بأنور السادات قبل الحرب وبعدها ، لوجدْنا أنّه لم يقتنع به رئيساً له ولا قيّماً على قيادته . ليس لأنّه صنع اتّفاقية السلام مع إسرائيل بطريقةٍ أورثَتِ الذلَّ لمصر وللأمّة العربية معها ، ولكنْ لأنّه يعلم حقّ العلم أنّ السادات منذ أن دخل معترك الحياة السياسية ، لم يمضِ عليه وقت طويل حتى أصبح

موظفاً يعمل لحساب الإدارة الأمريكية . فكيف نريد من الشعب أن يقتنع بحربٍ ، أكبرُ من يدير رَحاها ويُشرف عليها هذا الموظَّف ؟ وكيف سنُفلح في إدخال اليقين إلى نفسه بأنّ نصراً موزَّراً جناه هذا الموظَّف من هذه الحرب ؟ إنّ الشعب لم يثقْ به حقًّا ولم يقتنع بحربه حقًّا ، وكان له من ضميره دليلٌ على ما وقع أثناء الحرب من تواطؤٍ ، وما وقع بعدها من هجومٍ على اتِّفاقٍ هو أقرب إلى الحرب منه إلى السلام . وكيف سيقتنع الشعب عندنا في سورية بحافظ الأسد ، وقد انكشف له أن هذه الحرب التي اصطنعها إلى جانب السادات ، كانت لعبةَ لاعبٍ خاسر وحيلةَ محتالٍ منهزم ؟ وإذا كان في بدء سلطته ، قد أعاره الشعب شيئاً من ثقته ، فإنّه أخذ يندم عليها وبدأ يستردُّها منه شيئاً فشيئاً . ولا أتردَّد لحظةً في الاعتقاد والقول ، بأنَّ لهذه الحرب دوراً كبيراً في إيقاظ الشعب وإثارة قلقه وشكوكه في نوايا حافظ الأسد ، وتحريك السخط والاستهزاء عنده من هذا الاختلاف الذي رآه بين ما يُظهره من قولٍ وما يُخفيه من عمل .

ولا أظنّ بأنّ الشعب كان ضعيفاً مخدوعاً ، يوم أن راح يستمع إلى أقوال السلطة وهي تقول له : لا ضَيرَ عليك بعد اليوم ، فها هي الآمال تُطالعك كلُّها ، وها هو النصر قادمٌ إليك كلُّه ، وإنّما الضعيف المخدوع كان هو السلطةَ نفسَها . فقد علم الشعب ، وهو يستمع إلى أناشيد النصر وأهازيج الفرح بالفوز والغلب ، أن العدوّ على أبواب دمشق وعلى أبواب القاهرة ، وأنّه ليس هناك من مانعٍ يمنعه من دخولهما . علِم ذلك وسكتَ وضحك في نفسه ، وسَخِر من السلطة ومن هرجها ومرجها ومن أقوالها ووعودها . وكان يتمنّى من كلِّ قلبه ، لو أنّ العدوَّ دخل البلاد وعفس النظام وشرب بجانب حفرته كأساً من الخمر المعتَّقة . ولا يوجد بيننا من يستطيع أن يُنكر أن كثيراً من الدُّور والمنازل في دمشق ، كانت قد أقفرتْ من أهلها

وقطّانها وهي تحمل الرايات البيضاء، إيذاناً بالتسليم ورمزاً بالترحيب. ومن يستطيع ان يُنكر انّ الناس ظلّوا خارج المدينة ومن حولها أيّاماً معدودةً، وهم يبتهلون ويَدعون بألّا يعودوا إلى منازلهم المهجورة إلّا على موعدٍ مع الساعة التي كانوا يسمّونها ساعةَ الفرح والخلاص، وهي ساعة دخول العدوّ الذي لم يعُدِ اسمُه عدوًّا وإنّما هو مخلِّص؟! إنّ شعباً هذا هو شأنُه، ليس شعباً مخدوعاً، وإنّ سلطةً هذا هو شأنُها لهي سلطةٌ مخدوعةٌ ومغمورةٌ كلُّها في الخديعة. الا ينبغي أن نفكّر ونتساءل، هل شعبنا مريضٌ كلّه، ومنحرفٌ كلّه، وخائنٌ كلّه، عندما يتمنّى أن يأتيَ العدوّ ويكنسَ النظام القائم ويُطهِّر البلاد منه ثمّ يأخذَ مكانه ويتولّى إدارة الأمور بنفسه؟ أليس هناك ما يدعو إلى التعجّب والهزء والسخرية أكثرَ من التفكير، عندما يصل الشعب إلى هذا الموقف من العدوّ، فلا يعود يرى فيه عدوًّا ولا غاصباً ولا محتلًّا اكثرَ ممّا يرى فيه مخلِّصاً ومنقذاً ومنجّياً، ويرى النظامَ القائمَ هو العدوّ والغاصبَ والمحتلّ؟ وهل هذا العيب يعود على الشعب وحدَه، والنظامُ القائم هو بريءٌ منه؟ وهل الشعب هو سببه وعلّته، والنظامُ لا ناقةَ له فيه ولا جَمَل؟ ونحن لا نسأل لنعرف الجواب، فالأجوبة هي أصرح من الأسئلة وهي أوضح منها.

ومن اين لي ان انسى تلك المقالات التي راحتِ السلطةُ تخطفها من مجلّات الغرب وصحفه، وتَنشرها في مجلّاتنا وصحفنا وتُذيعها على شعبنا؟ وهي مقالاتٌ كتبها خبراءُ فنيّون في صناعة الحرب وإدارتها، ومحلّلون مطّلعون على ما خَفِيَ من الأمور اكثر ممّا ظهر منها. وفيها إشادةٌ بحركة الجيش المصري وخططه وأعماله في إدارة المعارك، وفيها إشارات إلى ما قامت به الجبهة السورية من أعمالٍ وحركات غنيّةٍ بالبطولات الفرديّة التي عرفتِ السلطة كيف

تفقها لكسب التأييد وكيف تستغلُها لجلب النصرة. وكذلك لم تَبقَ مخفيّةً على أحدٍ من الشعب، تلك الشجاعات النادرة التي قام بها ضبّاطٌ شجعانٌ وجنودٌ بواسل، قيل إنّهم تصرّفوا بوحي من ضمائرهم الحية وبوازعٍ من أخلاقهم الرفيعة ومن حبّهم للفداء والتضحية في سبيل الوطن. ومنهم من نال شرف الشهادة، ومنهم من حظي بالتسريح والإبعاد، وانفردتِ السلطة وحدَها بجني ثمار هذه الشجاعات، ولكنّه تَمَتُّعٌ قليلٌ إلى أمدٍ قصير.

وأمّا عن هذه المقالات ونشرها وترويجها، فقد أرادت السلطة من ورائها، أن تُدخل إلى رَوع الشعب مقدارَ ما هي عليه من المهارة والخبرة والتفوّق، وأن تكون خدائعُها له موثَّقةً بوثائقَ، ومكرُها حائزاً على شهادات، ليَطيبَ لها بعد ذلك أن تتمادى في السيطرة وبسط النفوذ. نعم! صنعَتِ السلطة عندنا ذلك، وهي لا تَدري أنّ الشعب قرأ تتِمّة المقالات قبل أن تقرأها السلطة، وربّما قبْل أن تعرف بها. فللمقالات تتِمّات وبقيّات، يتحدَّث فيها كاتبوها عنِ الغباء وعنِ الحماقات التي تحرّكتْ في رؤوسِ القيادتين المصرية والسورية، صَرَفتْ سَيْر المعارك وغيَّرتْه عنِ اتّجاهه وهو ضربُ العدوّ وقهرُه، إلى الوقوف والتردّد ثمّ إلى التخاذل والتراجع ثمّ إلى الهزيمة. بل يتحدّثون فيها عن بطولة العدوّ الذي فاجأتْه الضربة الأولى، فأنزلتْ به قليلاً من الذهول، ما لبث أنِ استعاد وضعه الأوّل الذي عُرف به من الذكاء في التصرّف والقدرة على المواجهة، ومن صناعة الحيلة واستعمال الآلة الضاربة. وهي الأشياء التي شلّتِ الحركةَ العسكرية على الجبهتين المصرية والسورية، وقصمتْ ظهر الوحدات المقاتلة فيهما بضربات عنيفة متلاحقة. ولم يمنعْني مِنْ عرْض واحدٍ من هذه الأبحاث والمقالات إلّا خوفُ الإطالة في مسألة، هي عندنا مطرحٌ لعَبَث العابثين أكثرَ من أن تكون مطرحاً

لجدّ الجادّين . وهي مجموعةٌ كلُّها وموجودةٌ في مركز الأبحاث الاستراتيجية في لندن وفي باريس ، وقد تُرجم بعضُها ونُشر في المجلّات العسكرية المختصّة في أكثر العواصم العربية .

ولست أدري كيف يَستقبلُ العقلُ حادثة النزول على جبل الشيخ على هذه الصورة التي سيّرتها بها وسائلُ الإعلام في بلادنا ، دون أن يَستلَّ منها تواطؤ السلطة في صناعة هذه الحرب وافتعالها ؟ فقد حدَّثونا وقالوا إنّ جنودنا الشجعانَ فاجأوا العدوّ بالنزول على موقعه الحصين في جبل الشيخ يومَ عيده ، وقَتلوا ما قَتلوا وسَلَبوا ما سلبوا . وكان ما جاؤوا به من السلب معدّات هي كالخيال في صنعها وفي استعمالها . والحقُّ يقال أنّ قيادة العدوّ لم تُخفِ أنّه أصابها رعبٌ كبير من هذه الحادثة التي لم يتوقّعوا أنّ العرب سيأتون بها أو بمثلها في يومٍ من الأيّام . ويُنهي الراوي المتحدّث حديثه عن هذه الوسائل بقوله : إنّ قيادتنا الحكيمة استطاعت بعد هذه الحادثة ، أن تغيِّر نظر العالم إلينا ، فيَرانا أكبرَ ممّا كان يرانا ويعتبرُنا أكثرَ ممّا كان يعتبرنا .

وقد سعَيْتُ لأجتمع بمن تيسّر لي بهم ممّن شاركوا في هذه الحادثة ، فظفرتُ ببعض الضبّاط وببعض الجنود الذين كادوا أن يتّفقوا كلُّهم في الرواية وفي التعليق على ما جرى وفي استخراج الخلاصة والعبرة منه . فوصفوها بأنّها بطولةٌ نادرة ، من حقّها أن يكون لها محلُّها في تاريخ بطولاتنا ، وأنّ المقاتل العربيّ يتمتّع بشجاعة فائقة لا يتمتّع بمثلها المقاتلُ الإسرائيلي إذا وُجدت على رأسه قيادة تعرف كيف تفتح فيه الشجاعة وكيف تُربّيها وتحافظ عليها . فالجندي عندنا هو عبدٌ وابنُ عبد ، يُطلب إليه أن يأتي بالخوارق والعجائب وأن يقدّمها على طَبَق من الورد إلى قائده العاكف في أمكنة اللهو والوسوسة . وقالوا أيضاً : إنّ هذه البطولة

كانت مبتورة ، فهذا الخطر أخذ يتقدَّم نحونا بعد بقائنا فترة يسيرة في هذا الحصن ، وبداتِ الاتّصالات تضعف قليلاً بيننا وبين قيادتنا ، وانهكَنا الجوع والتعب والسهر ، واضطُررنا إلى تركه بالطريقة التي أخذناه بها ، بل بأدهى منها وأخسأ . ولا ذنب لنا في ذلك ، وإنّما الذنب هو للقيادة التي لا ندري ماذا تحرّك في رأسها .

وما أردت أن أسوق هذه الحادثة مثلاً على شجاعة المقاتل العربي وعلى حماقة قيادته أو على تضليل وسائل الإعلام وعهرها ، وإنّما سُقتُها مثلاً على أنّ الحرب ، إذا لم تكنْ لمبدإٍ سامٍ رفيع فما هي إلّا لعبٌ بالنار وعبثٌ بالدماء . وهل المبدأ السامي إلّا استرجاعُ حقٍّ ضائع أو حفظُه من الضَياع وإلّا استردادُ وطنٍ مغتصَب أو صيانتُه من الاغتصاب ؟ وهل هو إلّا الدفاعُ عن كرامة الشعب وأمنِه وعن حرّيّاته وقيَمه وعقائدِه ؟ ولا حَرَجَ علينا الآن ، إذا رحنا نسأل مَن نشاء من أبناء الشعب في بلادنا عن المبدأ الذي لأجله صُنعتْ حرب تشرين ، ليقول لنا من غير أن يتردّد إنّه مبدأ آخَرُ لا علاقة له بواحدٍ من هذه المبادىء التي أُتي على ذكرها . وإنّما هو مبدأ يخصّ السلطة ويهمّها ويتعلّق بها وحدَها ، وكأنْ تريد مثلاً أن تَخلق أوضاعاً جديدةً داخل البلاد ، تشدُّ فيها من أزْر مركزها ، فتُبعد هذه الفئة المناوئة وتقرِّب تلك الفئة المحايدة أو المؤيِّدة ، وتحاولُ أن تخدع الناس بعرض القوّة ونشر الرعب .

ثمّ لماذا لا تحاول السلطة أن تصنع من الحرب لغةً أخرى تخاطب بها العدوَّ وتدعوه إلى التقارب والتفاهم ، إذا لم تكنْ قادرةً على غِلابه وتحطيم شوكته . وهكذا كان شأنُ حرب تشرين ، فهي بعد أن ألقتْ أوزارها ، لم يكن لها حقيقةٌ تنكشف عنها ، إلّا انّها كانت من أوّلها إلى آخرها خطّةً مدبَّرةً للتخاطب والتواصل والتفاهم مع قادة اسرائيل وساستها . وقد عرف هؤلاء القادة الساسة كيف

يتلقّون الخطاب وكيف يفهمونه، ثمّ كيف يقودون بعد ذلك مُخاطبيهم ويتصرّفون بهم، إلى أن افلحوا في قطاف الثمرة الأولى، وهي زيارة السادات للقدس، والانتهاء معه إلى التوقيع على اتّفاقية الاستسلام التي شُهرتْ باتفاقية معسكر داوود.

وكنّا نستمع إلى بيانات النصر في هذه الحرب، وهي تُذاع من وسائل الإعلام كلّها، وعلى الوجوه تتخايل الأسئلة، فيسأل بعضُنا بعضاً من الحيرة والذهول: تُرى هل تكون هذه الأنباء صحيحةً صادقة؟ وهم يقولون إنّهم اسقطوا للعدوّ تسعين طائرة في هذا اليوم، فكيف لنا أن نصدّق ذلك؟ ويقولون إنّ طلائع جيشنا صارتْ على مشارف صَفَد، فهل ذلك هو صحيح؟ وكنّا كلّما أعوزنا أن نعرف الحقيقة، نَصمُّ الآذان فلا نسمع شيئاً، ونعود إلى وجوه البشر في بلادنا ونقراها، فتتبدّى لنا الحقيقةُ العارية الواضحة وهي تُخاطبُنا باللسان الواضح المَبين قائلة: إنّ الشعب الذي لا يعرف ما هي الحرّيّة، لا يحارب من أجل الحرّية ولا يؤمن بها. وإنّ الشعب الذي يرى عدوّه هو داخلَ البلاد وهو جاثمٌ على صدره، كيف نريد منه أن ينهضَ إلى محاربة العدوّ خارج البلاد؟ إنّ شعبنا إذا أراد أن يحارب حقًّا وينتصر حقًّا، ينبغي له أن يتحرّر من عبودية السلطة ومن عبودية التخلّف وعبودية الجمود. «فالعبد لا يُحسن أن يَكرَّ، ولا يَكرُّ إلّا وهو حرّ»، وذلك كما قال عنترة بن شدّاد لأبيه، حين سأله أن يَخفَّ إلى ردّ المغيرين، ولم يكن قدِ اعترف به بعدُ أنّه ابنُه. وعندما رأى أنّه تلكّأ عن القيام والاستجابة، قال له: كُرَّ يا عنتر وأنت حرٌّ وابنُ حرّ. وهذا الشعب هو مِثلُ عنترة في العبوديّة وفي القوّة، لن يَكرَّ على الغُزاة المغيرين إلّا عندما يتمتّع بحريّة كاملة، ولن يُصبح قويًا إلّا مع الحرّيّة، ولن يصير إنساناً إلّا مع الحريّة. وما أشدَّ تغافلَه وسذاجتَه، إذا هو ظنَّ أنّها ستأتيه

محمولةً على مركبٍ فارهٍ! إنّه لن ينالها إلّا بالعرق والدمع والدم، كما نالتْها غيرُه من الشعوب، وسيدفع مثلها الثمن غالياً والتضحيةَ كبيرةً وكبيرةً جداً. فالحرية هي الحبّ والحياة والوجود.

وكنا نعلم من غير مُعَلِّم، انّ هذه الحرب هي ألعُبانٌ بيد السلطة، اصطنعتْها لأمرٍ في نفسها لا بدَّ انّه سيظهر وسيقع. وقد ظهر ووقع قبل ان تنكشف الحرب، وكان ذلك هو التنازل عن كل شيء للعدوّ، مقابلَ أن تبقى هذه السلطة عالقةً في مكانها تَنهشُ جسد البلاد وتقضم حياة الشعب. ولماذا نحن نحتاج إلى معلّمٍ ليعلّمنا ويشرحَ لنا ويقول: إنّ هذه الحرب هي وسيلة دنيئة من وسائل السلطة؟ إنّنا نراها كيف تقهر الجيش قهراً وتصنع منه عبداً، فهل سيحارب عبدٌ مقهور؟ ونراها كيف تقمع الشعب قمعاً وتُذلُّه إذلالاً، فهل سيحارب شعبٌ مقموعٌ مذلول؟ وإذا حارب هذا وذاك كلاهما فهل سينتصران؟ او حارب احدهما وحده هل سينتصر؟ ولماذا لا نعلم أنّ السلطة هي مهزومةٌ في هذه الحرب، وأنّ الهزيمة هي مرسومةٌ على وجه الجندي قبل المعركة، وهي مرسومةٌ على وجه كلِّ فردٍ من أفراد هذا الشعب، وهي الراية التي تحملها السلطة وتتقدّم بها إلى القتال؟

إنّ السلطة التي تريد ان تحارب حقًّا، تبدأ اوّل ما تبدأ بإعداد النفوس إعداداً صالحاً قويًّا، ولا تحتاج إلى اكثرَ من ذلك، فالناس هم الذين سيعلمون انّ عليهم ان يحاربوا عن حقوقهم ومكاسبهم وبقاء هويّتهم، وليس دفاعاً عن سلطةٍ ونظام ولا عن اشخاصٍ عابرين فارّين. وليس هناك عند السلطة من وسيلةٍ لإعداد الناس افضلَ منَ منحهم الحرّيّة ورعايةِ حقوقهم والسهرِ على امنهم ومصالحهم. ولتمضِ بعد ذلك إلى محاربة عدوِّها وغاصب حقوقها؟ فإنّها لن تنهزم ولن تتقهقر، وستبقى هي الرابحَ المنتصرَ

حتّى وإنْ نزل بها الخسران . ثمّ كيف لنا أن نصدّق بأنّنا سننتصر في هذه الحرب أو في غيرها من الحروب ، ونحن نرى السوء ينتشر في كلّ شيء ، في المعاملات والعلاقات ، وفي سير أجهزة الإدارة ، وفي البيع والشراء ؟ ونحن نعاين الفساد يَسري إلى كلّ مكان ، وهو في الجيش مثلَما هو في الشعب ، فالأخلاق آخذةٌ في التدهور والانحطاط ، والأعراف محاصرةٌ بالقلق والضجر والغَثَيان ؟

إنّ الآلة المتفوِّقة لا تحارب وحدَها ، ولا تقدر أن تربح الحرب وإنِ استعملها المقاتل الذكيّ المتفوّق . فلا بدَّ لها إذاً من العنصر الآخر الأشدّ والأهمّ ، وهو الحضارة ، فالحضارة هي ساحةُ المعركة وهي الآلة ، وهي المُقاتل . وها نحن ننظر إلى حضارتنا التي بناها لنا أوائلنا ، فنرى أنّها لا تزال موجودةً حيّةً قويّةً ، رغم ما لاقتْه في حياتها الطويلة من معاركَ طاحنةٍ وحروبٍ عنيفة ، لو أنّها أصابت حضارات أخرى لَمَا ثبتتْ لها ولَمَا وقفتْ أمامها . وحضارة كلّ أمّة هي الروح التي تَشِعُّ في حياتها وتَنبثّ في تاريخها . وحياتها هي الآراء والأفكار والمعتقَدات ، وتاريخها هو الأشكال والأنماط والألوان التي تعبّر بها عن هذه الحياة .

وكان لهذه المسألة نصيبُها الأكبر من أحاديثنا التي كانت تَشغلنا وتدور بيننا ونحن نعيش أيّام الحرب ، وكنّا نقول : إنّ هذه الحرب لا علاقة للسلطة عندنا بها ، لا في الدفاع ولا في الهجوم ، وإنّما هي معركةٌ من حربٍ بعيدة الامتداد في الزمن والتاريخ ، تستهدف تغيير حضارتنا أو إبادتَها . وإنّ حضارتنا التي صمدتْ أمام كلّ شراسةٍ وجابهتْ كلّ عُنفوان ، لن تعرف الخَوَر في هذه المعركة الصغيرة ، ولن يَدبَّ إليها الوهن . والذي يجعلنا نصدّق أنّها ستنتصر ، هو أنّ ما مرّ عليها من نوازلَ ودواهٍ ، ومن حروبٍ وعواصفَ عَجِزَ كلُّه عن أن يغيِّر وجهها ، وإنْ هو أنهكها وأضعف

من همّتها. فلو لم تكن خُلقتْ للحياة والبقاء، لكان ينبغي لها أن تَبيد وتفنى مثلما وقع لغيرها من الحضارات الكثيرة التي لم يَسلم من أخبارها إلّا اسمُها وعنوانُها.

نقول ذلك، ولا نشعر أنّنا نقوله بباعثٍ من الغرور أو الوهم، ولا نرى حَرَجاً من النظر إلى الواقع الذي نعيش فيه، لنختار منه مثالاً يقوم دليلاً ناطقاً على صحّة دَعوانا. فهذه لغتنا، لم يكن لها سياجٌ يردّ عنها الغارات ويدفع الهجمات، منذ ضمور الشأن العربيّ الإسلامي في منتصَف القرن السابع للهجرة، إلّا منطقُها وقوّتُها واتّساعها وخصوبتها. وهي لا تلقى من أهلها كثيراً من العناية والاهتمام مثلما تلْقى اللغات الأُخرى من أهلها، ولا همْ يَجهدون في التفنّن باستخدامها وطرُق تطويرها كما يَجهدون. ورغم ذلك، ورغم ما عرفته اللغات الأُخرى عند أهلها من تقدّم في العلم والتصنيع والاختراع، فإنّ لغتنا لم تتأخّر ولم تتقاعس ولم تَجمد، واتّخذت مكانها في المقدّمة الحيّة الكبرى. وقد يستخِفُ أُناسٌ بهذا المَثل ويرَوْنه هيْناً في حرب حضارتنا مع الحضارات الأخرى من أجل البقاء، وقد يرفضه أناسٌ آخرون ويعتقدون أنّه مَثَلٌ لم يأتِ في محلّه، وكأنّهم يَعنون أو يقولون: وما هي علاقة اللغة بالمعارك والحروب؟ فنقول لأولئك وهؤلاء: إنّ اللغة هي وجهُ الأمّة، فإذا هي تغيَّرت تغيَّر وجه الأمّة، وإذا ضاعتْ ضاع وجهُها. وكلّ أمّةٍ لا وجه لها، فكأنّها أصبحتْ بدون هويّة، وكأنّها أصبحت غيرَ موجودة. ولو قرأتم ما تتعرّض له في الزمن الحاضر من قذْفٍ ورشقٍ بحقدٍ هو أشدُّ دماراً وتهديماً من القذائف المدمِّرة، ولو قرأتم ما تعرّضتْ له بالأمس وقبْل الأمس، لوجدْتم أنّ دورها في الحرب هو دورُ المُدافع الصامد والمُهاجم الفاتح.

وليس من حقّ أولئك الذي ينظرون بأعين السلطة ويسمعون

بآذانها، ان يسيطر عليهم التعجّب والانبهار وهم يَمرّون بهذا الحديث على حرب تشرين. وليس من حقّهم ان يحتجّوا عليه ويطعنوا به إلّا بعد ان ينظروا بعينَي الشعب ويَسمعوا بأذنَيه، ولو مرّةً واحدةً في حياتهم. ولا اقول لهم ذلك إلّا لأنّني جرّبتُ يوماً ان انظر بأعين السلطة، فلم أرَ لا شعباً ولا درباً ولا شيئاً آخرَ إلّا السلطةَ نفسَها، وجرّبتُ يوماً ان اسمع بآذانها، فلم اسمع حاجةً للشعب ولا طلباً، ولم اسمع فكراً ولا ادباً، ولم اسمع إلّا اخبار السلطة. ثمّ إنّني جرّبت ان ارى بعين الشعب فوجدتُ السلطة صغيرةً جدا وبعيدةً جدًا، ووجدتُ العدوَّ اقربَ منها إلى الشعب واكبرَ منها عنده. وجرّبت ان اسمع بأذنيه، فلم اسمع ذكراً للسلطة، إلّا ما كان من دُعاءٍ عليها بالسقوط والهلاك، او من دعاءٍ للخلاص منها.

وهو ولا شكّ له اعذارُه الوجيهة وأسبابُه الكثيرة التي لا يوجد هناك من يجهلها، والتي تستحقّ ان تُكتب فيها الكتب الكثيرة. فماذا اختار منها وماذا اقول عنها هنا إذن؟ إذا كان لا بدّ من شيءٍ اذكره، فأختار اثراً صغيراً من بين الآثار الكبيرة التي تركتْها حربُ تشرين على هذا الشعب، واعني به هذه الخيبةَ المريرة التي فاجأتْه بها السلطة بعد أن كانت تَزُفُّ إليه في كلّ ساعة خبراً جديداً من أخبار النصر ونبأ بِكراً من انباء التحرير. وبعد ان صدّقها في اقوالها، ولَبِسَ لباس العيد وتَزيَّن بزينة الفرح، وجد نفسه في مأتمٍ، والشعوب تضحك عليه وتَرشقه بالشماتة حيناً وبالسخرية حيناً آخر لخِفّة عقله، عندما يصدّق قبل أن يرى ويستعدّ قبل ان يعلم. وكبرتْ هذه الخيبة في نفسه حتى ملأتْها وحتى تحوّلت فيه إلى إحباطٍ سيظلّ يعاني منه ما بقي فيه نَفَسٌ يتردّد. واصبح لا يصدّق يوماً انّه سيعيش لحظة فرحٍ او نشوة في انتصارٍ على عدوٍّ او في تحرير ارضٍ واسترجاع حقٍّ سليب. واصبح إذا ذُكِرَتْ امامه الحرب هزَمه

ذكرُها. فلا هو يعتقد بها بعد الآن، ولا يريد أن يشارك فيها، لا بنفسه ولا بشيءٍ من ماله. ثمّ لماذا يشارك فيها، وهو يعلم أنّ هزيمةً جديدةً تنتظره على قارعة الطريق. وانّه لن يَجنيَ إلّا خيبةً اخرى أشدَّ مرارةً من سابقتها؟ أقول ذلك، وأنا أمقت الحرب، ولا أميل إلى اختيارها علاجاً لمشكلات بني البشر إلّا إذا كانت هي وحدَها العلاجَ الشافي. ولعلّ العرب عبّروا عن هذا الميل بوضوح لا غموضَ فيه عندما قالوا في أمثالهم السائرة: آخِرُ الدواء الكيّ. وإذا هم عُرف عنهم أنّ تاريخهم مليءٌ بأحداث الحروب ووقائعها، ففي النظر الفاحص يتبيَّن لمن يسعى إلى اجتلاء الحقيقة، أنّهم كانوا يُؤثِرون في هذه الحروب مواقع الدفاع على مواقع الهجوم، وكانوا أقلَّ من غيرهم همجيةً ووحشيةً في القتل والتدمير إذا هم أقدموا وهاجموا. ولهذا لم يكن غريباً على ذلك الباحث الغربي الذي شرد عن بالي اسمُه، أن يقول كلمته الشهيرة المتداوَلة: ما عَرَفَ التاريخ فاتحاً أرحمَ من العرب.

وربّما لم يعد خافياً على الذين يَهتمّون بقراءة ما جرى في حرب تشرين من كرّ وفرّ بين العرب وبين إسرائيل، وما ترتّب عليها من آثارٍ ونتائجَ تَزيد في فضائح السلطة العربية، انّ خيرَ ما كُتب عن هذه الحرب وادقّه وأصدقه، هو مذكّرات الفريق الشاذلي الذي كان المهندسَ الأوّلَ للعمليات الحربية على الجبهة المصرية. وكان من اكبر أبطال هذه الحرب، شهد له العدوّ بذلك قبل الصديق، ثم كان بطلاً مرّةً ثانية عندما اطّلع على الخيانة والغدر وآثر أن يقول كلمته الحرّة الصادقة ويتّخذ الموقف الثابت القويّ على السكوت الآثم وعلى التذبذب الغامض المشبوه.

وإنّه لَحقٌّ علينا أن لا ننسى تلك البطولات النادرة التي أظهرها الضبّاط على الجبهة السورية قبل الجنود، والتي ملأتْ أرض

المعركة وسماءها شجاعةً وإقداماً وتضحية ، كما ملأتِ القلوبَ والضمائر نخوةً واعتزازاً ، واصبح سائراً معروفاً عن تلك المعارك أنّها معاركُ الضبّاط . ولقد شاهدتُهم بعينيَّ وهم امام الجنود وإلى جانبهم اثناء اصطلاء الويل ورمي القذائف والحِمم ، ولا دافعَ لهم إلى ذلك إلّا حبُ تراب هذا الوطن وحبُ التضحية ، وإلّا تربيةٌ طاهرة تلقَّوْها عنْ أبويْن فقيريْن ودروسٌ رفيعة تعلّموها من حضارتهم الرفيعة وليس من السلطة التي اظهرت حزنها عليهم وابطنت سرورها ، لأنّها تخلّصتْ من كثيرٍ منهم ، كانت تعتقد بأنّهم سيجلبون لها متاعبَ ومصاعبَ إذا هم بَقُوْا احياءً ، وسيقفون في طريقها عقبةً وفي نفسها عقدةً ، عندما تبدأ بالانحراف وتَمضي في الاتّجاه الآخَر .

وانا أخجل الآن من قولي ، إنّني شاركت في هذه الحرب ، بعد ان رأيتُ بسالة هؤلاء الضبّاط وشجاعتَهم وإقدامهم ، ولم يعد لي من حقٍّ أن اذكر عملي الهيِّن اليسير بجانب هذه التضحيات العظيمة . وكما كنت ادفع تلك التهم وابدِّد تلك المزاعم والشائعات أثناء تردّدي بين دمشق وبين جبهة القتال ، بقولي : أنا أنتسب إلى سرايا الدفاع ، هذه الوحدة التي تَرمونها بالإفك والتخريص ، وتزعمون أنّها لم تشترك في القتال والمجابهة إلّا بالهياج والصياح ، وها أنا في الطليعة المقاتلة ، وفي مواجهة العدوّ مع مجموعةٍ كبيرة ، وبجانبنا مجموعةٌ أخرى من وحدتنا ، وبجانبها مجموعةٌ ثالثة ورابعة ، كما كنت اقول ذلك ، فأنا لا اتردّد الآن أن اقول مرّةً ثانية : إنّ هذه الوحدة بقيَتْ مظلومةً أثناء الحرب وبعدها ، ظَلَمَها كثرةُ القيل والقال وإشاعةُ التهم والمزاعم ، بأنّها لم تشارك في القتال ، ولم تأخذ دورها في المجابهة كأنّها لم تكن معنيّةً بهذه الحرب . والحقّ أنّها قامت بدورها قياماً تُحمد عليه وأنّها أدّتِ الفريضة ، وانّ ايّ قولٍ

آخَرَ غيرِ هذا القول، ينبغي أن يُلاقيَ مكانه في الهواء.

ولماذا لا أسرد الآن تلك القصّة التي أرى أنّها لا تخلو من دلالةٍ كبيرة ومن إشارةٍ إلى معناها ومداها. فأنا لا زلت أذكر ذلك اليوم، وهو يومُ الجمعة، يومُ الخامس من تشرين الأول عام ثلاثٍ وسبعين والف وتسعمائة. وكنت عائداً في مسائه من قرية (عرنة)، بعد ما قضيتُ نهارا هادئاً وهانئاً بين بساتينها وبين أشجارها الكبيرة المحنية من حمل الثمار. وما إن خلّفتُ مدينة قطنا ورائي على مسافة قصيرة، حتى لمحتُ مجموعةً من الناس وهم بثيابٍ فاخرة وكأنّهم في حفلة، يقفون بجانب الطريق. وشدّني إليهم، بعد أن تجاوزتهم قليلا، أنني رأيت بينهم رفعت الأسد، فتوقّفتُ ورجعتُ إليهم، وسلّمتُ ولم أبقَ معهم إلّا مدّةَ السلام.

تذكّرت هذه القصة بشيءٍ كثيرٍ من التمعّن والتفكير بعد ظهر اليوم الثاني، وهو يوم السبت، وأنا أستمع إلى المذياع وهو يرقص رقصاً في إلقاء البيان الأول عن إغارةٍ جويّة على (العدو)، قامت بها أسرابٌ من الطائرات السورية من جهة سورية وأسرابٌ من الطائرات المصرية من جهة مصر. وذلك إيذاناً باندلاع حربٍ لن تقف إلّا بعد تحرير الارض الغصيبة وعودةِ الشعب الفلسطيني إلى الديار سالماً غانماً. وتفجّر في خاطري سيلٌ من الأسئلة، تنبع كلُّها من هذا السؤال: ما هو شأن هذه الحرب وما وراءها؟

وكلّما ابتعدَتْ هذه القصة عن خاطري، تُعيدها إليّ شائعاتٌ تثور من حول رفعت، ثمّ ما تلبث أن تغيبَ هذه القصة عندما تغيبُ الشائعات وتختفي. وهكذا كان شأنُها، منذ وقوعها، بينها وبينَ خاطري من غيابٍ إلى عودة ومن عودةٍ إلى غياب، إلى أن علا يوماً صياحُ تلك الهمهمات والدمدمات التي تقول، بأن سرايا الدفاع لم تشارك في الحرب، والتي انتقلتْ من بعد إلى تقوّلاتٍ وتشويه، ثم

إلى اخبار تلهج بها الألسن في كل مكان : فوقفنا عند ذلك على السرّ الذي لم يبقَ مصوناً في السرائر ، وهو أنّ اختلافاً نشب منذ البداية بين رفعت وبين أخيه الأكبر حافظ بشأن قصة هذه الحرب ، ثم بشأن سير المعارك في أمكنة موزعة من جبهات القتال ، وكذلك بشأن مصير هؤلاء الضباط الذين شاركوا في إدارة المعارك وعانَوْا من شَرَرِها ومن شرورها ، وكلّها انتهتْ إلى تخاذلٍ وهزيمة . وكان للأخبار هذه المرّة نصيبٌ كبيرٌ من الصحّة ، تميل فيها رياح الوفاء نحو رفعت وتميل فيها رياح الغدر نحو أخيه الأكبر حافظ . وأعترف بأنّني رأيت عدداً من هؤلاء الضبّاط الذين عادوا من ساحة المعارك ، يتردّدون إلى مكتب رفعت لينسّقوا معه ويتعاونوا من اجل حلّ عادلٍ لقضاياهم وما لحِق بسيرتهم من شكوكٍ وتُهم . وكان الحلّ الذي اهدِي إليهم ، انّهم سُرِّحوا من الجيش ونُقلوا إلى مواقعَ مهمَلةٍ لا عملَ لهم فيها ولا كرامة . ولم يغادرونا إلّا بعد أن متّعونا أو قُل اشقَوْنا بأخبار الفضائح التي عاينوها في الحرب وما ذاقوه من مرارة الهزيمة التي حلّت بهم ، والتي لم يعلموا انّها كانت امراً بالتراجع إلّا وهم بين نظرات الازدراء في محلّ التحقيق وبين السؤال والجواب .

د ـ فاجعة لبنان :

لا أدري اين همُ اليوم أولئك الأشقّاء اللبنانيّون الذين قلت لهم ، قبل عامين من دخول الجيش السوري إلى لبنان وأنا لا أعرفهم لا بأسمائهم ولا بأنسابهم ، إذا استطعتم أن ترحلوا عن بلادكم وتُنْقِذوا انفسَكم وما عندكم من مالٍ ومَتَاعٍ ، فلا تتأخّروا ولا

تردّدوا، فإنّ الزمن الأسودَ هو قادمٌ عليكم، وسترَوْن فيه من الويلات ما لم يَرَه قبلَكم عادٌ وثمود. وقلت لهم أيضاً: أنتم لستم أبرياء، وإنكم تستحقّون ولا شكّ ما ستعانون وما ستُلاقون، إذا نحن وزنّا أحوالكم وأوضاعكم بميزان هذه الآية: «وضَرَبَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنّةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلّ مكان فكفرتْ بأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون».

فدُهِشوا لمّا سَمعوه منّي، وقال أحدُهم، وقد ظهر الامتعاض على وجهه من هذا الكلام ومن هذا الأسلوب الذي خرجَ به، والذي كأنّه يميل إلى التقريع والاتّهام أكثرَ ممّا يميل إلى التوعية والتنبيه: هل لك أن تَدلّنا على هذا المصنع الذي صُنِعَتْ به هذه الأخبار؟

ثم افترقنا، وذهب كلٌّ منّا لسبيله، ومرّتِ الأيّام، وجاء الزمن الأسود، وتسابقت الويلات إلى لبنان يتلو بعضُها بعضاً، وهي ترمي الناس بشظايا، كان الهلع والجوع والخوف أهونَ ما فيها وأخفَّ عليهم وقعاً وسقوطاً. وجاءني يوماً صاحبٌ يقول لي: إنّهم يحيّونك من أعماق قلوبهم، ولشدَّ ما تذكّروك وتذكّروا كلماتِك وقولَك لهم! وهم يأسفون لأنّهم لم ينظروا إليه بعين الاهتمام، ولم يرعَوْا قيمتَه ولم يأخذوا به قبل فَوات الأوان. فعَجبتُ لصاحبي وقلت له: ومن هم هؤلاء؟ وما وراءك؟ فحدّثني بأمرهم وذكّرني بما جرى بيني وبينهم، وأخبرني بأنّه ما من مرّةٍ يلتقيهم إلاّ ويقولون: ليتنا اعتبرنا كلامَه واتّعظنا بقوله! فقد خَرِبَتْ منازلُهم ومات بعضُ أهليهم تحت القصف والقذف، وهم الآن نازحون مشرّدون.

ولا بدَّ أنّ سؤالاً سيتحرّك بعد رواية هذه الحادثة: ولكنْ مِنْ أين عَرَفْتَ قبل سنتين من قدومه، أنّ الزمنَ الأسودَ سيَقدم إلى لبنان وليس غيرِه، وأنّه سيَرميه بالويلات؟ وكيف عرفتَ ذلك؟. ولماذا لا أعرف، وقد انفتح الطريق أمام هنري كيسنجر، فجاء على رأس

جوقة من الجنّ إلى دمشق ، وما بَرِحَ يلعب ويُغنّي حتى سَحَر السلطة وامتلكها واخذ يتصرّف بها كما يتصرّف بخاتمه ؟ وهو الذي لفت الأعناق إلى لبنان واخبرهم انّه اكتشف فيها مزرعةً خفيّةً لزرع الفتن والكوارث والمصائب ، ولتنمية الأحداث والفواجع والمواجع والهلاك والتدمير والإبادة . ووعد من يعمل معه بأن يمُدّه بوسائل الحراثة والزراعة وأدوات البذر والتنمية . فهو مهندسٌ قدير في الأعمال الشاقّة ، وعنده خبرةُ سنوات طويلة ، وسوف يُهديها لمن ينبري ويتعاون معه في هذه المزرعة . ومن تُرى سيقبل هذه الدعوة الحارّة السخيّة إلّا الجاران المتصارعان اسرائيلُ وسورية ؟ بل هل قصد كيسنجر بهذه الدعوة إلّا إلى هذين الجارين المتصارعين ؟ وكان لاسرائيلَ حصّتُها من المزرعة كما تختار وكما تشاء ، فهي واعيةٌ وقد بلغت سنَّ الرشد . وكان للسلطة السورية حصّتُها كما يختار لها المهندس الأمريكي وكما يشاء ، فهي لا تزال قاصرةً ، ولم تبلغ بعد سنَّ الرشد . وهي لا يحقُّ لها ان تتولّى امورها بمفردها ، ولا يحقّ لها ان تخطوَ خطوةً إلّا بإشارته والخضوع لمراقبته .

وكيف لا أعرف ما سيجري في لبنان ، وهؤلاء زعماؤه ووجهاؤه أخذوا يتقاطرون إلى السلطة في دمشق ، بعد ما اشتمّوا خبرَ مشروع المزرعة من اقنيةٍ سرّيّةٍ ممدودة بينهم وبين المهندسين والخبراء في السياسة الأمريكية ؟ وكان كلّما جاء وفدٌ من الزعامة اللبنانية ، وَجدَ نفسَه مَسوقاً بأصول اللياقة وأصولِ العمل إلى زيارة مكتب رفعت الأسد بعد زيارة مكتب اخيه الأكبر حافظ ، أو قبلَه احياناً ، وكان الزعماء الزائرون لا يستترون على مطالبهم ولا يذكرون مآربهم همساً أو بخفض الصوت ، بل كانوا يجاهرون بما يريدون ووجوههم تعلوها البشاشة ، وقد اختلطتْ أصواتُهم بضحكاتٍ سكرى وهم يقولون : إنّنا في لبنان ننتظركم ، والأوضاع

وصلتْ في السوء إلى درجة تُهدِّد معها بالانفجار في كلّ لحظة، وتأزّمتْ امورُنا كثيراً، واخذ بعضنا يتضايق من بعض، فمتى تأتون؟ وهل حدّدتم يوماً او اسبوعاً معيّناً تبداون فيه قدومَكم الميمون؟ وكانت كلَّما جاءتْ زعامةٌ منهم لعنتْ اختَها، وصدرتْ عن قولٍ نقضتْ فيه قولَها، واعطتْ من الوعود واخذتْ منها ما يتلاءم معها. ثم قامت وبكت وتباكت ولطمتْ، حتى لا يبقى مجالٌ للشكّ في انّها هي وحدَها المظلومة وانَّ غيرَها من الزعامات هي الظالمة، او انّها هي وحدَها الفاعلُ المؤثّر في لبنان وانَّ غيرَها هو المفعول فيه، إلى كثيرٍ وكثيرٍ من القصص والحكايات التي بعضها مهازلُ والاعيب، وبعضها الآخر مآسٍ ومنادب. ولا يوجد من هؤلاء جميعِهم، ومعهم السلطة في سورية، مَنْ يعلم إلى أية جهةٍ سترجع في غدٍ خيراتُ هذه الألعاب ومنافعُها، اما شرورها ومضارُها فكلُهم يعلمون ان احداً منهم لن ينجوَ منها، ورغم ذلك فهم بالنار سيلعبون وبالحِمَمِ سيتقاذفون.

ولا يوجد هنالك شيء يوحّد الزعماءَ في لبنان مثلَ هذه الأوصاف، وهم مهما تباعدوا وتنافروا وفي ايّ اتّجاهٍ ذهبوا، فكلُهم سيعودون إليها وسيلتقون فيها. وهم مهما اختلفتْ مصادرُهم ومواردُهم وتعدّدتْ مسالكهم ومذاهبهم، ففي هذه الأوصاف يتّفقون وإليها يحتكمون. أليس من مُضحكات الأيّام ومَساخرها في هذه البلاد أن لا ترى الزعماء فيها يتوحّدون إلّا تحت راية المُضحكات والمَساخر؟! فلا عَجَبَ إذا رايتَهم يَحنّون إليها حنين الإبِل العطشى إلى الماء بعد مسيرة ايّامٍ ولیالٍ في حرّ الصحراء. ولا عَجَبَ إذا عاينتَهم يقتتلون عليها اقتتالاً شديداً، فهم يُحبّون ان يتوحّدوا وألّا يتفرّقوا وان يتّفقوا لا ان يختلفوا. فإذا أُذِنَ لزعيمٍ من هؤلاء الزعماء ان يتحدّث وان يُفصح عمّا عنده من خطّةٍ لإنقاذ لبنان، طَلَعَ

عن كلامٍ يُوقع في الظنّ أنّه لا مثيلَ له في الوضوحِ ، وعن رأيٍ لا عديلَ له في الحكمة ، وأنّه هو الصوابُ عينُه ولا مفرَّ من أن يُصار إليه ويُتّخذَ مبدأ لحلّ المعضلات . وكذلك الشأنُ في الخطّة التي سيظهر عنها ، فهي عنده خطّةٌ محكمة ، وهي وحدَها القادرة على الإنقاذ ، وغيرُها هو الباطل الحائل . ولو تمعّنتَ في الأغراض التي تكنُّ خلفَ كلامه وتقرّيتَ الأهدافَ التي تختبىء وراء خطّته لوجدتَها كلَّها تعود إليه وإلى فئته التي رضيتْه ، طائعةً أو مكرهةً ، ممثّلاً لها ، وأنّه لا حظَّ للزعماء الآخرين ولا لفئاتهم إلّا القبولُ والانصياع وإلّا السمع والطاعة .

ثمّ إذا سُمِعَ لزعيمٍ آخرَ أن يقول كما قال خصيمُه ، وأن يُبيِّن عن خطّته كما أبان ، فإنّ كلامَه سيُبطل كلامَه ، وإنّ خطّتَه ستنسف خطّتَه بمَنطقٍ يُوهن مَنطقَه وبحجّةٍ تُفلج حجّتَه ، وليس هناك من حيلة إلى دفعه وردّه . وهكذا الشأنُ مع الزعيم الآخَر والآخَر الذي بعده . إلى آخِر الزعماء ، وربّما ليس لهم آخِر . ونحن لا نُخفي أنّنا حالما اكتشفنا عندهم هذه المواهب السحريّةَ أحببناها أيَّما حبّ وشُغفنا بها أيَّما شَغَفٍ ، ورأينا فيها ملجأ نأوي إليه فلا يَبخل علينا بأنواع اللهو ، ومعاذاً نعوذ به فنقع على أشكال التسلية . وصارت المتعةُ كلُ المتعة عندنا هي أن نُهرَع إلى استقبال وفدٍ من هؤلاء الزعماء ، ونقدّمَ لهم صدر المجلس ثم نتحلّقَ من حولهم . ومنّا مَنْ كان يُحِبّ أن يُصغيَ إلى أحاديثهم ، ومنّا مَنْ كان يَنقُفُ فيهم موضعَ الشهيّة للحديث ويُحرِّض عندهم الشوقَ إلى الكلام ، فتشتدّ عندنا لذّةُ التسلية ونسرح في أفقٍ من المتعة لا حدَّ له ولا شرط فيه . وأصبح من الهيّن اليسير علينا بعد ذلك ، أن نُخمّنَ الوفدَ الذي سيَقدِم علينا بعده ، وماذا سيكون حديثُه ، وإلى أيّ اتّجاه تَمضي خِطّتُه ، وكنّا نُصيب أحياناً كثيرة ولا نُخطىء إلّا في الأحيان النادرة .

وإذا كانت تلك هي طرائقُ الزعماء في التوحيد والاتّفاق ، فإنّ الشعب المنشطر إلى فئاتٍ متعدّدة تعدّداً تابعاً لتعدُّد الزعماء ، كانت له كذلك طرائقه الأعجب والأحلى في التوحّد والاتّفاق أيضاً . فلكلّ فئةٍ منه عقيدتُها في السياسة وعقيدتُها في الدين ، وقد تكون إحدى العقيدتين تكمّل الأخرى ، وقد تكون تختلف عنها . وسيّانِ هناك عند الفئة الواحدة أن تفهم السياسة والدين أو أن لا تفهم منهما شيئاً ، ما دام الزعيم هو الذي يُبيّن لها بإرشادات وغمزات كلّ ما تحتاج إليه في هذه وفي تلك . ولكل فئةٍ نصيبُها من النكبات والبلايا ومنِ الغمرات والفواجع ، وتَغار الفئةُ من أختها إذا هي لم ينزل بها أشدُّ وأدهى ممّا نزل بها ، وإذا هي لم تُعانِ من الفواجع والويلات أكثرَ ممّا تعاني . وما ذلك إلّا لأن كلَّ فئة تعتقد أنّه على قَدْرِ مُصابها يكون فخرُها واعتزازُها ، وعلى قدر ما تُرمَى به وما تتحمّله من المسؤولية يكون تأييد العالم لها واعتباره إيّاها . وإلى وقتٍ قريبٍ كان يُحرَّمُ على الفرد في الفئة تحريماً مقطوعاً به أن يتعلّم أو أن يميل إلى العلم ، حتى تظلَّ الحاجة إلى الزعيم قائمةً وتظلَّ الوحدة للفئة محميّةً مصونةً . وذلك ما عناه أحد الزعماء بقوله عندما رأى الرجالَ في فئته جادّين في إرسال أولادهم إلى المدارس ومعاهد التعليم ، لماذا تشقّون على انفسكم وعلى أولادكم في طلب العلم والعناء لأجله ؟ لقد أرسلت ولدي إلى القاهرة ليتعلّم ويوفّر عليكم وعليهم هذا التعَب وهذا العناء .

ويُمنع كذلك على الفرد في الفئة أن يستخدمَ عقلَه ، وإلّا فما هو معنى وجود الزعيم عندئذ ؟ وليس في تحريم العلم ومنع استخدام العقل عند الفئة ضَيرٌ ولا حَرَجٌ ، فهناك ما يعوّض عنهما خيرَ تعويض ويقوم بدورهما خيرَ قيام وهو الوراثة والتقليد . فبالوراثة ينقلُ الآباءُ إلى أبنائهم ما كانوا توارثوه بدورهم عن آبائهم ، مثل

العصبية للعائلة وللدين والفئة، وللزعيم الذي يلتفّون حوله جميعُهم ويعملون له، ويتّخذونه رمزاً لوحدتهم ومبادئهم واستمرارِ وجودهم. ومثلَ التفكير الذي يَحرص الأبُ أن يَنقل فيه نفسَه وجيلَه إلى ولده، فيعلّمه كيف ينظر إلى الفئات الأُخرى، وكيف يسلك معها ويتّخذ منها موقفاً، وكيف ينبغي أنْ يفهَم بلادَه لبنان، وكيف يعمل لأجله في مجموعة البلدانِ العربية، ثمّ في مجموعة البلدان الغربية. وبالتقليد يتعلّمون العاداتِ والأعرافَ التي من شأن كلّ مجتمع أن لا يخلوَ منها، والتي تعمل على صيانة توازن الفرد بين مجموعة متنوّعة متباينة من شروط العيش. والتقليد له في لبنان طَعمٌ خاصٌ، يحرص عليه أصحابُه لئلا يَفسد أو يتغيّر، فالزعيم مَثلاً لا يجوز له أن يَلِدَ إلّا زعيماً مثلَه، والآخرون الذين هم دونه من فئته، يَلِد كلٌ منهم من هو على شاكلته في المقام والعمل والحسب والجاه، ولا يحقّ لهم بأيّ وجهٍ من الوجوه أن يَلِد الواحدُ منهم زعيماً. وربّما لو أنّنا رحنا نتقرّى كلَّ عادةٍ من عاداتهم وكلَّ عُرفٍ من أعرافهم لوجدنا لها طُرفةً أو نادرةً أو مثلاً يوقظ في الإنسان تعجّباً أو يحرّك لديه مُتعةً.

ولا تقُلْ إنّ المجتمعَ في لبنان هو غريبٌ عن المجتمعات في الأقطار العربية الأُخرى، أو إنّه نسيج وحدِه، لا يشبهها ولا يدنو منها في ظاهرةٍ أو في أسلوبٍ أو في اتّجاه. كلّا! فهو جزءٌ من هذا المجتمع العربي الواسع، لكنّه انفردَ عنه بصفات، نُؤْثِر أن نَذكرها ذكراً نستغني به عن التوسعة والتفصيل، حتى لا يعودَ عملنا وكأنّه دراسةٌ للمجتمع اللبناني. ومن أشهر هذه الصفات وأعرفها، أنّ الشخصية اللبنانية تحبّ أن تملك العالَم كلَّه في لبنان وأن لا يملك واحدٌ من العالم شيئاً في لبنان. وتُحبّ أن تقول عن نفسها إنّها عربيةٌ ولكنْ بشيءٍ من الصعوبة والامتعاض وبلونٍ من الغموض

احياناً . لكنّها تعتزّ ان يُقال إنّها تتميّز عن العرب بتقدّمها ورُقيّها ، وإنّها البابُ الواسع الذي تدخل منه رياح الحضارة الغربيّة ، وإنّها المتحف الأزلي الكبير للحضارات القديمة العريقة . ولن أتردّد في أن اكون إلى جانبهم في اقوالهم هذه . وإن كنت أُحاذِرُ من النوايا التي تُحبُ ان تَشردَ عن الواقع الصحيح .

وما أشبه الشخصيةَ اللبنانية بتلك الأميرة الفاتنة التي تعوّدتْ ات تطيل النظر إلى صورتها في المرآة ، وتتأمّلَ معانيَ جمالها معنًى فمعنًى ومفاتنَ حسنها فتنةً فتنة ، حتى نسيتْ نفسَها ، وصارت تسأل عن نفسها من تكون هي ؟ فيخلعون عليها في كل يومٍ اسماً جديداً ، ويُلقون إليها هويّةً يصنعونها من أخيلتهم استهزاءً بها وتسليةً عليها . وعندما تقدّم احد الحكماء وكسَر المرآة ، بكتِ الأميرة بكاءً شديداً ، لأنّها سمعت نفسَها الضائعةَ قد خرجت من المرآة المكسورة وهي تقول لها : الم يكن من الخير لكِ ان ابقى مَنسيّةً في ذاكرتِك حاضرةً في مِرآتك ، على ان أُكسَرَ مع المرآة واتناثر قِطعاً واجزاء ، ثم تتذكّرين مَنْ انا وتَعرفين مَنْ انتِ ولكن بعد فوات الأوان .

ولست مع القائلين الذين يقولون ، إنّ طبيعة المجتمع اللبناني وما عليه احواله من تأليفٍ واوضاعُه من تركيب ، هي التي جرّتْ عليه الويلاتِ وساقتْ إليه النكبات ، او هي التي نبّهتْ اذهان المغامرين ولفتتْ انظّار الخبراء في فنّ الإجرام ، إلى جعله مسرحاً لمغامرتهم وإجرامهم ، واتّخاذِه وَكراً لتربية المخاوف والإرهاب ثم إطلاقِه من ارضه إلى انحاء العالم كلّه . فالمغامرون والخبراء قادرون ان يختاروا أيَّ مجتمع في أيّ مكان ، وان يجعلوا منه ملعباً لجنونهم وإرهابهم ، فلا يستعصي عليهم مجتمع ولا تعسر عليهم بلاد . وكذلك لا نريد ان نُعفّيَ على قولهم ونجرّدَه من القيمة والاعتبار ، فالأسلوب الذي به تمّ تأليف المجتمع اللبناني كما انّه

يُغني الحضارة بالخصب والعطاء فهو يُغري به الويل والشقاء. ولم يأتِ اختيار كيسنجر مهندسُ الأعمال الشاقّة له إلّا بعد مشاورة طويلة ودراسة مُتقَنة، أعطتْ لكلّ خطوةٍ حقّها من التمعّنِ والرويّة، ولكلّ عنصر أكثرَ ما يحتاج إليه من التفحّص والتريُّث. وكان لطبيعة التأليف والتركيب حسابُها، ولا شكَّ، في اعتبار دورها الكبير في وقوع الاختيار على البقعة اللبنانيةِ لتكون مسرح العبث واللهو وساحةً لعرض الألعاب السحريّة. وإذا قلتُ ذلك، فلا أعني أنّني أعفي اللبنانيين من حمل المسؤولية، وإنما أعني أنّهم غُلبوا على أمرهم، وأنّهم حُمِلوا حَملاً على قبولِ ما سيق إليهم من مكرٍ وخداع، وعلى تحمُّل العواقب والمسؤولية كلّها وحدَهم دون شريك.

وكلُّ ما ذكرناه إلى هنا، وكلُّ ما يُمكن أن نذكره حولَ طبيعة المجتمع اللبناني وحَولَ شراسة المغامرين من الغرب ومن الشرق معاً، لا يقوم إلّا سبباً واحداً في صناعة فاجعة لبنان. وليس له من الأهمية والوزن ما لذلك السبب الأكبر، الذي هم الفلسطينيون، من الأهميّة والوزن. ولا عجب إذا صار هؤلاء هم السببَ الأكبر، بل إذا كانوا مجمعَ الأسبابِ كلِّها لهذه الفاجعة. فعندهم وعلى رأيهم، أنَّ مِنْ حقِّهم أن يسترجعوا بأيّ أسلوب يقع في أيديهم حقوقَهم السليبة ووطنَهم الغصيب. وها هم قَدْ وجدوها فرصةً طيّبةً لا تُضَيَّع، وهي أن يكونوا مجموعينَ على أرض لبنان بجوار العدوّ السالب الغاصب، يهاجمونه ويَرجمونه بحقدهم وبسلاحهم، فيُذكّرون العالَم الغافلَ بأنَّ لهم وطناً لن يَغفَلوا عنه، ويذكّرون العدو المُتَغَافِلَ بأنّه لن يستطيع أن يظلَّ متغافلاً.

وهم برأيهم هذا، إنْ كانوا على حقّ أو لم يكونوا، فلبنان هو الذي سيحمل العبءَ وهو الذي سيدفع الثمن. وإنْ لم يكنْ ذلك كذلك، فمِن أين سينطلقون؟ وكيف سيعملون؟ إنّهم نزلوا من جنوب

لبنان مكاناً يكاد يكون مستقلًا بهم ويكادون هم أن يصبحوا مستقلّين به أيضاً. ثم أصبحوا كثرةً لا يُستهان بها. فقد توافدوا إلى هذا المكان منذ الموجات الأولى لهجرتهم خارج وطنهم الأمّ، وازداد توافدهم إليه بعد أن أنزل بهم أيلولُ الأسودُ ضربةً قاصمةً في الأردن، جعلتْهم يتناثرون ويتفرّقون أيادي سبا، ويتسارعون إلى إنقاذ أنفسهم بالهروب والخروج إلى بلدانٍ متعدّدة. وأمّا قياداتهم، فقد توزّعوا مثلَهم بين سورية ولبنان والأردن، واختاروا جميعُهم مجاورةَ فلسطيْن من شتّى جوانبها، لكي يظلّوا يرَوْنها ويتذكّرونها، فإنَّ البعد يدفع بالإنسان إلى النسيان أو إلى التراخي في التذكّر والتواصل. ولكي يظلّوا يَرمون العدوّ بأحقادهم وبنيرانهم، لعلّه يتراجع عن عناده وتصلّبه، ويَعترف بهم، ويتخلّى لهم عن شيءٍ من حقوقهم المنهوبة المخطوفة.

ورغم ما للثورة الفلسطينية من حضورٍ مشهود في كلّ من دمشق والقاهرة، ورغم ما لقيادات أطرافها وفصائلها من يدٍ طويلةٍ في هذين البلدين، فإنَّ حضورَ اللاجئين المشرَّدين الذين تحوّلوا كلُّهم إلى جنودٍ مقاتلين أخذ يزداد ويَبرز على أرض لبنان كلِّها، وأخذ خطرُهم يتنامى ويتّسع بشكل مخصوص على شريط الحدود مع إسرائيل، ممّا جعل المواجهة بينهم وبين قوّات العدوّ تكاد تكون يوميًا، وجعل أثرهم يكبر أمام نظر العالم وخبرَهم يقوى في سمعه. واستمرّتِ الثورة الفلسطينية في النماء والازدياد، واستمر انهيالُ المساعدات عليها من البلدان العربية الشقيقة ومن البلدان الصديقة، بالمال والعتاد والأجهزة وأدوات القتال والآلات العسكرية الثقيلة، وكلُّ ما من شأنه أن يَدخل إلى ساحة القتال وأن يُستعمل في المعارك ضدّ العدو من قريب أو من بعيد.

وإلى هنا، أصبح بوسعنا أن نقول، هناك سببان يبشّران

بوقوع الفاجعة في لبنان وانفجار النكبات والكوارث على أرضه، وهما: وجود الفلسطينيين بهذه الكثافة البشرية التي أخذوا يزاحمون بها وجود المواطنين اللبنانيين في صيدا وصور وما بقي من المدن والأرض في الجنوب. ثم وجودُ الأسلحة الثقيلة بأيدي هؤلاء الفلسطينيين الذين اظهروا براعةً في استخدامها ضدَّ العدوّ، وأبدَوْا عَنِ استعدادٍ للتضحية والفداء، زَرَع الرعب والقلق في كيان إسرائيل حكومتِها وشعبِها. ومن اجتماع هذين السببين وُلد السبب الثالث الذي هو سبب الأسباب، والذي حمل في داخله سلسلةً لا تنتهي من الأسباب، والذي لا تكاد تمرّ به لحظةٌ من الزمن، حتى يأتيَ بسببٍ يقرّب من الفاجعة ويسوق إليها. وما قصدتُ بهذا السبب إلّا ذاك الورمَ غير المعقول وغير المقبول، وإنْ شئتَ فقُل ذاك التمادي الذي انساق إليه الفلسطينيون انسياقاً، بعد أن استطال شأنهم واستفحلتْ قوّتهم، على أرضٍ ليست ارضَهم وفي بلاد ليست بلادَهم.

وكان خطأ منهم ولا شكّ، عندما راحوا يفكّرون، بأن يكون لهم استقلالهم في بلادٍ، يكاد يكون لكلّ مجموعةٍ فيها استقلالها بنفسها، ولها حرّيّتها ولها قانونها. بل وربّما كان هذا هو الشيء نفسه الذي جعلهم يعتقدون أنَّ ما انساقوا إليه من التمادي ليس خطأ، وإنّما هو لونٌ من ألوان الممارسة التي يحقّ لكلّ من يعيش على ارض لبنان أن يقوم بها أو أن يقوم بمثلها. لكنّهم غفِلوا أن يقرأوا استقلالَ كلّ مجموعة من هذه المجموعات المزعومة التي ينبغي أن تُسمَّى عصاباتٍ مسلّحةً شاذّة، قراءةً دقيقةً متمعّنةً ليرَوْا فيه عبوديّةً مستورةً او تبعيةً مأجورةً منبوذةً لبلد عربي أو لبلدٍ أجنبي. ثمّ إنّهم غفلوا أيضاً أن يعلموا ويرَوْا، أنَّ هذه العصابات لا تحمل ادنى خطرٍ على إسرائيل، واسرائيل ليست بشأنها في شيء،

ولا هي عندها محسوبةٌ لا بالعير ولا بالنفير. بل لعلَّ لها في هذه العصابات خلايا تعتمدها أوانَ الشدّة ورموزاً تستعين بها عند الحاجة. ولم يكتفوا بأن يكونوا غافلين عن هذه الأشياء، بل راحوا يقيمون أحلافاً مع بعضٍ من هذه العصابات ضدَّ بعضها الآخر، ويفتحون عليهم جبهاتٍ جديدة للعداء والقتال في بلادٍ، يتّفق أهلُها كلُّهم، على ما بينَهم من تنافسٍ وتخاصم، على أنّهم أصحابُها الشرعيّون وأنَّ الفلسطينيين مجلوبون إليها، دخلاءَ عليها. وليْتَهم تَفَطَّنوا واهتدوا إلى الأسلوبِ الذي يُصيّرون فيه العصابات المسلّحة كلَّها والأهالي العُزَّل كلَّهم جبهةً واحدةً معهم، وحلفاءَ إلى جانبهم، يَشدّون من أزرهم، ويَزيدون في قوّتهم. بل إنّ هذا الأسلوب كان في يدهم، وكان خطأً منهم أن يُفلتوه وأنْ يُضيّعوه، وهم يحتاجون إلى الغادي والبادي وإلى القاصي والداني في لبنان وفي غيره. وهم ليس لهم ثأرٌ مع أحد، ولا لأحدٍ معهم ثأر أيضاً على أرض لبنان.

ولم يتوقّفِ الفلسطينيون عند اصطناع الأحلاف، وعقد صفقات الصداقة مع هذا وصفقات العداء مع ذاك، بل راحوا يتدخّلون في شؤون الدولة وسياستها الداخلية والخارجية، وفي الكبيرِ والصغير ممّا يَعنيهم ويَمسُّ قضيَّتَهم وممّا لا يعنيهم ولا يَمَسّ قضيَّتَهم. وأصبح الشعبُ في لبنان يَحسب لهم حساباً ويَرهبهم أكثر ممّا يَحسب لدولته حساباً وأكثر ممّا يَرهبها. ويُحِسُّ أنّ شعباً آخر قد أضيف إليه وأخذ ينازعه حقوقَه وهو لا يدري، وأنَّ دولةً أخرى أصبحتْ تنافس دولته التي انتخبها وهو لا يعلم. ولم يعد هنالك من مشروع للعمارة والبناء إلّا ولهم فيه نصيب، ولا من خطّة للتجارة إلّا ولهم فيها دخول وخروج، ولا من عملٍ للبيع والشراء إلّا وهم طَرَفٌ من أطرافه. ولم تقتصر بضائعُهم وسلعُهم على موادّ البناء والتغذية بألوانها ومشتقّاتها، بل تجاوزتْها إلى الأسلحة وما

يدور في فلَكها من السلَع الممنوعة المحرَّمة . وصارتْ لهم مزار عُهم وأراضيهم الخاصّة بهم ، وامكِنتُهم التي يريدون لها أن تكون وقفاً عليهم وعلى شؤونهم ، والحجّةُ لهم في ذلك انّها مراكزُ تنطلق منها خططُ القتال وأعمال الإرهاب ضدُّ العدوِّ الغاصب .

ولم يعد هنالك في لبنان من أماكن ملحوظةٍ مطلوبة إلّا ولهم فيها وجودٌ بأسلوب من الأساليب أو ظلٌ من الظلال الظاهرة أو الخفيّة . وإذا سمعوا أو لاحظوا أنّه يوجد من يتضجّر من سلوكهم ويتضايق من تماديهم ومن تصرّفاتهم ، كانوا لا يسمحون له ولا يسكتون على احتجاجه ولا يَرضَوْن من موقفه . وقد عُرِفَ عنهم أنّهم داهموا بيوتاً بطرقٍ غير مقبولة واختطفوا رجالَها وأذلّوهم وفي بعض الأحيان قتلوهم . ونُبّهم انَّهمْ استنكروا افعالاً من افعالهم وشجبوا ظواهرَ غيرَ لائقةٍ أخذتْ تظهر من ناحيتهم وتنتشر عنهم . ولم يكن خطأ الفلسطينيين في صناعة هذه الحياة التي أطلقوا فيها أنفسَهم ، والتي كان بمقدورهم أن يستغنوا عن كثيرٍ من وجوهها وأن يكتفوا منها بما يَخدمهم في نضالهم من أجل قضيّتهم ، ولكنّه كان في تصوّرهم بأنّهم اصبحوا اقوياء في بلدٍ ضعيف ، وانّهم يقدرون أن يقيموا عليه دولةً صغيرة يَحسبونها نواة لدولة كبيرة ، تكون فلسطينُ بلادُهم الأصليةُ تتمّةً لها ، أو يكون قسمٌ منها هو التتمّةَ إنْ لم تكنْ هي كلّها . ولم يَمُرَّ بخاطرهم أنَّ فكرَ الضعيف هو أشدُّ دهاءً وتأثيراً من قوّة القويّ في أكثر الأحيان .

ولم يخطر على بالهم أنَّ الرُّصّادَ في الغرب وفي الشرق هم في إثرهم يتابعون حركاتهم ومجيئَهم وذهابَهم ، ويترصّدون مواقعَهم وما يدخل إليها من مقاتلين ومن سلاح وعتاد . ولم يتفطّنوا أنَّ إسرائيل ليس لها همٌّ ولا عملٌ إلّا أن تتعقّبَهم وتتصيّدَ أخبارهم وأسرارَهم ، وانّها تحفر من تحت أقدامهم ، وأنَّ خطّة إيقاعهم في الحفرةِ باتتْ

مرسومة جاهزة، وهي قابَ قوسين من الدخول في التنفيذ.

ولم يكن لعملٍ من هذه الأعمال حقٌ أن يترك في نفوس اللبنانيين اثراً من المضايقة والتأفّف، لو أنّه كان للفلسطينيين بجانبها اعمالٌ متقدّمة فعّالة تخدم القضية الكبرى وترفع من شأنها، سواءً في ميدان القتال أو في ميدان الألعاب السياسية. أمّا وليس لهم شيءٌ يكاد يُذكر في مجابهة العدوّ إلّا ما كان من مناوشةٍ عابرةٍ أو من قذيفةٍ دويُّها اكبرُ من اثرها، فإنّهم أصبحوا في وجودهم عبئاً ثقيلاً وهمًّا لا يُطاق. وممّا زادَ في الحذر منهم وفي النفور، هو انقسامُهم فيما بينهم إلى فصائلَ وأحزابٍ شرقيةٍ وغربية، وتنازُعهم وتصارعُهم في الكلام والخطب والصحافة، وتشابكهم بالأيدي والأسلحة، ولا شأنَ للقضية في ذلك ولا علاقة لها، وإنْ صرّحوا وادّعَوْا. ولو رُحتَ تلتمسُ السببَ، لوجدتَه إمّا عصبيةً جاهليةً لفلانٍ دون فلان أو لاتّجاهٍ دون اتّجاه، وإمّا من أجل مالٍ أو مَتاع. وقد كان لكلّ قسمٍ من هذه الأقسام المتصارعة قيادتُه التي تشرف على تحريكه وتوجيهه، وكان لكلّ قيادة مرجعُها الأعلى، وهو إمّا سلطة عربية أو سلطة أجنبية، ومنه يأتي العون والغوث والمال، ومنه يأتي الإذن بالحركة وتعيينُ الاتّجاه ورسم الخطّة. وقد افلحت بعض هذه الأقسام، بأن أوجدتْ لها حُلَفاءَ على أرض لبنان، وذلك بركوب العامل الديني وتسخيره بين الطرفين المتحالفين ثم استغلال آثاره وظلاله، أو بالاتّفاق على اقتسام المنافع والمصالح بينهما. وقد تكون سياسيةً قومية، أو اقتصادية مالية، ولا بدَّ أنْ يُقال أمامَ الملأ، إنّ ذلك هو من أجل خدمة القضية، أو ان يُقال إنها تنتهي اخيراً إلى رفع شأن القضية.

ولم أصدر في هذا الذي قلتُه حول أوضاع الفلسطينيين في لبنان، عن حقدٍ عليهم ولا عن عَداء. ولو كان عندي شيءٌ من هذا

لأظهرتُه ونشرتُه دون حَذَرٍ ولا رياء، ولكنّني قلتُ ما قلت لأُخفّف عن الضمير اللبناني من هذه الأحمال الثقيلة التي ألقوْها عليه، يومَ انْ ارادوا له أن يقوم بها وحده ولا طاقةَ له بذلك. ولأمسَحَ من أحزانِ الذمّة اللبنانية التي رمَوْها بكلّ عيبٍ وشين، واتّهموها بالغدر والخيانة وبالتواطىء مع العدوّ، في وقت خَرجتْ فيه مصر من المعركة، وعقدتْ مع العدوّ اتّفاقَ سلامٍ أمريكي دائم سمّوْه اتفاقَ معسكر داوُود. وما ذلك إلّا لأنّها لم تعد قادرةً على تحمُّل أوزار الحرب وتكبُّد ويلاتها وخسائرها، ولم تعد راضيةً عن صبيب الدماء من غير أملٍ ولا ثمرة وراءه إلّا ما كان من زيادةٍ في أثمان النفط، يتمتّع بها ذئاب الصحراء وحدَهم. فلماذا نرجم إذاً لبنانَ وحدَه بالأحمال التي تعجز الأمّة العربية كلُّها عن حملها؟ وإذا هو تعثّر في حملها أو رفض أن ينوء بها، عدنا ورجمناه مرّةً ثانيةً باللوم والتُهَم. فهو مَلوم عندنا ومرجومٌ منّا في كلّ أحواله، شأنُه معنا في ذلك شأنُ فرخ الدجاج الذي يُقَدَّم للمريض لكي يستعيد به عافيته، والذي قال فيه أبو العلاء المعرّي يوم أن وصفوه، وكان مريضاً: استضعفوك فوصفوك، هلّا وصفوا شبلَ الأسد!

فهل من عَجَبٍ هناك، بعد ذلك، إذا رأينا لبنان يتفجّرُ ويتطايرُ شظايا في كلّ مكان؟ لقد وقعَتِ الواقعة، واشتعلتْ نارُ الفتنة بين اللبنانيين وبين الفلسطينيين، وكانت في البَدء حادثةً صغيرةً مثلَ شَرارةٍ صغيرة ما لبثتْ أن تمدّدت واتّسعت. ولماذا لا تتمدّد وتتّسع والقلوب الملأى راحت تُسعّرها بما تُلقيه فيها من حقدٍ وبغضاء ومن ضغائنَ سوداءَ محلولكة؟ والعدوّ يَزيدها شبوباً بكلّ ما أوتِيَ من مواهبَ وقوّة؟ لقد قال الفلسطينيون من جانبهم: نحن أبرياء، ولا نَاقَة لنا ولا جَمَل في هذه الفتنة، ولم نسعَ إليها، وإنّما هي فتنةٌ معدودٌ لها منذ وقتٍ طويل، وخطّةٌ مدبَّرة أريدَ بها إضعافُ المقاومة

الإجهازُ عليها . وإذا كان ولا بدّ فنحن سنصمد في الميدان وسندافع عن انفسنا وعن حقنا في كلّ مكان . وقال اللبنانيون : بل نحن الأبرياء لا ندري كيف تكاثرتْ علينا الهموم والأتعاب والبلايا والنكبات ، منذ أن حَلَّ الفلسطينيون أراضينا واتخذوا منها قواعدَ لأهدافهم وأغراضهم ، ولا نعلم ما هي هذه الأهداف والأغراض ؟ هل هي فلسطين المحتلة أم هي تجارتنا وأموالنا وحقوقنا ؟ لقد شاركناهم في الأموال والأنفس فَمَا أبقَوْا على أموالنا ، وأرادوا أن لا يُبقوا على أنفسنا . فقمنا في وجوههم ، علّنا نُنقذ ما نَقدر على إنقاذه قبل أن ينفد منّا كلُ شيء . لقد قبلنا أن ينزلوا علينا ضيوفاً ، فاستبدّوا بديارنا واحتلّوا أرضنا ، وارادوا أن يقيموا عليها دولةً ويجعلونا مشرَّدين كما انّهم اليوم مشرّدون .

هذا هو الحِجَاجُ الذي اعتمده كلٌّ من الطرفين المتصارعين وأفصح عنه في وسائلِ إعلامه أمامَ العالم الذي يتفرّج حيناً ويتدخّل سرًّا إلى جانب أحدهما حيناً آخر . ومهما يكنْ من أمر ، فإنّنا لا نستطيع إلّا أن نستمع إلى الفلسطينيين في أقوالهم ، ونلتمسَ لهم أعذاراً عن بعض أفعالهم . فليس صحيحاً أنَّ ما أُتِيَ به في لبنان كان من صنيعهم وحدَهُم ، وأنَّ أفعالَ السوء والمُنكر هي مهنتُهم واختصاصُهم ، وأنُّ أفعالَ الخير والمعروف هي مهنةُ غيرهم واختصاصُهم . لقد وَجدوا أنفسَهم بدونِ وطنٍ ، فليسَ غريباً أن يفقدوا عند ذلك صوابهم ، وإنّ من أصبح بدون وطن ، فهو مهيّأ لأن يُصبح بدون عقل . ونحن مع إيقاع اللوم بهم ووضع حدٍّ لسلطانهم المتجاوز ، ومع إنزال عقوبةٍ بهم ، ولكنّنا لسنا مع إعلان الحرب عليهم حتى الإبادة لكي تَقرَّ عيونُ العدوّ وتَشفى نفوسهم وتُفلحَ خطّتُهم . وإنّنا لا نستطيع إلّا أنْ نستمع إلى اللبنانيين أيضاً وهم يقولون : ولكنْ نُؤثِر خرابَ ديارنا على أنْ نراها في أيدي

الفلسطينيين يتمتّعون بها ، ولا ذنبَ لنا فيما أصابهم وأصاب هذه الأمّة معهم ، فلماذا تريدون منّا أن نتحمَّل كلَّ الذنوبِ والمآسي ؟ إنّنا سنعمل أكثر ما في وسعنا وفوق طاقتنا لكي ندفع عن بلادنا الكروب والمحن . وإذا لم نقدر على ذلك ، فسنشرك العالمَ كلَّه في أمرنا وسنأتي به إلى بلادنا . وإنّهم ولا شكّ ، لهم قولُهُم الصائب ورأيُهم الذي لا يَردّه عليهم أحد .

ولكن لم يبقَ من وقتٍ للإصغاء إلى الحِجَاج والاستماع إلى الندب والعَويل ، فالأرواح تُزهَق والدُور تُهدَم ، وبات يُخشى أن تتوسَّع دائرةُ الحرب وتخرجَ خارج لبنان إلى الجيران الأقرباء ثم البُعداء . وتبيَّنَ أنَّ اللبنانيين مُرهَقون متعَبون ، وليس عندهم من طاقةٍ على التحمّل زَمناً أطولَ ، ولا من قدرةٍ على الردّ والمجابهة أكثرَ من الحدّ المحدود . واحمرّتِ العيون الساهرة في الغرب ، ورأى الساسةُ المراقبون فيه أنَّه لا بدَّ من التدخّل لإنقاذ لبنانَ الأرضِ ولبنانَ البشر ، ولكنْ مَنْ هو الذي سيندب نفسَه لهذه المهمّة العاجلة ؟ لقد أخَّر الغربُ نفسَه ولم يتقدّم إلى هذه المهمّة ، وحُجّته في ذلك أن يرتفع التوتّر بينه وبين الشرق ، وأن تُشحن العلاقات الدولية بهمومٍ جديدة تتجاوز حدودَ لبنان وآفاقَه . ولم يرغب لإسرائيل أن تنهض للقيام بها ، لأنَّه سيكون عملاً من شأنه أن يُغضِب الدول العربية الأخرى ويرفعَ درجة الغليان فيها إلى حدٍّ تندفع معها إلى حربٍ ضروس ، لن يعود بالإمكان تفادي الأخطار التي ستنبعث عن أوضاعٍ مجهولة ، قد تقع بسببها وتؤثّر تأثيراً سيّئاً على المنطقة وربّما على العالم كلّه .

وأجمعَ رأيُ الغرب ، واتَّفقتْ كلمته على ترشيح سورية لتلعب هذا الدور . وكان في رؤيته الواسعة البعيدة هذه ينظر إلى أمورٍ كثيرةٍ منها : أنَّ احتجاج البلدان العربية ينقطع وتخرس أصواتُها ،

فسورية هي واحدةٌ من هذه البلدان، بل ولها الحقّ أكثرَ منها جميعها أن تكون لها كلمتُها الأثيرة وباعُها الطويل في لبنان. فهي جارةٌ تُحيط به وتَحضنه حَضناً، وتُشرفُ من علٍ على أجزاءٍ كثيرةٍ منه، ويعيش الشعبان في البلدين وكأنّه ليس بينهما حدود. ومن هذه الأمور، أنَّ لسورية علاقة «خاصّة» مميَّزة في لبنان، ولذلك سيأتي تدخّلها ناجحاً في تحقيق الهدف المرغوب وصائناً لهذه العلاقة الخاصّة المميَّزة. ومن هذه الأمور، أنّ الجِراح ستتّسع ويزدادُ عمقها، ليس بين سورية وبين المقاومة الفلسطينية وحدَهما، وإنّما بين سورية وبين دولٍ عربية أخرى. وسيزداد التصدّع والانشقاق في الرأي العربي وفي الكلمة العربية. ومن هذه الأمور، أنَّ جرَّ سورية إلى لبنان يعني شَغلَها وصرفَها عن التفكير في جارتها وعدوّتها اسرائيل، ويعني ترشيحها للدخول في مستنقع أو في مَوحلة. وأخيراً يعني أن تتحوّل المنطقة إلى مختبرٍ لكثيرٍ من التجارب المخبوءة في داخل الغرب، والتي ينوي أن يُجريَها واحدةً بعد واحدةٍ في وقت بعد وقت. إلى كثيرٍ وكثيرٍ من هذه الأمور التي لا يعود خيرُها ونفعها إلّا إلى الغرب واسرائيل معه، ولا يرجع ضررُها وشرورها إلّا إلى العرب وسورية على رأسهم وفي مقدّمتهم، ثم إلى الشرق الشيوعي الذي رفض تدخُّلَ سورية وحذّرها من سوء العاقبة تحذيراً شديداً.

ولكنَّ سورية التي رفضت تحذيرَ الشرق الشيوعي، دخلتْ لبنان منصاعةً لأمر الغرب محنيَّةَ الراس له. وكأنّها وَجدتْ في هذا الدخول فرصتَها الكبرى التي تنتظرها من زمنٍ طويل، وكأنّها قد حَظيتْ بالموعد الذي سيحمل إليها الأحلام الدرّيّة. فقد رأتْ فيه السلطة مشغَلةً للشعب في سورية، وعرّفته أنّه مرحلةٌ لا بدّ منها في طريق النضال، من أجل التحرير واسترجاع الحقوق الغصيبة. وكان

ممّا قالته في هذا التعريف ، في بيان لها أذاعته على الشعب : إنّ دخول لبنان هو عَمَلٌ يعدل حربَ تشرين او هو تتمّةٌ لها . وقد جاء تلبية لنداء الأطراف المتصارعة المتحاربة ، وليس له من هدف إلّا الحفاظُ على وحدة لبنان المهدّد بالتجزئة والتقسيم ، وإلّا حماية المقاومة الفلسطينية من التدمير والإبادة .

وليس من شكّ في أن السلطة السورية ، اكتشفت في هذا الدخول لغةً جديدة تستطيع أن تُخاطب بها اسرائيل وتُغازلَها بدلاً من أن تُقاتلها وتُحاربَها وهي لا طاقة لها بها ولا قدرة عندها على تحمُّل ضربةٍ واحدةٍ منها . وتستطيع أن تخاطب بها الغرب وتكتب معه صفحات جديدة من التأليف والتركيب ، وتعقد صفقات تجارية من الدماء والأرواح في أسواق النخاسة والقتل والإرهاب بصورة مشروعةٍ ، لا تقوى معها جهةٌ من الجهات العدوّة أو الصديقة أن تحتجَّ عليها وان تحرّكَ ساكناً ضدّها .

ورأت السلطة السورية في هذا الدخول فرصةً نادرةً لاقتناص اعدائها من المعارضة السورية ، الذين انبثّوا وتوزّعوا في أنحاء لبنان كلّه ، ووجدوا لهم امكنةَ تَؤْويهم ، وسياسةً تحميهم ، ووجدوا أسلحةً في ايديهم ، تمدّهم بها سلطات مناوئة معادية للسلطة السورية ، نذكر منها العراق والمقاومة الفلسطينية ، ونذكر منها مصرَ وليبيا ايضاً . واخيراً راتِ السلطة السورية أنّ دخولها ، يدفع عنها الأخطار الكثيرة الزاحفة التي تتسلّل إلى داخل البلاد سرّاً ، والتي تواجهها في لبنان جهراً ، كلّما أرادت أن تَعقد مع السلطة فيه علاقة أو تقيم معها حواراً بشأن من الشؤون او في قضيّة من القضايا المشتركة بينهما . فأمن سورية هو أمن لبنان نفسه ، يضطرب إذا كان مضطرباً ويَهدأ إذا كان هادئاً . فلماذا تُضيّع السلطة في سورية هذه الفرصة الطيّبة السانحة وهي حلمُ العمر وطائر

السعادة ؟

ولا أنكر انّني جاهرتُ بتأييد دخول السلطة السورية لبنان، وصفّقتُ له تصفيقاً حاداً، لأنّني كنتُ احلم أن تُبدِّد بهذا الدخول أوهاماً مُريعةً عَلقَتْ في اذهان الناس من تخرّصات ومزاعم، ومن وساوسَ نَسَفَها بها أعداءٌ ألدّاءُ هم اشدُّ خطراً على شعبنا من السلطة، وهم في الداخل، كما هم في الخارج، يروّجون مبادىء للبيع والشراء، ويروّضون الأيّامَ لعلّها تسلسُ لهم قيادها فيُغرقون البلاد في بحرٍ من الدماء، ويتركونها نهباً للخراب والتقسيم. وكنت احلم ايضاً أنّ السلطة ستنظر إلى قولِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهي تدخل لبنان: «خالطوا الناس مخالطةً، إنْ مُتّم معها بكَوْا عليكم وإنْ عِشتم حَنّوا إليكم».

وهكذا خالطوا الناسَ وعاشروهم في لبنان، لكن بأساليبَ سيظلُّ الناسُ في لبنان يبكون منها ما داموا أحياءً، وستبقى نفوسُهم خاليةً من الحنين إليهم ما بقيتْ لهم نفوس. ولن أسترسل الآن في الحديث على هذا الموضوع، ولن أسمح له أن يُنسيَني الموضوع الآخر ويَشْغَلَني عنه. وأعني ما واجهَتْه سورية من المقاومة الفلسطينية ومن حلفائها في لبنان، من حملاتِ الغضب والتهويش، ومن تسعير التُّهَم والمراشقة بالأسلحة الخفيفة حيناً والثقيلة حيناً آخر، زاعمين أنّهم قابَ قوسين أو أدنى من النصر على عدوِّهم الطَرَفِ الآخر، وانّ دخول سورية هو الذي أخَّرَ وصول هذا النصر وأطاح بالأماني التي كان يحملها، والتي كان من بعضها تأسيسُ دولةٍ جديدة أخرى على أرض لبنان، تكون المقاومة الفلسطينية طرفاً هاماً فيها أو حليفاً كبيراً لها، يستعين بحليفه في نضاله العادل من أجل تحرير الأرض من الاغتصاب والحقوق من الاستلاب.

ولم يكن حقًا هذا الذي فعلته المقاومة ولا صحيحاً ما قالته هي وحلفاؤها، ومَنِ الذي أعطاها هذا الحقّ حتى تصادر أرضاً ليست أرضها وتُقيم عليها دولة، لو أنّها أقيمَتْ لقَضَى عليها بين طلوع الشمس وغروبها، وكيف يكون دخول المقاومة إلى لبنان مشروعاً، ولا يكون دخول سوريا إليه مشروعاً؟ وإذا وَجدت المقاومة أن لها حقًا في دخوله وأنّ لها فيه حلفاءُ تمسّكوا بها وأيّدوها، فلسوريا ألف حقّ في دخوله، ولها فيه من الحلفاء أكثرُ ممّا للمقاومة من الحلفاء..ولو أنَّ المقاومة حاسبتْ نفسها قبل أن يحاسبها الآخرون ووقفتْ عند حدّها المعقول الذي يرضاه لها الناس جميعُهم، لما تعجّلت الأزمة إلى لبنان بهذا الأسلوب المُريع ولَمَا استفحلتْ وانتظمتْ أجزاءَه كلّها، ولَمَا كان هناك مَنْ أذِنَ لسورية بالدخول، ولكانت وجدتْ نفسها غنيّةً عن أن تنزحَ في مكان جديبٍ لا ماء فيه ولا مرعى. وكمَا أنَّنا لا نرى لنا حقًا في الاعتراض على دخول المقاومة الفلسطينية إلى لبنان، بل على أسلوب تصرّفها وعلى ممارساتها التي هيّجَتِ الفتن وصنعَتِ البلايا، فكذلك لا نرى لنا حقًا ولا لغيرنا في الاعتراض على دخول سورية إليه، وإنّما على الطريقة التي مارستْ بها أعمالها وعلى الأساليب التي اعتمدتْها واستعملتْها في تسوية الكبير والصغير من الشؤون والمسائل. وهذا لا يعني أنّه كانَ ينبَغِي أن يأتي دخولها مبرّأ من الأخطاء وأن تكون مداوراتها ومعالجاتها للقضايا خاليةً من النقص والانحراف والتشويه، ولكنْ لأنّ الأخطاء طغَتْ والانحراف قويَ واستبدَّ، أصبح الناسُ لا يرَوْن لها خيراً وإن كان موجوداً ولا حقًا وإن كان مشهوداً. وهم على صوابٍ في ذلك، فالخير القليل لا يُرى بجانب الشرّ الكثير والحكمُ الحقُّ في مسألةٍ واحدة لا يُلغي الباطلَ المتردّد المتكرّر في مسائلَ كثيرةٍ غيرِها.

ولا اظنّ ان السلطةَ السورية تُنكر ذلك البيانَ الذي أذاعته على الملأ قُبَيلَ دخولها لبنان، والذي أودعتْه أعذارَها والأسباب التي حملتْها على هذا الدخول. وقد حصَرَتِ الأسباب في سببين رئيسيين اثنين وهما: حماية المقاومة من الإزالة والإبادة، وحماية لبنان من التجزئة والتقسيم. أمَّا المقاومة، فلا أظنُّ انَّ أحداً يجهل ما جرى بينها وبين السلطة السورية. وكما انَّنا نستهجن ونشجب هذه الشراسةَ التي قمعت بها السلطة السورية عنفوان المقاومة، فكذلك نستهجن ونشجب هذه الملاقاةَ الطائشةَ الحمقاء التي لاقت المقاومة بها جنودَ سورية وضبّاطها. وهذه الحماقة التي أذِنَتْ لهم أن يَغدروا بمُقاتلين من الجيش السوري في الشوارع والطرقات وأن يُمثّلوا برؤوسهم على الأشهاد تمثيلاً لا يُقِرُّه شرع ولا يَدين به مذهب. هي نفسها تلك الحماقة التي ركبتْ رأس السلطة السورية وأذنَتْ لها أن تضرب بلا شفقة ولا رحمة مواقع المقاومة في كل مكان. وما كان أجدرَ قادةَ المقاومة، أن يأووا إلى العقل آنذاك، وأن يلجأوا إلى لغةِ المفاوضة مع السلطة السورية وأن ينزلوا تحت شروطها! ولماذا لا يفعلون ذلك ومراكزهم لا تزال قائمةً في دمشق، وفي دمشق كانت ولادتهم ونشأتهم، وولادة المقاومة ونشأتها؟ ثمّ لماذا لا يَحْمون انفسَهم من القتل والتشريد مرَّةً أخرى عن طريق المحادثات والمفاوضات، وهذه المجابهةُ مع سورية ليس فيها بطولةٌ ولا نصر، وهم لا طاقةَ لهم بالوقوف والصمود؟ ولماذا لم يفكّرو بأنَّ الجندي السوري نزل بأمرٍ وعاد بأمر، وأنَّ معركتهم ليست معه على أرضٍ ليست ارضَهم؟ اقول ذلك، وأنا لا أرضى أيضاً بما صنعته السلطة السورية مع المقاومة الفلسطينية على أرض لبنان، وأذكّرها بأنّها كانت قادرة على ان تخفّف من شدّة بطشها بها، إنْ لم تكن راغبةً بهذه الحماية التي وعدتها بها.

وأمّا عن وعدها بحماية لبنان من التجزئة والتقسيم فقد انجزته وَوَفَتْ به . فمن رأى قسماً من لبنان طار في الهواء أو غاص في باطن الأرض أو انزلقَ إلى اليمينِ أو إلى اليسار ؟ ومن عاين البحر قد تجرّأ وتقدّم خطوةً واحدة على برّ لبنان ، بعد أن دخلته السلطة السورية ؟ وإذا كانت إسرائيل قد انفردتْ بالجزء الجنوبي من لبنان ، فإنَّ السلطة السورية لا ترى لها حقًّا أن تَحشر نفسَها في الشؤون الداخلية للدول الأخرى من الجيران ومن غير الجيران . وأمّا عندما دخلتْ إسرائيل لبنان ووصلت إلى العاصمة ، فإنّ السلطة السورية صرختْ بملءِ فمها ، واحتجّتْ ولم تسكت ، وأسرعت إلى البقاع وإلى شمالي لبنان وملأتهما عدّةً وعتاداً وجنوداً مرئيّين وغير مرئيّين ، ولولا ذلك لما رضيتْ إسرائيل أن تتوقّف عند العاصمة بيروت ، ولوجدَتِ الطريق أمامها مفتوحةً الى آخر الشمال وإلى كلّ مكان في لبنان . ويقولون بعد هذه التضحية التي ليس بعدها تضحية ، إنَّ سورية تراختْ وتوانتْ في صيانة الأمن وفي رفع الأخطار التي تُهدِّد وحدة لبنان وتُنذرها بالتجزئة والتقسيم .

وإذا قالوا لنا إنّكم تهزاون بأعمالِ السلطة السورية ودورها في لبنان ، نقول لهم ، إذاً تعالَوْا نسألِ اللبنانيين انفسَهم . فليس يحقّ لإنسانٍ أن يأخذَ محلَّهم وأن يُجيب عنهم . فهمْ الذين عاينوا وشَاهدوا ، وهم الذين عانَوْا وذاقوا ، وإذا قالوا فإنَّ قولهم صادقٌ مقبول ، قد خرج عن معاناةٍ وظهر عن تجربة . فهم الذين يقولون : كنا نظنّ أنفسنا أنّنا في خطرٍ من تصاعدِ الفتنة وتفاقم الأزمة ، وأنّنا إذا لم يُسارع إلينا أشقّاؤنا السوريون بالنجدة والإسعاف ، فإنَّ وحدتنا آيلةٌ إلى تصدّعٍ ولا محالة ، وأرضَنا ستَهوي عليها فأسُ التجزئة فتجعلُها أجزاء ، لكل حزبٍ جزءُه المقسوم له . ولكنْ ما إن دخلوا وفرشوا بساطهم ، حتى بدأتْ عقولنا تخرج من الجهة

الأخرى، وصرنا نشتهي تقسيم ارضنا على أن نكون في القسم الذي لا يوجد فيه ظلّ للسلطة السورية. وليس لأحدٍ من حقّ أن يلومنا على هذا الاشتهاء إلّا بعد أن يعلم ما صنعوه بنا وما عانيناه منهم. إنّ الصبيّ لَيخرج من بيت أهله لِيُلاقيَ اترابه في الملعب كما تعوّد، فلا يعود إليه، وإذا عاد فعلى عكّازين اثنين، يُؤْثِر له أهلُه الموتَ على هذا البقاءَ المفلوجَ. وإنّ الصبيّة لَتؤخذ وهي مع أبيها أو أخيها، فلا تَرجع إلى منزلها إلّا وهي تحضن رضيعاً وتجرّ بيدها طفلاً. واين هو البيت الذي بَقِيَ ولم يُداهَم، والمخزن الذي نجا ولم يُنْهَب؟ واين هي الشجرة التي لم تُقطَف عنها فاكهتُها والسيارةُ التي لم تُخْطَف او تُفجّر؟ وافتقدْنا الأسماك فلم نعثر لها على أثر، وعندما سألنا الصيّادين، قالوا: إنّها ذهبت بعيداً في عرض البحر، فلعلّها احسَّتْ بما هو واقع عندنا فأحبّتْ أن تنجوَ بنفسها. وطلبْنا الثلج فلم نرَه في مكانٍ، ولا على قمم الجبال العالية، وكأنّه كان يذوب فور سقوطه حزناً ويغور في باطن الأرض، لِما يُعانيه فينا من بؤسٍ وأوجاع.

ومهما قيل عنّا بأنّنا بالغنا وأسرفنا في الوصف، فسنبقى مقصّرين وسيبقى هناك كلامٌ كثير لم يُقَل، عن ألوان هذه الممارسة التي شهدها شعب لبنان وأرضُه من السلطة السورية. ولعلّه لا يوجد هناك لبناني إلّا وهو يحمل في ذهنه صورةً تختلف عن الصورة التي في ذهن صاحبه الآخر عن فظاعة سلوك هذه السلطة وغرابة ممارساتها وإذا وُجد من يَطعن بهذا الكلام ويَردُّه، فليس هناك أسهل من أن نَبدَهه بهذا السؤال: ولكنْ الوانَ الخراب والدمار هذه من أين جاءت إلى لبنان؟ فإذا قال جاءتْ من اللبنانيين أنفسهم أو من الفلسطينيين أو من الإسرائيليين، فإنّنا نقول له: ذلك ما لا ندفعه ولا نَردّه. لكنَّ ما جاء به هؤلاء، يبقى صغيراً إذا قيس بما حدث

ووقع في الأمكنة التي تحتلّها قوّاتُ السلطة السورية وتتصرّف بخيرها وامنها واستقلالها. فهؤلاء هم الجنود وهؤلاء هم رؤساؤهم الضبّاط، يَحشدون في كل يوم الشاحنات لتَشحن والناقلاتِ لتنقل ما تقع عليه أيديهم وما ترتطم به أرجلهم. لقد افرغوا البيوت ممّا تحويه من الرياش والأثاث والتجهيزات، ونقلوها كلَّها إلى بيوتهم، ولا يُنكرون ذلك ولا يُخفونه. فادخل أيَّ بيت تختاره من بيوتهم تلقَ فيه من أجهزة التلفاز عَشَرَةً وعشرين، ومن اجهزة التسجيل والتصوير مثلَها واكثر حتى إنّهم نَقلوا الأسرّة من البيوت وانتزعوا مصاريعَ الأبواب عنها، ولم يتركوا عليها اقفالَها إذا كان خشب الأبواب عتيقاً لا يصلح للنقل والاستعمال. وامّا عن تهريب الأسلحة والإرهاب والنفط والمخدّرات والسيّارات وعن خطف الرجال والنساء من ذوي الجاه واليسار والأعمال، فحدّث ثم حدّث ما طاب لك الحديث، ولا حَرَجَ هناك ولا ضيقَ ولا رقابة. وإنَّ ما نقلتْه صُحُف العالم وما روَتْه من عجائبَ عن هذا الذي كان يجري في لبنان على يد السلطة السورية يظلُّ ضئيلاً في جنب ما جرى في الواقع حقًّا وما حَدَثَ في الخفاء.

وقد يكون لهذه السلطة منطقُها، من أنّها حتّى تبقى ينبغي أن تَنشر السوءَ والفسادَ في كلّ مكانٍ، فيكثرُ وقوعُ الأحداث وتقوم الجرائم على قدمٍ وساق، ويُضطرُّ الناسُ عند ذلك إلى الاستنجاد بقوّةٍ تحميهم وتكشف عنهم السوء والأذى. ومَنْ هنالك عندئذٍ غيرُ شقيقتهم السلطةِ السورية مَنْ يجيب إذا دُعي ويُلبّي إذا نوديَ؟ وهي ترى من حقّها ايضاً، أن تزرعَ الفِتن بين الأحزاب السياسية، فتنشغلُ الأحزاب ببعضها، وأن تبثَّ الاختلافات بين الزعماء والوجهاء، فيتصايحون ويقع بعضهم ببعض، وأن تَنبشَ الدفائن وتُخرج الضغائن من قلوب رؤساء المذاهب والأديان وتَضربَ

النقيضَ بنقيضه، وهناك يقع الهرْجُ والمَرجُ، ويَطيب التفرّج ويحلو العمل. ولا يوجد آنذاك من صُنّاع الألوان السياسية ومن الخبراء والمراقبين في الشرق وفي الغرب، مَنْ يَسْتَطِيع أن يحتَجَّ على الدور السوري وما يقوم به، من اتّصال مع هذا ومن مقاطعة ذاك، أو ملاحقة هذه المجموعة ومراودة تلك المجموعة لترويضها وإخضاعها لشروطٍ معيّنة. ولا يوجد مَنْ يطعن بما تنتهي إليه السلطة السورية من قرار أو من حكم أو من نتيجة، على أرض لبنان، في أيّة مسألةٍ كانت وإلى أيّةِ جهةٍ اتّجهت.

وقد انتبه اللبنانيون من غفلتهم، وعلموا أنّهم وقعوا شرَّ وقعة، فوقفوا حيارى لا يعلمون ماذا يصنعون. إنّهم لا طاقة له بالقوّات السورية الموجودة على أرضهم، ولا يعلمون كيف ينتهون منهم، ولا متى ينتهون. وهذه هي إسرائيل في الجنوب تبني الحصون وتعمّر القلاع، وتهندس الخططَ التي تكفل لها أمنَ حدودها وتصون سلامةَ مواطنيها. وهؤلاء هم الفلسطينيون، من بقي منهم، يعيش بين التخريب والتدمير وبين الخطف والنهب. فماذا تُراهم صانعون الآن؟ لقد ذهبتْ كلُّ فئةٍ من فئاته المتنازعة تبحث عن حليفٍ لها في الغرب أو في الشرق، تسأله أن يَمدَّها بالرأي والتوجيه والسلاح. وهَبَّ كلُّ حزبٍ من الأحزاب المتلاطمة يتلمّس خلفَ البحار دولةً قويّة، يستدرّها العونَ والنجدة، ويطلب إليها خلقَ الحيل لزجر الوجود السوري وردعه عن الاستمرار في اختلاقِ هذه الألاعيب المفزعة.

وهكذا اصبحَ لبنان بؤرةً لكلّ وباءٍ وطاعون، وصارَ مَوْئلاً لكلّ العصابات والمرتزِقة والإرهابيين في كلّ مكان، وإذا وقعتْ فيه حادثةٌ كبيرة أو صغيرة، فلا بدّ أن يكون العالم كلّه قد اشترك فيها.

ولكنْ ماذا بقي الآن من دورٍ للسلطة السورية، بعد هذا المآل الذي

آل إليه لبنان ؟ الحقَ أنّها عرفتْ دورَها الجديد ، في أن تكون مُشرفةً على تنظيم الأحداث وترتيبها . تصنع كما يصنع المُشرفون على الحفلات والسهرات ، إذ يعملون لكلّ مادّةٍ تقديماً خاصًا بها ، ويجعلون لها وقتها . ولهم على كلّ حادثةٍ أجرةٌ وفوقها مرحى ، وعلى كل واقعةٍ ضريبةٌ ومعها تحيّة . ولم تدرِ السلطة السورية ، من أنّ هذا الدور ، كما كان مبعثَ قوّةٍ وتفوّقٍ لها ، فقد صار هو نفسه سبب ضعفٍ وتقهقر . إذْ إنّ الدولَ الغربيةَ بداتْ تلمسُ ضرورةَ الحدّ من هذا النفوذ الذي استشرى خطرُه أكثر ممّا ينبغي ، وأصبحت تعدُ ومعها إسرائيل ، انفاس السلطة السورية في الشهيق وانفاسَها في الزفير ، وهي تقول كلُّها بلسانٍ واحدٍ «فذَرْهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومَهم الذي يوعدون» . وها هو اليوم الموعود قد جاء الآن ، فأين تُراهم سيخوضون وأين سيلعبون ؟

ونحن لا نستطيع أن نقبل ما كانت تسعى به السلطة آنذاك وتروّجه بين الناس في سورية وبين الناس في لبنان ، من أنّ رفعت الأسَد هو الذي بثَّ عناصر وحدته في كل مكان ، وإذِنَ لهم بأن يتصرّفوا على هواهم غيرَ ناظرين إلى قوانينَ وأعرافٍ ولا آبهين بنظمٍ وأخلاق . فتلك مَقولة قديمة تعِب الناس من سماعها ولم يظفروا منها بشيء إلّا بالتضليل والتهويل . ولم يَفُتهم أن يكتشفوا ، أنّ أكثر عناصر السلطة هُرِعوا إلى الاختباء وراء رفعت ، كما يختبىء الجبان خَلف الشجاع أوانَ زمجرةِ الهول ، إمّا لأنّه يأمل أن يخلص بنفسه وينجوَ من الأخطار ، وإمّا أنّه يطمع أن يحظى معه بنصيبٍ من الغنائم التي سيحظى بها . ومن يجهل أنّ رفعت الأسد هو رجلٌ لا يهرب من المسؤْولية ولا يتبرّأ منها ؟ ثمّ لماذا الهروب من المسؤولية ، وهو في سورية وفي لبنان يعمل داخل نظام وينطلق من حزب تنتسبُ إليه السلطة القائمة ؟ وهو لم يتّخذ وحدَه قرار

الدخول إلى لبنان، ولم تكن عناصرُ قطعته وحدَها هي التي غصَّ بها لبنان وانسدَّ حلقُه. وها هي الآن أعوامٌ سبعةٌ قد تَصرمتْ، ورفعت ليس في سلطة، لا في سورية ولا في لبنان، وليس له دور لا من قريب ولا من بعيد، فكيف يُفسِّر المتسلطون في سورية هذا الفسادَ الذي لا يزال في ازدياد وهذا الدمار الذي لا ينِي يتحرك ويتوسَّع ويتمدَّد في كل مكان من هذين القطرين الشقيقين المنكوبين؟ ومن هو الذي ستُعلَّق الآن في عُنقِه مسؤولية المصير؟ إننا لا نعلم، فقد يُلقونها هذه المرّةَ في عنقِ جُحا! غيرَ أنَّ جُحا تعوّد أن يلقيَها دائماً في عنق حماره، وأن يَستر ذيلَه وأذنيه ثمّ يُخرجَه للناس ويقول: أليس هو الآن واحداً منكم؟

وستبقى فاجعةُ لبنان فاجعةً في تاريخ سورية وفي تاريخ العرب كلِّهم، تشمئزُّ لها قلوبُ الأجيال عندما يقرأونها في غدٍ، ويرَوْن أنَّ العربَ من أقصى مشرقهم إل أقصى مغربهم، لم يكونوا قادرين على إطفاء حريقٍ شبَّ في لبنان، هذه الضيعة الصغيرة، ولم يَهتدوا إلى وسيلةٍ يؤلِّفون فيها بين قلوب أهلها الذين اصطلَوْا بنار الجحيم أكثر من خمسةَ عَشَرَ عاماً. فهل ستترك هذه الذكرى مكاناً في نفوسهم للاطمئنان والاعتقاد، بأن أسلافَهم حملوا الأمانةَ ورعَوْها حقَّ رِعايتها، أو أنّهم كانوا يحملون شيئاً من صفات البشر؟ وهل ستترك عندهم أملاً يقودهم إلى التحرير وإلى التوحيد.

وإذا كان كلُّ طَرَفٍ من الأطراف المتصارعة، سيخرج من هذا الجحيم وهو يحمل كاهله نكباتٍ كثيرةً ويُجرّر من ورائه فواجعَ جَمَّةً، فلن نلقى من بينها طرفاً، نكباتُه أثقلُ وأهولُ وفواجعُه أشدُّ وأفجعُ من السلطة السورية. وإذا كانت المقاومة الفلسطينية ستقف في سوقِ المفاخرة بالمصائب والنكبات، كما كان العرب يصنعون، وتزعم أنّ بلاءها أعظمُ من بلاءاتِ الأطراف كلّهم ومصائبَها أشدُّ من

الواحد ، فكيف تريدون منّا أن نذكرها ، ولا تنكسرَ القلوب ولا تتمزّقَ الخواطر !

ولم تكن السلطة في سورية هي السببَ الأكبر ولا الطرفَ الأكبر في هذه الفتنة ، وإن كانت سبباً وطرفاً ، وإنّما كان السببَ الأكبر والطرفَ الأكبر هُم «الإخوان المسلمون» . ولا تقُل لي مَنْ هُمُ الإخوان المسلمون ؟ فلا يوجد هنالك أحدٌ إلّا وهو يعرفهم ، سواءٌ كان معهم أو كان عليهم . ونحن لن نكون في حديثنا هنا لا مِنْ هؤلاء ولا مِنْ هؤلاء ، فذلك ما لا ينفعنا ، ولا يَطلع عن جدّة ، ولن يَخلُقَ لما سنذهب إليه من أقوالٍ وأفعال وما سنصدر عنه من آراءٍ ونظرات تأثيراً فعّالاً على الآراء والنظرات عند الآخرين . وإنّما سأكتب ما أعتقد أنّه الحقُّ وأنّه هو الذي جرى حقًّا ، وليس غيرُه . ولِمَ لا يكون ذلك ؟ وقد سعَيْتُ يومَ أن كنتُ في دمشق أُحاضِرُ في كلية الآداب من جامعتها ، إلى أن أعرفَ أقوالَ السلطة وأعمالها في هذه الفتنة من السلطة نفسها ، وأن أعرف أقوال الإخوان المسلمين وأعمالَهم فيها أيضاً منهم أنفسهم . وسعَيْتُ إلى أن أتعرّف إلى أقوال الآخرين ، ممّن هم ليسوا إلى جانب السلطة ولا إلى جانب الإخوان المسلمين ، وأنْ أتعرّفَ إلى أقوال أعداء هؤلاء وهؤلاء من أبناء المدينة ، ثمّ إلى أقوالِ ممّن صَحَّ لي أن أجتمع إليهم ، من الذين اشتركوا في المعركة الفاجعة من الجنود والضبّاط .

ولست أنسى ذلك الإحتفاءَ الكبيرَ الذي أحاطني به علماءُ مدينة حماه ومفكّروها وأساتذتها الأفاضل ، يومَ أن ألقيتُ فيها محاضرةً عن المفكّر العربي الإسلامي الأجلّ التجيبي الحرّالي ، في الشهر الأخير من عام ثلاثٍ وثمانين وتسعمائة وألف ، بدعوةٍ من كبار المسؤولين القائمين على الأمور في المدينة العزيزة . وإذا رحتُ أتّفق مع السلطة في بعض أقوالها وأتّفق مع الإخوان المسلمين في بعض

اقوالهم، فليس ذلك يعني انني اميل إلى السلطة او انّني اميل إلى الإخوان المسلمين. ولكنّ ذلك يعني انّ الحقّ يشبه بعضه بعضاً ولا يختلف في كلّه ولا في اجزائه اينما وجد، ومثله الباطل في تشابه الكلّ والأجزاء ايضاً.

واعتقد أنّنا لسنا بحاجةٍ إلى ان نعرّف بالإخوان المسلمين، ونبيّن من هم في تاريخ نشأتهم ومراحل تطوّرهم، وما هي انشطتهم التي قاموا بها واغراضهم التي ينحون إليها، سواءٌ في البلدان العربية أو في البلدان الإسلامية. فتلك مسائلُ معروفةٌ مبذولة في كلّ مكانٍ عندنا، لا يكاد يوجد فردٌ إلّا وهو يحمل طرفاً من اخبارها وبعضاً من اسرارها. فهم يقولون إنّهم يجعلون من الإسلام الحنيف شعاراً لهم، ويسعَوْن سعيَهم كلّه ليقبضوا على السلطة في كلّ بلدٍ مسلم، من اجل ان ينشروا تعاليمَه ويطبّقوا مبادئه. وهم لا يُنكرون انّهم حزبٌ ديني سياسي، يقومون بالمواجهة على جبهتين اثنتين: جبهةِ جمهور المسلمين، وفيها يبلّغون ويدعون الناسَ إلى اتّباعهم والانضمام إليهم، وجبهةِ السلطة، وفي هذه الجبهة يطالبون، إمّا باقتسام السلطة وإمّا باستلامها، عن طريق التراضي والتصالح أو عن طريق القوّة والاغتصاب، ويسمّون ذلك حقّاً من حقوقهم وطريقاً مشروعةً لهم مسموحاً بها. وقد أصبحوا منذ ما يزيد عن نصف قرن، لهم شوكةٌ قويّة في أكثر من بلدٍ عربي ولهم نفوذ مشهودٌ وسلطانٌ بيّنٌ. وهذا ما سمح أنْ يكون لهم إعلامُهم، ومؤسّساتُهم التابعة التي يُشرف عليها قادةٌ روحيّون منهم، وموجّهون سياسيّون ومرشدون دينيّون.

وليس فينا من يجهل انّهم قضَوْا حقبةً طويلةً من الزمن يعملون ويَجهدون بالدعوة والسلم حيناً وبالقوّة والسلاح حيناً آخر

للوصول إلى السلطة في بلادٍ من البلدان العربية ، لكنّهم لم يُفلحوا ولم تُثمر جهودُهم إلّا الخيبةَ والمرارة . وهذه قصصُهم في مصر معروفةٌ مشهورة لم تعد خافيةً على أحدٍ ، فقد قاموا هناك بمحاولةٍ مسلّحة ، واغتالوا زعماءَ في السلطة وزعماءَ خارج السلطة ، وهدموا مرافقَ حيويّة ، حتى صاروا خطراً كبيراً يتهدّد الدولة في كلّ حين . ولكنّ الرئيس الراحل عبد الناصر ، لم يتركهم يستمرّون في قوّتهم ولم يُمهلهم ، فاستلَّ غضبَه عندما اطّلع على ما بيّتوا له وعندما اكتشف مؤامرتهم عليه ، وبطش بهم بطشته الكبرى ، ونشر قصصَهم وفصولَهم كلّها في وسائل الإعلام . وهنا لا بدَّ من سؤالٍ يطرح نفسَه وهو : كيف تجرّأ عبد الناصر أن يضربَهم هذه الضربةَ القاصمةَ ؟ الم يتوصّلوا في مصرَ بعد هذه العقود من السنين ، إلى أن يكوّنوا قوّةً شعبيّة تكفلُ حمايتهم وتَصون جرثومتَهم وتمنع عنهم كلَّ خطر ، ثم تهبُّ معهم للاستيلاءِ عل السلطة باللين أو بالقوّة ؟

وفي الجواب على هذا السؤال لا بدَّ من القول ، بأنَّ الإخوانَ المسلمين لم يتمكّنوا في مصرَ ولا في غيرها من أن يُحرزوا نجاحاً كبيراً ، يجعلون منه سُلّماً للارتقاء إلى السلطة على غرار ما فعل الإمام الخميني في إيران . فقد بات من الواضح المشهور في أذهان الناس جميعهم ، بأنَّ هذا الرجل لم يفز بالسلاح وحده ، بل كان السلاح ضعيفاً أمام هذه القيامة الشعبية التي نصرته وعزّزته وبذلتْ له المال والمُهَجَ ، والتي لم يكدِ التاريخ يَعرف لها ضريباً في مدى عمره كلّه . ولو رحنا نسأل عن الأسباب التي منعتهم أن يصيروا إلى مثل هذه الحال ، لوجدناها تَكمن في سببين رئيسيّين اثنين . أمّا اوّلُهما ، فهو أنَّ عنصر الإقناع عندهم ضعيف أمام هذا السيل الهائل من المسائل والمشكلات الذي فاض عن التطوّر والتقدّم في هذه الحياة الدنيا . وأمّا الثاني ، فهو أنَّ اكثر قادتهم والمشرفين على

سَيْر الدعوة والتبليغ عندهم ، مطعونٌ في سيرتهم وسلوكهم ، وهم أجزاءٌ غيرُ مرغوب فيهم . وقد لا يكون لهذين السببين ولغيرهما من الأسباب الأخرى التي سنتعرّض لها عندهم من قبول ولا وزن وقيمة . فذلك هو شأنُهم وحقُّهم . ولكنّ ما لا نختلف فيه ولا نُكثِر حوله الجدالَ ، هو أنّهم لا يتمدّدون في الشعب من جهةٍ إلّا ويتقلّصون فيه من جهاتٍ أخرى . وها هي ساحات شعبنا كلُّها من مشرقه إلى مغربه مفروشةٌ أمامنا ، يَسهل علينا أن نستنطقها لتَنطقَ معنا بالحقّ وتشهدَ لنا بالصدق .

وهؤلاء المسلمون في مشارقِ الأرضِ ومغاربها يَجرون على سجيّتهم ، عندما يُفردون حزبَ الإخوان المسلمين إلى جهةٍ ولا يَخلطون بينه وبين جمهور المسلمين . فليس كلُّ من صام وصلّى وقام بواجباته الدينية وتمسّك بشعائر الإسلام يَنسبه الناسُ إلى الإخوان المسلمين أو يَحسبونه واحداً منهم . وكأنّهم بهذه التعرية الفطرية يشهدون عليهم ، بأنَّ عندهم طموحاً آخر ليس هو الإسلام ، وأنَّ لهم نشاطاً سياسياً يتَّخذون منه مركباً للارتقاء إلى ذلك الطموح . ومِنَ الناس مَنْ يُمسك عَنْ أن يَخوضوا في شأنهم ، أو أن يقولوا عنهم إنّهم في نشاطهم هذا يريدون وجهَ الإسلام أو يريدون غيره . ومنهم مَن يجاهرون بعدائهم ولا يخشَوْن أن يقذفوهم بالتُّهَمِ وينعتوا سلوكَهم ونشاطَهم بالريب والروغان .

ونحن إذا نظَرنا إلى الإخوان المسلمين في سورية ، فإنّنا نراهم في وصفهم لا يختلفون عن هذا الوصف وفي وضعهم لا يُباينون هذا الوضع . وكثيراً ما سعَوْا بعد حَدَث الثامن من آذار وبعد ما آلت السلطة إلى حزب البعث ، أن ينسبوا الظواهرَ الدينية كلَّها إليهم ، وأن يضمّوا أحاسيسَ الشعب وميولَه الإسلامية إلى حركتهم ونشاطهم ، ولكنّهم لم يُفلحوا إلّا قليلاً ، ولم يستميلوا منه إلّا نفيراً

لا وزن لهم عندما تسأل الاحداث عن الأوزان. وإنْ هم زعموا أنّ انتشارَهم في الشعب قد تمدَّدَ على زمن هذه السلطة، فزعْمهم في محلّه. ولكنّ ذلك لا يعني أنّ الشعب رَضِيَهم واقتنع بهم واستعدَّ لكي يؤمّرهم عليه، بل يعني أنّ الشعب استعرَ فيه الغضبُ والاستياء من هذا الفساد الذي خلقتْه السلطة القائمة، حتى نزلَ عندها منزلةَ القانون، ومن هذا المنكر الذي تنامى واستشرى، حتى صار كأنّه دستورُها الذي لا مَحيد لها عنه. وإذا أحبَّ الإخوان المسلمون أن يكونوا أذكياءَ مرَّةً واحدةً في حياتهم ويصنعوا من غضب الشعب واستيائه فرصةً حَاميةً لإطلاقِ أحداثهم وتمريرها، ثم لإيهام الناس في الداخل والخارج بأنّهم ربحوا المواسمَ وظفروا بالصيد الثمين، فذلك حُلُمٌ لا يدوم عمرُه أكثر من مدّة النوم. وإنْ هم ألحّوا ثم ألحّوا وقدّموا تفسيراً وراء تفسير وتحليلاً خلفَ تحليل، من أجل أنْ يُثبتوا أنَّهُمْ استمالوا إليهم قلوبَ الناس وأنّ أكثر الشعب أصبحوا وراءهم، فليس لنا إلّا أن نقول: إنّ الشعب هو الكلمة الفصل وهو الميزان الذي به يوزن قدرُهم وكلامهم. ونحن على ثقةٍ واطمئنانٍ بأنّه إذا أُعطيَ الآن، وفي أيّ وقت آخر، حرّيّة الاختيار، فلن يكون لهم نصيبٌ من اختياره، ولن يقعوا منه موقعَ الرضى والقبول، ولن يجودَ عليهم إلّا بالرفض الذي جاد به منذ أن بدأ تحرّكُهم ونشاطُهم، ومنذ أن أعلنوا عن أنفسهم وزعموا أنّهم مرشّحون وممثّلون له.

ولا أرى أنّني بعد اقتراحي الاحتكام إلى الشعب ليقولَ كلمتَه ورأيَه بالإخوان المسلمين، تركتُ محلًّا لطاعنٍ يطعن بقولي فيهم أو لمتّهِمٍ يتّهمني بأنّني أصدر عن حقدٍ وحسيكة في تحليلٍ لموقفهم أو تفسيرٍ لأحداثهم أو سردٍ لأخبارهم أو التعرّض لأي شيء يتعلّق بهم. وما إن يؤتّى على ذكر الإخوان المسلمين عندنا في سوريةَ حتى تطغوَ على الوجوه علامات النفور والاشمئزاز، وترتسم

ابتسامةٌ تُغني عن كلّ إفصاحٍ وعن كلّ بيان، من دون أن يكون للإسلام والمسلمين شأنٌ بهذا الموقف أو علاقةٌ به. فكأنّ نكرَهم مقرونٌ بالحقد والتعصّبِ والرياء والخداع، وكأنّه يُحضرُ إلى الذهن صوراً من الجهل والتخلّف والكسل والتورّم والتواكل. والناس ينفرون من هذه الأوصاف، فهي تثير في نفوسهم الهياج والقرف والاختناق والضيق، ويُؤْثِرون أن لا يسمعوا أخبارَهم، فكيف بهم إذا رأوْهم وُلاةً لأمورهم وقوّامين على حياتهم؟ وأعتقد أنّ شأنَهم هذا ليس هو في سورية وحدها، وإنّما هو في سائر البلدان العربية. ومن داخَلَه ريبٌ فيما قُلناه وحكيناه عنهم، فهذه هي أحوالُهم حاضرة قائمة، يستطيع أن يتملّاها عن قُربٍ وأن يقف أمامَها ويعاينَها. أمّا في بعض البلدان الإسلامية، فقد تكون سوقهم رائجةً، ولا سبب لذلك إلّا هذا العداء الموروث بين الإسلام وبين أديانٍ أخرى، وإلّا هذه العلاقات الساخنة الحارّة التي أوقعتْ بينهما أحداثاً وأشعلت حرائقَ، أرغمَتِ المسلمين وأجبرتْهم أن يتّحدوا ليقوى صمودهم وليدفعوا الخطرَ عن أنفسهم.

وليس أسهلَ علينا من أن نلتفت إلى ما كتبه الكتّاب وسطّرته أقلامُ المفكّرين والأدباء، وما طلعتْ به صحائف الفقهاء والعلماء في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات، وأنْ نجمعَها ونضعَها في أيدي من يرغبون أن يقرأوها ويطّلعوا عليها. وهي كلُها تُزهق الإخوان المسلمين وتَدفعهم وتُدين دورَهم المشبوه في تشويه الإسلام وترويع المسلمين وتشتيت شملهم. وهم سيرفضون هذه الأخبارَ الطويلة، إذا نحن سردناها عليهم كما سردتْها الصحف العربية في مصر وفي غيرها من بلدان العرب، أيّام قَصَف شوكتَهم عبدُ الناصر وأقامَ قيامتهم، ولن يعترفوا بما أذاع عنهم من أسرار وما كشفَ لهم من خُططٍ وحركاتٍ ودوران، وسيقولون إنّنا أوَيْنا إلى كلام

أعدائهم واستنجدنا به. ولكنهم ماذا يقولون لنا إذا نحن أوينا الآن إلى أقوال من لم يشهدوا سلطة عبد الناصر في مصر ولا سلطة حزب البعث في سورية، ومَنْ لو أنهم شهدوها لكانوا أعداءَ الدّاءَ لهما، ثم انتقينا منهم من لهم شأنهم عند الإخوان المسلمين وعند غيرهم. وهم كُثُرٌ ولا نريد أن يكون لنا منهم إلّا موضع الحاجة وما يأخذ بأيدينا إلى الاقتناع ويقودنا إلى الرضى بما ذكرناه وما اتّخذناه لنا رأياً ومَقولةً.

فليس عندنا في سورية، مَن يجهل البحّاثة الأستاذ محمّد كرد علي أو مَنْ ليس عنده شمّةٌ عن علمه ومكانته. فقد تقلّد وزارة المعارف وكان أوّل مؤسّس لمجمع اللغة العربية في دمشق وأوّل رئيس له. وقد فُتن بالعربية فتوناً عجيباً، ودافع عنها، وحرص عليها حِرصَه على سلامة دمه وعقله، وفي ذلك ما يَحفزنا على صيانة قدْره وتخليد ذكره. ولا يمنعنا إسرافه في تمجيد بني أميّة وذهابُه في الدفاع عنهم إلى حدّ التعصب لهم، أن نُعطيَه المحلّ اللائقَ للإدلاء بقولة الحقّ، وأن نأتيَ بكلامه شاهداً ناطقاً بالعدل والحكم الفصل في كثير من الفنون، فهو في مذكّراته التي كتبها، ذَكَر جماعةَ الإخوان المسلمين وعرّض بهم تعريضاً مُهيناً، يحطّ منهم ويقود إلى اتّهامهم، من مثل قوله: «ولكنْ ما كادت تجدُ لها انصاراً وتشعر بأنّها اكتسبتْ شيئاً من رضا بعض الناس عنها، حتى أسفر القائمون على أمرها عن أغراضهم الحقيقيّة، وهي أغراضٌ ترمي إلى وصولهم للحكم وقلبِ النُظم المقرّرة في البلاد... وقد اتّخذتْ هذه الجماعة في سبيل الوصول إلى أغراضها طرقاً شتّى يسودها طابع العنف ...». إلى قوله: «وسرعان ما انغمستْ في تيّار النضال السياسي، متغافلةً عن الأغراض الدينية والاجتماعية التي أعلنَتِ الجماعةُ أنّها قامت لتحقيقها».

ولكي يزيد الأستاذ كرد علي من قوّةِ رأيه وصوابه فيما ذهب إليه، فقد اختار ما أعجبه من كلام الكاتب الأستاذ سعيد التلاوي رئيس تحرير (الفيحاء) الدمشقية، في هذا الشأن. ونرى من حقّنا أن نعتبرَ اختيارَه هذا رأياً ثانياً له وقولاً آخر ينضمُّ إلى أقواله السابقة. وممّا اختاره من كلامه: «لعلَّ آلمَ ما يقع أمامَ الإنسان من حوادثَ وأحداثٍ تَحزُّ في نفسِه وتُدمي فؤادَه أن يرى الباطلَ مرتدياً ثوبَ الحقّ والفساد مُبَهْرَجاً بدعوى الجهاد، وهذا شأنُ الفتنة التي أطلقت على نفسها اسم «الإخوان المسلمين...» ومنه أيضاً: «فالإخوان المسلمون جماعةٌ طغتْ عليها الأنانيّة وفتنتْهم الدنيا وغرّتْهم الحياة، فطفقوا يعملون على بلوغ الشهرة والجاه والسلطان من أقرب الطرق، وهو طريق الدين الحنيف والشريعة السمحاء، وراحوا يركبون للوصول إلى أمانيهم وآمالهم كلَّ مركب. ولم ينْسَ الناسُ تلكَ الحملاتِ التي شنّوها على كِرام الوطنيين وعيون القوميّين أثناء معركة الانتخابات الماضية. تلكَ الحملاتِ التي كشفتْ حقيقتَهم وأظهرتْ نيَّتَهم وبيّنتْ طويّتهم، مُضافةً إلى ما فعلوا من قبل في الموقف المعروف بفتنة «نقطة الحليب» التي قمعها الرجل الصالح الصادق «سعد الله الجابري»، وانقذ البلاد من كارثةٍ كادت تقضي على خيوط الاستقلال والحريّة والسيادة في ذلك الحين...». والكلام طويلٌ، ومؤلمٌ وقعُه وموجع. وقد كُتِب عام ثمانيةٍ وأربعين وتسعمائة وألف، في وقتٍ كان لا يزال في الشعب من يأمل يوماً أن يرى صالحاً واحداً يخرج من الإخوان المسلمين، فكيف بهم اليوم، بعد أن مرَّ ما يقرب من نصف قرن على هذا الكلام!

ولم يكن فساد السلطة القائمة وحده هو الذي سمح لنشاط الإخوان المسلمين أن يَعرف بعض التمدّد والانتشار بين طبقات الشعب، كما المعْنا إليه من قبل، وإنّما انضمّتْ إليه أسبابٌ

وتضافرتْ معه عواملُ أخرى، جعلتْهم يظهرون من جديد، وجعلَتِ الشعب يتنكّرهم بعد أن أسلمهم إلى النسيان. ومن هذه العوامل نجاحُ الثورة الإسلامية في إيران، ونشوبُ الحرب بينها وبين حزب البعث في العراق، الذي خَشيَ على نفسه من أن تصلَ إليه نارُ هذه الثورة فتُحرقه، وأن يصل إليه نورُها فيكشفَ عن الظلمات التي تغطّيه وتَسترَ عليه حقيقته وقضاياه وأعماله. ولمّا كانت السلطة في سورية عدوًّا للسلطة في العراق، كان لا بدَّ لها أن تقفَ إلى جانب إيران في هذه الحرب الظالمة. وكان لها أثرٌ أرهقَ العراق وأنهكه وأغاظه غيظاً شديداً. فماذا تُرى يفعل العراق في مثل هذه الحال؟ إنَّه لا يستطيع أن يُعلن الحرب على سورية، أو أن يُوجّه إليها جيشاً أو أن يَرميَها من السماء بقذائف. فاتَّجه إلى تحريك ما يقدر على تحريكه من السواكن في داخله، وكان من ذلك لعبةُ الإخوان المسلمين. وكيف لا يفكّر العراق أن يجعلَ منهم لعبةً وعنده قادةٌ منهم، وفي البلدان العربية المجاورة له قادةٌ آخرون يدخلون في لعبته ساعةَ يَطلبُ إليهم الدخول؟ وكانت الخطّة في تشجيعهم واستنهاضهم وتزويدهم بآلة القتل والدمار، إمّا أن يغلبوا السلطة في سورية ويقهروها، ويكون ذلك نصراً للعراق ولجيرانه الحلفاء تَقرُّ به أعينَهم، وإمّا أن تغلبهم السلطة السورية وتقهرَهم، ولا أسف عليهم ولا دموع ولا حسرة، فالعراقُ وجيرانه يرَوْن في الإخوان المسلمين أعداءَ الدّاءَ، لا يؤْذيهم أن تنكسرَ شوكتهم ولا يضايقهم أن تُحصد جموعُهم ويُلقى بها إلى الجحيم.

وانطلقتْ جيادُ الإخوان المسلمين في الميدان، وعليها رُماةٌ مَهَرَةٌ يُجيدون رميَ الفِتَنِ واللعب بالنار. وكانت وسائلُهم لذلك إثارةَ النعَراتِ المحلّيّة ونبشَ الدفائن المذهبيّة، والتذكيرَ بالثاراتِ المَنسيّة في التاريخ، وتحريكَ كلّ ما من شأنه أن يُحرّكَ على السلطة ساكناً

ويقيمَ عليها قاعداً، ويوقظ ضدها نائماً، ويُشيع في البلاد الفوضى والاضطراب والهيجان. وحققوا في ذلك بعض ما يريدون، وانتشرتْ طيوفٌ من الذعر في صفوف السلطة وفي حولهم من الجمّاعين الطمّاعين. لكنَّ ذلك لم يكن إلّا برقاً كاذباً وسراباً خادعاً، فوسائلهم لم تَنطلِ على الشعب وأساليبُهم لم تلقَ إقبالاً، ممّن ظنّوا أنّهم سيُقبلون عليهم ساعة العسرة ووقت الشدّة. وصارتِ الجياد التي كانت تَخبُّ بهم تَكْبو بهم فيتساقطون ويتهاوَوْن، ويصرع بعضُهم بعضاً، ويكفر بعضُهم ببعضٍ أو بقادتهم الذين وجّهوهم من البلدان الجيران، وغرّروا بهم ولوّحوا لهم بالأماني، فما أصابو وعداً ولا ربحوا شعباً.

وكيف ركبوا هذا المركب الخشن، واستنهضوا الشعب بفعلاتهم التي فعلوها وأعمالهم الساقطة التي هُريقتْ فيها دماءٌ ذكيّة وازهِقَتْ نفوس بريئة؟ لكأنّهم ظنّوا أنَّ الشعب لم يتعوّد على الأشراك التي تُنصب له بين حينٍ وآخر، ولم يَخْبَرِ المصائد التي تفنَّنَ في صنعها الصيّادون المَهَرة، منذ أن أعلن أبو سفيان إسلامَه ومنذ أن رفع ابنه معاوية المصاحفَ، إلى يومنا هذا، والتي ستبقى أعلامُها الخفّاقة وشعاراتها المميّزة إلى الغد القريب والبعيد!

وماذا يُحبُّ الإخوان المسلمون أن نختار لهم من هذه الأعمال التي اقترفوها لتقومَ أمثلةً حيّةً على قولنا؟ ومن أيّ نوعٍ يريدون؟ هل يريدون أن نردّد على مسامعهم أقوال أصحابهم الذين عايشوهم وكتبوا عن تواطئهم مع سلطات عربية وأجنبية، تُظهر السلطة السورية أنّها مغسولةٌ مائةَ مرة عن إحداها إذا ما قورنت معها؟ أم يريدون أن نَسردَ لهم أخبار المتفجّرات التي وضعوها هنا وهناك، فكان من ضحيتها الأبرياء ومن لا ذنبَ لهم إلّا وجودُهم في هذا المكان أو عبورُهم منه؟ وماذا أقول وأسرد وأروي؟ فأعمالُهم

الساقطة كثيرة وكثيرة جدًا يتحدّث بها المتحدّثون في كلّ مكان فلا يستطيعون لها ردًا ولا تكذيباً، لأنَّ نَقَلَةَ الأحاديث ورواتَها وكتّابَها هم من الإخوان المسلمين أنفسهم او من أصحابهم أو من أنصارهم الذين خرجوا عليهم وجاهروهم العداءَ والشحناء.

وماذا يقولون عن هذه الاغتيالات التي خفقت الدنيا كلُّها بأخبارها، والتي لا سبب لها إلّا تسويل أنفسهم؟ بلى! إنَّ حجّتهم الخفيّةَ فيها هي إدخالُ الهلع والرعب في نفوس أصحاب السلطة وخلقِ فتنةٍ واضطراب في صفوفهم وفي صفوف من هم حولهم، واخيراً في صفوف الشعب كلّه. وأمّا الحجّة الظاهرة، فهي تلك الفتوى الدائرة الشهيرة التي استخرجوها من بطون الصِلالِ والأفاعي، فجاءت كلُّ كلمةٍ وكأنّها قطعةٌ من السمّ المسموم. فهل اصنع جميلاً مع المطالعين والقرّاء إذا رحت أعرض بعضاً من هذه القطع؟ ومن ذلك أنّهم قالوا: إنَّ أكثر رجال السلطة هم من فئة عدوّةٍ للإسلام، فلا يجوز النزول تحت حكمهم، ودماؤهم مهدورة، وقتلهم حلال، ونحن الأمناءُ على شريعة الله ونريد ان نأخذهم بها وأن نقيمها عليهم. وقد وفَوْا هذه المرَّةَ بما وعدوا، وراحوا ينتخبون اشخاصاً لهم وزنهم من هذه الفئة، ثم اخذوا يتربّصون بهم الدوائرَ ويتحيّنون الفُرَصَ لاصطيادهم والظفر بهم، بأساليبَ تُحمَد عندها أساليب الوحوش. ولم يُقدموا على صنيعهم هذا مع أشخاص هم في السلطة او إلى جانب السلطة، وإنما مع أشخاص مشهورين بعدائهم للسلطة. وأمّا الذين هم ليسوا من هذه الفئة، فقد تركوهم وشأنهم، ولم يمَسّوا احداً منهم بأذى. ولماذا يفعلون معهم ذلك، ولا يعنيهم من امرهم شيء، وإن اتَوْا بالمحرَّمات كلِّها، وإنْ اشاعوا المُنكرَ في كلّ مكان؟ اليسوا هُمْ الأمناءَ على شريعة الله. وهم الذين يعلمون متى يُقدِمون ومتى يُحجِمون، ومتى يفعلون ومتى لا

يفعلون ؟

وليس من شكّ في أنّ جماعةً ، هذه أقوالُهم وأفعالُهم ، ستأتي منهم العجائب ، وستُخلق منهم أحدوثات الأيّام ، وستولد على أيديهم الفِتَنُ والمَقاتل . ولا عجبَ إذاً أن نسمع بفتنة حماه وحلب وطرابلس ، وأن نقرأ أخبارَ الملاحم في كلّ قريةٍ أخرى ، بل في كلّ قريةٍ ومزرعة . ومن ظنَّ أنّ فتنة حماه وُلِدَتْ من غير أسبابٍ تقدّمت عليها وهيّأتْ لها ، سيُغيّر من ظنّه بعد أن يقرأ سيرة الإخوان المسلمين ويقفَ على أخبارهم وتصاريف أعمالهم . فهي فتنةٌ لم تنزل من الفضاء ولم تولد من الهواء ، وإنّما كانت تتكوّن يوماً بعد يوم من أسبابٍ مباشرةٍ ومن أسباب غير مباشرة . كلّما جاء سببٌ رسم خَطًّا في هيكلها أو حمل إليها لوناً من الألوان ، حتى اكتملت صورتُها ، فنفخ فيها الإخوان المسلمون من روحهم ، فقامت الفتنة على ساقيها ، وتحرّكتْ لتنتشرَ في كلّ مكان .

وأمّا لماذا اختاروا مدينةَ حماه دون غيرها من المدن السورية لتكون المشهدَ الأوّل في هذه المسرحية الإخوانية ؟ فليس أسهلَ علينا من أن نعرفَ سببَ ذلك وأن نَذكره بثقةٍ واطمئنان . فالتاريخ في حماه يعيش قديمُه مستمرًا في حديثه ، وكما كان أهلُها في القديم أصحابَ نخوةٍ ومروءةٍ وشجاعة ، فكذلك أهلها في الزمن الحاضر هم أصحابُ نخوة ومروءة وشجاعة . وكما عُرف عن الأقدمين فيها ، أنَّ حياتهم تتصرّف بها الروح الإسلامية في مظاهرهم وأعمالهم وأنّهم مستعدّون للفداء والتضحية بكلّ شيء من أجل صيانة هذه الروح ، فكذلك عُرف عن المُحدَثين المعاصرين فيها . وممّا هو غالبٌ على طباع أهلها ، إحساسُ الفرد منهم أنَّ كرامته هي أعزُّ شيءٍ عنده وأغلى ما يملكه في حياته . ومعنى ذلك ، أنَّه جوادٌ فلا يَبخل وأنّه عزيزٌ فلا يقبل الذلَّ ، وأنّه رجلٌ يرفض الضعفَ

والضيم. وإذا استصرخه احدٌ فإنّه يُصْرِخه ويُغيثه، وإنَّ كلمةً واحدةً قد تكلفه حياته احياناً. ومن تاريخ هذه المدينة أنّها استعصت على الفاتحين وكانت عثرةً في وجوههم، وربّما لا يزال هذا التاريخ مستمرًا في جوهره، وإنْ هي تغيّرتِ الصورُ عليه، عندما نرى أنّ المدينة لم تقبل أن تُخفض رأسها لواحدة من السلطات التي عرفتْها سورية، حتى ولو كان اكثرُ رجالها من حماه. وكلّما مرّتْ سلطة كان لهذه المدينة عندها اعتبار خاص في شجاعة ابنائها ونخوتهم وغيرتهم على الإسلام ومظاهره، ولها منها موقفٌ مميَّزٌ يُمليه عليها حادث الأيام وقديمها، لعلّ أبرزَ ما يخطر في البال منها صورُ الفداء والتضحية والإقدام.

وإلى جانب هذه الأوصاف والطباع الخاصّة التي تُعرَفُ بها المدينة وأهلُها والتي شجّعتِ الإخوان المسلمين على أن يختاروها ساحةً لألعابهم، يوجد وصفٌ آخرُ او قُل سَبَبٌ آخر، وهو أنَّ من أهل المدينة من صاروا قادةً كباراً في صفوف الإخوان المسلمين، حملوا الرايةَ واستلموا الرسالة. ومن هؤلاء مَنْ لاقى حتفَه في سبيلها، ومنهم من ينتظر وهو مشرّدٌ مَنفيٌّ عن بلاده سورية، يطوف البلدان كلّها، يدعو إلى رسالة الإخوان ويحرّض على الانتقام من السلطة الجائرة في سورية. وليس من شكّ في أنَّ لهؤلاء القادة شأناً في المدينة واتباعاً بين أهلها، فلماذا لا يفكّر الإخوان المسلمون أن يكون لهم من هذا الشأن عونٌ وسَنَدٌ، ومن هؤلاء الأتباع مَوْئلٌ ونُصرة، عندما يَجِدُ الجدّ ويحين الحين، فتنقلبَ المدينةُ كلُّها معهم ويصيرَ لهم ما يريدون؟

واخذوا يعملون لهذه الغاية منذ وقتٍ غير قصير، وبدأوا يَحيكون الاتّصالات فوق الأرض وتحت الأرض، ويروحون ويَجيئون، وفي كلّ رواحٍ يسلّمون أسلحةً وخطّةً ويستلمون وعوداً

وتصميماً، وفي كلّ مجيء يُعطون مالاً ووَقوداً ويتوسّعون في المدينة ولو مقدارَ قدم. وكلّ ذلك يَجري والسلطة في غيابٍ وضبابه، ليس عندها إلّا الظنونُ والاحتمالات، فهي منشغلة بالتناوش والتراشق مع فريقٍ آخرَ منهم في أمكنةٍ نائية من مدنٍ أخرى، يَرمونها فيُبلون بلاءً حسناً، وتَرميهم فتُبلِي بلاءً أشدَّ وأفتكَ. وربّما تقصّدوا أن يكون التناوش بينهم وبين السلطة من مكان بعيد، ليَصرفوا وجهَها عن مدينة حماه، ويَلفتوا انظارَها ريثما تنضج الثمار ويَحين القطاف.

وعلى الرغم من أنَّ السلطة كلَّها أعينٌ ساهرة في المدينة ومِنْ حولها، فقد امتلأتْ بالأسلحة وتحوّلتْ إلى ترسانة، واحتشدَ فيها الفارّون الملاحَقون من الإخوان المسلمين، الذين منهم مَنْ ينتسب إلى المدينة ومنهم مَنْ يتعاطف معها. وكلُّهم تلقَّوْا تدريباً عسكرياً عند الجيران من البلدان العربية، ومَهَروا في استعمال الأنواع المختلفة من الأسلحة. وأصبحوا في المدينة يترقّبون، بين خوفٍ وأملٍ، موعدَ التفجير وساعةَ الانقضاض، وهم لا يعلمون، أنَّ السلطة أحسَّتْ، بأنَّ هناك عملاً يُدبَّر في الخفاء، وأنَّهم وضعوا أيديَهم على إشارات معبِّرة، ساقَهم إليها أدلّاءُ مخلصون من أهل المدينة وخبراءُ معيّنون، ممنْ ألِفوا سلوكَ الإخوان المسلمين وصبروا على مراقبتهم وتحرّكهم، وممّن هم يُكنّون لهم أشرسَ البغضِ ويَحقدون عليهم أشدَّ الحقد.

كلُّ ذلك يجري، وأهل المدينة، إلّا قليلاً منهم، غافلون عمّا يجري، ولا درايةَ لهم بشيء، ولا خبرَ عندهم عن شيء. يَجرون إلى أعمالهم كما تعوّدوا أن يَجروا إليها كلَّ يوم، فالأسواق هي نفسها ملأى بناسها وبضائعها ومحتوياتها وعاداتها وبمن يأتي إليها خالياً ويعود ممتلئاً. وكذلك المعاهدُ والمصانع والمزارع،

وكذلك حركة الحياة بأنواعها كلّها في المدينة بقيتْ كما كانت عليه من الصحو والنشاط، وهي لا تعلم أنّ غيمةً سوداءَ ستمرُّ قريباً في فضائها، تحمل السيولَ والصواعقَ فتُهلكُ مَنْ تُهلك وتُبقي من تُبقي.

وكيف لا نستطيع أن نستنبط الآن من حالة المدينة هذه، تلك الخطّة التي انتهى إلى إعدادها الإخوان المسلمون؟ فقد جعلوا مدينةَ حماه طُعماً في المصيدة، وقرَّروا أن تكون هي الضحيّةَ الفاصلة بين انتصارهم وهزيمتهم، أو أن تكون هي المعبرَ الذي يمرّون عليه إلى النصر المؤزَّر والفتح المجيد. فإنْ تهدَّم بهم هذا المعبرُ فإنهم لن يخسروا إلّا ما لا أسفَ عليه عندهم، وإن هم ربحوا المعركة وكان لهم ما يريدون، فذلك هو المبتغى الذي صاروا إليه. ولقد دبّروا الخطّة تدبيراً واحكموا صنعَها إحكاماً، بحيث لن يُقدَّر للسلطة معه أن تنجوَ من الوقوع في المصيدة. فإنْ هي استطاعت أن تتخلَّص فإنَّ خلاصَها لا يكون إلّا بتدمير المدينة، وإنْ هي عَجِزَتْ عن أن تتخلَّص وانتهى مصيرُها إلى الهلاك، فإنَّ هلاكها لا يكون إلّا بتدمير المدينة أيضاً. فالضحيّةُ في كلّ الأحوال هي المدينةُ وأهلُها، والمتّهمُ المُدانُ في كلّ الأحوال هي السلطة ومن حولَها.

تلك هي الخطّةُ الإخوانية المدبَّرة التي أرادوا أن يكونوا هُمُ الناجحين فيها وحدَهم، بقيَتِ السلطة في مكانها أم لم تبقَ وسلمَتِ المدينة أم لم تسلم. ولن ترجع المسؤولية في حال النجاح إلّا إلى مهارة الإخوان المسلمين وشطارتهم، وكلُّ خير فهو إليهم يعود، وكلُّ شرٍّ من دمارٍ وخرابٍ وهلاك، فإنّه إلى السلطة وحدَها يعود. وأمّا أهل المدينة، فشأنهم شأنُ ذلك الحَمَلِ اللطيف الذي يؤتى به في عيد الأضحى المبارك، والناسُ كلُّهم من حوله لاهون مغمورون بالأفراح، وهو يثغو معهم ولا يدري أنّه سَيُساقُ إلى الذبح بين لحظةٍ وأخرى.

وأومضت اللحظةُ الحاسمة، وانقطع كلُ خطاب إلا خطابُ الرصاص، وهدأتْ كلُ حركةٍ إلّا حركةُ النار واللهيب. ولكنّ ذلك كان قبل الميقات الذي حدّده الإخوان المسلمون لبدء الانفجار بيوم أو يومين، ممّا أدخَل الخلَل والاضطراب على الخطّة التي كانوا قد رسموها وهيّأوا لها وسائلَ التنفيذ وعُدَدَ التدبير، وخَلَقَ في نفوسهم حالةً من الذعر والارتباك، دفعتْهم إلى فقدان الرشد والصواب وإلى ركوب الرعونة والطيش والحماقة في حركاتهم وتصرّفاتهم. وساقتهم إلى أعمالٍ، لو أنّهم تنازلوا عنها وسلّموا أنفسَهم، أو لو أنّهم فرّوا ومضَوْا على وجوههم، لجنّبوا المدينةَ تلك الفاجعة التي نزلت بها فأوهنتْها وحطّمتْها، ولربحوا بعد ذلك قلوبَ أهلها، ولخفّفوا عن أنفسهم من حمل الأوزار والجنايات التي جنَوْها على الضعفاء الآمنين والعزّل الأبرياء. وكيف لا أقول ذلك، وكلّ من استمعتُ إليهم من أهل المدينة المنكوبة، ممّن هم ضدّ السلطة وممّن يميلون ميلاً خفيفاً إلى الإخوان المسلمين أجمعوا على صحّته واتّفقوا على روايته؟

وقد حدّثني ممّن شارك في هذه الفاجعة، منذ إيماض اللحظة الحاسمة حتى آخِر ارتعاشة لهيب فيها، وهو الى جانب السلطة وليس منها، فكان ممّا قاله: بعد أن اهتدَتِ السلطة إلى المركز الرئيسي الذي اتّخذت منه قيادةُ الإخوان المسلمين مقرًّا لتوجيه عمليّاتها القتالية والإشراف عليها، وأحاطت به من غير أن تعلم ما له من قيمة وأهمية، انهالت النيران من كلّ فجٍّ وصوب على الذين تقدّموا نحو المقرّ وعلى الذين أحاطوا به، وكنت مع الذين أحاطوا به. وما هي إلّا لحظات يسيرة حتى اتّسعتْ دائرة القتال وشملَتِ المدينة كلّها، وصار الناسُ جميعُهم من محاربين مدجّجين بالسلاح ومن عزّلٍ أبرياء بين أزيز الرصاص ودويّ القذائف والقنابل، وكلّه

يأتي من طرف الإخوان الموزَّعين توزيعاً قتاليًا مدروساً ومخطَطاً له في أحياء المدينة وعلى زوايا شوارعها الكبيرة وساحاتها العامة وفي ازقتها الضيّقة. ولم يكن للسلطة آنذاك من قوّة حاضرة تمثّلها إلّا مجموعاتٌ مبعثرة من جهاز الأمن، وليس في أيديهم إلّا أسلحةٌ خفيفة لا تُجدي فتيلاً أمامَ هذه الأسلحة التي ظهرتْ وفاجأتهم بكثرتها وقدرتها وتأثيرها.

ولمّا علمتْ قيادة الإخوان المسلمين أنَّ قوّة السلطة لا تزال محصورةً في عناصر الأمن وفي جهاز الشرطة وعددٍ من العاملين في الحزب، وجدتْها غنيمةً لا تُفَوَّت، فأذنتْ للمقاتلين المُنضوين تحت إمرتها أن ينقضّوا على الأمكنة التي تضمُّ رجالَ الأمن والقائمين على شؤون الحزب والموظّفين المقرّبين من السلطة، سواءٌ كانت هذه الأمكنة منازلَ أو دوائر. وانقضَّ بعضهم على المنازل الآهلة الآمنة، وبعضهم على الدوائر العاملة، وفي المنازل قطّعوا الأطفال وقتلوا النساء بطرقٍ يمنعني الحياء أن أذكرها، وسلبوا ما فيها، وحرقوها على الأشلاء والقتلى. وفي الدوائر صنعوا بمن وجدوهم أمامهم هذا الصنيع وأكثر، ممّا كنّا لا نصدّق أنّه سيقع في الحياة في بلادنا أو في أيّ مكانٍ آخر.

ثمَّ إنّهم زرعوا في المدينة الرُّعبَ ونشروا فيها النارَ والموتَ نشراً، ظنَّ المواطنون المروَّعون معهما أن الهلاك سيهبط إليهم من على السقف أو من بين ثقوب الأبواب والنوافذ، وخُيِّلَ إليهم أنّ الهواء الذي يستنشقونه، فيه قطعٌ من النار أو أنّه يَسوق معه شظايا من القذائف التي تحمل حقداً أكثر ممّا تحمل لَهَباً. وممّا زاد في الترويع والتفزيع أنّ قسماً من الإخوان المسلمين الذين اجتاحوا المدينةَ، هم ممّن ينتسبون إلى المدينة نفسها وممّن كانوا قد غادروها وفرّوا منها خوفاً على أرواحهم من أذى السلطة وعقابها.

ولهؤلاء ثاراتٌ قديمة وحزازاتٌ دفينة مع رجالات المدينة وأعيانها المشهورين فيها والذين تتوزّع منازلهم في الأحياء كلّها. ولكي يَشفوا قلوبَهم بأخذِ الثارات والانتقام، كان لا بدَّ لهم أن يَصبّوا حمَمَ الويل والنار على هذه المنازل وعلى مَنْ حولَها، وأصبحتِ المدينة بعد ذلك وكأنّها هي المطلوبةُ كلّها بالثأر، واختلط الطالب بالمطلوب والهارب بالمهروب منه، ولم يعد هنالك فرق بين طالب النجاة وبين ساعٍ إلى الممات.

واستباحوا المدينةَ كما كان مرسوماً لهم أن يصنعوا، واتّجه فريقٌ منهم إلى المصارف فاقتحموها وقتلوا مَنْ بقِيَ من موظّفيها الذين لم يَفرّوا مع الفارّين، ونهبوا ما فيها من الأموال ومن الأوراق التي قيمتها أغلى من الأموال. واتّجه فريقٌ آخرُ إلى المخازن الكبرى وإلى المستودعات، فما تركوا وما أبقَوْا على شيء، فما يُحمَل أخذوه، وما لا يُحمَل حرقوه في مكانه وفجّروه. وأسرع فُرَقاءُ آخرون إلى المساجد فاحتلّوها وملأوها بالأسلحة والذخائر وتسلّقوا مآذنها، وأخذوا يُلقون الخطاباتِ السوداءَ السامّةَ التي تحمل أحقاد التاريخ كلّه ودفائنَ الأحقاب السحيقة جميعِها، ويُعلنون منها لأهل المدينة أنّهم أسقطوا السلطة وحطّموها وأنّ البلاد كلّها أصبحتْ في قبضتهم وتحت سيطرتهم. وتوزّعتْ أعدادٌ منهم في أحياء المدينة، يَقرعون الأبوابَ على أهلها وقطّانِها، ويطالبون مَنْ يجدونه منهم من الشباب والأحداث أن يُهرَعوا إلى نصرتهم وإلى اللحاق بهم، ومن راح يتمنّع منهم، كانوا يُرْدونه أمام أعين أهله، وأحياناً كانوا يقتلون الأسرة بكاملها إذا لم يجدوا منها تجاوباً يُرضيهم أو إذا رأَوْا أنّ شكوكاً تتخايل على وجوه الأبناء فيها. ولجأتْ أعدادٌ أخرى إلى التجوّل في طرقات المدينة وشوارعها وساحاتها العامّة بسيّارات غير مظنون بها، وكلّما عبرتْ بهم سيّارة مشبوهة، أوِ اقتربت منهم

سيّارة يشكّون بمن فيها كانوا يَرمونها بالموادّ المشتعلة أو بالقذائف الحارقة، أو يقتلون من فيها، ويضمّونها إلى أسلابهم وإلى منهوباتهم الجمّة الكثيرة. وأمّا عن تأمين الاتّصال مع هؤلاء الفرقاء المبعثَرين المنتشِرين لتنظيم أعمالهم وحركاتهم، وترتيب الأدوار الموزَّعة عليهم، فإنّه كان يجري بوساطة آلات من الإرسال دقيقة الصنع، وبوسيلة أجهزة اتّصالٍ متقدّمة خاصّة لهذه الأغراض، وهي مصنوعة في أمريكا، ولا يتهيّأ إلّا للدول وقادة الجيوش أن يملكوها ويتصرّفوا بها.

ثمّ قال المحدِّث: نعم صنع الإخوان المسلمين ذلك كلّه وأكثرَ من ذلك خلال ثلاثة أيّام أو أربعة، والسلطة كأنّها غائبة، ولا وجود لها إلّا في ظلالٍ باهتةٍ هيّنة، ولا أثَرَ لها فيما حَدث ولا دور. ولذلك لا نرى لنا حقّاً أن نُلقي عليها شيئاً من اللوم، ولا أن نُحمّلها قليلاً أو كثيراً من المسؤولية فيما جرى حتى الآن. وكلُّ من راح يعتبرها مسؤولةً عن هذه الفعلات من خرابٍ ودمار ومن تقتيلٍ وترويع فهو من الإخوان المسلمين أو ممّن يحلب بإنائهم، ولا مطرحَ لرأيه ولا وزن لاعتباره.

أمّا الآن وبعد أن صال الإخوان المسلمون وجالوا في مدينة حماه واستباحوها هذه الأيّامَ الأربعة، وبعد أن اطّلعَتِ السلطة على باطن فعلتهم وظاهرها، وانتهتْ إلى الإحاطة بهذه المغامرة الجريئة، وأمسكتْ بخيوطها المفتولة في الداخل والخارج، فقد أعدّتْ هي الأخرى خطّتها ورأتِ الوقت طيّباً لسلخ جلود الإخوان المسلمين واستئصال شأفتهم واقتلاع جذورهم. ولو لم يسابقوا الزمن ويتعجّلوا إطفاءَ هذه الفتنة في مكانها بهذا الأسلوب الذي أطفأوها به، لتطاير شررُها إلى أمكنةٍ أخرى ولأحْدثتْ حريقاً كان صعباً على الزمن بعد ذلك أن يتلافى ويلاتِه وما ينجم عنه من مهالكَ

واخطار .

وقد كان همّ السلطة منذ بدء عملها إلى آخره ، ان تُجنّب مدينةَ حماه فَداحة الخَطْب وهولَ الكارثة . فبدات بحصارها ، ثم راحت تخاطب الإخوان وتناشدهم بالأجهزة المكبِّرة للصوت ، أن يُسلّموا انفسَهم وان يَقِفوا عند هذا الحدّ من تسبّب الهلاك والخراب للمدينة ، ووعدتْهم بألّا تأخذَهم بالقوّة ولا تستعملَ معهم القسوة والعنفوان ولكنّ الإخوان أصمّوا آذانَهم وقلوبَهم ، وازدادوا في شراستهم واستعدادهم للمواجهة والتقتيل ، وعلِموا أنّ هذه خديعةٌ ، عليهم أن لا يستمعوا إليها وأن لا يقعوا فيها . ثم عاودَتِ السلطة مرّةً ثانية وثالثة ، وفي كلّ مرّة كان أهل المدينة يسمعون كما يسمع الإخوان ، ويُدركون أنّ بعد هذا النداء سيأتي البلاء . فكيف سيعملون الآن لكي يُنقذوا أنفسَهم من هذا الجحيم الذي حاق بهم ؟ إنّهم واقعون بين نارين حارقتين ، نارِ الإخوان التي تمنعهم من الخروج ، ونار السلطة التي اخذ نذيرها يقرع أسماعَهم وإحساسَهم ، واصبح الذي يعرف منهم كيف يهرب ويفرُّ بنفسه هو البطل الذي لا مثيل لبطولته في التاريخ .

ولكنّ السلطة نفد صبرُها كلُّه ، وعلمت أنّ كلّ دقيقة تقطعها بالانتظار تقرّبها من أجلها ومن سقوطها عَشَرَة أعوام . فأطلقتْ لنفسها العنانَ بعد أن ملأت الدنيا حول حماة عسكراً غلاظاً وسلاحاً ثقيلاً وعبّأت السماء بقاذفات الحمم وراشقات الموت . وكانت بداياتها الأولى تجاربَ واختبارات تهدف من ورائها إلى كشف ما عند الإخوان المسلمين من أسلحة جديدة لم يستعملوها ، ومن عتادٍ مدّخَرٍ لم يزجّوا به في ميدان الهولِ والعراك . وقد صدقتْ ظنونهم فنجحوا في تجاربهم ، وظهر ما عند الإخوان من معدّات ثقيلة مودَعة داخل المدينة وموضوعة خارجها ، وذلك حين استعملوها ردًّا على

ب.ايات السلطة الخادعة الواهمة.

وأمّا بعد ذلك، فقد استفحلت شراسةُ السلطة واستشرتْ وحشيّتُها، ونَقَلَتْ حماةَ من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة، وصيّرتْها طبقةً من طبقات الجحيم، لا يفرّق المرءُ فيها بين من يعذَّب وبين مَنْ يتعذَّب، ولا يدري مِن اين يأتي إليها الويل، أمِنَ الأرض أم من السماء؟ ثمّ دخل العسكر المدينة على حينِ غرّة دخولاً عجيباً وبطُرقٍ أعجب، والقَوْا في قلوب الإخوان رُعباً شلَّ حولَهم وقوّتهم، وأنزلهم من صياصيهم، وأخرجهم من مقامعهم، وهم يخمشون وجوههم ويضربون أدبارَهم من هول ما عانَوْا وما عاينوا. وكان عددهم كثيراً فأصبح قليلاً، ووزنُهم ثقيلاً فعاد خفيفاً، وخطرُهم كبيراً فصار صغيراً، بعد ما أوقعوا بهم إيقاعاً سيظلّ يئنُّ منه التاريخ انيناً ويعجُّ منه عجيجاً ما بقي للتاريخ ظلٌّ أو وجود.

وكان أغربُ ما حَدَثَ وأعجبُ ما لاقَيْتُ، أنَّ الذين اقتحموا منازلَ الحزبيّين من الإخوان المسلمين وقطّعوا أطفالَهم وفسّخوا نساءهم، وقع منهم ثلاثة في أيدي أعنف ضابطٍ وأشرسِه. وعندما كشفهم تَفَلَ في وجوههم وقال لهم: أنتم تزعمون انكم الأمناء على تطبيق شريعة الله، لكنّكم خنتم ولم تكونوا حقّا امناء. وأمّا أنا فإنّني أمين على تطبيق شريعتكم، ولن أخونها في مثقال ذرّة، وسأفعل بكم كما فعلتم أنتم بغيركم. واعذروني إذا لم يكن عندي وقتٌ لأسلخَ جلودَكم وأصنع منها أحذيةً لجنودي. ثم أمرَ بتقطيعهم وهم أحياء، كما قطّعوا الأطفال وفسّخوا النساء وهم أحياء. ومن أعجب ما سمعتُ أنَّ الذين سقطوا في أيدي العسكر من الإخوان المسلمين، ندبوا وصرخوا وتبرّأوا من الأعمال التي نُسبت إليهم، واتّهموا قياداتهم بأنهم غرّروا بهم، ولكنَّ الذين رأوْهم من أهل المدينة كذّبوهم وشهدوا على جناياتهم وعلى ما اقترفته أيديهم.

ثمّ إنّ المحدّث تجمّع على نفسه، وحاول أن يختصر هذه الفتنة من أوّلها إلى آخرها بكلمات قليلة وأن يحمّلها رأيه، فقال: إنّ الفسادَ الذي غزا كلّ شيء في حياتنا، وإنّ تراخي السلطة في مسألة الحساب والعقاب هما سببا الأحداث والفتن في بلادنا، ومنها هذه الفتنة الآثمة. وإذا كانت السلطة قد لجأت في قمعها إلى الأسلوب الوحشي الذي لا مثيل له، فإنّ لجوءها هذا لم يكن منها مبادرةً، وإنّما كان ردّاً على مبادرةٍ وعلى أسلوب وحشيّ لا مثيل له أيضاً، والبادي هو الأظلم. ولمّا سألته: هل كانت السلطة تستطيع أن تلجأ إلى أسلوبٍ آخرَ في القضاء على هذه الفتنة، تكون فيه الخسائر في الأرواح أقلّ والخرابَ أيسر؟ أجاب: في اعتقادي، لم يكن لها خيار في اتّباع الأسلوب الذي اتّبعته، ولو أنّها تباطئتْ قليلاً عن إبادة هذه الفتنة لاشتعلت في جوانبَ أخرى من البلاد وتوسّعتْ ثمّ توسّعتْ، وأصبح إطفاؤها مستعصياً إلّا بعد أن تتحوّل الحياة عندنا إلى رماد.

وقد يكون فيما حكاه لي مبالغةٌ، وقد يكون فيه إسراف، ولكنني لم أختَرْ روايتَه على روايات غيره، إلّا لأنّ ما انتهيتُ إليه من أقوالٍ لمصادرَ مختلفةٍ، يتّفق أكثرُها مع قوله. وهي كلّها تعبّر عن عمقِ هذه الفاجعة التي أناخت بظلّها الثقيل على أذهان الناس وحمّلتهم من الذكريات ما سيظلّ يوحي إلى الأجيال القادمة بالشقاء إلى أمدٍ بعيد. ولا يمنعنا أنّنا استمعْنا إلى هذا المحدّث أن نستمع إلى غيره من المحدّثين أيضاً. فقد قال لي بعض أهل المدينة: ليس للإخوان عندنا في حماه ولا في غيرها من مدن سورية شأنٌ ولا قيمة، والسلطة وحدَها هي التي جعلت لهم شأناً وخلقت لهم قيمة. وذلك عندما لم تفرّق بين ما لدى هؤلاء من مشاعرَ دينية مصنوعة أو مجلوبة لا تحمل إلّا المعنى السياسي، وبين ما عند المواطنين

الآخرين من المشاعر ذاتها، ولكنّها طبيعيةٌ اجتماعيةٌ وليس فيها أثرٌ للمعنى السياسي. وقال لي بعضهم الآخر بلهجةٍ ساخرة ولكنّها واثقةٌ ورائعة: القضيّةُ وما فيها من أوّلها إلى آخرها، هي أنّ بين السلطة وبين الشعب مسائلَ متشابكةً وحسّاسة، ليس من السهل أنْ تَهْتَدِيَ إلى حلّها وأن تتفاهم معه عليها. ولذلك تقوم بين كلّ فترةٍ وأخرى فتختلقُ لنفسها أحداثاً جانبيةً تَشْغَل بها الشعبَ وتصرفُه عن التفكير في مسائله الحيّة الأصلية. وليستْ فتنة الإخوان المسلمين، وأحداثُ الاغتيالات الفردية والجماعية، وفاجعةُ لبنان، إلّا نماذجَ وأنماطاً لهذه الأحداث الجانبية، والحبلُ طويلٌ وطويل، ولا نعلم أين سينتهي بنا. وقال لي آخر: الإخوان المسلمون هم سبب كلّ بلاءٍ وفتنة، وخيرُ علاجٍ لهم هو أن تُحسّن السلطة علاقتها بالشعب وتزيدَ في تلطيف الارتباط والاتّصال بينها وبينه، وتعيدَ إليه شيئاً من الثقة المفقودة، لأنّه إنْ وُجِدَ عنده شيءٌ من التعاطف مع الإخوان المسلمين، فذلك مردُّه إلى ضراوة اللهجة التي يسمعها من السلطة والى سوء المعاملة التي تَجبهُهُ بها في كلّ شيء وإلى الفساد المستبدّ بكلّ عنصرٍ من عناصر حياته، وإلى قُبح نواياها على غَدِه المرتقَب. وقال لي رَجلٌ آخر: إنّ تخريب الإخوان المسلمين في حماة لا يعدل شيئاً أمام تخريبِ السلطة فيها. وإذا هي راحت تكبّر تخريبَهم وتُضخّمه، فلكي تغطّيَ على ما فعله حقدُها الأسود الدفين في هذه المدينة البريئة الصابرة. فالسلطة القائمة في بلادنا، هي سلطةٌ ظالمةٌ حائدة لا يجوز القعود عن مجابهتها ورميها بكلّ أنواع الرميات حتى تنتهيَ وتنصرف، وهي لا تستحق إلّا الجلد والقتل.

والأقوال متعدّدة كثيرة، وكثرتها هي من كثرة الناس، فلا تنحصر إلّا عندما ينحصرون، ونحن لا نستطيع أن نأتيَ على آخرها وأن نَجمع بينها كلّها. وفيما ذكرنا من الأقوال المتنوّعة لمصادرَ

مختلفة ما يُعرِّف بطبيعة هذا الشعب الفَطِنِ اليَقِظ ويُبيّن ما يعاني منه وما يريد أن يصير إليه. ولا يسعنا إلّا أن نكون معَ أولئك القائلين الذين قالوا، إنّه كان على السلطة أن تلجأ إلى أسلوب آخر، يكون فيه الخراب أقلّ ممّا وقع وإزهاقُ الأرواح أيسرَ وأخفَّ ممّا جرى. وهم مهما غالوا في خطورة هذه الفتنة وفي شدّة تأثيرها والتخوّف من انتشارها، إلّا إذا صحَّ ما زعموا وأشاعوا من أنَّ الإخوان المسلمين كان لديهم في المدينة أسلحة ثقيلة فتّاكة جدًا، فقد كان ينبغي على السلطة أن تضع أكثرَ من خِطّة وأن تعمد إلى أكثرَ من أسلوب، ولا تضيّعَ في ذلك وقتاً، ولا تتأخّرَ في إبادة الفتنة كلّها، ولا تُسرفَ في التخريب والتقتيل.

ومن قَبيل المثال، نقدر أن نقترح هنا أسلوباً من هذه الأساليب أو خطّةً من هذه الخطط، كأنْ نشدّد في الحصار على المدينة، ثم نُدْخِل من جوانبها كلّها عناصر مسلحة، بعضُهم يرتدي ملابسَ سيّدات محجّبات وهم يحملون أسلحةً خفيفة مؤثّرة حارقة. وبعضُهم يلبس أزياء الوعّاظ من رجال الدين وهم يُهرَعون من الخوف والفزع، ولديهم من القنابل المؤثّرة الفعّالة ما يكفل القضاء على مراكز قيادة الإخوان المسلمين وعلى أمكنة تمركز أسلحتهم الثقيلة وجنودهم الأشدّاء. وأمّا إذا صدق القائلون الذين قالوا والرواةُ الذين رووْا، أنّ الإخوان المسلمين كانوا يملكون أسلحة ثقيلة داخلَ المدينة وعلى مشارفها، وكان في عهدتهم أسلحةٌ خطرةٌ فعّالة، وكانت أعدادهم كثيرةً، وهم منتشرون في المدينة انتشار المرض الخبيث، إذا صدقوا في ذلك، فقد كان لا بدّ للسلطة من أن تلجأ إلى هذا الأسلوب العنيف الزاهق الذي لجأتْ إليه.

وإذا كان الإخوان المسلمون يزعمون أنّهم أمناءُ على تطبيق شريعة الله في خلقه، فلماذا رضيَتْ قيادتهم أن يَصيروا آلةً مسخَّرةً

في أيدي سلطات عربية ، هي في ظاهرها وباطنها وأصلها وفصلها عدوٌّ للإسلام ؟ ولا نقول ذلك تهمةً وافتراءً ، ولا نقوله لولا أنَّه ملءُ سمع العالم وبصره . ومهما وضعوا من أعذارٍ وأقاموا من حُجَجٍ وتَعِلّاتٍ لتسويغ عملهم هذا وجَعْلِهِ مقبولاً مشروعاً ، فإنَّه سيظلُّ هو العائقَ في طريقهم وهو العقبةَ التي تمنعهم من الوصول إلى السلطة ، أو من الوصول إلى شيءٍ من القيمة والاعتبار عند أعدائهم أو عند أصدقائهم من الشعب وفي غيره من الشعوب . ولو أنّهم صدقوا الله لصدقتهم الأهدافُ والأماني وجاءتْ تسرع إليهم ، وكيف سيصدقون الله في أقوالهم وأفعالهم وهم لم يعاهدوه ؟ وإنّما صدقوا ما عاهدوا عليه سلطات عربية ، جعلتْ من الإسلام سوقاً تُباع فيه المبادىءُ وتُشرى القيمُ كما تباع السلعُ وتُشرى ؟ أم كيف سينتصرون وقد تفرّقوا شِيَعاً وتقطّعوا فيما بينهم إلى أسبابٍ وأحزاب ، وأصبح بعضُهم يكفر ببعضٍ ويلْعَن بعضُهم بعضاً ؟ وليس لهم من منقذٍ ينقذهم ممّا وقعوا فيه ولا مِنْ صائنٍ يصونهم من التدحرج نحو التهلكة ومن الانزلاق إلى الجحيم إلّا أن يصدقوا الله في نواياهم وأن يكون عملهم خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتوجّهوا في هجرتهم إلى الله ورسوله وشريعته الغرّاء ، وليس إلى دنيا يُصيبونها ولا إلى مِتَعٍ يتوهّمونها .

وإذا كان الإخوان المسلمون قد استعانوا بالفُجّار والفُسّاق من العرب وغير العرب واتّكلوا عليهم في كلّ ما أتَوْه من أحداث وما صنعوه من حوادث في مصر وسورية ثم باءوا بالخيبة والفشل وانتهَوْا إلى التفسّخ والانهزام ، فلماذا لا يجرّبون أن يستعينوا بالله مرّةً واحدة ويتّكلوا عليه في تحرّكهم وقيامهم ؟ إنّهم لو فعلوا ذلك لهان كلّ شيء أمامهم ، ولوجدوا أن النصرَ أصبح إليهم أقربَ وأنَّ الشعب إليهم أقربُ ، تلتفُّ حولهم أفواجُه وهم يَرفعون رايتهم

ويهتفون باسم دولتهم ويسيرون على انوار قيادتهم.

وما إن انجلتِ الفتنة عن وجه حماه ودبّتِ الحياة في عروقها وفي خلاياها من جديد، حتى عاد كلُ طَرَفٍ يتّهم الآخر ويجعل منه السببَ والغرضَ بآنٍ واحدٍ. فالإخوان المسلمون يُحمّلون السلطة اعباءَ ما جرّته الفتنة من الويلات ويُلقون المسؤولية كلّها في عنقها. وتُقابلهم السلطة تهمةً بتهمةٍ. فهي تُسمّي الإخوان محرّضين على الفتنة ومسبّبين لها وفاعلين لمجملها ومفصّلها. وليس من شكٍّ في أن الإخوان، استغلّوا هذه الفتنة إلى أبعد مدىً في إشاعة اخبار السوء عن ولاة الأمور وتشويه دولتهم في كلّ مكان من هذا العالم. وكذلك صنع صنيعَهم اولئك الذين كانوا وراءهم يشدّون أزرَهم ويمدّونهم بالمال والوقود.

والحقّ الذي لا مفرَّ مِنَ الاعتراف به، هو أنَّ هذه الفاجعة الماكرة لم تنقضِ احداثها، دون أن تترك آثاراً وشروخاً على السلطة التي اهتزّتْ لها اركانها واضطربتْ اعمدتها، واحمرّتْ عيون بعضِهم على بعضٍ، من الانتصار على شرٍّ لم يولّد لهم إلّا شرًّا اقبحَ منه. وإذا كان الشعب لم يأسَ على الإخوان المسلمين ولم يهتزْ لمُصابهم ويَرْثِ لحالهم، لكنّه آلمه كثيراً ما حلَّ بهؤلاء الأبرياء وما الَمَّ بالعائلات المنكوبة من الطرفين المتصارعين من خسائرَ وفجائع، فهم اخيراً كلُّهم ابناءُ عائلةٍ كبيرة في شعبٍ كبير. وإذا اعتقدت السلطة أنَّ مواقعها قد تعزّزتْ في الشعب، بعد هذه الفتنة، اكثرَ ممّا كانت عليه، فذلك صحيحٌ ولكنّه تعزّزٌ قاد إليه الخوف وليس الفرحُ والانشراح. وكان شأنُها فيه شأنَ ذلك السبع الذي قَتَلَ افعى، فلا هو وجد فيها صيداً يأكله ويتمتّع بأكله، ولا هو أتى ببطولةٍ نادرة تَقرُّ بها العيونُ وترتفع بها الرؤوس.

وإذا كانت السلطة، يؤلِمها أن يتناقل الناسُ اخبارَ هذه الفتنة

أن يتناولوها بالبحث والتحليل، وتودُّ لو أنَّها تُقلَعُ من الزمن وتُطرَحُ في المجهول، فإنّه كان لا يؤلمها ولا يضايقها بل يَسُرُّها أن تسمعَ المواطنين يَقرِنون إليها رفعت الأسد ويُلقونها على غاربه، لغايةٍ كشفتْ عنها الأيّام فلم تعد خافيةً على أحد. وإذا كان لم يتيسّر لنا في ذلك الزمن، أن نشاهد أصابع السلطة وهي تلعب في الظلام على أوتار هذه الشائعة لتصبح نشيداً تتناقلها الشفاه، فإنّنا لا نزال نحتفظ بإشاراتٍ ونخزِّن في وعينا كلماتٍ كانت تفتح النوافذ المتعرِّضة لرياح الطعن والاتّهام والتهجّم. ولم يكن صحيحاً كما زعموا أنَّ صيتَه الواسعَ البعيد عرَّضه لمثل هذا الطعن والاتّهام. ففي السلطة مَنْ له صيتٌ مثلُ صيته، وله دورٌ في فواجع هذه الفتنة وفي غيرها أكثرُ من دوره. لكنّهم صرفوا عنه النظر، إذ لم يكن لهم نحوه نيّةٌ سيّئة مثلُ نيّتهم نحو رفعت، ولم يُبيِّتوا له من المكر والحيل ما كانوا يُبيِّتون لرفعت.

وإذا كان الشعب قد رضيَ طوعاً أو كرهاً عن كشف هذه الغمّة السوداء التي سبّبها الإخوان المسلمون، وكانت السلطةُ راضيةً عن كلّ من شارك في كشفها وجلائها، وكان رفعت طرفاً من هذه السلطة التي عبَّر عنها هو وجنود وحدته في دورهم الذي أخذوه، فلماذا إذاً تشويه هذا الدور وصبغُه بصبغة الاعتداء والترويع دون صبغة التطهير والإجلاء؟ ونحن كلُّنا على يقينٍ أنَّ الناسَ في بلادنا لن يطعنوا على رفعت ولا غيرِه حملتَه الضارية على الإخوان المسلمين وإنقاذَ الشعب من أمراضهم ومفاسدهم، وسيعُدّون له ذلك فضيلةً وشرفاً يحقُّ له أن يباهيَ بهما.

والحقّ أنّ رفعت، عندما تناولتْه أقلامٌ عربية وأجنبية وعرّضت به وبدوره في هذه الفتنة وقرصتْه في التعريض، لم ينس أن يعتزَّ ويُباهيَ بهذا الدور الذي قامت به وحدتُه في تكسير شوكة

الإخوان المسلمين والقضاء على فتنتهم. ثم يعتزّ ويباهي مرّة ثانية، بأنّه استجاب لنداء القيادة السياسية والعسكرية في بلاده، وانّه اغاث الواجب الوطني الذي طلبَ إليه الغوث بإلحاحٍ وعناد. وكان ذلك في المحاكم الفرنسية التي لجا إليها رفعت لتُنصفه من هذه الأقلام الجانية. ومن حقّ رفعت أن يعتزَّ ويُباهيَ، وهذه الوثائق موجودة، وكلُّها فصيحةٌ بنطقها، غنيّةٌ بنفسها عن كلّ وضوح، وهي تتكلّم بلسانِ رفعت وتقول: أعتزُّ بأنّني قمتُ بدورٍ اسندتْه إليَّ القيادة العسكرية في بلادي، واعتزُّ بأنّني عبّرت عن طموحات شعبي وعن تطلّعاته في كشف هذه الفتنة التي كان خطرها يتهدّد بلادي كلَّها. وإنَّ أيَّ معنىً آخرَ يُعطَى لدوري غيرَ هذا المعنى، فهو معنىً مزوَّرٌ مشوَّه، ارفضه وأردّه واضرب به وجوه قائليه ومروّجيه.

و ـ الحرب العراقية الايرانية

ارادها الغرب ان تكون حرباً عربية فارسية، يشترك فيها العرب كلّهم مقابل الفرس كلّهم، وحرباً إسلامية إسلامية، يقاتل فيها فريقٌ إسلامي فريقاً إسلاميًا آخر. لكنّه نجح قليلاً واخفق كثيراً، وعاد إليه كيده، وارتدّ مكره إلى نحره، فقد اصبحتْ حرباً بين الإسلام كلّه، متمثّلاً في قيامة الشعب الإيراني المسلم ومَن التفَّ حوله من ضعفاء الشعوب وبين الغرب الجبّار كلّه محتجباً بالأنظمة العربية المنحرفة الشاذّة، وعلى راسها النظام العراقي. وإن شئتَ فقُل إنّها كانت حرباً بين القيَم العزلاء القويّة وبين الآلة المتكبّرة الضعيفة، أو بين الشعوب المظلومة المغلوبة وبين الأنظمة الظالمة

الغالبة .

ولماذا لا يريد الغرب هذه الحرب ولا يسعى إلى إشعالها وتأجيج نارها ، وقد أصبحتْ مصالحه في خطر ، وأخذ أمنه يتهدّده الخطر ؟ وهو يعلم علم اليقين أنّ الخطر في هذه المنطقة يَكمن في عنصرين اثنين : إمّا في قيامة الإسلام الحقّ ، إسلام القلب واليقين الذي يقود إلى التضحية والشهادة ، وليس في استمرار إسلام اللسان والوجه الذي هو قائمٌ سائد ، والذي هو امتدادٌ لأمن الغرب ومصلحته ونفوذه . وإمّا في تنامي الشعور عند العرب تنامياً ، يدفعهم إلى الاجتماع بعد التفرقة وإلى الاتّحاد بعد التجزئة . وهيهاتِ للعرب أن يتنامى هذا الشعور في نفوسهم ، إلّا بعد أن يهتدوا إلى الإسلام الحقّ الذي هو عين الإيمان ويتخلَّوْا عن هذا الإسلام القناع الذي هو عينُ النفاق والرياء .

وكأنّ الوهم قد بدأ يُصوِّر للغرب أشباح هذين الخطرين ، أو قُل إنّه أخذ يرى أشباحهما قادمةً إليه من بعيد . فهذه علامة من علامات ظهور الإسلام الحقّ أصبحت بيِّنة واضحة ، وهي نهضةُ الشعب كلّه في وجه الحاكم الظالم وتحطيم نظامه الجائر وتغيير أسلوبه الفاسد ، وهكذا فعل الشعب في إيران . وهذه علامة ثانية من علاماته وبشرى من بشرياته ، وهي انتخاب الشعب الثائر المتجدّد حاكمَه الذي يريده انتخاباً حرًّا ، قائماً على مبادئه وقيَمه وأُسسه الأخلاقية والدينية ، مستقلًّا عن الغرب أو عن الشرق في نظراتهما إلى أنواع الحكم ، مستبعداً كلّ أثر لهما ، لا يكون له إلتقاء مع نظراته أو لا يتّفق وقيَمه ومبادئه . وهكذا فعل الشعب في إيران .

أليس في هاتين العلامتين نذيرُ خطرٍ قادم ، لا يجوز التهاون به ولا السكوت عنه ؟ ولم يبقَ عند الغرب وقتٌ للسكوت ، وليس له طاقة على الصبر أكثر . فها هي عدوى نهضة الشعب الإيراني تنتقل

إلى كلّ مكان في ديار الإسلام، فتمسّه في أمكنة منها مسًّا خفيفاً، وتهزّه في أمكنة منها هزًّا غيرَ خفيف. ففي بلدان المغرب العربي مثلاً حيث تُخوم الغرب وحيث الحدود معه، أخذتِ العقول تتحرّك في الرؤوس وتُحِسّ أنّ شيئاً بدا يطوف حولها ويلامسها، وكانت من قبل هامدةً جامدة لا يُرجى لها حركةٌ ولا إحساس. وأخذتْ عيون الفكر تتفتّح وكانت مغمضة، فرأت أنّ هناك شيئاً آخرَ غيرَ الغرب هو موجود، ويستطيع أن يكون كبيراً يزاحم الغرب فيزحمه، وهو الإسلام الحقّ. وفي بلدان المشرق العربي، أخذتِ الأنظمة تُقيم حول نفسها أسيجةً من جديد وتشدّد من الحراسة على أمنها وتحرّكها، لأنّ الجماهير الخاضعة لسلطانها والنازلة تحت إمرتها، وقفتْ إلى جانب الشعب في إيران وعبّرت عن تأييدها ومساندتها له في مواقفه وخطواته، بمظاهرات قامت هنا وهناك، وبتحرّكات شعبية يسيطر عليها الفرح والإعجاب. وكأنّما أحسّت هذه الأنظمة، أنّ الجماهير تعبّر في مظاهراتها وتحرّكاتها عن رغبات مكبوتة في الأنفس وعن تطلّعات في الصدور، بل رأتْ فيها لساناً ناطقاً عن ميلها إلى نهضة مثلِ نهضة الشعب في إيران وعن هبّةٍ عاصفةٍ مثلِ هبّته، تَعصف بكلّ ما في حياتها من سوء وفساد ومن شذوذ وانحراف، تسرَّبتْ إليها من هذه الأنظمة الثقيلة المُنيخَة على صدورها. ثم تعود وقد وُلدت مرّةً ثانية من جديد، لتختار لنفسها حياةً جديدة لا أثر فيها لأنظمة الظلم والقمع والخيانة، تمارِس حريّتَها وتعيش مبادئها وقيَمها على هواها.

وكانت هذه المظاهرات والتحرّكات أشدّ بروزاً وأوسع معنى في لبنان وفي جوانبَ متعدّدة من الخليج، حيث الحدود مع إيران بعيدةٌ ممتدّة. وحيثُ الاختلاط بين الشعب هنا وبين الشعب هناك أكثرُ امتداداً وأعمق بُعداً.

ويأتي العراق في طليعة هذه الجوانب، بل هو أوّلها وأوضحها تعبيراً عن هذه الصفات وأكثرها جمعاً لهذه الظواهر. فالشعب فيه يكاد يكون مثلَ الشعب في إيران من حيث الأعراف والتقاليدَ وطرقَ العيش، وهما ينتميان إلى مذهب إسلاميّ واحد، والروابط بينهما أصعب من أن ينفكَّ بعضها عن بعض أو أن تنفصل او تنقطع. وفي هذه الأسباب ما يكفي، لكي يستجيب العراق إلى اثر الثورة الإسلامية في إيران، ولكي تنتقل عدوى الشعب الإيراني وجرثومةُ قيامته إلى الشعب في العراق، فينهضَ مثله ويقومَ على نظامه ويفعلَ به كما فعل الشعب في إيران بنظامه.

ولم تُهادن الثورة الإسلامية الإيرانية النظام الجاثم على صدر الشعب في العراق، منذ اليوم الأوّل لقيامها، ولم تُخفِ سياستها عنه ولا موقفها الصعب العنيد نحوه. فكانت الشعارات والأقوال التي يردِّدها المتظاهرون الثائرون في طرقات مدن إيران وشوارعها كلُّها تخاطب السلطة القائمة في بغداد كما تخاطب السلطة الساقطة في طهران، وتُنذرها بالمصير الذين آلت إليه سلطة طهران ومعها أشياعها وتُبّاعها. ولم يبقَ الشعب في العراق دون استجابة لهذه النداءات التي اعتبرها موجَّهة إليه مؤْذِنة له بالقيام والتحرّك، واعتبر نفسه مَعنيًا بها مسؤولاً عن التجاوب معها واتّخاذ موقفٍ يؤيّدها ويَنصرها وينسجم مع سيرها واتّجاهها.

وكانت السلطة الساهرة في بغداد تترصّد كلّ كلمة تخرج من طهران وكلّ حركة، وتَعدّ العدّة للأيّام المقبلة التي ستنكشف عن صراع مسلّح وتشابك بآلات الحرب والقتال، كهذا التشابك الدائر بينهما في الأقوال والكلمات والخطابات من وراء الإذاعات. وصارت إذا لمحتْ من بعيد شبحاً في العراق يُعتبَر استجابةً لإيران أو صدى لثورتها، تَقمعه بأسلوب فظّ غليظ وتُبالغ في قمعه، كأنّها تُلقّن في

ذلك درساً وتقدّم أمثولة. ولم يكفّ الشعبُ العراقي عن الاستجابة لنداءات الثورة في إيران، ولم تكفّ السلطة العراقية بدورها عن التنكيل بكلّ مستجيب وعن القمع والإبادة لكل من تحدّثه نفسه أن يتحرّك، أو يدعوَ إلى حركة فيها ميلٌ أو اثرٌ للإستجابة.

ولمّا كان الغرب يخشى، من أن تنتقل عدوى الثورة الإسلامية في إيران إلى العراق، فتقومَ فيه ثورةٌ مثلُها، ويتزايدَ نحوه الخطرُ أكثر، ويتمدّدَ ويصبحَ ردُّه بعد ذلك صعباً ثقيلاً عليه، سيكلّفه غالياً إذا هو نجح في ردّه، وإذا هو لم ينجح فإنّ الخطر سيُسرع في تزايده وتمدّده، لمّا كان يخشى ذلك، فإنّه رأى أنّ أنجع حيلة يصنعها لدرء الخطر عن نفسه، هي قرع طبول الحرب وإشعال النار بين البلدين المتجاورين. فحرّك العراقَ وهمس في أذنيه وشجّعه وأغراه، ووعده بأن يساعده بالمال والسلاح، ويُسانده بخبرة الخبراء على أرض المعركة وبحِيَل السياسيين ودهائهم في المحافل السياسية الدولية.

وكان العراق، تَكفيه الإشارة لكي يتحرّك ويندفع، فكيف وقد وقف الغربُ جهرةً بعلمه وماله وسلاحه وخبراته وإعلامه إلى جانبه؟ وقد وقف الشرق مثلَه إلى جانبه ولكن سرًّا، فهو جارٌ لإيران، وعليه أن يُراعيَ حُسن الجوار معها. ومن منّا لا يتذكّر ما قالته السلطة في العراق قُبَيل حرب الخليج ببضعة أيام من معاتبةٍ للغرب جهرةً وما وجّهته إليه من لوم وكأنّها تقرع به أذنيه قرعاً. لأنه جازاها جزاءَ سِنمّار على ردِّها الأخطارَ عنه وبذلِها التضحيات الغالية من أجل أن تسلم له مصالحُه في المنطقة وتظلَّ في أمان، وكذلك تعريضِها شعبَ العراق للموت والقتل والأسر من أجل أن تنعم شعوبُه بالهدوء والرخاء والسعادة.

وهذه اليقظة التي جاءت متأخّرة من السلطة العراقية، في

وقت كان الغرب قد انتهى فيه من وضع الخطط التي بيّتها لضرب العرب كلهم في تأنيبه العراق على فعلته في الكويت، هي عينها العذر الذي هو أقبح من الذنب، كما يقول المثل العربي السائر. وأعني أن أقول، إنّ السلطة العراقية كشفتْ عن وجهها آخِرَ قناع كان يسترها، حين وجّهتْ إليه اللوم والمعاتبة على مقابلته الجميل بالنكران والمِنّة باللعنة. لكأنّما كانت هذه الحرب الضروس العاتية التي نَشَبتْ بين الجارتين الشقيقتين بكلّ خسائرها البشرية والآلية والاقتصادية والمعنوية جميلاً صنعتْه السلطة العراقية للغرب وهديةً زفّتها إليه ليبتهج بها في عيدٍ من أعياده؟ ونحنُ لو سمّينا هذه اليقظة منها أسفاً وندماً ورجوعاً للذّات، لكان أدقّ وأصوب. فهي تشعر بالأسف والندم على جميلٍ قدّمته للغرب فجحده ولم يقدّر قيمته، لكنّها لا تشعر بشيء من أسف ولا ندم على أعمالٍ ارتكبَتْها، لو وُزِنتْ بها جبال الدنيا كلّها لرَجَحتْ عليها.

وأما عن اليقظة بشأن هذه الحرب العنيدة، أسبابِها ومعناها، وغاياتها وأهدافها، وما لَها وما عليها، هذه الأشياء كلّها بقيتْ قائمة في ذهن السلطة العراقية، لم تفارقها ولم تتركها لحظة، ليس منذ اليوم الأول لها، وإنّما منذ سقوط الشاه وانتصار الثورة في إيران، ومنذ إعلان الجمهورية الإسلامية نظاماً بديلاً عن نظام الإمبراطورية. وكثيرا ما تردّدَ النُّصَحاء المُشفقون الخُلّص من عرب وغير عرب على بغداد، وحاوروا السلطة فيها بشأن الإقلاع عن هذه الحرب، وتمنّوْا عليها العودة إلى الهدوء والسلام، وإلى اصطناع الحلول عن طريق التفاوض. فما أعارتْ لكلامهم أذناً صاغية، ولا شغلتْ بالها بكلمة واحدة من أحاديثهم، بل أوغلتْ في تصلّبها وعنادها.

وما كان أشدَّ يقظتَها، وهي تستمع إلى هؤلاء النصحاء

يقولون لها : لن تقطفوا من هذه الحرب زهراً ولا ورداً ولن تجنوا منها ثمراً ولا سنابلَ ، ولن تعودوا على بلادكم وشعبكم إلّا بالويل والدمار وإن خرجتم منها منتصرين . وإنْ انتم قدرتم ان تجدوا اساليبَ اخرى غيرَ الحرب تحلّون بها قضاياكم مع إيران وتفكّون عقدكم فالجأوا إليها واستغنوا بها عن الحرب فإنّها تُغنيكم وتَحميكم ، وامّا الحرب فإنّها توهنكم وتَفنيكم . ومن عادة البلدان المتجاورة في كلّ مكان من العالم أن تكون لها فيما بينها قضايا ساخنة دائمة ، فإذا اتَّخذت البلدان من الحروب وحدها وسيلةً لتبريد هذه القضايا ، فإنّ الشعوب يُفني بعضُها بعضاً في مدّة يسيرة وتنتهي الحياة على هذه الأرض . ولذلك كان لا بدّ لهم من أن يتخلَّوْا عن هذه الوسيلة المدمِّرة وان يستعينوا بغيرها من الوسائل التي تضمن استمرار الحياة ، وتحمي اسبابها ، من مثل التخاطب والتفاهم والتحاور والتفاوض . وإذا كنتم تخشَوْن على انفسكم مِنِ انتقال عدوى الثورة الإسلامية إلى الشعب في العراق ، وترَوْن في ذلك تهديداً لبقائكم في السلطة ، فليس في اندلاع الحرب ما يردّ هذه العدوى ويدفعها عنكم أكثرَ ما يقرّبها إليكم ويقوّي من انتشارها في بلادكم . وإنّما الذي يردّها ويمنعها هو أن تحصّنوا البلاد وتهتمّوا بها ، وتراقبوا الشعب وتخلقوا بينكم وبينه مزيداً من التقارب والتعاون . بل وان تخلقوا له اسباباً تقوم مقام هذه العدوى أو تفعل فعلها ، فلا تعود ترى لها محلًا وإنْ هي حاولتْ وأتعبتْ نفسها في كثير من المحاولات .

وما كان أشدَّ يقظةَ رجال السلطة العراقية إلى اقوال الناصحين الأمناء من مسلمين وغير مسلمين ، وقد قَدِموا إليهم من كل فجّ وهم يقولون لهم : ليس في هذه الحرب الدائرة بينكم وبين إيران ، شيء من خيرٍ أو منفعة يعود عليكم وعليهم . فأسبابها ونتائجها ، وما

تنتهي إليه من خسائرَ وتضحيات في الأرواح والأموال والعتاد ، ستعود الفائدة كلّها فيه إلى الغرب وحده ، وستعود الأضرار كلّها إليكم وحدكم تتوزّعونها فيما بينكم ، وهو يجني الأرباح والقوّة والأمن ، وانتم تَجْنون الخسائر والضعف والاضطراب والتهديد . فهذه مصانع السلاح عنده قد انبعثتْ فيها الحياة من جديد ، ممّا سمح له أن يطوّر في وسائل التدمير والإبادة ، وأن يُضاعف من تصنيع آلة الحرب ومعدّاتها مضاعفةً سمحتْ بتشغيل عددٍ كبير من المواطنين العاطلين عن العمل في بلدانه ، وتخلّص بذلك من ازمةٍ طالما أرهق حملُها فكرَه وصدرَه .

ولم يبقَ عنده شيء إلّا وانتعش وتنامى ، بفضل هذه المعاهدات التي عقدها معكم ، والتي كفلتْ له تجهيز شركاته ومصانعه وآلاته ومحطاته بالنفط ومشتقّاته إلى عقود طويلة من السنين . وانتم بانصرافكم إلى ازهاق الأرواح وإلى تدمير بعضكم لبعض ، خلقتم له الأمن الذي كان لا يدري كيف يخلقه لنفسه وأوجدتم له من الهدوء ما كان سيعاني كثيراً لولا أنّكم لم توجدوه له . وهذه الضحايا التي تتناثر على جبهات القتال وفي كلّ مكان من المدن والقرى ، وكلّها طاقات وقدرات أُهدرتْ لغير معنى إلّا للعبث والجنون ، ما كان احقَّها أن تصونوها وتدَّخروها لأيّامكم السوداء التي ليستْ هي هذه الأيّام . فأنتم لكم قضيّتكم الكبرى التي خلقها لكم الأعداء الحافّون بكم من كل جوانبكم ، والتي عرف الغرب كيف يمتطيها وكيف يؤلِّب عليكم العالم كلّه لأجلها . فلم تبقَ دولة إلّا ولها دورٌ كبير أو صغير في تأزيم هذه القضية وتزويدها بالمواد والوقود لكي تظلّ طعنةً مسمومة في قلوبكم وسدًّا من أمامكم لا تقدرون على إزاحته ولا على تجاوزه .

وليتكم تنظرون إلى الغرب وهو يصفّق فرحاً من حربكم

الدائرة، لأنّه لم يكن يدري كيف سيصطنع الأسباب المُحكمة الحكيمة، من اجل ان يعرض لشعوبه ألواناً من همجيّة المسلمين وتخلّفهم، ومن اجل ان يُهديَ إليهم القناعة في زحف خطر الإسلام القائم القادم. فأين كان سيجدُ إعلامُه لولا ضراوةُ حربكم وهمجيّتُها، وثائقَ يُذيعها وصوراً يَعرضها عن الأعداد الهائلة من القتلى الذين صُرعوا دونَ رحمة ولا شفقة، وبطرقٍ تأنَف الوحوش من أن تلجأ إليها او تتعرّف عليها؟ واين كان سيجد مشاهدَ وصوراً عن الجموع الكبيرة من الأسرى الذين تحوّلوا إلى قطع من الذلّ والهوان، وليس على وجوههم إلّا الندم والحيرة والأسف، ولا يعلمون أينَ سيكون موضعهم من الحياة، ولا فرق بينهم وبين السوائم التي جمّعوها من كل مكان ليستخدموها او ليتلذّذ حقدهم المكبوت في تعذيبها وإهانتها؟ والغرب حين يعرض هذه المشاهد والصور كلّ يوم على شعوبه، فلكي يُهيِّج عندهم النفور والتقزّز من الإسلام والمسلمين، ولكي يؤكّد لهم انّ هذه هي أفكار الإسلام، وهكذا هو اسلوبه في الحكم، وهذه هي تصرّفات المسلمين، وهكذا يعيشون، وهكذا اذا ظفروا بكم وبغيركم سيعملون. فلماذا ترضَوْن أن تكونوا سبباً في تشويه الإسلام، في نظر العالم من غرب وشرق، والإسلام انزله الله طاهراً بريئاً من كلّ تشويه؟ ولماذا تجعلون من أنفسكم صورةً تُنَفِّر الناسَ كلَّهم في الشرق والغرب منكم ومن حضارتكم إذا كنتم تَعتزّون بها ومن الإسلام إذا كنتم تؤمنون به؟

وما أسعدَ الغرب وهو يُمتّع نواظره في الميادين المختلفة من بريّة وبحريّة وجويّة، فيرى آلاته التي اخترعها كيف تتحرّك وتعمل! ثمّ يعيد النظر فيها ويراقبها وكأنّه في مختبر، يريد أن يعرف مواقع القوة فيها فيحسّنها ويطوّرها. ومواقعَ الضعف فيستدركُها ويغيّرها. فلولا انّكم صنعتم له من بلادكم ميدانَ تجاربَ

لمخترعاته ومصنوعاته واهديتموه مختبراً لاختبار آلاته، لبقي زمناً طويلاً من غير ان يهتدي لتحسين أدوات اخطاره وتطوير وسائل القتل والتدمير عنده. وهو ولا شك، كان سيخلق لها فرصاً اخرى في أمكنة أخرى من العالم، ولكنْ كنتم جنَّبتم انفسكم أن تشركوه في حمل مسؤوليةٍ، ليس في حملها شرف ولا محمدة. وكنتم مسحتم من ذهنه أنكم لستم في هذا المحلّ الذي يضعكم فيه، وليست مكانتكم هي المكانةَ التي أنزلكم بها. وكيف تريدون أن ينظر إليكم العالم إلا نظرةً هيّنةً وضيعةً، بعدما رضيتم أن يكون شأنكم شأنَ الحشرات والحيوانات التي يُربّونها ويُحضّرونها لتصير مادّةً طبّية، يجري عليها الاختبار في المختبرات وتُقام التجارب التي تنتهي إلى الكشوفات.

وإذا نحن سلّمنا لكم ورضينا بقولكم الذي تقولون: إنّ هذه الحرب لا مفرَّ من وقوعها والابتلاء بها مهما تأجّلت ومهما عملنا على تحاشيها، فهي لها أعذارها الصريحة القويّة وأسبابها الوجيهة البيّنة. ولا نريد أن نُفوّت هذه الأعذار ونُهمل هذه الأسباب، والفرصة الآن طيّبة ولا يَحسن بنا أن نُعدّي عنها، فهي قد لا تَسنح مرّةً ثانية. فإيران تعيش اليوم حالةً من الاضطرابات ستعاني منها إلى وقت طويل، وآلة الحرب فيها ضعيفة مهزوزة أو مجمّدة ليس لها من يُحرّكها. والشعب يعاني مِن انقسامات على نفسه، والاقتصاد مريض متهدّم لن يعاود عافيته إلّا بعد أعوام وأعوام، وعلاقاتها مع الدول يَسري فيها الوَهن فيقطعها من هنا ويجمّدها من هناك. إذا سلّمنا لكم بهذه الأقوال كلّها، فتعالَوْا نبسطِ الحديث من جديد على ما رأيتم من أعذارٍ ومن أسباب، فهي بادية لنا أيضاً، نراها كما تَرَوْنها، لكنّنا لا نقبلها كما تقبلونها.

أليس أنكم تخافون من توسّع الثورة الإسلامية خارج إيران،

فتكونَ بلادكم العراق هي التجربةَ الأولى التي ، إنْ نجحتْ فيها ، فإنّ نجاحها سيكون موثوقاً به ومضموناً في أقطار عربية أخرى؟ وأنكم بافتعالكم هذه الحرب ستأخذون دور الحارس الأمين والقائد البطل الذي يحمي منافع العرب وشرفهم، ويردّ الأعداء مدحورين مخذولين عن حدودهم وثغورهم؟ ونقول لكم: إنّ ثورةً قام بها الشعب كلّه كبيره وصغيره وأعطاها أبناؤه النفس والنفيس، فإنّ الحرب معكم أو مع غيركم لن تزيدها إلّا صلابة وصموداً، ولن تَهْوِيَ من ضَرَباتكم مهما كانت قويّةً مؤثّرة، ولن تنهزم من أمامكم مهما حشدتم لها من عدّة ومن عدد. وكيف تنهزم وهي تحارب عن إيمان وأنتم تحاربون عن خوف، وهي مغزوّة تحامي عن حقّ وأنتم غزاةٌ تُحامون عن باطل؟ ألا ترَوْن أنّهم بعد هذه الضربات القاسية التي فوجئوا بها منكم، رصّوا صفوفهم وتَجَمّع بعضهم على بعض ومسحوا الأحقاد التي بينهم ونبذوا الاختلافات، وردّوا هجماتكم وهزموكم في معارك ضارية على طول جبهات القتال؟ ألم يكن لكم في العام الأول والثاني والثالث والرابع تجربةٌ مرّةٌ كافيةٌ تردعكم عن الاستمرار بهذه الحرب الضروس العنود؟ وماذا حققتم حتى الآن، فلا الثورة الإسلامية قضيتم عليها، ولا الثغورُ العربية منعتموها وحاميتم عنها، ولا عدوى الثورة في إيران أوقفتموها وردَدْتموها، ولا العربُ اعتبروكم حُماةً مدافعين بقدر ما اعتبروكم غزاةً معتدّين، ولا الشعورُ القومي تنامى عندهم كما كنتم تحسبون، بمقدار ما تنامى عندهم الشعور الديني كما كنتم لا تحسبون؟

ثمّ تقولون: إنّ من أسباب هذه الحرب، هو تخوّفكم من أن يقع العرب والمسلمون فريسةً للخديعة الجديدة التي أتقنَتْ إيران إعدادها، وهي ارتداء ملابس الدين ورفعُ راية الإسلام، بعدما أخفقتْ في إحياء الشعور القومي الفارسي، وذلك ليهون عليها أن

تتّخذ لها مكاناً مكيناً وحصناً حصيناً، تُهيمن منه على كلّ حركة في هذا الخليج الذي يعوم على بحر من النفط وتتحكّم في تصريف أزمة أموره على هواها. وتصبح ثروات العرب وكأنّها ملك يديها، تُعطيهم منه ما تشاء وتمنعه عنهم متى تريد. وهم كلّما أرادوا أن يحتجّوا وينهضوا، فإنّها تحرّك لهم الراية من جديد وتعرض الملابس، لينظروا إليها ويتذكروا أن إيران تتصرف بوحي من شريعة الإسلام، وليس لها من مآربَ أُخَرَ غيرِها.

ونقول لكم: إنّ ذلك تَعلّةٌ منكم وذريعة، وليس سبباً يليق بكم أن تمتطوا صهوته وتعتزّوا بظهوركم فيه أمام الناس، فإيران هي في شعبها واقتصادها قوّةٌ يُحسَب لها حسابها من العرب والمسلمين ومن الدول الكبرى، وهي لها حدودها وحقوقها في الخليج، ولا تستطيع قوّةٌ أخرى مهما كانت أن تخلّصها حدودها وأن تَمنعها حقوقها. وهي لم تجعلِ الإسلام وجهاً جديداً لتربح في سوق البيع والشراء، وكيف ستجعل منه تجارةً لها في دول الخليج وهو غير مرغوب فيه عند هذه الدول، وليس له مكانٌ في أسواقها، ولا شُراةَ منهم يسألون عنه؟ فالأمكنة كلّها غاصّة بالسلعِ الرائجة الرابحة، وهي النساء والغلمان والخمر والقمار، والشراةُ يتزاحمون عليها ويتقاتلون، وقد اكتظّتِ الدنيا بمباذلهم ورذائلهم، وليس الخليج وحده.

ولم يرتدِ ثوّار إيران الملابس الإسلامية ولم يرفعوا راية الإسلام، من أجل رفع مكاسبهم وزيادة مطامعهم في الخليج، وليسوا بحاجة إلى انتهاج مثل هذا النهج ليُبيّنوا عن رغباتهم. فقد قالوا منذ اليوم لثورتهم وردّدوا قولهم جهرةً، إنّهم سيحافظون على مكانهم في الخليج ولن يسمحوا لأيّة قوّةٍ أن تغيّرهم عنه. أو أن تزعزعه تحتهم، وإنّهم ليس لهم تطلّعٌ إلى أمكنة الآخرين، ولا طمعٌ

في حقوقهم . وقد يكون في موقفهم هذا شكّ وقد يكون فيه خديعة ، فذلك أمر لا أدفعه ولا أدافع عنه . ولا يَحسن بي أن استخلص منه ، وهو موقفٌ لم يتعدَّ صيغة الكلام ، تَعِلّةً لكي أكون من أنصار الحرب ومن الدعاة إليها .

وإذا نحن نزلنا عند لجاج السلطة العراقية في القول وعنادها في الاعتقاد بأن إيران هي الآن في طور الضعف والانهيار ، وينبغي أن يبقى الضربُ فوق رأسها مستمرًا ، لتبقى هي في هذا الطور ، وإلّا فإنّها متى استرجعتْ عافيتها وقوّتها ، فسوف لن تقصّر في خلق الاضطرابات وزرع التشويش والتحرّكات وربّما في إنزال الضربات . فلسنا نرى لعنادها محلًا ولا للجاجها معنى ، ولا ينبغي أن يصبح التخوّف من قوّة الضعيف في غدٍ سبباً لضربه ، ولا الخشية من غدر المريض بعد معافاته حجةً لقتله . وربّما يكون من حقّ السلطة العراقية أن تخاف على نفسها من خطر الثورة في إيران ، بل أن يلحقها رعبٌ من ضربة غدرٍ أو من سطوةٍ على غفلة . ولكن ليس من حقّها أن تتّخذ من الخوف والرعب حجّةً لتُغافل هي إيران وتسطوَ عليها هذه السطوة الشديدة وتضربَها هذا الضرب العنيف .

وهل في قولنا : إنّ هذا البلد أو ذاك البلد له أطماعٌ وتطلّعات في بلدنا ، يقوم سبباً مقبولاً ويقع حجّةً معقولة في نظر العالم وفي مفهومه لشنّ حربٍ شعواءَ ضاريةٍ عليه ؟ إن التخوّف والرعب مِن انتقال تأثيرات الثورة الإسلامية إلى العراق ، ومن أطماعها وتطلّعاتها في الخليج وفيما حوله من دول عربية ، وتشويه إسلام إيران بالقول إنّه ملابس ظاهرة لمجوسيّة مخفيّة باطنيّة وإنّ أحقاد التاريخ المطمورة في نفوس أهله قد تفجّرتْ وظهرت في هذه الثورة وليس للإسلام فيها أثر ولا نصيب ، كلّ هذه الأقوال وأمثالها ، ليس لها موقع عند أهل الخبرة وأصحاب البصيرة ولا تقوم في مفهومهم

حجّةً على شرعيّة هذه الحرب.

وهل هنالك بلد من البلدان التي بينها جوار وحدود وتخوم إلّا له مطامعُ وتطلّعاتٌ في جاره البلد الآخر؟ وهل من العدل والصواب أن يكون وجود هذه المطامع وحده كافٍ لإعلان بعضِها الحربَ على بعضٍ وإحلالِ الخراب والدمار فيه، كما صنعَتِ السلطة العراقيّة بجارتها إيران؟ إنّ تخوّف البلدان من مطامع بعضها ببعض وتطلّع بعضها إلى بعض، ينبغي أن يقف عند حدّ التحضير والتحصين وإعداد العدّة، وليس إلى إعلان الغارات وشنّ الهجمات وابتلاء الأبرياء من الأهالي الآمنين بالنكبات والويلات. وهكذا كان على السلطة العراقية، أن تفعل مُقابل ما كانت جارتها إيران تفعل، وتَكيلَ لها ما تكيلُ لها من تهديدات وإنذارات وطعون. وكان ذلك حقًا، بل كانت ستجد من يساعدها على الاستعداد والتهيئة ومن سيَعذرها على الحشد والترقّب. وكان حقًا لها أيضاً أن تردَّ على التهديد بتهديد وعلى الطعن بطعن. بل لم يجرؤْ أحد أن ينحُوَ عليها باللائمة لو أنّ ضربَها كان ردًا على ضرب وليس شروعاً في التعدّي وليس ظلماً وعدواناً.

واجتهد الناصحون الخُلّص كثيراً، في أن يذكّروا السلطة العراقيّة بما لا تنساه ويعرّفوها بما لا تجهله، وهو أنّ الحرب عندما تندلع لا يعود فاعلوها ومُضرموها قادرين على توجيهها والتصرّف بها، بل هي التي تعود وتتصرّف بهم على هواها. وهي التي تنهض وتَبْدَههم بألف مشكلة لم تخطر لهم على بال، وتفجؤهم بألف قضيّة وبليّة لم يتوقّعوا واحدة منها. وكلّ الحسابات التي يَحسبها المُشرفون على إدارة الحروب، وكلّ التصوّرات والتقديرات التي يَعدّونها قبل الشروع بها، ليس بالضرورة أن تأخذ مكانها المحسوب وأن تستغرق وقتها المرتقب لها. بل كثيراً ما تندّ عن

المسلك المرسوم وتُفلت من دائرة التخمين والتقدير، فتضطرب عندها الأمور، وباضطرابها يتغيَّر الاتّجاه وتجدُ أحداثٌ غير مُرضية لا تَلِد إلّا الفواجع والمواجع.

ولقد صدقَتْ ظنون هؤلاء الناصحين، فلم تعدِ الحرب على العراق بشيءٍ ممّا كانت السلطة العراقيّة قد توقّعته قبل الشروع فيها، ولم تَجْنِ منها ما كانت قد حسبتْ أنّها ستجنيه. فهل بقيَتْ عائلةٌ في العراق إلّا وأعطتْ ضحيةً أو ضحيّتين من غير أن تنالَ شرفاً ولا عزاً؟ وهل بَقِيَ بيتٌ من أقصى العراق إلى أقصاه إلّا وحلّت بساحته الأحزان وكان الخوف والتهديد يُحيطان به من كلّ جانب على مدى هذه الحرب الطويلة؟ وقد يبقى الشعب العراقي يكدّ ويكدح طوال حياته كلّها ليقوم بأعباء هذه الحرب، من مثل إعمار الخراب وإصلاح التهديم وإيفاء الديون. وأما القلوب التي انكسرتْ فإنّها لن تعرف إلى الانجبار سبيلاً مهما غمرها النعيم وفاض عليها المال والترف والرفاه.

وهذا النصر الموهوم الذي زعمَتِ السلطة العراقية أنّها فازت به والذي كان حلمَها المجنون، والذي أقامتْ لأجله الأفراح والأعراس، كان هو الجانيَ الأول الذي جنى على العراق، شعبِه وأرضِه وحزبِه وسلطتِه، وكان هو الطعنةَ الأولى التي نفذتْ في صدر العراق وصدر العرب معه. فهذه دول الخليج لم تكن مسرورةً برؤية العراق يخرج من حربه مع إيران وهو يجرُّ ذيول الغرور والخُيَلاء. وكذلك كان الغرب مثلَها، وكانت الدول الكبرى في قلق واكتئاب عندما شاهدَتِ العراق يخرج من هذه الحرب وهو لا يزال يختلج بالسلامة والعافية. فالتقَتِ النظرات على تحطيمه واتّفقَتِ الأهداف على تكسيره وتمزيقه، فلا غرورَ يلقى عنده بعد ذلك ولا خُيَلاء. وصار كلُّ يومٍ يمرّ عليه يحمل له همّاً جديداً ومؤامرةً

جديدة، حتّى وصل اليومُ الذي أصبح فيه العالم كلّه متّحداً ضدّ العراق، متّفقاً على إذلاله وضربه. وإذا بحرب الخليج تنزل من غيب الغيوب ضربةً على العراق موجعةً قاسية، أرهقته ذلّا وإهانةً وحمّلته خزياً، لن يقوم من تحته أبداً، وأبدلته بذيول الغرور والخُيَلاء ذيولَ الهزيمة والإذلال والخسران. فهل تُرى كانت السلطة العراقيّة ستقدِم على اصطناع حربها مع إيران، لو أنّها علمتْ أنّ هذه الحرب، ستُنتج لها غلمان أشأمَ كلّهم كأحمرِ عادٍ، على حدّ تعبير زهير بن أبي سلمى وستزرع تاريخَها بالعار والوبال على تعاقب الأجيال؟

نعم كانت السلطة في العراق يقِظَةً لكلّ كلمة باح بها الناصحون المشفقون الذي دلفوا إليها من أنحاء الدنيا، يعِظون وينصحون ويَشرحون ويُحلّلون. وكانت واعيةً لكلّ فكرة، ولكنّها رغبتْ بالأوهام عن الحقائق، وراحت تزرع أحلامها في الخيالات بدلاً من أن تزرعها في أرض الواقع. فقد أعجبها ما قاله الغرب وحدَه، وأطمعها بأن تكون هي مفتاحَ الشرق وبطلاً عربيًا تجري وراءه الجموع العربيّة من الماء إلى الماء. وهي لا تقدّم من جانبها إلّا الرجال، وأمّا البواقي من مالٍ وعتادٍ ووسائلَ وآلاتٍ ومعها خبراتُ خبرائها، فإنّ الغرب هو الذي يتولّى تصنيعها وتقديمها. بل إنّه تعهّد أن يذهب إلى أبعدَ مِن ذلك، فيؤلّبَ على إيران ما بقي من الدول المحايدة في العالم والدول المعزولة، ويُسهّل الطرق أمام العراق للحصول على قروض وعلى أسلحة اضافيّة، إذا هو لمس في نفسه حاجةً إلى مثل ذلك أو فاتحه وطلب إليه مثلَ ذلك. وليس عند السلطة العراقية قدرةٌ أن تفكّر في غير هذا الموقف، وليس لديها استعدادٌ أن تميل إلى غيره. وكيف يكون لها أن تشذّ عن اتّباع الغرب وعَنِ الانصياع له، وهي صنيعة من صنائعه وخطيئة من خطاياه

معلّقة في عنقه ؟!

وليستِ السلطة العراقية هي نسيجَ وحدِها في هذا الأمر ، فالسلطات العربية كلّهنَّ أخواتٌ لها يشاركْنَها في حمل صفاتٍ كثيرة ، ومنها هذه الصفة الشمطاء . ولستُ أنسى أنّني عندما تناولتُ بشيء من العتاب صديقاً لي ، هو من أكبر القادة الذين تزعّموا الإشراف على قيام الثورة الإسلامية في إيران ، على أنّهم هم الذين نفخوا في أبواق الحرب على العراق ودقّوا طبول التحريض والاعتداء ضدّ السلطة فيه ، نهض ودفع العتاب بأدبٍ وتواضع وقال : سواءٌ علينا أكنّا فعلنا ذلك أم لم نفعل ، فإنّ الغرب كان قد أعدّ نفسه إعداداً كبيراً وحضّرها تحضيراً عجيباً ليُجهز على الثورة وهي في طور ولادتها بضربةٍ تمحوها وتتركها أثراً بعد عين وخبراً بعد منظر . ومَنْ تعتقد أن يكون له في المنطقة غيرُ السلطة العراقية التي وَلَدها وغذّاها وأنشأها وأعدّها لمثل هذا الدور ؟ وسترى بأنّها لن تبقى طويلاً بعد أن تؤدّيَه ، ولن يكون لها أدوار أخرى غيرُه ، وإنْ هو أطمعها ووعدها . وقد صدّقتِ الأيّام ظنّه وجاءت بما قال ، فلم يبقَ للسلطة العراقية بعد انتهاء حربها مع إيران من دورٍ تقوم به . وما عليها إلّا أن تنتظر حرب الخليج لكي تأتي وتستأصل منها وَرَمها الذي توهّمتْه أنّه صحّة وعافية .

ولست أدري كيف تَغضب السلطة العراقية ، ومعها السلطات العربية ، على ثورة إيران ، إذا هم وجدوا أنّ عندها تطلّعات في الخليج وفي غيره ؟ كأنّه لا يحقّ لها أن تَطمح وأن تعمل لتُرضيَ طموحها ، وكأنّ التطلّعات من حقّ هذه السلطات وحدَها ، ومن حقّها أن تُعلن الحرب وتَصنع السلام وأن تفعل ما تشاء ، ولا رادَّ لِما تفعل ولا مُعترض هناك عليها ! وواضح أنّني لا أريد أن أدافع عن طموحات إيران وأطماعها ليرتفع شأنها ، ولا أن أدفع عن العرب

طموحاتهم واطماعهم لينخفض شأنهم. وكيف أصنع ذلك وهم قومي وإليهم انتسب! ولكنّني لا اريد ان اخفض شأني باتّباع الباطل عند قومي وترك الحقّ عند الآخرين وإغماطه. ولماذا لا يكون عند قومي الشجاعةُ على الاعتراف بالحقّ والتمسّك به والذياد عنه؟ وإذا كانوا هم في انفسهم اقوياءَ، فلن يَضرهم ان يكون عند إيران وعند غير إيران اطماعٌ في برّهم وفي بحرهم. وإذا كانوا ضعفاءَ منقسمين على انفسهم لا كلمة تَجمعهم ولا رايَ يَضمّهم، فإنّ بلادهم من اوّل المشرق إلى آخر المغرب ستكون نهباً لأطماع الطامعين ومسرحاً لاقتسام المقتسمين، ولا ضَير بعد ذلك على إيران اذا كانت طرفاً من هؤلاء. ونحن مهما سعَيْنا إلى أن نرى البلدان العربية على غير هذه الأوضاع القبيحة المتردّية، فإنّنا لن نرى لهم بغيرها عوضاً ولا إلى غيرها سبيلاً.

واری انّه مهما استفحلتْ بيننا وبين إيران اسباب الخصومة والعداء، فلا ينبغي ان نُسلّم قيادنا إلى هذه الأسباب وأن نتركها تجرُّنا إلى حرب مع إيران يَقتل فيها بعضُنا بعضاً، وندمّر فيها بيوتنا وبيوتهم بأيدينا وأيديهم، وننتهي بعد ذلك إلى باطل وإلى عبث. فالبلدان الإسلامية كلّها، وفي مقدّمتها إيران، هي معنا في ساحة المواجهة، وإن طال علينا أمَدُ الانقسام، وإن توهّمنا أنّنا نعيش جميعًنا في سلام. ولا أقول ذلك وانا أعني انّها مُلك موروث للعرب من أسلافهم، او انّ الدين يجعلها تَبَعاً لاحقاً بهم، ولكنْ لأنّ الغرب ينظر إلى هذه البلدان على انّها تتّحد دائماً في الأزمات ضدّه، فيَحسب حسابها على انّها كلٌّ متماسكٌ في جهةٍ تقع مقابل جهته. وإذا سلّمنا بأنّه لا يتّخذ الإسلام عدوًا له، فإنّه لا يستريح إلى قيام المسلمين ونهضتهم ولا يطمئنّ إلى تمدُّن بلدانهم وتقدّمها.

وقد كثر أولئك الذين كتبوا من كتّاب العرب وقالوا من

قوّاليهم، بأنّ الحرب هي محتمَلة ومتوقَعة بيننا وبين الفُرس. ولمَ لا يكون ذلك، وتاريخنا على مداه الطويل حافلٌ بالحروب الكثيرة الشهيرة؟ والتاريخ بيننا وبينهم، لا يزال ماضيه مستمرًا في حاضره؟ وكلّما ظننّا أنّ شيئاً ما يقرّب بيننا ويُدني بعضَنا من بعض، فإنّ الأحقاد القديمة الدفينة تثور في نفوسهم وتدعوهم إلى التباعد عنّا، وكذلك الأحقاد تثور فينا نحن وتأخذنا بعيداً عنهم، ثم نتداعى إلى الحرب ونصدُق فيها، بعد ما كنّا تداعَيْنا إلى السلم وأبَيْنا أن نَصْدُق فيه. والفُرس هم أعداؤنا وهم نكبتنا، ولن نستريح حتى نُهشّم هؤلاء الأعداءَ ونُطوِّعَهم، وحتّى نُمسكَ بهذه النكبة ونُذلّلَها. ولأنّهم دخلوا الإسلام منذ بدء أمره بالغلبة والقهر، فقد أوجد ذلك عندهم شعوراً بالنقص وإحساساً بالدونيّة إلى جانب العرب الغالبين القاهرين. ولذلك كان لا بدّ لهم أن يَكيدوا للإسلام والعرب وأن يُبالغوا في الكيد، وأن يشوِّهوا فيهما كليهما ويتآمروا عليهما ويُسرفوا في التشويه والتآمر. وما ذلك إلّا ليستبدلوا شعور النقص بلذّةٍ موهومة من التسامي والكمال وليُغيِّروا الإحساس بالدونيّة إلى الإحساس بالتفوّق والتجاوز. وكان من كيدهم للإسلام وتشويههم له إحداثُ التأويلات واختلافُ التفسيرات والطعنُ على الصحابة في سِيَر حياتهم وفي أقوالهم، واصطناعُ مذهبٍ مرسومٍ لهم نحلوه إلى أهل البيت، زعموا أنّ الأئمّة خَصّوهم به وحدَهم وجعلوه فيهم أمانة، عندما عرضوه على العرب فردّوه عليهم وكفروا بهم وبه. ولذلك رأوْا أنّ من حقّهم دائماً أن يحاربوا العرب ليَردّوهم إلى الدين الحقّ، وليَحموا مذهبهم المخصوص بهم من كَيد العرب وأذاهم، طالما أنّ هؤلاء رفضوه مرّة بعد مرّة. ثمّ رأوْا أنّ من حقّهم أيضاً أن يحاربوا العرب وأن يقتلوهم شرَّ قتلة جزاءً لهم على ما صنعوه بأهل البيت وما ارتكبوه في حقّ آل الرسول الأعظم،

من مقاتل وتشريدٍ ونهبٍ وسلب ومن تفضيحٍ وتهتيك على أعين الملأ. ففيهم الشعوبية وُلدتْ ونشأت ثمّ توزّعت في الأنحاء كلّها، وما عرف الإسلام نكبة إلّا منهم، وما اوتي العربُ إلّا من قِبَلهم. وعلى العرب أن يظلّوا حَذِرين يَقِظين من كَيدهم ودسائسهم ومؤامراتهم، وإذا سنحت لهم فرصةٌ لإنزال الضعف بهم وتحطيم شوكتهم، فلا ينبغي لهم أن يضيّعوها ليأسفوا عليها فيما بعد. وإنّهم لن يستريحوا ما دام هذا العدوُّ الذي هو بجانبهم قويًّا غنيًّا وموحّداً مستعِدًّا.

هذه هي الروحُ التي أملتْ على كثيرٍ من الكتّاب العرب أن يكتبوا وعلى القوّالين أن يقولوا عن صِلاتنا مع إيران منذ الأزمنة القديمة وعن تاريخنا المشترَك وروابطِنا المتداخلة المتشابكة. وبهذه الروح هَبَّتِ السلطة العراقية إلى إشعال حربٍ عنودٍ استمرّتْ ثمانية اعوام، كَتَبَ فيها الدم من الأحقاد والثارات ما لن يستطيع حِبرُ التاريخ كلُّه أن يكتبه ولو جَعلْنا الأبحر السبعة مَدداً له. ومع أنّ الفرصة كانت طيّبة، ولن تعود مرّة ثانية، فإنّ السلطة العراقية ومعها اكثر السلطات العربية والغرب ودول أخرى من العالم، كلّ هذه القوى لم تستطع أن تكسر شوكة الثورة الإسلامية في إيران، ولم يَزِدها تألُّبهم عليها إلّا قوّةً على قوّة وإصراراً على إصرار وإيماناً على إيمان.

وضاع ما وصّى به الكتّاب والقوّالون سُدىً، وآلتِ الأنفاس اللاهثة للسلطة العراقية وجهودُها واتعابُها هَباءً في الهواء. ورغمَ ذلك فقد انزلَتِ الشعب إلى طرقات المدن وساحاتها في أنحاء العراق كلِّه، ليَهزج أهازيجَ الفرح بالنصر وليرقص طرباً، ويَهتفَ بحياة القائد الفاقد ويعظِّمَ السلطة الماجدة. ولكنْ أينَ هو نصر هذه السلطة ونصرُ رأسها القائد، والثورةُ الإسلامية الإيرانية لا تزال قويّةً

وخطرُها عليهم قويًا، وقادتُها الذين كانوا وراء صنعها لا يزالون هم قادتَها، لم يتغيّروا ولم يَهِنوا ولم يحزنوا؟ وأين هو هذا النصر، وقد أخذَتِ الثورة الإسلامية من السلطة العراقية كلَّ ما تريد أن تأخذه، من أرضٍ وحدودٍ وعودةٍ إلى العقود السابقة، ولم تُعطِها شيئًا ممّا تريد أن تأخذه إلّا الرقصَ في الشوارع؟

نعم لقد خرجَتِ الثورة الإسلامية في إيران، بعد ثمانية أعوامٍ من الحرب هي المنتصرةَ وحدَها، لأنّها كانت مظلومةً مُعتَدَى عليها، وويلٌ للظالم من يوم المظلوم كما قال أمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب، وخرجَتِ السلطة العراقية هي الخاسرةَ وحدَها. ثمّ خرجَتِ الثورة الإسلامية منتصرةً مرّةً ثانيةً حينما تنازل العراق لها عن كل شيءٍ حتّى عن ماء الوجه، وخرجَتِ السلطة العراقية هي الخاسرةَ مرّةً ثانية. ثم خرجَتِ الثورة السلامية منتصرةً مرّةً ثالثة عندما تهدَّم العراق كلُّه في حرب الخليج وأصبحَتِ السلطة فيه، لا يُعرف وجهُها من قفاها وكانت هي الخاسرةَ مرّةً ثالثة. وانتصرَتِ الثورة الإسلامية مرّةً رابعة على السلطة العراقية عندما أطعمتْها ودفعتْ عنها الجوع في حرب الخليج، وعندما ادّخرت لها في مخابئها عَتادها وآلاتِها، وآوتِ الفارِّين اللّاجئين إليها من ضربات الغرب وحلفائه العرب. وستنتصر مرّةً خامسة يوم أن ترتفع راية الثورة الإسلامية في العراق عاليةً مزهوّةً تَخفق بالوفاء والقوّة والإيمان. ثمّ ستنتصر مرّةً سادسة يوم أن تنهزم السلطة العراقية وتولّي الدُبُرَ إلى المكان الذي حفرته بأظافرها وأنيابها وفرشته بجهلها وحماقاتها وطيشها.

وأمّا كتابة الكتّاب ومَقولات القوّالين، فلم تكن جديدةً في روحها ولا حديثةً في نمطها وأسلوبها. إنّها موجودة ومبثوثة في كُتُب الأحقاد والضغائن التي كتبَها أسلافهم، وخلّفوها لهم،

وسلّموهم أمرَ صيانتها وحفظِ استمرارها، لكي تبقى هاديةً للأنسال هاديةً للأجيال. وما أكثرَ ما قرأها الإيرانيّون حتى تعبوا، وما أكثرَ ما ردّدوا عليها حتى مَلُّوا، وصاروا إذا سمعوا بها من القوّالين العرب ومن كتّابهم، لا يتأفّفون منهم أكثر ممّا يُشفقون عليهم. وهم الذي فَتحوا صدورهم للإسلام واستقبلوه هادياً وليس غازياً، ورأوْا فيه خير عون على الأديان السابقة المتقدّمة عليه في بلادهم، ولولا ذلك ما كانوا تركوها طوعاً ولا أخذوه طوعاً. وعنصر الإقناع في الإسلام كان عندهم أقوى من عنصر السيف، ولولا ذلك ما أنزلوه في عظامهم ودمهم، ولا اتَّخذوا من لغة القرآن لغةً لهم ومن خطِّ القرآن خطًّا لهم.

ولو أنّنا رحنا نقتفي أخبار أولئك الذين شيَّدوا صرح الحضارة العربية الإسلامية منذ بزوغ فجرها إلى الأمس القريب وإلى اليوم، لَوجدْنا أنّ أكثرهم وأشهرهم وأقدرهم هم من الفرس، أو أنّهم يعودون في أصولهم الأولى إلى الشعب الفارسي. فهل هذا الصرحِ الذي يباهي به المسلمون من عرب وغير عرب هو مشوَّه أو محوِّر أو مقلوبٌ أو مبدَّل؟ وليس هنالك بين الشعوب التي اعتنقَتِ الإسلام واتَّخذته ديناً لها مَنْ زاحم العرب على تكوين العلوم الإسلامية وتوسيعها وعلى تفجير معاني الإسلام واستنباط الأفكار الغنيّة منه ونشرِها مثلَما زاحمَها الشعب الفارسي. فما ترك ميداناً إلّا وأحرز فيه سبقاً بارزاً، لا يستطيع له العرب ومَنْ سواهم له نكراناً. فمَنِ الذي يصدّق أنّ الذين أبدعوا في علوم لغة العرب ونحوها وصرفها وأصولها وموازينها، وهي التي منها بضاعة العرب ومنها فرشهم وحصيرهم، هم من الفرس؟! ومَنِ الذي يصدّق أنّ الذين أبدعوا في شعر العرب وآدابهم وتاريخهم وأحسابهم وأنسابهم وأصولِهم وفصولهم من الفرس أيضاً؟ وقُل مثل ذلك في

الفلسفة وفنون الفكر ، وفي الرياضيات والعلوم الطبيّة والطبيعية ، وفي الفقه والتفسير والتصوّف واصول الحكم واشكاله .

ولا نقول ذلك ونحن نذهب إلى تفضيلهم على العرب ونُنكر ما اتَتْ به الأيادي العربية من إنشاء وإبداع ، ولكنّا نقول ذلك ، لأنّنا رأينا أنّ العرب بالغوا في تنقيصهم والحطّ من قدْرهم ونُكران ما لهم من شأن وسابقة في بسط الحضارة العربية الإسلامية وحمايتِها والدفاع عنها . وأردْنا أن نكون نحن من هؤلاء العرب الأوفياء الذين لا يَجحدون فضلاً لسابق ولا يُنكرون يداً لمتقدّم . وإذا راحت الأهواء السياسية تلعب بمشاعر الودّ والتعاطف في الشعبين الشقيقين العربي والإيراني وتعبث بينهما ، فما ذلك إلّا لأنّه أثرٌ من آثار ما كتبَتْه الأقلام الحاقدة وتناقلته الألسنة الحاقدة عند العرب ، وكذلك الشأنُ عند الإيرانيين ، فهم ليسوا أبرياءَ من الوقوع فيما وقع فيه العرب أيضاً . وإذا كانت السياسات المتقدّمة على الثورة الإسلامية ، ترى من حقّها ومصلحتها أن تُثير المشاعر القومية عند الشعبين وأن توقظ الأحقاد الدفينة من مراقدها وأن تُذَكِّر بالثارات للأخذ بها ، فإنّ سياسة الثورة الإسلامية ينبغي أن تُصلح ما انهدم وأن تُجبر ما انكسر وأن تَمُدَّ كُلَ الأسباب والوسائط نحو العرب ليزداد اقترابها منهم ويشتدَّ ارتباطها بهم . وكما أنّ ذلك سيُعدُّ منها سياسةً فإنّه سيُعَدُّ منها ديناً أيضاً ، والدين والسياسة هما في مفهوم الإسلام شيءٌ واحد ، لا يختلفان ولا يفترقان .

وقد رأى الإيرانيون ، بعد أن زاحموا العرب ونافسوهم في مجال العطاء والإبداع ، أنّ من حقّهم أن يكيلوا للعرب بالصواع الذي كالوا لهم به ، وأن يردّوا على انتقاصهم إيّاهم بانتقاص مثلِه ، وعلى امتهانهم لهم بامتهان يَعدله أو هو أشدُّ منه . ونراهم بعد حلول دولة بني العبّاس ، أنّهم لم يقصّروا ، كلّما سنحَتْ لهم الفرص بالقول أو

بالعمل ، ان يقولوا فيهينوهم ويجرحوهم بالقول ، وأن يعملوا فيؤذوهم ويوقعوا بهم الأضرار والخسائر في العمل ، لاسيّما إذا كانت هذه الفرص هي وقوع الحكم في أيدي الإيرانيين او ظهورهم في القوّة على العرب . وفي آدابنا وتاريخنا ، مثلما في آدابهم وتاريخهم ، تنطق الأقوال بذلك ، وتسرده الروايات والأحاديث أيضاً ، وهي غير مَخفيّة على أحد ، وفيها من الجمال والمواهب ما يجعلها محبّبةً مقرّبةً اكثرَ ممّا هي مُنفّرةٌ مُبعّدة .

ومما جعل الإيرانيين يُسرفون في خصومتهم مع العرب ، فوق ما ذكرناه من الأسباب ، ويبالغون في ازدرائهم هو تفرّق كلمة العرب وتشتُّت شملهم ، وانقسامُهم على أنفسهم انقساماً جرّهم إلى التطاحن والتصارع وإشعال الفتن والحروب ، وانتهَوْا إلى حالةٍ من الانهيار ، كلّما أرادوا الخروج منها أُعيدوا إليها بقوّة الأسباب القاهرة التي تحيط بهم ، وزِيدَ في انهيارهم وإذلالهم . وإذا كنّا نرى في الأحقاب التاريخية الماضية ما يعنينا ويهمّنا ، فإنّه ينبغي علينا ان نُعنى بالحقبة المعاصرة ، ونهتمَّ بشأنها اهتماماً يجعلها تخضع لرغبتنا في التصريف وتنزلُ على أمرنا في التوجّه والتطوّر . وأعني بهذا أن اقول ، إنّه لا يوجد بين الشعبين العربي والإيراني من المشكلات ما يدعوهما إلى الاصطراع والتحارب وإلى التقاذف بالويلات والمهالك حتى يُفني أحدهما الآخر ، وليس بينهما هذا العداء الأسود الذي لا يسمح بتصالحهما وتعايشهما في أمنٍ وسلام .

وهذه الحرب النكراء التي استمرَّ وَقِيدُها ثمانيةَ أعوام ، هي خُدعةٌ من الخدع التي دبّرها الغرب ، فلم تنطلِ على أحد إلّا على صنيعته السلطة العراقية ولم يقع بها أحدٌ سواها . ولم يكن للشعب العربي ، في اكثره ، رضى ولا يدٌ في دخولها ، وهو لم يتخلَّ عن شقيقه الشعب الإيراني طوال أعوامها . فقد شاركه في الشعور بالألم

والإحساس بالويل والمرارة، وتظاهرت جموعه في المدن الكبيرة والصغيرة، تهتف بالأخوَّة بين الشعبين وتنادي بإيقاف هذه الحرب الظالمة. وكانت الوفود يتلو بعضُها بعضاً في الذهاب والعودة منها وهي تأخذ روابطَ وتُعطي روابط. وليست المعاناة القاسية التي الحقتها الحرب الجائرة بطرفٍ من الشعب العربي ولا الخسائرُ التي انزلتها به إلّا عقوبةً له على خنوعه أمام سلطاته الداعية إلى هذه الحرب والداخلة فيها، وتنبيهاً لكي يتيقَّظ من هذه الغفلة الطويلة. ولقد قدّم فريقٌ من الشعب العربي، طائعاً أو مُكرهاً، في حرب السلطات العربية مع إيران من الخسائر في الأرواح والأموال، ما كان يكفي أن يقدِّم نصفَها أو أقلّ من النصف لكي يتمكّن من أن يُزيح هذه السلطات الجائرة الجاثمة على صدره ويدحرجَها إلى قعر الهاوية ويستريحَ منها. فليست الثورة الإيرانية عدوّةً للشعب العربي ولا الشعبُ الإيراني عدوًا له. وإنّما عدوه هو سلطاته التي تتحكّم به وتجعل منه عبداً لشهواتها وأسيراً لا يتحرّك إلّا بأمر رغباتها.

وإذا بقيت هذه السلطات قائمةً على رأس الشعب العربي، فإنّ الغيوم الدكناء هي التي ستبقى تُظلِّل علاقاته مع الشعب الإيراني، ولن تنكشف إلّا إذا انكشفت هذه السلطات. ولماذا لا يصنع شعبنا العربي في اقطاره كلِّها صنيع الشعب الإيراني، فيهبُّ في وجه سلطاته هَبَّةً واحدة كما هبَّ، ويَصبرُ على الويلات الحرّة والمرّة كما صَبَر، ثم يَظفرُ بحياته الضائعة كما ظَفِر. وليس الشعب الإيراني وحدَه هو الذي انبعث وتحرّك، وإنّما كثيرةٌ هي تلك الشعوب التي انبعثت وتحرّكت في مشرق الارض ومغربها، وجَنَتْ من المواسم ما لذَّ لها وطاب. فكأنّ شعبنا هو قاصر او متخلِّف، أو لا يَصلح ان يكون واحداً من هذه الشعوب التي تعرف كيف تعيش ولماذا تعيش. وإذا كان لسياسة شاه إيران قبل الثورة من أطماع في شيء

من مياه العرب أو من نفطهم أو باقتطاع قطعة من أراضيهم ، فإنّ أطماع الثورة الإيرانية هي في الشعب العربي. إنّها تدعوه لكي يتحرّك وتناديه لكي ينهض ويكسرَ الكبول التي تكبّله والأصفاد التي تصفّده ، وينفضَ عنه الأعباء التي أرهقه حملها ، والتي ليس فيها عبءٌ أشدُّ وطأةً عليه من رأيه في السلطة واعتقاده في مسألة الحكم . فهو يُخطيء أشدَّ الخطأ ، عندما يعتقد بأن حكّامه المتحكّمين به يسعَوْن إلى رعاية مصالحه وإلى صناعة تقدّمه وازدهاره وإلى بثّ القيَم السامية فيه . ولو أنّهم يحملون قسطاً يسيراً من هذا الذي يعتقد به الشعب أنّهم يحملونه ، لَما راح يعاني من نكبات التخلف والحرمان ما يعاني ، ويكابد من ويلات التأخّر والجهل والحماقة ما يكابد . فليس همّهم إلّا أن تسلم لهم السلطة وأن ينفردوا بها ، وأن تبقى عليهم ظلالُ النعم وارفةً رفّافة .

وهل تُخطيء الثورة الإسلامية في إيران ، إذا هي راحت تستنهض الشعب ليتأمّل أفكارها ونظراتها وليُصغيَ إلى أقوالها ونداءاتها ، ثمّ ليَحكم بعد ذلك إذا كانت حلوةَ المَذاق أو مُرّةَ المذاق ؟ لقد رَضِيَتْ له سلطاته أن يطّلعَ على مبادىء الأحزاب في الكتلة الشرقية الشيوعية ويتأمّل أفكارها ومبادئها ، ورضيَتْ له أن يُجرّبَ مذاهب الكتلة الغربية في الاقتصاد والسياسة والثقافة ، ورضيَ هو معها بهذه وتلك ، فلماذا لا يفكّر أن يتذوّق طعم هذه الثورة الإسلامية التي أصولها من أصوله وبذورها من بذوره ، وفي فكره نبتَتْ ومن لغته خرجت ؟

وكان حقًّا على العرب أن يعزّزوا الثورة الإسلامية في إيران ، وأن يناصروها ويؤيّدوها تأييداً لا يعرف الحدود ولا التحفّظ . وكان حقًّا عليهم أن يجدوا فيها المرآة الضائعة التي ينظرون إليها فيرَوْن فيها وجههم الضائع ، ويحتفون لأنّهم عثروا على أنفسهم . ولا نقول

ذلك ونحن نعني اننا مع الأطماع المَخفية لقادة الثورة في إيران ، إذا كان لهم أطماعٌ مخفيّة في أرض العرب وفي نفطهم وأموالهم كما يتّهمهم المتّهمون . ولا نقول ذلك لأنّنا نُظاهر نزعةً شعوبية ظهرتْ مع ظهور بني العبّاس وراحت ترتدي في كلّ عهد لبوساً جديداً من غير أن تتضاءل او تفنى . فنحن لا ننتقص من شأن العرب وقدرهم وإنّما ننقدهم ، ولا نُسَفِّه أصلَهم وجنسهم وإنّما نُسَفِّه اعمالهم وحماقاتهم . لكنّنا نقول ذلك لأنّ الثورة الإسلامية في إيران وقفتْ إلى جانب العرب وعادت إلى صفوفهم كأنّها واحدٌ منهم ، واصبحتْ تعبيراً آخرَ عن قضاياهم وإحساسِهم ، ولغةً أخرى أخذ يتكلّم بها لسانهم وكأنّما تعلّموها في نومهم وهم لا يدرون . فكيف يكون للعرب بعد ذلك وجهٌ يظهرون به ، وهم يعاينون السلطات العربية يعلنون النفير على هذه الثورة ويواجهونها بأخشنِ أنواع الأسلحة واكثرها حداثةً وتطوراً ، ولا يُنكرون عليهم هذا الصنيع الأحمق والموقف الطائش ؟ ونقول ذلك واكثر من ذلك ، ما دامت الثورة في إيران ماضيةً على هذه الطريق برشدٍ وحكمة . وأمّا إذا تغيَّرت وعادت إلى سياسة الشاه ومواقفه وأطماعه ، فإنّنا نتغيّر ونعود إلى أحكامنا على سياسة الشاه وأطماعه ، وإلى مواقفنا من مواقفه ومناهجه .

وإنّه إذا كان يُخشى على الثورة الأسلامية الإيرانية من اخطارٍ كثيرة ، فأشدُّ ما يُخشى عليها من بين هذه الأخطار هو انحناء الدين أمام السياسة ونزولُه تحت طاعتها . او قُل تليين الدين وتطويعه ثمّ ترويضه ليعود مطيّةً ذلولاً ، يَسهل على كلّ مبارز في ميدان السياسة أن يركبَها ويَجري بها . وليس في السِّمات الظاهرة والبشائر المتناثرة على وجه الثورة الإسلامية من هذا الخطر ما يدعو إلى القلق منها والارتياب بها حتى الآن . ولا نرى من الحقّ أن نبادر

إلى التصريح عن رأيٍ فيه غضبٌ وحنق على الثورة وإلى اتّخاذ مواقفَ فيها تضجّر وتشاؤمٌ منها ، فلكلّ ثورةٍ هِناتٌ لا بدّ من تجاوزها وتَبِعاتٌ لا يجوز أن تُعَدّ وتُحسب . ولا نسمح لأنفسنا أن نَميل إلى موقف يَمَسُّ هذه الثورة بأذى ما لم يُصبح انحرافها بارزاً واعوجاجُها بيّناً . فإذا كان ذلك ورأيناه ، فإنّنا سنرمي انحرافَها بالنقمة والغضب وسنهاجم اعوجاجها بالاستنكار والرفض الشديد . وإذا كان ذلك أيضاً ، فنحن لا نخشى على مصير العرب ، ولن ينضمّ إليها منهم إلّا القليل الذي لا حاجة للعرب بهم آنذاك .

وإذا رأينا أمامنا مَنْ يقف ويقول : لقد أظهرتم إعجاباً بالثورة الإسلامية في إيران ما بعدَه إعجاب ، ونثرتم عليها ثناءً ليس مثلَه ثناء ، فكيف أبَحْتم لأنفسكم بعد ذلك أن تُلقوا فيها بذوراً من الشكّ والارتياب ؟ فإنّنا نقول له : إنّ صنيعنا لم يكن شكّاً وارتياباً ، وإنّما كان حذراً وتحسّباً ، والفرق بين هذا وذاك واضحٌ بيِّن ، وهو أوضحُ وأبينُ من أن نتحدّث فيه أو نَذكرَه . ولماذا لا نحذَر ولا نتحسّب ، وكانت سُنَّةً عند الحكّام المسلمين ، إلّا قليلٍ منهم ، أن يجعلوا من الدين مركباً ومطيّة ، فذلك أسرعُ للوصول بهم إلى أغراضهم وأيسرُ زاداً وكلفة ؟ وقصصهم في تأويل الأحكام وسِيَرُ الفقهاء في تطويع الفقه والشريعة لميولهم ورغباتهم كثيرةٌ شهيرة ، ملأتْ بَطن التاريخ وغصَّ بها حَلقُه ، وكلُّها موجودة لا يدافِع عنها أحد ومعلومة لا يُنكرها أحد . وهذا تاريخنا مع السلطة العثمانية ليس ببعيد عنّا ولم تنطوِ صفحاته بعد ، وربّما لا تنطوي من حياتنا ما دمنا أحياءً . وهو دليلٌ حيّ شاخص على تسخير السياسة للدين ، وإخضاعه لأحكامها وأهوائها وتجريره في مسالكها المتعرّجة المظلمة ، وهو دليلٌ حيٌّ ومؤلم على ما لقيَه العرب من بؤسٍ وشقاء وما عانَوْه من ظلمٍ واضطهاد لانخداعهم بهذا التسخير وسكوتهم عليه قروناً

خمسةً او ما يزيد .

وإذا كان العرب قد تعرّضوا لهذه التجربة القاسية المريرة لمدّة طويلة مديدة مع السلطات العثمانية ، فقد بات من حقّنا أن نَحذَر من تجاربَ اخرى قد تكون اقسى وامرّ . ومَنْ يدري ما تصنع الأيّام في نفوس القادة القائمين على امور الثورة الإسلامية في إيران ؟ ففيهم المستقيم الذي سيبقى ماضياً في استقامته ، وفيهم الذي عنده استعدادٌ للميل والانحراف ، فلا يدري احدٌ به متى يَميل وينحرف . وإذا مال وانحرف ، فماذا ستكون الحجّة في بقائه واستمراره ؟ وهو لن يبقى ولن يستمرَّ إلّا إذا قوِيَ اتباعه وانصاره . وعند ذلك يرى الطريق سهلةً ميسَّرة فيقبضُ عليها ويستأثِر بها ، وتبدأ التجربة القاسية مع الشعبين الشقيقين ، ولا يدري احدٌ بما سينبعث عنها من مِحن ، ولا يدري إلّا الله متى ستكون نهايتها .

وقد بات من حقّنا ان نكون على حذرٍ ايضاً ، إذا علِمنا أنّ الاختلاف قد دَبَّ إلى قيادة الثورة الإسلامية فأصبحت قيادات ، وأنّ الشقاق سعى سعيَه بينهم فانشقّوا على انفسهم وتصدّع امرُهم ، وقامت بينهم الاتّهامات وقعدَتِ الدواهي . ولكنّهم ظلّوا على فطانتهم وحكمتهم عندما لم يسمحوا لتصدّعهم أن يصير جهيراً ويخرج خارج ملعبهم ليقع في ايدي اللاعبين المتربّصين . وهم سواءٌ إذا حافظوا على تماسكهم وأقاموا على وحدتهم ، أمِ انشعبوا وانقسموا على انفسهم احزاباً ووقعوا فيما بينهم ، فإنّ ذلك لا يجرُّ على العرب خطراً ولا يَسوق إليهم ضرراً . وقد قال لي مرّةً رجلٌ لا يَثِق بالثورة في إيران : إنّ قادة هذه الثورة يُضمِرون من العداء للعرب أضعاف ما اظهر الشاه ، ويحمِلون من الأحقاد عليهم اكثرَ ممّا كان يحمل . وبالرغم من أنّ هؤلاء القادة كلَّهم قد آوتهم الديار العربية ونصَرَهم اهلها في ايّام محنتهم وتشريدهم ، وأنّ لفيفاً منهم شبّ وترعرع

فيها ، فإنّهم يترقّبون الفرصة التي تسمح لهم بأن يُمطروا هذه الديارَ التي آوتْهم بالويل حتّى يصرخ التراب من ويلهم ويُذيقوا أهلها الذين نصروهم ، من العذاب ما يُذكّرهم بعذاب الجحيم . ألا تراهم كيف يعملون بهؤلاء المخدوعين بهم في لبنان ؟ إنهم بلقمة بطونهم وباسم الأئمة من أهل البيت راحوا يعملون منهم خدّاماً قوّامين على مآربهم وحرّاساً أمناءَ على مسارب تحركاتهم ، فاصطنعوا من العجائب وابتدعوا من القصص والأحداث ما نَفَّرَ الأصدقاء والأعداء من الإسلام والمسلمين . وقد قُتل من الضعفاء الذين لا حول لهم ومن الأبرياء الذين لا ذنب لهم ، خَلْق كثير بسبب عجائبهم التي اصطنعوها وأحداثهم التي ابتدعوها .

فقلت لهذا الرجل : لو خَلَّصتَ كلامك من هذه القسوة الجارحة ، لبَقي فيه شيءٌ من الحق الذي من حقّه أن يُسمع . وإذا كنتُ لا أقاسمك رأيك كله ولا أميل إلّا بعض الميل إليه ، فلأنّني لا أستطيع أن أصدِّق أنّ قادة الثورة في إيران هم في هذه الأوصاف التي وصفتَهم بها . فأنا أعرف أكثرهم معرفةً تُجيز لي أن أدفعها عنهم ، وتُجيز لي أن أقول ، إنّهم في قضايا العرب أعمقُ وعياً من العرب أنفسهم وأشدُّ حماساً وتضحيةً لها . وسواءٌ أسنحتْ لهم الفرص أم لم تسنح ، فإنّهم لن يُذيقوا العرب ويلات ولن يُلحقوا بديارهم خراباً ، وإذا هم غيّرتْهم الأيّام وصاروا كما قلت ، أو جاء من بعدهم من القادة من يحمل من الأوصاف ما وصفت ، فإنّهم لن يصنعوا بالعرب أكثر ممّا يصنع العرب بعضُهم ببعضهم . وسيصير حالهم مع العرب كما كان حال الأتراك معهم من قبل . فالأتراك عندما صحّ لهم أن يُنصّبوا أنفسهم سلطةً على العرب جعلوا الدين مطيّةً مسخَّرةً لأهوائهم ، واكتفَوْا بأن يقرّبوا من العرب بعض الفقهاء الذين لهم فتوى مسموعةٌ وبعضَ الوجهاء الذين لهم وزنٌ كبير في العشائر والقبائل ،

وانفردوا بعد ذلك بالغنائم الكبيرة واختصّوا أنفسهم بكلّ شيء. فمنهم الخليفة وحاشيته، ومنهم الوزراء والمشاورون وخَزَنَةُ الأموال وجُباتُها، ومنهم القادة العسكريّون وكبار المتنفّذين في إدارة الجيش والوُلاةُ على الأقاليم والمدن الكبيرة الموزّعة فيها. وعلى طوال خمسة قرون، لم يُقصّروا في زرع الكيد بين العرب ونشر الدواهي في صفوفهم، ولم يُقصّروا في إذلالهم والحطّ من شأنهم وانتقاصهم في الكبيرة والصغيرة بأساليبَ، ظنّ الأتراك معها أنّه لن تقومَ للعرب قائمةٌ بعدها.

وانظرِ الآن رغم ذلك كلّه ورغم ما صنعوه، هل ترى كلمةً تركيةً واحدة في اللغة العربية وآدابها؟ وهل ترى فكرةً واحدة من أفكار الأتراك أو طبعاً واحداً من طباعهم؟ ثم انظرْ إلى لغتهم لترى أنّ نصفها بل أكثرَ من نصفها وهو من لغة العرب، وإلى آدابهم وأفكارهم لتشاهد أنّ أكثرها مسلوخٌ من آداب العرب وأفكارهم، ثمّ إلى طباعهم وفنونهم وحياتهم لتعاين أنّ السِّمات العربيةَ هي التي يأخذ انتشارها المساحة الأكبر فيها. وأقول لك: إنّ العرب الذين عندهم هذه اللغة وهذه الآداب والأفكار، لا أخاف عليهم من سطوات الشعوب مهما امتدّتْ ولا من عنفوان الغزاة والطامعين مهما اشتدَّ وتمادى، بل أقول، يكفي أن يكون عندهم القرآن ليكونوا في مِنعةٍ من كلِّ أذىً يأتي إليهم من خارجهم، فلا أخشى على العرب إلّا من العرب أنفسهم.

وأمّا عن السلطة السورية وشأنِها مع هذه الحرب، فإنّها لم تكن من المحرِّضين المباشرين على نشوبها ولا من الداعين إلى قيامها. وهي عندما اندلعت أحبَّتْ أن تأخذ من حرارتها ما يؤمّن لها دفءَ البلاد ونشاطَها، وأن تترك منها دخانها ولهيبها وحريقها للمصطلين بنارها. فهل كان ذلك منها حكمةً أو مكراً مكرَتْه حتى

لا تُفلتَ من يدها هذه الفرصة النادرة؟ ولا نتردَّد أن نقول إنّه كان مكراً ولم يكن حكمةً، فالحكمة تُشيع في النفس ثقةً واطمئناناً وهدوءاً، والمكرُ يملأها ريبةً وخيبةً وقلقاً. وقد وَجدَتِ السلطة السورية في هذه السوق الجديدة التي فتحها الغرب ما تحبُّ وتهوى من السلع، ليس فيها واحدةٌ منها يعزُّ منالُها عليها. ووَجدتْ أنها قادرة على ترويج بضاعتها التي بين يديها، فهبّتْ تشتري ما لذَّ وطاب وتبيع ما حضر وغاب. فجارتها السلطة العراقية هي عدوٌّ لَدود لها، وخطرٌ يتهدَّدها كلَّ لحظة بالهجوم عليها، وبالتآمر مع أعدائها في الداخل والخارج، وبتأليب الدول العربية عليها في المؤتمرات والاجتماعات، وبشنِّ الحملات الإعلامية، وتأليف الدعاوي المزعومة والملمومة. هذا العدوّ اللدود الذي يَخلق لها ذلك واكثر من ذلك، وقع الآن شرَّ وقعة وابتُلِيَ بأدهى بلاء، فعليها أن تَخفَّ إليه وتأخذَ ما تناثر من قوّته وما بقيَ من عدَّته وعَتاده، وتحتلَّ ما ترك من أمكنة وتَشغَلَ ما أحدث من فراغ، فتقوى بذلك على حساب ضعفه، وتتوسَّعَ من تقلُّصه، وتكبرَ من تصاغره. وإنّها وإن لم تكن فازتْ بما أرادتْ، لكنّها حظيَتْ بنصيب طيّب من الغنائم.

وهذه إيران أيضاً، هي الضفّة الأخرى للحرب، والطرف الملتهب الآخر، لا تحبُّ أن ترى فيه السلطة السورية عدوًا ولا صديقاً، فهي تنتظر الأوقات وتترقّب ما سيظهر في الأفق. فإن ظهر فيه ما يُشير إلى خيرٍ في العداء ويقودُ إلى منفعة فإنّها تُلوِّح بالعداء، وإن ظهر فيه ما يُشير إلى أنّ الخيرَ هو في الصداقة أغزرُ ممّا هو في العداء، فإنّها تستعجل الصداقة وترفع رايتها. وفي شتّى الحالات والأزمنة لا تستطيع الثورة الإسلامية الإيرانية أن تتّخذ من السلطة السورية صديقاً لها ولا أن تَثِقَ بعقيدتها ولا باستقرار مواقفها، وهي منها دائماً على تخوّفٍ وحذر. وكما تنظر إلى السلطة العراقية

انّها وحشٌ مفترس قد هاج وكشّر عن انيابه، فكذلك تنظر إلى السلطة السورية بأنّها وحشٌ مفترس لم يَهجْ بعدُ ولم يكشّر عن انيابه. وحجّتها في ذلك انّ الحزب في السلطتين هو حزبٌ واحد يعيش في قلبين متنافرين، وعقيدةٌ واحدة تسكن في نفسين متنازعتين متنافستين. وكذلك الشأنُ عندَ السلطة السورية فإنّها تبادلها النظرة نفسها، ولا ترى أنّ علاقتها مع الثورة في إيران يجب ان تتجاوز تَقايض المنافع وتبادل المصالح.

وكيف تُفوّت هذه الفرصة ولا تمتصُّ على هواها وتبتزُّ على حرّيتها من هذا الغنى الذي تسبح فيه إيران، ومنه النفط والأموال المبعثرة التي تعبّىء خزائن العالم؟ إنّها تكيد للثورة الإيرانية في لبنان وفي المعارضة العراقية وفي مواقف اخرى، ولا تخشى خطرها ولا تحسب لها في الغد حساباً، فليس بينهما حدود، ولا مياهٌ يرقد تحتها النفط. ولا تقدر إيرانُ أن تَكيد وتلعب في لبنان خِفيةً عن السلطة السورية، بل لا تستطيع ان تدخل إليها إلّا بإذنٍ منها. ووَجدتْ نفسها انّها مع هذه السلطة هي مغلوبة في شتّى حالاتها وليستْ غالبة. فهي في حالة العداء مرغمةٌ أن تُعطيَها لتخفّف من عدائها وتوقف زحفه نحوها، وهي في حالة الصداقة مجبَرةٌ ان تُفيض عليها لتُطوّل مدّة صداقتها، وهي في حالة الفتور مضطرّة إلى أن تُهديها لكي لا تُؤثِر العداء على الصداقة.

وإلى جانب هذه السلع الرائجة مع إيران، فقد وجدتِ السلطة السورية زاويةً مليئةً بالغنائم والتحف من سوق هذه الحرب، تستطيع ان تأويَ إلى هدوئها وامنها وهي دويلات الخليج. وحكاية هذه الدويلات، انّها تعيش على ارضٍ مليئة بالكنوز المكنوزة، فعندها الذهب الأسود والراس الأسود والقلب الأسود. وقد تعوّد أهلها وابناؤها ان يعيشوا في هذه الليالي السوداء غارقين في

متعهم ولذّاتهم، لا يدخل عليهم النكد ولا ينغّص عيشهم منغّص. وهم لا يخشون على انفسهم شيئاً مثلما إيران والعراق، ولا يعتقدون أنّ خطراً يستطيع أن يدنوَ منهم إلّا من هذين البلدين الجارَيْن. وها هما اليوم قد اعتلقا واصطدما واخذ التحطيم يعمل في كليهما، والنارُ تَفُتُّ من قوّتيهما، فما أطيَبَه من حلمٍ وما اشهاه إلى نفوس هذه الدويلات! لطالما انّهم ترقّبوا مجيئه طويلاً، فكيف لا يتحرّكون لاستقباله ولا يرقصون الآن طرباً لمجيئه وقدومه؟ وكيف لا يسارعون إلى تقديم الوقود وتزويد هذه النار بالحطب، وهم عندهم إرثُ حمّالة الحطب وملكُها كلُّه؟

ولأنّ التهديد لا يفتأ ينطلق من صوب إيران عليهم والإنذار لا يَني يتدفّق من جانبها إليهم، فقد وَجدوا أنّ امنهم هو أن يكونوا إلى جانب العراق وأنّ سلامتهم هي في الوقوف وراءه. والعراق بلدٌ عربي مثل بلدانهم، واهله عرب مثلُهم وأراضيه امتدادٌ لأراضيهم. وانتصاره هو انتصارٌ لهم وانكساره هو انكسارهم وهزيمتهم ووقوعهم تحت الخطر الإيراني الغريب الهائج الذي لن يرحمهم ولن يستطيعوا مقاومته ولا الصبر على تحمّله. وهم وإن كانوا أبقَوْا في الظلام لهم خيوطاً ممدودةً مع الثورة الإيرانية، فإنّ تخوّفهم من مطامعها واخطارها، هو الآن اكبر من كل الخيوط الكبيرة والصغيرة ومن كلّ العلاقات القائمة بينها وبين إيران. ولذلك التجأت إلى السلطة السورية، تستنجد بها وتستفيىء إلى ظلال روابطها القويّة مع الثورة الإسلامية الإيرانية، من لهيب هذه الحرب الملتهبة ومن حرِّ نارها المستعرة. وماذا تنتظر السلطة السورية، وهي التي تراقب بفارغ الصبر هذه الزاوية القابعة في سوق الحرب العراقية الإيرانية، غير هذا الالتجاء وهذا النداء؟ فهبّت إلى نجدتهم وهي تمري ضروعهم ولبّت نداءاتهم وهي تستدرُّ حليبهم ونفطهم ودمهم

وما تقع يدُها عليه منهم. وأمّا يدها الثانية فهي ممدودة إلى إيران تعمل ما تعمل أختها الأخرى من مري واستدرار، وذلك بعد أن رضيَتِ السلطة السورية بدور الوساطة بين دويلات الخليج وبين الثورة الإسلامية الإيرانية، وبعد أن افلحتْ في رسم الطريق والسير عليه خطواتٍ لمنع تمدد الفتنة ولتوقيف النار المنتشرة.

وطويل هو الحديث عن السلع الكثيرة التي ظهرتْ في سوق هذه الحرب الطويلة وعن دور تجّار البشر وباعة الإنسان فيها، ومتشعّبٌ ومتنوعٌ، ولكنّنا لا نستطيع أن نذهب فيه إلى أبعدَ من ذلك. فليست مهمّتنا مقصورةً على استقصاء تفاصيله ووقائعه وحصر ابعاده. وإذا كنّا لوينْا عنان الحديث عن ذكر الخسائر التي مُني بها الطرفان المتحاربان، فلأنّه حاضرٌ في ذهن كلّ إنسان. فهل بقي احد لم يقرأ طرفاً من قصص هذه الحرب وما حدث فيها من عجائب، وما اتتْ عليه من دمار وخراب؟ والعجيب فيها غير عجيب، فتلك سُنّة الحروب منذ البداية إلى النهاية، فهي لا تُبقي ولا تَذَر من موادٍّ ومن بشر.

ولا نرى انّه من الحقّ أن نُغفِل الإشارة إلى الأيادي البيضاء التي أسدتْها سورية، شعبُها وسلطتُها، إلى قادة الثورة الإسلامية الإيرانية، أيّام كان هؤلاء يعيشون المحن القاسية من تشريد وملاحقة وخطفٍ واغتيال، فقد رأوْا في سورية بلدَهم وفي أهلها أهلَهم، حينما عاذوا بها والتجأوا إليها من شرّ الطاغية الجبّار وجنوده واشباحه. ولم تَألُ السلطة السورية جهداً في مدّهم بالعون، ولم تدّخر مقدرةً ووسعاً في تقديم المساعدة والتأييد لهم، فقد عيّنتْ لهم حقوقاً شهرية، واتاحتْ لهم الفرص ليتلقَّوْا تدريبات قتالية في المعسكرات الخاصة، وأشرفتْ على حمايتهم في كلّ مكان ينزلون إقامةً أو زيارة. وكان اكثرُ مَنْ حنا عليهم من السلطة

وأحاطهم بالحرب والرعاية والعطف الخاص هو رفعت الأسد. فقد أطلق أيديهم في كل ما تختاره نفوسهم من أسلحةٍ ووسائل نقلٍ وتدريب، ومن طباعةٍ ونشرٍ وتوزيع. من غير أن يَلتفتَ إلى احتجاج الشاه على هذا الصنيع الذي اشتهر ولم يعد خافياً على أحد، والذي باتت ظلال تهديده تلفت إليها السياسة في إيران.

اقول ذلك وأنا على علمٍ ومعرفةٍ بما أقول، فقد كنت أرى عدداً من هؤلاء القادة في مكتبه أحياناً، يبقَوْن لفترة طويلة، وأحياناً كنت أرى جماعةً منهم في ميادين التدريب على العمليات الفدائية وعلى عمليات الاقتحام السريع والاغتيال في الشوارع والساحات العامّة. وكان فيهم من يزورني إلى منزلي وأزوره إلى منزله، ونشأتْ بيننا صِلاتٌ قويّة، دفعتْنا إلى التعاون في فنونٍ شتّى منها: الترجمةُ والتأليف في الفكر والأدب بين الثقافتين العربية والفارسية، وتوسيعُ النشاط ضدَّ سياسة الشاه وضدَّ خططه الماكرة المعادية لتطلّعات الشعبين العربي والفارسي.

وكنتُ من الذين ألِفوا مجلس الإمام الخميني أثناء إقامته في باريس واعتادوا حضوره، للاستماع إلى الأفكار الخصبة الرفيعة التي كانت تجود بها قريحته على جُلّاسه ومستمعيه، ومن الذين يجتمعون إليه أحياناً على انفراد، وأحياناً مع أهل خاصّته وأودّائه المقرّبين له، ومنهُمُ ابنُه أحمد. ولعلَّ هؤلاء جميعَهم لا يزالون يَذكرون، أنّ الثورة عندما بدأ فورانها يتزايد، أحسّوا أنّهم بحاجة إلى أسلحة كثيرة، وأحسّوا بأنّه لن يكون هناك مثلُ سورية مَنْ يَسخو عليهم بها، وكان لهم منها ما أمَّلوا عندما سألوها ومدّوا أيديَهم إليها. وكان رفعت الأسد من الأوائل الذين أخذهم الحماس، ومَن الذين أسرعوا إلى نجدتهم وإلى استجابة نداءاتهم. ولم ينسَ هؤلاء القادة، بعد انتصار الثورة الإسلامية في بلادهم وعودتهم

على راسها، أن يُحيّوا دور سورية وسلطتِها، وان يَخصّوا رفعت بتحيّتهم على حماسه وجميله. ذكروا ذلك في كلماتهم وأحاديثهم التي أخذتْ محلّاتِها في صحفهم في تلك الأيّام، والتي نُؤثِر ان لا يكون لها محلٌّ عندنا اليوم.

ز ـ القضية الفلسطينية :

إنّهم قالوا وسيقولون، لم يكن هناك بدٌّ من ان تقع فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى رهينةً سبيّةً في معسكر الإنكليز، وان تبقى في أيديهم حتى تضع الحربُ العالمية الثانية أوزارها. ثم إنّها تنازلت عنها وسلّمتْها ولكن إلى مَنْ؟ إنَّهم قالوا وسيقولون: لقد باعتْها، وتنازلتْ عنها، أو سلّمتها بخديعة إلى اليهود الذين نزحوا بأعدادٍ كبيرةٍ إليها، والذين أصبحوا يشكّلون قوّةً كبرى في مقابل العرب آنذاك، والذين كانوا لسنواتٍ طويلةٍ خَلَتْ قد أعدّوا العدّةَ وهيّأوا أنفسَهم لشراء هذه الغنيمة، حلمِ التاريخ وأرضِ الميعاد.

ولمّا كان النزاعُ البارد والساخن قد استفحل بين العرب واليهود ولم يعودوا يُطيقون التعايشَ معاً والبقاءَ جنباً إلى جنب، وأنَّ الأرض لم تعد تتحمّل عداءَهم وصراعَهم، ولم تَعد تتّسع لمشاحناتهم ومبارزاتهم، فإنّهم قالوا وسيقولون: لقد اتَّفقَتِ الدول الكبرى بعد سلسلةٍ طويلةٍ وعريضةٍ من المشاورات والمؤامرات على تقسيم فلسطين عامَ ثمانٍ واربعين وتسعمائة والف، فأعطَوْا شطراً منها إلى اليهود وشطراً إلى العرب. فأمّا اليهود فقد سارعوا إلى إعلان دولة إسرائيل التي كانوا قد رسموا مشروع إنشائها من قبل، وبيّتوا الخططَ القريبة والبعيدة، لتركيزها وتثبيت دعائمها

وتوسيعها بقدْر ما يحلمون وبقدر ما بوسعهم على تجهيز الحلم وتحقيقه. وامّا عربُ فلسطين فقد بادروا إلى شجب قرار التقسيم ورفضه والإصرار على أن تبقى فلسطين أرضاً واحدةً لدولةٍ واحدةٍ وليست أرضاً لدولتين. ولكنْ ماذا يفعلون؟ إنّهم قالوا وسيقولون: لقد انضمَّ عرب الدول المجاورة إلى عرب فلسطين، وأعلنوا الحربَ على اليهود وعلى البقايا من الإنكليز الذين كانت خلاياهم لا تزال منتشرةً قائمةً في الإدارتين الشعبية المدنية والعسكرية. وكانت هذه أوّلَ حربٍ مُعلَنةٍ بين العرب واليهود ومعهم الغربُ كلُّه.

وغُلِبَ العربُ الضعفاء، وتفرّقوا، وانهزموا، ثم انشعبوا إلى شُعَبٍ شتّى. وانتصر اليهود أو دولةُ اسرائيل الجديدة عليهم، واستطابوا حلاوة النصر، ووجدوا طعمَ التفوّق لذيذاً، فشرعوا يزرعون الويلَ وينثرونَ الرعبَ والتنكيل بين عرب فلسطين ليُهجّروهم وليُجبروهم على النزوح وترك الأرض وراءهم خاليةً لليهود. ولم يقوَ هؤلاء الضعفاء والعُزّل على الصمود أمام هَول المذابح والتقتيل وعواصف الحقد والترويع، فأخذَتِ الأمواج البشرية تتدفّق إلى البلدان العربية القريبة والبعيدة حاملةً معها أحزانها وجراحاتها. أو قُل تجُرّ وراءها عار العرب كلِّهم على تضييعهم أرضهم الأمّ وتنازلِهم عنها بثمنٍ بخسٍ، ثم على تخاذلهم عن حقّهم الذي قُسِمَ لهم بقرار من الدول الكبرى، وأصبحوا لا أرض لهم ولا وطن ولا حكومة ولا دولة.

ولقد قالوا وسيقولون، كان ذلك كلّه، لأنَّ الغربَ هو الذي دبَّر للمؤامرة في الظلام، وهو الذي سهَّلَ لليهود سُبُلَ الهجرة إلى فلسطين وسهّلَ لهم سبل الإقامة فيها. وهو الذي خَدَع العربَ بكلامه المعسول وبياناته البرّاقة، وطمأنَهم بأنّه صديقٌ لهم شفيقٌ عليهم، يريد أن يأسُوَ جراحَهم التي كابدوا منها أيّام التسلّط العثماني. ولم

يفطنِ العرب إلى أنَّهم غرقوا في محنة المحن الكبرى ، إلّا بعد أن كان كلُّ شيء قد تمَّ وانتهى على الوجه الذي يريد له الغرب أن يكون . فهؤلاء اليهود في انحاء العالم كلّه قد عقدوا العزمَ وبيّتوا الخططَ لإنشاء دولتهم على أرض فلسطين بعد تهجير العرب وتشتيتهم في البلدان . وهذا الغرب لا يستطيع إلّا أن يستجيب لمطالب اليهود وينزل عند رغباتهم ، فمصلحته لا تنفصم عُراها عن مصلحتهم ، ومطامعُه تظلُّ مصونةً محميّةً في ظلال الدولة اليهودية ، كلّما وجدت نفسَها انَّ خطر العرب يتزايد ويهدّد بالهجوم ، فإنّها تأوي إلى هذه الدولة لتصبحَ في المكان الآمن المنيع . وهؤلاء العربُ ضعفاءٌ ، لا حول لهم ولا قوّة ، وبسطاءُ أبرياء ، لم يكونوا قد اتَّفقوا على أساليب الغرب وطرق مكره ودهائه . ولم يألفوا أنماطَ اختلاقه للقضايا وانماطَ احتوائه لها . فاطمأنّوا إلى وعود الغرب وصدّقوه في أقواله ، ونظروا إليه فوجدوا عنده حضارةً ورأوا فيه قوّة ، واعجبهم أنْ يتَّخذوه مثالاً يُحْتَذَى ونَموذجاً يُتَبع ، فطفقوا يقلّدونه ، واجتهدوا في أن يكونوا حُذّاقاً في التقليد ، أمناءَ عليه . فبين ضعفِ العرب وسذاجتهم وبين قوّة الغرب ودهائه وشطارته ، ذهبتْ فلسطين من أيدي العرب إلى أيدي اليهود ، وتشرّدَ أهلُها وضاعوا ، وأصبحوا لا أمَلَ لهم ولا رجاءَ إلّا الخيبةَ والخذلان . وهكذا قالوا وهكذا سيقولون .

ولكنّنا نقول لهم وسنقول : نحن لا نُنكر سلطانَ الغرب وقدرتَه ، ولا مكرَه وحيلَه في عقد الأمور وحلّها ، وفي الدخول والخروج ، ولا عُدّته وآلته في بسطِ السيطرة وتوسيع النفوذ . كما لا نُنكر مطامع اليهود وأحلامَهم القديمة في فلسطين ، وسعيهم المتواصل منذ ما يزيد على قرنٍ من الزمن لتأليف شملهم وتوحيد قدرتهم واتّباع المسالك الخفيّة والجليّة لاجتذاب عطف القوى الكبرى

ومراكز صناعة القرار في العالم وتأليبهم على العرب من أجل انتزاع فلسطين وسحبها من تحت اقدامهم، ثم إقامة اسرائيل دولتهم الموعودة. وكذلك لا نُنكر ما عليه العرب من تخلُّف وتأخر، ومن ضعف وسَذاجة، ومن تشعُّبٍ وانقسامات وحماقات، ولا ننكر أنّهم خُدِعوا وأنّ الحيلَ انطلت عليهم، وأن العاصفةَ كانت أكبرَ منهم، وانّهم لم يكونوا قد أعدّوا العدّة لملاقاتها، فتغلّبت عليهم وحطمتْهم وجعلتْهم كعصفٍ مأكول. ولكنَّ الذي نُنكره، هو أن يتّخذوا من هذه الأمور وحدَها أسباباً فاقعةً لضَياع فلسطين ويتناسَوْا تلك الأسبابَ المطليّةَ المخفيّةَ التي كانت أوجع تأثيراً واشدّ دهاءً، وأن يَصيغوا منها وحدَها الأعذارَ التي تُغطّي عليها وتقوم مقامَها. وهل عنيت بالأسباب المطليّة المخفية إلّا انظمةَ العرب وسلطاتهم التي كانت قائمةً في ذلك الزمن، ومنها النظام في فلسطين وسلطته، وإلّا وجهاءَ العرب والعائلات الكبيرة المتنفّذة في الشعب العربي وفي السلطة آنذاك، ومنهم وجهاءُ عرب فلسطين والعائلات المعروفة المنظورة فيها.

فنحن نقول وسنقول، إنَّ هذه الأنظمة والسلطات ومن معها ووراءَها من وجهاء عرب فلسطين ومن العائلات المشهورة فيها، هي التي تتحمّل القسطَ الأعظمَ من أسباب ضَياعِ فلسطين وتنوء بالعبء الأكبر من جرّ هذه الفاجعة. فلم تكن هذه الأنظمة والسلطات والعائلات على درجةٍ من الغباء وقصور الفهم، بحيث لا تدري ماذا كان يجري في البلاد، ولا ما راح الغربُ يبيّتُ ويرسم مع اليهود للانتقال بفلسطين والمنطقة كلّها من تاريخ إلى تاريخ، ومن جغرافية إلى جغرافية، ومن مصير إلى مصير. ولم تكن نائمةً ولا غائبةً عن كلّ خطوةٍ يخطوها وعن كل مرحلةٍ يصل إليها. فقد كانت هجرة اليهود إلى فلسطين تجري أمام أعينهم وعلى علمٍ منهم،

وكان معنى هذه الهجرة واضحاً إلى حدّ ، كأنه ينطق معه بألفِ لسانٍ ماذا سيكون بعده . وكان رجالات اليهود في فلسطين ، كلَّما تسلَّل واحدٌ منهم إلى الأعمال الكبيرة في إدارة الدولة أو في أجهزة متفرّقة أخرى ، كان هؤلاء يدركون حقَّ الإدراك ماذا يعني تسلُّله ، وفي أيّ اتجاهٍ يسير ، ولم تخفَ عليهم كبيرة ولا صغيرة ، ولا شاردة ولا واردة في كلّ ما حَدَثَ وجرى . فمنهم مَنْ أخرَسَه المالُ فقبض قبضةً كبيرة منه بيديه وأودعها خزائنَ الغرب ، ومنهم من باعوا المساحات الواسعة من الأراضي بيعاً ، والعقودُ والصكوكُ موجودة شاهدة لا سبيل إلى نكرانها ، فهي أفصحُ منهم لساناً ، تَنطق بالحقّ في أيّ وقتٍ تُدعى فيه إلى الشهادة . والقابضون البائعون كانوا هم الأكثرين عدداً ، ولا يزال أبناؤهم وأحفادهم يعيشون متنقّلين في بلدان الغرب والعواصم العربية بأموالهم التي ثمّروها وبأملاكهم التي وسّعوها من تلك القبضات الكبيرة ومن أثمان الأراضي التي بيعت في الظلام . ومنهم من أسندوا إليه منصباً وجيهاً في إدارةٍ من إدارات الدولة فألجموه بذلك . ومنهم من وعدوه وطمّعوه فخنقوا فيه الصوت ولم يعد قادراً على الكلام ، ومنهم من كان يرضى بحظّه ونصيبه من النساء ومن المِتَع الأخرى .

ونحن نقول وسنقول ، لمّا كانت تلك الأنظمةُ والسلطاتُ والوجهاءُ والعائلاتُ كلُّها قد نشأت في حضنِ الغرب ورُبّيت على يديه وباتتْ تُحسَب من صنائعه ، فإنَّه لم يكن في استطاعتها أن تخرج عن الدائرة التي وضعها فيها ولا أن تفعلَ غير ما فعلت . وهي لم تكن تحمل في طباعها إلّا اللؤمَ والخسّة ، لذلك اقتصرتْ على استقبال القبح وحدَه من بين تأثيرات الغرب وتوجيهاته ، ورضيتْ أن تقوم بالخيانة من دون أن يهتزَّ فيها إحساسٌ أدنى اهتزازة أو يختلج فيها الضمير أبسطَ اختلاجة تعبّر عن شيءٍ من أسفٍ أو ندم . وما على

الذين يتَّهمون هذا القولَ بالغلوّ والمبالغة ويَجنحون إلى الاعتقاد بأنَّنا نُحمِّل الفلسطينيين وحدَهم مسؤوليّةَ الفاجعة والنكبة إلّا أن يتريّثوا قليلاً كما تريّثنا، وأن ينظروا إلى الكبير والصغير من أسباب هذه الفاجعة كما نظرنا، ثم ليعلموا كما نعلم بأنَّ جنديًا واحداً يحرس البوّابةَ الكبيرةَ في المدن القديمة، كان يكفي وحدَه أن يخون أو يُقتَل أو يَغْفَل لكي يَدخل الأعداء إلى المدينة ويقبضوا على كلِّ شيءٍ فيها. ونحن لم نرَ شيئاً قد تغيّر من الزمن القديم حتى الآن، فالمدن لا تزال قائمةً والبوّابات الكبيرة لم تُزَايل أمكنتَها المعهودة المرسومة لها، والأنظمةُ والسلطات والوجهاء والعائلات، هي كلُّها مجتمعةً ومجملةً تقوم مقامَ ذلك الجندي الذي إنْ خان أو قُتِل أو غفِل، فإنَّ البلادَ أرضَها وشعبَها ستكون عرضةً للاستباحة والسلب والنهب والضياع.

ثمّ ما عليهم إلّا أن يتمهّلوا ويستثيروا شهيّةَ شعبِ فلسطين للتحدّث في الأسباب الجالبة للفاجعة، فإنَّهم وإنْ رأوْهم غرّبوا وشرّقوا في ذكرها وسردها، وإنْ اقصروا وأطالوا، سيسمعون منهم كما سمعنا لومَهم الشديد بل سبابَهم الجارح لسلطات البلاد وأنظمتها المتلاحقة التي كانت ترى ما لا يراه الشعب وتسمع ما لا يسمعه والتي أغضتْ على ما رأتْ ورضِيَت بما سمعت. ويُشركون معَها باللوم والسباب زعماءَهم وفريقاً من فقهائهم ووجهائهم ومن العائلات، ثم يَروُون القصص ويُطيلون في رواياتها، وكلُّها محدودة بمكان حدوثها وزمانه، وأشخاصُها معروفون، ومنهم من عَرَف كيف يَصبغ وجهَه بدم النضال ويَظهر على المسرح مرّةً ثانية ليؤدّيَ دوراً جديداً أمام نَظَّارةٍ جُنُدٍ. وليسَ هو فرداً واحداً، وإنما هم أفراد لا يُستهان بعددهم ولا بشأنهم ولا بما يسعَوْن إليه. ومِثْلُ شعبِ فلسطين في هذه الحال مِثْلُ بقيّة القطعِ المقطّعة من الشعب العربي

المتناثر في البلدان العربية ، حيث الفقهاء والوجهاءُ والزعماء ، يضعون أصباغَهم في جيوبهم ، ليَصبغوا وجوهَهم بلون السلطة التي تقوم ولون السياسة الأجنبية التي تأتمر السلطةُ بأمرها وتخضعُ لنفوذها وهيمنتها .

وإذا نحن سلّمنا وقلنا بأنَّ زعماءَ الشعب الفلسطيني ووجهاءَه وسلطاتِه ، هذه السلسلة التي كانت على رأس فلسطين قُبَيل الفاجعة ، والتي عاصرَتِ الفاجعة وعايشتْها ، تتحمَّل قسطَها الأكبر من مسؤولية ما وقع وما جرى ، وأنَّها كانتْ لغةَ الشعب الناطقة باسمِه والمعبِّرة عن أحاسيسه وعن رغباته ، وكانت ممثّلاً له أمامَ اليهود وأمامَ الغرب ، وكانت هي وحدها التي تعلم ما تحتاج إليه البلاد وما لا تحتاج إليه ، وما يَدخل إليها وما يَخرج منها ، وكانت هي التي بيدها حلُ أمورِ البلاد وعقدُها ، إذا سلّمنا بذلك كلّه وقلنا إنَّ الشعبَ الفلسطيني ، كان قد تغيَّبَ عن مصيره وسلّمه طوعاً أو كرهاً إلى سلطة بلاده وزعمائه ، فكيف نُعفيه من مسؤولية السكوت على هؤلاء ، وهو الذي أحسَّ من الهبّات الخفيفة الأولى للرياح الغربية ، بأنَّهم يتعارجون في سيرهم ولا يعرجون ، ويتظاهرون بالخوف والضعف أمام اليهود لغايات في أنفسهم ، واليهود هم كانوا أشدَّ خوفاً وضعفاً منهم ، لو أنّهم صارحوا الشعب وأعدّوه واعتمدوا عليه ؟

إنَّ مسؤولية الشعب الفلسطيني هي ، أنَّه أحسَّ بالخديعة تحيط به من كلّ جوانبه ، وأنَّها تسري إليه من الباب الكبير الذي هو سلطته وزعماؤه ، ولم يَهبَّ في وجوههم هَبَّةً قويّةً تُطيح بهم ، فيأخذ مكانهم ويُصبح قائد نفسه ومُوجّهَ زمامِ أموره . ولذلك فهو قد عاش الفجيعةَ مرّتين : مرَّةً مع اليهود والغرب ، ومَرَّةً مع سلطاته وزعمائه المقدَّمين . وسكوته على هؤلاء ، بعد انتقاله من مرحلة الشكّ بهم إلى

مرحلة الظهور والانكشاف بأنّهم كانوا باعةً للشعب وسماسرةً للأرض اكثرَ منهم قادةً أمناءَ على حقوقه ، هذا السكوت لا نستطيع ان نغمضَ العين عنه دون أن نأخذه بشيء من اللوم ، ولا نستطيع أنْ نُعفيَه من حمل المسؤولية في وقوع الفاجعة الفجعاء . وهو لومٌ واتّهامٌ ، يجب أن لا يقتصر على الشعب الفلسطيني وحده ، دون الشعب العربيّ كلّه في البلدان العربية ، لأنّهم صنعوا صنيعَه في السكوت على قادتهم وزعمائهم ، بعدما تيقّنوا مثله أنّهم منصّبون تنصيباً من الغرب ، وأنّهم لا يمثّلون طموحَ العرب أكثرَ ممّا يمثّلون أطماعَ الغرب ، وهم ليسوا إلّا حرّاساً أمناءَ لخططه ونواياه .

واقول لأولئك الذين سيقع في ظنّهم ، انّني غلوتُ غلوًّا كبيراً في تحميل الشعب الفلسطيني ما لا طاقة له بحمله وانّني أميل إلى تشويهه والتعريض به أكثرَ من لومه ونقده ، انا لا أستطيع أن أفرِدَ هذا الشعبَ واقطعه عن الشعب العربي الكبير في حياته وفي مصيره ، لتسهل على الإدانة بعد ذلك أن تنفرد به وأن تزدردَه وتقضيَ عليه . وإنّه لواضح أنّ الفاجعة لم تكن تستهدفه وحده ، وواضح أنّ صُنّاعَ الفاجعة وهم اليهود والغرب ، لن يكتفوا بالشعب الفلسطيني ولا بفلسطين وحدها ، وواضحٌ انّ الشعب الفلسطيني لم يكن قادراً بمفرده أيّام حدوث الفاجعة أن يصنع شيئاً في وجه الإعصار القاحم ، أكثرَ من أن يسكت على مضض أو يغضب في الخفاء . وإذا رحنا نُشرك معه الشعبَ العربيّ جميعَه في الاتّهام ، فإنّنا نُحيّيه وحدَه على صبره الذي لاقى به فاجعةً كان أخفَ شيء فيها التقتيلُ والتشريد . ونُحيّيه على أنّه كان اللقمةَ الأولى أمام شهيّة الغرب ونَهَمِه وأمام جوع اليهود إلى الأرض الضائعة ، وأنّه كان الفداءَ الذي رضي أن يستقبل عُنُقُه الضربةَ القاسية من الحدّ المرهَف ، ليُخفّف عن إخوته العرب ما يأتي بعدها من ضربات .

ولو لم نَرَ أنَّه من حقّنا ان نتَّهم الشعب الفلسطيني ومعه العرب كلّهم وأن نصرخَ في وجوههم بقوّة لَما فعلنا ذلك ، ولآثرنا اللجوءَ إلى الصمت والهدوء على أن نخلقَ لأنفسِنا شيئاً من الضجَّة والاضطراب وعدم الرضى . والآن لماذا هذا الاتّهام ؟ وما هو هذا الاتّهام ؟

فنحن نقول وسنقول للعرب ، ومنهم شعب فلسطين ، إنّنا إذا سلّمنا وصدّقنا بأنَّ الرياح الهوجاء التي هبّتْ عليهم من الغرب كانت قاسيةً وعاتيةً إلى درجة جعلَتِ السفينة تجري في موج كالجبال ، وأنَّه لم يكن للعرب طاقة على تغيير الرياح أو تهدئتها ولا على التخفيف من حدّة الأمواج واضطرابها . لكنّنا لا نسلّم ولا نصدّق بأنّه كان عليهم أن لا يتركوا الربّانَ الحائرَ ومن معه من المشرفين والموجّهين يتصرّفون وشأنهم ، ويحرّكون السفينَة ولا يعلمون إلى أيّة وجهة يتَّجهون ولا إلى أيّ مصيرٍ يصيرون . والناس كلُّ الناس ، ذكيُّهم مثلُ غبيِّهم ، يعلمون أنَّ كلّ راكب هو مسؤولٌ ، على قدْره ومكانته ، عن السفينة وحركتها واتّجاهها ، ومسؤول إذا هو سكت ولم يأخذ على الأيدي التي تريد أن تخرق السفينة وأن تعرّضها للأذى والخطر . ولعلّه لم يبقَ بين العرب فردٌ لم يعلم ، أيّام حدوث فاجعة فلسطين وبُعيدَ حدوثها ، أنَّ سلطات الشعب العربي وزعماءه ، منهم من لا يَصلح لقيادة قافلة ، ومنهم الأرعنُ الأحمقُ ، ومنهم الخائنُ المتواطىء ، ومنهم الفاجرُ المكابر . فكيف تريدون منّا أن لا نقول بأنَّ الشعبَ العربيَّ قصَّرَ عندما سكت على هؤلاء ولم يأخذ على أيديهم ، وعندما استسلم إلى أعمالهم وتصرّفاتهم وهو يرى المصير الأسودَ يَحفُّ به من كل جانب ، وأنّهم هم الأبواب التي سيدخل منها هذا المصير .

ونقول وسنقول للعرب ، إنّهم ليسوا أوّلَ شعب نَزَلت به المحن

وهجمتْ عليه المصائب ، فالشعوب كلُّها تُبتَلى وتُمتَحَنُ وتُصاب . بل تلك هي سُنَّة الحياة في الناس والشعوب ، وسنّة الحياة هي سنّةُ الله ، ولن تجد لسنّة الله تبديلا . ولن يتخلّص شعبٌ من بلاياه ولن ينجوَ من محنة إلّا إذا كان صبرُه وتضحياته على قدْر هذه البلايا والمحن . وأمّا الصياح والصراخ والادّعاء ، فإنّها لن تُخفّف شيئاً من العذاب ، ولن تَنصر حقًّا أو تَخذلَ باطلاً . بل هي لونٌ آخرُ من ألوان المصائب ، لا يمنع قليلٌ من حلاوتها تَسرُّبَ زُعافها إلى الأنفس . ولا تَحجب ضجّتُها ما تحمل من رائحةٍ كريهة . وتلك الأمثال موجودة ومضروبة في كلّ بلدٍ من بلدان العالم وفي كل شعبٍ من شعوبه ، وما على العرب إلّا أن يمدّوا أيديَهم ويأخذوا من غير نظرٍ ولا اختيار . ثم ليَرَوْا ويعاينوا أنّه ما من شعبٍ استطاع أن يَعْبُرَ نكباته ومحنَه إلّا إذا شارك كلُّ فردٍ منه في بناء جسر العبور ، بدمه أو ماله أو بجزءٍ من جسده أو بقسطٍ من عافيته ، من غير أن يَمنّ أو يدّعيَ أو يأسف ، وتلك هي موادُّ بناء الجسر وتلك هي وسائله وأدواته . ولن يُقدَّر لكلّ فرد من الشعب أن ينال شرف المشاركة ، إلّا إذا كان على رأس الشعب قيادةٌ حكيمة ، هي من قلبه قطعةٌ ومن دمه قطرة ، تُضحي قبل أن تَدعوَه إلى التضحية ، ويَهون في عينيها كلّ شيء من أجل تخليص الشعب وإنقاذه ، ولا تساوم على الدنيا كلّها ، ولا تَرضى بديلاً عن هويّته وعن تاريخه .

ونقول للعرب وسنقول ، ها هو نصفُ قَرنٍ قد مضى على الفاجعة وهم في تراجعٍ إلى الخلف وفي تأخّر ، والناسُ كلُّهم يَمشون إلى الأمام ويتقدّمون . وهم عندما قالوا لنا ، لقد تقدّمنا وعقدنا العزمَ على ألّا نتراجع ، نظرنا إليهم بشهيّةٍ واستمعنا إليهم بنَهمٍ ، لنعلم صدقَ ما يقولون ، فرأينا أنّهم اليومَ قبلوا قرارَ تقسيم أرض فلسطين بينهم وبين اليهود وهم قانعون وراغبون ، وهم

فرحون بإنشاء دولتين متجاورتين . لكنّ ذلك ليس تقدّماً ، وإنّما هو تراجع إلى ما قبلَ نصف قرنٍ من الزمن . وإنْ شئتَ فقُل إنّه نُكوصٌ على الأعقاب أكثرَ منه تراجعاً ، أو شئتَ فقُل إنّه هزيمةٌ أخرى ، هَراقَ فيها العرب ما بقي من ماء الوجه ، وقدّموا سلعةً كاسدةً ليس من حقّها أن تُعرض ، فلا ثمن لها ولا قيمة في سوق السلع الرفيعة ، وأعطَوْا ما سلم من خيوط مصيرهم إلى العناكب لتَنسج لهم منها بيوتاً على خرابات ديارهم وأطلال شَرَفهم وحياتهم ، فقد كان اليهود ، والغرب معهم ، هازئين بقرار التقسيم الذي صدر في ذلك الحين والذي يقضي بقيام دولةٍ عربية إلى جانبِ دولةٍ يهودية على أرض فلسطين . فهم لا يتصوّرون حتى في المنام ، بعد أن أعلنوا عن ولادة دولتهم أن يرَوْا دولةً عربية تقاسمهم السيادة على هذه الأرض التي يسمّونها أرضَهم وبلادَهم وملكَهم .

فما أشدَّ ذكاءَ العرب ، إذا هُمْ اعتقدوا أو أوهموا الناسَ بالاعتقاد ، بعدَ أنْ شَيّد اليهودُ دولةً على أرض فلسطين أصبحت بها سيّدةَ المنطقة وقائداً لها وموجّهاً ، وبعد أن أخذوا بتشييد دولة أخرى في باطن الأرض ، كيف سيقبلون أن يكونَ للعرب فِترٌ واحدٌ مستقلٌ عليها ، بلهَ إنشاءَ دولةٍ أو حكومة ؟! وهم في كل يوم يتوسّعون ، إن لم يكن في جغرافية الأرض ، ففي جغرافية البشر ، وإن لم يكن في برٍّ وفي بحر ، ففي نفوس الناس وعقولهم ، فكيف يُحبُّ أن يتقلّص من يتوسّع ، وكيف يمنح من يأخذ ويجمع ؟ وإذا كان اليهود هم الذين رفضوا قبلَ نصفِ قَرن قيامَ دولةٍ عربية فلسطينية أخرى بجانب دولتهم على أرض فلسطين لكنْ بلسانِ العرب وبيياناتهم ومظاهراتهم ، فإنّهم اليوم أشدُّ رفضاً وعِناداً وإصراراً لكن بلسانِهم أنفسهم وليسَ بلسان العرب . وأعني أن أقول ، إنّ اليهود هم الذين كانوا وراءَ رفض العرب لقرار التقسيم يوم أن

رفضوه قبل اربعين عاماً ، وإنّهم هم اليوم وراء قبوله ، لكأنّ العربَ قد حُرِموا حتى نعمةَ اللسان والبَيان .

وإذا كان اليهود ، ومعهم الغرب ، لا يريدون للدول العربية المجاورة ، ان تكون اليومِ مستقلّةً بنفسها ، ولا كلمتها من راسها ، بل لا يريدون لها إلّا ان تأتمرَ بأمرِهم وأنْ تنضويَ في خطّتهم وتحت احكامهم ، فكيف يريدون أو يَرضَوْن ان تقوم لعرب فلسطين دولةٌ مستقلّةٌ معهم على ارْض فلسطين ؟ إنّ دولةَ إسرائيل تنظر إلى انّ استقلالَ ايّةِ دولةٍ عربيةٍ هو تهديدٌ لها ، وانّ تقدُّمَ ايّةِ دولةٍ عربية هو خَطَرٌ عليها ، وانّ قوّةَ ايّةِ دولةٍ عربية هو إضعافٌ لها وإنذار بالويل والدمار . ودولةُ إسرائيل ستمتنع عن النوم إذا رأتْ دولةً فلسطينيةً ، جانبُها يمسُّ جانبَها ، ولذلك فهي تحبُّ أن تنامَ هانئةً قريرةَ العين وان تستيقظ نشيطةً مسرورة .

ونقول للعرب وسنقول ، إنّ السلطات العربية لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل بعد مرورِ نصف قرنٍ من الزمن ، ولم يُصبها تحوّل ولا تطوّر . بل ربّما كانت القديمة منها اخفَّ سوءاً من هذه الحديثة واقلَّ تشويهاً وقباحةً . وهذا هو تاريخها المقروء والمنظور ، يتلوه الناس فينفرون وينظرون إليه فيقصعون . كلُّ موقفٍ فيه هو خطوةٌ مفلوجةٌ ، وكلُّ مرحلةٍ هو انتكاسةٌ . والشعب العربي كلُّه هو من حولِ هذه السلطات ، ينظر إليها ويراقبها في حركاتها وأفعالها ، فيفهم منها القليل ويجهل الكثير . وإذا سأله سائلٌ عن رايه بهذه السلطات ، فإنّه لا يُخفي سخطه وحَنقَه عليها ، بل يتّهمها ويشنُّ نقداً لاذعاً وهجوماً شديداً على مواقفها وسير سياساتها . ثمّ إذا سأله عن رضاه بها قائداً وموجّهاً له ، وعن قبوله إيّاها سلطةً عليه ، فإنّه ياخذ بالشكوى ويتعلّل بالضعف والعوز وقلّة ما في اليد من الحيلة والوسيلة ، او يتحدّث ويُطيل في حديثه عن شراسة هذه السلطات

وأساليب استبدادها بالمواطنين ومراقبة حركاتهم وسكناتهم، وزرع فنون الرعب والقمع بين صفوفهم، وكأنَّه بذلك يريد أن يقدّم أعذارَه عن امتناع مواجهته لها، وأن يجد الملجأ الأمين فيحتميَ به وينقذَ حياته ويضمنَ سلامةَ عيشه. أو كأنّه يريد أن يَنفي عنه مسؤولية قيامها واستمرارها، وأن يهرب من أن يكون له يدٌ في حدوثها ووجودها.

ولكنّ أحداً لا يستطيع أن يُصدّق أنَّ هذه السلطات نزلت عليه من السماء، أو أنَّ الأرض انشقّت عنها، فخرجت وتوزّعت في القصور والمقاصير. ومن أين ستأتي، إذا لم تكن قد أتت من هذا الشعب؟ فالشعب العربي هو مصدر سلطاته وهو المورد لها، وهو منبعها وهو مصبُّها. وليس بقادر أن ينكر هذه الحقيقة ولا أن يهرب منها، أنّى ذهبَتْ به سُبُل الإنكار والهرب. وليست أعذاره مقبولةً مهما حاول أن يتأنَّقَ في صياغتها وإخراجها. فلا بدَّ له إذاً من أن يواجه المسؤولية، وأن يقف وجهاً لوجهٍ أمام الاتهام، بل وأن يُصار إلى إدانته وإلى عقوبته وقصاصِه. وأوّل ما نواجهه به هو، أنَّه لا يتوانى عن رشق هذه السلطات بالنقد القارص والهجوم العنيف ورميِها بالتهمة بعد التهمة في أعمالها ومواقفها. وعندما لا يجد الفرصةَ المواتيةَ ليعبّر بلسانه عن حَنَقِه وغضبه عليها، فإنّه يعبِّر بقسمات وجهه ونظراته ومظهره في قيامه وقعوده، وفي مظاهر حياته كلِّها. فكيف له بعد هذا الموقف من سلطاته، يقبل على نفسه أن يراها قيّماً على إدارة شؤونه ومديراً يتصرّف بأحوال عيشه ويُسمّيها حاكماً عليه ووليَّ أمره؟

فإنَّه لا يُخفي سخطه وحَنقَه عليها، بل يتّهمها ويشنُّ نقداً لاذعاً وهجوماً شديداً على مواقفها وسير سياساتها. ثمّ إذا سألَه عن رضاه بها قائداً وموجّهاً له، وعن قبوله إيّاها سلطةً عليه، فإنّه

يأخذ بالشكوى ويتعلّل بالضعف والعوز وقلّة ما في اليد من الحيلة والوسيلة، أو يتحدّث ويُطيل في حديثه عن شراسة هذه السلطات وأساليب استبدادها بالمواطنين ومراقبة حركاتهم وسكناتهم، وزرع فنون الرعب والقمع بين صفوفهم، وكأنّه بذلك يريد أن يقدّم أعذاره عن امتناع مواجهته لها، وأن يجد الملجأ الأمين فيحتمي به ويُنقذ حياته ويضمنَ سلامةَ عيشه. أو كأنّه يريد أن يَنفي عنه مسؤولية قيامها واستمرارها، وأن يهرب من أن يكون له يدٌ في حدوثها ووجودها.

ولكنّ أحداً لا يستطيع أن يُصدّق أنَّ هذه السلطات نزلت عليه من السماء، أو أنَّ الأرض انشقّت عنها، فخرجت وتوزّعت في القصور والمقاصير. ومن أين ستأتي، إذا لم تكن قد أتت من هذا الشعب؟ فالشعب العربي هو مصدر سلطاته وهو المورد لها، وهو منبعها وهو مصبُّها. وليس بقادر أن ينكر هذه الحقيقة ولا أن يهرب منها، أنّى ذهبَتْ به سُبُل الإنكار والهرب. وليست أعذاره مقبولةً مهما حاول أن يتأنّقَ في صياغتها وإخراجها. فلا بدَّ له إذاً من أن يواجه المسؤولية، وأن يقف وجهاً لوجهٍ أمام الاتهام، بل وأن يُصار إلى إدانته وإلى عقوبته وقصاصِه. وأوّل ما نواجهه به هو، أنَّه لا يتوانى عن رشق هذه السلطات بالنقد القارص والهجوم العنيف ورميِها بالتهمة بعد التهمة في أعمالها ومواقفها. وعندما لا يجد الفرصةَ المواتيةَ ليعبّر بلسانه عن حَنَقِه وغضبه عليها، فإنّه يعبّر بقسمات وجهه ونظراته ومظهره في قيامه وقعوده، وفي مظاهر حياته كلُّها، فكيف له بعد هذا الموقف من سلطاته، يقبل على نفسه أن يراها قيّماً على إدارة شؤونه ومديراً يتصرّف بأحوال عيشه ويُسمّيها حاكماً عليه ووليَّ أمره؟

وأيُّ شعبٍ يرى في سلطاته عدوًّا لدوداً ثم يسكت عليها

ويُغضي طرفَه عنها، يستطيع أن يَنفيَ عن نفسِه مسؤوليةَ قيامها ومسؤولية ما تَجنيه وما تأتي به من أعمالٍ وتصرّفات؟ وأيُّ شعب، بل أيُّ إنسان يرضى أن يضع صخرةً على صدره، فلا يعود قادراً على دفعها عنه ولا على الخروج من تحتها، ثم يصرخ ويسألَ الغوث والنجدة، ثم يحاول أن يرفعَ عن نفسه مسؤولية ما هو فيه، ولا يحاول أن يرفع الصخرةَ عنه، ويستعينَ بالناس على رفعها؟ إنَّ الشعب العربيَّ كلّه متَّهمٌ وكلُّه مُدان في سكوته وقعوده، وخلوده إلى التأميل بما يشتهي وبما لا يشتهي وإلى التحدّث بما يحبّ وما يكره. وهو مسؤولٌ مثلَ السلطة عن كل ما يحدث من الدقيق والجليل في وقائع بلاده وما يجري فيها من التقديم والتأخير وما يجري عليها من خيرٍ وشرّ. وكلّ ما يوجّهه إلى السلطة من نقدٍ قارصٍ فينبغي أن يوجّه مثله إلى نفسه، وكلُّ ما يَرميها به من تُهمٍ فعليه أن يأخذ قسطه منها، وما يُلقيه إليها من أحمالٍ فعليه أن يُشركها في حَملها والنهوض بها.

ونقول للعرب وسنقول، إنَّهم باقون على ما هم عليه من اكتظاظ النكبات والفواجع، ومِنَ الاضطراب والتصدّع وتفرّق الكلمة وتشتّت الشمْل ومن التخلّف واستخفاف الشعوب بهم وازدرائهم لهم، ما دامت هذه السلطاتُ الجائرةُ البائرةُ قائمةً على إدارة أمورهم وتوجيه مرافق حياتهم وقيادة سياستهم في الداخل والخارج. وستبقى هذه السلطات ما بقي الشعب قانعاً بحاله التي هو عليها من السكوت والتفرّج، ومن القعود، ينتظر الملائكة تتنزّل عليه وهي تحمل سيوف التأديب، فتأتي بالسلطات وتؤدّبها تأديباً تُغيّرها به أو تُزيحها من أمكنتها، ثمّ تأتي باليهود والغرب معهم فتؤدّبهم أيضاً وتستخلص منهم الحقوقَ الضائعة، وربّما أبادتْهم. ثمّ مالتْ إلى الشعب العربي وحملته على رفارفَ من نور وذهب وحرير،

وورّعته في الأرض العامرة الخضراء وقالت له : هذه هي الأرض التي وُعِدتَ بها أن ترثها ، فخُذْهَا وتَمتّع بما أسلفتَ في الأيام الخالية من صبرٍ وتَعَبٍ ودأبٍ وعودةٍ إلى الله .

ومن يصدّقني إذا قلت إنني لَقِيتُ من فقهاء العرب المسلمين ممّن لهم شأنهم وكلمتهم ، قد عَرف كيف يفتح فمَه ويمدُّ لسانَه ويقول : لماذا نُعذّب نفوسَنا ونُجهدُها في طلب العلم والعمران ، وقد خلق الله لنا الغرب ومن فيه وما فيه وسخّره لخدمتنا ، فهو يتعب ويتعنّب وينشط في خلق الآلات وتحضير المخترعات ، ونحن قاعدون هانئون ، نستريح إلى صلواتنا وعبادتنا ونقضي صيامنا ونقرأ القرآن ونناجي خالقنا ! فلا عجب إذا وُجد هناك من يعتقد منهم بنزول الملائكة على الوجه الذي ذكرنا لكي تنقذَ العربَ من محنتهم القاسية وتتسلّط على أعدائهم الظالمين فتُبيدَهم وتمحقَهم . ولا عجب إذا سخّروا لذلك القرآن المجيد وقارنوا بين حالهم اليوم وبين حال المسلمين في بدرٍ وحُنَين ، يومَ نزلت عليهم الملائكة فظاهروهم على العدوّ وأيّدوهم وشاركوهم حتى انتصروا ، وردَّ الله الأعداء بغيظهم مهزومين مدحورين . فمن أين للشعب العربي أن ينتظر تحسين أحواله ، إذا لم يَنهض هو بنفسه إلى تحسينها ؟ وهل نهوضُه إلا ثورتُه ، وكسرُ القيود التي تقيّده ، وتهديمُ الجُدُر المضروبة من حوله ، لينطلقَ ويصير حرًّا بعد هذه العبودية التي رجمتْه بها القوى المستكبرة العاتية ، فمسختْه وعادَ مشوَّهاً ، لا يهتدي إلى شكل يظهر به ولا إلى معنًى يُطلعه ويسوق إليه .

ولست أدري ، لماذا يمتنع الشعب العربي عن القيام بالثورة التي هي دربُه الأوحد لاسترجاع نفسه من الضياع وتعزيز حقوقه ، والتي قامت بها شعوبُ الأرض كلّها ؟ إنّه يُرمَى بالويلات من كلّ جهة ، ويُرشَق بالمحن من كلّ صوب ، فسلطاتُه القائمة عليه تنسفه

بالحيل والغش والخديعة ، وتطرقه على رأسه وصدره بالتآمر مع الغرب وتَعرضه للبيع في أسواق العالم . ومثلَها تفعل به القوى الكبرى ، فهي تتقاسم ارضه فيما بينها ، وتتوزَّع خيراتِه وثمراته البادية والخافية ، فتفوز كلُ قوّةٍ منها بنصيبٍ يرضيها ، وتختص كلُ واحدةٍ منها بطرَفٍ من ابنائه ، تُنَشّئهم على هواها وتستخدمهم في اغراضها . فإذا كان يخاف على جلده من قيامه بالثورة ، فإنّهم قد سَلخوا جلدَه سلخاً ولم يبقَ فيه محلٌ ، إلّا وفيه طعنةٌ من العدو او ضربةٌ من السلطة . وإذا كان يخاف من العذاب والأتعاب والمشقّات ، فإنّه لن يلاقيَ اكثر ممّا يلاقيه ، ولن يعانيَ اكثر ممّا يعاني منه . وإذا راح يخشى من تَضحيات جسام سيقدّمها ، فهو يقدّم في كلِ يوم ما يضنُّ به وما يخشى عليه ، من تضحيات جسام ، ولا يدري بذلك ، وهي كلُها تذهب في الرياح ، لا خير له فيها فيعود عليه ، ولا اجر له عليها ينتظره بعد موته .

ولست ادري كيف يفهم الشعبُ العربي هذه الاستكانةَ القابعةَ في نفسِه ولا ماذا يرى فيها ؟ فإذا هو فسّرها أنَّها قضاءٌ من الله عليه ، فمن قضاء الله عليه أن يسعى للتخلُص من هذه الاستكانة ، ومن قضائِه أنَّه إذا ابتلاه ان يَدلَّه على طريق النجاة من بلواه ، فلماذا يعاني الإنسانُ من البلوى ولا يرى طريقَ النجاة منها ؟ وإذا فسّر الشعبُ العربيُ أنَّ الاستكانة هي لون من ألوان الصبر على المكروه ، فقد بات هذا الصبرُ عليها مكروهاً اشدَ منها ومُصيبةً مثلَ المصائب الأخرى . وإذا قال عنها إنَّها وجهٌ من وجوه السلام ، فأين هو السلام فيها وهي خَطَرٌ يتهدّده ومَرَضٌ يحتُ به ويقرضه كلَ يوم ؟ وإذا فهمها أنَّها استراحةٌ إلى المِتَع واللذّات ، فأيّة مِتَعٍ هذه التي يُصيبها ومن حولِها الفُ منغّص ؟ وأيّةُ لذّات هذه التي يتلذّذ بها ، وبجانبها الفُ لونٍ من ألوان النكد والوصب ؟ لقد أعيَتْه الحيل في تفسيرها

وفيها، ولم يبقَ إلّا أنّها ذلّ تَعوّده، ومهانةٌ أنِسَ بها، وخنوعٌ ألفه. والشعب العربيُ وفيٌّ لما يألفه لا يفارقه ولا يخونه. ولا أشكّ بأنَّ الشاعرَ العربيَّ الكبيرَ أبا الطيّب كان ينظر إلى شعبه الكبير حين قال:

ذَلَّ من يَغبِطُ الذليلَ بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ مِنْهُ الحِمامُ

ومهما خشيَ الشعبُ العربيُ على نفسه وأفرطَ في الخشية، من قيامته إذا قام ومن ثورته إذا ثار على ظلم سلطاته، فإنّه لن يدفع بخشيته مضرّةً ولن يُخفّف من وقوع محنة. وهو في خشيته سيُلاقي من المشقّات والعذاب مثلما سيُلاقي إذا تحرّك وثار وانتفض وربّما أكثر. وسيُعطي من التضحيات ويقدّم من ألوان الفداء مثلما سيُعطي ويقدّم إذا أقدم على الثورة وتمرّد على العُتَاةِ المستبدّين وربّما أكثر وأكثر. وإذا رأى أنَّ الدنيا كلَّها أرضَها وسماءَها قد أدلهمّتْ في وجهه وأنَّ أشدَّ أنواع الكيد وأمرِّ ألوانِ الفواجع قد أحاطت به، فلا ييتئسْ آنذاك ولا يخشَ، فبقدر ما تكون التحدّيات كبيرة بقدر ما يكبرُ العزمُ معها وتأتي النتائج كبيرة والمواسمُ فيّاضة طيّبة. ولا نعرف شعباً من الشعوب إلّا ولاقى من الويلات والكوارث والنوازل مثلما لاقى الشعبُ العربي، بل أكثرَ وأدهى. لكنّنا لا نعرف شعباً واحداً منها سكت واستكان كما سكت الشعبُ العربي واستكان. وها هي كلُّها أمامنا. منها من نُجّيَ من أيام العسرة وراح يقطف ثمارَها ويتنعّم بنعيمها، ومنها من هو على طريق النجاة ينتظر بزوغ فجر النصر الذي ظهرت عليه أوائلُه وخفقتْ بشائره.

ولا يزال محفوظاً في خاطري، أنّني قلت يوماً أمام أبرز عناصر القيادات الفلسطينية: عندما يستطيع العرب أن يرتفعوا بالقضية عن مستوى خلافاتهم ونزاعاتهم الفردية والشخصية، فقد

عرفوا بداية الطريق. وعندما يعيش الشعب الفلسطيني بين العرب معزولاً عنهم إلّا فيما يرفد القضيّة ويخدمها، فلا يمسُّ قانون البلاد التي يوجد على أرضها، ولا يتعرّض لشؤون سلطتها ولا يتدخّل بينها وبين الشعب، وكذلك شأن سلطة تلك البلاد، لا تنتهز الفرصة وتجعل من هذا الشعب الضيف تجارةً لها أو بضاعةً تبتغي الربح من ورائها، أقول عندما يكون ذلك، فتلك خطوة ثابتة واثقة على الطريق. وقد نفذ هذا الكلام إلى قلوبهم وأخذَ موقعَه الكبيرَ عندهم، ولم يكن جوابهم عليه إلّا أن أظهروا أسفهم، وقالوا إنّه حلمٌ من الأحلام التي لن تعرف في حياتها السبيل إلى الواقع. فقلت: ونحن إذن سنبقى في الحلم ولن نخرج منه إلى الواقع.

وإذا هم اكتفوا بأن يكون جوابهم الأسف، فنحن نقول لهم وسنقول: كما أنّه حقٌّ بالطبيعة أن يتنفّس الإنسان الهواءَ، فكذلك حقٌّ بالطبيعة لكل فلسطيني أن يدخل البلد العربي الذي يشاء وأن يرى فيها بلدَه وفي أهلها أهلَه، وأن يعمل ويعيش بالقانون الذي يعملون ويعيشون، ولا فرقَ في ذلك ولا تمييز. ولكن لا نرضى لأيّ فلسطيني أن ينسى وطنَه فلسطين أو يتناساه وأن ينشغل عنه أو يتشاغل، مهما تقلّبتْ به الأحوال وكيفما لعبت به الأوضاع. وليس في هذا الكلام ما يبعث على الحيرة، وليس فيه ما يجرّ إلى الدهشة، فنحن ما قصدنا أن يذكرها في قلبه وعلى لسانه، وأن يسرد ذكرياته فيها، ولكن قصدنا أن يتجسّد ذكره لها في خطّةٍ وعزمٍ وفي تنفيذ وتأثير. وكلّ ذِكْرٍ لا يرتبط بواحدة من هذه المراحل الأربع أو لا يمتُّ إليها بسببٍ أو انتساب، فهو ثرثرة لا طائل وراءها، وكلامٌ مطليٌّ بالرياء، يُراد به استدرار العواطف وحلب القلوب.

وللإيضاح أكثر نقول، إذا نحن رأينا أنّه حقٌّ لكلّ فلسطيني

أن يُقيم في البلد العربي الذي يشاء ، فينبغي أن يرى هو أنَّ إقامته هذه مؤقتة ، وأن عليه أن يختمها بإقامة دائمة في وطنه فلسطين إمّا سكناً وإمّا قبراً . وإنّه حقٌّ على كلّ فلسطيني أن يؤدي الضريبة من ماله ومن دمه ومن أولاده ، وأن لا يُترك ذلك لاختياره يؤديه متى يشاء على هواه ، فذلك شأنٌ من شؤون القيادة التي ينبغي أن تنبع من قلب الفلسطينيين ومن ضميرهم . فهي مسؤولة أن ترعى مواطنيها وأبناءَ شعبها وأن تلاحقهم ملاحقةً لجباية هذه الضريبة وهذا الخراج الحقّ بالاتّفاق مع الدولة العربية المضيفة وبقانون يصدر عنها ، حتى لا يوجد من يتأخّر عن دفعها أو يتأفف أو يتقاعس . وشأنٌ من شؤونها أن تكون على ارتباطٍ مع كلّ عائلة تعيش على أرضٍ عربية أو أرض أجنبية فتتفقّدَها وتُشرف على تربية أبنائها عسكريًا ووطنيًاً ، وتأخذَ منها الحقَّ الفلسطيني طوعاً أو كرهاً . أقول ذلك ولا أنسى أن أضع يدي على وجهي حياءً من عائلات فلسطينية ، لاقيتُها في أوروبا ، شمخت بأنفها لغير سبب ، ولا يدري الأبناءُ فيها خَبَراً عن قضية فلسطين ، ولا يعرفون ماذا حدث لشعبها وأرضها . وإذا ذُكّروا بها فإنّه سيّان عندهم أن ينتسبوا إليها أو لا ينتسبوا ، وهم لا يسرّهم أن يسمعوا العربية وأن يتكلموا بها .

وأقول ذلك وأنا أدوس أنوف أمثال هؤلاء الفلسطينيين : أين أنتم من الأرمن الذين يحرصون على كل شيء مهما كان صغيراً يتعلّق بتاريخهم وقضيّتهم ويتوارثونه أكثرَ من المال والمتاع ؟ وأين أنتم من اليهود ، لتعلموا كيف كانوا يصنعون قبل دخولهم فلسطين ، وكيف يصنعون الآن بعدما دخلوها ، إنّهم يتوارثون معرفةَ أصولهم وتاريخهم وأهدافهم بإصرار عجيب لا مثيل له . وهؤلاء هم أنصار الأمير سيهانوك وأتباعه ، ألا تنظرون إليهم لتروْا ماذا يفعلون وكيف

يتصرّفون؟ وهكذا الشعوب كلُها تحيا، وهذا هو حقّها.

وإذا وجدَ الفلسطينيون أنَّ من حقّهم ان يتدخلوا في الشؤون الداخلية الخاصّة للبلد العربي الذي ينزلونه، فإنَّ سلطةَ هذا البلد سترى ذلك منهم تجاوزاً لحدودهم المرسومة واعتداءً على سيادتها، وسترى انّ سكوتَها عن الأخذ على أيديهم سيورثهم إمعاناً في التجاوز وسيضع من هيبتها في أعين المواطنين، وسترى نفسَها عندئذٍ مرغمةً على اتّخاذ التدابير التي تمنع تدخُلَهم وتعيدهم إلى الحدّ المسموح به. وهذا لا يحدث دون أن يُخلّفَ وراءه عواقبَ غير محمودة ونتائجَ لا تبعث على السرور والرضى، إنْ كان بين السلطة وبين الفلسطينيين أو بينهم وبين الشعب. ونحن إذا عزفنا عن استحضار أمثلة لهذه الحالات المشهودة المعروفة، فلأننا لا نريد أن نحرّك شيئاً في النفوس ينبغي أن يظلّ ساكناً. وماذا يجني الفلسطينيون من انشغالهم في الشؤون الخاصة للبلد الذي يقيمون فيه، إلّا أن يفتحوا بينهم وبين سلطة البلد وشعبه، وهم عربٌ وإخوان لهم، جبهاتٍ جديدةً تُلهيهم عن الجبهة الكبرى مع العدوّ، وتخلق لهم قضايا، تَصرفهم عن قضيّة القضايا وفتنة الدهر؟

وإلى جانب مثلِ هذه الحال نرى حالاً اخرى، ليست بأقلّ منها خطورةً على الفلسطينيين وعلى العرب جميعاً. واعني بها أنّ السلطة في البلد الذي ينزله الفلسطينيون، تعمد إليهم فتجمعهم وتؤسّس منهم منظّمةً عسكرية، تجعل على راسها قيادةً منهم خاصّة بهم، تُشرف على تنظيم أمورهم وتدريبهم. ثم تتحدّث السلطة باسمهم وتتكلّم وتنادي، على انّهم وجهُ الفلسطينيين ودرعُهم وأملُهم. وما هي إلّا فترةٌ بسيطة حتى تنكشفَ لأعيننا الخطّةُ والغايةُ التي وراءها، وإذا بالسلطة تدفع هذه المنظمة الفلسطينية لتقتتل مع منظّمة فلسطينية اخرى في بلدٍ عربي آخر،

سلطته ليست على وفاقٍ مع هذه السلطة . أو تعمد إلى توزيع عناصرَ منها وزرعِها في بلدانٍ معيّنة عربية وغير عربية ، يهمّها أمرها ، وتأذن لهم بتدمير منشآت أو اغتيال شخصيّات ، أو تخريب أمكنةٍ متفرّقة هامة ، أو إلقاء متفجّرات في مناطقَ تغصُ بالقاطنين الآمنين ، لتبدلهم بأمنهم رعباً وقلقاً ، وأحياناً يُؤْثِرون على ذلك الهربَ والهجرة . وفي كلّ مرّةٍ تقتتل فيها منظّمةٌ مع منظّمة أخرى ، أو تقوم منظمة تابعة لسلطة عربية في بلد عربي ينافسها بزرع متفجّرات واغتيال أشخاص ، فإنّ البيانات عن المعارك وعن إصابة الأهداف وتحقيق المبتغى المنشود تملأ الدنيا وتقوم وتقعد بين الناس ، وكأنّهم أصبحوا على أبواب معارك التحرير ، وكأنّهم ظهروا على عدوّهم وسوّيَتِ القضيةُ وعادت الأرض إلى أصحابها .

وهناك قول يَجيش في صدري لا أستطيع عنه سكوتاً ، ويَغلي في خاطري لا أطيق له دفعاً وردًا ، أريد أن أبُثّه إلى الفلسطينيين وأوثرَهم به . ولا يهمّني إنِ اعتبروا هذا الإيثار وقدّروه أو لم يعتبروه ولم يقدّروه ، وسيّان عندي إنْ أغضبهم هذا القول أو أرضاهم ، فأنا لا أغضب لغضبهم ولا أرضى لرضاهم . أقول ، ليس لهم عدوٌّ في الشعب العربي من الماء إلى الماء إلّا السلطات العربية والزعامات العربية . ومهما جَهرت لهم هذه السلطات والزعامات بالقول وأعادته على الأسماع ، من أنّها معهم في قضيّتهم وأنّها تسعى جادّة دائبة إلى تحرير أرضهم ، فليس ذلك منهم إلّا حِيَلاً وخِدَعاً ، وما هو إلّا تخديرٌ ولعبٌ وتسلية . إنّها لا تملك شيئاً وليس بيدها شيء ، حتى إنّها تقول ما يقال لها ، وتقوم متى يُشارُ لها وتقعد متى يؤْذَن لها ، وهي مزروعةٌ بيدٍ غريبة ولن تُعطيَ إلّا الثمرَ المرَّ الغريب . وضعوها وضعاً وأحضروا لها ألف طلاء وألف صباغ ، وكلّما انمحى طِلاءٌ أتبعوه بطلاء ، وكلما تحاتَّ صباغ

جدّدوه بآخر، ليس لها عمل إلّا رعايةُ مصالح من وضعوها وخدمتُهم وتلبيةُ رغباتهم، وإلّا قتل هذا الشعب العربي وتشتيت كلمته وتبديد طاقاته ومواهبه. ولا بأس على هذه السلطات، بعد ذلك، إذا هي مَثَّلَتِ القضية الفلسطينيةِ وتكلمتْ باسم الشعب الفلسطيني وراحت تفاوض من أجل إقامة سلام عادل ودائم.

ولست أدري إن كان قد بقي هناك وقتٌ لكي يحزم الفلسطينيون أمرَهم ويجمعوا كلمَتهم، ويصيروا قوّةً واحدة، فلا يتحركون إلّا نحو حقوقهم ولا يتّجهون إلّا صوبَ أرضهم. ويسعَوْن سعيَهم الحثيث لإقناع السلطات العربية بعزل الفلسطينيين أينما نزلوا وحيثما حلّوا من أرض العرب، عن المنازعات الشخصية والخصومات المحلية الضيّقة التي تنشب بين هذه السلطات. ثم تتّجه القيادة الفلسطينية إلى ابنائها ورعاياها فتحذّرهم من الخوض في القضايا الخاصة للبلدان العربية التي يقيمون فيها، ومن الانزلاق إلى مشاغبات وأحداث تُعكّر عليهم صفوَ عملهم وتَزرع الشكوك فيهم وفي قيادتهم، وتترك حبلَ عيشهم مضطرباً لا استقرار فيه. فما دام الفلسطينيون تتوزّعهم السلطات العربية فيما بينها، بحيث يكون لكل سلطة نصيبها منهم، تَحلّ معهم من الأمور ما لا تحلّه سلطة أخرى وتعقده من الأمور، فإنهم لن يتقدّموا خطوة واحدة على الطريق إلّا إلى الوراء، ولن يتغيّروا إلّا إلى الخلف، ولن يتطوّروا إلّا إلى الأنحسِ والأسوأ.

ونحن لا نختلف أنّ فاجعة فلسطين هي فاجعة العرب كلِّهم، قبلوا ذلك أم رفضوه، وشاؤوا أم أبَوْا. ولن يكون للفلسطينيين بمفردهم دورُهم المؤثّر في معارك الحرب أو في معارك السلام دون العرب، وليسوا شيئاً في نظر القوى الكبرى، إذا لم يكن العرب بجانبهم يناصرونهم ويُعزّز بعضُهم بعضاً. ولكنّ الفلسطينيين هم

طلائع العرب، وهم القذيفةُ الأولى، وما لم تنطلق هذه القذيفة وتؤثّر، فإن القذائف العربية الأخرى لن تنطلق، وإذا هي انطلقتْ فإنها لن تؤثّر. وإنّ ما يصنعه اليوم عربُ الأرض المحتلة، منذ نيّف ثلاثة أعوام من مواجهة الأسلحة المدمّرة بالمقالع والعصي والحبال والأيدي والصدور، هو عملٌ فيه بطولة وتضحية، ولا يجوز أن يُستهان به، لكنّه هو القذيفة التي ستفتح بابَ النصر وتوقظ الأحلامَ من نومها العميق.

وارتّد هنا ما كنت قد ذكرتُه في مكان آخر، إنّ هذه الانتفاضة لن تقود إلى نتيجة مُرضية، ولن يكون لها شأنُها كما يريد لها أصحابها والقائمون بها إلّا إذا قامت انتفاضة شعبية في كل قطر مجاور للأرض المحتلة، تقوّم ما اعوجّ من السلطة فيه أو تستبدلها بالتي هي خيرٌ وأحسن. ولو لم تكن السلطات العربية قد اطّلعت من المصادر العليمة على ما وراء هذه الإنتفاضة وعلى احتوائها وما ستنتهي إليه وأنّ خطرها لن يقترب من هذه السلطات، لم تصدر عن رأي فيه تأييد لها وتدعيم لنشاطها وتحريض على استمرار صمودها.

وما أسهل على القائلين أن يقولوا وعلى المحلّلين أن يحلّلوا، ثم ما أفزعَهم عندما ينجلي لهم الواقع على حقيقته وتنكشف لهم الأمور عن صراحتها. إنّ حِبرَ أقلامهم سيجفّ والسنتَهم ستنعقد وأوراقَهم ستذوب، عندما يقرأون الواقع العربي بأبصارهم وليس في السطور بين الصفحات، وينظرون وكأنّهم لا ينظرون ويفهمون وكأنّهم لا يفهمون. ونحن الآن صفحةٌ أمام صفحات هذا الواقع، فبينا نحن نقرأ فيها، أنّ السلطات العربية تنادت واجتمعت وشمّرت عن عزمها لتبدأ مرحلةً جديدة، تسعى فيها إلى تحسين أوضاع الفلسطينيين في معيشتهم وتنظيم صفوفهم وتزويدهم بالمال

والعدّة ، ثم تَنشط من جهةٍ أخرى في عواصم الدول الكبرى وتجتهد لتفوز باقناع شخصيّاتها البارزة وإدارتها الفاعلة على أن تعير الحقُّ الفلسطيني عنايتَها وتفي بوعودها في الإنصاف وإحقاق الحقّ ، بينا نحن نقرأ ذلك فتشعّ فينا الفرحة والأمل ، وإذا بإعصارٍ يتحرّك ، ولا نعرف كيف تحرّك ، ولا من أين تحرّك ، يقود الفرقاء الفلسطينيين إلى اقتتالٍ حادّ يدمّر فيه بعضهم بعضاً ، فترى القتلى منشورةً ومصفوفةً في الطرقات وعلى الميادين مثلما تُعرض الفواكه والخضار في عزّ الصيف . وتتحرّك النخوة والغرور في رؤوس السلطات العربية فينقادون إلى التعارك والتهاتر ، وينساقون إلى بث الكيد ونصب الحيل وإلى زرع المتفجّرات في الأسواق والمدارس ودور العجزة والمكفوفين ، وإلى الاغتيالات الغادرة الرخيصة ، وإلى غير ذلك ممّا لا يُطيق العقلُ تصديقَه .

وننظر إلى انفسنا أنّنا أصبحنا حقًّا في المرحلة الجديدة التي تنادَتِ السلطات العربية إلى إنشائها وإحيائها . فالجنون فيها جديد ، والحماقات والتآمر والانحطاط والابتذال ، كلُّها سلع رخيصة جديدة . وإذا نحن سعَيْنا إلى تفكيك رموز ما حدث ، فإنّه يتبيّن لنا أنّ ما صنعته هذه السلطات هو فصل قصير وصغير من مسرحية طويلة وكبيرة ، تهدف إلى تضييع قضية فلسطين وإلى توهين الفلسطينيين وتضعيفهم وإنزالهم إلى أمر المساومة وإلى السخرية من العرب والضحك عليهم وعرضهم لُعَباً في أسواق العالم . ولا نبالغ إذا قلنا ، إنَّه في الشهر الواحد ، بل في الأسبوع ، يُؤلَّف فصلٌ من فصولِ هذه المسرحية ويَجري عرضه أمام العالم ، فيتجدّد للعالم نشاطه وتتجدّد عنده المتعة واللذّة . وأما عند العرب فإنّها المأساة هي التي تتجدّد ، والخيبة المريرة والعذاب المرير هما اللذان يتجدّدان .

وإذا كان أمر العرب كلّه كذلك ، وكان واقع سلطاتهم لا يختلف

في أوله ولا في أوسطه ولا في آخره عن هذه الصفحة التي عرضناها، فكيف رحنا نرشق الفلسطينيين باللوم والعتاب على تقاعسهم عن العمل من اجل القضية وعن تحرّكهم تحرُكاً نشيطاً فعّالاً نحوها؟ وإذا كان لنا حقٌ أن نردَّ على انفسنا، فإننا نقول: سوف لن نخفِّف من اللوم والعتاب، بل سنجدّده ونزيد في حدّته. الا يكفيهم أن يرَوْا مائةَ فصل ومائتين وخمسمائة من فصول هذه المسرحية التي يؤلّفها ويُخرجها العرب، والتي يمثّل أدوارَها زعماء العرب وسلطاتهم حتى يفهموا انّهم هم الذبيحة في العيد والذبيحة في العرس والكبشُ الذي يُرَبَّى ويُسمَّن لتتزيّن به موائدُ الزعماء والسلطات كلّما اقدم عليهم مفاوض من الغرب أو مقاول سمسار؟ الم يكن في مشاهدة الفصول العَشَرَة الأولى من هذه المسرحية ما يكفي دليلاً ويقومُ برهاناً على تواطؤ هؤلاء الزعماء والسلطات وعلى خسّتهم ولعبهم بمصير الشعب الفلسطيني وحقوقه ومقدّراته؟ وكيف تقبل قيادةُ الفلسطينيين على نفسها أن تأخذ منهم المالَ وهو مبلّل بدماء ضحاياهم وقتلاهم؟ وهل دَرَوْا انّهم لم يأخذوا في مدّة عمرهم من المال إلّا بقدر ما اخذته عاهر من عواهر هؤلاء الزعماء والسلطات؟ وانا اعلم انّهم سيقولون: لا بدَّ لنا من المال لنعيش ونتزوّدَ بالعُدّة والقوّة، ولا بدَّ لنا من التعايش مع هذه السلطات القائمةِ على شعب هو امتدادٌ لنا وارض هي امتدادٌ لأرضنا. وإذا كان في هذا الكلام ما يُعطيه الحق ليُسمع ويُقنع، فإنَّ هناك من الأقوال والأقوال الكثيرة، ما هو اكبر منه قوّةً وأشدُّ سطوعاً وإقناعاً.

واكتفي بعرض واحدٍ فاقول: إنّ معركة الفلسطينيين هي مع السلطات العربية صاحبةِ الثراء الفاحش ومع مُلّاك الثروات الطائلة من زعماء العرب اكثرَ ممّا هي مع إسرائيل والغرب. فالغرب

وإسرائيل لا يتظاهران بأنّهما يسعَيان إلى سحق الفلسطينيين والعرب وإلى محقهم وإبادتهم ، ولا يَهمّهما إلّا حمايةَ أمنٍ ومكاسبٍ لهما . أمّا الذي يتولّى الإشراف على خطّة السحق والمحق فهي السلطات العربية والزعماء العرب ، بأساليبَ لا يجهلها أحد ووسائلَ لا يكاد ينجو منها أحد . فهذه وهؤلاء لا همٌّ لهم إلّا تشديدُ القبضة على السلطة وتجميعُ الأموال وتكديسها ثم الانصرافُ إلى معاقرة المتع ومواثبة اللذّات . وكيف يدوم لها هذه الحال إذا رفع العرب رؤوسهم وأرادوا لينظروا الواقع الصحيح ، أو إذا شاغب الفلسطينيون لينالوا شيئاً من حقوقهم ، يتساوون بها مع أفقر البشر في المأوى والملبس والمطعم ؟ فلا بدَّ إذاً من حمل المطرقة لكي تبقى دائماً رؤوس العرب مطروقةً مطموسة ، ولا بدَّ من سحق الفلسطينيين ومحقهم لكي يَكفّوا عن الشغب . وليس شرطاً في الطَرْقِ وفي السحق والمحق أن تسيل الدماء وأن تنفصل الرؤوس عن الأجساد . أليس في قتل المواهب وخنق الأفكار وقمع الأرواح والنفوس ما هو أمرُ نكالاً من إسالةِ الدماء وأدهى عذاباً من قطع الرؤوس ؟

ولا أريد أن أردّد هنا من الأقوال ما هو مسؤول وما هو غير مسؤول ، من أنَّ السلطات العربية هم ولاةٌ يأتي تعيينهم من إسرائيل ومن الدوائر السياسية الغربية . ولذلك فهم لا يقولون إلّا ما يؤذن لهم أن يقولوه ولا يفعلون إلّا ما يؤمرون به . ولكنّني أقول ولا أتردّد فيما أقول ، إنَّ الغرب استطاع أن يُفلح في ترتيب أوضاع السلطات العربية ترتيباً ، لا تتقاطع فيه مصالحها مع مصالح إسرائيل بل تجتمع وتتوحّد ، ولا ينفصل فيه أمنُها عن أمن إسرائيل في حالٍ من الأحوال ولا يختلف عنه في شكل من الأشكال . وربّما كان من أهمّ ما يُوفّق بينهما ويقرّب أحدهما إلى الآخر ، هو أن لا تتفتّح روح التفكير في الإسلام ، وأن تظلّ على الحال التي يريد لها

الطرفان أن تظلّ عليها. ومنها أن تبقى الثروات الطائلة محصورةً في سلطات معيّنة ومتقاسَمةً منهوبةً بين زعماءَ وأمراءَ معروفين، ويحظَّرُ عليهم أن يسرّبوا منها إلى جمهور الشعب العربي إلّا القوت الذي يَردّ عنه الموت، ومنها افتعال الأزمات والأحداث لتشويش العلاقات والارتباط بين العرب وبين قضية فلسطين تشويشاً يُؤثِرون معه، أن يتنازلوا عن اي حقّ لهم فيها، أو أن يكتفوا بأيّ نصيب يُرمى إليهم منها، ولا يسألون بعد ذلك عن الفلسطينيين وعن حقوقهم، ولا يهتمّون بما يؤول إليه مصيرهم.

ولو أنَّ قيادات الفلسطينيين تبصّروا منذ بدء التنظيم وإعلان الكفاح المسلّح والثورة الراعفة الحمراء، وتريّثوا قبل الوقوع بين الغام الأعطيات والتبرّع بالمال والمعونات من السلطات العربية الغنيّة، ولو أنّهم لجأوا إلى الأساليب الكثيرة التي لا يجهلونها، والتي منها استلالُ الزعماء والأمراء والمتسلّطين من أنفاقِ متعهم استلالاً وانتشالَهم من دهاليز شهواتهم انتشالاً، لو أنّهم فعلوا ذلك، لأصابوا من المال أضعافَ ما أصابوا على قوّة واعتزاز، ولخفّفوا عنهم كثيراً من الويلات، ولكانوا أرغموا الغربَ على أن يتّخذ موقفاً إلى جانبهم يُفضي بهم إلى إيجاد حلٍّ وتسويةٍ في نزاعهم مع إسرائيل.

وليتَ شعري! هل لا يزال هناك وقتٌ لاستدراك هذا الزلل الذي وقع سهواً أو عمداً؟ وهل بقي في اليد حيلةٌ تقدر على استرداد ما ضاع من الفُرص أو على اصطناع فرصٍ جديدة تبعث النارَ في الرماد.

ح - إسرائيل

يَحدث لي أحياناً إذا ذكرتُ إسرائيل، أن تَخطر ببالي قصّةٌ شيّقةٌ شهيّة، تقول: إنَّ تاجراً فارسيًا، كان على جانبٍ كبيرٍ من الثراء والغنى، حمل تجارةً واسعةً متنوّعةً وسار بها إلى بلاد الصين والهند، وكانت مرغوبةً من الناس، فباعها كلَّها وجنى منها أرباحاً طائلة. ثمّ إنَّه حزم أمتعتَه وقرَّر القفول إلى بلاده، وهو ينوي أن يعود يوماً بالتجارة نفسها مرَّةً أخرى. وفي الطريق تَجمهَر اللصوص وانقضّوا عليه، وأخذوا ما كان معه من المال المكنوز كلِّه، وكان قد وضعه في أكياسٍ ربَطها ربْطاً محكَماً، ولمَّا رأى هو ومن معه أنَّهم لا طاقةَ لهم بهؤلاء اللصوص، وقف واسترحمهم وناشدهم أن يَردّوا عليه الأكياسَ فارغةً، إذا هم أصرّوا أن لا يردّوا عليه شيئاً من ماله. فعَجِبوا لهذا الطلب وتأثّروا له تأثُّراً دفعهم إلى استجابته والنزول عندَه، فأفرغوا الأكياسَ ممّا كان فيها وأعادوها إليه. ولمّا وصل إلى داره راح يُحدِّث أبناءَه وأهلَ بيته عمّا لقيَه في سفره هذا وما جرى له مع اللصوص. وفرش الأكياسَ أمامَهم، وكانت كثيرة، وكلّما تناول كيساً منها نظر إليه بحسرة وتنهَّدَ وذكرَ ما كان فيه. فمنها ما كان يحوي ذهباً أحمرَ، ومنها ما كان يضمُّ ذَهباً أصفرَ، ومنها ما كان فيه عقيق، ومنها ما كان فيه لؤلؤ وزمرّد، ومنها ما كان يحوي ياقوتاً وعسجداً. ثم إنَّه علَّقها مصفوفةً بعضُها بجانب بعضها على الحائط، وصار ينظر إليها كُلَّ يوم، ويَعدُّها، ويذكر ما كان فيها من المال والجواهر المكنوزة، وهكذا إلى أن مات. واحتفظ أولادُه من بعده بالأكياس، وأخذوا يصنعون مثلما كان يصنع، ويُردِّدون من القول مثلما كان يردِّد. وزادوا عليه في القول قولَهم: إنَّ هذه الأكياسَ صُنِعَتْ من معدنٍ وُجِدَ

مرّةً واحدة على الأرض ثمّ اختفى. وجاء من بعدهم الأحفاد، وزادوا على قول أسلافهم، قولَهم: إنّ الأكياسَ حملتْها الرياح من مكانٍ مجهول. وكُلّما جاءَ خَلَفٌ زادَ على سَلَفه شيئاً من القول، حتى جاء منهم من قال: إنّ هذه الأكياسَ نزلتْ من السماء. وصارتْ عندَهم مقدّسةً، يَنسبون إليها المعجِزات ويَدعون الناسَ إلى تعظيمها والإيمان بها.

وعليَّ ان أقول بأنّني ما أردتُ من وراء ذكر هذه القصّة أن أمسَّ قيمةَ التوراة والديانة اليهودية، ولا أن أنتقصَ من مقدّسات اليهود، بل أردتُ أن أقول إنّه دخل إلى تاريخهم مبالغاتٌ غيرُ مقبولة. وزِيدَ فيه زيادات لا يستطيع الباحثُ أن يستريح إليها. فهُمْ بعد أن خَرجوا من مصر يقودهم النبيّ موسى بن عمران إلى الأرض المقدّسة، ضاعوا في الصحراء وأضاعوا الكنوز التي كانت معهم، وعندما افتقدوها ولم يجدوها، أخرج السامريّ لهم عِجلاً جسداً له خُوار، وكان هذا الصنيع هو الأكياس الأولى. وأخذتْ حكايتها تَجري مع الأيّام وتتطوّر، وكلّما طرأ على اليهود حَدَثٌ أو حلّتْ بهم داهيةٌ، طرأ على الأكياس معنًى جديدٌ، وحلّت بها روحٌ أخرى. فمن خراب الهيكل إلى سجون بابل، ثمّ عودتِهم إلى فلسطين مرّةً أخرى، واحترابِهم بعضِهم ببعض، واقتتالِهم مع جيرانهم الأدنياء والبُعداء، ثم إجلائِهم عن فلسطين، وتشريدِهم في الأصقاع والأنحاء، إلى كثيرٍ وكثيرٍ من الأحداث والمآسي التي تملأ التاريخ وتَفيض عنه.
فهل هذا التاريخ العجيب هو الذي صَنَعَ الشخصيةَ اليهوديةَ العجيبةَ المتفرّدة والمتميّزة عن شخصيّات الشعوب الأخرى، أم أنّ هذه الشخصيّة الملأى بالأطوار الخاصّة هي التي جرّتْ إليها هذا التاريخ وصنعتْه؟

ولم أطرحِ السؤال لأُجيبَ عليه هنا، بل لأُثيرَه في أذهان

الباحثين والكتّاب اليهود من جديد، ثم في اذهان الباحثين والكتّاب عند غيرهم من الشعوب، ولأحرَض على فهم التاريخ مرّةً آخرى بعقلٍ جديدٍ اكثرَ ممّا أحرِّضُ على صناعته وتاليفه. فليس السردُ والرواية وتجميعُ الأخبار وما يتّصل بهذه الأشياء من امثالٍ و اشباهٍ هي وحدَها التي تصنع التاريخ وتؤلّفه، وإنّما فهمُه واستيعابُه هو الجزءُ الأيسرُ الذي يَسكن فيه قلبُ التاريخ. بل إنَّ الغوصَ إلى التقاطِ المعاني الدقيقة والأهداف البعيدة، او لنقل السُّنَن التي تَحكُمُ ارضَ التاريخ وتتحكّم بسَيْره، هو الذي ينبغي ان يُسيطر على اهتمام الرجال الذين يريدون ان يؤثّروا في التاريخ مثلما يريدون ان يتأثّروا به، سواءً كانوا باحثين او كتّاباً سياسيّين، أو صنّاعَ حربٍ أو صنّاع سلام.

والذي ينبغي أن يستأثر باهتمامنا وتفكيرنا هو انَّ اليهودية وحدَها، هي التي تَجمع بين اشتات معتنقيها وتؤلّف منهم شعباً اسمه اليهود. وكما أنّها هي دينُهم فهي قوميّتُهم ايضاً، وهي قائدُهم على الطريق والمحرّك لأعمالهم. فإذا وُجدَ يهوديٌّ في طَرَفٍ من الأرض هنا ويهوديٌّ في الطرف الآخر هناك، فإنَّ اليهودية هي المقرِّبُ بينَهما والجامعُ والمؤلّف لهما. وإذا نحن التفتْنا لنختار من الأدلّة التي لا تَعرف الحصر ومن الشواهد التي تفوق العدّ، فإنّنا نؤْثِر ما قاله بن غوريون، كما ورد في كتاب الحائط والدموع: «إنَّ الدين هو الدمُ الذي يَغلي في عروق اليهود ويهزُّهم ويَجمعهم ويَجمع اموالَهم ايضاً». وكان لا يَفتأ يردّد ويقول في كلّ مناسبة، بأنَّ اسرائيل دولةٌ تقوم على الدين، وانّه هو لا يترك التوراة ليلاً أو نهاراً، وانّه ينصحُ «كلَّ يهودي بأن يفعل ذلك سواءً عاش في إسرائيل أو خارجَها».

وقد يكون لهم أعذارُهم في ذلك، ولهم اسبابُهم التي يرَوْنها

في نظرهم أنها قويّةٌ مشروعة، ويرَوْن أنَّ على كلّ باحثٍ وكاتب أن لا يَفوتَه النظرُ إليها والتمعُّنُ فيها. ويأتي في أوّلها أنَّ عددَهم قليلٌ، ولا بُدَّ لحفظِ كلّ قليلٍ من العناية الكثيرة الفائقة. ثمّ إنّ تاريخهم حافلٌ بالفواجع أكثرَ من أيّ تاريخٍ آخر، وليس هناك ما يَجمع ويقرِّب ويشدُّ من الروابط في الشعب الواحد أكثرَ من الفواجع والمآسي. وإن شعورَهم بأنهم من نسل شعب الله المختار، أو هم أنفسُهم الشعبُ المختار، وإحساسُهم بمغالبة الزمان لهم لكي يَنتزع منهم هذه الصفةَ أو لكي لا يكون لهم إمرةٌ عليه أو تَحكّمٌ بما يَحمل في سَيْره، هذا الشعور وهذا الاحساسُ يجدّدُ فيهم دائماً تطلّعَ أحدهم نحو الآخر ويُقرِّبه إليه ويَربط مصيرَه بمصيره.

وليس وراء كلامي هذا ما يَعني، أنّ اليهوديّ لا يُخلص لأيّ أرضٍ يعيش عليها ولا يَعرف فيها وطنه، أو لا يرى في شعبها أنّه شعبُه، وأنّه فردٌ منه له ما له وعليه ما عليه. كلّا! فذلك ليس من شأن كلامي أن يذهب إليه أو أن يحمله، ولا أشجِّع الآخرين على حمله وإذاعته. وما ذلك إلّا لأنّني أكره أن أوجِّه اتّهاماً للآخرين ليس عندي دليل عليه، كما أكره أن يوجِّه إليَّ الآخرون اتّهاماً لا دليلَ عندهم عليه.

وقد كنتُ نوَيْتُ أن أضعَ أرضَ فلسطين عنصراً ثانياً، إلى جانب اليهودية في تأليف وحدة اليهود والجمع بين أشتاتهم ومختلف أحزابهم. ثم امتنعتُ عندما رأيت أنَّ اليهودية، التي هي الدين، تشتمل على هذا العنصر، وأنّه يدخل مبدأ من مبادئها وعقيدةً في عقائدها، كما هو شأنُ مكّة عند المسلمين. وقد أشار إلى ذلك القرآن المجيد ونطق به في قوله: «يا قومُ ادخلوا الأرضَ المقدَّسةَ التي كَتَبَ الله لكم». وهنا بدأنا نَحِسّ بأعماقِ المشكلة، ونريد أن نلامسَها لنعالجها وليس لنحرّكها ونُثيرَها، ففي إثارتها شَغَبٌ كبير لا نحتاج

إليه اليوم ولا غداً.

فإذا راح اليهود يعتقدون أنّ فلسطين هي أرضٌ مقدَّسةٌ خاصّةٌ بهم، وأنَّها المأوى الذي تأوي إليه قلوبهم أينما كانوا، والمصلّى الذي تُصلّي فيه أرواحُهم في القرب والبعد عنها، وأنُّها قضيّتُهم وتاريخهم وحياتُهم وجزءٌ كبير من ديانتهم، إذا هُمْ اعتقدوا ذلك فلا ينبغي أن يُغطّي ذلك على وجود الآخرين وعلى مالهم من حقوقٍ واعتقادٍ فيها أيضاً. وليس لأنَّها مقدّسةٌ عندهم، أصبحتْ خاصّةً بهم ووقفاً عليهم دون غيرهم، فهي عند المسلمين مقدَّسة، وهي عند المسيحيّين مقدّسة، ولكلٍّ من هاتين الملّتين تاريخُها الطويل الحافل بالمآثر والأمجاد فيها. والقرآن عندما نطق بتقديسها لم يخصّصهم به وحدَهم، بل أرسله إرسالاً. نقول ذلك لمن احتجَّ بهذه الآية من الكتّاب والسياسيّين اليهود، خارجَ اسرائيل وداخلها، سواءٌ لأغراضٍ سياسية أو لأغراضٍ تاريخية وفكرية.

ونحن لا نريد أن نَطعن على اليهود، إذا هم راحوا يَستوحون حياتَهم وطموحاتِهم وسياستَهم وثقافتَهم من التوراة، كما صرَّح بذلك جهرةً بن غوريون في رسالة بعث بها إلى ديغول «إنَّ التوراة هي أساسُ جميع الأعمال التي تتَّخذها إسرائيل»، فذلك أمرٌ يهمّهم وهو خاصٌّ بهم، ولكنَّ الذي نطعن به عليهم وننتقدُهم فيه، هو أن يستوحوا من التوراة ظنوناً أكثر ممّا يستوحون يقيناً، وأن يستلهموها شَغَباً وفِتنةً أكثر ممّا يستلهمونها حكمةً وعقلاً وقيَماً رفيعة. فينعكس هذا على حياتهم وأعمالهم عداءً للآخرين، لا يجرُّ عليهم إلّا عداءً يشبهُه، وأخطاراً لا تَجني عليهم إلّا أخطاراً وتهديداً مثلَها.

فليس صحيحاً كما يتصوّر اليهود، أنّ الفلسطينيّين الذين يعيشون على أرض فلسطين اليومَ وأمسِ هم أحفاد أولئك

الفلسطينيين الذين رَوَتْ عنهم التوراة أعمالَ المكر والخُبث ووصفتْهم بالغَدر والخيانة، وجعلتْهم مَثَلَ النجاسة التي تُتَّقَى ويُحذَر القربُ منها. كما نقرأ مَثَلاً في الإصحاح الثالثَ عَشَرَ والرابعَ عَشَرَ وما بعدَهما من كتاب القُضاة، قصّةَ شمشونَ بنِ منوح وزواجه في تِمْنةَ بواحدةٍ من بنات الفلسطينيّين، وما صنعتْ به وما صنع هو بقومها. وكما نقرأ في مطارحَ أخرى من التوراة ما يَدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ الأرواحَ نفسَها قد عادت إلى أجسادها وأنّ الرِممَ الباليةَ قد بُعِثَتْ من جديد، وصارت تعيش اليوم في فلسطين كما كانت تعيش في ذلك الزمن بأعمالها وأدوارها.

وليس صحيحاً أن يلقى اليومَ الفلسطينيّون هذا الموقفَ الشرسَ مِنَ اليهود والمعاملةَ الفظّة، وإنْ هم صحَّ أنّهم من سلالة الفلسطينيّين الذين ذكرتْهم التوراة. فلا يوجدُ قانونٌ ولا شريعةٌ ولا عُرفٌ، يُحمِّل أحفادَ الأجداد ما صنعَه أوائلُهم الذين كانوا يعيشون منذ نيِّف أربعين قرناً من الزمن. ولا يَصِحّ في العقل، أنّه إذا اقترف الأجداد في تلك الحقبة سيئاتٍ أو فعلوا ذنوباً أن تُؤْخذَ الأجيالُ التي تعيش اليوم بسيّئاتهم وأنْ يُعاقَبُوا بذنوبهم. ومَنْ لا يذكر أن اليهودَ أنفسَهم فازوا قبل بضع سنينٍ ببراءةٍ رسميّة من دم المسيح، كتبَها لهم البابا نفسُه وصدَّقها بعد أن سعَوْا سعياً حثيثاً وركبوا كلَّ مركبٍ للحصولِ عليها.

فكيف لا يَرضَوْن أن يُقابِلوا الآخرين ويَسلكوا معهم كما يَرضَوْن أن يقابِلَهم الآخرون ويَسلكوا معهم؟ وكيف لا يريدون أن يُعطُوا الناسَ حقوقَهم من جهةٍ كما يأخُذُون هم حقوقَهم من جهةٍ أخرى؟ فإذا رأوْا أنَّ الفعلَ والمنطقَ يَقضيان بأن لا تكون الأجيال المتعاقبة من اليهود مسؤولةً عمّا فعله أجدادُهم الأوائلُ بالمسيح من تعذيبٍ وصلب، كما زَعمتِ النصارى، وقالوا إنَّ الوِزْرَ يحمله فاعلُه

ومُرتكبه ومَن يشترك معه، وليس الأبناءُ والأحفاد وأحفادُ الأحفاد الذين لم يَشهدوا تعذيباً ولم يُظاهروا على صلبٍ أو قتل. إذا هم رأوْا ذلك وقالوه، ووجدوا أنّ زعماء النصارى من دينيّين وسياسيّين وأكثرَ الناس ناصروهم ووقفوا إلى جانبهم، فلماذا لا يكون حُكمهم على الفلسطينيّين كما طَلبوا هم من الآخرين أن يَحكموا عليهم؟ ولماذا لم يزِنوا لهم بالميزان الذي طالبوْا الآخرين أن يزِنوا لهم به؟ والحكمة عرَّفتِ العاقل تعريفاً عاقلاً مثلَه عندما قالتْ: إنّه الذي يعاملُ الناسَ كما يُحبّ أن يعاملوه، ويَرضى لهم بما يُحبّ أن يَرضَوْا له ويَحذر منهم كما يُحبّ أن يَحذَروا منه.

والآن، لو أنّنا رحنا نسأل إسرائيل واليهود كلَّهم: لماذا هذه العداوةُ الشديدة التي أبدتْها السياسة الإسرائيلية للعرب والمسلمين في فلسطين وفي غير فلسطين؟ ولماذا كان نصيبُ العرب من سياسة إسرائيل هذه المعاملةَ التي لم يَسبق للتاريخ أن عَرَفَ مثلَها في القسوة والوحشيّة؟ فإذا قالوا إنّها ثاراتٌ قديمة بيننا وبينهم، وهكذا تعوّدْنا نحن وهم في سالف الأيّام وقديمها، فإنْ هم حَكموا فإنّهم لا يَرحمون وإنْ نحن حَكمنا فإنّنا لا نَرحم. فإنّا نقول لهم: ذلك سَبَبٌ أمعنَ في المبالغة وحجّةٌ أسرفَتْ في الغلوّ. صحيحٌ أنَّ هناك عداوةً دينيّة وتقليديّة بين العرب والمسلمين من جهة وبين اليهود من جهةٍ أخرى، ولكنّ هذه العداوة لم تدفعِ العربَ والمسلمين إلى أن يختلقوا أساليبَ وحشيّةً في التعذيب كما يختلق اليهودُ اليومَ للعرب، ولا أن يعرفوا شيئاً منها. ولم يكونوا يَحملون على اليهود كلِّهم ويوقِعون بهم إيقاعاً لا رحمةَ فيه ولا إنسانية، إذا قام بعضٌ منهم واعتدى على المسلمين، أو جاهرَ بالعداوة لهم أو ظاهرَ أعداءَهم عليهم. والقتلُ وإنْ كان هو نفسُه القتلَ بطَعمه ومرارته في كلّ زمانٍ ومكان، ولكنْ يظلُّ هناك فرقٌ بين القتل وبين التقطيع في

القتل ، وتَظلّ الأساليب التي يستعين بها المتقاتلون والوسائل التي يستخدمونها ، يتفاضل بعضُها على بعض. نقول ذلك والعرب والمسلمون يعتزّون باستعراض علاقتهم مع اليهود في حربهم وسلمِهم إذا هم راحوا يقارنون بين أعمالهم وسلوكهم في هذه الحرب وبين حروب الشعوب الأخرى ، ثم بينها وبين ما يَفعل اليهود في حربهم ضدُّ العرب والمسلمين اليوم.

وليس خافياً على أحدٍ أنَّ اليهود لم يهادِنوا الإسلام منذ بَدءِ نزوله ، ولا المسلمين منذ عهدهم الأول ، وكانوا حرباً عليه وعليهم. ولا يجهل أحَدٌ صنيعَهم مع الرسول الأعظم وما كانوا يُلحقون به من الأذى والأضرار. فقد كانوا يتقوّلون عليه الأقاويل ويَبثّون المزاعمَ والشائعات ، ويَقطعون طريقه ، ويواجهونه بأفحش أنواع الكلام ، ويَرمون عليه الأوساخَ وهو قائمٌ يصلّي. ولم تَحدث واقعةٌ بينه وبين المشركين من العرب ، إلّا وكانوا فيها إلى جانب المشركين بأموالهم وعدّتهم ، وأحياناً بعددٍ منهم. ورغم ذلك كلّه ، فإنّه لم يهاجمهم ولم يُعلن الحربَ عليهم ، إلّا بعد أن حاولوا الإيقاع به وهَمّوا باغتياله أكثرَ من مرّة ، وبعد أن لم يُراعوا شروطَ الصلح المعقودِ بينه وبينهم ، وبعد أن تنكّروا لمعاهدة السلم التي أقامها معهم. وهذه حربُه معهم في خيبر وفي غيرها ، تشهد له بأنّه لم يُجهِزْ إلّا على من كادوا له وأسرفوا في الكيد ، ومن أعدّوا العدّةَ لمقاومته وكانوا شداداً غلاظاً عليه أوانَ الحرب وقبلَها. ولم تكنْ حربه لهم إلّا تأديباً وردًّا لشرّهم وأذاهم ، وليست لإبادتهم وإهلاكهم. فحالما وَجَدَ أنّه أرجعَهم إلى حدودهم ، ورأى أنَّ شرّهم قد انكسرتْ حدّتُه ، قَبِلَ عليهم أن يدخلوا معه في الصلح وتَرَكهم لشأنهم ودينهم وأعمالهم. والذين لم يَعتدوا عليه ولم يظاهروا عدوًّا من أعدائه ضدّه ، من يهود الجزيرة ومن أطرافها ، بقيَ معهم في

سلام، فلم يحاربهم ولم يحاربوه، نقول ذلك وننقله من التاريخ الذي كَتَبَه المحايدون والأعداءُ معاً من كُتّاب الغرب ومؤرّخيهم.

ثم نتابع الزمنَ في سيره بعد الرسول الأعظم، فنرى أنّه لم يكن للعرب والمسلمين حربٌ أخرى مع اليهود، إلّا بعد أن كشفَ الغرب ومن ورائه الصهيونية عن خطّتهم في إعلان الدولة اليهودية ثم تقسيمِ فلسطين. ولو أنّنا رحنا نسأل الزمنَ في كلّ مرحلةٍ من مراحله عن حال اليهود ووضعِهم في ديار العرب والمسلمين وعن علاقتهم بهم، لَحَدَّثنا على لسان مَنْ كتبوا وأرّخوا بأقلامٍ غربيّة وقلوبٍ غربيّة، بأنَّ حقوقَهم كانت مصونةٌ، وأنَّ أحداً لم يتعرّض لهم بأذىً لأنّهم يهود. وقد عُرِف عن كثيرٍ من الخلفاء بأنّ أطبّاءَهم كانوا من اليهود، وأنّ من يقومون لهم بأمر صناعة الأشياء الدقيقة الثمينة كانوا من اليهود أيضاً. وأنّ من يتولَّوْن الإشراف على اختيار البضائع النفيسة وتصريفها أو جَلبها وإحضارها للخلفاءِ وحاشياتهم كان فيهم يهود. وربّما لم يخلُ ميدانٌ من الميادين من وجودهم أو وجود أثرٍ لهم. صحيحٌ أنّهم كانوا يَعيشون عى حيطةٍ ويخالطونَ الناسَ على حَذَرٍ، وكانوا منغلقين على نفوسهم، ولكنّ هذه هي طباعُهم وعاداتهم التي عُرِفُوا بها في كلّ مكان وفي كلّ مجتمع في الشرق والغرب. وليس لأنَّ العربَ والمسلمين كانوا يَرفعون عليهم سيفَ الخطر دائماً، أو لأنّهم كانوا أجلافاً غلاظاً في سلوكهم معهم ومعاملتهم لهم. وها هم اليهودُ لا يزالون إلى اليوم في أحوالهم وعاداتهم كما كانوا بالأمس وقبل الأمس، يتجمّعون على بعضهم ويُنشئون مجتمعاً خاصًا بهم في أيّ مكانٍ وُجِدوا فيه في المدن والقرى. ولا يَحقّ لأحدٍ أن يَلومَهم على ذلك أو ينتقدهم، فهم وشأنُهم وما يختارون من أنواع الحياة وألوانها.

وكلُّ هذا الذي جرى بين العرب والمسلمين وبين اليهود من

حروبٍ ومجابَهات واعتداءات، قبل فاجعةِ فلسطين وأحداثِها، لا يعدل طَرَفاً يسيراً من الحروب الصليبيّة التي استمرّتْ نحو قرنين من الزمن. وفيها تحشَّدَ الغربُ كلُّه وحَشَد لها ما يَملك وما يستطيع أن يملك من المال والسلاح والرجال، وهاجَمَ المسلمين في عُقر دارهم، ودارت بينَهم حربٌ دينيّة، قُتِلَ فيها الكثير وأصيبَ فيها الكثير، ومات بسببها الكثير، وتهدَّمَتِ المدن والقرى، وأُحرِقَ الأخضر واليابس. ممّا لا يَجهله كبيرٌ ولا صغير في الشرق والغرب معاً. وبعد هذه الحرب العاتية الضَروس، ورغم ما ولّدتْه من أخطارٍ ومهالكَ وويلات، فقد تصالح المسلمون والغرب وأطاحوا بالحجُب والسُدُود التي كانت قائمةً بينهما، وانتشرَ الصَّحْو في السماء بَدَلاً من التجهُّم والعبوس. وفي هذا أكبرُ دليلٍ وانصعُ برهان على أنَّ العربَ والمسلمين يَميلون بطبعهم إلى السلام أكثرَ ممّا يَميلون إلى الحرب، ويُؤْثِرون المصالحة والصداقة على العداوة والبغضاء. وإذا نحن قدَّمناهم عل الغرب في هذه السجيّة وجَعلناهم الأسبَقِين إليها، فلأنَّ الغربَ هو الذي بدأ بالغزو والهجوم، وأشعلَ نيرانَ العداوةِ والأحقادِ إلى أمدٍ مديد.

ولست أرى، رَغْم غزو اليهود للعرب والمسلمين، هذا الغزوِ الكبيرِ الشرس، وما تولَّد عنه من حربٍ واعتداءات ومن فواجع ومواجع، أنّ العرب يمتنعون عن مدّ اليد إلى اليهود ليُصالحوهم وليَعقدوا معهم عهداً يوفّر للطرفين شروطاً من العيش الآمن الهادىء، عندما يَمدُّ اليهودُ يدَهم إليهم عن صدقٍ وإخلاص وليس عن دهاءٍ وحيلة. نقول ذلك، لأنَّ اليهودَ هم المعتدون، والعربَ هم المعتَدَى عليهم، واليهودَ هم الأقوى، والعربَ هم الأضعف. ومن طبع المعتدِي والأقوى أن يَكيد للأضعف، وأن يُمليَ عليه ما يُريد من الأوامر والشروط. وإذا قلنا إنّه ليس في تاريخ اليهود مع العرب

والمسلمين ما يشجّع على إقامة عهد جديد من الصداقة ومن العلاقات الطيّبة، لكنْ ليس فيه ما يدعو إلى التقاتل والتحارب بأساليبَ وحشيةٍ وطرقٍ غير إنسانية، يكون من ادنى نتائجها الإبادةُ والتدمير. وإذا كان ولا بدَّ من العداوة، وما اقبحَ العداوةَ بكلّ أنواعها، فليكن فيها جانبٌ إنساني، أو شيءٌ يعبّر عن العدوّ من الطرفين أنّه لا يزال يَحملُ صفةً إنسانيةً وانّه لم ينتقل بعد إلى صفّ المخلوقات الأدنى.

واعجبُ ما في قضيّة فلسطين، انَّ الأيدي كلّما امتدّتْ إليها لتلامسَها وتَمنحها تسويةً، تزدادُ صعوبةً على صعوبة وتعقيداً على تعقيد، وكلّما همَّتِ الحلولُ بها لتَنالها تَباعدت عنها وعزَّتْ عليها، وكاد كُلُّ واحدٍ منها ان يُصبحَ قضيّةً اخرى بجانب قضية فلسطين. فإذا قامت الحربُ مثلاً وظنَّ العرب واليهودُ انّها الوعدُ الحق الذي قد اقترب وانّها تَحمل الحُكمَ الذي يَفصل بينهما، فإنّها تنتهي وتضع أوزارَها وتنكشف على أنّها ليستْ وعداً حقًّا ولا حُكماً فصلاً، وإنّما تنكشف عن هزيمةٍ اخرى للعرب، وضياعِ اجزاءٍ من اراضيهم يضُمُّها اليهود، ويعود كلُّ جزء منها كأنّه قضيّةٌ منفردة بنفسها لا علاقةَ لَها بفلسطين. فالجولان قضيّة، وجنوب لبنان قضيّة، والضفّة الغربيّة قضيّة، وغزّة قضيّة، وسيناء كانت قضيّةً وستبقى قضيّة. واصبح من يأتي على ذكر قضيّة فلسطين وحقوق الفلسطينيّين الضائعة فيها، كأنّما يرتكب بنظر إسرائيل إثماً مبيناً وخطيئةً لا غفرانَ لها. حتى إنَّ السلامَ الذي هو مَطرح القيل والقال بين القوى الكبرى في الغرب والشرق وعلى منابر الأمم المتحدة وبين اروقتها، اصبح قضيّةً كبيرة جَمَعَ إليها القضايا كلَّها وكشف عن الغازها واسرارها.

فإسرائيل تريده سلامَ المنتصر المتغطرس، تأخذُ هي كلّ

شيء وتترك للعرب والمسلمين الذلّ والمهانةَ والاعترافَ بها والانطواءَ تحت علَمِها وتعاليمها، وتسمّيه بعد ذلك سَلاماً عادلاً دائماً. والعربُ يقولون في كلّ يومٍ شيئاً جديداً، ثمّ لا يعلمون ماذا يريدون. يقولون إنّهم قَبلوا أن يُعطوا الأرضَ في مقابل السلام، ولكن أيَّ أرض؟ إنّها أصبحتْ في يد إسرائيل جزءاً من فلسطين الإسرائيلية أو إسرائيل الكبرى. وقد قَبلوا أن يُعطوا شعباً في مقابل السلام، ولكن أيّ شعب؟ إذا كان هو الشعبَ الفلسطيني، فقد أعطَوْه من زمنٍ بعيد، ورفضتْه إسرائيل، وردّتْه إلى العرب دروساً وعِبَراً، عندما أقامتْ فيه سلسلةً من المذابح والفواجع. فلم يَبقَ عند السلطات العربية من شيءٍ تُعطيه إلّا شعوبَها التي تَحكمُها، وهي لن تتوانى عن تقديمها فِداءً من أجل سلامة قصورها وأموالها ومتَعِها ولذّاتِهَا ونَهَمِها وقَرَمِها وليس من أجل السلام، ولكن سيُسمّونه سلاماً، لأنَّ اسرائيل تريد أن تُسمّيه سلاماً.

ولكن ما هو هذا السلام الذي تريده اسرائيل حقّاً؟ وما هي حكايته؟ إنّها تريد كما تقول عبارتها: «امتلاكَ فلسطين والأراضي المجاورةَ إلى الأبد». ويصبح طرفُها من هذه الجهة نهرَ النيل وطرفُها من تلك الجهة نهرَ الفرات. ثم تريد ممّنْ بقي من الدويلات العربية المفرقَعَة المبعثرة، أن تعترف بها دولةً قائمة على أرضها التي هي حقُّها المشروع، وتعترف بحدودها المرسومة، ثم تنطوي كلّها تحت الإرادة الاسرائيلية التي تقول: لا يحقّ لواحدة من هذه الدويلات أن تمتلك سلاحاً يكون فيه أدنى خطرٍ على اسرائيل، وأنْ تتعهّدَ كلُّ واحدةٍ منها بأن لا تصيرَ في يومٍ من الأيّام ممرّاً، يمر منه الإرهاب إلى إسرائيل، ولا مُنطلَقاً للإرهابيّين الذين يحملون خطراً لإسرائيل. وهذه بعض الشروط المعلنِ عنها، وليست كلَّها.

أمّا الشروط المخفيّة فهي كثيرة، يحتاج الحديث عنها إلى

صفحات طويلة ، فمنها : أنّه لا يجوز أن تتوحّد دولةٌ عربيةٌ مع دولةٍ عربية . وإسرائيل تعلم قبل غيرها أنَّ السلطات العربية هي متّحدةٌ فيما بينها ولكنّها لا تدري أنَّها متّحدة ، وأنَّ الشعبَ العربيَّ هو متَّحدٌ ولكنّه لا يدري أنّه متّحد . ومنها : أنّه لا يجوز على العرب أن يتعلّموا وأن يتقدّموا ويترقَّوْا ، فهم إذا تعلّموا وتقدّموا وترقَّوْا أصبحوا خطراً لا يُقَاوَم على إسرائيل ، والذي يَجوز لهم هو أن يَظلّوا متأخّرين يعيشون في ظلمات الجهل والتأخّر والتخلّف . ومنها : أنَّه لا يَجوز أن يُغيِّر المسلمون منهم ما هم عليه من حال ، ولا يجوز لهم أن يُغيِّروا الإسلامَ عن مفهومه القائم عندهم . ومنها : أنَّه لا يجوزُ لهم أن يُتعِبوا أنفسَهم في الصناعة والتصنيع ، وفي إقامة أسواقٍ ومدِّ تجارةٍ وبسطِ بضائع . وإذا جاز لهم ذلك ، فما هو معنى إسرائيلَ إذاً ؟ ولماذا وجودُها بجانبهم ومن حولهم ؟ إنها هي التي تصنع لهم كلّ شيء ، حتى إنّها تصنع لهم أنفسهم ، وتأتي لهم بكلّ بضاعةٍ ، حتى إنّها لَتأتي لهم بشَرَفهم وكرامتِهم . ومنها : أنّه لا يجوز لهم أن يَردّوا الأفكار التي تُصدِّرها لهم إسرائيل وتَنشرُها بين أبنائهم وأجيالهم ، وإذا هم رَدّوها أو رفضوها ، فيعني ذلك أنَّ في نيّتهم أن يعملوا عملاً خطِراً على إسرائيل ، وأنّهم يضعون في أذهانهم خطّةً بعيدةً ستقرض من حجم إسرائيل فتراً فتراً حتى تُقلّصها ، ثمّ تَهوي عليها بضربات صاعقة قاتلة . ومنها : أن يتعاونوا مع إسرائيل على رسم خطّة تقضي بأن يتعلّم التلاميذ والطلّاب في المدارس والمعاهد والجامعات ما يُقرّب إسرائيل منهم ويُحبّبها إليهم وما يَمحو من أذهانهم تلك الصورَ القبيحةَ المُريعةَ التي نقشتْها أصابعُ التاريخ فيها ، وما يَهدم هذه السدودَ التي أقامتْها الأحقاد والحروب والفجائع منذ الزمن السحيق البعيد إلى الزمن الحاضر . ومنها : أن يتّفقوا مع إسرائيل على إيجادِ حلٍّ أو

صيغةٍ لما جاءَ في القرآن المجيد من ذكرٍ لليهود وطباعهم وأعمالهم ، ومن تحليلٍ وتركيبٍ لأوصاف الشخصية اليهودية . فذلك ما لا يُرضي اليهودَ أن يسمعوه ، وما هو في أعينهم ونظرهم غيرُ صحيحٍ وغيرُ مثبَت . وقد يكون الحلّ بإيجاد تفسيرٍ أو تأويلٍ ، أو في العثور بعد حفرٍ كثيرٍ وتنقيبٍ طويل ، على نسخةٍ من القرآن المجيد ، يعود عهدُها إلى فجر الإسلام ، فيها تخفيفٌ من الحملات على اليهود أو فيها مدحٌ لهم .

هذا هو السلام الذي تريد إسرائيل أن تُمليَه على العرب ، ذكرنا بعضاً من شروطه التي اعلنوا عنها ، وبعضاً من شروطه التي اخفَوْها وراحوا يَهمسون بها ويفكِّرون فيها ويَعيشون لها ويُذيعونها في محافلهم ، والتي ليس من الخير لهم والمصلحة أن يَعترفوا بها امام الملأ قبل حلول الأوان . ومَنْ ظنَّ انّني أبالغ في الوصف وأنسج اوهاماً لأُصنع منها اغطيةً للعيون واغلفةً للقلوب والسرائر ، او انّني اقول ما ليس من حقّه أن يُقال لبعده عن الصواب ، فلينصرفْ عنّي بوجهه ، فلم اذكر إلّا ما هو مذكور ولم اقل إلّا ما هو مَقول مكتوب . فمنذ ثلاثةٍ وعشرين عاماً ، وزّعوا في افريقيا نُسَخاً مطبوعةً من القرآن المجيد في أماكنَ مجهولةٍ ، حملتْ تحريفاً في بعض الآيات التي تأتي على ذكر اليهود بما لا يسرُّهم ويُرضيهم إلى ما يسرّهم ويُرضيهم . ولمّا تنبّه إليه المسلمون بعد انِ انتشر انتشاراً واسعاً ، تنادَوْا وخفُّوا إلى جمعه وإتلافه ، ولا تزال نُسَخٌ منه موجودةٌ إلى الآن . ومَنْ هو الذي سيكون وراءَ هذا العمل غيرُ إسرائيل وغيرُ أولئك الذين يباركون سياستها ومواقفها من اليهود ؟

وها نحن قد خلّفنا وراءنا ، قبل بضعة اشهر ، حربَ الخليج ، فهل كانت هذه الحربُ إلّا تأديباً للعرب كلِّهم ، وتدميراً لآلتهم الحربيّة

وطاقاتهم المرئيّة وغير المرئيّة، وقتلَ الإنسان العربيّ الذي يتحرّك والذي لا يتحرّك حتى يعودوا ضُعفاءَ لا يَقوَوْن على شيء ولا يَملكون شيئاً؟ وها نحن نسمع كلَّ يوم تنديداً لوجود أسلحةٍ في أيدي العرب، وتهديداً ينادي بتجريدهم من كلِّ آلةٍ يخرج فعلُها وتأثيرها خارجَ أراضيهم، ووضعِ ديارِهم تحت المراقبة حتى لا تَدخُلَ إليها قطعةٌ واحدة من السلاح المحظور الفتّاك، وحتى لا يَأتوا على صناعةِ شيءٍ منه داخلَ الديار. وبهذه الخطّة التي ألّفوها أحسنَ تأليف ونفّذوها أجودَ تنفيذ، أصبح العربُ كالطائر الذي نُتِفَ منه ريشُ جناحيه فعادَ لا يَقوَى على الطيران، وصار من السهل على إسرائيل أن تَصيدَه دون عناءٍ ولا تعب. ومن حقّها هي أن تبقى في أمانٍ من أن يتعرّض الغربُ والقوى الكبرى في العالم إلى مسّ سلاحها وقوّتِها العسكريّة والنوويّة ولو بتصريحٍ أو اقتراحٍ يَرمي إلى رؤيتها ومراقبتها، بَلْهَ التخفيف من أسلحتها الثقيلة أو حذفها وإبطالها.

وأمّا عن وسائل تشويه العقل وقتل التفكير عند العرب فهي كثيرةٌ وكثيرة، وليس محظوراً عليهم أن يَأتوا بها وأن يُوزّعوها ويَستعملوها، بحيث يكون للفرد الواحد وسيلتُه الخاصّة به. ولا تقلْ هذا وحدَه من حقّهم فقط، فمِن حقّهم أيضاً أن يمتلكوا وسائل الإحياء والإنعاش، ولكنْ إحياءِ مَنْ؟ وإنعاشِ ماذا؟ إنّه إحياءٌ للفتن والعصبيّات وإنعاشٌ للعُقَدِ الداخليّة والمشكلات القوميّة، وإنعاشٌ للمسائل المذهبيّة التي يُراد بها تَعبئة القلوب بالأحقاد والنفورِ والكراهيّة، وإنعاشٌ للعُقْم والجمود في طموح النفوس وتطلُّعها. ويكاد يكون لكلّ فردٍ وسيلةٌ من هذه الوسائل تُجيبه حين يَدعوها وتُلبّيه حين يناديها.

ولكنْ لنكنِ الآن مع هذه الأقوال الجهيرة المكشوفة التي تخرج

من أفواه اليهود في إسرائيل وفي غيرها بشأن السلام الذي يريدونه ويسعَوْن إلى بسطه، ولنترك جانباً أقوالهم المستورةَ التي تُقال في السِّرّ ويُعمَل لها في الخَفاء. ثمّ لنكنْ كذلك مع الأقوال التي يَجهر بها العرب ويُذيعونها في كلّ مكان والتي تعبّر عن رأيهم في السلام، وعن خطّتهم التي يريدون لها أن تَستوعب هذا السلام، ولْنَعَدّ عن هذه الأقوال التي يُخفونها ويَتمنّوْن لها أن تَصير هي الواقعَ. فأمّا إسرائيل فإنّها هي المنتصرةُ القويّةُ المتكبّرة ولذلك ترى من حقّها أن تفرضَ سلام الأقوياء بالقوّة، فتأخذَ كلّ شيءٍ دون حربٍ ولا عَناء، ولا تتركَ لجيرانها منه إلّا الذلّ والهوان، وإلّا الهواءَ وماءَ السماء. وأمّا العرب فهم المغلوبون المهزومون، ولكنّهم يُلطِّفون من أحوالهم بالكلام، فيقولون إنّهم مظلومون معتدًى عليهم وإنّ إسرائيل هي الظالمةُ المعتدية. ويقولون: نحن نَقبل بما حَكمتْ به القوى الكبرى عندما قالت: إنّ على إسرائيل أنْ تُعيدَ الأرض إلى أهلها وأصحابها وتأخذَ منهم السلام. أمّا هم فإنّهم يُنهون معها حالة الحرب والإرهاب والاعتداء، ويعترفون لها بحدودٍ واضحةٍ آمنة. وأمّا القوى الكبرى فإنّها تَميل كلَّ المَيْل إلى إسرائيل وتَذَر العرب كالمعلّقة، ولكنّها لا تقول ذلك ولا تُصرِّح عنه. وهي تبقى مع الطرفين دائماً في طور الملاعبة، فعندها لكلّ طرفٍ ألعابُه التي يُحبُّها ويهواها، ولا بدّ لها، إذا أرادت أن تَترك اللعبَ وتنتقلَ إلى الجدّ، من أن تُخفِّف من غُلَوَاء إسرائيل وتُطامِن من عنادها وتَكبّرها، وأن ترفع من شأن العرب وقوّتهم، فهم ضعفاءُ حقًّا ومظلومون حقًّا. فأنْ تأخذَ من الكثير وتُعطيَه إلى القليل، وأنْ تقطعَ من ثقيل الوزن وتُضيفَه إلى خفيف الوزن، ذلك هو الاعتدال، وتلك هي العدالة، وهذا هو السلام الذي ينبغي أن يُنْشَد ويُراد وأن يَستمرَّ ويدوم. وإذا قلتُ ذلك، فلأنّني أُحبُّ السلام بطبعي وأكره الحربَ

بطبعي ، وكيف لا أحبُّ السلام والله قد ارتضى أن يكون من أسمائه السلام وليس الحرب ؟

والغرب ، وإن أبدى أنّه بحاجة إلى العرب في رَواحه ومجيئه وفي علاقته معهم ، فإنّه يخادعهم ويخاتلهم . فحاجته إليهم هي أن يُغذّيَ عناصرَ الفرقة فيما بينَهم ويَبُثَّ روح الفتنة والانشقاق في أنماط تفكيرهم وعقائدهم . وحاجته إليهم أن يبقى مسلَّطاً على مقدرات أمورهم ، وأن لا يَبلغوا سنَّ الرشد . فإنّهم إذا بلغوه ضيَّع من يده الفُرَصَ كلَّها وقعد معزولاً في زاويةٍ يقلّب كفَّيْه على ما ضيَّع ويأكل الحسرة خلفَ الحسرة . وإسرائيل تعلم ذلك حقَّ العلم ، وتَدري أنَّ الغرب لا يستطيع أن يفعل إلّا ما هو فاعلُه ، إلّا إذا أراد أن يُخرِّب مصالحَه ويُبعثرَ خططَ اقتصاده وترتيبِه ، وهو بالطبع لا يريد . إذاً فقد تلاقَتِ النظرتان إلى العرب ، نظرةُ إسرائيل ونظرةُ الغرب ، واتَّفقَتِ المصالح بينهما واتَّحدتْ ، فلماذا لا تأتلف خطّة العمل وتنتظمُ جهود الطرفين على طريقٍ واحدة ، سواءٌ في حالة الحرب مع العرب أو في حالة السلام ؟ وقد رأينا الغرب كيف يتعهّد إسرائيل بالعناية ، فيزوِّدها بالأسلحة المتطوِّرة ، ويقدِّم إليها كلَّ دقيقٍ وجليلٍ من المعلومات عن العرب في أوضاعهم المختلفة ، وكيف يلَهث في الليل والنهار ليصنع القرارات الدَّوْلية التي تُعطي إسرائيل أعذاراً في حربها ، أو تَسكتُ عن إدانتها ، وتُعزّي العربَ بكلماتٍ فاتنةِ الألحاظ إذا كانت مصيبتهم كبيرةً وخسائرُهم جليلة .

وها نحن نرى الغربَ في فرصة السلام هذه ، أعني فرصةَ حرب الخليج ، كيف شدَّد على ضرورة صنع السلام ، وناشدَ الطرفين واستفزَّهما للشروع في حوارٍ ينتهي بهما إلى المصالحة . ثم أخذ يتراخى قليلاً قليلاً ، إنْ لم نقل يتراجع ، عن تشديده ومناشدته ، عندما همستْ في أذنه إسرائيل أو عندما لوّحتْ له بعصا التأديب ،

وافهمتْه أنّها لا تُريد السلامَ مع العرب، إلّا على رأيها ورغبتها وبمفهومها وأسلوبها وليس على رغبة الغرب ورأيه ولا بمفهومه وأسلوبه. ولا دَخْلَ للعرب في صناعة السلام إلّا أن يكونوا طرفاً ثانياً في مقابل إسرائيل، يتلقّى ولا يُسمح له بأن يُلقِي، ويُطيع قبل أن يسمع ولا يؤذَنُ له أن يعتذر.

والذين لا يُعجبهم أن يَسمعوا أنّ إسرائيل تستطيع أن تؤدِّب الغرب ولا يصدّقوا أنّها تتحكّم به، نُلوي لهم أعناقَهم لينظروا إلى الصهيونية كيف تستبدّ استبداداً بتصريف سياسة أمريكا في داخل أمريكا وفي خارجها، وكيف ترسم خططَها وكأنّها تريد أن تبتلع بها الدنيا وتَحيكُ مواقفَها وهي تشتمل على الجزء الأكبر من مصير العالم. ونحن لا نريد هنا أن نتحدّث عن الصهيونية حديثاً طويلاً، وهي وإن كان أمرها غيرَ خافٍ على أحد، فإنَّ الكلامَ عليها يظلّ يحمل شيئاً جديداً، يزيدُ في تفهيم الإنسان وتَبصرته عمّا يجري حوله في هذا العالم، ويَكشف لعينيه إلى أين يتّجه المصير.

ونكتفي أن نقول إنّ الصهيونية، هي حركةٌ تعتمد على السحر فلا يَدخل فيها إلّا السَّحَرةُ، ولا تَقبل أن يَلتحق بها إلّا من يُتقن فنَّ السحر. أسَّسها صاغة الذهب وعُبّادُ المال في أمريكا، وبنَوْا مبانيَها وصاغوا تعاليمَها بأفهامهم وعقولهم كما يشاؤون وبالأساليب التي يرغبون ويختارون. وهذا حاييم وايزمن، أحدُ بُناة إسرائيل وأوّلُ رئيسٍ لها، يُعرّف الصهيونية، ويَصفها ويبيّن عن هويّتها، ويَدلّ على ينابيعها حين يقول: «إنَّ الشعور الديني هو مصدرُ الصهيونية والحافزُ لقيامها. هذا الشعورُ الناجم من التقاليد والمعتقدات اليهودية، والمبنيّ على أقدم الذكريات للبلاد التي نشأتْ فيها الحياة اليهودية الأولى، والتي مارسَ فيها اليهود حريّتَهم».

وممّا يَبعث على الضحك أو البكاء أو العَجَب، أن تكون

الصهيونية التي عندَها هذه القوى السحرية وراءَ إسرائيل وعن جانبَيْها ثمّ تقومَ إسرائيلُ فتشغلَ العالم بشكواها ، لأنّها تعيش في قلقٍ دائم من هذه الأخطار التي تُحدق بها من العرب وتُهدّد امنَها ، وتُحِسُ انَّها في حالةٍ تبقى اعصابُها معها متوتّرةً من جيرانها الذين يَصيحون كلَّ يومٍ مثل دِيكَةِ الفجر ، معلنين عن عزمهم على زرع اسباب القتل والموت في مدنها وقراها ، وملاحقةِ الأبرياء من الأبناء والأهالي اينما كانوا في انحاء البلاد . وما هو اشدُّ عَجَباً من صنيع اسرائيل وما هو ادهى من امرها ، أنَّ العالمَ يصدّق شكواها ويأسى لها ويؤازرها بمشاعره وشفقته ، وهو يَراها كيف تخاطب هؤلاء الفلسطينيين العُزَّل الذين هم تحت سيطرتها واستبدادها ، وكيف تعاملهم وتَسلك معهم ، ويُعاينها كيف تَعتدي على جيرانها العرب بألف اسلوبٍ من الاتّهام والف لونٍ من القتل والتخريب والتهجير .

ويكاد ينخلع المرءُ من عقله ، وهو يستمع إلى هذه الأسباب التي تقرؤها إسرائيل على العالم وتُذيعها في كلّ مكانٍ من انحائه وزواياه ، لما تقوم به من فظائع الأعمال مع العرب الذين يعيشون في الأرض المحتلّة ومع العرب الذين هم من حولها . ولكن أتدري ما تقول ؟ إنّها تقول : لا بدّ لإسرائيل من ان تُقدِمَ على هذه الأعمال بهذه الأساليب حتى تَردع العرب وتَردَّهم على اعقابهم وتدفعَ خطرَهم عنها . ولكنّا نقول لإسرائيل : إنّ العرب منذ بدء فاجعة فلسطين حتّى الزمن الحاضر ، لم يَجرّوا على إسرائيل من أذىً ولم يُلحقوا بها من اضرارٍ وخسائرَ إلّا بقدر ما جرّته هي على العرب من أذىً وما الحقته بهم من اضرارٍ وخسائرَ في واقعةٍ واحدة أو في ضربةٍ واحدة . فإذا كانت هي بعدَ ذلك في خطرٍ من العرب ، فأين هو مكان العرب معها في الخطورة ؟ وكيف ستكون حالتهم ؟

وتقول إسرائيل في اسبابها : إنّها ترى من حقّها أن تلجأ إلى

الشدّة والعنف مع العرب، فهي بغير هذا الاسلوب لا تستطيع أن تكسر شوكتهم وتبدّد قوّتهم. وهي ينبغي لها أن تتفنّن بهذا الأسلوب وبأمثاله لكي يَظلّ العرب في حالةٍ لا يقدرون معها على شيء، فلا مالٌ يملكون ولا سلاح عندهم ولا عقل. لأنّهم إنْ ملكوا واحدةً من هذه، فلن يكون إلّا خطراً بأيديهم على أمْن إسرائيل ولن يُثير إلّا الخوف والقلق على وجودها. ونقول لإسرائيل: إنّها لشجاعةٌ نادرةٌ وتفوُّقٌ لا مثيلَ له وحجّةٌ ناصعةٌ لا تُدفَع، أن تملك إسرائيل أفتكَ أنواع الأسلحة وأخطرَها وتجرّبَها على الخيام الموزّعة في الخرائب وعلى العزَّل الساكنين في العَراء من اللاجئين، وتدمّرَ بها ما بأيدي جيرانها العرب من الأسلحة الخفيفة المضحكة وما عندَهم من المؤسّسات النامية الحيّة، وأن تكون في يدِها الوسائلُ الكاملة المدهشة لصناعة القنابل الذرّيّة، ثمّ تخشى من هؤلاء الذين تُمزّق شملَهم وتُبيدُهم وتُخرّب بيوتَهم ومجالي حياتهم، أن يمتلكوا بنادقَ صيد، وتَحسب لهم حساباً في المستقبل، وتخاف أن يَحمل الهواءُ يوماً إليهم مدفعاً أو رصاصة أو متفجّرات! وليستْ هي وحدَها التي تقوم قيامتُها ويَجُنّ جنونَها من هذا الخيال ومن هذا التصوّر، وإنّما الصهيونية وعبدتُها أمريكا بكلّ سياستها وتقدّمها وصناعتها، تقفان معها في قيامها وجنونها، فلا تتركان من حيلةٍ ولا وسيلة إلّا وتضعانِها في يد إسرائيل وتُسخّرانها لإرادتها. وماذا يريد العرب من العالم بعد ذلك أن يصنع أو يتحرّك؟ بل ماذا يفعل العالم إذا هو قام وتحرّك؟ إنّه لا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يتفرّجَ ويَسكتَ ثمّ يتفرّج ويسكت، وإذا ألحّ عليه الضيقُ والاختناق فلا لومَ عليه أن يستنكر.

هذه بارقةٌ عابرة من واقعنا نحن ومن واقع إسرائيل، فأين الآن هو موقعُ السلام من هذا الواقع؟ الحقّ إنّ إسرائيل تطلب السلام

ولا تريده ، وتدعوه ولا تُحبّ أن يُجيبها . تطلبه وتدعوه لكي تَستر أمام العالم قبائحها مع العرب وتُغطّي عليها ، ولكي تضع في الأذهان قناعةً بكلّ ما تصنعه فيهم . فهي عندما تَضرب الضربةَ القاسيةَ الموجعة التي تقتل فيها وتهدم وتحطّم ، تحتجّ أمام الملأ كلّه ، بأنّها لا تفعل ذلك حبًا بالقتل والتهديم والتحطيم ، بل دفعاً للأخطار التي ينشرها العرب من حولها ، وحمايةً لأمن أبنائها الأبرياء وسلامة شعبها المرهق بالذكريات البغيضة الأليمة . فلماذا لا يكفُ العرب عن نشر الأخطار حتى تكفَ هي بدورها عن أعمال الهجوم والضرب والتقتيل ؟ بل لماذا لا يكون عندهم رغبةٌ في السلام كما أنّ عندها رغبةً في السلام ؟ ولماذا لا يستجيبون مرّةً واحدة في حياتهم لدعوتها إلى السلام وهي تدعوهم إليه كلّ يوم ؟ وها هم عندما استجابوا مرّةً ومرّتين ومرّات كثيرة إلى السلام ، وكانت مصر الخطوةَ الأولى إذا لم نقل الضحيةَ الأولى نحو هذ السلام ، سَخِرتْ إسرائيل منهم وضحكتْ وقالت : إنّهم أدعياء لا يريدون السلام ولا يَسعَوْن إليه ، ولقد أكّدوا ذلك وأثبتوه عندما نظروا في الشروط التي أمليتُها عليهم وناقشوها ، وعندما رفضوا بعضها وطالبوا بتعديل بعضها الآخر .

وقد بات واضحاً من أفعالها المتناقضة ومواقفها المتداخلة وممّا ظهر من نواياها المخفيّة ، أنّها لا تسعى إلى السلام حقًا ولا تريده حقًا ، لكن لماذا لا تريد اسرائيل السلام ؟ إنّ السلامَ في نظرها قد يكون مكاناً آمناً للعرب يستريحون فيه من لُهاثهم المتواصل . ويستردّون أنفاسَهم المتقطّعة ، ممّا يَسمح لهم بعد ذلك أن يفكّروا بأنفسهم وبما هم عليه من سوءٍ في الأحوال وتردٍّ في الأوضاع ، وأن يسعَوْا إلى ترميم أحوالهم ثمّ إلى تحسينها . وربّما تدرّجوا إلى الأفضل فالأفضل ، حتّى يصلوا إلى المكان الذي لا تستطيع إسرائيل

أن تُزحزِحهم عنه ولا ان تؤثّر على استقرارهم فيه ، وهو المكان الذي سترجمها الأخطار منه بالويل والهلاك . فلتكن خطّتها إذاً هي أن تُسْمِعَ العَربَ على اعين العالم وأمام الملأ كلاماً طيّباً ، من مثل الحوار ، والسلام ، والتفاوض ، وعقد العهود والمواثيق . وذلك من اجل ان يأخذ دورَ المخدِّر ويقومَ مقامَ اللجام الذي يَكبح المشاعر ويُخفّف من إفراط سرعتها وتدفّقها . حتى إذا جَنَّ الليل وطابَتِ الخلوة لسياسة إسرائيل ، فإنها تظهر آنذاك على حقيقتها ، وتتصرّف على هواها ، وتخلق الواقعَ الذي يروق لها . وأخفُّ هذا الواقع واهونُه في نظرها ، هو بثُّ القلق والاضطراب بين العرب ونشرُ الفِتن وإذاعة الأحداث والوقائع . وليس لها سعادةٌ إلّا أن تراهم يتمرّغون بالشقاء والبؤس والتعاسة ، وليس لها نعيمٌ إلّا أن تعاينَهم يَسبَحون في كلّ انواع النكد والتعذيب ، لا يَستقرُّ بهم حالٌ ولا يَهدأ لهم بال . امّا عن هذا السلام الذي صنعته إسرائيل مع مصر ، فما هو إلّا سلامٌ مشوّهٌ ، ليس له صورةٌ واضحة يُعرف بها ، او أنَّه السلام الذي وُلد قاصراً ، والذي سيعيش مدّة بقائه قاصراً . فهو يحتاج إلى من يراقبه دائماً ويُعنى بخطواته وسيره ، والشعب هنا مثلُ الشعب هناك ، لا يستطيع ان يَطمئنَّ إلى مستقبل هذا السلام ولا إلى مصيره . فالانفتاح بقي بينهما محدوداً ، وثقةُ كلٍّ منهما بالآخر هي مضطربةٌ مهزوزةٌ لن تُلاقيَ مكانَها الآمِن الوادع . فهما ينظران إلى هذا السلام وكأنّه صفقةٌ تجاريّة رابحة عُقدت بين سلطتين دَرّتْ عليهما ارباحاً كثيرةً اكثرَ ممّا كان تنقيةً للقلوب من الضغائن وغَسلاً للنفوس من الأحقاد .

ومن قال إنَّ الصراع بين العرب وبين إسرائيل هو من أجل ارضٍ مغصوبة او من أجل حدودٍ غير آمنة او من أجل الاعتراف بحقّ البقاء ؟ لو أنَّ عقباتِ السلام ومعطّلاته كانت في هذه المسائل

واشباهها، لاتَّخذتْ طريقَها إلى الحلّ منذ أن كانت فاجعةُ فلسطين في مهدها الأوّل، ولَمّا انجبتْ سلسلةً من الفواجع، كلّما جاءتْ فاجعةٌ كانتْ أدهى من اختها السابقة، وربّما لا نزال في أوّل الطريق. لكنَّ عقباتِ السلام هي في انعقادِ النيّة عند إسرائيل على التلاعب بالسلام واتّخاذه أُلهيةً تَلهو بها في أوقات الفراغ وساعات الاستراحة وتُلهي بها العربَ عن التحضير والاستعداد، فيعودون وكأنّهم في فراغ دائم. ثم اتّخاذِه تسليةً تتسلّى بها في المحافل الدَّوْلية وعلى المنابر السياسية، ومسرحيةً تُشارك مع القوى الكبرى في إخراجها من جهة، وتُشارك مع العرب في تمثيلها من جهةٍ ثانية.

وقد أعدَّت إسرائيل منذ اللحظات الأولى في عمرها عُدّتها لتَقضيَ حياتها كلَّها مع العرب والمسلمين في صراعٍ دائم يشتدّ ويَرتخي، لكنّه لن ينتهيَ إلّا إلى محوِ أحدِهما وبقاء الآخر وليس إلى سلام. وهي قبل البدء في الخطوة الأولى، كانت قد حدّدتْ مفهوم هذا الصراع وثبّتتْ معناه ورسمتْ طرقه. فهو صراعٌ حضاريّ يبدأ بالاستيلاء على فلسطين، ثمّ يزحف ويتمدّد حتى يضعَ يده على مكان العرب كلّه، وبعد ذلك يستلّ منهم زمانَهم، فيعود العربُ لا مكانَ لهم إلّا في قبضة إسرائيل ولا زمانَ لهم إلّا تحت تصرّفها. ولا بدَّ لنا من أن نجلوَ معنى هذا الصراع الحضاري، حتى ينكشف لنا على حقيقته وتتَّضحَ أبعاده. فاليهود الذي يعتقدون بأنّهم متميّزون عن البشر في تكوينهم وأنّهم الشعبُ الذي اختاره الله وآثره من بين خلقه، يُحِسّون بأنّ القرآن الكريم هو أشدُّ وقعاً عليهم وتأثيراً من جميع الضربات التي نزلتْ بهم في مراحل تاريخهم الطويل. فهم يرَوْن التشويهَ الذي لحقهم منه لا يَعدله تشويه، والتسفيهَ الذي رماهم به ليس مثلَه تسفيه. ويعتبرون أنّه في صنيعه هذا حرَضٌ

عليهم الأممَ الأخرى واغرى بهم الشعوب غيرَ الإسلامية ، ممّا عرّضهم لغلوّ هؤلاء جميعِهم في الازدراء والامتهان وفي الغضّ منهم ومهاجمتِهم ، ويرَوْن انَّ صنيعَه هذا وما ألقاه من ظلال وما احدثَه من اثر ، لم يتقلّص منه شيءٌ ولم يتغيّر ، بل هو في تقدمٍ دائم وفي ازديادٍ مستمرّ .

وليست القضية في نظرهم محصورةً في نصّ القرآن المجيد وحدَه ، او في متونه التي هي الآيات والسور ، ولكنّها واسعةٌ على مدى اتّساع القرآن المجيد ومنتشرةٌ بقدر انتشاره . وهل اتّساعُه وانتشاره إلّا ما دار حوله من علومٍ وعقائدَ وفنونٍ وآدابٍ ولغةٍ وتاريخ ؟ وهلِ الحضارة العربية الإسلامية إلّا هذه العناصرُ ومداها الذي اخذتْه ؟ ففي ايّ مكانٍ نزل فيه القرآن المجيد يرى فيه اليهود عدواً لهم ، لا يجوز أن يقعدوا عن مناهضته والكيدِ له وضربِه ضرباً لا هَوادة فيه . وفي ايّ علِم او فنٍّ ظهر القرآن المجيد ، فهو عندهم علِمٌ موبوءٌ بالأمراض وبكلّ انواع الطاعون ، لا يستطيعون أن يَهدأوا حتى يحاربوه ويَقضوا عليه . واين هي الأمكنة التي ينزل بها القرآن المجيد إلّا بلادُ العرب والمسلمين ؟ واين هي العلوم والفنون التي يتوزّع فيها اثرُه وتظهر ظلالُه إلّا علومُ العرب والمسلمين وفنونهم ؟

فلا بُدَّ لليهود إذاً ان يتحرَّكوا ليمزّقوا المكانَ ومَنْ هم بالمكان ، وأن يُنفقوا جهودَهم وما في وِسعهم من الطاقات ليبدّدوا هذه العلومَ والفنون ومن يهتمُ بها ويأوي إليها . وكيف تراهم اليوم يَسكتون او يتقاعدون وقد صار عندهم من القوّة ما يُهدّدون به العالم ومن الطاقات ما يديرون به العالم ويوجّهونه ، وهو اليومُ الذي هيّأوا له تاريخَهم كلَّه ونَذروا له حياتهم كلَّها ؟ وقد سنحتْ لهم الفرصةُ الآن ولذّتْ وطابتْ ، فهم من القوّة على اشدِّ ما تكون القوّة

ومن الغنى والملك على أكثرِ ما يكون الغنى والملك، والعربُ والمسلمون في مُقابلهم، هم في ضعفٍ ليس بعدَه ضعفٌ وفي فقرٍ وجهلٍ ليس مثلَه فقرٌ وجهل، وفي حالةٍ من التخاذل والتمزّق ربّما لم تُعرَف له سابقة. فلماذا لا يسارعون إلى ملء هذه الفرصة وتعبئتها بالخطط والأعمال التي من شأنها، أن تردَّ عنهم هجمات القرآن وما خلّفتْه عليهم هذه الهجمات في تاريخهم الطويلِ من آثار واحمال، لا تزال وطأتُها تُرهقهم والنوءُ بها يُغْبيهم ويشقُّ عليهم؟

واليومَ إذا هم راحوا يصنعون السلامَ مع العرب، هل سيشارك السلامُ في حملتهم هذه على الحضارة العربية الاسلامية التي مكانُ القرآن المجيد منها مكانُ الراس من الجسد؟ وإلى أيّ مدى سيشارك؟ وهل هو في مشاركته اكثرُ فعاليةً وتأثيراً لضرب هذه الحضارة ومَحوِها اكثرُ من الحرب أم إنَّ الحربَ أكثرُ منه؟ هذه الأسئلة وامثالُها هي التي تدور في أذهان قادة إسرائيل، عندما يُطلبُ إليهم أن يواجهوا مسألةَ السلام مع العرب، وأن يفكّروا في عقد معاهدة صلحٍ بينهم وبينهم. ونحن نرى أنَّ الحرب بين العرب وإسرائيل ليست أشدَّ وطأةً عليهما من السلام، إذا كان هذا السلامُ صفقةً تجارية، تتوزّع الصهيونية أرباحه ومنافعه مع سياسة أمريكا ومع السلطات العربية المجرورة، وإذا لم تصنع منه وسيلةً لتهدئة أحقاد التاريخ والتخفيف من غليانها. ونرى أن الأفق لا يَحمل تباشير السلام المُطهِّر المُنقّي، وإنّما يَحمل السلامَ التجارةَ التي ستُوقّع على صفقته الأيدي الماهرة كما وقّعتْ على أختها من قبلُ مع مصر. ولكنْ إلى متى ستبقى التجارة قائمةً دائرةً في السلام؟ إنّها لن تدومَ طويلاً، فهي أقلُّ ربحاً من تجارة الحروب واقلُّ قُصّاداً وطُلّاباً؟ وهؤلاء أبطالُ السوق وصنّاعُ الحروب، عندهم نَهَمٌ إلى المال لا يعدِلُه إلّا نهمُهم إلى الدماء والدمار. فما هو

السلام عندهم أكثرَ من ثمنٍ لسهرةٍ صاخبةٍ إذا وَجدوا أن سوقَه كاسدةٌ بجانب حربٍ طاحنة.

ولا يوجدُ هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بأنّ إسرائيل، صَنعتْ سلاماً مع العرب أم لم تَصنع، فإنّها لن تَقطع حَربَها مع الحضارة العربية الإسلامية ولن تخفّف منها، ولن يكون بينهما إلّا هُدنةٌ مصبوغة بالرّياء. وعزْبُ اليوم هم في نظرها جزءٌ يسير من هذه الحضارة، وهم وإن كان ارتباطهم بها ضعيفاً وخفيفاً لا يكاد يبين ولا يُعوَّل عليه ولا يُخشى منه، فلا ينبغي أن تَغفل إسرائيلُ عن مراقبة هذا الارتباط خشيةَ أن يقوّيَ فيهم الحنينَ إلى العروق الأولى وإلى الأصول القديمة. وهي منذ البدء، كما قلنا قبل قليل، لم تُعِدَّ نفسَها ولم تتهيّأْ لحربٍ مع العرب وحدَهم، وإنّما لحربٍ مع المسلمين الذين هم جميعُهم قوّامٌ على الحضارة العربية الإسلامية وحماةٌ لها وممثّلون. فساحةُ المعركة إذاً واسعةٌ جداً، تحتاج إلى عُدّةٍ كبيرة وإلى طاقات كثيرة ووسائلَ متنوعةٍ وأساليبَ مختلفة. ولكنْ يكفي أن تكون الصهيونية هي عُدّةَ إسرائيل لكي تفكّر بمثل هذه الحرب وتوسّع في دائرتها حتى تشمل العالم، إذا وَجَدَتِ الأمر يَقتضي ذلك ويحتاج إليه. والآن ماذا يفعل المسلمون؟ إنّهم يعلمون أمرَ هذه الحرب، إنّها ليست سرًا من الأسرار وليست خافيةً عليهم. وكيف ستكون سرًا وهي تدور في بلدانهم وفي ديارهم؟ أم كيف تكون خافيةً عليهم وهم يُعانون من ويلاتها ويتذوّقون طعمَ أساليبها؟ وهم وإنْ غضبوا أو استنكروا وقاموا وضحَّوْا، فإنّهم لا يزالون ضعفاءَ أمام هذا الإعصار المجنون الذي حرَّكتْه الصهيونية وضربتْهم به، ولا يزال الاستعداد عندهم ضئيلاً في مواجهة ما حشدوه لهم وما أعدّوه من عدّةٍ ومن عدد.

ونحن لا نعجب عندما نعاين المسلمين، وهم في هذه الحرب

العاتية ضعفاء ، وليس في أيديهم عدّة ، وليس عندهم فُرَصٌ مواتية ، وإنّما نعجب لأمر الصهيونية التي تزداد خوفاً وقلقاً ، كلّما أمعنت في إعدادها لهذه الحرب وتفنّنتْ في التجهيز لها وكلّما أوغلت في إيقادها وفي قذف الإسلام بالأحقاد والمسلمين بالأضرار . وكان أمراً طبيعياً من الصهيونية ، وهي السبّاقة والمتفوقة في الميادين كلها ، أن لا تُحسّ بشيءٍ من القلق وأن لا يعرف الخوف إليها سبيلاً .
ولا يعسر علينا إذا رحنا نتلمّس سبباً لذلك ، أن نجده في أقوال المتفوّقين من كتّاب الغرب ومفكّريه ، ومنهم من هو صديقٌ للصهيونية ومنهم من هو عدوٌّ لها . وهم على هذا التباعد بينهم في النظرات وفي المناحي ، قد اتّفقوا جميعهم على القولِ والاعتقاد ، بأن المستقبل غير مأمون لا تستطيع أن تتحكم به عدّةٌ وأسلحةٌ مهما كانت قوية ولا أن تتصرَّف بتوجيهه خطّةٌ مهما كانت محكمة . فالمستقبلُ غامضٌ مستعصٍ عل دخولِ النظَرات إليه وعن نفود الظنون والحدوس إلى سنّته وما تدّخره من مفاجآت . ويقولون أيضاً ، وما أجمَله من قول! : ليس من الضرورة دائماً أن يتغلّبَ القوي على الضعيف ، ويكفي الضعيف أحياناً أن يكون إلى جانبه الحق وأن يكون مظلوماً لكي ينتصر ، وإن لم تكن عدّته كافيةً لردعِ عدوّه والتغلّب عليه . ونحن نقول : إنَّ هذا الكلام وإن كانِ له محلّه من الاعتبار والتقدير ، لكنّه لا يُغني في أيّ حالٍ من الأحوال عن الاستعداد ولا يقوم مقام التهيئة والتحضير .

ولا أزال أذكر أنَّ وفداً من صحافة ألمانيا الشرقية القديمة ، زار سورية في أعقاب حرب تشرين ، واستشْرَف آفاقَ البلاد ليطّلع على ما فيها من سياسة وعلوم وفنون . وأذكر أنَّ لقاءً جرى بين هذا الوفد وبين مجلّة الفرسان ، شاركتُ في حضوره والاستماع إلى أهم ما حَدَثَ فيه ، وهو حواره مع رفعت الأسد . وممّا يعنينا أن

نذكر من هذا الحوار هنا، هو أنَّ سائلاً من الوفد سأله وقال: هل تعتقد أنَّ المعركة بين العرب واسرائيل هي معركة قومية أم معركة دينية؟ فأجابه: نحن في بيوتنا ساكنون وعلى أرضنا آمنون، فجاءت إسرائيل وغزتنا واعتَدَتْ علينا، وأخذت بيوتنا، واغتصبت ارضنا. فكان لا بدَّ لنا أن نحاربَ هذا العدوَّ المغتصب، لندفع عن انفسنا اعتداءه ونستردَّ من يده ما اخذ من ايدينا. ونحن إلى جانبنا الجزءُ الأكبر من العالم في قضيّتنا العادلة وفي معركتنا الحامية التي عقدنا العزم على أن نخوضها، فلا نتوقف ولا نتنازل ولا نتراجع إلّا بعد ان يتوقّف الغازي الظالم عن غزوه وظلمه، وبعد أن يستردَّ الشعبُ الفلسطيني حقوقَه المشروعة المغصوبة. والعالم كلُّه يعرف، اننا لا نحارب إسرائيل، لأنَّ شعبها هم يهودٌ، او لأنَّ ديانتَهم هي اليهودية، ويعرف أنَّنا لولا ظلمُهم لنا وعدوانهم علينا، لم يكن بيننا وبينهم لا حربٌ ولا ضرب. وأمّا من جانب إسرائيل، فهي المسؤولة عن المعنى الذي تُعطيه لهذه الحرب، وعن الوجه الذي تُظهرها فيه. وأمّا من جانبنا نحن فلا يهمّنا ذلك المعنى الذي تُعطيه اسرائيل لهذه الحرب، سواءً كان قوميًا أو دينيًا أو فلسفيًا أو فنيًا، وإنّما الذي يهمّنا هو استرجاع الأرض الغصيبة والحقوق السليبة، بالحرب أو بالسلم. فإذا أرادتْ الحربَ فنحن للحرب، وإذا أرادتْ السلمَ فنحن للسلم.

وسأله سائلٌ آخر، وكان في سؤاله ماهراً وخبيثاً، فقال: كيف تتصوّر ابعادَ المعركة بين العرب وبين اسرائيل في الوقت الحاضر وفي الغد المقبل؟ فأجابه وقد اخذته شيءٌ من الحدّة: نحن في معركة لم نسعَ إليها، ولم نطلبها لا برسالةٍ ولا بهاتفٍ، وإنّما فُرِضَتْ علينا بالقوّة. والذي فرضها هو اسرائيل ومن يقف إلى جانبها من القوى الطامعة. فهي الظالمة ونحن المظلومون، وهي

المعتدية ونحن المعتَدى علينا. وليس من حق العرب أن يكونوا جبناءَ في هذه المعركة ولا أن يتراجعوا أو يتوقفوا حتى يَرُدّوا عنهم الإعْتِدَاء ويدفَعُوا الظُلْمَ، ويُعيدُوا إليهم حقوقَهم. وارى أنَّ اسرائيل ستبقى مصرَّةً على مواقفها، ماضيةً في عنادها، عازمة على الاستمرار في سياسة العنف والإيغال في العدوان والاعتداء. وليس في آفاق المستقبل حتى الآن إشارة إلى أنها ستتوقّف وستجنح إلى الحوار والسلام، وليس فيها ما يدلّ على بزوغ إشعاع من أملٍ في ارتداع اسرائيل عن مهاجمة العرب والبغي عليهم، بل أصبحَ في هذه الآفاق كثيرٌ من الاشارات التي تشير إلى أن اسرائيل تنطوي على سخطط جديدة. منها ما يعتمدُ على التوسُّعَ في الأرض والتمدُّدَ مبدأً لها وغرضاً، ومنها ما يعمل على بثّ عناصر التفرقة والتصّدع بين العرب، لتعودَ المعركةُ هيّنةً خفيفةَ الوقع على إسرائيل وعنيفةً قاسيةً على العرب. ومن هذه الخطط ما يرمي إلى تفتيت أوضاع الفلسطينيين وتقطيع الروابط والأواصر التي تربطهم بفلسطين وتشدّهم إليها. ولكن أنظرْ إلى توسُّعها الجديد، هل الآنَ من صبر العرب وحَثَّ في عزمهم أم انَّه زادهم إصراراً على إصرارهم وعزماً على عزمهم في المجاهدة والمصابرة وفي البذل والتضحية؟ وانظر إلى العرب تَر أنَّهم، كلّما قامت إسرائيل باعتداءٍ جديد أو بضربةٍ جديدة على دولةٍ منهم، يسارعون إلى التوحُّدِ ويشتدّ انضمامُ بعضهم إلى بعض. فهم متّحدون فيما بينهم شاؤوا ذلك أم أبوا، واعتداء اسرائيل لن يزيد في تصدّعهم واتحادهم. وهؤلاء الفلسطينيون، كلّما ازداد عنفُها عليهم وضربُها لهم، كلّما ازدادت روح المقاومة والتضحية عندهم. وكلّما ازلت بهم الفواجعَ المؤلمَةَ ازدادوا صبراً واستعداداً لاستقبال فواجعَ أخرى اشدّ الماً. وهكذا تبيّن لنا ولأصدقائنا في العالم من دولٍ وشعوب، أن إسرائيل بما تأوي إليه

من سياسة العنف والإرهاب ، لن تجعل هدفاً واحداً من أهدافها في مأمن من الخطر ، ولن تجبرَ العربَ على الاعتراف بها والإقرار بسيطرتها ، ولن تجرّهم إلى الخضوع والاستسلام . وإذا حقّقتْ إسرائيل شيئاً من هذا ووصلت إلى بعضه ، فإنّه لن يكون مكيناً أميناً ، ولن يستمر طويلاً من الزمن . فأنا لا أرى أن المستقبلَ هو أحسن من الحاضر ، بل هو أسوأ منه للعرب ولإسرائيلَ معاً . وإذا كان على العرب أشدَّ سوءاً ، فعليهم أن يصبروا ويتحمّلوا وأن لا يَفْتُرَ عندهم السعيُ والجهدُ أو تنتهي المحاولات . فذلك دورٌ من العُسْرِ سيتخلّصون منه مهما متدَّ بهم وتَطَاول عليهم . ومن ثَمَّ سيرحل عنهم وينتقلَ إلى اسرائيل ، ويعقب ذلك العسرَ يسرٌ . نقول ذلك ، ونحن نردّد الآية : «وتلك الأيام نداولها بين الناس» .

وتابع يقول : قد يكون من حقّ العرب أن يُسمّوا هذا الذي يمرّ بهم منذ فاجعة فلسطين زمناً أسودَ ، وأن يقولوا إنه زمنُ الويلات والنكبات ، وأن يروا حياتَهم فيه حياةَ سوءٍ وجحيم ، ولكن لين من حقّهم أن يغفلوا عن وجهه الآخر الذي يحمل إليهم أسبابَ القوة وعناصرَ التقدّم . وأعني بوجهه الآخر ، أن نَّ فاجعةَ فلسطين وما أعقبها من ويلات ونكبات ، هي تحدّيات أخرى ألمّت بالعرب ، مثلما ألمّتْ بهم تحدّياتٌ كثيرة . وأخذتْ تهزّهم أكثر ليفهمو عنها الدروس ويأخذوا منها العبر وليتعلّموا كيف يتحمّلون وكيف يجدّدون في البناء ، كما سبق لهم أن تعلّموا وجدّدوا في القرون الماضية التي عرفوها . فليستْ الفاجعات ولا الدّواهي بجديدة عليهم ، وإن كان ما يلاقونه اليوم أفجع وأدهى من كل ما سبقَ ومرَّ عليهم . وهم لذلك ينبغي أن يصمدوا اليوم ويصبروا أكثر ممّا صمدوا وصبروا ، فليس لهم من طريقٍ آخر أقرب من هذا الطريق وأصلب لتجديد أنفسهم وإعلاء شأنهم . ومثلهم في ذلك مثل أيةِ أمةٍ من الأمم وأيّ شعب من

الشعوب ، فما من أمّةٍ بلغت الذروة العالية في البناء والتقدّم إلّا على ظهر التحديات ، وبقدرِ ما كانت التحدياتُ قويةً صلبةً بقدرِ ما كان بناؤهم قوياً صلباً . ولولا التحدّيات ما صَنَعَتْ الأممُ حضاراتها ولا بنت الشعوبُ امجادَها ، ولا كَبُرَتْ وتَسامتْ بأعمالها ، وهكذا قال ابن خلدون وغيرُه من الباحثين . ولن نمدَّ يَدَنَا إلى خارج أمتنا لنأتي بالأمثلة ، ففيها لكل لون امثلةٌ ودلالاتٌ . وهذا تاريخُها حافلٌ بغزو الغزوات وغارات المغيرين الذين جاؤوا من اقاصي الدنيا ، ولم يتركوا وسيلة عرفوها إلّا واستعملوها في أنواع القتل والإبادة والتدمير ، وفي أنواع السبي والأسر والتشريد . وبقيتْأمتُنا عل ارضها قائمةً صامدةً ، والذين شُتّتوا منهم في البلدان وشُرّدوا نقلوا معَهم أمّتهم بعلمها وحضارتها وفنونها المشرقية الزاهية ، كما صنع عبد الرحمن الداخل الذي نسميه صقرَ قريش وجماعته ، عندما هربوا ودخلوا بلاد الأندلس ، وبدأوا ببناء حضارة ، تابعهم عليها أخلافُهم من بعدهم يعملون ويجدّدون بدابٍ ومهارة حتى انقضت عليهم قرونٌ ثمانية . وها هي آثارُهم تملأ ربوعَ أسبانيا والبرتغال . ولا يزال ما فيها يشهد على أنّهم كانوا على جانبٍ كبير من العطاء والتقدّم والإبداع . وإنَّ حضارتنا التي بقيت هذه القرونَ الطويلةَ في شبابها صابرةً صامدة ، لم تعرف الشيب ولا الهرم ، لا يخالجنا شكٌ بأنها ستظلُ كذلك شابة قويّة حيّةً لن تهْرَم ولن تزول . وأرَى أنّه لا بدَّ للعرب ، في مواجهةِ التحديات الكبيرة التي تخلقها لهم إسرائيل والصهيونية ، من أن يجتهدوا ويُعدّوا انفسَهم بكلّ انواع العُدَد ، من اسلحة وصناعة وعلوم واقتصاد ، فإنْ بقيت إسرائيل راكبةً رأسها ، مصرّةً على تحدّياتها ، موغلةً في احقادها واعتداءاتها ، فأمّتُنا مستعدّة مسلّحةٌ ، وإن جنحتْ اسرائيلُ يوماً إلى السلم فلا يمنعُ أن تكون أمّتُنا قويةً في زمن السلم كما هي قويةٌ في زمن الحقد

الحرب . وكان لكلامه هذا أثر على الوفد ، دفعهم إلى أن يُغدِقوا عليه شيئاً غير قليل من العناية والاعتبار وأن يخصّوه بالتمييز .
وانا لست صديقاً لإسرائيل ولا أُحَبُّ أن اكون صديقاً ، غير انّني لا استطيع إلّا أن اصدقها القول فيما ساقوله ، وأُخلِصَ لها في بث الراي والنصيحة . فالصدق والإخلاص وحدهما هما اللذان يعيشان ويبقيان ، ولا يهمني ، إن راحت اسرائيل تُلقي بالاً لهذا القول والنصيحة أم انها راحت تشيح عنهما بوجهها وتَعْبَس بهما . فأنا اقول ، كلُّنا مخلوقون لله وكادحون للقائه ، وليس أحدٌ منا ولداً له ، ولا احدٌ منا افضل من احدٍ إلّا بالقولِ الجميل والعمل الجميل . وإذا كان لله من شعب مختار ، فليس هم اليهود ولا النصارى ولا المسلمين ، ولكنّهم أولئك الذين اختاروا ما كان خالصاً لله من الأعمال من بني البشر جميعاً . وأولئك الذي عرفوا أنفسهم وعرفوا كيف يعرجون بها إلى معرفة خالقهم ، فاتحدت المعرفتان عند لقاء المخلوق بالخالق .
وإذا كانت إسرائيل ، قد غرَّها اليوم انّها الأكبرُ قوّةً والأكثر غنًى وانَّ العربَ والمسلمين هم الأصغرُ قوّةُ والأقل غنًى ، فإنَّ قوّتَها لم تكن إلّا بعد ضعفٍ وغناها لم يكن إلّا بعد فقر . وإن دوامَ الحال من المحال ، فقد تعود ضعيفةً ويتفرّق أبناؤها في العالم مرّة أخرى كما كانوا متفرّقين ، وقد يعود العرب والمسلمون متّحدِين أقوياء كما كانوا متّحِدين أقوياء . وإن هي حدّثتها احلامها ، بأنها ستبقى على قوّتها هذه وعلى غناها هذا ، فحديثَ الأحلام مخادِعٌ مخاتِلٌ ، وكَاذب متحايل ، كثيراً ما أوقعَ الأممَ والشعوبَ والأحزابَ والفرقاءَ في السواهي والدواهي ، وكثيرا ما أودى بالحضارات والمدنيات .
لماذا لا يتذكر اليهودُ اليوم ما كان عليه فرعون من جبروت ومن طاغوت ، وما صنع باليهود الأوائل ، وما اذاقهم من مرارة الألم

ومن قسوة الأحداث ؟ ولماذا لا يتذكرون ماذا كانت نهايةُ فرعون وجنوده وما كانوا يعرشون ، ثم يعلمون أن ذلك هو مصير كل ظالم وطاغية ، فرداً كان أم حزباً أم شعباً ؟ ولماذا لا يتذكرون أنَّ النبي موسى كليمَ الله خلّص اليهود المظلومين في ذلك الوقت بعصاه ، وأن العصا لا تزال موجودة ، وأنّها ستخلّص المظلومين من اليهود ومن غير اليهود ، وستبقى موجودة خالدةً خلودَ الدهر والأبدية ؟ ثم لماذا لا يتذكّرون أنَّ السامريَّ الذي أوقَع الفتنَة بين اليهود في غياب النبي موسى بُصنعه عِجلاً جسداً له خُوارٌ ، لم يَمُتْ بعد ، وربّما آن الأوان له لكي يقوم فيهم مرّةً أخرى ويأتيهم بالفتن ويرسل عليهم الدّواهي ؟ ولماذا لا يتذكر اليهودُ أنَّ هتلرَ النازيَّ الألماني كان فرعون الزمن الجديد ، وأنَّ عصا النبي موسى كانت هي إرادة الشعوب ، وفوقها إرادة الله ، وأنّه لاقى من المصير ما لاقاه فرعونُ مصرَ وما سيلاقيه كلُّ فرعون من مصير ؟

إذا تذكَّر اليهودُ كلَّ ذلك على ضوء حكمة النبيّ موسى كليم الله ، وليس على رنين أموال الصهيونية ودويّ أسلحتها المدمّرة ، ثم تفطّنوا وتبصّروا في قريب ما جرى وبعيده علموا ، ولا شك ، أنَّ قادَة اسرائيل هم فراعنَةُ هذا العصر ، وأنَّ السامريَّ بينهم ينام ، ومعه عجله الذي سيملأ بخُواره المشرقَ والمغربَ متى أذِنُوا له . ونحن نقول ولا نخشى ولا نهاب ، إنّنا ضد الفراعنة الظلّام ومع اليهود المظلومين ، ومع الرب والمسلمين المظلومين ومع النصارى المظلومين . ونحن جنود عصا موسى وإن كانت من خشب ، وأعداءٌ ألدّاءُ لظلم فرعون وإن كان من ذهب . فتلك شقّت البحرَ لأنها كانت صوتاً للعدل ضدّ الظلم ورمزاً للخلاص من العبودية والأسر ، وأمّا ذلك الذهب فقد ضاع وذهب ، بعد أن كوى خزّانه ومالكيه ، وكان لوناً من ألوان الحيَل والباطل ورمزاً للخديعة والظلم والمنكر . وما

من مظلوم ظلمه فراعنة إسرائيل إلّا وسيعود إليه حقّه من ظالمه، مهما كان رنينُ أموال الصهيونيةِ عالياً ومهما كانَ دويُّ أسلحة الصهيونية مُرعباً ومخيفاً.

نعم! لقد انقطعت النبوّة بعد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله، ولكنَّ سنُنَنَ النبوة لم تنقطع وإشرافَ النبوّة لم يغب. وأقصد بذلك هذه المعجزات التي باتتْ تَبهر الأعينَ وتُصِمُ الآذانَ بقوّة ظهورها. أليستْ معجزةً من هذه المعاجز انفراط عقد الشيوعية وسقوطها في مستنقع من الهزء والسخريةَ والشماتة؟ أليست معجزةً انهدامُ حائط برلين وانحسار أفكار ماركس في بلاد ماركس نفسه وفي منزله وبين أفراد عائلته، وانهزامُ الإلحاد من قلوب الملحدين بُنَاةَ الإلحاد وصنّاعه؟ أليست معجزةً أيضاً، أن تصير هيروشيما، المدينة اليابانية التي دمّرتها الذرّة الأمريكية، مدينةً تضاهي أحسنَ المدن في أمريكا؟ أليست معجزةً أن انكلترا التي كانت تُسمّي نفسَها الامبراطورية التي لا تكادُ الشمسُ تراها؟ وكأنَّها بصنيعها هذا فعلتْ فعل هارون الرشيد، يوم أن قالَ للغمامةِ المُمطرة وهي تتجوّل في السماء: إذهبي أينما شئتِ أن تذهبي، فلنْ تُمطري أرضاً غير أرضي ولن يذهب خراجُك إلّا إلى جَيبي. ولكنَّ انكلترا لم تتّعظ به ولم ترَ أرضَه كيف تمزّقتْ إلى أرضينَ وبلدانَ، وإلى شعبه كيف تقطع إلى شعوب وأحزاب. ثم أليستْ معجزةً أنَّ الإمامَ الخميني كان في الثمانين يوم أن دكَ عرش فرعونَ إيران وجبّار الزمان، وصار كلُ فردٍ في شعبه عصا في يده، تهوّن عليه العسير وتصير له هادياً ودليلاً في المسير؟ أليس الذي صنع هذه المعجزاتِ كلَها بقادرٍ على أن يصنع معجزةً بين العرب والمسلمين وبين اسرائيل؟ ثم أليس هو بقادر عل أن يخلق من عرب اليوم الذين هم عبيدٌ أموات، سادةً أحراراً وأحياءً أقوياء؟ وهو الذي يُخرج الحيَّ من الميّت والصادقَ

من المنافق والمؤمن من الكافر .

إن المعجزة لآتيةٌ ، والناسُ كلُّ الناس أخذوا يرونها بضمائرهم ويسمعونها بقلوبهم . ويا ليب إسرائيل تسمَعُ غيرَ رنين أموال الصهيونية وغير هدير أسلحتِها ودويِّها !

وإلى هنا أحسب أنَّنا قد وفينا بما كنّا قد وعدنا به ، من الحديث على أهم المسائل وأبرز القضايا التي تأخذ نصيباً في هيّن في حياة كلّ فردٍ من أفراد شعبنا ، بل قل إنَّ مصير كلّ فردٍ فيه لانطٌ بسير هذه المسائل وتحرّك هذه القضايا . فكيف تُرى سيكون الأمر إذاً مع الساسة ورجال السلطة وأصحاب الإرادة ، ورفعت الأسد هو واحدٌ من أعرفهم وأشهرهم ؟ وإننا لنعلم أنَّ الحديث على مسائلنا وقضايانا يطول ويطول حتى يُحسَبَ أنَّه لا ينتهي ، لكن تقصّدنا أن نمتنع عن السروح فيه أكثر من هذا القدر الذي رأينا أنّه يكفي للتعريف بكل مسألة كما ينبغي أن يكون التعريف ، ولتقديم كلّ قضيّة كما ينبغي أن يكون التقديم . وقد انطلقنا في الحديث على سجيّتنا من غير أن نلتفت إلى رأي فلان من أرباب السياسة ونعتمده رأياً لنا ، ولا أنْ نتوجّه إلى أفكار فلان من رجال الفكر والعلم ونستعير من أقواله قولاً ومن أفكاره فكراً . وهذا يعني أنَّ ما صدرنا عنه من آراء ومن أفكارَ ليس لأحد غيرنا يدٌ فيها ، وليس من حقّ أيّ إنسانٍ آخر غيرنا أن يرى نفسَه مسؤولاً عن صناعتها وتقديمها .

٨
الاحتكام الى التاريخ

وما منعهم ان يؤمنوا إلّا أن جاءتهم سنّة الأوّلين .

قرآن مجيد

فهل ينتظرون إلّا مثل أيّام الذين خلَوْا من قبلهم ؟

قرآن مجيد

مَن سَنَّ سنّةً حسنةً فلَه أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة ومن سَنَّ سنّةً سيّئةً فلَه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة .

الرسول الأعظم

الاحتكام إلى التاريخ

وبعد ذلك ماذا يريدون منّي ؟ أجابَ الشابّ : يريدون أن يلتقوك وأن يجتمعوا إليك ، ثم تتكلّم ويتكلّمون ، لعلّكم بعد ذلك ، تتّخذون موقفاً واحداً من هذه الأحداث المريرة التي ألقتْها الشياطينُ ، في حماة وحلب واللاذقية وطرابلس ، وفي غيرها من المدن والأماكن . فعادتِ البلاد جحيماً فائراً ، لا مفَرّ لكلِّ مواطنٍ من أن يأخذ حظَّه من الإكتواء بها .

كان هذا سؤالي ، وكان هذا هو جواب ذلك الشابّ الذي دنا منّي وسلَّم عليَّ بخجلٍ وتواضع بعد أن استمع إلى درسي في فلسفة الوجود والموجود في الفكر الإسلامي . وهو الدرس الذي كنت تعوّدتُ أنْ أُلقيَه بعد الظهر من كلّ ثلاثاء في المعهد التطبيقي للدراسات العالية من جامعة السوربون ECOLE PRATIQUE DES HAUTES ETUDES . وبعد أنْ قدّم الشابّ نفسَه أنّه من الجزائر ، وأنّه مبعوثٌ من أصدقاءَ له يعيشون في أنحاءٍ متعدّدةٍ من أوروبا ، وبعد أن استأذن ليطارحَني حديثاً له قيمتُه وشأنُه ، تَجمّعَ على نفسِهِ وأُخذَ يتحدّث بألم ومرارة ، عن سوء أحوال الإسلام والمسلمين في بلدانهم وفي خارجها وعن تعاون الشرق والغرب للوقوف أمام موجات الإسلام التي تحاول التمدُّدَ والتقدّم ، ولتسيير خطط جديدة

يريدون بها أن يوسّعوا في المسافة بينهم وبين دينهم الإسلام ، وأن يغزوا عقولَهم وعقائدَهم بألوانٍ كثيرة من الأفكار الغربية الشاذّة والنظريّات الحمقاء والحمراء ، وأن يزرعوا بينهم الشكوك ، ليحصدوه بعد ذلك نُكراناً للإسلام . وقد أبان في حديثه عن ثقافةٍ لا يجوز التهاون بها .

ثم انتقل الى الحديث عن سورية وعلى ما يعانيه الشعب فيها من ظلم السلطة القائمة عليه . وراح يُفصّل في جوانبَ من هذا الحديث ، يعتبرها هامّةً ويقدّم عليها امثلةً ، ويُوجز في جوانبَ اخرى منه ويعتبرها أقلَّ شأناً واهميّةً . وقد عَرَفَ كيف يجعل من حديثه على سورية جسراً يَعْبُرُ عليه لينقلَ صوراً من أوضاع ، مَنْ سمّاهم المسلمين المناضلين من الشعب السوري في البلدان العربية وفي أوروبا ، وما هم عليه من بَثّ ألوانِ الجهود وتوزيع أنواع النشاط ، من أجل استمالة القلوب إلى قضيّتهم واستنهاضها إلى رِفدهم بالمعاونة . وحدَّث أن التعاطفَ معهم يزداد من المسلمين في أوروبا ومن المسلمين في أنحاءٍ متفرّقةٍ من العالم . ثم حدّث أنَّ بعضاً منهم ، كانوا قد استمعوا اكثر من مرّة إلى الأخبار التي تدور أحياناً في المجالسِ عنّي ، ودهشوا عندما رأوْا أنَّ الثناء على جهودي وعلى سيرتي في الكتابة والتدريس يكاد يظهر اكثر من غيره في هذه الأخبار . وهم حينما وَجَدوا مَنْ أشار عليهم بأن تُحاكَ بيني وبينهم خيوطٌ مِنَ الارتباط ، لم يصدروا عن رفضٍ او عن قبول في هذه المشورة . واجتمع الراي على ان اقوم بِفَتْلِ الخيط الأوّل بينك وبيننا ، فنحن كلُّنا إخوان ، ومسلمون ، لا فرقَ يُفرّقهم ولا اختلاف يسطو عليهم .

وكنت أستمع إلى حديث هذا الشابّ بكثيرٍ من الشوق وكثير من الشكّ . وعرفتُ كيف أُمسك على نفسي تطاولَها وأحبسُ فيها

شكوكها، وامتنعُ عن قولِ أيّة كلمة إلّا إذا كانت في التعبير عن الشوق لسماع حديثه، والإصغاء إليه والاهتمام به. من غير أن أجوب في جهةٍ من جهات حديثة، ومن دون أن أقرع باب الأسئلة والاستيضاح حفاظاً على الثقة وتمهُلاً في استيعاب المسألة والإحاطة بها. وافترقنا بعد أنِ اتّفقنا على أن يعود وأن لا ينقطع. فصار يأتي على موعد المحاضرة من كل أسبوع، مصحوباً بواحدٍ أو بجملةٍ من رفاقه الذين، بعضُهم من بلدان المغرب وبعضُهم من مصر. وصرنا نأوي إلى ركنٍ هادىءٍ بعد الفراغ من المحاضرة، نتحدّث قليلاً، إمّا عن موضوع المحاضرة وإمّا عن حَدَثٍ جديدٍ يشغل بالَ المسلمين، أو يعرّف بمن يأتي معه من رفاقه الجُدُد. إلى أن جاء اليوم الذي أردتُ فيه أن أستوضحه عن مسائلَ جمّةٍ، تتعلّق بأصحابه الذين قد ارتبط معهم برباطٍ من الودّ والعمل ومن التعاون، من أجل حماية الإسلام والدفاع عن مبادئه وأهدافه. وبعد أن اطمأننْتُ إلى صدقه ووضوحه فيما قدّمه من ردود وأجوبة، وأسمعَني ما أردتُ أن أسمعه، سألته هذا السؤال الذي جاء في أول حديثنا هنا: وبعد ذلك، ماذا يريدون منّي؟ فأجاب ذلك الجوابَ الذي ذكرته في إثره.

ولم أتَردّد بالتصريح عن رغبتي في لقائهم والاجتماع إليهم، وكاشفتُه بأنّني أحرصُ على التعاون مع الذين يجتهدون ويدأبون لإعلاء شأن الفكر في الإسلام، ويُضحّون، ويَبذلون النفسَ والنفيسَ لجَلاء رونقه والكشف عن حقيقته ومزاياه. وبعد أنْ ودّعني وانصرف، خلوْتُ أُحدّث النفس، وقلت سواءٌ أكان عملُهم هذا لُعبةً منهم أم خدمةً للفكر، فإنّها فرصةٌ لن أُفلتها من يدي! وكيف أدعها تُفلت وهي التي ستسمح لي أن أستمع من جديد إلى أقوال هؤلاء الإسلاميين، ومنهم الإخوانُ المسلمون في بلادي سورية، وأن

التعرّف إلى ما جدّ عندهم من أنماطٍ في التفكير وأنماطٍ في رؤية القضايا ومواجهتها ومعالجتها؟ وقد بتنا لا نسمع من أخبارهم إلّا التقهقرَ والتراجعَ، ولا نقرأ من أفكارهم إلّا ما يبثّونه على خِفيةٍ وعجل من بيانات، لا تحمل إلّا الوعيدَ والتهديدَ بقتل الفكر والمفكّرين، وليس فيها إلّا النذير بالويل والثبور للسلطة القائمة في سورية ومن هم وراءها من الشعب. بل إنّهم في بعض هذه البيانات، كانوا يسمّون فئةً بعينها، يقصدونها، ويكشفون عمّا ينوون أن يعتمدوه أسلوباً في معاملتها والسلوك معها، إنْ هم ظهروا عليها وأظفرهم الله بها. ولا تقل إنّ منه التهجيرَ والتشريد! فذلك أقلّه وأهونه. ولكنْ قلْ كما قالوا، القتل والذبح حتى الإبادة ولا هوادة في ذلك ولا رحمة، وسيبدأون بالأجنّة في بطون أمّهاتهم قبل الصغار وبالصغار قبل الكبار. وإذا رحنا نقرأ لهم ما يتسرّب إلينا أحياناً، ممّا يُخرجون ويُظهرون من صُحُفٍ ومجلّات، نعثر فيها على أن الحلول التي يطرحونها لقضايا المسلمين ومشكلاتهم، هي أشدُّ تعقيداً وأعنفُ خطراً من القضايا والمشكلات نفسها. فالعواطف عندهم ثائرةٌ والأحقاد فائرة، وهم الذين اصطفاهم الله وقرّبهم من بين مخلوقاته كلّها، والملائكة تنزل لتشاركهم في قتل أعدائهم، والجنُّ يخرجون من بطن الأرض لخدمتهم والاستجابةِ لأوامرهم، تلك هي بعض الحلول التي يستلّونها من كتبٍ فقهيةٍ معيّنة محدّدة، لا يبغون عنها حِوَلاً. وبعضُ الحلول الأخرى لا يسعهم ذكرُها لطولها، فيُحيلون القارىء على المصادر التي تذكرها، ويشوّقونه للرجوْع إليها والتدبُّر فيها. وقد اجتهدت كثيراً في أن لا يكون لهذه الصور والأفكار التي هجمتْ على خاطري وأخذتْ تلعب فيه تأثيرٌ يَصدُّني عن لقائهم، أو يدفعُني إلى أن أتّخذ منهم موقفاً هجيناً نابياً يؤذي الحقَّ أكثر ممّا يضرُّ الباطلَ. وعقدت

العزمَ على أن أسمع منهم كلَّ شيء ، وأن أقول لهم كلَّ شيء بهدوء ووضوح وصراحة ، كما تعوّدت ذلك في منهجي ، وكما اعتمدتُه في أسلوبي ومُعَالَجتي للأحاديث والأحداث .

ولعَلنا الآن نكتفي بسرد هذه الوقائع الخفيفة اليسيرة التي هيّأت لنا هذا اللقاء والتي كان لا بدَّ من سردها . ونسارع إلى أحداث اللقاء وما جرى فيها من القيل والقال ، ومن رفع الصوت وخفضه ، ومن السخط والرضى ، ومِن احمرار العيون وازورار الوجوه عند فريق وإلى لمعان العيون وإشراق الوجوه عند فريقٍ آخر . فبعد أن قَبِلوا أن ينزلوا عند رغبتي ، في أن يفتتحوا موسمَ اللقاء وأن يبدأوا هم بزيارتي ، وَفَدَ عليَّ لفيفٌ منهم ، وكانوا اثنين أو ثلاثة ، ثمَّ وَفَدوا مرّة ثانيةً ، وكان عددُهم أكثرَ ، وبتوطّدتِ الثقةُ بيننا ، وزال ما كان موجوداً من ظنون . وبات من السهل عليَّ أنْ أتوقَّع المسائل التي ستكون مطرحاً لأحاديثنا فيم سيجدُ بيننا من لقاءات ، وأن أحدس بالقضايا التي ستكون مَثَارَ جَدلٍ عندنا ومَسرحَ أُخذٍ وردَ في التفكير والتحليل ، وفي الترجيح والتأييد ، وفي القبول والرفض . ووجدتُ بعدَ وفودهم عليَّ مرَّتين ، أنَّ من حقّهم أنْ أفدَ عليهم وأن أزورهم وأردّ على الملاطفة بملاطفة مثلِها . وقد اختاروا أن تكون زيارتي لهم في مسجدٍ أَلِفوه واعتادوا أن يُقيموا فيه وعظهم وندواتهم . وكانت لقاءاتنا كلُّها بعد ذلك في هذا المسجد وفي مساجدَ أخرى متفرقة من باريس .

ومع أنَّ أحاديثنا في زيارتي الأولى لهم ، كانت طويلة ، وكانت مُفَصَّلةً واسعة ، لكنّها كادت أن تقتصر على موضوع واحد ، وهو شعب سوريا في محنته وفي مواجهتِه السلطة ، فقد تناول هذا الموضوعَ أكثرُ من متحدّث على أكثر من وجه ، بحيث أنَّه كان لكل متحدّث منهم وَجهٌ من الحديثِ خاصٌ به . فمنهم من تحدّث عن

اقتسام السلطة للغنائم بين بعضهم البعض، وبينهم وبين التجّار، وكيف يجري تهريب الأموال إلى خارج البلاد، ومنهم من تحدّث عن الفساد الذي يسري وينتشر في الجيش، وكأنّما يجري ذلك على خطّة معهودة مرسومة. ومنهم من تحدّث عن أساليب القمع والتعذيب التي تستخدمها السلطة ضدّ المتّهمين الأبرياء. ومنهم من تحدّث عن استهانة السلطة بمبادىء الإسلام ومقدّساته والعبث بالأخلاق جهرةً على الملأ. ومنهم من تحدّث عن الإخوان المسلمين، ونفى كثيراً من الشائعات السائرة عنهم، وشجبَ الأفكارَ المعزُوّةَ إليهم والداعية إلى إثارة الفتن وافتعال الأحداث، ونفى الآراء المنسوبة إليهم والقائلة ببث التفرقة بين المواطنين، والإيقاع بهذه الفئة دون غيرها والاستبقاء على هذه الفئة دون غيرها. ومنهم من تحدّث وأسهب في الحديث واسترسل، عن حوادث الاغتيالات وزرع المتفجّرات، وعن فتنةِ حماه، وعن توابعها من الفتن في المدن الأخرى. ومنهم من تحدّث عن مقاومة الشعب ونضاله واستبساله، وعن صبره. وكانت الأحاديث في هذه المسائل متواصلةً لم تنقطع إلّا عند قراءة وثيقة دامغة أو رؤية مصوّرات منشورة، تؤكد حديثاً أو تنفي حديثاً. وكنت أسعى إلى أن أرى لي دوراً في هذه الأحاديث، فنتّفق على أشياءَ ونختلف على أشياءَ أخرى. ولم يشاؤوا أن يُبقوا ما في نفوسهم مكتوماً، فاقترحوا عليَّ أن أرفد جهودَهم بما لديَّ من جهود، على قَدْرِ ما أشتهي، وبأيّ لون من الألوان أرغب وأشاء، وأن أضمَّ صوتي إلى أصواتهم لتقوى الصرخةُ في وجه السلطة. وقالوا: إنّهم يسألون التعاضدَ والتعاونَ وتوحيدَ الموقف، ولا يسألون الانتساب إلى حزب والانضمامَ إلى تجمّعٍ أو إلى اتجاهٍ سياسي. وعندما التمسوا منّي أن تكون مساندتي لهم بالتعبير واقترحوا أن تأتيهم جهودي بالكتابة، إمّا في أسلوب الشعر أو في

أسلوب النثر ، أجبتُهم إلى التماسهم هذا برغبةٍ وسرور . لا بل زِدتُ عليه واستبدلته باقتراحٍ أشدَّ وقعاً في النفوس وأبلغَ مُضيّاً في الإثارة والتأثير . وهو أن نعمد في كلّ لقاء إلى استحضار جهازٍ للتسجيل ، يحفظ لكل واحدٍ منّا كلامَه بصوته ولهجته وما هو عليه من حالةٍ نفسيّة . ومن شاء أن يحتفظ لنفسه بنسخةٍ مسجّلةٍ ، وجدَ السبيلَ إلى ذلك ميسورةً دون عناء . ولا يعود هناك من يستطيع أن يُنكر ما يُذاع له من أقوالٍ نَطَقَ بها أو آراء طَلَعَ عنها . فابتهجوا لهذا الاقتراح وسُرّوا أيّما سرور ، واستبشروا خيراً ، وترقّبوا أن يكون اللقاءُ المقبلُ قريباً ، وترقّبتُ مثلَهم ، وافترقنا ونحن ننتظر هذا اللقاء .

ثمَّ إنّنا التقينا بعد ذلك ، ثمّ كان لنا بعده لقاءاتٌ مطوَّلة وموسَّعة ، بَسطنا فيها حاضرَ أُمّتنا وقلبناه ظهراً إلى بطنٍ وبطناً إلى ظهر . وهجمنا على كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ من قضاياه ومشكلاته بالنظرة الفاحصة والتشخيص الدقيق والرأي السديد . ولا أقول إنّ ذلك كان هو شأني دونهم ، أو كان شأنَهم وحدَهم ، فقد اشتركنا جميعنا في قولِ الخطأ والصواب . وكنّا نقصد فيما نقول إلى تعرية الرشد عن الضلال والحكمة عن الحماقة . وربّما رُحنا نقول ونحن لا ندري ، في تقليبنا الحاضرَ وكلامِنا عليه ، إنّه لا حاضرَ لنا إلّا ماضينا . فمَنْ تبصَّر بنا يحلف أننا نعيشُ في ماضٍ بعيد ، وأنّه لا علاقة لنا بهذا الحاضر الذي تعيش فيه الشعوب والأمم في الشرق والغرب ، وأنّ اليوم عندنا هو في الأمس . ونحن نعرف ذلك وندري به ، ولكن لا نستطيع أن ننقل ماضيَنا إلى حاضرنا ، بدلاً من أن ننتقل بحاضرنا إلى ماضينا ، وهذا نِصفُ البليّة . ونعرف أنّ مستقبلنا سيكون هو ماضينا ، من غير أن يكون لنا حولٌ أو قوّةٌ على صنع شيءٍ من مستقبلنا ، أو تغييرِ شيءٍ من ماضينا ، وهذه

هي البَلِيّةُ كلُّها .

وإذا نحن قلنا إنّنا نعيش مع الماضي وحدَه ولا نقدر أن نعدّيَ عنه إلى الحاضر أو لا نُريد أنْ نُعدّيَ عنه ، فما عنيْنا بذلك أُمّهاتِ المسائل والقضايا التي هي في التاريخ سننُه ومحاورُه ، فتلك ما لا حيلةَ لنا إلى مسّ وجودِها ، ولا سبيلَ إلى تغييرها واستبدالها بأشياءَ أخرى غيرِها . وإنّما عَنيْنا نظرتنا الى أُمّهات المسائل والقضايا هذه ورؤيتَنا لها . وعنيْنا استحداث الأساليب التي نتناولها بها ، والوسائل التي بها نأخذ منها وبها نُعطيها ، حتى تعودَ مسخّرةً لنا أكثرَ ممّا نحن مسخّرون لها ، ويصير تصريفُ أمورها في أيدينا أكثرَ ممّا هو تصريفُ أمورنا في أيديها . فمِن هذه المسائل والقضايا ، يمكن أن نذكر مَثَلاً : الحبّ ، والحرب ، والحكم والسلم ، والسلطة ، والحريّة ، والعدالة ، والإنسان ، والشعب ، والأخلاق والحق ، والصدق ، والخطأ ، والصواب ، والخير ، والشرّ ، إلى غير ذلك من الأمثلة التي لا تُعَدّ ولا تُحصى . وهي كلُّها وُجِدتْ منذ أن وُجِدَ الإنسان في الماضي ، وهي ستبقى ما بقي الإنسان في الحاضر والمستقبل ، لا يستطيع أحدٌ لها تغييراً ولا يقوى على استبدالها بشيء آخرَ غيرِها . وكيف يقوى على ذلك وهي الحياة ، ومنها يتكوّن هيكل الحياة ، وعناصرُها الأولى ، وهي الأسباب التي بها يقوم ظاهرُها وباطنُها ! وإنّما الذي يستطيع الإنسانُ أن يغيّر فيه ويُبدّل هو أسلوبُ الرؤية ، وأداةُ المواجهة ، ووسيلةُ التقابُل والتخاطُبِ والتحاور . وفي الأسلوب والأداة والوسيلة يكون معيارُ الفهم والاستيعاب وميزانُ الحكمة والمعالجة ، ومقياسُ التقدّم والانفتاح . وهي التي يكون فيها تسابُق البشر وتنافُسهم ، فلا يَسبق من يَسبق إلّا بامتلاكه عنانَها ولا يتأخّر من يتأخّر إلّا بفقدان عنانِها . وبقدر ما يكون الإنسان ماهراً وحكيماً في تطوير الأسلوب

والأداة والوسيلة، بقدر ما يكون تَسلُّطه على التصريف وعلى مواجهة المسائل والقضايا قويًّا محكماً. فمسألة الحكم هي شغلُ الإنسان منذ وعى الإنسان نفسَه، وهي همُّه الأكبر. فليس بالضرورة أن يكون الأسلوبُ الذي حَكَم به الملكُ أو الأميرُ شعبَه قبل ألف عام، هو نفسُه الأسلوب الذي ينبغي أن يظلّ قائماً عند الملك أو الأمير الذي يحكم شعبه اليوم. وليس بالضرورة أن يَستغنيَ عنه وأن يستبدله كلَّه. ولكنَّ القولَ الحكيم في هذه المسألة، هو أنْ يَعمل الملك أو الأمير ما يَليق به كإنسان عنده عقل وفهم، لخير شعبه ومنفعته، وأن يقبلَ الشعبُ من مليكه أو أميره، ما يَليق به كإنسان له عقل وفهم، يَعقِل مصلحتَه ويُميِّز بين خيره وشرّه. فإذا رأينا أنّ الشعب يتطوّر ويمشي مع الزمن أو يسبقه، فإننا نقول، الملك في مكانه وأمانه والشعبُ في مكانه وأمانه، وإذا رأينا غير ذلك، فإننا نقول غير ذلك.

ولعلَّه قد بات من السهل الآن، على القارىء الذي يشاركنا هذا الحديث، أن يُخمِّنَ ويعرف أنّ الموضوعاتِ التي ثار الجدلُ حولها وامتدَّ الحِوارُ فيها، كانت هي: واقعَ بلادنا سورية شعبِها وسلطتِها، ومعه واقعُ الشعب العربيّ كلّه وسلطاته، ثمّ مسألةَ الحكم والنظر إليها من جهاتها المختلفة. ثمّ النماذجَ والأمثلةَ التي تصلح لشعبنا والنماذجَ والأمثلةَ التي لا تصلح. ثمّ علاقةَ ماضينا بحاضرنا، وكيف ينبغي أن نصنع هذه العلاقة ونقيِّمها؟ ثمّ ماذا ينبغي على الشعب في سورية أن يعمل لكي يُواجِهَ السلطةَ القائمة؟ وكيف يرفضها؟ وكيف يستبدلُها بالسلطة التي يختارها طوعاً بمِلء حريّته أو رغبته؟ وإذا شئنا أن نختصر الموضوعات كلَّها بموضوع واحد وبتعبير واحد، نقول: إنّه محاكمةُ التاريخ في حاضرنا، ومحاكمةُ حاضرنا في التاريخ، ثم الاحتكام إلى التاريخ نفسِه.

ونحن لا نريد لحديثنا هنا أن يستوعب ما دار بيننا في حواراتنا كلّها، في أصولِ الموضوعات وفي فروعها وشُعَبِها. فذلك وإنْ كان غيرَ خارج عن طاقة الحديث، فهو خارجٌ عن مهمّته ووُجهته. ولا نريد أن نَذكر منها إلّا ما يلتصق التصاقاً بأفكارنا التي هيّأنا أنفسنا لمواجهتها والتصارع معها. وسأسعى السعيَ كلّه لكي آتيَ على سردِ خلاصة ما قالوه من آراء، وعلى ذِكرِ الأسلوبِ الذي فَهموا به قضايانا وأحداثنا، والأسلوبِ الذي عالجوا به هذه القضايا والأحداث، وذلك بدقّةٍ وأمانةٍ من غير تحويرٍ ولا تبديل. وإذا ظهر أن حجمَ ما ذكرناه من آرائهم وأفكارهم التي طرحوها، هو صغيرٌ بجانب ما تحدّثتُ به أمامهم وما بَثَثْتُهم من كلام وقول، فلأنهم كانوا يعمدون إلى تَكرار أقوالهم وأفكارهم في كل مرّة يتحدّثون فيها، من غير أن يُغيّروا شيئاً، إلّا ما كان من صيغةٍ جديدة أو أسلوب طارىء. وربما لا يستطيعون أن يُغيّروا، لأنهم صاروا أسرى لنَمَطٍ من أنماط التفكير في حزبٍ من الأحزاب الإسلامية المنتشرة، وصاروا ليس في أيديهم حلُّ وِثاقهم ولا فكاكهم من الأسر. ثم إنني كنت إذا استلمت زِمام الحديث، أعرف كيف أخلق الفرصةَ، لأُسْهِبَ وأُفصِّل فيما أقدّر أنّ الاختصار فيه ليس بنافع ولا بكافٍ لإحداث الإثارة والتأثير، أو لردّ فكرةٍ من أفكارهم وتفنيدها. ولا أُنكر أنني أضفتُ في كتابتي هذه شيئاً آخَرَ على ما تحدّثتُ به في حواراتنا، ولكنّها إضافةٌ أصابتْ أطراف الأحاديث وحواشيَها وليس صُلبَها وقلبها. وهم وإنْ كانوا ينتسبون إلى أحزاب سياسية إسلامية منتشرة في بلدان المغرب العربي وفي مصر وسورية ولبنان، وبينَهم اختلافاتٌ غيرُ خفيّة، إلّا أنّ أسلوبَ فهمهم للمشكلات والقضايا يكاد يكون واحداً، وطريقَ مواجهتهم لها لا يكادُ اختلافُهم فيها يَبين إلّا بصعوبة. وقد آن لي أن أنصرف إلى

سرد هذه الخلاصة التي تَقطن فيها أرواحُ آرائهم وأحكامهم وأفهامهم، ثم أنعطف عليها بمختصَر لِما فاتحتُهم به من آراءٍ وأفكار، وعمّا واجهتهم به من نقد ودعوة إلى التغيير والانبعاث.

وكان أوَّل ما بداوا بذكره هو غيرتُهم على الإسلام، وتلهُّفهم لرؤيته قائداً وموجِّهاً للشعوب الإسلامية داخل بلدانها وخارجها. ثمّ ذكروا أنهم يَنْشطون في هذه البلدان، إنْ وَجَدوا إلى ذلك سبيلاً أوْ لم يجدوا، لإيقاظ الروح الإسلامية في النفوس، وتجديدِ الحبّ له والولاء لمبادئه. وكيف تُرى أنّهم لا يَنْشطون في سورية، والسبيل إلى ذلك ميسّرةٌ والفرصة مواتية؟ فالشعب فيها شعبٌ مسلم في أكثره، غلبتْه السلطة على أمره، وانتزعتْ منه مقاليدَه بالقوّة، فهو يكرهها ويَنفر منها، ويُحِسّ أنّها غريبة عنه، تستلهم في إدارته أفكاراً غريبةً عن أفكاره، وتتّبع معه طُرُقاً ليستْ هي طرقَه التي اعتادها. وهو يتربّصُ الفرصةَ ليقوم في وجهها ويعلنَ غضبتَه عليها، ويبحثُ عن الموجّه المُشرِف الذي يأخذ بيده، ويقوده إلى اتّجاهه وغايته. وكيف لا يستجيب له الإخوانُ المسلمون مع أشقّائهم من دُعاة الحركات الإسلامية في الوطن العربي، وهم يرَوْن أنَّ توجيهه والإشرافَ على قيادته، هو جزءٌ لا يتجزّأ من الإسلام، وفرضٌ نُدِبَ كلُّ مسلم للقيام به؟ وها هي الفرصةُ التي ينتظرونها، قد وقفتْ تختالُ أمامَهم وأمام الشعب، وهي السلطة. وحين سئلوا: كيف تكون السلطة فرصةً للإنفراج والانعتاق؟ قالوا: إنَّ السلطة هي في أيدي أناسٍ، ينتمون في أكثرهم إلى فئة، تتَّخذ من الإسلام مظهراً ولا تَدين به، ولا تَثِق بالمسلمين في سورية ولا تحبّهم، وهي مُعَبَّأة بالأحقاد السوداء والنوايا السوداء نحوَهم. واليوم وقد وَجَدوا أنفسَهم ظاهرين عليهم ولهم الغَلَبة، فإنّهم لن يُقصِّروا في الكيد لهم وبثّ عناصر الفتنة والتفرقة بينهم. ونحن بدورنا قد وجدنا اليوم

أنّ من السهل علينا، أن نحرّك هؤلاء المسلمين المغلوبين على أمرهم لمواجهة سلطتهم في سورية. سيّما وأنّهم قد امتلأوا غيظاً ونقمةً، وأصبحوا لا يُطيقون رؤية هؤلاء الغرباء الدّخلاء، وُلاةً للأمور عليهم وقادةً لشؤونِ حياتهم. ثم كشفوا وأوضحوا، أُنَّ الحركات الإسلامية الأخرى في بلدان المغرب ومصر وغيرها، تَرفِدهم بعونها وتمدّهم بمساندتها. وهم في كل يوم يسيرون إلى الأمام، ويتقدّمون إلى الغاية المأمولة. والمسلمون في سورية يستجيبون لهم، وينْشطون في مواجهة سلطتهم الظالمة، ويُقدِمون على الفداء والتضحية ولا يسألون ولا يخافون. وقد أُخذَتِ السلطة تحسب حسابَهم، وتَشعر بخطرهم عليها، وهي تَركَب لقمعهم وصدّهم كلَّ مَركب خشنٍ وقبيح، وتستعمل ما في يدها من الوسائل الهجينة والوحشية، لإسكات صوتِهم الذي ارتفع وإخمادِ نارهم التي اشتعلت. لكنّ المسلمين سَخِرُوا من وسائل السلطة وطرقها، ومن أعمالها المجنونة الحمقاء، وازدادوا إصراراً على إصرار للإيغال في المقاومة، واستَعَر في نفوسهم حبُ التضحية والفداء، فلم يبقَ هنالك فردٌ لا يُحِسّ أنّه مسؤولٌ عن عملٍ مهما كان صغيراً، يرمي به السلطةَ فيشارك في صنع الخطر عليها. وأصبحنا ننتظر كلَّ يوم وصولَ الفَرَج الآتي، فتنقشعُ هذه الظلمةُ التي طال جثومُها على صدر الشعب في سورية، ويعود الإخوان المسلمون قادةَ البلد وولاةَ الأمر، يعملون على تنفيذ أحكام الإسلام وتطبيق شريعته الغرّاء في مرافق الدولة كلّها، وفي إدارتها ومؤسّساتها، ويقتلعون من صدور أبناء الشعب ما زرعته السلطة المخلوعة الفاجرة، ليزرعوا محلّه الأخلاقَ الإسلامية والفكرَ الإسلامي. ولم يَفُتْهم أنْ يُكرّروا دائماً أنّهم عازمون، ولن يتردّدوا، على تأجيج نار المقاومة والهياج والإثارة في نفوس المسلمين، فإمّا أن تُولّي السلطة على ادبارها وينتصر

الشعب المسلم المناضل، وإمّا أن تُخرَّب سورية كلُّها بزرعها وضرعها، ويدمَّرَ حجرها وشجرها، وتصيرَ كأنها غيرُ موجودة. ولم ينسَوْا أثناء الحديثِ أن يُكثِروا من حمد الله وشكره، على أن ابتلاهم بهذه السلطة الغريبة الفاجرة، لكي تكون عاملَ تنشيطٍ لهمم المسلمين، ورفعِ الخمول الذي استمرَّ طويلاً على عقولهم. ثمّ لكي تكون عنصرَ تذكيرٍ لهم بإسلامهم الذي نسجتِ الأيّام الصعبة الطويلة بينهم وبينه حجاباً كبيراً من الغفلةِ والنسيان. ولم ينسَوا أن يقولوا أيضاً، إنّ سقوط سورية بأيدي المسلمين ونجاحَ الإسلام فيها سينشر العدوى في البلدان الإسلامية، القريبة منها والنائية، ويزيد في ثوران شعوب هذه البلدان وهياجها، ممّا يدفعها الى التحرُّك والقيام في وجهِ حكّامها الظلّام ومواجهة سلطاتها البليدة المتواطئة، وستنعم بالنصر كما نعم شعب سورية البطل، ويَصْدقُ اللهُ عبادَه وعدَه، فيرثُ المسلمون الأرضَ وما عليها.

وهم بعد أن كشفوا أنَّ السلطةَ خَلقتْ لهم من سورية مزرعةً صالحة للفِتن والأحداث التي يأمَلون أن يقطفوا منها موسماً طيّباً، يفي بأغراضهم ومآربهم، راحوا يعرّفون بهذه السلطة ويسردون تاريخها. فبدأوا بالحديث على حزب البعث في نشأته وأفكاره وأهدافه، ثم عرَّفوا برجالاته المؤسّسين، وشخصيّاته الأوائل، ومراحلِ نموّه حتى أحداثِ الثامن من آذار عامَ ثلاثٍ وستين وتسعمائة وألف. وكان ممّا ذكروه أنّه حزبٌ عدوٌّ للإسلام، مبادئُه تخالف مبادئه، وهي مزيجٌ من أفكار قومية منحرفةٍ شاذّة وأفكارٍ غربيّة متحلّلةٍ فاسدة. وأهدافه تحاول تشويهَ أهداف الإسلام والتعطيلَ عليها وتخريبها، وهي اقتطاعُ جزءٍ من ديار المسلمين ليكون ضدَّ الأجزاء الأخرى، وعزلُ فئةٍ من الشعب الإسلامي الكبير، لتصبح بعيدةً منفيّةً عن أخواتها الباقية من الفئات. واتّهموه بأنّه

صنيعةٌ للغرب بتغذيته ونشأته وتعهُّدِه بالرعاية ليصير شوكةً في قلب الإسلام وفي صدور المسلمين. ثم ذكروا وقالوا، إن المسلمين في سورية رفضوه بعد أن كشفوه وعرفوا هُويّتَه، وحاربوه ومنعوا أبناءَهم مِنَ الاقتراب منه والدخول فيه، فصار لا يُقدِم عليه منهم إلّا العابثون الضالّون، خُلَفَاءُ أولئك الذين هُمُ الآن في السلطة من الفئة المتظاهرة بالإسلام والمنعزلة عنه. واجتمع ضلال هؤلاء إلى انعزال أولئك، فكانتِ البليّة في اجتماعهم، ودخلتِ البلاد في عهدٍ جديد من الانتقامات وأخذ الثارات وظهورِ الأحقادِ السوداء القديمة، وانصبّتْ كلُّها نيراناً من أمام المسلمين وخلفِهم، تَحرقُهم كيفما اتّجهوا وتَرميهم أينما وقفوا واستقرّوا.

ولم يَفُتْهم، كلّما تقدّموا في الحديث، أنْ يُسمّوا أشخاصاً بأعيانهم كأمثلةٍ على فكرةٍ يقولونها أو رأيٍ يصدرون عنه، ليزيدوا من ثقة كلامهم عنده ومن تأثيرهم فيه. وهم حينما وصلوا إلى ذكر حافظ الأسد وأخيه رفعت ومَنْ حولَهما من العائلة والأقرباء والأصحاب وقفوا عند هذا الذكر، وشُغِلوا بالحديث عليهم عن كلّ حديث. ثم راحوا يتسابقون إلى تعديد التُّهَمِ السارية عن كلّ فردٍ منهم، ويتدافعون إلى التفصيل في هذه التُّهم، وما تنطوي عليه من أعمالٍ وقعتْ، في أنحاءٍ من سورية أو أنحاءٍ من لبنان أو أنحاءٍ من بلدان أوروبا. وإلى التنويه فيما خلّفتْه هذه الأعمال من آثارٍ بغيضةٍ وقبيحة على الناس، مِن مثلِ الرعب والفِتن، والتعصّبات الرخيصة الدامية، والانشقاق في الأسرة الواحدة، واغتصاب الأعراض والحقوق. ولم يتردّدوا أن يَحكموا بأنّ ما لاقاه المسلمون في تاريخهم الطويل من الويلات والمصائب والنكبات على أيدي الغُزاة والجُناة والمُغيرين، هو هَيّنٌ في جَنْبِ ما لاقَوْه من هذه الفئة. فكأنّهم، في رأيهم، قد صنعوا تاريخاً لا طاقةَ للتاريخ بأن

يتعرَّف عليه لكثرة ما فيه من الفظائع والشنائع.

واكثرُ ما ألحّوا على ذكره وسردِ أعماله واوصافه وقصصه ونوادره من هذه الفئة، هو رفعت الأسد ووحدتُه العسكرية التي اتّخذَتِ اسماً لها سرايا الدفاع. فما تركوا عَمَلاً شائناً إلّا والصقوه به وبعناصر وحدته، وما تركوا مُنكَراً إلّا وعلّقوه في عُنُقِه وفي أعناقهم معه. حتّى إنّهم أخذوا يُردّدون اسمَه، وكأنّهم في حَلَقاتِ الذكر، وصاروا في حالة من الهياج تُذكّر بأولئك الذين سيطر عليهم الحال، وهم يُنشِدون الأشعار الدينية، ويَقرأون الأوراد الصوفيّة، ويتمايلون يميناً ويساراً، ويدورون على انفسهم، وهم في نشوتهم سارحون. وراحوا يَروون عنه من القِصص، ويَنسِبون إليه من الأفعال والنوادر، ما لو أنّه كان ملكاً للجنّ، ثم أمَرَ مَنْ عنده من العفاريت والعمالقة والجبابرة، أنْ تخرج كلُّها من قماقمها، ومن تحتِ الأرض ومن اعماق البحار، وأذِن لها أن تُخرِّب وتُدمِّر وتَصرعَ وتَقتلَ وتَسبيَ وتَخطفَ، لَما صَنعتْ اكثرَ ممّا صنع هو في هذه القِصص التي نسبوها إليه، وفي هذه الأفعال التي الصقوها به. وهم في رَمَياتهم هذه، كما اشاروا واوضحوا، كانوا يذهبون إلى ما وراءَ رفعت وإلى ما هو ابعدَ منه. وكانوا بذلك يُلقون الثقةَ والصدقَ في نفوس السامعين، ويأسرون قلوبَهم ومشاعرَهم بما يَرمُون فيها من هِياج وإثارة.

وممّا زاد في دهشتي وتعجّبي منهم، وانا استمع إلى احاديثهم وحكاياتهم، انّهم كانوا يَربطون بين ما يُحدِّثون وما يَحكون من اعمالِ رفعت وقِصصه هو واصحابِه، وبين احكام الإسلام في هذه الأعمال والقصص. وكانوا يُحمّلون معانيَ مَروياتهم، نظرياتِ الإسلام في أشكال الحكومات، وما ينبغي أن يسودَ منها عند المسلمين ويستأثرَ باهتمامهم وعنايتهم. وكانتِ

الفُرَصُ تُواتيهم لكي يأتُوا على ذكر اختلاف الآراء عند أئمّة الفقه في مسألة الحكم والنظريات القائمة حولها ، ممّا تُصرّح به النصوص الإسلامية ، وممّا يُشَقَّقُ من هذه النصوص ويُستنبَط . وليس من شكّ في أنَّ الحديث عليها مُمتِع كثيرُ النفعِ والخير ، لكنَّ المحلَّ هنا لا يُسْعِفُ على بسطها والاستمتاع بها مرّةً ثانية . وأخبارُها مستفيضةٌ مبسوطةٌ في كتب الأقدمين من رجال الفقه والفكر ، وفي كتب الدارسين المُحدَثين من عربٍ وغير عرب . ويكفي أنْ نُشير إلى الموضوعات البارزة التي تنضمُّ عليها هذه الآراء والتي حرّكها أصحابنا المتحدّثون وخاضوا بها . فمنها : أنّه لا يجوز أن يقومَ على المسلمين إلّا من كان منهم ، ولا يحقّ لأحدٍ أن يتولّى أمورَهم إلّا برضاهم وبإجماعهم ، دون قَهرٍ ولا إجبارٍ على ذلك . ولا يجوز للحاكم الذي يتولّى أمورَ المسلمين ، أن يُطلقَ أيدي أهله وأقربائه في أموال الرعيّة وفي خيرِ الناس وأملاكهم . وليس له أنْ يُولّيَ أحداً منهم إلّا إذا توسّمَ فيه العدلَ ، وأخذَه بالمراقبة ، وحَمَلَه على الاستقامة . ولا يجوز للمسلمين أن يسكتوا على حكومة الحاكم الظالم المستبد إذا هم نصحوه ولم ينتصح ، وسألوه العدلَ والإنصافَ ولم يَعدل ولم يُنصف . وأنَّ كلَّ مسلم هو راعٍ ومسؤولٌ في مكانه الذي هو فيه عن أحوال المسلمين . بحيث لا يخونهم ولا يغشّهم ، ولا يتقاعس عن دفع الضريبة من المال والدم لنُصرة الحاكم العادل والدفاع عنه ، أو لخُذلان الحاكم الظالم والقيام عليه . وأنّه يجب على العلماء والفقهاء أن يكونوا رُعاةً أمناءَ على مصالح العباد ، فيُعلّمونهم أمورَ دينهم وحقوقَهم ، ويُعلّمونهم كيف يَسلكون مع حكّامهم ووُلاة الأمور عليهم ، إذا كانوا عادلين أو ظالمين ، إلى غير ذلك من النظريات الجميلة الخالدة . وكانوا كلّما ذكروا واحدة من هذه النظريات ، عادوا فقرنوا إليها مرّة أخرى حالةً أو حالاتٍ مِنَ التي

اتُّهم رفعت وجنودُه بصنعها ، وجعلوا بينها وبين ظاهرةٍ عُزِيَتْ إليه او إلى واحدٍ من عائلته واقربائه ، نَسَباً وصِلة .

ثم إنَّهم خصَّصوا نصيباً من الوقت للحديث على الجهاد وموقعه في رسالة الإسلام وتعاليمه ، ودوره في صيانة الروح الإسلامية والدفاع عنها . وهم بحديثهم هذا يَقصدون إلى القيام في وجه رفعت وعائلته وإعلان الحرب عليهم . ولا يقفون عند ذلك ، بل يتعدَّوْنَه إلى الفئة التي ينتمي إليها رفعت فيحكمون عليها ، بعد أن يأخذَ اللهُ بأيديهم إلى النصر والغَلَبة ، بقتلِ من شارك في السلطة منها ، ومن كان إلى جانبه مُعيناً وناصراً ، وإرغام من بَقِيَ منهم ، على الخروج من البلاد والهرب إلى ما وراءَ الحدود . ولا يُسمَحُ لهم بالسكن على الأرض السورية بعد ذلك ، وإنْ هُمُ التمسوا أن يظلّوا خَدَماً في البيوت وعبيداً يعملون في الفلاحةِ والزراعة . وعندما سألتُهم عن هذه النظريات التي عرضوها في شؤون الحُكم وفي أشكاله ، وهي ما تصرِّح به النصوص الإسلامية : هل هي موجودة معمولٌ بها في البلدان العربية الأخرى ؟ فإذا كانت غير موجودة ، فهل يَنوون أن يُعلنوا الجهادَ في هذه البلدان ، ويُحرِّضوا أهلها حتى توجَدَ وتَنتَشِر ، كما يَنوون أن يُعلنوه في سورية ، أم أنَّهم سيكتفون الآن بسورية وحدَها ؟ أجابوا وقالوا : إنَّ شيئاً منها هو موجود ، وأشاروا بذلك إلى العائلة القائمة في الحجاز ونجد ، وأنَّ وجودَها فيما بَقِيَ من البلدان العربية لا يُرضي . لكنَّ هذا ، لا يَشغلهم الآن أكثرَ ممَّا يَشغلهم وضعُ سورية وشأنُها مع السلطة القائمة عليها ، ولا يُوَلّونه اهتمامَهم إلّا بعد انتصارهم على هذه السلطة . وهم لا يَشكّون بأنَّ هذا الانتصار أصبح قريباً ، فالسلطة تنحدر من ضعف إلى ضعف ، والشعبُ يرتفع من قوةٍ إلى قوّة ، ولم يبقَ إلا مسافةٌ قصيرة لكي تنهزمَ السلطة ويأخذَ الشعب مكانها . وهم يرَوْن بعد

هذا الفتح الكبير أنَّ الحماسَ سيقوى وسيشتدّ ، في نصرة الإسلام وفي السعي إلى عودته من غربته ، عند أشقّائنا في البلدان المجاورة لنا ، وربّما في غيرها من بلدانٍ أخرى .

وعندما سألتُهم ، عمّا سيفعلون بهؤلاء الذين اشتركوا مع رفعت ومع أخيه الأكبر في السلطة ، والذين قدّموا خدماتٍ كبرى وساهموا في الدقيق والجليل من الأعمال ، وهم لا ينتسبون إلى الفئة التي ينتسب إليها رفعت ؟ أجابوا : إنَّ باب التوبة مفتوحٌ أمامهم ، فمَنْ تاب تركناه وعفَوْنا عنه ، ومَنْ لم يَتُبْ عاقبناه . قلت : ولكنهم اقدموا على ارتكاب الكبائر ، من مثل القتل وإزهاق النفوس واغتصاب الحقوق . وتوبتُهم عنها لا تُعفيهم مِنَ العقاب ، فالتوبةُ بينهم وبين الله عمّا سَلَفَ وعن الحاضر والمستقبل ، ولا علاقة للعباد بقبولها أو بردّها ، فماذا أنتم صانعون ؟ قالوا : لقد غُرِّرَ بهم ودُفِعوا إلى هذه الأعمال بالقوّة وأُجْبِرُوا عليها إجباراً . ونحن نعلم أنَّ الله أَعَدَّ رحمَته ومغفرتَه لمرتكبي الكبائر من أُمّته إذا تابوا ، ونحن مأمورون بحقنِ دماء المسلمين لكي تظلَّ شوكتُهم قويّةً . فأحببتُ أن أسكتَ بعد ذلك ، لأُصغيَ إليهم وازدادَ تَمتُّعاً بهذه الفتاوى تارةً ، وبتلك الشروحِ والتأويلات والتحليلات التي تنصبُّ على السلطة وتجتاح شؤونَها تارةً أخرى . وكانوا كلّما سألتهم عن شيء من أحاديثهم ، أو استوضحتهم عن فكرة أراها غامضة ، عجّلوا إلى الإجابة وخَفّوا إلى الإيضاح ، وعلى وجوههم بهجةٌ خاصّةٌ ، كأنَّهم يقولون بها : ها هو الآن بدأ يفهمنا ويُعجَب بنا ، وأَخَذَ يقتربُ منّا . وكنت أُقابِلُ بَهجَتهم ببهجةٍ مثلِها ، وانتظر الوقتَ الذي أشرَع فيه بالكلام ، أو قُلِ الوقتَ الذي يَطيب لهم أن يسمعوا فيه ما سأقوله ، مستجيباً لآرائهم ومؤيّداً لأقوالهم أو ناقداً لها أو رادّاً عليها .

والحقُّ أنّ الوقت لم يكن مقسوماً بيني وبينهم ، لهم قسمٌ

يتكلّمون فيه حتى يستهلكوه كلّه، ولي قسمٌ مثلهم اتكلّم فيه حتى آتيَ على آخر كلامي. فقد كنت اقطع عليهم الحديث احياناً. إمّا لأسأل واستفسر عن غامض مُبْهَمٍ، وإمّا لأداعبَ فكرةً من افكارِهم وأعلنَ لهم عن إعجابي بها. واحيانا كنّا نأتي في احاديثنا على اشياءَ جانبية، لا تَمسُّ موضوعنا إلّا مَسًّا خفيفاً، فهي من باب السمر والمؤانسة والمنادمة. وكما كانوا يصطحبون كتباً ليختاروا منها شواهدَهم، فقد كنتُ مثلَهم اصطحبُ معي من الكتب ما يُسعف على إعطاء البيِّنات واستحضار الشواهد، في الوقت الذي أرغب فيه ان تَحضُر الشواهدُ وتأتيَ البيِّنات. ولم يكن من السهل عليَّ ولا عليهم، أن ينتهي حديث احدنا في جلسةٍ او في جلستين، فقد كانت الأحاديث طويلةً متشابكة، وكانت الآراء فيها متداخلة، فكان لا بُدّ من جلساتٍ كثيرةٍ وطويلة. وقد صَبَر كلانا على صاحبه، فاستمعوا إليَّ وانصتوا إلى احاديثي وما قرأتُه عليهم، وشاركوا واحسنوا في المشاركة، كما كنت استمع إليهم، وأنصت إلى احاديثهم وأُشاركهم ايضاً.

وحينما قدّرتُ انّ دوري في الحديث قد اقترب، وأنَّ وقتَ الاستماع قد مضى، هيّأت بعض الأسئلة الهيّنة اليسيرة، واردتُها أن تكون باباً للدخول وتكون مفاجأة فيَ الوقت نفسه. فاستأذنتهم وسألت: تُرى هل هنالك شعبٌ من الشعوب القديمة او الحديثة، لا يحمل شيئاً من المسؤولية عن وجود سلطة قائمة عليه تتصرّف بشؤونه ومقاديره؟ فكان الإجماع: أنّه لا بدَّ لكلّ شعب من أن يساهم بنصيب، قليل او كثير، في حمل المسؤولية، لوجود هذه السلطة دون غيرها، حاكمةً له وقائمةً عليه. ثم سألتُ مرّةً ثانية وقلت: إذا نحن اعتقدنا وقدّرنا، بأنَّ الشعب يُغلَبُ على امرِه احياناً، فتقوم عليه سلطة بالقوّة او بالحيلة والدهاء، أو بوسيلةٍ أخرى غير

مشروعة، وأنّه غيرُ مسؤول آنذاك عن قيام هذه السلطة، فكيف نَقْدِر أن نعفيَه من المسؤولية، ونقولَ إنّه لا علاقَة له بما سيجري من الأحداث إذا استمرَّتْ هذه السلطةُ الغاصبةُ فترةً طويلةً من الزمن، ولم يتحرّكِ الشعبُ لمواجهتها، ولم يَثُرْ عليها ويقذفْها بعيداً عنه؟ فرأيتُ، كأنّ هناك من أحسَّ منهم بما وراءَ السؤال، فتأبَّطَ بعضُهم صمتَه وسكت عن الإجابة. أمّا أكثرُهم فقد صرَّحوا بأنْ لا مفرَّ للشعب من أن يحمل طرفاً من المسؤولية في استمرار هذه السلطة. ثم سألت وقلت: هل يجوز لأيّ شعب من الشعوب، في القديم منها والحديث، أن لا يشترك في رسم مقاديره وفي توجيه أموره، ويكتفيَ بأن يسلّم نفسَه لأيّة سلطة تقوم عليه، ويقبلَ أن يكون أداةً هيّنةً طيّعةً في يدها، لا حولَ له ولا قوّة، إلّا ما تقوده إليه وما تصنعه به؟. فكان الرأي من أكثرهم أنّه يتحتّم على أي شعب من الشعوب، وبخاصّة الشعب المسلم، أنْ لا يسلّم نفسه إلى أيّة سلطة إلّا عن رضًى وقناعةٍ بهذه السلطة وبما عندها من قُدراتٍ وعدالة. ولا ينبغي له أن يقبل بالسلطة الظالمة مهما كان وضعُه، وإذا قبل، فهو مسؤول عن طَرَفٍ من وجودها وعن طرف من أعمالها.

ولم أشأ بعد هذه الأسئلة، أن أكتم عنهم ما وراءَها، وما أخبّىء في نفسي من القول. فقلت لهم: والآن، هل تعتقدون أنّ حزب البعث صار إلى السلطة بالقوّة أو بالحيلة والدهاء؟ فكان رأي بعضهم، أنّه جاء بالقوّة، وكان رأي بعضهم الآخر أنّه جاء بالحيلة والدهاء. واتّفقنا جميعنا، بعد المراشقات بشيء من الملاطفة والمؤانسة، أنّه استخدم الوسيلتين وركِب الجوادين، بل ركب جياداً عدّةً، واقتحم بها ما يجوز وما لا يجوز حتى وصل إلى السلطة وقبض على أزمّتها كلّها. ثمّ سألتُ بعد ذلك وقلت: ولكنّ حزب البعث استمرَّ قائماً على صدر الشعب سبعَ سنوات قبل أن ينفرد حافظ الأسد

بالسلطة . ولم نسمع انّ الشعب قام بحركة مؤثّرة او بعمل واسع ، من شانه أن يُقَيِّض اركان حزب البعث وينسف بنيانَه من اساسه . فهل تعتقدون كما اعتقد ، انَّ الشعب من أوّله إلى آخره ، يتحمّل قسطاً كبيراً من مسؤولية هذه السنوات السبع التي قضاها حزب البعث في السلطة ؟ فبدأ جوابهم وفيه شيء من التباطؤ ، لم يلبث طويلاً حتى انقلب إلى إجماع على القول ، بأن الشعب يشترك ، ولا بدّ في حمل المسؤولية .

ثمّ انطلقتُ وقلتُ بعد ذلك : نحن لم نرَ منذ الحرب العالمية الاولى ، ولا نذهب أبعدَ من هذا التاريخ ، إلى يوم قيام حزب البعث بحركته واستلامه السلطة ، أنَّ حزباً إسلامياً جادًا ، قام وحرّك الشعبَ ، وايقظه ، وعبّأه بالروح الإسلامية ، ثم قاده إلى السلطة أو قاد السلطة إليه ، فأصبح الشعب يحكم نفسَه بنفسه . فأين كان الوعي الإسلامي ، وأين كانت الصحوةُ الإسلامية إذاً قبل حزب البعث ؟ ألا تَرَوْن انّ غياب هذا الوعي وهذه الصحوة ، هو الذي سمح بانتشار حزب البعث وعجَّل بوصوله إلى السلطة ؟ ويبدو انَّ الكلامَ أخذَ عندهم محلاً من الإعجاب ، فوافقوا عليه بالإجماع . إلّا أنَّ بعضَهم قال : ولكنّ ضربات الغزو الغربي وآثارَ الحربين العالميّتين ، كانت أقوى من الوعي الإسلامي ومن صحوة المسلمين ، فكان لا بدَّ لهذا الوعي ان يتأخّر ولهذه الصحوة ان تتباطأ . قلت : وكما أنَّه من شأن الضربات ان تؤخِّر وعي الشعب وصحوتَه ، فمن شأنها ايضاً أن تُعمّق هذا الوعي وهذه الصحوة وتوسّع منهما ، وان تَزيدهما قوّةً وصلابةً وتُعجِّلَ بهما . فلماذا كان نصيب الوعي والصحوة عند المسلمين التأخّر والتباطؤ وليس التبكيرَ والتقدّم ؟ فلا بدَّ أنّ هناك حائلاً في قيادات الأحزاب الإسلامية وحائلاً في الشعب نفسه ، هما اللذان حالا من وصول التقدّم وسمحا للتأخُّر أن يصل قبله ، وهما

اللذان منعا مِن انتشار الصحوة وانبعاث اليقظة في النفوس .

وكان لهذا الكلام نصيبٌ كبير من الرضى في نفوسهم ، فقال بعضهم وهو يعبّر عن إعجابه به : ليس هناك ما يمنع من محاكمة التاريخ والأجيال التي مرّتْ فيه ، وسيحاكمنا من سيأتي بعدنا كما حاكمنا نحن من جاء قبلنا . وقال بعضهم الآخر ، وهو يريد أن يَجمع بين نقد كلامي وبين الموافقة عليه : ولكنْ هل يَمنع هذا من عودة الوعي وانتشار الصحوة من جديد ؟ قلت : كَلّا ! ولم يكن هناك تأخُر في الوعي ، ولا تعويقٌ في ظهور الصحوة واليقظة . ولكنَّ انحرافَ القادة عن مبادىء الأسلام ، وإيثارَهم متاعاً زائلاً من هذه الدنيا على القيَم والأخلاق التي هي طريق الآخرة ، هو الذي حَرَمَ المسلمين من روْية إسلامهم موجِّهاً لهم وحاكماً عليهم ، وهو الذي منع وصولَهم إلى السلطة . فالقادة الذين أضرموا نار الثورة في أنحاء سورية كلِّها وحرّكوا الشعب كلَّه لإجلاء الفرنسيين عن البلاد ، ودفعوه إلى تقديم الفداء والتضحيات حتى انتصرت كلمتُه وفاز أمره وطردَ الغزاةَ عن أرضه ، أقول ، إنّنا لم نرَ عندنا قادةً إسلاميّين كباراً في علمهم عظاماً في عقيدتهم وطرق توجيههم ، كما رأينا قادةً وطنيّين ، يَهُبّون فيُشعلون النفوسَ إسلاماً والقلوبَ إيماناً ، ويطردون الظلمات كلَّها عن أرضهم وعن شعبهم ، فالذنبُ ذنب الشعوب عندما لا يوجد فيها قادة ، والذنب ذنبُ القادة بعدما يُوجَدون ثم يتقاعسون ويُتاجرون وينحرفون .

وليس لأحدٍ أن يلوم حزبَ البعث وأن ينتقده وينتقصَ منه ، لأنَّه سعى إلى السلطة ورَكِب كلَّ مركب للوصول إليها ، فهذا شأن الأحزاب في كل بلدان الشرق وفي كلّ بلدان الغرب على السواء . وليست غايةُ الأحزاب ، عندما تُوجَد وتُشكَّل وتُنظَّم ، إلّا أن تَشقّ طريقَها بكل وسيلة للوصول إلى الحكم . وقد رأينا عندنا في سورية

احزاباً اخرى غيرَ حزب البعث، عَمِلتْ كلَّ ما في وسعها وبذلتْ طاقتَها وما هو فوقَ طاقتِها، واستعان بعضُها بالشرق وبعضُها بالغرب، لتصير لها الغلبة وتفوزَ بالسلطة، ولكنَّها لم تُفلح ولم تُدركِ الغايةَ المنشودة. ثم اعادتِ الكَرّةَ وقامتْ بغارات اخرى مختلفةٍ متنوّعة، وكادتْ ان تصل لولا اسبابٌ مجهولةٌ منعتْها والقتْ بها خارج الميدان. ولا يعزّ علينا ان نذكرَ امثلةً لهذه الأحزاب، فمنها الحزب القومي السوري وحزب الشعب والحزب الشيوعي وحزب الإخوان المسلمين. ولا يُوجَد هناك حزب في الدنيا ينجو من الانتقاد ومن الطعن والاتّهام، ليس لأنّه يتطلّع إلى الحكم، كما ذكرنا، ولكنْ لأعمالٍ يأتيها فتنعكس اذىً واضراراً على الناس، ولمواقفَ يعبّر فيها عن نواياه وسياستِه فيقضي على طموح الشعب ويُزلزل من صموده.

ولا نرى انَّ هنالك حزباً في بلادنا، يستحقُّ أن يُرجَمَ باللوم والتعنيف اكثرَ من حزب الإخوان. لأنّه فَوَّتَ عليه الفُرَصَ الكبرى كلَّها منذ فترَة ما بين الحربين العالميّتين واطلق السانحات الطيّبة من يدَيْه. ولو انَّ قادةَ هذا الحزب علِموا قيمةَ الفُرَص وفطنوا إلى قدر هذه السانحات لبَكَوْا دماً وليس دموعاً، ولأغلقوا عليهم أبواب منازلهم ومرَّغوا أنفسهم في نيران التوبة إلى الله طوال حياتهم. فبعد الحرب العالمية الأولى، وبعد أن صارت بلادُنا سورية من نصيب فرنسا في اقتسام الغنائم، ودخَلها الغزاة الفرنسيون يختالون بظلمهم الشعب وعنفوانهم عليه، كانت الفرصةُ طيبّة لأن ينبثق القادة الإسلاميون من هموم شعبنا وعذاباته وويلاته، وأن يَجمعوا حولهم هذا الشعبَ بمختلف طبقاته وفئاته، ويَنفخوا فيهم روحاً من روح القرآن المجيد، ويَبثّوا فيهم هَدْياً واضواءً من هدي الرسول الأعظم وأضوائه. ثم يستبيحون لأنفسهم الميادين كلَّها، سواءٌ الوطنية

منها والدينية أو الثقافيةُ والاجتماعية أو السياسيةُ والنضالية. ويعود من الهيّن عليهم بعد ذلك، أن يَثِبُوا على الفرنسيين الغزاةِ الطامعين ويطردوهم ويُلقوهم خارج البلاد. ويلتفتون إلى ساحة الشعب فلا يجدون فيها من ينافسهم على السلطة أو من ينازعهم الزعامة، وإن وُجِدَ فإنّه سيكون ضعيفاً بجانبهم وقائماً تحت ظلّهم.

وسيقول الإخوان المسلمون، إنّهم صنعوا ذلك وأكثرَ من ذلك وجاهدوا وناضلوا وضحّوا، ولم يُقصّروا، ولم يتأخّروا، ولكنَّ الأحداث كانت أكبرَ من جهودهم وسَعْيهم، والمؤامراتِ أشدَّ وأدهى من قوّتهم ونضالهم. وهم لم يهنوا ولم ييأسوا، ولا يزالون عازمين على استئناف الطريق بكل صبرٍ وقوّةٍ وإيمان. ولكنّنا نقول، إنَّ ما صنعوه، لم يكن يرقى إلى مستوى المسؤولية، ولم يكن شيئاً يذكر في جنب ما هو مطلوب منهم أن يصنعوه. وإنْ هم قصدوا في صنيعهم إلى بثّ المواعظ والأقوال ونشر الخطب المزروعة بالأحاديث والأمثال، لاستنهاض العزائم وبعث الهمم، فتلك أمورٌ لا تكفي وحدَها لخلقِ نهضة إسلامية وبعثِ ثورة روحية. فما كان أشدَّ حاجةَ الناس في بلادنا، بعد الحرب العالمية الأولى وحتى عودةِ الاستقلال، إلى من يُعنى بأحوال عيشهم، ومن يهتمّ بشؤون حياتهم وما يحيط بها من ضيقٍ وعسرٍ، فيُوسعون عليهم، ويأخذون بأيديهم إلى اليسر، ولم يكنْ في الخطب والمواعظ ما يدفع العَوَزَ ويطرد الجوعَ والحرمان، بل هي غيرُ قادرة على أن تنهض بهذا العبء. إنّه يحتاج إلى خزينةٍ تأوي إليها المَعونات والتبرّعات بسخاء، ويحتاج إلى مُشرفين في كل ناحيةٍ من نواحي البلاد، لا عمل لهم إلّا أن يتفقّدوا الفقراءَ والضعفاءَ والأيتامَ والأرامل والعجزة، ويَسُدّون إليهم ما ينقصهم. ويحتاج إلى مشرفين مثلِهم، يتفقّدون الطلابَ والباحثين والدارسين، ويَرفعون عوز المُعوِزين منهم،

ويزوّدونهم بالأسباب التي تهوّن عليهم طُرق العيش وطُرُقَ البحث والدرس. ويحتاج إلى أن تقوم جمعيات في أحياء المدن وفي القرى، همُّها الإصلاح، وتأليف القلوب، ونشرُ العلم والمحاضرات، واكتشافُ المواهب. ويحتاج إلى كثير وكثير من الأعمال الأخرى التي لا نرى في إنشائها معجزة أو مبالغةً. أو أنَّها فوق الطاقة. ومن قال ذلك، فإننا نقول له: ولكنِ انظرْ معنا إلى دور الكنيسة المسيحية وإلى صنيعها، لكي ترى أنَّ هذا هو سلوك رجال الدين فيها، وهذه هي أعمالهم في كل مكان. وبخاصّة في دولِ أفريقيا المُعْوزة، وفي دول أمريكا اللاتينية المحتاجة، وفي دولٍ من آسيا. وانظرْ إلى أعمال الطائفة اليهودية في العالم أيضاً، وكيف يقومون على تنظيم أمورهم تنظيماً، لا تبقى معه عائلة يهودية إلّا ويصلها سببٌ من عونٍ أو لونٌ من اهتمام وتدبير. ولم يكن صعباً على قادةِ الإخوان المسلمين، أن يدبّروا المالَ، إذا وجدوا أن المالَ هو من العوائق. وكيف يسهل عليهم أن يدبّروه لأنفسهم، ولا يدبّرونه لمشاريعَ إسلامية ولإقامة نهضة في شعب إسلامي؟ ولم يكنْ صعباً عليهم أن يتآلفوا قلوبَ أبناء الشعب بشيء من هذه الأعمال، إذا لم يكنْ بها كلّها. وكيف راح يَسْهل على غيرهم من قادة الأحزاب السياسية أن يَنْشطوا في الشعب ويَدْعوا إلى أفكارهم ومبادئهم ويشرحوا خُطَطهم وأهدافَهم، فيهتمُّ بهم الناس ويسيرون وراءهم أفواجاً، ولا يسهل على قادة الإخوان المسلمين أن يفعلوا مثلَهم ويسلكوا سلوكهم، والشعبُ أكثرُ أبنائه مسلمون، وفيهم الاستعداد ليستجيبوا ويُذعنوا، لو أنّهم أقدموا على ذلك؟

وإذا كان هناك ما يدعو إلى التعجّب من الإخوان المسلمين، فهو أنَّهم لم يهتدوا بعدُ إلى تطوير الأساليب، التي من شأنها أن تجرَّ الناس إلى حزبهم. ولم يتوصّلوا إلى اختراع فنونٍ في تشويق

النفوس واجتذابها الى قراءة الفكر الإسلامي الذي يريدون له، أن يكون معبّراً عن شخصية حزبهم وعن سياسته ومنهجه. وإن قالوا: حزبنا وفكره، هو الإسلام كلّه، والإسلام لا يحتاج إلى أسلوب وبهرجة، والكتب التي تتحدّث عنه كثيرة ومطروحة مبذولة، فمَنْ شاء فليتناولْ منها وليقرأ. نقول: هنالك أحزابٌ إسلامية تقول مثلَ قولكم، وهنالك فئات إسلامية تقول مثل قولكم أيضاً، فلا بدَّ لكلّ حزب إسلامي من أن يكون له نَمَطٌ من التفكير يُسهِّل به فهمَ الإسلام ويقرِّبه إلى النفوس. وكلّما كثُرتْ أنماط التفكير في الإسلام، كلّما اتّسعَ مدى انتشاره وازدادت به العقول إمعاناً وإليه إقبالاً. والأفكار لولا التفاوتُ بينها في الأساليب لما عَرَفَتْ تفاوتاً في ضيق الانتشار وفي اتّساعه، ولَما كان هناك أفكارٌ تقرعُ أسماع الناس وتدخل إلى قلوبهم قبل أذهانهم.

ولسنا نختلف في أنَّ اللومَ على التقصير في صناعة أساليبَ تُنشِّط من حركة الفكر الإسلامي، وتسري به في كلّ مكان، وتجعله أكثرَ قرباً إلى النفوس وتلاؤماً مع الواقع، لا يقع على الإخوان المسلمين وحدَهم، وإنّما على المسلمين جميعِ المسلمين. وإذا خَصَّ الإخوان المسلمون من بينهم باشتداد نبرة اللوم، فلأنَّ قادتَه نَصَبوا أنفسهم قادةً للتحرّك الإسلامي وموجِّهين لسيره واتّجاهه، وجعلوا من حزبهم طليعةً للمسلمين وروّاداً في سبقهم وتقدّمهم. وكيف يهتدي الإخوان المسلمون إلى أحسن الأساليب في المطعم والملبس والمظهر والمسكن، وإلى اقتناء أفخم السيارات والاقتران بأجمل النساء في أوروبا وأمريكا وفي البلدان العربية الغنيّة، ولا يهتدون إلى الأساليب الأنيقة الشيّقة التي تقوى بها أفكارهم على اغتصاب تطلّع العقول إليها وعلى اجتذاب المشاعر نحوها، وتُشرق منها مبادئهم وأهدافهم، فينساق الناسُ إليها سوقاً ويتقاطرون على

الدخول فيها .

وقد رأيت من بين الذين كانوا يستمعون بشوقٍ واطمئنان ، مَنْ شَمَّر عن عزمه على الحديث ، وهو من حزب الإخوان المسلمين في سورية ، وقال : يبدو أنَّ هناك ميلاً لثَنْي عنان الكلام على السلطة في بلادنا وقبائحها وأهوالها إلى الكلام على حزبنا واصطياد ما في تاريخه وسيرته من تقصير وهنات ، وإلى الشروع في محاسبته ، إمّا للتخفيف من الحملة على السلطة الفاسدة والتماس بعض الأعذار على فسادها ، وإمّا لأغراض أخرى لا نعلمها ولا نريد أن نعلمها . فلكلّ حزبٍ تقصيره في مسائل ، وتفوُّقُه في مسائلَ أخرى ، وارتفاعه في سير وانخفاضه في سير آخر . وهذا حزبُنا ، هو مثْل غيره من الأحزاب له ما لها وعليه ما عليها في الحسنات والسيّئات وفي الصعود والنزول لكنّه يبقى أسْماها أفكاراً وأرشدها طريقة ، وأوضحها منبعاً ومصبًا . وعسى أن يظلّ موضوع السلطة الغاصبة في سورية هو مشغلتنا الآن ، والبحثُ عن الأسلوب الأنجع والأقوى في تحدّيها ومواجهتها هو همّنا وغرضنا .

وقد رأيت أنّه كان من حقّه أن يقول ذلك ، ولكن لم يكن من حقّه أن يعتقد ويحاولَ حملَ الآخرين على الاعتقاد ، بأن هناك محاولةً للانعطاف بالحديث إلى جهة أخرى والانتقال به إلى موضوع آخر . وعُدتُ فقلت : إنَّ ما أردتُ أنْ أبيّنَه ، هو أنّ حزبَ البعث ملأ فراغاً كان مِلكاً للفكر الإسلامي وحقًّا من حقوقه . ولكنْ هل تريدون لحزب البعث ، أن يهدأ ويتأخّر عن مَلْءِ هذا الفراغ وخطف هذا الحقّ ، إذا قعد الفكر الإسلامي عنه وأهمله ولم يلتفِتْ إليه ؟ وليس تضييع هذا الفراغ تقصيراً هيّناً يسيراً ولا هو هنةٌ من الهنات الخفيفة ، وإنّما هو إفلاتُ الفرصة الكبرى التي لن تعود من يد الإخوان المسلمين ، لتقع لقمةً سائغةً طيّبةً في فم حزب البعث .

هذا إذا لم نقل ما قاله قادة حزب البعث وكتبوه في سطورهم ودفاترهم، من أنَّ الشعب في سورية، لم يُعجَب بحزب الإخوان المسلمين، ولم يُبدِ اهتماماً بأفكاره ولا حماساً لنصرته ومشايعته. بل إنَّه كشفه ووجدَ فيه محرّكاً للفِتن ومُثيراً للشَغَبِ أكثرَ منه حزباً له افكاره ومبادئه، وله أهدافُه وتطلُّعاتُه. فرأى من مصلحته أن يرفضه ويحاربَه ويضع العوائقَ امامه. وآثر عليه الأحزاب الأخرى الموجودة في البلاد، مثلَ حزب البعث والحزبِ القومي السوري والحزب الشيوعي.

ونحن عندما قلنا إنَّ الإخوان المسلمين أضاعوا الفرصةَ الكبرى فلَم يُحسنوا الوصول إلى السلطة، وأضاعوها مرّةً ثانية فلم يُحسنوا قيادة الشعب، قصَدنا أن نقول من جهةٍ أخرى، إنّهم كانوا مسؤولين عن وصول حزب البعث إلى السلطة، وأنّهم أشركوا الشعب معهم في حملِ هذه المسؤولية. وقصدنا أن نقول أيضاً، إنَّ القوّة لم تكن وحدها وسيلةَ حزب البعث في اختراقِ العقبات إلى السلطة، ولم يكنِ المكرُ والدهاءُ وحده طريقَه للوصول إلى التحكّم. وإنما الذي سيّره واوصله هو أشياءُ أخرى، يأتي في مقدّمتها غفلةُ الإخوان المسلمين أو تغافلُهم عن تجميع الشعب وانقسامُهم على أنفسهم، وتخاذلهم ثم ضَعفهم وجُبنهم أمام التحديّات الصعبة التي هي سنّة الحياة والأحياء.

ونحن لا نستطيع أن نذكر حزب البعث، إلّا ونذكرَ معه حافظ الأسد واخاه رفعت إلى جانبه، فهما وجهان ظهيران من وجوهه، ورمزان كبيران من رموزه، منذ الأيام الأولى في نشأة هذا الحزب ومنذ الأيام الأولى في استيلائه على السلطة. وقولُنا الذي تقدّم قبل قليل، إنَّ الشعب من أوّله إلى آخره، وفي مقدّمته الإخوانُ المسلمون، كلُ فردٍ فيه مسؤول عن وجود السلطة في يد حزب

البعث، هو عينه الذي نقوله ونكرّره ونعتقد به على وجود حافظ الأسد واخيه رفعت في ناصية هذه السلطة وفي مقدّمتها. فهما لم ينزلا من السماء ولم يخرجا من باطن الأرض، وإنّما خرجا من دم هذا الشعب ومن لحمه ومن عصبه ومن تطلّعاته. ولا يصحّ في المنطق والعقل، انّهما وصلا بسحرِ السَحَرة أو بتعزيم الكهّان، أو انّهما استخدما أساليبَ أخرى. فكيف لا يكون للشعب إذاً مسؤولية في وجودهما على هذه الحالة التي هما عليها من القوّة والسلطان؟ بل كيف لا يكون الشعب أيُ شعب، في أيِّ زمان ومكان مسؤولاً عن وجود هذه السلطة، وليس غيرِها، وعن قيام هذا الحاكم وليس ذاك؟ إنَّ مقولَة القائلين: تخلقُ السلطاتُ نفسَها بنفسها بالقوّة، وتصنع هيكلها بالقوّة، وتنفّذ الأحكامِ بالقوة، هي مقولة مشبَّعةٌ بالمبالغة مليئةٌ بالتجديف. تريد أن تُسمّي جهلَ أصحابِها بالأسباب والمسبّبات إيماناً وتسليماً، وتودُ أن ترفع عنهم مسؤوليةَ المشاركة في قيام السلطات التي لا تستجيب لطموحاتهم أو التي ترى فيها عدوًا لها.

وقد يكون للإخوان المسلمين ومن معهم من الشعب أعذارُهم في إعلان حملتهم على السلطة القائمة اليوم في سورية، أمّا هذه الحملات الضّاجّة اللاهبة التي صنعها الإخوان المسلمون ومن جنّدوا معهم من بعض فئات الشعب ومن اكتَرَوْا من بعض فئاته الأُخرى ضد رفعت، فلستُ أدري سرَّ تمييزه بها عن غيره، ولستُ أدري لماذا انفردوا به وخَصّوه دون سواه بهذا النوع من الحملات المسلولة؟ قد يقولون، إنَّه بلغ النهاية في القوّة، وابتلَعَ مَنْ هم حوله من رجال السلطة بطريقةٍ أو بأخرى، وأصبحَتْ يدُه مطلقةً، لا رادَّ له فيما يعمله، ولا مانعَ يمنعه عمّا يَنوي ان يعمله. فكان بذلك أن بلغ النهاية في الظلم والتعدّي، وتجاوز الحدودَ كلَّها، فلا نعرف

تاريخاً نَكَرَ عن جبّارٍ ظالم مرَّ فيه، يمكن أن يساويَ شيئاً في جنب هذا الجبّار الظالم. ونحن لا ننام إلّا على الخوف ولا نُفيق إلّا على الرعب، ولا ندري متى يبطش بنا بطشته الكبرى، ويُزهِقُ أرواحَنا وأرواحَ أبنائنا، ويبدّل اخضرار زروعنا باليَباس، فلا يُبقي علينا ولا على زروعنا وضروعنا. وقد يقولون، إنَّه فاسدُ العقيدة والمنبت، وإنَّه من فئةٍ مدخولٍ في إسلامها، مشكوكٍ في انتمائها إلى العرب وإلى المسلمين، ولا نريد أن يكون لفاسدِ العقيدة إمرةٌ على شعب صحيحِ العقيدة. وقد يَطعنون بحَسَبه ونَسَبه، ويُشكّكون بأصلِه وفصله، وينزِعون عنه كلَّ الصفات الإنسانية، ويقولون فيه ما يُقال وما لا يُقال. ولكنَّ شيئاً واحداً لم يقولوه، وهو: ماذا فعل الآخرون من رجال السلطة ومن أبناء الشعب؟. وليس كلُّ من قال أثَّرَ بقوله، حين لا يعلم ماذا يقول، ولا كلُّ من فعل أغرى الناس باتّباع فعله وتقليده، حين لا يعلم قيمةَ ما يفعل.

وانا لا أريدُ أن أذود عن رفعت الأسد، ولا أرضى أن أكون ذائداً عنه، لا في خيره ولا في شرّه. وإنَّ ما سأقوله في نقد كلام أعدائه عنه، وفي تهوين حدّة آرائهم فيه، لا يعني بأيِّ شكلٍ من الأشكال، أنّني أريد أن أُشهِر عليهم سلاحَ العداوة، وأرميَهم بالوسيلة التي رَمَوْا بها رفعت أو أقذِفَهم بالأقوال والأحقاد التي قذفوه بها. ومهما بالغتُ في تبرئةِ نفسي من الانحياز إليه ومن إشهار العداء عليهم، فسيبقى كلامي هو خيرَ معبِّر عن تبرئتي أو عن اتّهامي، وأصدقَ ناطقٍ ينطق عن ذلك. فلو أنَّ الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم، أدركوا أنّهم لطموا الشعب كلَّه بكلامهم وجرحوه بأحاديثهم، عندما تكلّموا على رفعت وتحدّثوا في سيرته وأعماله، لَخفّفوا من هذه المبالغات التي جَنَحوا إليها، ولَما أقدموا على رشقه بهذه الأحجام الكبيرة من الاتّهامات. فليس صحيحاً أنَّ

رفعت يستطيع وحده أن يقوم بحمل هذه التهم التي ألقوْها عليه. ولا يوجد هنالك من يُصدّق أنّ الشعب هو بريء وأنّهُ لا يحمل طرفاً من المسؤولية في كل ما نُسِبَ إلى رفعت. أكان ذلك صدقاً أم كان كذباً. وأينَ هو المكان الذي صنع فيه رفعت كلّ ما نُسِبَ إليه واتُّهِمَ به، خارج مساحة الشعب؟ فكيف لا يكون الشعب إذاً مسؤولاً، وهو المكان الذي حوى أعماله والظرف الذي استوعَبَ أفعاله؟ فإنْ كان هو قد رَضِيَ لنفسه أن يصير مسرحاً لِما قام به رفعت من أفعال وأحداث ولم يتحرّك، فهو يتحمّلُ المسؤولية كلَّها. وإنْ كان قد تحرَّك وأراد أن يفرّغ نفسَه من رفعت ومن سيرته وأعماله ليستقبل فارساً آخر، فإنَّ حركته تبقى هيّنةً ضئيلة لا تُعفيه إلّا من جزء هيّن ضئيل من المسؤولية. ولا نستطيع أن نقبل قولَ من يقول، إنَّ الشعب مغلوبٌ على أمره، وإنَّه ضعيفٌ لا حول له ولا قوّة، وأنَّ رفعت وأعوانَه عندهم من القوّة ما لا يمكن قهرهم معها. فقد رأينا الشعوبَ وضعفَها، ورأينا الأقوياءَ وقوّتَهم وسلطانَهم وما بأيديهم من الوسائل، ورأينا أنّهم لم يقدروا أن يمنعوا أنفسَهم من ضعف الشعوب عندما صَمَّم هذا الضعف أن يصبح قويًا. فكيف لا يقبل شعبنا على نفسه أن يكون مثل هذه الشعوب، فيجعل من ضعفه مصدراً لقوّته ومن إذلاله منطلَقاً لإعزازه؟ وإنّنا نعود فنقول كما قلنا قبل قليل، ليس هنالك من شعب، يستطيع أن يبرّىءَ نفسَه من حمل المسؤولية في قيام أيّةِ سلطة عليه، ولا يستطيع أن يهرب من الاعتراف بأنَّه شريكٌ لها في أفعالها وسلوكها ما دامت قائمةً باقية.

وها نحن نواجه الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم ونُغرقهم بهذه السيول من كتب التفسير ومن كتب الحديث ممّا لا يقدرون على نكرانه وردّه، ولا يقدرون على التلاعب به، والتحايل للفرار من أمامه، إذا هُمُ التمسوا حقًا أو أرادوا إقامة الحق، فكُلُّها

تنطق وتصرّح بإشراك كل فردٍ من الشعب في حمل المسؤولية مع الحاكم في حكمه، عادلاً كان أو ظالماً، فهو شريكٌ له في عدله، وشريك له في ظلمه، شريكٌ له في تُقاه، وشريك في فجوره. وكيف لا يكون شريكاً له، والحاكم لا يعمل شيئاً إلّا في أوساط الشعب، وعلى مشهد من الشعب وبعلم الشعب ومعرفته؟ وكلُّ هذه الكتب هي نصوصٌ تؤكّد على أنّه لا يجوز أن يسكتَ الشعب على ظلم حاكمه الظالم، ولا أن يَقبل حكومته الظالمة. وكلُّها تأمر العلماء والفقهاء وأهلَ العلم والتبصرة أمراً، بأن لا يسكتوا على مَظْلَمةٍ، مهما كانت صغيرة، تقع في عهدِ حاكم من الحكّام، مهما كان عادلاً، فكيف إذا كانت المظالم، كما يقولون، أكثرَ من أنْ تُعَدَّ وأكبر من أن تقدّر؟

ثم إنّني رحت أقلّب الكتب التي اصطحبتها، وأتلو على مسامعهم نصوصاً منها، صارخةً بوضوحها، عميقةً بدلالتها، وأشير إلى نصوصٍ أخرى في مصادرَ أخرى. وكان ذلك يحرّك في المستمعين إقبالاً ويبعث فيهم انشراحاً، يُحرّضهم على المشاطرة في الحديث والمشاركة في ذكر المُتون وتفسيرها أو التعليق عليها. ومَنْ كان منهم من الإخوان المسلمين، فإنّه لم يُبْدِ عن شيءٍ من السخط والانزعاج، ولكنّه لم ينفرج عن شيءٍ من الرضا والارتياح. ولو رأينا في ذكر هذه النصوص فائدة جليلة، لأتينا على ذكرها أو على ذكر قسطٍ كبير منها. ونقول ذلك، ونحن نعلم أنّ مصادرَها ومظانَّها هي موجودة في كلّ مكان، منذ مئات السنين، والناسُ كلُّهم يقرأونها، ويُشيحون بوجوههم عنها، وقليلٌ منهم هُمُ المنتفعون الشاكرون. وقد رأينا أنّ غيرَ المسلمين، عرَفوا كيف يقرأون هذه النصوص وكيف يَجنون منها الخير والمنفعة. وفي النظر إلى حياتِ كلٍّ من الطرفين والتأملِ الفطِن فيها، نقع على الشاهد العدل الذي يصدّق هذا الكلام.

ولا نرى لأنفسنا حقًا ، أن نختلف مع الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم ، إذا هم راحوا يقولون في رفعت الأسد ما بدا لهم أن يقولوا ، بل إنّ ذلك من حقهم ، ومن حقهم أن نستمع إليهم . ولكننا نختلف معهم إذا لم يكن من حقنا أن نقول ما نريد وأن تُسمع أقوالنا عندهم . وما كنّا نريد أن نقول شيئاً ، لولا أنّهم ذهبوا إلى أبعدَ من رفعت وأنهم أسرفوا في التجاوز والابتعاد في الظنون . ولن نقول شيئاً إلّا إذا علمنا أنّه سيقع موقعَ القبول من الشعب كلّه ، يستوي في ذلك العدوّ منه والصديق ، وإذا لم يأخذْ عند الإخوان المسلمين أنفسهم موقعاً طيّباً .

وربّما بدا للإخوان المسلمين ، أن لا يستسيغوا الفكرةَ الرفيعةَ القائلة ، بإشراك الشعب في المسؤولية ، عن قيام هذه السلطة عليه ومنها رفعت ، إذا هم أحجموا عن رفضها والطعن بها . وحجّتهم في ذلك أنّها تدعو إلى توزيع الأحمال الثقيلة التي من حقّ رفعت أن ينوء بها وحدَه ، على الشعب كلّه ، فيَهونُ الأمر عليه ، ويعود حملُه سهلاً خفيفاً ، مثلُه في ذلك مثلُ الآخرين ، وتخفّ عقوبته فتصير صغيرةً بعد أنْ كانت كبيرة . ولا يبعد أن يتدرّج بعد ذلك ، فينتقلَ من الهيّن إلى الأهون ومن اليسير إلى الأيسر ، حتى يخرجَ بريئاً مُعَافىً ، لا إثمَ عليه ولا عقوبةَ له . أقول ربّما بدا لهم أن يقفوا هذا الموقف ، وربّما وجدوا لهم مُشايعين كُثُراً يشايعونهم عليه ومناصرين يناصرونهم فيه . فإذا كان ذلك كذلك ، فنحن نتّخذ سبيلاً أخرى للحديث ، نتركهم فيها أحراراً على هواهم ، يقولون ما يشاؤون ويعتقدون بما يريدون . وليست هذه السبيل إلّا المقارنة والموازنة ، بين رفعت الأسد وبين طبقاتٍ نختارها من الشعب ، لا يجهلها أحَدٌ ولا يُنكرها أحد ، ولها شأنها وقيمتها في ضمير الشعب وفي سرّه ، أكثرَ ممّا لرفعت من الشأن والقيمة . ونعني بالمقارنة

والموازنة، أن نضع رفعت في جهة ونضع طبقةً من الطبقات في الجهة الثانية، ثم نقارن بين أعماله وأعمالها وصفاته وصفاتها، وخصاله وخصالها. وننتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين ما يَترك من آثار على المجتمع والناس والدولة، وبين ما تتركه هذه الطبقة من الآثار، ثم ننتهي إلى قولة الحقّ وإلى الحكم الفصل بينهما.

وهذه طبقة التجّار أمامنا، بدأنا باختيارها وتركنا أمرَ المقارنة للإخوان المسلمين أنفسهم. ونحن نعرف أقوالَهم برفعت، فقد أتَوْا على ذكرها، ولا حاجةَ لنا بسماعها مرّةً أخرى، ونعرف رأيهم فيه ولا فائدة في تكراره. وأمّا هؤلاء التجّار، فإنّهم أمامنا لا يستطيعون أن يَخفَوْا علينا، بل إنّهم يتباهَوْن بظهورهم وأعمالهم، ويرَوْن أنفسَهم على المجتمع سادةً وبين الناس أمراء. وقد رَضِينا أن يتولّى الإخوان المسلمون استطلاعَ أحوالهم ومراقبَتَهم في الأعمال والتصرُّفات، والإشراف على شؤونهم الخاصّة والعامّة وأن يَشهدوا ما عندهم من أخلاق. نقول ذلك، ونحن على يقين أنَّ الإخوان المسلمين، يعرفونهم أكثر ممّا نعرفهم، ويعاينونهم أكثر ممّا نعاينهم، وربّما يجمعهم بهم أو بفريقٍ منهم علاقات طيّبة وأواصرُ قربى ومودّة. ونقول ذلك ونحن نعلم، كما يعلم الإخوان المسلمون كذلك، أنَّ أعمالَ هؤلاء التجّار تنحصر في: الاحتكار، والغش، والربا، والربح الفاحش، والسمسرة، والتهريب. وأنَّ أخلاقهُمُ التي تسيّر هذه الأعمال وتقوم بتصريفها هي: الكذب والنفاق، والخداع، والمكيدة، والأيمان المغلظة، وخلط التجارة بالدين، وأنّ خصالهم هي: الشراب، والقمار، والزنى. وفوق ذلك كلّه، فإن علاقتهم بالسلطة ورجالها وحواشيها معروفة، ومخالطتَهم لهم مشهودة مشهورة، وهي مبنية على تبادل المنافع والمصالح واقتسام الغنائم والأرباح.

ونظنّ أنّ الإخوان المسلمين لا يقدرون على نكران ما ذكرناه من أعمالِ التجّار وصفاتهم وخصالهم، وإذا انكروا، فإنَّ الناسَ كلَّهم شهود يحلفون ويَصْدقون، ونحن لا نشك ولا نرتاب، أنّ المقارنة بينهم وبين رفعت، ستكشف أنّ أعمال رفعت هي هيّنة ضئيلة بجانب أعمالهم، وأنَّ صفاتِه وخصالَه هي محمودةٌ أمام صفاتهم وخصالهم. وأنّ الموازنة ستبيّنُ أنَّ خطره على الشعب والأجيال هو أخفُّ بكثيرٍ من خطرهم، بل لا يكاد يعدل قيراطاً من هذا الخطر، وأن تحكُّمَه واستبدادَه لا يساوي شيئاً بجانب تحكُّمهم واستبدادهم. وربّما عمَد رفعت إلى السلطة فاتّخذ منها وسيلةً لإملاء أعماله وصفاته وأخلاقه على الشعب إملاءً، وأمّا هؤلاء التجّار، فوسيلتهم هي الخداع والنفاق وبذلُ الدين وبيعُ الأخلاق. ومهما بقي رفعت في السلطة، فإنّه لن يبقى إلّا مدّةً محدودةً بأوّلٍ وآخِرٍ. وهو في طريقه عابرٌ على هذا الشعب وزائرٌ له، ثم ينتهي إلى حفرة ليست هي أطول من قامته، ويبدأ أثرُه بعدَه يتراجع شيئاً فشيئاً، حتى يصيرُ وكأنه لم يكن موجوداً. أمّا هؤلاء التجّار، فهم باقون ما بقي الشعب، وكلّما جاء خَلَفٌ منهم أزرى بسلفه في اختراع أساليب النفاق والكذب والمتاجرة بالدين والأخلاق، وتقدَّم عليه في ترخيص قيمة الإنسان، حتى يصيرُ الشعب عنده سلعةً لا تعادلها سلعةٌ في الكساد والرخص.

ولم يَفُتني أن أذكر لهم كثيراً من هؤلاء التجار، وأسمّيَهم بأسمائهم من مثل فلان وفلان، ممّنْ لا يجهلهم أحدٌ من شعبنا. وهم في داخل البلاد وخارجها، يدُهم طويلة لا تترك مكاناً إلاّ وتصل إليه وتزرع فيه إثماً أو مُنكَراً بما عندهم من تجارة أو مال. ولسانُهم طويل، لا يفتأ يسيل منه الكذب والنفاق والحيل الممطوطة التي تختبىء وراءها العجائب السوداء. وبعد أن كنتُ قد فَصَلْتُ في

أعمالهم داخل البلاد، استأذنتهم لأفصّل في أعمالهم وأخبارهم خارج البلاد تفصيلاً سريعاً، وقلت: هذه مصادر أخبارهم في كلّ مكان فاسمعوها واقرأوها. إنكم لن تجدوا فيها إلّا الاتّجار بالمخدّرات بكلّ الوانها والتزاحمَ على بيع الأسلحة بكل أنواعها، وعرضَ النساء والتدليل عليهنّ، ثمّ التسليةَ بعدهنَّ بالغلمان. وهذه اماكنهم مُشْرَعَةٌ مشهودة، يؤمّها كلّ من يجد في نفسه حاجةً إليها ورغبةً فيها. ولن تقعوا فيها إلّا على أخبارِ لصوصٍ، بَرَعوا في فنون السرقة والاختلاس. حتى قيل إنّهم هم الذين اخترعوها واعطَوْها إلى لصوص أوروبا وامريكا وعملُهم هو ترويجُ نفطِ شعبنا السوري المسكين، وما أقلَّه! في أسواق الثراء الفاحش وقتل الشعوب وتجويع البلدان. ولن تعثروا إلّا على صنائع المحتالين في فنّ الربا والسمسرة، وهم يتباهَوْن بما يعملون في هذا الميدان ويتفاخرون به اينما حلّوا وارتحلوا، وهذه أعلامُهم منشورة لا تخفى عن القاصي ولا عن الداني. وليس من الصعب عليَّ، ولا على أيّ واحدٍ من افراد شعبنا، أن أذكر لكلّ فنٍّ من هذه الفنون رجالَه الذين تفوّقوا فيه ومَهروا في صناعته ونشره. ثم ذكرتُ فلاناً وفلاناً، واتّبعت ذكرَ كلّ واحدٍ منهم بالإشارة إلى المصادر التي تروي أخباره وتتحدّث عن أعماله. وعندما سمّيْتُ واحداً منهم توقّفتُ عنده وقلت: إنَّ المقارنة بين أعماله وصفاته وبين أعمال رفعت وصفاته، ستُخفّف من الحملات الكبرى على رفعت، لا بل ستحيلها إلى نوعٍ من اللوم الخفيف والعتاب الرقيق. ويكفي النظر إلى شكله وصورته ليعلم الناظر إليه أنّ الله قد جمع فيه المسخَ كلَّه والنجاسةَ كلَّها. وها هو جهاز الأمن في دولة أوروبية يُزيّن له نجاسته ويُطلعه في حَفلٍ مهيب، وقد وضع له رَسناً سمّاه أمام النظّارة وسام الجوقة، والأعين مشدودة إليه تتأمّله، لتراه أهو رافع

الراس أم رافع الذيل. فإذا أراد الإخوان المسلمون ومن يحلب بإنائهم، أن يخلّصوا بلادنا من كلّ سوء، فلينصرفوا إلى هذا الرجل وإلى أمثاله الذين هم المرض الخبيث في جسد شعبنا وأمّتنا وليس رفعت الأسد ولا السلطة القائمة في سورية.

ثم هذه طبقةُ رجال الدين، وهي التي تتألّف من الوعّاظِ والفقهاء، ومن أئمّةِ المساجد، وممّن يُحبّون أن يُسمّيَهم الناس علماء. وهي الطبقة الثانية التي نريد أن نختارها، ونقارن بينها في أعمالها وصفاتها وبين رفعت الأسد في أعماله وصفاته. وإذا راى الإخوان المسلمون أنَّ في هذه المقارنة حَرَجاً كبيراً وضيقاً شديداً لهم، فما عليهم إلّا أن يأذنوا لِمَنْ يشاؤون من المسلمين، ونحن بهم راضون، في أن يقوموا بهذه المقارنة وأن يُشرفوا عليها. ولا نُكلّفهم في أمرهم عُسراً، إلّا أنْ يراقبوا هذه الطبقة مراقبةً دقيقة، ثم ليقولوا لنا وللناس بعدها، ما رأوْه بأبصارهم وما سمعوه بآذانهم. وإنّهم لن يرَوْا إلّا ما رأينا ولن يسمعوا إلّا ما سمعنا، من بثّ التفرقة وإثارة الفِتن، في دعوةِ كلّ فريقٍ منهم إلى مذهبه ونبذ المذهب الآخر وتسفيهه. ولن يَطّلعوا إلّا ما اطّلعْنا عليه من تسخيرهِم الإسلام لمآربهم الرخيصة الفارغة التي تقف عند الترقية في العمل أو التقرّب إلى السلطة والخضوع لها والانصياع لأوامرها. وما أكثرَ ما يكون هذا الانصياع، بتسخير النصوص الدينيّة في نشر محامدها وإرجاع سيّئاتها حسنات، وتبديلِ خطئها بالصواب وضلالها بالرشد! ولو كان أمر هذه الطبقة يقتصر على السلطة القائمة اليوم في سورية لهان الخطر ولان كلُّ صعبٍ شديد، ولكنّه يعود إلى ما قبلَ هذه السلطة وإلى ما قبل غيرها وغيرها إلى زمن بعيد. وفي هذا المهوى السحيق كَمَنَتِ الأخطار لشعبنا، ومنه انقضّتْ عليه وعملتْ به تمزيقاً وتفريقاً، وعطّلت عنده العقل،

وأمرضتْ فيه التفكير ، وزرعته بالعُقَد والأدواء التي ليس لها شفاء .
ويكفي هذه الطبقةَ خيانةً للنصوص الإسلامية الرفيعة وتجارةً بها ، أنْ يشاهدوا المُنكَراتِ الكبائرَ تُرتَكبُ امام أعينهم ولا يتكلّمون ، والسيّئات تُجترَح على مشهد منهم ولا يَحتجّون ، بل يَسْعَوْن إلى إيجاد مخرج لها والتماس عُذرٍ يهوّن من شأنها ، والقبائح تُؤْتَى من السلطة ومن غير السلطة ولا يأبهون بها ولا يتحرّكون .
وفي هذه الطبقة من هم أعداءٌ للإخوان المسلمين ، يجاهرون بنمّهم ويَسْعَوْن بهم عند السلطة وبين فئات الشعب ، ويَكيدون لهم . وفيها من هم على وفاقٍ مع الإخوان المسلمين ، يَمُتّون إليهم بأسبابٍ خفيّةٍ خوفاً على أنفسهم من السلطة ، ويتألبون معهم في أعمالهم وخططهم ، ويستَتِرون حتّى لا ينالَهم ضيقٌ ولا مضرّة . فإذا وُجِدَ من يسمع هنا من الإخوان المسلمين ، ويعتقد أنّني بدأت أعرّض بهم ، وبداتُ اغزوهم في عقر دارهم ، فما تقصّدْتُ أن أسعى إليهم وأمَسَّهم بأذىً . وإذا أصرّوا ، فإنّني لا أجد حَرَجاً ، وعليهم أن لا يجدوا حَرَجاً ، في أن نقوم كلانا بالمقارنة بين رفعت الأسد وبين مُرشديهم وقادتهم . ونحن أبناء شعب واحد ، وننتسب إلى بلدٍ واحدٍ ، وليس هنالك ما يحجب أحدنا عن الآخر ، ونعرف هذا الطرف وأعماله وصفاته ونعرف ذلك الطرفَ وأعماله وصفاته . ونبدأ برأسِهِم الأوّل ومرشدِهِم الأكبر الشيخ مصطفى السباعي ، ونسألكم أن تختاروا من يذهب إلى حمص مسقط رأسه وإلى دمشق والقاهرة ، حيث درس ودرَّسَ وعلَّم وتعلَّم ، ويتسقّطُ أخبارَه من أصدقائه وزملائه ، وممّن عاشروه واطّلعوا على أسراره وخفاياه . ولا بأسَ بعد ذلك أن نباشر المقارنة سرًّا ، وبدون أن يطّلع عليها إلّا الإخوانُ المسلمون أنفسهم ومن يحلب بإنائهم ، لأنّ الشيخ قد مات ، ولأنّ في أخباره ما لا يطيق الخجل أن يسمعه ولا يحتمل

الحياء أن يعرفه ويدريَ به .

ولم يؤثر على انبساطي في الحديث واستمراري فيه ، هَمهمةٌ ترددتْ من بعض الأطراف ، واستعدادُ بعضهم الآخر للانصراف وهم يتهامسون ، وعلى وجوهِهِمْ علامات السخط وإمارات الخيبة ، ممّا كانوا يأملون . فأكثر الذين كانوا يستمعون هم من بلدان المغرب ومن بلدان شمال أفريقيا ، وهؤلاء اعتادوا على سماع النقد حلوه ومرّه ، وعَرفوا كيف يروّضون أنفسَهم على قبوله وعلى مقابلته بنقدٍ آخرَ مثلِه ، لذلك أنِسوا بحديثي والتفتوا إليه . ووَجدوا أنّهم بداوا يستمعون افكاراً جديدة ، لم يَحسبوا انَّ مثلَها سيطرق اسماعَهم ، ولم يقدّروا أنْ ستطالعُهم تصوّرات اخرى ، غيرُ ما كان الإخوان المسلمون قد وضعوا في اذهانهم من تصوّرات وافكار عن سير الحركة الإسلامية في سورية . وكان لي من شوقهم إلى الإصغاء حافزٌ يَحفِزني إلى الإفاضة في الحديث ، ودافعٌ يدفعني إلى استجلاب الأفكار التي تحاكِم وملاحقة الأفكار التي تخاصِم . ولم أكن مشدوداً إليهم في الحديث ، كا لم يكونوا هم مشدودين إليّ في الإصغاء والإنتباه والمشاركة ، لنغلب الإخوانَ المسلمين بالحجّة أو لنخضدَ شوكتهم أو لنَقصم ظهرَهم . ولكنْ لأنّه يُعْوزنا أنْ نعرف كيف نفكّر ، وكيف نكون أحراراً في رؤية الطرف الآخر الذي هو في مقابلنا ، صديقاً كان او عدوّا وحليفاً كان او خصيماً . فإذا نحن لم نَرَه كما هو على واقعه ، فإنَّ واقعه سيظهر ولا بدَّ امامنا في يوم ويفاجئنا بحقيقته التي رفضنا ان نراها . وربّما كانت المفاجأة صدمةً قاسية اذهلتْنا واوقعتْنا في حيرة لا نجد الخروج منها ميسوراً ولا السبيلَ سهلةً سالكة .

وليس أسهلَ علينا من أن نستمرَّ في عَقْد مثل هذه المقارنات بين رفعت الأسد وبين طبقات اخرى من الشعب ، ليزداد عندنا الواقع

كشفاً ، وتزدادَ له رؤيتنا وضوحاً واتّساعاً . وهو الواقع الذي رَفَضَ الإخوان المسلمون أن يروه على حقيقته ، وامتنعوا أن ينظروا إليه إلّا بأعين الآخرين ، فامتنعَتْ عليهم معرفتُه وعزّتْ مداواتُه . وهو الواقع الذي سنُثبت رؤيتنا له ، بعد أن نأتيَ على التذكير بطبقات أخرى في الشعب تذكيراً يقوم مقام المقارنة . وأعني بها طبقات رجال القلم والقرطاس ، من الذين اعتدنا أن نسمّيَهم طبقةَ المثقّفين والمتعلّمين ، وهم أهل الفكر والأدب ، وجماعةُ الشعر والفنّ والمسرح ، ومن يَمُتّ إليهم بأسباب العمل والميول : فكيف يرضى الإخوان المسلمون أن يحاكموا رفعت الأسد ويحكموا عليه ويطالبوا برأسه ، ثم يسكتون عن هذه الطبقة كما سكتوا عن طبقة الوعّاظ والفقهاء وأئمّة المساجد ، ولا يَنحَوْن عليهم باللائمة ولا بالعتاب لرضوخهم وانحنائهم والتضحية بشرفهم وكرامتهم على الأعتاب قبل الدخول ؟ إنّهم يعرفون هذه الطبقة كما نعرفها ، ولكنّهم تجاهلوا صنيعَها وما فيها من فسادٍ ونكير ، كما تجاهلوا صنيعَ غيرها من الطبقات وكما سيتجاهلون . أمّا نحن ، فلن نقبل على أنفسنا أن نتجاهل ونغضّ الطرف عن شيءٍ من السوء والفساد ، في الشعب كان أو في السلطة ، وفي هذه الفئة أو في تلك الفئة . وكيف يريدون منّا أن نرى ما ينسبونه إلى رفعت الأسد من الأعمال والصفات ، ولا يريدون منا أن نرى ما عند طبقات الشعب من تجّار ورجال دين ومن رجالِ قلمٍ وقرطاس ، من الأعمال والصفات . ولو جاؤوا معنا ليشهدوا كيف يصنع هؤلاء الذين يسمّونهم مثقّفين ومتعلّمين وطليعةَ الوعي وقادةَ الأجيال ، لرأوْا منهم ما لا يُطاق الصبرُ عليه ولا يُصدّق ؟

فمن كان من هؤلاء أساتذة في الجامعات ، فأكثرهم خائنون للأمانة التي يحملونها ، وليس همّهم أن يُعلّموا ويبثّوا التوعية ،

ويرعَوْا الفطانة والذكاء، وإنّما همّهم أن يترَقَّوْا من درجةٍ إلى درجة. وهمُّهم ان يُصيبوا منفعةً، مهما كانت صغيرةً او ضئيلةً، بأيّة وسيلة كانت مهما كانت وضيعةً وحقيرة. وليس همُّهم ان يؤلّفوا الكتب، ويُجدّدوا في الأساليب ويخلقوا في المفاهيم، بقدر ما هو همُّهم أن يؤلّفوا شبكات المراقبة ويجدّدوا في أساليب الصراع والتنافس على الدنيء الوضيع من الحطام والمتاع. ولا ارى حرجاً في أن أشير إليهم، وأسمّيَهم واحداً بعد واحد، وانكرَهم جماعةً بعد جماعة. ومن هؤلاء عبد الكريم اليافي، الذي يجمع بين العمل في جامعة دمشق وفي مجمع اللغة العربية، وبين العمل في الترجمة عند من اسمَوْه البقرة الضاحكة، وهو الذي افردنا له فصلاً خاصًا في آخر هذا الكتاب. وكنت كلما رأيته يشهق ويزفر مما يعاني، عاتبته على تسخير مقامه وإهانة علمه، وهو في سنّ ينبغي أن يأويَ فيها إلى الراحة والهدوء، يهزّ رأسه ويبتسم ابتسامةً خبيثة، ويقول: الحاجة إلى السيّارة تدفعني إلى مضاعفة الجهود، والحاجة إلى هذا المتاع وإلى ذاك يقودني إلى ما تراني عليه من تعب وإرهاق. وهو منافق في تَعلّته وكذّابٌ أشر في قوله، فلديه من المال ما يُغنيه عن كلّ إسرافٍ في التعب وإرهاقٍ في العمل وفي بذل ماء الوجه، ولكنّ النفس التي تعتاد الذلّ لا يسهل عليها تركه. وماذا يقول الإخوان المسلمون إذا هم علموا، أنّ في أعضاء مجمع اللغة العربية من يعمل سادناً مستخدماً عند جهاز الأمن، فيكتب لهم ما يجري في الجلسات، وما يتوقع أنّه سيجري، ويُطلعهم على سير المجمع خطوةً فخطوة، وهو امرٌ لا يعنيهم، ويترصّد زملاءَه كيفما تحرّكوا، فيحرّك تقريره إلى سادته، ليوقع بهم ويوغر صدورهم عليهم. ومن هؤلاء من تَوزَّرَ اكثر من مرّة، وقد قَفَزَ الآن وأصبح رئيساً لهذا المجمع المنكوب؟ وإذا فسدَ الوعّاظ والفقهاء وساءت

طلاق الكتّاب والأدباء والشعراء، وأهل اللغة والفنون، ولم يبقَ في الشعب من يحمل أمانةَ التوعية والتفهيم والتوجيه، فنحن نسأل الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم أن يقولوا لنا، من هو الذي سيؤمّر بعد ذلك على الشعب، ومن سيتولّى شؤونه؟. ثم نسألهم، كيف يحاكمون السلطة أو فرداً واحداً من السلطة، ويتركون هذه الطبقات يسرحون على هواهم ويمرحون في فسادهم كيفما يشاؤون؟

ولو شئتُ لذكرتُ كثيراً وكثيراً، من أمثلةٍ في الطبقات وأمثلةٍ في الفئات، وعدّدتُ ما لها من الأعمال والصفات ما سيهونُ أمامَها كلّ ما ينسبونه إلى رفعت من أعمال وصفات، وفيما ذكرتُه كفايةٌ ومقنع في نظرنا، لِمَنْ أراد أن يقارن ويوازن. وأصبحنا نقول الآن بثقةٍ وعلى اطمئنان، إنَّ الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم، ليسوا على صوابٍ عندما راحوا يجعلون من رفعت الأسد وحدَه قضيةً وعقدةً ومشكلة. وليسوا على هُدى عندما تنادَوْا لإزاحةِ هذه القضية وحلِّ هذه العقدة واستئصال هذه المشكلة. وليس الصواب إلّا أنْ نقول: إن التاريخ هو القضيّة، وعلينا نحن أن نحتويَ هذه القضية، وأعني بذلك أن نمتلك التاريخ ويكونَ لنا، لا أن يمتلكَنا ونكون له، وأن نشتركَ في تسييره وصنع أحداثه، لا أن يُسيّرَنا ويصنع لنا الأحداث. وإنَّ الشعب هو العقدة، وعلى الطليعة التي فيه أن يحلّوا هذه العقدة. وأعني بذلك، أن يعرف الوُعّاظ والعلماء وأهلُ الفكر والأدب والفن جميعُهم، أنّها أمانةٌ في أعناقهم أن يوقظوا الشعب ويبثّوا فيه أسباب الصحوة والوعي، ليخلُقوا عنده إرادة التغيير، وليُغروه بالتّطلّعِ إلى التجديد، وليكشفوا عن بصره وبصيرته ما ران عليهما من غبار الأحقاب الغاضبة الحاقدة. وأنّ المفاهيم السائدة والأفكار المسيطرة هي العقدة، وليس لها حل إلّا بالتنقية

والتصفية، وتمريرها في اختبار الواقع، وإخضاعها لامتحان التطوّر والتجديد. وأعني بذلك أنّ أسلوب التفكير في القضايا، لا يستطيع ان ينوء بعبء فهمها، وأن معالجة المسائل التي يعاني لها الشعب والتي يعاني منها، اصبحت خَلِقَةً بالية. فإذا كانت هي صالحةً لمسائل الأزمان الغابرة، فإنها لم تعد صالحةً لمسائل الأزمان الحاضرة. مثلُها في ذلك مثلُ اللباس الذي ورثه فلان عن ابيه. وكان من قبل لباساً لآبائه واجداده كذلك، فليس هنالك ما يدعو إلى ارتدائه على شكله الموروث القديم. وإنّما هنالك كلّ شيء يدعو إلى تغيير شكله وتهذيب أوضاعه وترتيب احواله، إنْ لم يكن إلى نبذه واستبداله بآخرَ غيره. وأرى أنَّنا نحتاج في زيادة الإيضاح والإفصاح إلى تقديم مَثَلٍ، يُثَبِّت في أذهاننا بداية الانطلاق، ويحدّد امام أعيننا منحى الإتّجاه، ويضعُ أقدامنا في أول الطريق.

فنحن أمام الحديث السائر المتواتر: «لا يؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه». ومنه نستخلص، ما لا مدعاة للشكّ فيه، هذا المفهومَ الذي يقول، إنَّ إيمانَ الفرد هو مربوطٌ بحبّه لأخيه الفرد الآخر ومساواته بنفسه، لا ينفكّ عنه ولا يفترق، ولا يقوم أحدُهما إلّا بصاحبه، ولا يوجد إلّا مقروناً إليه، فلا إيمانَ لمن لا يُحبُّ أخاه ويساويه بنفسه. لكنَّ هذا المفهوم غائبٌ مفقود، لا ظلّ له ولا اثر ولا مثالَ ولا وجود. وأمّا المفهوم الذي له الحضور كلُّه والوجود كلُّه فهو نقيضه، وأعني أنَّ الفرد يكاد يجهل وجود أخيه الفرد الآخر، فلا يبالي به، أفي سعادةٍ هو أم في شقاء، ولا يهتمّ بوضعه أمُعْوز هو ومحروم أم في يده ما يكفيه قوتَ يومه. ولا يسأل عنه لا في السرّاء ولا في الضرّاء، بل إنَّ الفردَ مقرومٌ لا يكاد يشبع، وإذا هو شبع فلا يفكّر في وجود الآخرين، ومنهومٌ لا يملأ عينيه مهما مَلَكَ من ضِياع ومَتاع، ولا يُرضيه أن يملك الدنيا كلَّها،

إذا هو رأى في كفّ أخيه الفرد قطعةً من نقود ليس له فيها نصيب.
فكيف نجمع بين هذين المفهومين المتناقضين، وطبيعةُ كلٍّ منهما لا تسمح بوجود الآخر؟ وكيف نوافق بينهما، ولا توفيق إلّا أن يقوم أحدهما ويزولَ الآخر ويَفنى؟ إنّنا لا نفكّر فيما نحن فيه من وضعٍ بائسٍ حزين، ولا نرى هذه الهوّة العميقة الواسعة التي تفصل بين ما في نفوسنا من واقع وبين الواقع الذي نحياه، ولا نعاين هذا البعدَ البعيد الذي لا يكاد يتناهى بين ما نقوله بألسنتنا ونردّده في مجالسنا، وبين ما نعمله ونجترحه في الليل والنهار. فإذا كنّا في هذا المثال الواحد الذي يعبّر عن قضيّة واحدة، عَاينّا أنَّ كلَّ فردٍ منا ينقسم إلى شطرين في داخله، لكل شطر وجهٌ ولسانٌ وكلام، فَكيف تُصبح أحوالُنا مَع قضايانا كلّها؟ إنّنا ولا شكّ نخلص إلى اليقين الذي لا ريب فيه، وهو أنَّ وجوهنا التي لا تُعدّ ولا تُحصى ولا شكلَ لها، هي مثلُ مفاهيمنا التي لا تعدُّ ولا تُحصى ولا شكل لها أيضاً. ومَنْ كان شأنه كذلك فلا هُويّةَ له، وهو ضائع، لا يعرف أين يسير ولا إلى أين يصير.

وإذا راح الإخوان المسلمون يَشغَلون أنفسَهم بِتَتَبُّعِ رفعت الأسد وملاحقته، ثم صنعوا منه قضية وحاكموه وقَضوْا عليه، فهل يعني ذلك أنّهم استأصلوا أمراض هذا الشعب من جسده وساقوا إليه شفاءه، وخلّصوه ممّا يعاني من الأمراض والهموم والمشكلات؟ أقول كلا! إنّهم أضافوا إلى التعقيد تعقيداً مثلَه، ولم يُحسنوا صنعاً، ولم يفهموا قضيّةً، ولم يجدوا حلّاً لعقدة، ولا تسهيلاً لمشكلة بما أقدموا عليه. وهم إن ظفروا برفعت أو لم يظفروا به، فإنّه سينتهي وسيترك السلطة، إنْ عاجلاً وإنْ آجلاً، وسنرى بعده أنَّ الشعب سيبقى على ما هو عليه من قضايا ومن عُقَدٍ ومن مشكلات، ولن يتغيَّر فيه شيء. ولو أنَّ قضايا شعبنا منحصرة في السلطة، وبمن

يقومون على امرها، وأنَّ الحلول هي موجودة في تغيير هذه السلطة وتبديل هؤلاء، لَهان عليه اتّخاذ التدابير والوصولُ إلى الحلول منذ زمن بعيد. ولكنّ قضاياه كثيرة، لا يخلو جزءٌ من أجزاء حياته منها، وليستِ السلطة إلّا واحدةً من هذه القضايا، وهي لن تطاوعه، ولن تستجيب وحدَها إلى حلٍّ يقدّمه، وإذا استجابت فإلى فترةٍ وجيزة أو إلى أمدٍ محدود. فأمورُ الحياة في كلّ شعب من الشعوب، مربوطٌ بعضها ببعض، والوقوف على واحدٍ منها لا يُفضي إلى الوقوف عليها كلّها، ما لم تهتدِ اليد إلى هذا الرباط الذي يجمعها ويربط بينها، ثم تُمسك به. وهل هذا الرباط إلّا بنيةُ التفكير واسلوبُ الفهم وتفجيرُ طاقة العقل؟

وكثيرةٌ هي السلطات التي قامت على شعبنا قبل هذه السلطة، ثم عَبَرت وفاتتْ، فما كانت في قيامها وحدَها مشكلة، ولا جاء عبورها وفواتها حلًّا لمشكلة. وكثيرون هم الأشخاص الذين عرفَتْهم بلادنا منذ قديم ايّامها إلى حديث ايّامها، وكلُّهم كانوا أشدَّ بأساً من رفعت الأسد واطولَ باعاً ومدّةً في السلطة، ثم عبروا ومرّوا، ولم يبقَ منهم إلّا الخبرُ والذكر، وبقيَتْ امراض الشعب في الشعب، بل إنَّ بعضها قد زاد على ما كان عليه، واستشرى وأصبح لا ينفع معه الدواء. وتَبيّن بعد ذلك أنَّ رجال السلطة ليسوا رأس القضايا في وجودهم ولا رأسَ الحلول في ذهابهم. فلا بدَّ إذن أن تكون القضيّةُ والحلُّ معاً في كلّ فردٍ من أفراد الشعب، وهذا ليس وقفاً على شعبنا العربي وحدَه، وإنّما هي ظاهرة من طبيعة الشعوب أن تعرفَها وتذوقَها، كما تَعرف ظاهرةَ التوالد والتكاثر وظاهرةَ الاختلاط والتمازج ثم ظاهرةَ الموت، وغيرَ ذلك من الظواهر. وأمّا الذي برِئَتْ منه الشعوب كلُّها والذي لا يزال وقفاً على شعبنا وحدِه، فهو تباطؤُ الفرد عندنا في استجابته للتطوُّر، إذا لم اقل رفضَه لهذه

السنَة التي يستجيب لها كلُّ مخلوق. وهو القنوط أو التشاؤم الذي يُخيّم على نفس الفرد في شعبنا من حاضره ومن مستقبله، من غير علّة يعرفها، فيترك للأمور التي تواجهه ويواجهها، أنْ تَجريَ على طبيعتها وتَعمل على حرّيتها، من غير ان يأتيَ بمبادرةٍ، تشارك في تطوير اموره وفي تحسين مصيره.

وليس في قولنا: كلُّ فردٍ من افرادِ هذا الشعب يحمل في ذاته القضيّة، والحلَّ معاً، مبالغةٌ، وليس فيه إسراف. ولماذا المبالغة والإسراف في هذا القول، وهو يعني أنَّ كلَّ فرد هو مسؤول عن عمله وسلوكه واعتقاده، وكما أنَّ مصير حياته مقرون إلى مصير حياة الآخرين من ابناء شعبه، فلكلّ فردٍ منّا طَرَفٌ من المسؤولية في حياة الفرد الآخر، شاء ذلك أو ابى، وعَلِمه او لم يعلمه. وربّما لا يوجد فرد لا يُحِسّ بهذه المسؤولية، سواءٌ كان ذلك من صنيع القوانين المرسومة أو من الأعراف والتقاليد المصنوعة صناعة تقليدية تلقائية. ولكنَّ هذا النوع من الإحساس لا يُسقط عنه المسؤولية كاملةً، لأنَّ القوانين في بلادنا لا تزال تعاني من النقص والتعويق، فهي بعيدة عن أن تبلغ بالشعب مأمولَه وغايته. ولا عجب إذا كانت كذلك، فالشعب لم يشارك في خلقها وصياغتها، وهي قد صيغت بقلم السلطات المتتابعة المتوالية، ورُسِمَتْ بريشتها في غياب الشعب. ولأنَّ الأعراف والتقاليد، شأنُها شأنْ القوانين، ليس فيها إلّا التسليمُ لأفكار موروثة مكرورة، والتقليدُ لتصوّرات تَعِبَت من كثرة الاستعمال، فلا تستطيع ان تَحمل معنًى جديداً. ومَنْ منّا يجهل أن القوانين عندما تُصاغ في غياب الشعب، فإنَّ حقوقه الكبرى ستصير غائبةً عنه، بعيدةً عن متناول يديه، فلا يتمتّع بالحريّة في القول أو في الرأي أو في الحركة، ولا هو يتذوّق طعمَ العدالة ويهنأ بها، ولا يعرف كيف يصنعُ اصولَ الانطلاق والتجديد

ويُطوّر فيها . وهذه هي الحقوق الكبرى التي إنْ هي ضاعت عن الشعب أو وقعتْ في قبضة الاستبداد ، فإنَّ الشعب يَضيع عن ذاته ويكونُ عُرضةً للاستبداد ومتاعاً له .

ولعلّه لا يوجد هنالك شعبٌ من الشعوب ، تناول حقوقَه الكبرى والصغرى وتذوّق طعمَها قبل شعبنا العربي ، بعد أنْ نزل فيه القرآن المجيد وانبسَط على بلاده الإسلامُ شريعةً وقانوناً ، ثم لعلّه لا يوجد شَعبٌ من الشعوب ، تغافل عن هذه الحقوق وأهملها وسارع إلى تضييعها وتعريضها للاستبداد مثلَ شعبنا العربي . وأمّا ما يشهد على وجود الحقوق الكبرى ، فهي تلك النصوصُ الكثيرة التي يقف القرآن المجيد على رأسها ، ثم يأتي بعدَه ما صحّ وصَدَقَ من حديث الرسول الأعظم ، ثم ما انتهى إلينا من أقوالِ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وهي مدوّنةٌ محفوظة في نهج البلاغة ، ثم ما تناثر من أقوال مأثورة مشهود بصحّتها للصحابة الأجلاّء ، وما أُثِرَ من أقوالٍ موثوق بها لأئمّة الفقه ومن شروح على المتون لعباقرة الفكر الإسلامي . وما أكثر ما كُتِب عن قيمة هذه المتون وما عُقِدَ من مقارنات بينها وبين وثائق حقوق الإنسان منذ الثورة الفرنسية إلى الزمن المعاصر ! وما أعجبَ دهشةَ الدارسين ، عندما وجدوا أنَّ هذه المتون ، لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا ضَمّتها وأُتت على ذكرها .

وأمّا ما يشهد على تضييع الشعب العربي لهذه الحقوق وتعريضها للسبي والاستبداد ، فليس هناك أبلغُ وأفصحُ من واقعه الذي لا يعرف فيه إلّا التَخبُّطَ والضياع ، والانتقالَ من قبيحٍ إلى أقبح ومن سيّىء إلى أسوأ . ولو أنّ هذا الواقعَ بدأ منذ أمسٍ قريبٍ أو منذ فترةٍ قصيرة لهان الأمر وبات العلاج سهلاً ميسوراً . ولكنَّ بدايته تعود إلى الاضطرابات الأُولى الحاسمة التي أنهت عهدَ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وهو عهدُ الثقة والحقوق ، ثم أعطَتِ القيادةَ إلى

عهد الشكوك والأهواء، عهدِ الملكية والاستبداد. وهو العهد الذي امتطت فيه السلطة صهوةَ المتون الإسلامية الأصيلة وسيّرتها في الجهات التي تُرضي هواها، لاستدرارِ مالٍ او تأثيلِ أركانٍ أو قمع معارضة. ممّا جعل الجمعَ بين إرضاء أهواء السلطان الجديد المستبِدّ وبين حقوق الشعب امراً ممتنعاً مستحيلاً. وكلّما تتابع الزمن بالمرور ومضَتِ الأيام، كلّما ازداد انحرافُ السلطة وازداد معها تحريفُ النصوص وتشويهها، إمّا بخلق نصوصٍ جديدة، وإمّا بتقليد النصوص الأصليّة الأولى. وصار لكلّ فئة من هذه النصوص الجديدة المصنوعة فئةٌ من العرب والمسلمين، تجتمع عندها، وتأخذ بها، وتستلهمها، وتدافع عنها، كما صار لكل فئة سلطتُها. ولم يعدْ همُّ العرب والمسلمين إلّا الانشغال بالنصوص المسخَّرة للسلطة، فضاعوا عن حقوقهم وابتلَوْا بالسلطة وابتُلِيَتْ بهم السلطة.

وكلّما حدّث العربُ والمسلمون أنفسَهم بالنهوض، وكلّما قالوا أصبحْنا في عصر النهضة، وَجَدوا أنّهم أصبحوا في سرابٍ خادع، وأنّهم نقفوا جراحَهم القديمة وكشفوا عن أمراضهم، وأنَّ النهضة منهم بعيدة. فهم من المُحال عليهم أن يتخلّصوا من النصوص المنحرفة، وأن يميّزوا بينها وبين النصوص المستقيمة. وإذا أمكنهم الظفرُ بشيء من النصوص المستقيمة، فمن المحال عليهم أن يُعَرُّوا التأويلَ الصحيح لها عن التأويل السقيم. وهمْ كيف تُراهم يصنعون أمام هذا الاضطراب وهذا الاختلاط، في مواكبة التطوّر ومسابقة الزمن، ومع السلطات القائمة عليهم، وهي التي تَشغلهم بأمور فرعية جانبية وتُلهيهم بأحداثَ بعيدةٍ عن أحداثهم، وبأحاديثَ هي غيرُ أحاديثهم؟

ولقد أحسَّ الفكر العربيُّ الإسلامي بعد صحوته، أنَّ مشكلتَه معَ السلطة هي مشكلةٌ مزدوجة، أو قل إنّه هو معها في مشكلتين

كُبرَيَين ، الأولى منهما : هذا السيلُ من النصوص المعوجّة التي لا تستقيم فيها الحياة أبداً ولا تنبعث معها روح التجديد والإحياء. والثانية منهما : استخدامُ السلطة لهذه النصوص استخداماً ، سمح لها أن تجعل من نفسها وكيلاً على تصريف الشريعة وتدبير أمور المسلمين ، ومكّنتْ بها نفسَها تمكيناً ، أصبح التفكير معها باقتلاعها وزعزعتها مقروناً إلى التفكير باقتلاع الشريعة الإسلامية وما تنضمُّ عليه من نصوصٍ وأحكام. حتى إنَّ من أراد البحث عن النصوص الأولى الأصلية للإسلام الأوّل الأصيل ، رَجَمَتْه السلطة بغضبها ، وسمّتْه منحرفاً مهرطقاً ، وساقتْ إليه حَتْفَه أو تعذيبَه أو تشريدَه. وقد عَرَفَتِ السلطة منذ البداية كيف تُضيّق الخناق على العرب والمسلمين وتَقبض على أزمّة الأمور بيدِ العنفِ والإرهاب ، عندما جمعَتْ بين رئاسة سلطان الدين وسلطان الدنيا في شخصها ، وعندما عَرَفتْ كيف تُصيِّر نفسها مصدرَ الاعتقاد والتأويل والشرح لنصوص الإسلام ، ومصدرَ القوت والعيش وتأمين وسائل الحياة. وكلّما جاءت سلطة سبقتْ أُختَها في تقريب الفقهاء والمحدّثين وتدجين العلماء والمفسّرين وأرباب الشؤون الروحية ، حتى أصبح هذا التقليد شريعةً قائمةً معمولاً بها ، نَسَخَت تلك الشريعة التي نزل بها القرآن المجيد ، والتي كانت هي أمانةَ الله ، أدّاها عنه الرسول الأعظم إلى بني البشر. وكيف لا تسعى السلطات إلى نسخ شريعة القرآن المجيد وتبديل روحها ، وشريعة القرآن هي القائلةُ بإشراف العقل والحكمة والنظام والحرية على تدبير أمور الناس؟! وهذا ما لا يلائمها أن تتعرّف عليه وتُقيمَ بينها وبينه نَسَباً ، ولكنّ الذي يلائمها هو الشريعةُ التي تُرضي أهواءَ السلطة ونزواتِ الحكّام وسياسة الكيد والتسلّط.

وهذا ما درج عليه العرب والمسلمون بعد ذلك والفوه ،

وأصبحَ مَنْ وُجِدَ يَدعوهم إلى نبذه ومجانبته، كأنّما يدعوهم إلى نبذ أنفسهم ومجانبة حياتهم. وصارت أسبابُ العلاقة بالسلطة والتقرّبِ إليها، هي ميزانَ أقدارِ الناس عندنا، سواءً في ذلك العلماء والفقهاء والكتّاب والأدباء أو التجّار وسماسرة المال والمرابون. وهي معيار قيمتهم وبها يعتزّون ويفتخرون، وكلّما كانت العلاقة بالسلطة أوثقَ والقربى إليها أقرب، كان الإعتزاز أشدَّ والإفتخارُ أميزَ وأظهر. وانطمسَ من حياة العرب والمسلمين مفهوم الإعتبار إلّا إذا كان متنزّلاً من السلطة، وانمحى مفهوم القيمة إلا ما كان من عطائِها ومِنّتها. ولا أعتقد أنَّه يوجد هناك من يُطالبني بأمثلةٍ على هذا الكلام، فما من أحدٍ إلّا وهو يرى واقعنا وحياة شعبنا كما أراه ويعرف ما فيه كما أعرف. وربّما كان في هذه الكلمات السائرة في أوساطه والمتداولة بين أبنائه ما يُعبّر عن انتشار هذه المفاهيم وتأصيلها في النفوس، من مثل تسميتِهم الحاكمَ بالربّ الصغير، وقولِهم: الله في السماء والحاكم في الأرض، وقولِهم: ربّك وحاكمك. ومِنْ أمتعِ ما يُذكر في هذا الباب حكايةٌ سائرة في دمشق، رواها لي أكثر من واحدٍ من أفاضلها. وهي تقول: بينما كانت عربة الخيل تُقلّ قائد الفرقة الفرنسية التي ستدخل دمشق وعدداً آخرَ من الرجالات العسكرية والسياسية، تَهمُّ لتدخل الأراضي السورية آتيةً من متصرّفية لبنان، خفَّ لَفيفٌ من وجهاء دمشق وزعمائها لاستقباله. وفي الطريق كان اللقاء بينهما في ناحية ميسلون، فترجّل الزعماء الوجهاء عن مراكبهم وقدّموا مراسم الخضوع والطاعة للهيئة الفرنسية القادمة، وهنّؤوهم بالوصول، ونقلوا لهم فرحَة الشعب بقدومهم. ثم إنَّهم حلَفوا عليهم أن يجرّوا بأنفسهم العَرَبَة التي تُقلّهم بدلاً من الخيول مسافةً من الطريق، وبعضُ الرواة قال بل حتى وسَطِ مدينة دمشق، وذلك تعبيراً عن هذه الفرحة

بوصول العِلم والحضارة والمدنية إليهم. فنزل أعضاء الهيئة الفرنسية عند رغبة هؤلاء الزعماء الوجهاء. وقبلوا منهم خضوعهم هذا وكافؤوهم عليه.

وإذا أسمعْتَ الإخوانَ المسلمين ومن يحلب بإنائهم، مئاتِ الطرائف ومئات النوادر عن زعماء طبقات الشعب عندنا ووجهاء فئاته، وعن صنيعهم مع السلطات القريبة والبعيدة التي تقدّمت على سلطة رفعت الأسد، فلماذا يَعجَبون بعد ذلك، إذا رأوا هذا الرجلَ سلطةً في البلاد وقائداً لأمور الشعب وزعيما لمسيرته؟! ولماذا لا يَعجَبون لهؤلاء الزعماء والوجهاء الذين ذهبوا إلى قرية القرداحة، وصنعوا لرفعت عَرَبةً ثم جَرّوها وهو فيها من منزله إلى دمشق، ونصّبوه عليهم حاكماً، وقدّموا له مراسمَ الطاعة والولاء؟ وهؤلاء النفرُ هم على استعداد دائم لأن يذهبوا إلى أقاصي الصين ويجرّوا عربَة الوالي الذي سيتولّى أمورَهم والسلطانِ الذي سيتسلّطُ عليهم. ولماذا يقوم الإخوان المسلمون ومن يحلب بإنائهم في وجه رفعت للقضاء عليه ولا يقومون في وجه هؤلاء الزعماء والوجهاء لقطع دابرهم وإنهاء دورهم ومحو آثارهم؟ ولماذا لا يقومون في وجه شعبنا في سورية، لتأديبه وإخماد صوت مطالبته الآن برجوع رفعت إليه وعودة مقاليد السلطة كلّها إلى يديه؟ أليس عجيباً، أنّ رفعت الذي يقوم الإخوان المسلمون في وجهه، هو مرغوب به من الشعب أكثرَ ممّا هم مرغوبون منه، ومطلوبٌ أكثر ممّا هم مطلوبون؟

ولعلَّ مِن أعجبِ ما سمعْنا للإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم، قولَهم عن رفعت الأسد، إنّه ظاهرة غريبة شاذّة في شعبنا. وعلّلوا ذلك وسوّغوه بانتسابه إلى الفئة الفلانية. وهي الفئة التي لا يحقّ لها بزعمهم أن تَحكم أو أن تَحلُمَ بالحكم، فليس فيها موهبةٌ ولا عندها لِياقةٌ لكي تَخرج حاكماً أو زعيماً أو وجيهاً. واجتمع

إليهم في القول واتَّفق معهم في الرأي كاتبٌ عِنِّينٍ، صنع له من العلمانية والتقدميّة رسناً ووضعه في رأسه، وجرَّ بهِ نفسه حتى كتب كتاباً عن الأقلّيات في بلادنا، ضمّنه نظراتهِ في تاريخها وأحوالها، ونظريّاته في إيجاد الحلول لما يَنجمُ عن أوضاعها من أحداثٍ ومشكلات، واعتبر هذه الفئة واحدة منها، وظنَّ بنفسه أنَّه صنع بذلك شيئاً كبيراً.

وإذا رحنا الآن نتذكّر، أنَّ هذه الفئة التي عَدَوا عليها واستهانوا بها فلا قيمةَ لها عندهم ولا وزنَ والتي ينتسب إليها رفعت الأسد، هي نفسُها الفئةُ التي خرج منها بنو بويه وأسَّسوا الدولة البُوَيهيّة ذاتَ الشأن الرفيع، وهي الفئة التي خَرج منها سيفُ الدولة ورهطُه بنو حمدان، الذين تكاد أخبارهم لا تترك محلًا في الأسماع والفهوم لغيرها، والفئة التي خرج منها صالح بن مرداس مؤسّس الدولة المرداسية، والفئة التي خرج منها الأدارسة في المغرب الأقصى، والعبيديّون أو الفاطميّون بالقيروان ثم بمصر ثم في أنحاء العالم الإسلامي كلّه، والفئة التي خرج منها القرامطة في البحرين والدواعي بطبرستان ثم في الديلم والأطروش، والفئة التي خرج منها التنّوخيون الذين أسَّسوا الإمارة التنّوخية في اللاذقية، والفئة التي خرجت منها الدولة العمارية في طرابلس شمالي لبنان، والفئة التي خرج منها الأمير حسن بن مكزون السنجاري، وبنى إمارة غير مجهولة وأسّس دولة كانت عاصمتها الموصل في شمالي العراق، ومن مدنها الشهيرة سنجار، وإليها نِسبته، وفيها كانت ولادته. أقول، إذا رحنا نتذكّر ذلك واكثر من ذلك من الدول والإمارات، علِمنا انّ رفعت الأسد، لم يكن كما ذَكر الإخوان المسلمون ظاهرةً غريبة شاذّة، لأنَّه ينتسب إلى هذه الفئة. وإنّما الغريبُ الشاذّ هو قولُ الإخوان المسلمين، الذي لا يَحمل عنصراً من عناصر الإقناع في

داخله، ولا يرتكز على أساس من الصحّة، لا في التاريخ ولا في الشريعة ولا في القانون، ولا أساس له من المنطق والعقل، ولا سبب ولا علّة من الأسباب والعلل التي تجري على البشر وغير البشر. والغريب الشاذُ هو قول من قال، إنّ هذه الفئة هي من الأقليّات، وليس لقوله من الوزن إلّا مثلُ ما له هو نفسه من الوزن. فهي فئة عربية مسلمة، وهي قطعة من هذا الشعب العربي المسلم، لها ما له وعليها ما عليه، يُكافأ مَن فعل الخيرَ منها، لأنّه فعل خيراً لا لأنّه ينتسب إليها، ويُعاقب من فعل الشرَّ منها، لأنّه فعل الشرَّ لا لأنّه هو فرد فيها.

ولست أدري، كيف يقول الإخوان المسلمون ومن يحلب بإنائهم، إنَّ رفعت الأسد في شعبنا ظاهرةٌ غريبةٌ شاذّة، وهو لم يأتِ إلى السلطة إلا بدعوةٍ من المفاهيم الرائجة ومن الموازين السائدة؟ مثلُه في ذلك مثلُ من تقدّم عليه من السلطات القديمة والحديثة، دعاه التاريخ فاستجاب إلى دعوته، ونادته أنماط الحكم وأساليب التفكير في بلادنا فلبّى نداءها ولم يتأخّر. ولو لم يكن هنالك إستعداد في طبيعة شعبنا لاستقباله سلطةً عليه، لَمَا استطاع أن يأتيَ بأيّ شكل من الأشكال سلطةً عليه. ولو لم تكن هنالك أسبابٌ في واقعنا تهيّىء لقبوله وظهوره في الوضع الذي قَبِلَ به وظَهَر عليه، لَمَا كان له ذلك ولَمَا وصل إليه. بل هو أحقّ وأولى أن يكون في شعبه وعلى بلاده سلطة، من تلك السلطات العثمانية المتتابعة التي بقيت جاثمة على صدر شعبنا ما يَقرب من خمسة قرون. فتلك التي ينبغي أن نسمّيها غريبة شاذّة، والتي ينبغي أن نتعجّب كلُنا من الصبر عليها هذه المدّة الطويلة، والشعبُ يستقبل من ويلاتها ما يستقبل ويلاقي من أهوالها ما يلاقي.

وكنت ذكرتُ قبل قليل، بأنَّ رفعت الأسد سيمضي لشأنه

وسينتهي، سواءٌ اقام الإخوان المسلمون في وجهه أم لم يقوموا، كما مضَتِ السلطات التي جاءت قبله لِشأنها وانتهت. ولكنَّ طبيعةَ الشعب عندنا ستظلُّ مهيّأة لاستقبال من سيخلفه ممّن هو اخفّ بأساً منه ومن هو اشدُّ بأساً. وستبقى تلك الأسباب التي ساعدت على ظهور رفعت هي نفسها الأسبابَ التي ستساعد على ظهور غيره، ممّن سيتّفق معه في الصفات والمزايا، أو سيختلف عنه بعضَ الاختلاف او كلَّ الاختلاف. وارى اننا عرّضنا الآن انفسنا لسؤالِ من الآخرين، وهو: ما المقصود من القول، طبيعة الشعب وأسباب الواقع؟ وما هو المعنى الذي يراد منهما؟

ونَرى أنّنا لا نستطيع أن نقصد بطبيعة الشعب تلك الفطرة التي فطره الله علها، كأنْ لا يفكّر إلّا بالغريزة ولا يعرف إلّا بالغريزة، وكأنْ لا يهتدي إلى التمييز بين ما هو خير وما هو شرّ إلّا بالإلهام أو الخاطر الذي لا تهتدي به إلّا العجماوات. فذلك ضَربٌ من المحال الذي لا يقال، ولا سبيل إلى التصديق به إذا هو قيل. فبَقِي أن يُراد بطبيعة الشعب إذاً شخصيّته المؤلَّفةُ المصنوعةُ من مجموعة من العناصر التي تعملُ الحياة على تكوينها، من مثل الثقافة بأنواعها، والأخلاق والاعتقادات والأعراف والتقاليد والعادات. ومثلما تولد الشخصيّة في الفرد وتنمو، فكذلك تولد الشخصية في الشعب وتنمو، ويكون لها من القوّة والفاعلية بقدر ما لهذه العناصر التي تدخل في تاليفها وتركيبها من القوّة والفاعلية. ولم يكن لشعبنا من بدّ، عندما نزل القرآن المجيد فيه وهو يحمل رسالة الإسلام، أن تقاوم شخصيتُه الجاهلية هذا التجديدَ القادم. فقاومَتْ، ثمّ ما لبثَتْ أن تصاغرَتْ أمامَه قوّتُها وتضاءلت طاقتُها، واستجابت لآثاره وخضعَتْ لسلطانه وشروطه. ولكنَّها كانت خدعةَ الضعيف، فقد خبّأت شخصيّتَها الجاهليّة في زاويةٍ مخفيّة من أعماقِ ذاتها، حتى

إذا امكنتها الفرصة، خَرجَتْ مرّةً ثانية خروجاً، لم تصرّح فيه عن نفسها ولم تُلْقِ جانباً حجابَ الإسلام. وكانت هذه الفرصةُ سلطةَ بني اميّة التي بدأتْ خفيفة في عهد الخليفة عثمان، ثمّ ما لبثت أن رَمَتْ بثقلها كلّه في عهد معاوية بن أبي سفيان. ثمّ ما لبث بعده، أن أصبح هذا الثقل ثقلاً على صدر الشعب كلّه، ليس فيه إلّا الهموم والجراح ولا ينطوي إلا على المآسي والشقاء، وسوف يبقى معه ولن يفارقه حتّى تبدّل الأرض غير الأرض.

وليس بخافٍ على احدٍ أنّ بني أُميّة جعلوا من المكر والخديعة، ومن الإغراء والخطف والسرقة وسائلَهم لاصطياد الحكم وسبلَهم إلى اختطاف السلطة. وكان لا بدّ للمؤسّس الأوّل فيهم، بعد استتباب الأمن والأمان لسلطته، من أن يُغيّر وسائل الحكم عند مَن تقدّمه بنصوصٍ مخلوقةٍ وبسنّةٍ مصنوعة. وكا لا بدّ له من أجل تثبُت سلطته وتأمين استمرارها ودوامها لمن يأتي بعده من عقبه، من أن يثبّت الوسائل التي وصل بها، وأن يُبقيَ عليها بنصوصٍ مخلوقة وبسنّةٍ مصنوعةٍ أيضاً. وليست هذه الأعمال بالأمر الهيّن، فهي تحتاج إلى مهارةٍ ليس بعدها مهارة، وإلى شطارة تَقصُر عنها كلُّ شطارة، وقد نجح بنو أميّة في تأديتها والقيام بها خيرَ نجاح. وهذا الذي جعل لهم محلًا من الإعجاب والتقدير، عند من أُعجِبوا بهم وقدّروهم ومدحوهم، من الذين عاشوا في ظلّ سلطتهم، ومن الذين جاءوا بعدَهم، واختطّوا خطّتَهم في تدبير الأمور، أو درسوا حياتَهم وسياستَهم وكتبوا عنها.

وكانت الغَلَبة لأعمالهم التي اسّسوا بها سلطتهم، وكان لأعمالهم التي ساسوا بها الرعيّة وقادوا بها الأمور، الذيوعُ والتسلّط والانتشار. وكان الذي استقرّ فيما بعد في نفوس المسلمين، ظلالُ تلك الأعمال التي عمِلوها واشباحُ تلك السنن التي سنّوها. وهي التي

أخذوا يتواصَوْن بها ويتناقلونها، فجيلٌ ينقلها إلى جيل بعده، وسَلَفٌ يورثها إلى خلفٍ يخلفه على الأمور. حتى إنّها أصبحت هي الغالبةَ على طبيعة العرب والمسلمين، وهي التي تقوم مقام الفطرة فيها، وهي المسيطرةَ على شخصيّتهم. وتحت ظلالها نَمَت ثقافتهم التي تنطوي على علوم اللغة والآداب، وعلى الفقه والحديث والتفسير، ونشأ الاختلاف في العقائد وفي فهم أمور الدنيا والدين. ومن عناصرها تولّدَتِ الأعراف والتقاليد والعادات، وما في حياة العرب والمسلمين من حركات وما في ضمائرهم وقلوبهم من اختلاجات ونبضات.

وهذا لا يعني أنّهم وضعوا الإسلام جانباً واهملوه، فقد اعتنَوْا به عنايةً، لا تفسد عليهم سلطَتهم ولا تُنَبِّه العربَ والمسلمين وتوقظهم أو تُمكّنهم من الفرصة ليَطمعوا بما في أيديهم ويصيروا إليه. فلم يَرَوْا أمامهم من مخرج إلّا الاهتمامَ بالعبادات والحرص عليها. فالصلاة والصيام والحجّ والوعظ والإرشاد، هي أمورٌ توهِم المسلمين، أنّ عناية السلطة بها والتفاتَها إليها، يعني حرصَها على الإسلام وتمسُّكَها به والدفاعَ عنه، وهي لا تكلّف السلطة تعباً ولا تسوق إليها خطراً. أما الزكاة والجهاد، فقد أبقَوْهما كم نصّ الإسلام عليهما، إلّا أنّ القيام بهما يكون بإشراف السلطة وبتوجيهٍ منها. فالزكاة تدخل خزائن السلطة، وهي التي تتصرّف بإنفاقها وتوزيعها، والجهاد لا تَراجعَ عن القيام والعمل بمقرّراته ومسنوناته، والمسلمون مندوبون إلى تأدية هذه الفريضة دون تأخير أو تقصير. ولكنّ السلطة هي التي تقود جموعَ العرب والمسلمين وجيوشَهم، فتغزو وتوسّع رقعتها بالاستيلاء على أراضٍ جديدة وشعوبٍ جديدة. وأمّا الإسلام الذي هو الحكم والحرية والعدالة والإيمان، وحقوق الناس من مسلمين وغير مسلمين،

وعلاقة الشعب بالحكم وعلاقته بالحاكم، والمساواة بين الناس، ومبادىء السياسة، ومبادىء الإقتصاد، ومبادىء الأخلاق، أمّا كلُّ هذه الأشياء، فإنّها لم تبقَ كما أراد لها الإسلام الروح والإسلام القيادة والإسلام الثورة، أن تبقى. فمنها ما قد نُسِخَ كلُّه، ومنها ما نُسِخَ جزءٌ منه وتَغَيَّر، ومنها ما قد تطوّر واخذ شكلاً آخرَ غيرَ شكله، ومنها ما قد انقلب إلى ضدّه، ومنها ما بقي مستتراً في مكانه من النصوص ولم يغادره، وربّما كانت هذه الحالة هي الغالبة على الإسلام الروح والإسلام الخالق.

وكما أنّ أعمال السلطة الأمويّة وأقوالها وما خلقته من نصوصٍ وصنعتْه من سُنَنٍ، كانت هي العناصرَ الأولى التي دَخَلَتْ في تأسيس طبيعة نفوس العرب والمسلمين وتكوين شخصيّتهم، فقد كانت أيضاً هي نفسَها العناصرَ الأولى التي صنعتْ لهم شرائطَ حياتهم، وأمدّت واقعهم بالأسباب التي جعلَتْه يستمرُّ على ما هو عليه من الأحوال والصفات، وإنْ هي تغيّرت في مظاهرها، إمّا استجابةً لدواعي التطوّر وإمّا نزولاً تحت مؤثّرات خارجية، لكنَّ روح أقوال السلطة الأمويّة وافعالِها، بقيَتْ مَخفيّةً تتموّجُ في النفوس، فإذا هبَّتْ رياحٌ قويّة، فإنَّ موجاتها ترتفع وتُطلّ برأسها، وإذا هَبَّتْ رياحٌ خفيفة، فإنها تنخفض وتهدأ وتستقرّ.

وهنا لا يسعنا إلّا أن نلتفت إلى الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم ونقولَ لهم: إنّ ثاراتكم هي مع هذه الروح الأمويّة، فاطلبوها منها ولا تتركوها حتى تُشفوا غيظَكم إذا كان عندكم غيظٌ من تضييع الإسلام، وتُرَوّوا غيرتَكم إذا كان فيكم غيرة لِما حلَّ بالإسلام والمسلمين، من هدرٍ للحقوق الإنسانية وخنقٍ للمبادىء السامية ونسخٍ للقيم الرفيعة. فإذا استعطتم أنْ تغيّروا من طبيعة هذا الشعب وشخصيته، ومن اسباب واقعه، فقد افلحتم وفُزتم بأخذ

الثّار ، وأحييْتُمُ العروقَ في جسد المسلمين بعد يَباسٍ طويل ، وأعَدْتم إليه روحَه الوثّابَة والخلاّقة التي هي الإسلام . وليست ثاراتكم هي مع رفعت الأسد ولا مع غيره من السلطات التي أتَتْ والتي ستأتي ، فما هي إلّا ظلالٌ عابرة في ليل طويل .

وقد بتنا نشعر الآن بالحاجة إلى الانعطاف نحو التاريخ ، وإلى استحضار نماذجَ من الشواهد وأنماطٍ من الأمثلة ، لعلّها تعكس لنا بأمانةٍ وإخلاصٍ ما ذكرناه عن مسخ طبيعة الشعب العربي الإسلامي على ايدي حكّامه وسلطاته . ونرى أن نبدأ بالراس الأوّل الذي هو مؤسّسُ السلطة الأموية ، فنذكرَ نِتَفاً من اقوالهِ وجزَماً من افعاله ، كما تناقلها عنه الرواة الأثبات والكتبُ المصونةُ المأمونة . ثم نأتي بعده على ذكرِ وجوهٍ مختلفة من الأمثلة ، منها ما هو معاصرٌ له ، ومنها ما هو قريبٌ من عهده . وهي وإنِ اختلفَتْ معه باللون والذائقة ، فإنّها تَتَفقُ معه في مادّة منشئها ونحوِ اتّجاهها . وهي كلّها تعيش ، مغضوباً عليها ، في ضمير الشعب العربي وفي إحساسه ، ولكن لا يَعلم لماذا يرى نفسَه مقيّداً أمامَها ، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً مؤثراً ، اكثر من أن يَغضب ويُدمدمَ بكلمات متفرّقة ثم يسكت ويَنسى .

ولا نُغفِل أن نقول ، إنَّ هذه الأمثلة التي سنذكرها ، تَحمل كلُّها مجتمعةً فيما أُثِرَ عنها من اقوالٍ وافعال ، التراكيبَ الأولى في مختبر التشويه والتغيير والمسخ . وهو المختبر الذي انشؤوه لتشويه قيم الإسلام وتغيير روحه ومسخ صورته . فالإسلام يُشرك الشعب في الحكم وفي تقرير مصيره لحاضره ومستقبله ، ولا يُقِرّ حكمَ الفرد إذا كان ظالماً مهما كانت هويّته ، ولا يَسمح بالسكوت عليه . ويَدعو إلى العلم والبحث ، ويُعطي الفردَ حقَّه من العدالة والحريّة والصيانة والانطلاق . والإسلام في كلّ كلمةٍ من كلماته ، يقود إلى إثارة الفكر ،

وتحريض العقل، ويَسوق إلى الشكّ والتطلّع وتمتين قوّة الفهم. والإسلام يصون حقوق الفرد في شعب يقوم على الحقوق ويعمل من أجل الحقوق. والإسلام يأمُرُ أمراً بالنظافة والنظام وحسن الترتيب في كلّ شأنٍ من شؤونِ الحياة. ولكنّ هذا الإسلام الذي ذكرنا عنه يسيراً وتركنا منه كثيراً، كانت السلطات عليه حرباً والحكّامُ أعداءً، فما عاش إلّا لُمَعاً متناثرة في أحقابٍ مختلفة، وعند سلطات كانت كأنّها غريبةٌ شاذّة في تاريخنا.

ولسنا نُنكر بأننا نَرمي في صنيعنا هذا إلى محاكمة التاريخ في وجهٍ من وجوهه، لا في وجوهه كلّها، فذلك عَمَلٌ خارجٌ عن طاقة البشرية وعن حدودها وإرادتها. فمِنْ وجوهه هذه الأنظمة التي يسير عليها فلا يحيد، وهذه السننُ التي يَقضي بها على الأمم فلا تجدُ لَها مَفرًا من قضائه. من مِثْلِ أنَّ الأمّة تُولَد وتنشأ وتقوى ثم تَضعف وتَهرَم، ومن مثل أنَّ الشعوب يقضي عليها انتشارُ الفساد فيها وتسلُّطُ الحكّام الظلاّم على مقدّراتها. بل إنّ هذه الأنظمة والسنن لَتُصيبُ الكونَ كلّه من مخلوقاتٍ حيّة وغير حيّة. فكيف يكون بعد ذلك للإنسان إرادةٌ في تصريف مجرىً من مجاري التاريخ أو قدرةٌ على التدخُّلِ في سنّةٍ من سننه؟ وهذا الوجه الذي نريد أن نحاكمه هو مواقفُ الإنسان أمام الإنسانِ الآخر، ومواقفُ الإنسان في مقابل الأفكار والمبادىء والقيَم ومقياسُ ميله إليها وميزان اختياره لها. ومحلُّ هذا الوجه من سنن التاريخِ هو أنّه مستخدَم عندها غيرُ مسخَّرٍ لها، وعاملٌ من عمّالها يحقّ له أن يختار العمل الذي يشاء في جهازها. فقد يختار التقدُّمَ على التأخر، وقد يختار العدلَ على الظلم أو يختار العاجل على الآجل، إلى غير ذلك من الاختيارات التي لا تعدُّ ولا تُحصى.

وإذا كان من حقّنا أن نحاكم الإنسان الذي مضى في التاريخ

الذي مضى، فإنّنا سنمضي ونقفُ عند هذا الإنسان العربي المسلم الذي هو أصلُنا وفصلُنا، ومنه كانت نبعتُنا وخروجُنا. ولن نريد أن يكون عملُنا في محاكمته، أكثرَ من أن نضعَ أقواله وأعماله في جانب أكبر حادثٍ عرفه التاريخ ووُلِدَ فيه من جديد، وهو نزول القرآن المجيد وظهور الرسول الأعظم ومعه تلك الشخصيات الكبيرة التي قرّبها إليه وآثرَها بحبّه وأفضى إليها بمكنون أسراره. ونكتفي هنا أن نضَع إنساننا العربيَّ القديمَ أو إنساننا التاريخ هذا الموضعَ، لنقرأ بسهولةٍ صحيفةَ أقواله وأفعاله، وتتبدّى لنا بيسرٍ ولينٍ مواقفه في جمالها وقُبحها، وفي خيرها أو في شرّها، فيقوم الحكمُ بعد ذلك عليه مصرِّحاً عن نفسه دون عناءٍ ولا مشقّة. ونترك التفصيلَ والتدقيق في الصغير والكبير من محاكمته، إلى كتابنا الآخر الذي أنشأناه لهذا الغرض، وانتهينا فيه إلى كشوفات وتبيانات، سترقص منها عظام الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم رقصاً، وسيقضقضون عُصْلاً، وتزبئرُّ شعورهم على أجسادهم، فلبُثْ ريثما يصل هذا الكتاب ويظهر، فهو الآن في الطريق.

وما أكثرَ هذه المصادر التي تحمل أقوالَ هذا العربي المسلم الذي سنحاكمه وتحمل أفعالَه! فهي بين أيدينا مئاتٌ ومئات. وما أسهلَ العودة إليها، فأعلامها مُشرَعَةٌ، وراياتها مُعلَمةٌ، يسهل على قاصدها أن يصل إليها وأن يتناول منها ما يُريد! وهي مختلفة متنوعة، فمنها كتب التاريخ والسِيَر والمغازي، ومنها كتب التراجم والحديث والتفسير، ومنها كتب اللغة والأدب والشعر، ومنها المعاجم والموسَّعات القديمة والحديثة. وقد أصابني الذهول لكثرة ما قابلتُ من الأنماط والأمثلة والشواهد، ووقعْتُ في حيرةٍ من أمري، فأيَّها أختار، وعلى أيِّها أميل وأقدِم؟ فهي كلُّها صحيحة جميلة وواضحة، وقد آثرت أن أختار منها ما كان مُعبّراً موحياً

رائقاً، يُرضي أذواق العقلاء من العرب والمسلمين ويُغضب أذواق الحمقاء منهم وذلك ما نريد.

أ ـ معاوية بن أبي سفيان

لم يَقُلْ أحَدٌ فيه أبلغَ ممَّا قال وهو يَصِفُ نفسَه ويصف من تقدَّم عليه في ولاية الأمور: «إنّ أبا بكر سَلِمَ من الدنيا وسلمتْ منه، وعمر عالجها وعالجَتْه، وعثمان نالَ منها ونالتْ منه. أمّا أنا فقد تَضَجّعتُها ظَهراً لبَطن وانقطعتْ إليها فانقطعتْ إليَّ».

وهل يعني بهذا الكلام، إلّا أنَّه انصرفَ إلى الاهتمام بأمور هذه الدنيا وما فيها وحدَها. من جمع المال إلى امتلاك المتاع والاستمتاع باللّذّات والاستئثار بالسلطة؟ وهل يعني إلّا أنَّ الدنيا سنحتْ عليه بما عندها، وأقبلتْ إليه مسرعةً بما فيها، فلم تترك لذّةً تملكها إلّا وأذاقته طعمَها، ولا مالاً إلّا وأنالته منه، ولا ملكاً إلّا وأسلست له قيادَه؟ وليس من شكّ في أنَّ قائل هذا الكلام، لا يعتقد بوجود الآخرة ولا يؤمن بها. ولذلك رأى أنَّ أيَّ اهتمامٍ بها هو مضيعةٌ للوقت، فانصرفَ عنها بوجهه وأقبلَ على الدنيا بكلّه. ونحن لا نلومه على ذلك، فهو حرٌّ فيما يختار مِن اعتقاد، وإنّما نلومُ مَنْ آمن به ودافع عنه.

وقد ذَكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه مقاتل الطالبيين، مرفوعاً إلى سعيد بن سُويد، أنَّه قال: صلّى بِنا معاوية بالنُّخَيلة الجمعةَ في الصحن، ثم خَطَبَنا فقال: «إنّي واللهِ ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك. وإنّما قاتلتكم لأتأمّرَ عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون». وذكر

ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ما ذكره أبو الفرج ، وذكر مثله أيضاً صاحبُ كتاب الإرشاد . وقد صار هذا الكلام سُنَّةً لمن جاء بعده من الملوك والمتآمرين على العرب والمسلمين . فهم لا يهمّهم ، أصلّى المسلمون أم صاموا وحجّوا أم زكّوا ، ولا يدخلون بين المسلمين وبين هذه العبادات . وإنّما الذي يَهمّهم ويَقضّ عليهم مضجَعهم ويُقلق بالَهم ، هو أن تلتفِتَ أعناقُ المسلمين إلى ولاية الأمورَ وإلى ما في أيديهم من وسائل السلطة والتآمر . فتلك التي لا سكوت عليها ولا مرحمة عندهم في أخذ من يتطلّع من المسلمين إليها أو يُبين عن هاجسٍ عنده فيها . وتلك التي فيها حقوقُ المسلمين وذممُهم وعهودهم وأموالهم وحريّاتهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم وأخلاقهم وسلوكهم ، وليس هناك شيء في حياتهم إلّا وهو موجود في الحكم وفي ولاية الأمور . قد خلقَ هذا الكلام في خطبةِ معاوية من بعده سنّةً أخرى للملوك والمتآمرين ، وهي تحريضهم الناسَ على إقامة العبادات وتسهيل الوسائل إليها وتزيينها في أعينهم لصرفهم عن التفكير بالسلطة والإلتفات إليها ، ولا تزال هذه السّنةُ جاريةً والعملُ بها قائماً إلى اليوم ، وسيبقى قائماً إلى الغد أيضاً . فهي عندهم مادّة من مواد التخدير وأداةٌ من أدوات الدخول إلى القلوب . وليس علينا من حَرَج أن نذكر هنا مرّةً ثانية تلك الحادثة التي تقول ، إنّ واحداً من قادة الاحتلال البريطاني للعراق ، أدهشه صوتُ المؤذّن عندما سمعه لأوّل مرّة قويًا جهيراً ، فسأل عن الضرر الذي يُسبّبه هذا الآذان للسياسة البريطانية . فلمّا أخبروه بأنّه لا ضررَ من ذلك عاد إلى طبيعته وقال : إذن فليقل ما شاء ما دام لا يتعرّض لنا . وهل كان لسان حال السلطة عند العرب والمسلمين غيرَ هذا اللسان ؟ وهل كان صنيعهم إلّا هذا الصنيع ؟

وذكر أبو الفرج أيضاً في الكتاب نفسه : خَطَبَ معاوية حين

بويع له فقال : «ما اختلفتْ أمّةٌ بعد نبيّها إلّا ظهَر أهلُ باطلها على أهلِ حقّها» ، ثم إنّه انتبه فندم ، فقال : إلّا هذه الأمّة فإنّها و إنّها .

ولكن ما نفعَ انتباه معاوية وما نفع ندمه ، وقد أنطقه الله الذي انطَقَ كلَ شيء ، وجرى الحقّ على لسانه وهو كارهٌ له .

وذكر في الكتاب نفسه عن أبي إسحاق قال : سمعتُ معاوية بالنّخَيلة يقول : «الا إنَ كلّ شيء أعطيتُه الحسنَ بن علي ، تحت قدميّ هاتين لا أفي به» .

قال أبو اسحق : وكان والله غدّاراً . وذكرَ ابن أبي الحديد مثلما ذكر أبو الفرج .

وليس هناك من أحدٍ من العلماء ومن الدارسين والباحثين يجهل أن الإمامَ الحسن لم يصالح معاوية ، إلّا بعد أنْ أخَذَ عليه عهداً ، وأملى شروطاً في وثيقةٍ ، لم يبقَ كتاب من كتب التاريخ والسيَر والتراجم والأدب ، إلّا وذكرها مُفَصَّلةً بدقائقها وموادّها . ومنها : إعادة الخلافة بعد موت معاوية إلى أصحابها أئمّة الحق . ومنها كفُّه عن ملاحقة أتباع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وإمساكه عن إضرارهم وإلحاق الأذى بهم . ولكنّه كان ، كما قال أبو إسحاق ، غدّاراً وسنَّ الغدرَ لمن بعده من عصبته ، ولمن جاء بعدهم من المتحكّمين المتسلّطين على رقاب العرب والمسلمين . وهو عند الإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم ، صحابيّ وخليفة ، لا يجوز الطعنُ بخلافته ، ولا الطعن بإجماع الأمّة آنذاك عليه . وليست حجّتهم إذا هم قاموا على رفعت الأسد ، لِمَنْ خَبِر الأمور وتفحّصها بدقة ، إلّا غيرتَهم على معاوية وعلى خلافته وعهده .

وقد أُحسَّ بأنَّ في الناس نقمةً على عهده وسيرته ، وتبدّى له ذلك أكثر ما تبدّى عند أهل الحجاز ، فتوجّه إليهم وأخذ يوزّع عليهم البشرى والطمأنينة ، وهو يخطب فيهم ويقول : «يا أهل المدينة !

اقبلونا بما فينا ، فإنَّ ما وراءنا شرٌّ لكم ! وإنَّ معروفَ زماننا هذا منكرُ زمانٍ قد مضى ، ومنكرُ زماننا معروفُ زمانٍ لم يأتِ . ولو قد أتى فالرتقُ خيرٌ من الفتق ، وفي كلٍّ بلاغ !» . وليس العجيب في أنَّ الله قد كشف الواقع لبصيرته فعاينه وأخبر عنه ، ولكنَّ العجيب أنْ يُكابرَ بعد المعاينة ويعاندَ بعد المعرفة ، ولا يسعى سعيه ليمنع نفسَه من أن تنزلقَ إلى المزالق الوخيمة وأن تتوزّعها أنواعُ الشرّ والفساد ، ولا يَهبُّ ليدفع عن الأمّة التي آلت إليه مقاليد أمورها ، ما ستجرُّ عليها دواهي الأيام المقبلة من الويلات والحوادث والنكبات . ولم يَحِدِ العرب والمسلمون عن هذا الواقع الذي أبصرهم فيه معاوية قبل أن يقع ، فما زالوا يتسارعون من قبيحٍ إلى أقبح ويتساقطون من رديء إلى أردأ . وتلك هي أحوالُهم باديةً لا تحتاج إلى من يشهد لها ، وسيظلّون يكابدون منها حتى ينفذَ أمرُ الله فيهم .

وروى ابن أبي طاهر في كتابه بلاغات النساء ، أنَّ امرأةً من همدان تجرّأتْ على معاوية وأغضبَه منها حديثُها ، فقال لها : «لقد لمَظَكمُ ابنُ أبي طالبِ الجرأةَ على السلطان ، فبطيئاً ما تُفطَمون ...» . وهو يعني بقوله ، أنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، عَوَّد الناسَ على فهم حقوقهم والتمسُّكِ بها ، وجرَّأهم على الحاكم الذي يُنكرها عليهم ويتهاون بها ، وأهاب بهم ألاَّ يسكتوا له على باطله وتهاونه ، وأذاقهم طعمَ الحقّ فاستمرأوه واستطابوا حلاوته ، لكنَّ معاوية يتوعّدهم ويُنذرهم ، بأنَّه لن يتركَهم في نعمة هذه الحريّة ، وقليلاً قليلاً سيَفطُمهم عنها ، ويقطع الأسباب بينهم . فتَخلو له الأمورُ وحدَه ويتصرَّف على هواه . ولا أرتاب في أنَّ العربَ والمسلمين حُرِموا من الحرّية والعدالة ومن الحق ، بعد عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ولم يسلم لهم إلاَّ ما سنَّه معاوية من قمعٍ وكبتٍ ومن ظلمٍ وجَورٍ ومن باطلٍ وضلال . وفي قوله الذي ينقله ابن قتيبة في كتاب

الإمامة والسياسة : «إني لا أحولُ بين الناس وألسنتهم ما لم يَحولوا بيننا وبين السلطان»، خيرُ مِصداقٍ وأوْكد شاهد على سنّته التي رسمها وأقامها لمن بعدَه من الولاة والأمراء.

وروى لنا المسعودي في مروج الذهب أنَّ عَمْرَو بنَ العاص قال لمعاوية ذات يوم : قد أعياني أن أعلم، أجَبانٌ أنتَ أم شجاع، لأنّي أراك تتقدّم حتى أقولَ أراد القتال، ثم تتأخّر حتى أقولَ أراد الفرار. فقال له معاوية : واللهِ ما أتقدّم حتى أرى التقدّمَ غُنماً، ولا أتأخّر حتى أرى التأخرَ حَزماً، كما قال القطامي :

شُجاعٌ إذا ما أمكنتْنيَ فرصةٌ فإنْ لم تكنْ لي فرصةٌ فَجَبانٌ!

وليس من شكّ في أنَّ هذا الكلام، قد بلغ النهايةَ في الحكمة، فالإنسان الحكيم وهو ذو المأرب الرفيع والمبدأ السامي، لا يخبط في حياته خبطاً، ولا يسلك طريقاً إلى أغراضه دون وعي وبصيرة، وإنّما يحسب لكلّ خطوةٍ حسابها، وينظر أينَ يضع قدمَه، وإلى أين يتّجه وما هو مصيره. وقد أحبَّ معاوية أنْ يتشبَّهَ بالإنسان الحكيم ويصنعَ صنيعَه، وإنِ اختلفَ عنه في مأربه، فليس له مأربٌ إلاَّ الغُنم الذي هو الدنيا ومتاعها من مال وجاه وسلطان.

والذين عرفوا معاوية، وعاشروه وخَبِروه واستكهنوا غوامضَه وخفاياه، ذَكروا له من صفاته ومن سجاياه وطباعِه ما يَليق به، وما يتّفق مع ما ذكره هو عن نفسه وما عرَف به نفسَه. ومن هؤلاء حفيدُه الذي أخذ منه الاسم ورفض أن يأخذ الروح والأخلاق، وأعني به معاوية بن يزيد. وقد ذَكره المؤرّخون والمحدّثون ونَقَلَةُ الأخبار وأثنوْا عليه جميعهم. ومن هؤلاء الهيثمي الذي أتى على ذكره في صواعقه، فزكّاه ومدحَه ثم قال : ومِن صلاحه الظاهر، أنّه لمّا وُلّي صعد المنبر فقال : «إنَّ الخلافةَ حبلُ الله، وإنَّ جدّي معاوية نازع الأمرَ أهلَه، ومَنْ هو أحقُّ به من علي

بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيّته، فصار في قبره رهيناً بذنوبه...». وسنأتي على بقيّة هذه الخطبة عندما نتعرّض للحديث على يزيد بن معاوية. ومن هؤلاء السيّدة عائشة التي عَرَفتْ سريرَته من سيرته وطويّتَه من أفعاله. فقد روى ابن كَثير الدمشقي في تاريخه قال: قال الأسودُ بن يزيد: قلت لعائشة: ألاَ تعجبين لرجلٍ من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البرَّ والفاجر. وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة، وكذلك غيره من الكفّار. وذكر أبو الفرج في الأغاني أنّ السيدة عائشة قالت عندما بلغها مقتل حجر وأصحابه: «لو أنّنا نعلم أنّنا كلّما غيّرنا أمراً وقعنا في أشدَّ منه لغيّرنا قتل حجر». وواضح أنّ كلمتَها تحمل النذيرَ والشؤمَ لحاضِر العرب والمسلمين في زمانها، ولمستقبلهم بعدها إلى آخر الزمان.

وقد أخرج صاحب كنز العمّال، وأخرج مثلَه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وذكر ابن كثير في تاريخه، وابن حَجَر في الإصابة، وبيْن التخريج والذكر عند هؤلاء اختلافٌ كبير: «عن أبي الأسود قال: دَخَلَ معاوية على عائشة، فقالت: ما حَملكَ على قتل أهل عذراء، حجر وأصحابه؟ فقال: يا أمَّ المؤمنين! إنّي رأيت قتلَهم صلاحاً للأمّة وبقاءهم فساداً للأمّة، فقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سيُقْتَل بعذراءَ ناسٌ يغضب الله لهم وأهلُ السماء». وقد بقيت هذه الحادثةُ شوكة في حلق معاوية تجرحُه كلّما بلع ريقَه وكلّما تنفَّس، حتّى إنّه في سَكرات الموت كان يَصرخ وينادي: يومي منك يا حجر طويل! ولم يك لحجر وأصحابه عنده من ذنب، إلّا أنّهم رفضوا شتمَ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والبراءةَ منه. وقِصّتُهم معروفة، لم يبقَ كتاب إلّا وحدّث بها وساقها

دليلاً على جَور السلطة الأموية واستباحتها الحقوق والدماء بغير شرعةٍ ولا قانون. وقولة الحسن البصري بمعاوية هي على جنب كبير من القيمة والتبصرة، فقد قال: ثلاثٌ كنَّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلاَّ واحدةٌ منهنَّ لكانت موبقة: ابتزازه على هذه الأمّة بالسفهاء حتَّى ابتزَّها امرَها، واستلحاقه زياداً مراغمةً لقولَ الرسول: الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتلُه حجر بن عدي، فيا ويله من حجر واصحاب حجر. وقد ذكر الطبري تعليقاً نفيساً للربيع بن زياد الحارثي على مقتل حجر بن عدي وهو قوله: لا تَزال العربُ تُقتَل صبراً بعده. ولو نَفَرَتْ عند قتله لم يُقتَل رجلٌ منهم صبراً. ولكنّها أقرّتْ فذلَّتْ».

وقصّة قتله عمرَو بنَ الحمق تظلّ افظع واشنع من مقتل حجر بن عديّ واصحابه. فقد قَطع راسه وطوّف به في الآفاق. وقد ذَكر القصّة ابنُ قتيبة في كتاب المعارف وابنُ عبد البرّ في كتاب الاستيعاب وابنُ حجر في الإصابة. وقال أبو جعفر محمد بن حبيب في كتاب المحبَّر: ونَصَبَ معاوية راس عمرِو بنِ الحمق الخزاعي، وكان شيعيًا، ودِير به في السوق. قال ابن كثير في ذكر الحادثة: فطيف به في الشام وغيرها، فكان أوّلَ راس طيف به. ثمّ بعث معاوية براسه إلى آمنة بنت الشريد، وكانت في سجنه، فألقِيَ في حجرها، فوضعتْ كفَّها على جبينه، ولثمتْ فمه، وقالت: غيّبتموه عنّي طويلاً ثم اهديتموه إليّ قتيلاً، فأهلاً بها من هديّة غيرِ قالية ولا مقليّة. ومن حقّ هذه المراة أن يعظِّمَها شعبنا ويتعلّمَ منها مقاومةَ الطغيان والجَلَدَ على جَور الجائرين وظلم الظلّام. وإنّ امّةً قبلتْ أن يكون على راسها جَلّادٌ افّاكٌ مثلُ هذا الجَلّاد الأفّاك ولم تَثُرْ في وجهه ولم تَمحِ اثَره، عليها الّا تَعجبَ والّا تحتجَّ إذا اذاقها الله نَكال الآخرة والأولى.

وعندما يصل ابن أبي أصيبعة إلى ترجمة ابنِ أثال في كتابه المعروف، عيون الأنباء، يقول: «ولمّا ملك معاوية بن أبي سفيان دمشقَ، اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه، والمحادثةِ معه ليلاً ونهاراً. وكان ابن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركّبة وقِواها، وما منها سمومٌ قواتل، وكان معاوية يقرّبه لذلك كثيراً، ومات في أيّام معاوية جماعةٌ كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسمّ». ثم يقصّ علينا بعد ذلك المؤلّف من قصص معاوية ما يفعل في النفوس فعلَ السموم في الأبدان، مثلَ صنيعه مع محمد بنِ أبي بكر ومالكِ بن الأشتر وعبدِ الرحمن بن خالد بن الوليد. وكانت تلك سنّةً أخرى من سننه التي أورثها من بعده الملوك والامراء، فزادهم سمّاً على سمٍّ، في أقواله وأفعاله.

وهذه الحادثة التي يأتي على ذكرها صاحب العقد الفريد، لا تخلو من مَكر وطرافة، إلى جانب أنّها حكمٌ عادل. يقول: «تفقّدَ مروان بن الحكم ضيعةً له في الغوطة أيّام معاوية، فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحَك! إنّي لأظنّك تخونني! فقال الوكيل: أفتظن ذلك ولا تستيقنه؟ قال مروان: وتفعله؟ قال الوكيل: نعم! والله إني لأخونك، وإنّك لتخونُ أمير المؤمنين، وإنّ أمير المؤمنين ليخونُ الله، فلعن الله شرّ الثلاثة».

ودخل عليه مرّةً حُزَيْم بنُ فاتك ومئزرُه مشمّر، وكان حسن الساقين، فقال له معاوية: لو كانت هاتان الساقان لامرأة! فقال حُزيم: في مثل عجيزتك يا أميرَ المؤمنين. وهذه النوادر وأمثالُها، فيها ملاحة وطرافة، وفيها ذكاء وبداهة. وفيها إلى جانب ذلك كله تعريف دقيق بشخصيّة معاوية وأخلاقه، واطّلاعٌ على خطّته في تسيير الأمور، وأخذِه الناسَ على حينِ غرّة، وكيده لهم.

لكنّ ما يزيد الكشفَ عن سريرته ويوضح الغامضَ من علانيّته، تلك الكتب والرسائل التي تبادلها مع الصحابة منذ مقتل الخليفة عثمان إلى آخر يوم في تملّكه وتأمّره. وكان صنيعُ معاوية في هذه الكتب والرسائل، هو ان يَرميَهم بالتهم ويَرشقَهم بالافتراءات، وكان صنيعُهم أن يقابلوا تهمه بحوادثَ معروفة من سيرته وشرحِ صفات معلومة من صفاته، وأن يَردّوا عى افتراءاته بإيجاز جامع أو بسرد مفصّل لخصاله وسجاياه وطباعه، ممّا لا ينكره خبيرٌ مطّلع ولا يطعن به مؤرِّخ. وكذلك تلك الأجوبة التي كان يَرشق بها محدِّثيه وجلّاسَه، ممّن كان على صداقةٍ وودٍّ معهم أو على عداوةٍ ونفاق. وتلك الكتب والرسائل وإلى جانبها الأجوبة، هي كثيرة وكثيرة ومتنوعة، ليس في وسعنا أن نأتي إلّا على ذكر نماذجَ وانماطٍ منها. وهي من الشهرة بحيث لا تكاد تَخفى على أحد من الباحثين والدارسين. ولا يكاد يخلو كتابٌ من ذكر شيءٍ منها أو الإشارة إليها، وأكثرُ الكتب تغصُّ بها وتَحفل بالتعليق عليها.

ومن ذلك ما ذكره المبرّد في الكامل وابن قتيبة في عيون الاخبار والمسعودي في مروج الذهب والجاحظ في البيان والتبيين وفي كتاب التاج وآخرون غيرُهم، أنّ معاوية كتب إلى قيس بن سعد كتاباً أغلظ له فيه، فأجابه ابن سعد بكتاب مثلِه، وردَّ عليه حجرَه بحجرٍ أقسى منه وأصلب، فقال: «أمّا بعدُ، فإنّما انت وَثَنٌ وَابنُ وَثَن، دخلتَ في الإسلام كُرهاً، وخرجتَ منه طوعاً، لم يَقدُم إيمانُك ولم يحدُث نفاقُك. وقد كان أبي وَتَرَ قوسَه ورمى غرضَه وشغبَ عليه من لم يبلغ كعبَه، ولم يَشقَّ غبارَه، ونحن انصارُ الدين الذي خرجتَ منه وأعداءُ الدين الذي دخلتَ فيه والسلام». وذكر الطبري وابن الأثير وابن أبي الحديد نماذجَ أخرى من الردود عليه والطعونَ فيه. وأوفى ابن أبي طاهر في كتابه بلاغات النساء على ذكر نوادر

وقصص ، جرتْ بين معاوية وبين نساءٍ معروفات ، وهي تنضمّ على كثير من ملامح شخصيّته ، وتشتمل على ألوان متنوعة من أسراره .

وربّما كان عَمْرُو بنُ العاص له اليدُ الطولى ، في رسم هذه الملامح وفي فتح الأنفاق السرّيّة التي عَبَرَ فيها وضع الإسلام والمسلمين من الحكم إلى التحكّم ، ومن النظام إلى الفوضى ، ومن الطموح والتطلّع إلى الطمع والاستبداد والتفرّد . وكان ابن العاص ذاكرةَ معاوية الذاكرة وعينَه الساهرة ولسانَه الناطق ، لعلّه لم يترك خطوةً من خطوات حياته إلّا وشاركه فيها ، سواءً أكان موجِّهاً له أو تابعاً . ولم تستطع هذه العلاقة القويّة التي نشأت بينهما أن تبدِّد ما كان يَحمل كلٌّ منهما لصاحبه من الحذر الشديد الذي راح يتطوّر أحيانا إلى الانتقام بزرع المكايد وافتضاح الأسرار وإلى المواجهة القاسية . وقد قال مرّةً له معاوية : لو شئتُ أن أمنِّيك وأخدعَك لفعلت . فقال عمرو : لا ، لعمر اللهِ ما مثلي يُخدع ، لأنّي أكيسُ من ذلك . فقال معاوية : أُدنُ منّي أسارّك ، فدنا عَمرُو ، فعضَّ معاويةُ أذنَه ، وقال : هذه خدعة ! وهذه النادرةُ تعبِّر على أنّ الخَدْعَ كانت بينهما سجالاً ، وأنّ الحياة كانت عندهما ضرباً من الهزء والسخرية بالإنسان وبالأشياء .

وسنعيش الآن لحظات فيها المتعة كلّ المتعة ، مع هذه القصيدة التي درجوا أن يُسمّوها الجلجليّة ، قالها عَمرُو بن العاص وخاطب بها معاوية ، وما أبقى على شيء دار بينهما أو أتياه من الحِيَل والكيد والمراوغة للتشنيع على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعلى أهل بيته وأتباعه ، إلّا وذكره ممزوجاً بالحسرة والندامة ومُرفقاً بتأنيب معاوية وقدعه والنيل منه ، لأنه لم يبرَّ بوعده ولم يَفِ بقوله . ولو لم نكن على يقين من أنّ هذه القصيدة هي من قول عَمرِو بنِ العاص حقاً وليست منسوبةً إليه ، لَمَا قدِمنا على ذكرها

والانشغال بها . فهي لا تختلف في ملامحها وطريقة إنشائها عن ملامح اشعاره الاخرى التي ذَكَرتها له المصادر الصحيحة ولا عن طريقة إنشائها . وهي تُرينا انّ الايّام والأحداث اخملتْ فيه شاعراً كبيراً واوقدتْ محلَّه دهاءً كبيراً وذكاءً نادراً . وهلِ الشعر إلّا نوعٌ من الدهاء يلعب بالنفوس كما يشاء ويحرِّكها على هواه ، كما يلعب الدهاء نفسه في سياسة الشعوب وكما يحرِّك وسائلَ السلطة .

وقد ذكر هذه القصيدةَ العلّامةُ الأميني في الجزء الثاني من موسَعته ، الغدير . وقام بالتحقيق حول إثبات صحّتها اثباتاً ، يستعصى على الاهتزاز أو الشك أن يرقى بعد ذلك إليها . وكان ممّا ذكره ، أنّه توجد منها نسختان في مجموعتين في المكتبة الخديوية في مصر ، على ما ذكروا في الجدول المطبوع لمحتوياتها عام سبعة والف وثلاثمائة ، وذلك في الصفحة أربعَ عَشْرَةَ وثلاثِمائة من الجزء الرابع . وروى جُملةً منها ابنُ أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ، وقال : رايتُها بخطّ أبي زكريا يحيى بنِ علي بن الخطيب التبريزي المتوفي عام اثنين وخمسمائة .

وقال الإسحاقي في لطائف أخبار الدول : «كتب معاوية إلى عمرو بن العاص : أنّه قد تردّد كتابي إليك بطلب خَرَاج مصر وأنت تمتنع وتدافع ، ولم تُسيِّره . فسيِّرْه إليّ قولاً واحداً وطلباً جازماً والسلام . فكتب إليه عمرو بن العاص جواباً وهي القصيدة الجَلجَلِيّة المشهورة ...» ثم جاء على ذكر ابياتٍ متفرّقة منها . إلى أنِ انتهى إلى قوله : فلمّا سمع معاوية هذه الأبيات لم يتعرَّضْ له بعد ذلك . وذَكرَ الشيخ محمد الأزهري في الجزء الاول من شرح مغني اللبيب هذه الأبيات كلَّها نقلاً عن تاريخ الاسحاقي خَلا بيتاً واحداً . وذكر عدداً من أبياتها ابن شهر آشوب في كتاب المناقب . وكذلك صَنَع السيد الجزائري في كتابه ، الانوار النعمانية ، فذكر عدداً كبيراً من

أبياتها، وأتى على ذكرها كلّها الزنوزي في الروضة الثانية من رياض الجنّة، وقال: هذه القصيدة تسمّى بالجلجليّة لما في آخرها: وفي عُنُقي عَلَقُ الجلْجَلِ. والآن هيّا بنا إلى الاستمتاع بهذه القصيدة الجميلة اللطيفة، وإنّا لذاكرون منها أكثرها، إذْ لا يسعنا ذكرها كلها بطولها.

مُعاويةُ، الحالَ لا تَجْهَلِ
وعَنْ سُبُلِ الحقِّ لا تَعْدِلِ
نَسِيتَ احتيالِيَ في جِلَّقٍ
على أهلِها يَومَ لُبسِ الحُلي؟
وقد أقبَلوا زُمَراً يُهْرَعونَ
مَهاليعَ كالبَقَرِ الجُفَّلِ
وقَولي لَهُمْ: إنَّ فرْضَ الصَّلاةِ
بِغَيرِ وجودِكَ لم تُقبَلِ
فولَّوْا ولَمْ يَعبأوا بالصَّلاةِ
ورُمْتَ النِّفارَ إلى القَسطَلِ
ولَمّا عَصيتَ إمامَ الهُدَى
وفي جَيشِهِ كلُّ مُستَفحِلِ
أبِالبَقَرِ البُكْمِ اهلِ الشّآمِ
لأهْلِ التُّقى والحُجَى أبْتَلي؟
فقُلْتَ: نَعَمْ قُمْ فإنّي أرى
قِتالَ المُفضَّلِ بالأفضَلِ

فبي حارَبوا سَيِّدَ الأوصياءِ
بِقَولي: دَمٌ طَلَّ مِنْ نَعْثَلِ

وكِدْتُ لَهُمْ أنْ اقاموا الرِّماحَ
علَيها المَصاحِفَ في القَسْطَلِ

وعَلَّمتُهُمْ كَشْفَ سَوْآتِهِمْ
لِرَدِّ الغَضَنْفَرَةِ المُقْبِلِ

فقامَ البُغاةُ على حَيدَرٍ
وكَفُّوا عَنِ المِشعَلِ المُصطَلي

نَسِيتَ مُحاوَرَةَ الأشْعَرِيِّ
ونحنُ على دَوْمَةِ الجَندَلِ؟

الِينُ فيَطمَعُ في جانبي
وسَهمِيَ قَدْ خاضَ في المَقتَلِ

خَلَعتُ الخِلافَةَ مِن حَيدَرٍ
كَخَلعِ النِّعالِ مِنَ الأرْجُلِ

وألْبَستُها فيكَ بَعدَ الإياسِ
كَلُبسِ الخَواتِمِ بِالأنمُلِ

ورَقَّيتُكَ المِنبَرَ المُشْمَخِرَّ
بِلا حَدِّ سَيفٍ ولا مُنْصُلِ

ولَو لَم تَكُنْ انتَ مِن أهلِهِ
ورَبِّ المَقامِ ولَم تَكْمُلِ

وسَيَّرْتَ جَيشَ نِفاقِ العِراقِ
كَسَيرِ الجَنوبِ مَعَ الشَّمْألِ

وسَيَّرتُ ذِكرَكَ في الخافِقَيْنِ
كَسَيرِ الحَميرِ مَعَ المِحمَلِ
فَلَولا مُوازَرَتي لَم تُطَعْ
ولَولا وُجودِيَ لَم تُقْبَلِ
ولَولايَ كُنتَ كَمِثلِ النِّساءِ
تَعافُ الخُروجَ مِنَ المَنْزِلِ
نَصَرناكَ مِن جَهلِنا يا ابْنَ هِنْدٍ
على النَّبَإِ الأعْظَمِ الأفضَلِ
وكُنتَ ولَم تَرَها في المَنامِ
فزُفَّتْ إلَيكَ ولا مَهْرَ لي
وحَيثُ رَفَعناكَ فَوقَ الرُّؤوسِ
نَزَلْنا إلى أسفَلِ الأسفَلِ
وكَمْ قَد سَمِعنا مِنَ المُصطَفى
وَصايا مُخَصَّصَةً في عَلي

☆☆☆

وإنّا وَما كانَ مِن فِعْلِنا
لَفي النارِ في الدَرَكِ الأسفَلِ
وما دَمُ عُثْمانَ مُنْجٍ لَنا
مِنَ اللهِ في المَوقِفِ المُخْجِلِ
وإنّ علِيًا غَدا خَصْمَنا
ويَعتَزُّ باللهِ والمُرسَلِ

يُحاسِبُنا عَن أمورٍ جَرَتْ
ونحنُ عَنِ الحَقِّ في مَعزِلِ
فَما عُذرُنا يومَ كَشفِ الغِطا؟
لَكَ الوَيلُ مِنهُ غداً ثُمَّ لي
ألا يا ابْنَ هِنْدٍ أبِعْتُ الجِنانَ
بِعَهدٍ عَهِدتَ ولَم تَفِ لي!
وأخسِرتَ أُخْراكَ كيما تَنالَ
يَسيرَ الحُطامِ مِنَ الأجزَلِ
وأصبَحتَ بِالناسِ حَتَّى استَقامَ
لَكَ المُلكُ مِنْ مَلِكٍ مُحْوِلِ
وكُنتَ كَمُقتَنِصٍ في الشِراكِ
تَذودُ الظَماءَ عَنِ المَنهَلِ
كَأنَّكَ أُنْسيتَ لَيْلَ الهَريرِ
بِصِفِّينَ مِنْ هَوْلِها المُهْوِلِ!
وقَدْ بِتَّ تَذْرُقُ ذَرْقَ النَّعامِ
حَذاراً مِنَ البَطَلِ المُقبِلِ
وحينَ أزاحَ جُيوشَ الضَّلالِ
ووافاكَ كالأسَدِ المُبْسِلِ
وقَد ضاقَ مِنكَ عَلَيكَ الخِناقُ
وصارَ بِكَ الرَّحْبُ كالفُلفُلِ
وقَولُكَ يا عَمْرُو أيْنَ المَفَرُّ
مِنَ الفارِسِ القَسْوَرِ المُسْبِلِ؟

عَسى حيلةٌ مِنكَ عَنْ ثَنْيِهِ
فـإنَّ فـؤادِيَ فـي عَسْقَلِ
فقُمتُ على عَجْلَتي رافِعـاً
وأكشِفُ عَنْ سَوْأتي أذْيلي
فستَّرَ عَنْ وَجْهِهِ وانْثَنـى
حَيـاءً ورَوْعَكَ لَـم يَعْـقَلِ
وأنتَ لِخَـوفِكَ مِـن بَـأسِهِ
هُناك، مُلِئْتَ مِنَ الأفْـكَلِ
ولمّا مَلَكْتَ حُمـاةَ الأنـامِ
ونـالَتْ عَصاكَ يَـدَ الأوَّلِ
مَنَحتَ لِغَيرِيَ وَزْنَ الجِبالِ
ولَم تُعْطِني زِنَـةَ الخَـرْدَلِ
وأنْحَلتَ مِصراً لِعَبدِ المَليكِ
وأنتَ عَنِ الغَيِّ لَم تَعدِلِ
وإنْ كُنتَ تَطمَعُ فيها فقَدْ
تَخَلّى القطا مِنْ يَدِ الأجْدَلِ
وإنْ لَم تُسامِحْ إلى رَدِّها
فإنّـي لِحَوْبِكُـمُ مُصطَلـي
بِخَيْلٍ جِيادٍ وشُمِّ الأُنـوفِ
وبالمُرهَفـاتِ وبالـذُّبَّلِ
وأكشِفُ عَنكَ حِجابَ الغُرورِ
وأوقِـظُ نائِمَـةَ الأثْـكَلِ

فإنَّكِ مِن إمْرَةِ المُؤْمِنِين
وَدَعْوى الخِلافَةِ في مَعزِلِ
وما لَكَ فيها ولا ذَرَّةٌ
ولا لِجُدودِكَ بالأوَّلِ
فإنْ كانَ بَينَكُما نِسبَةٌ
فأينَ الحُسامُ مِنَ المِنْجَلِ ؟!
وأينَ الحَصا مِن نُجومِ السَّما ؟!
وأينَ مُعاوِيَةٌ مِن عَلي ؟!
فإنْ كُنتَ فيها بلَغتَ المُنى
ففي عُنُقي عَلَقُ الجَلْجَلِ

ولا يَخفى أنّ القصيدة تشتمل على ذِكر أحداثٍ، لها موقعُها الكبير من تاريخنا، ولها أثَرُها البعيد والعميق، في إثارة فِتنٍ وقيامة حروبٍ وانشعابات، ستبقى ساريةً ما بقيَ الزمان سارياً. ولا نستطيع أن نأتيَ على شرح هذه الاحداث، فهي مشروحة مفصّلة في الكتب المعروفة والمصادر الهامّة. ويكفي أن نُشير إليها إشارةً، فليس عندنا مَن لم يقرأ طرفاً من هذه الاحداث. وكم أودّ أن يكون لنا فيها عِبرةٌ وعِظة، اكثرَ ما يكونُ لنا فيها أسبابٌ للإثارة ولإنعاش الأحقاد وإيقاظ الضغائن. وإذا كان للقصيدة من قيمة غيرِ قيمتها التاريخية، فهي انّها وثيقةٌ حيّةٌ ناطقة على أنواع الوسائل التي لجأ إليها مؤسّس السلطة الأمويّة لزرع التهم في كلّ مكان على الإمام الحقّ، وبثّ المَكر والشائعات والحِيَل، واللجوءِ إلى المراوغة والخديعة وإلى كلّ وسيلة من شأنها أن تقرّب السلطة إليه وأن

تبعهما عن الإمام الحقّ، ولو كان في ذلك تقويض أركان الإسلام وتشتيت شمل المسلمين ورميهم بالحروب والفواجع والدواهي. ثمّ إنّ جهود معاوية تكلّلتْ بالفَلاح، وانتهى الأمر إليه وفاز بالسلطة. وأصبحتِ الوسائل التي استخدمها في اجتلاب السلطة سنّةً لمن جاء بعده إلى يومنا هذا. فان كانت هذه السنّة حسنةً فله أجرُها وأجرُ من يعمل بها إلى يوم القيامة، وإن كانت سيّئةً فله وِزرُها ووزرُ من يعمل بها إلى يوم القيامة.

وكان أوّل ما بدأ به عَمرو بنُ العاص حديثَه، هو تذكيرُه معاويةَ بما صنعه من تهييج أهل الشام وتحريضهم ليَشتدَّ تماسكُهم في الدفاع عن مَلِكهم المأمول. ثم يَنتقل إلى تذكيره بما كان يحدث في معارك صِفّينَ من الأهوال والمجابهات القاسية العنيفة. وأشار إشارةَ مَن يَخجَل أو مَن يَعتزّ، إلى كشفه عن سوأته، عندما هَمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بضربه، ولم يكُنْ له طاقةٌ في ردّه ولا في الوقوف أمامَه. ثمّ انتقل إلى قصّة التحكيم وما جرى فيها بينَه وبين أبي موسى الأشعريّ على مرأى جمعٍ كبيرٍ من المسلمين ومسمعٍ منهم. وبعدها يَلفِتُ نظرَه ويُذكّره بالجهود التي استمرّوا في بذلها لتفتيت معسكر الإمام علي وتعبئة مَن استطاعوا الوصولَ إليهم من أتباعه تعبئةً نفسية لاستمالتهم بالمال أو بالوعود وإغرائهم بشيء من الدنيا. وقد أفلحوا هنا وهناك، وجمعوا حولهم عدداً غيرَ قليل من المسلمين الذين غرّروا بهم وفازوا في إضلالهم. وأخيراً يعترف بأنّ ما صنعوه كان عيباً وكان ذلّةً وامتهاناً، إذا هو راح يوصلُهم إلى الزائل الفاني من متاع الدنيا وخسيس حطامها، فإنّه أورثهم سُبّةَ الأيّام المتوالية ونقمةَ الأجيال المتتابعة، وعرّضهم إلى عذابٍ اليم لا خلاص لهم منه. ولا يتردّد أن يُقِرّ ويشهد، بأنّ عليًا أميرَ المؤمنين هو صاحبُ الحقّ، وأنّهم نازعوه، وكانوا في

نزاعهم له على ضَلالٍ وانحراف. لكنّ الدنيا الدَنيّة تتزيّن له من جديد، فينهض إليها نهوض العاشق الوامق، ويتهدّد معاوية ويُنذره بالويل والثبور، إذا هو أمسكَ على يَده وحال بينه وبين متاعها الذي باع دِينه لأجله. فليَترُكْ له مصر وخَراجها، كما كان أعطاه وعداً بذلك، فقد يكون فيها ما يُسَكِّن غليان الوَلْهان ويُطفىء عطش العطشان.

ومهما قرأنا عَن معاوية واطّلعنا على أخباره وأسراره، فإنّه لن يتعرّى أمامنا على حقيقته الصريحة، ولن تنكشف لنا مخبّآت نفسه، فنَقِفَ على خفايا الخفايا في أعماق أعماقه، إلّا إذا قرأنا أقوالَ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فيه، وما يَذكره من سجاياه وخصالِه وطباعِه المغروسة في نفسه. ومَن لم يَقرأ هذه الأقوال ويتفحّصْ آراءه فيه، فقد أخطأ السبيل إلى استكناه معاوية، وفاتَه شيءٌ كثير من معرفة أصوله وفصوله، فلا يَحِقّ له أن يَدَّعيَ أنّه عرفه، أو أنّه اقترب من خباياه وخفاياه. وهذه الآراء والأقوال، كلّها مذكورة في المكاتبات والمراسلات التي قامت بين الإمام الحقّ وبين معاوية، وفي كُتُب الإمام إلى عمّاله ووُلاتِه على الأنحاء والأمصار. وليس أسهلَ من أن نَمُدَّ اليد إلى نهج البلاغة ونقرأها كتاباً كتاباً ورسالةً رسالة. ومَن ضَرَبَ الله على قلبه بالأسداد من القوم وأنكر أن يكون نهج البلاغة للإمام، فها هي كتبُه ورسائله وخطبُه وأقواله موزّعةٌ متناثِرةٌ في أمّهات الكتب وفي المصادر الموثوق بها.

ففي كتابٍ له إلى زياد بن أبيه، يقول: «وقد بلغني أنّ معاوية كتب إليك يستزِلُّ لُبَّكَ، ويَستفِلُّ غَرْبَكَ، فاحذَرْه، فإنّما هو الشيطان، يأتي المرءَ مِن بين يديه ومن خلفِه، وعن يمينِه وعن شمالِه، ليقتحم غفلته ويستلِبَ غُرّتَه».

وفي كتابٍ له إلى عَمرو بن العاص يقول: «فإنك قد جعلتَ دينك تَبَعاً لدنيا امرىءٍ ظاهرٍ غيّه، مهتوكٍ سِرّه، يَشين الكريمَ بمجلسه، ويسفّه الحليم بخلطته، فاتّبعتَ أثَرَه، وطلبتَ فضله، اتّباعَ الكلب للضرغام، يلوذ بمخالبه، وينتظر ما يُلقي إليه من فضل فريسته. فأذهبتَ دنياك وآخرتك. ولو بالحقّ أخذتَ، أدركتَ ما طلبتَ. فإنْ يُمَكّنِ اللهُ منكَ ومِنِ ابنِ أبي سفيان، أجْزِكما بما قدّمتُما، وإنْ تُعجزوا تبقيا. فما أمامَكما شرٌّ لكما والسلام».

ومن كتابٍ له إلى معاوية: «وأرديْتَ جيلاً من الناس كثيراً، خدعتَهم بغيِّكَ، وألقيتَهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجاروا عن وُجهتهم، ونكَصوا على أعقابهم، وتولَّوْا على أدبارهم، وعوّلوا على أحسابهم، إلّا مَنْ فاء من أهل البصائر، فإنّهم فارَقوك بعد معرفتِك، وهربوا إلى الله من موازرتك، إذْ حملتَهم على الصعب وعدَلتَ بهم عن القصد. فاتّقِ الله يا معاويةُ في نفسك، وجاذب الشيطان قيادَك، فإنّ الدنيا منقطعةٌ عنك، والآخرةَ قريبةٌ منك والسلام».

وانه لَحقٌّ لمعاوية علينا ان نذكر كتباً له كان يُسيرُها إلى علي أمير المؤمنين، لنرى انّه لم يكن سهلاً ليِّنا في المخاطبة، وانّه كان عنده من الجراة والفروسيّة على البُعد، بقدر ما كان عنده من الجُبنِ والفسولة على القرب. ولنعلم حقًا انّه لم يدخلِ الإسلامُ ولا الإيمانُ قلبه ولا احساسَه ولم يعتقد بالقرآن المجيد ولم يصدّق بالرسول الأعظم. وبعض هذه الكتب موجود في شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد، وبعضها الآخر في تاريخ الطبري وفي عيون الأخبار، وكتاب المعارف، والعقد الفريد، وكتب الجاحظ والأغاني. فمن كتابٍ له يجيب فيه على كتاب امير المؤمنين علي بن ابي طالب: «أما بعد، فقد وقفتُ على كتابك، وقد ابَيْتَ على الفِتَن الا تمادياً،

وإنّي لعالم أنّ الذي يدعوك إلى ذلك مصرعُك الذي لا بدّ لك منه. وإنْ كنتَ موائلاً فازدَدْ غيًا إلى غيّك، فطالما خفَّ عقلُك، ومَنَّيْتَ نفسَك ما ليس لك، والتَويتَ على ما هو خيرٌ منك، ثم كانت العاقبة لغيرك، واحتملْتَ الوِزرَ بما احاطَ بكَ من خطيئتِك والسلام».

فأجابه أمير المؤمنين: «أما بعد، فإنّ ما أتيتَ به من ضلالكَ، ليس ببعيد الشبه ممّا اتى به أهلُك وقومُك الذين حملَهم الكفرُ وتَمَنّي الأباطيل على حَسَد محمّد صلى الله عليه وآله، حتّى صُرِعوا مَصارعَهم حيثُ علمتَ، لم يَمنَعوا حَريماً ولم يَدفَعوا عظيماً، وأنا صاحبُهم في تلك المواطن، الصالي بحربهم، والفالُّ بحدِّهم، والقاتِل لرؤوسهم ورؤوسِ الضلالة، والمُتبعِ إن شاء الله خَلَفَهم بسَلَفهم، فبِئْسَ الخَلَفُ خلفٌ اتبَعَ سَلفاً، محلُّه ومحطُّه النار والسلام».

فأجابه معاوية: «أما بعد، فقد طال في الغيّ ما استمررتَ أدراجك كما طالما تمادى عن الحرب نكوصُك وإبطاؤك، فتُوعِد وَعيدَ الأسَد وتَروغُ رَوَغان الثعلب، فحتّامَ تَحيدُ عن مباشرة الليوث الضارية والأفاعي القاتلة، ولا تَستبعِدَنَّها، فكل ما هو آتٍ قريبٌ إن شاء الله والسلام».

فردّ عليه أمير المؤمنين: «أما بعد، فما أعجبَ ما يأتيني منك! وما أعلمَني بما انت إليه صائر! وليس ابطائي عنك إلّا ترقّباً لما انتَ له مُكذِّب وأنا به مُصدِّق. وكأنّي بك غَداً وأنت تَضِجّ في الحرب ضجيج الجِمال من الأثقال، وستَدعوني أنت وأصحابُك إلى كِتاب تُعظِّمونه بألسنتكم وتَجحدونه بقلوبكم والسلام». وهو يشير إلى القرآن المجيد وإلى رفعه في ساحة القتال والموت، والدعوةِ إلى النزول عند حُكمه. وقد صدَّقتِ الأيّام قولَه، ورُفعَتِ المصاحف ووَقَعَ التحكيم.

وعلى هذا الكتاب، يجيبه معاوية فيقول: «أما بعد، فدعني من أساطيرك، واكفف عنّي من أحاديثك، واقصِرْ عن تقوّلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، وافترائك من الكذب ما لم يقلْ، وغرورِ من معك والخِداعِ لهم. فقد استغويْتَهم، ويوشك أمرك أن ينكشِفَ لهم فيَعتزِلوك ويَعلَموا أنّ ما جئتَ به باطلٌ مُضمَحِلّ والسلام».

والقرآن المجيد هو عند أمير المؤمنين وَحْيُ الله أنزلَه على الرسول الأعظم، وهو عند معاوية أساطيرُ كما يصرح به في كتابه ولا يخشى ولا يَهاب. فردَّ عليه أمير المؤمنين: «أما بعد، فطالما دعَوْتَ أنت وأولياؤك، أولياءُ الشيطان الرجيم، الحَقَّ أساطيرَ الأوّلينَ ونبذتُموه وراءَ ظهوركم، وجهِدْتُم لإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم، والله مُتِمُّ نورِه ولو كره الكافرون. ولَعَمري لَيَتِمَّنَّ النور على كُرهِك، ولَيَنْفُذَنَّ العِلم بصغارك، ولَتُجَازَيَنَّ بعَمَلِك وقد هوى، ثمّ تصيرُ إلى لظى، لم يَظلِمْكَ الله شيئاً. وما ربّك بظَلّامٍ للعبيد».

ومِن كتبه الهامّة المعبِّرة لمعاوية، وكلُّ كتبه هامّةٌ ومعبِّرة: «أما بعد، فإنّ الله سبحانَه جعل الدنيا لِما بعدها، وابتلى فيها أهلَها، ليَعلم أيُّهم أحسنُ عملاً. ولسنا للدنيا خُلِقنا، ولا بالسَّعي فيها أُمرنا، وإنّما وُضِعنا فيها لنُبتلى بها. وقد ابتَلاني الله بكَ وابتلاكَ بي، فجعلَ أحدَنا حُجّةً على الآخر، فعَدَوتَ على طلب الدنيا بتأويل القرآن، وطلبتَني بما لم تَجنِ يدي ولا لساني، وعصَيْتَه أنت وأهلُ الشام بي. وألَّبَ عالِمُكم جاهلَكم وقائِمُكم قاعدَكم. فاتّقِ الله في نفسك، ونازِعِ الشيطانَ قيادَك، واصرِفْ إلى الآخرة وجهك، فهي طريقُنا وطريقُكَ ...». ولعلّه كَشَفَ في هذا الكتاب سرًّا من أسرار خَلق معاوية، وهو أنّ الله خلقه ليكون عدوًّا لأمير المؤمنين، يجاهره النصب والعداء والمخالفة. وليكونَ أتباعُه ومُحِبّوه أعداءً

لأتباعه ومحبيه حتى ينتهي الدور المكتوب والأجل الموقوت. ويؤكد في الكتاب أنّ معاوية اتّخذ من مقتل الخليفة عثمان ذريعةً لشقّ الطاعة على الإمام الحقّ، وخلق منه وسيلةً تحريضٍ وتهييج عند أهل الشام ومَن يسير بسيرة الأمويّين في العقيدة والسياسة من أهل الأنحاء والأمصار.

وقد تعرّض إلى ذِكر فاجعة الخليفة عثمان في أكثر من كتابٍ له وجّه به إلى معاوية، وشجب الفاجعة وأسبابها، واستنكر على معاوية استغلالَها لمآربه التي أعلن عنها وصرّح بها وأوقع في المسلمين الفِتن لأجلها. وجعلَه واحداً من أسبابها، وشريكاً للقتلة عندما وعد الخليفةَ المقتول بالنُصرة، ثم تباطأ عنه وخذَله في ساعة العسرة. وكان قد تقصّد ذلك وسعى إليه، كما يحدّثنا التاريخ، وكما رأينا في قصيدة عَمْرو بن العاص الجَلجَليّة التي أتينا على ذكر أكثرها. فمن كتابٍ له إلى معاوية: «فسبحانَ اللهَ ما أشدَّ لزومَك للأهواء المبتدَعة والحيرةِ المتّبَعة، مع تضييع الحقائق، واطِّراح الوثائق التي هي لله تعالى طِلْبَةٌ، وعلى عباده حُجَّة. فأمّا إكثارُك الحجاجَ على عثمان وقتلتِه، فإنّك إنّما نصرتَ عثمان حيث كان النصر لك، وخذَلتَه حيث كان النصرُ له والسلام».

ومن كتابٍ له يقول: «ولَعَمري يا معاوية! لئِنْ نظرتَ بعقلك دون هواك لَتَجدَنّي أبرأَ الناس من دم عثمان، ولَتَعلَمَنَّ أنّي كنت في عُزلة عنه إلّا أنْ تَتَجنَّى، فَتَجَنَّ ما بدا لكَ والسلام». ومن كتابٍ آخر يقول: «ثمّ ذكرتَ ما كان من أمري وأمر عثمان، فلكَ أن تُجاب عن هذه لرحمك منه. فأيُّنا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله؟ أمَنْ بَذَلَ له نُصرتَه فاستقعدَه واستكفَّه، أم مَنِ استنصرَه فتراخى عنه وبثّ المَنون إليه حتى أتى قَدَرُه عليه؟ كلّا! واللهِ لقد: يعلمُ الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا ولا يأتون البأسَ إلّا قليلا ...».

ومن كتاب له يقول: «وزعمت أنك جئت ثائراً بدم عثمان، ولقد علمتَ حيث وَقَعَ دمُ عثمانٍ، فاطلبه من هناك إنْ كنتَ طالباً...».

والكتب الأخرى التي وجّهها إلى معاوية والتي يذكُر فيها مقتل الخليفة عثمان هي كثيرة. ويكفي هذا القدْر الذي ذكرناه لنصير إلى اليقين، بأنّ الإمام عليًا كان بريئًا من دمِ عثمان، وأنّ الذين سببوا قتله وعجّلوا به هم أهلُه بنو أميّة، ويأتي معاوية على رأسهم. وفي هذا الكتاب نفسه يخاطبُ معاويةَ ويدعوه إلى وقف الحرب بين المسلمين والإمساك عن سكب هذه الدماء، ويسألُه أن يتبارزا أمامَ الناس، فالقاتل منهما تكون له الأمور، والمقتول يمضي إلى ربّه حيث ينتظره هناك مصيرُه وحسابُه. وقد فَرِحَ كثيرٌ من المسلمين بهذا الرأي ورحّبوا به، وانتظروا العمل به. وكان ممّن سرّه هذا الرأيُ ولقيَ عنده قبولاً عَمرو بنُ العاص الذي قال لمعاوية آنذاك: «قد أنصَفَكَ الرجل»، وبقيّةُ ما جرى بينهما طريفٌ معروف، طارتْ به كتب التاريخ والأدب. لكنّ معاوية رفضَه متعلّلاً بأعذارٍ ليس أوضحَ من اختلاقها إلّا جُبنُه وضعفُه.

يقول الإمام في هذا الكتاب مُخاطباً معاوية: «وقد دَعوتَ إلى الحرب، فدَعِ الناس جانباً واخرُجْ إليَّ، واعفِ الفريقين من القتال، لتَعلمَ أيُّنا المَرِينُ على قلبه، والمُغَطّى على بصره! فأنا أبو الحسن قاتلُ جدِّك وأخيك وخالك شدخاً يومَ بدر. وذلك السيف معي، وبذلك القلبِ ألقى عدوّي، ما استبدلتُ ديناً ولا استحدثتُ نبيًا. وإنّي لَعلى المنهاج الذي تركتُموه طائعين ودخلتم فيه مكرَهين...».

وقد قال معاوية مرّةً لجُلَسائه، وهو يقارِن بين أسلوبه في السياسة وبين أسلوب أمير المؤمنين، فأبدَعَ فيه أيّما إبداع، وصَدَقَ فيه الصدقَ كلَّه: «أُعِنْتُ على عَلِيٍّ بأربع: كنتُ أكتُم سرّي، وكان رجلاً ظُهَرَةً، وكنتُ في أطوع جندٍ وأصلحِه، وكان في أخبث جندٍ

واعصاه، وتركته وأصحابَ الجَمَلِ وقلت: إنْ ظَفِروا به كانوا أهونَ عليَّ منه، وإنْ ظَفِر بهم اعتَدَدْتُ بها عليه في دينه، وكنتُ احَبَّ إلى قريشٍ منه. فيا لكَ من جامعٍ إليَّ ومُفرِّقٍ عنه، وعونٍ لي وعونٍ عليه».

ولكنّ أميرَ المؤمنين الذي لا يجهل معاوية، أخبرَنا انّه لا يصنع صنيعه، ولا يقول إلّا حقًّا ولا يفعل إلّا حقًّا في الصغير من الأمور وفي الكبير منها. وبهذا الشأن يقول من خطبةٍ له: «واللهِ ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يَغدِر ويَفجُر، ولولا كراهيةُ الغدر لكنتُ من أدهى الناس. ولكنْ لكل غدرة فجرة، ولكلّ فجرة كفرة ..». فأين هي الرجولة في الغدر، إذا كان الصغير من الناس والكبير يقدر عليه ويأتيه؟ إنّما الرجولة التي لا يُحسنُها إلّا القليل من الناس هي قول الحقّ والوقوفُ إلى جانب الحقّ، مهما كانتِ الأسباب ومهما كان المصير.

وقد ذَكر له نصر بن مزاحم في كتابه، وقعة صفّين، وذكر مثلَه الطبريّ في تاريخه وابنُ الأثير في الكامل، انّه قال في خُطبةٍ له لَمّا رفع أهل الشام المصاحف على الرماح: «عِباد الله: إنّي أحقّ مَن أجاب إلى كتاب الله، ولكنّ معاويةَ وعمرَو بنَ العاص وابنَ أبي معيط وحبيبَ بنَ مسلمة وابنَ أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. وإنّي أعرَف بهم منكم، صَحِبتُهم أطفالاً، وصَحِبتُهم رجالاً، فكانوا شرَّ أطفالٍ وشرَّ رجالٍ. إنّها كلمةُ حقّ يُراد بها الباطل. إنّهم واللهِ ما رفعوها لأنّهم يعرفونها ويعملون بها ولكنّها الخديعةُ والوهنُ والمكيدة. أعيروني سواعدَكم وجماجمكم ساعةً واحدة. فقد بلغ الحقّ مقطعه، ولم يَبقَ إلّا أنْ يَقطعَ دابرَ الذين ظَلَموا».

وذَكرَ من خطبةٍ له بصفّين، نصرُ بن مزاحمٍ، وابنُ أبي الحديد، وصاحبُ جمهرة الخطب، قولَه: «وقد عَهدَ إليّ رسولُ الله

عهداً ، فلستُ أحيدُ عنه . وقد حضرتم عدوَّكم وعلِمتم ، أنّ رئيسَهم منافقٌ ابنُ منافق يدعوهم إلى النار ، وابنُ عمِّ نبيِّكم معكم وبين أظهركم يدعوكم إلى الجنّة وإلى طاعة ربِّكم والعملِ بسنّة نبيِّكم ، ولا سواه مَن صلّى قبل كلّ ذِكر ، لا يسبقني إلى الصلاة مع رسول الله أحد . وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليقٌ وابنُ طليق . واللهِ إنّا على الحقّ وإنّهم على الباطل ، فلا يَجتَمِعُنَّ على باطلهم وتتفرَّقوا عن حقِّكم حتى يغلبَ باطلُهم حقَّكم . قاتِلوهم يعذِّبْهم الله بأيديكم ، فإنْ لم تفعلوا يعذِّبْهم بأيدي غيرِكم» . وقد صَدَق أمير المؤمنين بما قال ، فهذه حياةُ هؤلاء القوم منذ ذلك الزمن ، بَقِيَتْ نهباً بين عذابِ بعضِهم لبعضٍ وبين عذابِ قومٍ آخَرين لهم ، وهي ستبقى على هذه الحالِ إلى يومَ ينتهي من الدنيا كلُّ حال .

وقد كتب معاوية إلى مروان بن الحكم كتاباً يقول فيه : «فإذا قرأتَ كتابي هذا ، فكنْ كالفهد ، لا يُصطاد إلّا غيلةً ، ولا يتشارَرُ إلّا عن حيلة ، وكالثعلب لا يُفلت إلّا روغاناً . وأخفِ رأسك منهم إخفاءَ القنفذِ رأسَه عند لمسِ الأكفّ . وامتَهِنْ نفسَك امتهانَ من يَيأس القومُ من نَصره وانتصاره . وابحَثْ عن أمورهم بحثَ الدجاجة عن حَبِّ الدَّخَنِ عند فِقاسها ، وأنْغِلِ الحجاز ، فإنّي مُنغِلُ (أي مُفسِدٌ) الشام والسلام» .

وليس عجيباً ، إذا راح معاوية يصرِّح عن نفسه وعن أسلوبه في الوصول إلى مآربه وأهدافه وعن سياسته ومواقفه هذا التصريح . وإنّما العَجَب أن يُلاقيَ أسلوبُه مِن أكثر الدارسين والباحثين والمحلِّلين في القديم والحديث ترحيباً شديداً به ورضى عنه ، وأنْ يرَوْا فيه رجلَ حلٍّ وربطٍ للمعضلات ورجلَ دولة ، لا مَثيلَ له في ترتيب الأمور وتسويق آرائه وتجميع الناس حوله . وربّما كانوا على حقٍّ فيما ذهبوا إليه من رأي في معاوية وعلى صوابٍ

فيما حكموا به عليه، بعد ما أصبح الشائع المألوف منذ زمن بعيد، أنْ تُساس الشعوب بالخِدَع وتُصرَّف الأمور فيها بالمكايد والروَغان، ووسائلَ أخرى كثيرةٍ تهونُ اليوم عندها وسائلُ معاوية. ولكنّهم ليسوا على حقّ اذا أرادوا إنقاذ الإنسان وتطهيرَ فطرته من الأرجاس التي لصقتْ به ومن الأدناس التي علقتها، واذا أحَبّوا أن يعودوا بها إلى الصفاء الذي منه بدأ والطبيعة النقيّة التي منها خرج. أقول ذلك، ولا أضع يدي على قلبي خوفاً مِن اتّهامي بالشذوذ أو الجنون، فلا بدّ من قولة الحقّ وإنْ كان الحقّ أقوى من أن يَحتاجَ إلى من يَقوله.

ب - يزيد وما بعده

ليس هنالك بين المسلمين، مَنْ إذا ذُكِر أمامَه يزيد، يتردّد عن رجمه بحجر من الشتم أو قذفه بكلمة عابسة نابية. ولا يوجد هنالك مسلم وغير مسلم، يَفصِل بين ذِكر يزيد وبين ذكر فاجعةِ كربلاء. تلك الداهيةِ الدهياءِ التي لم تكنْ في الحقيقة إلّا استمراراً لبدر وأُحُد والجَمَل وصفّين، والتي هي المأساة الكبرى لوجود الإنسان وحرّيّته وعقيدته. وليستْ هي فاجعةً، لأنّ الدمَ النبويّ سال فيها على يد الحقد الأمويّ الأسود، فذلك أمرٌ وإنْ أرهقَ العربَ والمسلمين حَملُ عارِه وأرهقتْهم ذلّتُه وشناعتُه، فإنّ وطأته قد تَخفّ مع مرور الزمن وتلين قسوتُه، ولكنّها فاجعةٌ، لأنّ المعانيَ التي انضمّتْ عليها فاتَ الأجيالَ المتعاقبة أن تفتحَها وتستلهِمَ منها عِبرةً أو تستوحيَ عِظةً أو تقطُفَ بارقةً تُعيد للإنسان العربي المنكوب شمّةً من حرّيّته أو ضمّةً من عقيدته أو سوْراً من هديه وصوابه.

ولا اريد ان أُشغلَ بالحديث على هذه الفاجعة أكثرَ من ذلك، ولماذا الحديث عليها، ونحن نعيش ابعادها في كلّ ساعة، وكأنّنا لا نحسّ بها ولا ندري بوجودها؟ ولكنْ اريد انْ أُشغل بالحديث على يزيد. ولا لومَ عليَّ في ذلك ولا تثريب، فنحن لا نزال نعيش في عهد يزيد وفي أعمال يزيد. وسيظلّ يزيد يصرِّف أمور هذه الأمّة حتى تفارقَ الحياةَ هذه الأمّة.

ولا عَجَبَ في كلامي هذا، وقد سبقني إلى مثلِه عبد الله بن عبّاس، فقد أحَبَّ ان يسأله عتبةُ بنُ مسعود، على رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، وكأنّه يستنكر عليه ما فعله: «اتُبايِع يزيد وهو يشرب الخمر، ويلهو بالقِيان ويستهتر بالفواحش؟ قال: مه! اين ما قلتُ لكم؟ وكم بعده من آتٍ، ممَّن يشرب الخمر أو هو شرٌّ من شاربها، انتُم إلى بَيعته اسرعُ! اما واللهِ، إنّي لأنهاكم، وأعلم انّكم فاعلون...».

ولا عَجَبَ في كلامي هذا، وقد قال ما هو أمرٌّ منه وأدهى معاويةُ بنُ يزيد، على رواية ابنِ حجر في الصواعق المحرقة. فقد ذَكَرَه بعدما ذَكر جَدّه معاوية، بِذَمٍّ وحرقة وحسرة وقال: «ثم قَلَّدَ ابي الأمرَ، وكان غيرَ أهل له، ونازَعَ ابنَ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقُصِفَ وانبَتَرَ عَقِبُه، وصار في قبره رهيناً بذنوبه ثم بكى». وكانت توليةُ يزيد من المطاعن التي طعنوا بها على أبيه معاوية، وحسبوها من الأعمال التي فسقَ بها ولا حاجة بنا إلى إعادة ذِكرها، فقد ذكرناها في حديثنا على معاوية.

ونحن لا نرى انفسنا انّنا بحاجة إلى سرد تلك الاخبار التي تَقُصُّ علينا أخذ البيعة ليزيد وانتقالَ ولاية الأمر من يد أبيه إلى يده، وكيف كانَتِ الاتّصالات تجري والمُشاورات تؤْخَذ وتُعطى والمُساومات تُعرض في سوق البيع والشراء. وربّما كانت هذه

النادرة الطريفة تمثّل لنا ما حدث خيرَ تمثيل . فقد حدّثوا أنّ الجُلّاس ، أتَوْا على ذكر بيعة يزيد في مجلسٍ من مجالس معاوية في الشام ، فكَثُرَ الأخذ والردّ بينهم ، وانقسمَ الناس بين مؤيّدٍ ومعارِض ، فقام واحد منهم وخطب قائلاً : أميرُ المؤمنين هذا ، واشار إلى معاوية ، فإنْ مات فهذا ، واشار إلى يزيد ، فمَنْ أبى فهذا ، واشار إلى السيف . فقال له معاوية : اِجْلِسْ فأنتَ سيِّد الخطباء .

وهل هنالك مَن يجهل أخبار يزيد وفسوقه وفجوره وخروجه عن كل لياقة ، وعن كلّ نوعٍ من انواع الأخلاق وفنٍّ من فنون الأدب . فهذه الكتب كلُّها والمصادرُ كلُّها امامَنا ، تَقُصُّ علينا كما يقصّ المسعودي في مروج الذهب ويقول : وكان يزيد صاحبَ طربٍ وجوارحَ وكلابٍ وقرودٍ وفهود ، ومنادمةٍ على الشراب .. وغلبَ على أصحابه وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق . وفي أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة ، واستُعْمِلَتِ الملاهي ، وأظهَرَ الناسُ شربَ الشراب . وكان له قِردٌ يُكنى بأبي قيس يُحضِره مجلسَ منادمته ويَطرحُ له متّكأ . وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله علىَ أتانٍ وحشيّة قد ريضت وذلّلتْ لذلك بسرجٍ ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء في بعض الأيّام سابقاً ، وتناولَ القصبة ودخلَ الحجرة قبل الخيل ، وعلى ابي قيس قِباءٌ من الحرير الأحمر والأصفر مشمّرٌ ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوانٍ بشقائق ، وعلى الأتان سَرْجٌ من الحرير الأحمر منقوشٌ ملمَّع بأنواعٍ من الألوان .

ومن افظع ما يحدِّث به التاريخ عن فظائع يزيد ، بعد مقاتل آل بيت الرسول الأعظم وملاحقتهم والتشهير بهم ، تلك الواقعةُ التي عُرفت بواقعة الحرّة ، والتي جَرَتْ في المدينة وقُتل فيها كثير من الصّحابة ومن بني هاشمٍ وأشرافِ قريش ، ومِن المسلمين ظُلماً وعدواناً بغير ذنب ، إرضاءً لخاطر يزيد وتسريةً عن همومه وأحزانه

التي لحقته من غضب أهل المدينة ونقمتهم عليه . ثم قَصْفُ الكعبة بالمجانيق وإحراقها وتهديمُها . وقِصَصُه في ذلك ترويها الكتب كلّها ، بين إيجازٍ عند بعضها وتفصيلٍ عند بعضها الآخر . ونُحِبّ أن نعتمد في ذكر مختصر يسير على ما رواه المسعودي في مروج الذهب ، مكتفين بأخذ موضع الحاجة دون اللجوء إلى سرد التفاصيل التي لا تُغنينا ولا يَعنينا شأنها .

ومن ذلك قوله عن وقعة الحرّة ، وعن هدم الكعبة ، ولمّا شَمِلَ الناسَ جَورُ يزيد وعمّالِه ، وعَمَّهُم ظلمُه وما ظهر من فسقه وسَيْرِه سيرةَ فرعون ، بل كان فرعونُ أعدلَ منه في رعيّته وأنصفَ منه لخاصّتِه وعامّتِه ، أخرج أهلُ المدينة عامِلَه عليهم ، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائرَ بني أميّة . فاغتنمها مروان منهم ، ونَمى فعل أهل المدينة ببني أميّة وعامِلِ يزيد إلى يزيد . فسَيَّرَ إليهم بالجيوش من أهل الشام مسلم بنَ عقبة المري الذي أخاف أهلَ المدينة ونهبَها ، وقتلَ أهلها ، وبايعَه أهلُها على أنّهم عبيدٌ ليزيد ، وسمّاها نَتِنَة ، وكان الرسول الأعظم سمّاها طيبة ، وقال : «من أخاف المدينة أخافه الله» .

ولمّا انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحرّة ، وعليه مسلمٌ الذي سمّوْه مُجرِماً ومُسرِفاً ، خرج إلى حربه أهلُها وعليهم عبد الله بن مطيع العدوي وعبد الله بن حنظلة الانصاري غسيل الملائكة . وكانت وقعةً عظيمة . قُتل فيها خَلقٌ كثير من الناس ، من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم . ونَقل ابن قتيبة في الإمامة والسياسة قال : قُتل بضعة وسبعون رجلاً من قريش ، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار . وقُتل من الناس نحوٌ من أربعة آلاف ، وقُتل ابنان لعبد الله بن جعفر ، وقُتل أربعة أو خمسة من وُلْدِ زيد بن ثابت لصُلبه . فقال مسلم بن عُقبة لأهل الشام :

كفّوا أيديكم . فخرج محمد بن سعد بن أبي وقاص ، يريد القتال ، فقاتلهم بعد الكفّ . فقال مسلم : انهبْها ثلاثاً . قال فقُتل الناسُ وفضحتِ النساء ، ونُهبتِ الأموال . فلما فرغ مسلم من القتال ، دعا أهل المدينة مَنْ بقي منهم للبيعة ، ومَن أبى منهم أن يبايع على أنّه عبدٌ ليزيد كما بايع الناس ، أمرَه مُسرف على السيف ، غيرَ عليّ بن الحسين المعروف بالسجّاد وعليّ بن عبد الله بن العبّاس . وكان مسرف مغتاظاً من الإمام السجّاد ، يتبرّأ منه ومن آبائه ، فلمّا رآه وقد أشرف عليه ، ارتعد وقام له واقعده إلى جانبه ، وقال له : سَلْني حوائجك ، فلم يسأله في أحد ممَّن قُدّم إلى السيف إلّا شفّعَه فيه . ثمّ انصرف عنه ، فقيل لعليّ بن الحسين ، رايناك تحرّك شفتيك ، فما الذي قلتَ ؟ فأجابَهم بأنّه قرأ دعاء ، ثم ذكرَه لهم . وقيل لمسلم رايناك تَسُبُّ هذا الغلام ، فلما أُتِيَ به إليك رَفعتَ منزلته ، فقال : ما كان ذلك لرايٍ مني ، لقد مُلِىء قلبي منه رعباً .

وبعد ما نزل بأهل المدينة ما نزل من القتل والنهب وغير ذلك ، خرج مسلم عنها يريد مكة في جيوشه من أهل الشام ليوقع بابن الزبير بأمر يزيد ، لكنّه لم يصل إليها ، ومات في الموضع المعروف بقديد ، واستخلف على الجيش الحصين بن نمير ، فسار هذا حتى اتى مكّة واحاط بها . ونَصب فيمن معه من اهل الشام المجانيق والعرّادات على مكة والمسجد من الجبال والفِجاج ، وابنُ الزبير في المسجد ، ومعه المختار بن أبي عبيد الثقفي ، داخلاً في جملته ، منضافاً إلى بيعته ، منقاداً إلى إمامته . فتواردَتْ احجار المجانيق والعرّادات على البيت ، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتّان ، وغيرِ ذلك من المحروقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية . ثم يقول المسعودي : وليزيدٍ وغيره اخبار عجيبة ومثالبُ كثيرة ، من شرب الخمر ، وقتلِ بنت الرسول ، ولعنِ الوصيّ ، وهدمِ

البيت وإحراقه، وسفكِ الدماء، والفِسقِ، والفجور، وغيرِ ذلك.

ويحدِّث البلاذري في انساب الأشراف، أنّه «دخل عبدالله بن عمرو بن العاص المسجدَ الحرام، بعد قصفِه بالمنجنيق في حصار ابن الزبير، وكانَتِ الكعبة قد احترقَتْ، فبكى ثمّ خاطب المسلمين: أيّها الناس! لو أن أبا هُريرة أخبركم انّكم قاتِلو ابن نبيّكم ومُحرِقو بيتِ ربِّكم، لقلتم ما مِن احد أكذبُ مِن أبي هريرة. أنحن نقتل ابنَ نبيّنا ونُحرق بيت ربّنا؟ فقد واللهِ فعلتم، لقد قتلتمْ ابن نبيّكم وحرقتم بيت الله، فانتظروا النقمة. فوالذي نفسُ عبد الله بن عمرو بيده، ليَلْبِسَنَّكُمُ الله شِيَعاً وليُذيقَنَّ بعضَكم بأسَ بعضٍ».

والأحاديث في هذه الابواب طويلة متشعبة، وكلّها مُشجِية مُخزِية. لم نأتِ على ذكر هذا النزر اليسير منها لنحرِّك الأشجان في النفوس وإنّما لنحرِّك العقول، فتلتفتَ وترى كيف كانت شخصية العرب المسلمين آخذةً بالتكوّن والبزوغ، والصحابةُ لا يزالون بين ظَهرانيهم، وأبناءُ النبي ونِساؤه وخاصّته المقرَّبون منه لم يبرحوا بعدُ ولم يترحّلوا عن هذه الدنيا. فكأنّما لم ينزِل بينهم وحيٌ يقرع أسماعهم ويتجاوزها إلى ضمائرهم، وكأنّما الإسلام الثورةَ والانبعاثُ والتجديدُ لم يأخذ في قلوبهم مكاناً ولا عندهم مكانةً. فلا عجب إذا جاءت هذه الشخصية وهي ضعيفةٌ مهزوزة ناقصة مملوءة بالأمراض. ولو أنّ الحظَّ حالفَها وَمْضَةً من الزمن وتذوّقتْ طعم التغيير الذي دعا إليه القرآن المجيد، وتلذّذتْ بمباهج رؤيته ونظراته، لَما عَرَف الضعف ولا النقص ولا المرض إليها سبيلاً، ولما اتّخذَتِ الأمم منها مركباً ذلولاً في كلّ وقت. ولولا هذه الومضاتُ التي قُدِحتْ من زِناد بني بويه وبني حمدان والفاطميين وما حفلت به عهودهم من التطوّر والترقّي، ومن الازدهار في شتّى العلوم والفنون، ومنها التجارب في الحكم والسياسة، لما عَرَف

وجه هذه الأمة إشراقاً آخرَ بعدَ الرسول الأعظم وعِترتِه وأهل بيته .

ولسنا نقول مع القائلين ، إنَّ الانحطاط الذي أخذ يُصيب الشخصية العربية الإسلامية ، وهي في طور التكوين والبزوغ بدأ مع بدء السلطة الأمويّة . بل نقول ونُصرّ على أنّه يرقى إلى ما قبلَ ذلك ويعود إلى عهد أبعد . ونكتفي أن نقول اليوم ، إنّه يعود إلى عهد الخليفة عثمان . ولا يُعجزنا أن نقدّم أمثلةً كثيرة لمن يريد منا ذلك . وفي قصّة الوليد بن عُقبة ، وهو أخ عثمان من الرضاعة وما أحدثه في عهده ، نقع على واحد من هذه الأمثلة الكثيرة . وقد آثرنا رواية أبي الفرج الاصفهاني لها في كتابه الأغاني على رواية الآخرين ، نقلاً عن أبي عبيدة وهشام بن الكلبي والأصمعي ، قال : كان الوليد بن عُقبة زانياً شرّيبَ خمر ، فشرب الخمر بالكوفة ، وقام ليصلّيَ بهم الصبحَ في المسجد الجامع ، فصلّى بهم أربعَ ركعات . ثمّ التفتَ إليهم ، وقال لهم : أزيدُكم ؟ وتقيّأ في المِحراب ، وقرأ بهم في الصلاة وهو رافع صوته :

عَلِقَ القلبُ الرَّبابا بعدما شابَتْ وشابا

فشَخَصَ أهلُ الكوفة إلى عثمان ، فأخبروه خبرَه ، وشهدوا عليه بشربه الخمر . فأُتِيَ به ، فأمر رجلاً بضربه الحدّ ، فلمّا دَنا منه ، قال له : نشدتك اللهَ وقرابتي من أمير المؤمنين ، فتركه ، فخاف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يُعَطل الحدّ ، فقام إليه فحدَّه . فقال له الوليد : نشدتك بالله وبالقرابة ! فقال له عليّ : أسكت أبا وهب ! فإنما هَلَكَت بنو إسرائيل بتعطيلهم الحدود . فضربه وقال : لِتدعوني قريش بعد هذا جَلّادَها . وله أخبارٌ أخرى أوقح وأقبح في الأغاني وفي غيره من المصادر الوثيقة المرغوبة .

ونحن إذا ذكرنا هذه القصة ، فلا يَهُمّنا منها أن نردّد ما فعله الوليد من فسق وفجور فحسب ، بل يَهمّنا أن نُشير إلى التراخي في

إقامة الحدود والتواني في شَجب القبائح وفي منع السقوط والتردّي ، وأن نُشير ايضاً إلى انّ الأعمال الوضيعة يأتي بها الوالي الوضيع وأنّ الأعمال الرفيعة يأتي بها الوالي الرفيع . ولو رحنا نذكر سيرة مروان بن الحكم ، كاتبِ الخليفة عثمان وامين سره ، وما أقدم عليه من اعمال وما اشار إليه من افعال ، لهان امر الوليد بن عُقبة عنده وقلَّ صنيعُه وعملُه بجنبه . فلولا مروان والوليدُ وكثيرٌ من أمثالهما ، ممَّن حفل بهم عهد الخليفة عثمان ، ما رحنا نرى معاوية وابنَه يزيد ومن جاء بعدهما من الأعقابِ والأمثال ، ولا بقيتْ هذه الأمثال تتوالى على السلطة وتتبارى على سوء الصنيع والانحراف إلى يومنا هذا .

ومن قال إنّ أمور السلطة عند العرب ستؤول يوماً إلى التحسّن والترقّي ، فهو واهمٌ في قوله . لأنّها لم تكن منذ ذلك الزمن في وضعٍ تُحسد عليه من التحسّن والترقّي ، ليحِقَّ لها ان تُطالبَ بالعودة إليه او ان تحلم بملاقاته والرتوع فيه . بل إنّ وضع المتسلّطين على رقاب العرب والمتحكّمين بأمورهم في الزمن الحاضر ، هم اكثرُ لباقة في إخفاء الأوزار والطفُ في مراودة الذنوب والآثام من أولئك المتحكّمين والمتسلّطين في ذلك الزمن . فلم يَطرق سمعَنا انّ قانصاً من قنّاص السلطة عند العرب اليوم وقف إماماً للمسلمين وردّد اشعاراً في الغزل بدلا من القرآن المجيد والدعاء ، ولا ملأ المحراب قيئاً بدلاً من الخشوع والخضوع كما صنع الوليد بن عقبة . ونحن لم نسمع بواحد من ولاة الأمر عند العرب يدعو إلى سبّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب جهرةً ، كما كان يدعو إليه معاوية ويأمر به . ولم نقع على واحدٍ منهم أدخلَ قردا إلى منزله وراح يؤثِره على اسرته وأولادِه ، ويعاشِره ويُسَرّ به اكثرَ ممّا يعاشرهم ويُسَرّ بهم ، كما كان يفعل يزيد بن معاوية .

ولا نعني بهذه المقارنة الخاطفة أن نقول، إنّ حكّام العرب وولاةَ السلطة فيهم اليوم، هم في سلوكهم أرقى وفي أعمالهم أنقى، مِنَ الحكّام وولاة السلطة في ذلك الزمن، ولا أنّهم تغيّروا إلى الأحسن وارتقَوْا إلى الأفضل. فهم وإنْ كان عندهم أسبابُ التطوّر والارتقاء، لكنْ ليس عندهُمُ القدرةُ على امتلاك هذه الاسباب والتصرف بعِنانها، ولا عندهم إرادة الارتقاء والتقدّم إلى الأمام، وإنْ هم أذاعوا ذلك في خطبهم وسارت به بياناتهم وأقوالهم في كلّ مكان. فالتغيّر أو التطوّر شأنُه شأنُ التراجع أو السقوط والانحدار، لا يأتي طفرةً ولا يقع فجأةً. فهو رهينٌ بأسبابٍ بعضها معلوم وبعضها مجهول، وبعضها مباشر وبعضها غيرُ مباشر. وليسَتِ السلطة هي وحدَها مسؤولةً عنه، ولا طبقةٌ من طبقات الشعب تنفرد بالمسؤولية دون الأخرى. فالسلطة من جهة، والشعب بطبقاته من جهة اخرى، كلٌّ يعمل ما عليه أن يعمله، ولكلٍّ دورُه في تكامل صاحبه وتطوّره وتقدّمه.

ونحن مهما قلنا وأذعنا وتلوّنا، فإنّنا لن نملك إرادة التغيّر، ولن نتغيّر إلّا إذا واجهْنا شخصيّتنا بحقيقتها التي صنعها لنا العهد الأموي، منذ مؤسّسه الأوّل، وصارحْنا تلك الشخصية بما فيها وما عليها، وما صنعتْه في التاريخ وما صنع التاريخ بها. ثم نغسلُها غسلاً ونُصفّيها تصفية من كلّ ما عَلِق بها من أدران ذلك العهد، ومن أوساخ العهود التي تتابعت بعده. إذا صنعنا ذلك فإنّنا نقوم بردم الهوّة بيننا وبين القرآن المجيد، وبيننا وبين رسالته التي هي الحرّيّة، والتقدّم، والتفتّح، والتطوّر، والانبعاث، والخلق، وكلّ ما يتناثر من هذه الكلمات من معنىً ومن مفاهيم. وإذا لم نصنع ذلك فلا أملَ هناك في أن نتغيّر إلى الأفضل أو نترقّى ونتطوّر، ولو أوفدْنا شعبَنا كلّه إلى الغرب، ولو وكّلنا بكل فرد منا مجموعةً من

أساتذة الغرب والشرق على السواء، فليس التغيّر يأتي بالتعلّم وحده، وإنما هو بالإرادة وعقدِ النيّة والعزم على تغيير الشخصيّة او تجديدها او استبدالها.

نقول ذلك ونحن لا ندري، انضع أيدينا على وجوهنا حياءً ممّا نقول أم ممّا نسمع من العجائب التي يحلف المرء أنّه لا يتوقّع في حياته أن يسمَع بها. فقد ذهبنا نتكلّم عن التطوّر والترقي والتغيير والتجديد، وذهِلْنا عن انّه بين أيدينا هذا الكتاب الذي اسمُه «حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية»، والذي أرفقتْ صورة غلافه في هذا المكان من الحديث. وليس هنالك ما يبعث على الذهول عندما يُعظّمون يزيدَ بنَ معاوية ويرفعون من شأنه، ولكنّ الذي يبعث على الذهول هو، أن ينحتوا لتعظيمه أسباباً من التاريخ ومن الفقه والأصول والتخريج، ولا اقول التهريج. وحين ينظر الناظر إليها، يراها أوهى من بيت العنكبوت، ما إنْ يمسّها شيء حتى تتجمّعَ خيوطها على بعضها، ثم تسقط دفعةً واحدة، ولا قيمةَ لها ولا أثَر.

ونحن لا نختلف معهم، انّ من التطوّر والتجديد، أن يرجعَ المرء إلى المفاهيم القديمة والمعاني التي كانت سائدة ويعالجَها بالبحث والدرس والتمحيص. ثم يُروّضَ نفسه ويقومَ بترويض الآخرين معه على أن يقتنع ويقتنعوا، بأنّه اكتشف في هذا المفهوم خطأ هو كذا وانّ صوابَه هو كذا وكذا. وانّ ذلك المعنى يحتاج إلى تعديل، وانّ هذه الفكرة ليست في مكانها الصحيح من التاريخ، وينبغي أن تتقدّم او تتأخّر قليلاً لكي تلاقيَ مكانها المُلائم لها، وأنّ تلك النظرة هي صائبةٌ تَصلح لكلّ زمان وتليق بكلّ مكان، إلى غير ذلك من الاستنتاجات الرفيعة النافعة. وقد يكتشف الباحث اثناءَ بحثه في الأفكار القديمة الموروثة عقيدةً مجهولة، او يعثرُ على

المملكة العربية السعودية

وزارة المعارف

المكتبات المدرسية

حقائق عن أمير المؤمنين

يزيد بن معاوية

فكرة ضائعة ، لها من القيمة والاعتبار ما يتغيّر معها سير التاريخ للشعب الذي يعنى بهذه العقيدة ، أو تَهُمُّه تلك الفكرة ، ويأتي اكتشافه اكثرَ اهميةً وتأثيراً مِن اكتشاف الآخرين في الطبّ أو في الرياضيّات او في الفيزياء .

ومن قال إنّنا نُنكر لهُمْ اكتشافهم عندما اكتشفوا أنّ يزيدَ هو أمير المؤمنين ؟ هذا النعت الذي لم ينعتْه به أحدٌ ممَّن عاصروه وعاشروه . حتى ولا نُدَماؤه ولا جُلَساؤه ، ولا خُلَصاؤه واقربُ المقرَّبين إليه ، لم يعترفوا له بهذا النعت ولم يَخلعوه عليه . وربّما بَقِيَ مجهولاً عنهم وعن التاريخ وعن هذا السيل المتلاحق من الأجيال التي عَبَرَت فيه حتى جاء هؤلاء الروّاد الأساطين ، فبحثوا ونقّبوا ، واستعملوا أحدث الاساليب والمختبرات وأكثرَ الوسائل تطوّراً وتجهيزاً وتأثيراً ثم صَبَروا وصَبَروا حتى عثروا على هذا النعت الذي كان ضائعاً في المجهول والذي يعادل اكتشافُه في أهميّته وقيمته اكتشافَ الأورانيوم عنصرِ الإشعاع الذرّي ، أو اكتشافَ التلقيحات التي تُنجّي من أخطر الأمراض وأشرسها . وهم لم يجعلوا كشفَهم هذا حُكراً عليهم كما يصنع المكتشفون الأغبياء في أوروبّا وامريكا ، بل أظهروه ونشروه ، ووضعوه في أيدي الناس جميعاً ، لكي لا يَحرموا أحداً من نفعه العميم ، ولكي يصلَ خيره إلى المُعدَمين الذين لا خير عندهم .

وقد ذهبوا إلى أبعدَ ممّا تذهب إليه الشعوب المتقدّمة والأمم الراقية ، فلجأوا إلى وضع محتويات هذا الكتاب وموادّه في أسهل الأساليب وإلى سبكه في الطف صياغة ، ليُصبح قريباً من عقول الناشئة سائغاً في حلوق افهامهم ، ثم اقترحوه عنصراً في عناصر التدريس في المناهج المقرّرة للتلاميذ في مدارسهم ومعاهدهم ، وفرضوه عليهم فرضا . وهم بصنيعهم هذا قاموا بوثبةٍ هائلة سبقوا

بها ارقى الدول المتحضّرة في الغرب والشرق. فليس في وسع واحدةٍ من هذه الدول أن تُمكّن العلماء والباحثين والدارسين والعاملين في المختبرات مِنَ الاطّلاع على مثل هذا الاكتشاف، وجعلِه في ايديهم وسيلةً من وسائل البحث ومادّةً من موادّ الخِبرة والاطّلاع، فضلاً عن المدارس والمعاهد. ولو انّ العرب والمسلمين معهم قرَعوا طبول الإعجاب والافتخار والاعتزاز مِنَ الآنَ وحتى قيام الصيحة، ما وفَوْا حقوق هذا البلد الذي ربّى مثلَ هؤلاء العباقرة ونشّأ مثل هؤلاء المكتشفين. ولكنّ العرب ما تعدَّوْا طبعهم الذي غُرِسَ بهم في أصل نشأتهم، فهم لا هَمَّ لهم إلّا أن يُبغضَ صغيرُهم كبيرَهم وان يَحسد جاهلُهم عالمَهم وأن يُنكر فقيرهم فضل النعمة والثروة عند غنيِّهم. لقد حان لطبعهم هذا أن ينتهيَ ويتلاشى أو أن يتغيّر إلى طبعٍ أكثرَ إشراقاً وأصفى جوهراً ومادّةً.

وأمّا اوصاف هذا الاكتشاف الجديد والحقائقِ التي راحوا يُسَلسلونها عنه، فهي تُقصِّر عنه تقصيراً بيّناً، ولا تكاد تقف إلى جنبه. فلَكَمْ كان من الخير والمعروف له ولهم، لو أنّهم تأنَّوْا طويلاً قبل الإقدام على نشرها وإذاعتها، أو أنّهم نشروها على دفعات متقطّعةٍ وليس دفعةً واحدة، حتّى لا يُصاب الناس بالذهول مِن الانحطاط في وصف هذا الاكتشاف وذكر نعوته، كما أصيبوا بالذهول من الوصول إليه والوقوف عليه. وربّما حسِبوا أنّهم سدّدوا رَمياتِهم وأنّهم أصابوا الأهداف كلّها ولم يُخطِئوا هدفاً واحداً منها. لكنّهم صَدَروا عن حماقةٍ ليس مثلَها حماقة، ودلّوا على أنّ ما وصلوا إليه وما قالوه هو مبلغُهم من العلم، وانّه هو الذي قذفه الناس من أدبارهم في عهد يزيد نفسه وما رَضُوا أن يأتوا عليه بالذِكر والبحث، وسَمَّوْه لَغواً من القول وباطلاً من الكلام.

فقد ذكروا انّ يزيداً كان اميراً للمؤمنين، وكان خليفةً على

امّة مسملة باجماع المسلمين، وهُمْ ارتَضوْه ونَصَبوه. وانه لَحَقٌ على كلّ مسلم وواجبٌ عليه أن يَرعى إجماعَ المسلمين وأن يُحافظ على وحدتهم، فلا يُعلنَ انشقاقه عنهم ولا يرضى بانشقاق يُعلَن عنهم مهما كان مصدره، ولا يساعده بوسيلة من وسائل اليد أو اللسان أو القلب. ومن يفعل ذلك منهم، فجزاؤه في حكم الشريعة ان يُزجَر أو يُؤنَّب أو يُقتَل. ولذلك لم يتأخّروا عن تصويب قتل الحسين بن عليّ، لأنّه أعلن العصيان على يزيد الخليفةِ الحقّ، وانشقَ عن المسلمين وتخلّفَ عن إجماعهم، ولأنّه كان سبباً لعصيان غيره وانشقاقهم وتخلفهم. فهو مُسبّبٌ لفتنةٍ كبيرة بين المسلمين احدثت أخطاراً كثيرةً عليهم، وهو سببٌ لما وقع بينهم فيما بعد من الفرقة والتصدّع والانشعاب.

لكنّ هذا القول ليس له وهجٌ من الجِدّة، وليس فيه ما يبعث على الإعجاب والدهشة. فهو منذ عهد يزيد، ذائعٌ معروف، شايعَه جماعةٌ من الصحابة الذين زَفّوا البَيْعة ليزيد ودَعَوا الناسَ إلى بيعته، وباركوا له مكانه. ومنهم من جاهر بتخطئة الإمام الحسين ووقفوا ضدّه والّبوا الناس عليه، وافتَوْا بقتله. ومنهم من قال: إنّه قُتل بسيف جَدّه. ومنهم من قال: عاقبتُه شريعةُ جَدّه. ومنهم من أفتى بقتله، وليس بخافٍ انّ شريح القاضي وهو تابعي، كان قد اعتمد هذه الفتوى وجاهر بها، وليس بخافٍ أيضاً، انّ هؤلاء لم يُعجِزهم ان يتّكئوا في اهوائهم واقوالهم على أحاديثَ نبويّة وعلى تفسيرات قرآنية. وكلّ ما أُثِر عنهم من مواقفَ وأقوالٍ هي مودَعةٌ محفوظةٌ عند القوم في كتب الفقه وكتب الحديث، لا يعسر على الباحث تناولُها والوصولُ إليها.

ونرى انّ في ذكر هذا المثال من الكتاب، ما يُغني عن ذكر الأقوال الأخرى التي صَدَرَ عنها العباقرة الأفذاذ وملأوا بها ما بقي

من صفحات الكتاب. ونحن قد رمَيْنا من وراء ذكرنا له، لِمَنْ يعجبون ويدهشون من قيام يزيد وأمثال يزيد على أمر هذه الأمّة وعلى تحكمه بمصيرها، أن لا يعجبوا لذلك، وأن لا يدهشوا. فلو لم تكن هذه الأمّة تستحقّ أن يقوم عليها يزيد ومن هم على شاكلته لَما قام، ولو لم تكن فيها أسبابٌ مهيِّئة لمجيئه لَما جاء. فالأمّة هي المَلومة إذا كان قائدها يزيد، والأمّة هي التي ينبغي أن تشاركه في حمل المآثم والأوزار. وليست أحوالها التي ضُربت بها منذ عهده المقصوف حتى أيّامنا هذه إلّا نوعاً من العقاب والابتلاء على قبولها الحاكمَ الغاشمَ والواليَ الظالم. وليتَها عملتْ ذلك واستبصرتْ إلى ما فيه صَلاحُها وخيرُها واستقامةُ أمورها. وإنّ أمّةً يؤمّر السَلَف فيها عليهم يزيدَ بنَ معاوية، ويُسمّيه الخلف فيها أميرَ المؤمنين، لا يَحِقّ لها أن تَندب حظّها وتبكيَ قسمتها، إذا هي رأتْ على رأسها مثل هذه السلطة في سورية، ورفعت الأسد خيرُ من كان فيها، ولا يحقّ لها أن تتأخّر عن تسمية كلّ فردٍ فيها أميراً للمؤمنين وخليفةً للمسلمين، وأن تُحِسَّ معه بالاعتزاز كلّ الاعتزاز وبالتعاظم كلّ التعاظم.

وهؤلاء القوم الذين سَوّلتْ لهم أنفسُهم أن يقولوا، إنّ يزيداً ظلمته الأحداث في أيّامه، وظلمتْه الأحكام بعدَ أيّامه، وظلمه التاريخ ونَقَلَة الأخبار والرُواة، فعادوا إلى حياته من جديد ونبشوا ما فيها من الحقائق المظلومة، ثمّ أنصفوها برفع الظلم عنها، وإعطائها نظرةً عميقةً واعتباراً كبيراً، وجعلوها بنتاً شرعيّة لرسالة الإسلام ومبادئه وقيمه. هؤلاء القوم لم يجهلوا أنّهم في صنيعهم هذا، أحيَوْا يزيداً مرّةً ثانية بأعماله وصفاته وطباعه وسجاياه ومواقفه من الرسول الأعظم ومن دينه الذي جاء به. وأنّهُمْ استطاعوا أن يجدوا الأسلوب الذي يُخرجون به ما يُضمِرون في قلوبهم للرسول

الأعظم ولأهل بيته ولرسالته الشاملة . وأن يعثروا على التَّعِلَّة التي يَجدون فيها ملجأ لضرباتهم الحاقدة القاسية ومخرجاً لأقوالهم المعصورة من قلوب الأفاعي في الرسول الأعظم وعِترته الصفوةِ المختارة . وسواءٌ عليهم أكذَّبوا هذا القول أم لم يكذِّبوه ، فإنّهم لا يقدرون أن يفُروا من الاعتراف بأنّ من يدافع عن يزيد وعن أعماله وسيرته ، فإنه يُعرِّض بالرسول الأعظم ويُشكِّك بأعماله وسيرته . ومَن يحاول رفع التهم عنه ودفعَ الطعون ، فإنّه ينقل هذه التهم والطعون إلى الرسول الأعظم وإلى أهل بيته وشريعته . وأنّ من يُثني على يزيد ، فإنه يَذمُّ الرسول الأعظم . ومن يُحيي يزيداً وعهده ، فإنّه يسعى إلى إبطال الرسول الأعظم من التاريخ وإلغائه من الوجود والحياة . ومَن يعظِّم يزيداً ويسمِّيه أميرَ المؤمنين ، فإنّه يُصغِّر شأن الرسول الأعظم ويستهين بالإسلام وقيمه وبالإنسان وبالخير والحقّ والجمال . ألم يَبْقَ في التاريخ من ظلمٍ ، إلّا وقد رُفع ما عدا الظلمَ الذي لحق يزيداً حتى عجّلوا هذا التعجيل وأسرعوا هذه السرعة إلى رفعه عنه ؟! ألم يكنْ هنالك من شخصيةٍ أخرى عند العرب تستحقّ هذا التقدير وهذا الثناء وهذا الإحياء إلّا شخصية يزيد ؟!

وإذا كانوا قد وصلوا بعد جهد وعناء إلى اكتشاف هذه الحقائق عن يزيد ، فماذا يلتمسون من حيلة لتكذيب هذه الأكداس من الكتب وهذه الأكوام من الصفحات التي كُتبتْ عن يزيد وأعماله وسيرته وعن عُمّاله وسِيَرهم ؟ إنّ الناس الذين يقرأون كلّ يوم هذا التاريخ الطويل العريض ، لا يستطيعون أن يقتنعوا بتكذيبه دفعة واحدة ، وتصديقِ ما كتبه هؤلاء وما قالوه دفعة واحدة أو بالتدريج . لقد جاء قبلهم في العهود السوالف مَنْ شَمَّرَ عن همّته وعَقَدَ العزم وهيّأ العزيمة ودافع واستمات في الدفاع عن يزيد ، وعمّا صنعه وأومأ إلى الناس بصنعه ، وسخّروا لذلك القرآن المجيد والسنّة النبويّة ،

فعاد ما أتوه وَبالاً عليهم، وصاروا مَضحكةً وسخرية، إذا هم ذكروا فإنّ الناس يَعبسون لذكرهم، أو يلهُوْن ويتندّرون بأحاديثهم، أو يجعلون منهم أمثلةً يضربونها على المرض في القول أو الشذوذ والانحراف في الاعتقاد. وما هي هذه الحقائق التي ظنّوا أنّها بقيَتْ مجهولةً حتى جاوْوا فكشفوا عنها؟ إنّ الدفاع لا يسمّى بوجه من الوجوه حقيقة، وإنّما هو أسلوبٌ لإثبات شيء بنفي شيء آخر، وقد يُثبت باطلاً ويَنفي حقًا، وقد يُثبت حقًا ويَنفي باطلاً. فليس هنالك من يستطيع أن يسمّيَ ما ذكروه في دفاعهم حقائق، وهو لم يتعدّ طور الدفاع إلى إثبات حادثةٍ تنفي حادثةً، وإيرادِ قصّةٍ تُكَذّب قصّةً، واستدعاء قولٍ يشهد على قولٍ بالزور والبطلان. وليتَ أنّ هؤلاء الذين هَبّوا لإحياء يزيد وسنّة يزيد بالدفاع عنه، قرأوا ما ذكرَتْه الكتب كلّها، مِن أنّ أباه معاوية كان كثيراً ما يخلو إليه ويَزجره ويؤنّبه، ويقول فيه ما لا يقال. فقد ذكر أبو القاسم الزجاجي في أماليه، أنّ معاويةَ طلب رؤيةَ ابنه يزيد عندما ثقُل عليه مرضه الذي مات فيه. وحين الخلوةِ قال له معاوية في جملة ما قال وهو بين الغضب والحزن والحسرة: «يا يزيد! انقطع الرجاء منك، إنّكَ ستقاتل هؤلاء كلَّهم فتَقتلُ خيار قومك، وتغزو حَرَمَ ربِّك بأوباش الناس، وتُطعمُهم يومهم ظلماً بغير حق، ثم تفجأك المنيّة، فلا دنيا أصبتَ ولا آخرةَ أدركتَ». إلى أن قال له: «قم عنّي»! وقد مات وهو غيرُ راضٍ عنه.

وليتهم تذكّروا ما قاله ابنُه معاوية فيه حين ولّي الأمرَ بعده، وقد ذكرناه من قبل، ولا حاجةَ بنا إلى إعادته مرّة ثانية. وليتّهم تذكّروا ما قاله فيه أحفادُه وأحفادُ أحفاده، وما قاله فيه الصحابة والتابعون، وكبارُ الرجالات، والفقهاءُ الذين شهدوا مقتل الإمام الحسين وعاينوا ما جرى للعِترة الطاهرة وبقيّة النبوّة، وما قاله

اولئك الذين شهدوا وقعة الحرّة ومن قُتل فيها ، ومَن سُبي وفُضِح مِنَ الاطفال والنساء . والذين حضروا وابصروا هدم الكعبة وإحراقها وتهديم المسجد الحرام وجعله مكاناً لروث خيول عسكر يزيد . فقد جاء في تاريخ الطبري وفي الكامل لابن الاثير وفي تاريخ ابن كثير وفي فتح الباري ، انّ وفدا «بعثه أهل المدينة إلى يزيد وفيهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وعبد الله بن ابي عمرو المخزومي والمنذر بن الزبير وآخرون كثيرون من اشراف أهل المدينة ، فقدِموا على يزيد ، فاكرمهم وأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، وشاهدوا افعاله . ثم انصرفوا من عنده ، وقدِموا المدينة كلُّهم إلّا المنذر . فلمّا قدِم الوفد المدينة ، قاموا فيهم ، فأظهروا شتم يزيد وعتبة وقالوا : إنّا قدِمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويَعزف بالطنابر ، ويَضرب عنده القيان ، ويَلعب بالكلاب ، ويُسامر الخُرّاب «وهم اللصوص والفتيان» ، وإنّا نُشهدُكم انّا قد خلعناه ، فتابَعَهم الناس» .

فماذا يريد هؤلاء أن يذكروا من حقائقَ أخرى غيرِ هذه الحقائق التي ، إنِ اتّفق المسلمون حول شيء ، فإنّهم يتّفقون جميعُهم على صحّتها وتصديقها ، وإنْ سلّموا إلى أمر لا يجادلون فيه ، فإنّهم يُسلّمون بوقوعها وحدوثها . لقد فات هؤلاء أن يذكروا من حقائق يزيد ما ذكره ابن عساكر في كتابه الكبير تاريخ دمشق ، فقد ذكر انّ عبد الله بن حنظلة قال ، بعد رجوعهِ من وفادته على يزيد : يا قومُ ! اتّقوا الله وحده لا شريك له ، فواللهِ ما خرجنا على يزيد حتى خِفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء . إنّ رجلاً ينكح الأمّهاتِ والبناتَ والأخواتِ ويشرب الخمر ويَدَعُ الصلاة ، واللهِ لو لم يكنْ معي أحد من الناس لأبلَيْتُ لله فيه بلاءً حسناً» . فإذا كان هؤلاء يَجرون وراء الحقائق ويسعَوْن إلى الكشف عنها ، فإنّا نسألهم أن يدرسوا تاريخ

الحيوانات كلّها، وأن يراقبوا أعمالها وسلوكها، ليَرَوْا بعد ذلك هل فيها إلّا من يأنف أن يعمل عمل يزيد ويسلكَ سلوك يزيد؟ إنّهم إنْ فعلوا ذلك، فهم ولا شكّ واقعون على حقائقَ ليس لها ضريبٌ ولا مثيل، تَرجف لها عظامهم، إن كان لهم عظام، كما ترجف شعورُهم على ابدانهم، إن بَقيَ لهم شعور.

ونحن لا نعجب إذا رأيناهم يُسارعون إلى فرض هذا الكتاب الذي دافعوا فيه عن يزيد وعظّموا أعماله ومجّدوا سيرته، على تلاميذ المدارس وطلّاب المعاهد، وعندما الزموهم بقراءته ودرسه إلزاماً، كما يتّضح لنا من صورة الغلاف. ولا نريد أن نسألهم عن سبب ذلك ولا عن سِرّه، فنحن نعلم السبب ونعلم السرّ أيضاً، ولن نُحاذرَ في أن نقوله ونذكره. فقد أرادوا أن يُغذّوا أجيال بلادهم في عهد التنشئة والطفولة بالأفكار التي لا تجلب لهم هموماً وأتعاباً بعد أن يكبروا، وارادوا أن يضعوا في أذهانهم الصور والنقوش التي لا تثير عندهم تطلّعاً وتوثّباً إلى آفاقٍ جديدة غيرِ ما أقرّتْه هذه الصور والنقوش عندهم من آفاق. وقد خشيتْ على نفسها العائلةُ السلطة، أن تنموَ الأجيالُ في شعبها وتكبر، وتمتدَّ الأعناق فيها إلى تاريخ العرب فتقرأه وتطّلِعَ على مخازي الملوك والأمراء وعلى مكايدهم وحِيَلهم في سياسة الرعية وفي الوصول إلى مآربهم واغراضهم. ثمّ تقرأ وترى كيف صنع الأمويّون لخَطف السلطة واستلابها من ائمّة الحقّ، وكيف تجاوزوا كلَّ الحدود وعَبَثوا بكلّ الحقوق حتى اسّسوا بنيانهم وثبّتوا اركانهم. وكيف خطا على نهجهم بنو العبّاس، ومَن جاء بعدَهم من ائمّة الجَور والمتحكّمين المستبدّين.

فإذا لم يكن هنالك من رقيبٍ يراقب وعي هذه الأجيال فيأخذ منها ويُعطيها، وإذا لم يكن هنالك من موجّهٍ يوجّه تفكيرهم

ويُخضعه لإرادة العائلة السلطة، فلن يأمَنوا على أنفسهم شرَّ هذه الأجيال، وما ستلقيه قراءتهم للتاريخ على وَعْيهم وإدراكهم من أثر وتوجيه. فقد تُلقي في رَوْعهم قراءتُهم لأخبار الثائرين في زمن سلاطين بني أميّة وسِيَر المتمرّدين في عهود سلاطين بني العبّاس وفي العهود التي جاءت بعدهم، أنَّ الثورة والتمرّد في وجه السلطات المتحكّمة هما عينُ الحقّ، وهما المنقذُ للشعب وحقوقه من قبضات الظلّام المتآمرين عليه، فتثورُ عندهم الثائرة ويتحرّكون، وقد يَنجحون في تحركّهم ويَغتصبون المقاليدَ من أيدي السلطة، وإنْ لم يَنجحوا فإنّهم يَنشرون الشغبَ والاضطراب والتهديد في أرجاء البلاد، ويفتحون أعين الشعب إلى ما يُقلق المتسلّطين ويُغضبهم ولا يُرضيهم. فعجلَتِ العائلة السلطة، وأذنَتْ لِمن في ديارها من الفقهاء ومن يسمّونهم العلماء أن يختاروا نماذجَ من أكثر المتحكّمين المستبدّين نجاسةً ودناءةً وأن يضطلعوا بالدفاع عنهم وإضفاء صفة الشرعيّة عليهم قبل فوَات الأوان وقبل أن تَشتعل النار في أرجاء الدار. فوقع اختيارهم، بعد التشاور بينهم وبين العائلة السلطة، على يزيدِ بنِ معاوية، وانْهالوا يكتبون عنه ويدافعون، حتى جعلوا باطلَه حقًّا. وفجورَه تقًى، وفسقَه طهارةً، وغيَّه رشداً، وحَرامَه حلالاً، وصار إسلامه هو إسلامُ الرسول الأعظم، وإيمانُه آياتٍ ملحقةً بالقرآن المجيد. وما على الذين لا يصدّقون ما أقول، إلّا أن يعودوا إلى هذا الكتاب ويقرأوا ما نثروا في صفحاته من المخرقات والزخارف التي دونها الغُثاءُ والرجيعُ، وما يعمله كلُّ إنسانٍ في خلوته ولكن يستحي أن يذكره.

وهؤلاء هم سادة الفريق الأكبر من الإخوان المسلمين وكُبَراؤهم وأئمّتهم، وهم الذين يَمدّونهم بالمال والبنينِ والعتاد، ويُلقون إليهم القول والعمل والتحريك والتسكين. لذلك ليس لنا إلّا

أن نقول للإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم ونواجههم بهذا السؤال : إذا كان هؤلاء قد تجرّأوا وسمّوا يزيدَ بنَ معاوية أميرَ المؤمنين ، فلماذا لا نطالب الشعب عندنا في سورية أن يُسمّي رفعت الأسد أميرَ المؤمنين ، وسيّدَ الملوك والسلاطين ، وإمامَ العرب ، وقائدَ الأمّة . وأنا لا اريد أن أهزأ بالرجل ، ولا أن أعرّضه لشيء من السخرية والغمز . فأنا أجِلّه وأكرمُه ، وأربأ به أن يُقرَنَ إلى سلاطين بني أميّة وملوكِهم بالذكر ، أو أن يوضع إلى جانبهم للموازنة والمقارنة . ولن أرضى له أن يُقارَن إلّا بمَن هم أكبر منهم عند القوم وأعظم . وسأكتفي هنا بمقارنته مع صلاحِ الدين الأيوبي الذي رأوْا فيه مثالاً للبطولة ، وهو مثالٌ للفسولة ، وجعلوه محرِّراً لبيت المقدس ، وهو لم يستطع أن يُحرِّر نفسَه من أسْر خدّامه ومن سلوك غلمانه ومستشاريه معه .

وسيوجد هناك أناسٌ كثيرون يَعجَبون لهذا الكلام ، لأنّهم لم يألفوا أن يقرأوا الحقيقة ويطّلعوا عليها ، بل لم يُسمحْ لهم أن يرَوْها لا من قريب ولا من بعيد . وهم معذورون إذا مَلأتْ صيحاتُهم الآفاق تَعجُباً واحتجاجاً ، وتنادَوْا إلى التحلُق حول هذا الوافدَ الجديد الذي يُحدّثهم عن صلاح الدين ما لم يكونوا على استعداد لسماعه وتقبُلِه ، ولكنْ ليس عليهم إلّا أن يسمعوا ، فإمّا أن تَبدأ الأسئلة والتطلُعات في نفوسهم بالاختلاج والتحرّك ، وإمّا أن يَهمُّوا به وبأقواله فيطرحوه أرضاً ويطرحوها معه . وكيف سيوجد من يتعجّبُ لحديثنا على صلاح الدين ، ولم يوجد حتى الآن مَن تعجَّب لحديث هؤلاء على يزيدِ بنِ معاوية ، واستِماتَتِهم في الدفاع عنه ، وتبديلِ سسيئاتِه حسناتٍ ، وتسميتِه أميرَ المؤمنين .

وفي البدء أقول ، إنّه لا ينبغي أن يفوتَهُمُ العلم ، بأنَّ هؤلاء الذين كتبوا تعظيماً وتمجيداً في يزيدِ بنِ معاوية لا يختلفون كثيراً

عن اولئك الذين كتبوا عن صلاح الدين وملأوا الخافقيْن تعظيماً وتمجيداً. فهم خَلَفٌ لذلك السَلَف في أسلوب التفكير الذي لا يحمل تنظيماً ولا إقناعاً بقدر ما يحمل تخبيطاً وتهييجاً وغوغاء، وفي طريقة التزلُف إلى السلطان والدفاع عنه في خطئه وصوابه، حتى لَيكادُ الأمر في كثير من الأحيان يختلط على المطالعين والباحثين، ويصيرُ من العسير عليهم أن يُفرِدوا هذا عن ذاك وأن يُميّزوا أحدهما عن الآخر.

ولم يبقَ مصدرٌ عُنِي بسيرة صلاح الدين وأتى على ذكره إلّا وقال، بأنَّ الفاطميّين استخدموه عندهم وقرّبوه وأعلَوْا شأنه ووزّروه، ولَمّا كانت أوضاع البيت الفاطميّ الحاكم سيّئة، تُعاني من الفوضى والفساد ومِن اختلال التصرُّف والتدبير، وكان في نفس صلاح الدين أملٌ ممزوجٌ بالضغينة وتَطلُّعٌ مشوبٌ بالحقد، فقد انعقد العزمُ عنده ليَحبك تآمرَه ويُوسّعَ تواطؤَه. وقد استطاع أن ينجح بتقويض الخلافة الفاطميّة والاستيلاء على منصّة القيادة وأزمّة الأمور، ليس لأنَّه كان على جانبٍ كبير من الذكاء والدهاء والشجاعة كما صوّروه وكتبوا عنه، ولكن لأنَّ سوء الأوضاع تجاوز الحدّ وتفاقم، ولأنَّ النقمةَ في الشعب أخذتْ تتمدّد. فكان الإقبال على التغيير أمراً لا بدَّ منه، وصار غروبُ شمس الفاطميّين واقعاً لا مفرّ من الإذعان له. ونحن لا نستطيع، ولا نُقدّرُ أنَّ الباحثين الآخرين يستطيعون أيضاً، أن يجعلوا من ذكاء صلاح الدين ومن دهائه وشجاعته السببَ الأوحد في إزاحة الفاطميّين والقضاءِ على خلافاتهم، وإنْ كنّا لا نُنكر، بأنّه يَملك شيئاً من الذكاء ومن الدهاء والشجاعة.

ولم يَفتْنا أن نذكر في بدء الكتاب طريقةَ صلاح الدين في القضاء على الفاطميّين، ومطاردتِه لِمَن هرب منهم واختفى،

وملاحقته اتباعهم واشياعهم بكلّ انواع الأذى، ورميهم بكلّ ألوان الحقد والبغضاء، من تعذيبٍ وتمثيلٍ وتشويه، ومصادرةٍ للأموال والأملاك، وترويع الأطفال والنساء، ممّا لم نسمع عن فتّاكٍ قبله صَنَعَ هذا الصنيع إلّا يزيد، ولا ندري إنْ كان الزمان سيأتي بفتّاكٍ مثله. وإذا نحن عاودنا الحديث على سيرته هنا، فليس لكي نذكرَ مآثمه وخياناته مع الفاطميّين ولا لنَرثيَ لهم وندافعَ عنهم، وإنْ كنّا نجاهر بحبّهم ومدحهم والثناء عليهم، ولكنْ لكي نَذكر طَرَفاً آخرَ من جرائمه التي ارتكبها في كلّ مكان، والتي يهون عند فعلةٍ منها ما نسبوه إلى رفعت الأسد كلُّه وما اتَّهموه به هو واصحابه وما علّقوه في أعناقهم.

فقد ذكر سبط ابن الجوزي في الجزء الثامن وهو الأخير الذي طبع في حيدر آباد الدكن من كتابه الشهير الذائع الصيت (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان)، وذكر مثلَه أبو شامة في كتابه (ذيل الروضتين)، أنّ المَلِك العادل، كان لا بدَّ له من مقابلة الفرنجة ومجابهتِهم بالسلاح، بعد انتهاء هدنةٍ معقودة بينهم وبين المسلمين. ولكنْ لَمّا كان لا طاقة له بجيوش الفرنجة الذين أخذوا يَظهرون عليهم ويدحرونهم من مدينةٍ إلى مدينة ورأى أنّهم كلّما وصلوا إلى مدينة نهبوا ما فيها من الأسواق والغلال والمواشي، فقد لجأ إلى ما كان صلاح الدين قد لجأ إليه حين خرّب عسقلان. فقام بتخريب تِبْنين وبانياس لئلّا يستوليَ الإفرنج عليهما. وأمرَ في عام ستّةَ عشَرَ وستّمائة بتخريب القدس. وحين شرعوا يخرّبون السورَ في أوّل يوم من المحرّم، خرج الناس رجالاً ونساءً من مختلف الأعمار إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزّقوا ثيابهم. واستولى عليهم الفرنج فتفرّقوا في كل وجهة، فمنهم مَن اتّجه إلى مصر، ومنهم إلى الكرك، ومنهم إلى دمشق، وقد قُتل منهم من قُتل،

ومات منهم خلقٌ كثير من الجوع والعطش .

ولا يؤذي النصَّ ، إنْ كنّا تصرّفنا بصياغته بعضَ التصرّف ، فقد ابقيْنا على روحه كما أراد لها المؤلّف أن تبقى . ومنها نفهم انَّ صلاح الدين كان قد عمد إلى سياسة تخريب المدن والقرى لئلا تقع هي وما فيها غنائمَ في يد الفرنجة ، وليس عسقلانَ وحدَها . فمن يستطيع أن يؤكّد لنا اليوم ، أنَّ صلاح الدين لم يكن في قلبه حقدٌ وحسيكة على تلك المدن والقرى التي يأمر بإحراقها وتشريد من فيها من الأهل والقطّان ؟ أمّا نحن فنؤكّد أنَّ هذه الخطّة ليس فيها شيء من الذكاء ، ولم يكن يؤذي الفرنجة اتّباعُها واللجوءُ إليها ، إلّا إذا كانت حيلةً توهم الأعداء بأنّ أهلها تركوها ويئسوا منها ، وليس لهم أملٌ في العودة إليها ، حتى إذا فاتت عليهم الحيلة ووقعوا في المصيدة ، هَجَمَ عليهم أهل القرية أو المدينة الذين أصبحوا آنذاك جنوداً مسلَّحين في جيش صلاح الدين ، ومزّقوهم شرَّ تمزّق ، والجأوا من بقي منهم إلى الهزيمة والفِرار . لكنَّ التاريخ لم يحدّثنا ، بأنّ صلاح الدين عَمدَ إلى هذه الخطّة وأمثالها في سياسته الحربية مع الفرنجة الغزاة ، وفي هذين الكتابين وفي غيرهما من الكتب ، من الأخبار والنصوص ما يُهين صلاح الدين ويشينه ، أو قلْ ما يُعيده إلى المكان الصحيح الذي ينبغي أن يكون فيه ، والذي ليس هو كما صوّروه لنا وكما وضعوه في أذهاننا .

ونحن وإنْ كنّا لا نُنكر لصلاح الدين عملَه في تخليص القدس إلى فترة وجيزة من أيدي الفرنجة ، لكنّنا نُنكر على المؤرّخين الذين انبرَوْا إلى تعظيم هذا العمل تعظيماً لا يستحقُّه ، وليس عندَه لياقةٌ ولا طاقةٌ لحمله . وهذا التاريخ أمامنا يقول لنا حين نستوضحه ، إنَّ الفرنجة أخلَوْا القدس ، ولكنّهم مكثوا بجوارها ولم يبتعدوا عنها ، وظلّوا على صِلاتٍ مع أهلها ، يروحون ويجيئون لأسباب مختلفة

وصِلاتٍ متنوّعة، تبيَّن للناس جميعِهم فيما بعد أنَّها ليست إلّا أن يجدوا خيطاً يعقدون عليه أملهم في العودة مرّةً ثانية. وقد وجدوا هذا الخيط، بل وجدوا البساطَ كلَّه مفروشاً أمامهم بعد نيِّف ربع قرنٍ من الزمن على تخليصها من أيديهم. والذي مدَّ لهم البساط وفرشه أمامهم ورحَّب بهم وانحنى في استقبالهم المَلِكُ الكاملُ ابنُ أخِ صلاح الدين. فعل ذلك ضدَّ أخيهُ الملك الناصر الذي كان على الشام، وقصد من ورائه أن يجلب له السوء وأن يرميَه بالأذى حسداً منه، أو ردًا على سوءٍ تلقّاه من أخيه. ومهما كان السبب في ذلك، فإنَّ هذا اللون الأسود القاتم من الصراع الذي دفع بأحد الأخوين لتسليم بيت المقدس أعزَّ مقدّسات العرب والمسلمين، كان معبِّراً عن رقّةِ دين هذه العائلة، وعن تدهور الأخلاق وانحطاط التربية فيها.

أقول ذلك وأنا لا أُحمِّل صلاح الدين وزرَ ابنِ أخيه، فلا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى، ولكنَّ الحادثة فيها إشارةٌ واضحةٌ إلى أنَّ الفرنجة، بقيتْ صِلاتهم قويّةً وعميقةً مع العائلة ومع مؤسّسها صلاح الدين، وأنَّ عمله في تخليصها كان هيّناً، لم يكن بهذا الحجم الذي وضعه فيه المؤرّخون، بل إنّه كان تخليصاً غيرَ خالص. ونرى أنّه لا بدّ من سرد الحادثة كما رواها سبط ابنُ الجوزي وابنُ شامة، وكما رواها ابنُ الأثير على اختلافٍ ليس مؤذياً ولا متميّزاً. فبعد عَشَرَةِ أعوامٍ من تخريب القدس، وكان قد خرّبها الملك المعظّم لخطّة حربيّة مرسومة كما ذكروا في تاريخه، اتّفق الملك الكامل مع الأمبراطور الجرماني فريدريك الثاني، وكانو يسمّونه آنذاك الأنبرور، سرّاً، وقد وفّى كلٌّ منهما لصاحبه بوعده، فخرج الأمبراطور حتى وصلَ إلى يافا، وخرج الكامل من مصر إلى تلّ العجول، والتقيا، وتمَّ تسليم الصفقة أمام الأعين وعلى مشهدٍ من الملأ عام ستٍّ وعشرين وستمائة. وذكروا أنّه فعلَ ذلك ليُغيظ أخاه

الملك الناصر الذي كان على الشام ، ولينَكّد عليه حياته ويُخرّب سيرة سلطته . ثم ذكروا أنَّ أخاه أظهر اغتمامه ومضايقته ، من غير أنْ يؤكّدوا أنّه كان على الحقيقة مغتمّا أو متضايقاً .

ولا يَهُمّنا أنْ نذكر أكثرَ من هذا المختصر الخاطف المعبِّر الذي فيه دلالة واضحة على تخريب القدس من ملكٍ معظّم ، ولا يعلم أحدٌ ماذا كان يدور في رأسه من أسرار العظمة عندما خرّبها . وفيه دلالةٌ أبلغُ وأوضح على بيع القدس من ملكٍ كاملٍ ، وربّما بلغ الكمالَ كلّه عندما أفلح بتنظيم أمرِ هذه السلعة وترويجها ، ثم لا يَهُمّنا أن نذهب إلى أبعدِ من ذلك في المناطق المجهولة من سيرة صلاح الدين وسِيَرِ أفراد عائلته الذين تتابعوا بعده على رأس السلطة . ففي هذه النماذج التي أدلَيْنا بها ما يُغني عن الحِجاج وما يَسوق إلى الإقناع ، إلى أنّ ما ذكروه عن رفعت الأسد وما اتّهموه به ورَمَوْه على كاهله وكاهل عسكره ، لا يساوي كلُّه في حجمه وبعده ، وفي ظلّه الذي سيرخيه على التاريخ ، وفي أثرَه الذي سيتركه على الأجيال ، إلّا جزءاً ضئيلاً من نموذج من هذه النماذج التي لا تزال جراحُها طريّةً ونزيفُها دافقاً ، والتي ستبقى في نفوسنا علّةً مستعصية ، ونحن نغُضُّ الأعين عنها ، ونُسدِل عليها ستاراً فوق ستار .

والأمسُ منّا ليس ببعيد ، وما أشبهَه بصلاح الدين هذا السفّاك الأفّاك الذي نحر بلاده وشعبَه ليقتل ذبابةً في الخليج! ولستُ أنا وحدي الذي اكتشفَ هذا الشَبَهَ بينهما ودلَّ عليه ، فقد أشار إليه كثيرٌ من العرب قُبَيْلَ حرب الخليج وفي أيّامها الأولى ، وبقي منهم مَن يشير إليه عُتُوّاً وإصراراً . وإنْ تراجع القسم الأكبر منهم ، بعدما هَتكَتْ لهم أسرارَه مرّةً أخرى . أمّا هؤلاء الذين بقُوا يشبّهونه بصلاح الدين على عُتُوٍّ وإصرار ، فلهم أسبابهم وأعذارهم التي يصيحون بها ولا يخشَوْن ، ويذيعونها وهم يعتزّون ويفتخرون .

ويعدّون منها حرب الأعوام الثمانية مع إيران ، أو كما يقولون هم بلغتهم مع الشيعة المجوس . ويُسمّونها نصراً ، ويجهلون أنّ بينها وبين النصرِ مسافةٌ هي المُحال . ثم يَعُدّون منها حربَ الخليج ، وفيها حاربَ دول الغرب كلّها ، بل العالمَ كلّه ، وكان النصرُ حليفَه في كلّ خطوةٍ خطاها ، وقضى على تمرّد الشيعة في الجنوب وعلى تمرّد الأكراد في الشمال ، ولا ينسَوْن أنْ يذكروا أنّ السفّاك الأفّاك ، وُلِدَ في المحلّة التي شهدتْ ولادة صلاح الدين وهي تكريت ، ويجعلون له ذلك واحدةً من الكرامات التي خُصّ بها من السماء .

أمّا انا فأقول بوجود الشبه بينهما كما يقولون ، وأعدُّ من الاسباب ما يَعُدّون ، لكنّنا نختلف بالمعنى والقصد . فقد قامَ على الثورة الإسلامية في إيران خوفاً على نفسه وهلعاً من المستقبل ، وكان بذلك مثلَ الثعالب التي تتّجه نحو الأسد خوفاً منه ، أو كما يقولون لأنّه سبَعَها والقى عليها رهبةً وهيبةً ، فأصبحتْ تتحرّك ولا تدري إلى اين . ولم يترك صنفاً من صنوفِ الجنايات والإجرام ، إلّا واتى عليه في هذه الحرب باقبح اسلوب واوحش اداة . ثمّ لم يكن نصيبُه منها بعد ان انتهتْ إلّا الخِزي والاندحار ، وإن أرجَفَ أتباعَهُ وكذبَ انصاره ، فإنّ للكذب جولةً واحدةً ثم ينتهي . وقامت أيضاً حربُ الخليج ، وكانت الموسمَ الأوّل الذي قطفَه من حرب الأعوام الثمانية مع إيران . فما ترك الغربُ ذلّةً إلّا وأذاقَه طعمَها في هذا الموسم ، ولا ترك إهانةً إلّا ووزّعَها في مسامّ جسده وخلايا روحه . ثم أقام عليه الدنيا في جنوب العراق واقام عليه الدنيا في شماله ، وأطلق له يديه للفتك والتخريب ، فما قصّر في فتكٍ ولا تهاون في تخريب . وتفنّنَ في ذلك واتى بالعجيب الذي لنْ يأتي بعده عجيب مثلُه ، ولن يلحق به عجيب آخر . والعالم كلّه يشهد ذلك ويسمعه ، ويحسبه على العرب والمسلمين ، ويجعله أمامَهم سدّاً حتى لا يقدروا

على الحركة والتقدّم إلى الأمام، ثمّ نسمعُ فجأةً أنّ العراق يحتفل بعيد ميلاد هذا السفّاك، ويظهر الخبر على أجهزة التلفاز في أوروبا كلّها بصورة تتناثر الوجوه منها حياءً، وهي من صنع أجهزة الخيانة والقمع في العراق. فقد أظهروا مجموعات من الشعب في بغداد، وقد ارتسم على وجوههم القهر والهرب والخوف، وهم يهتفون باسمه ويسمّونه بانيَ العراقِ الحديث، ويجعلون ذكرى ميلاده هذه المرّة ميلاداً لعراقٍ آخر، ليس له نظير في صموده وانتصاره على العدوّ وفي تقدّمه وازدهاره، ولم يفُتْ أجهزةَ التلفاز في أوروبا، أن تَعرض بعد هذه الصورة القبيحة الأليمة صوراً أشدَّ قبحاً وألماً، وهي صورُ الأكراد وما جرى لهم من الويلات والمهالك، وصور الدمار والخراب وهلعِ الناس وخوفهم وتفرّقِهم في الأنحاء كلّها، ثم تَترك لمن يرى ويشاهد، أن يقارن بين الواقعَيْن ويختار أصدق القولَيْن.

والآن، وبعد هذا السرد القصير لجنايات السفّاك الأفّاك وجرائمه في العراق ودويلات الخليج، ألم يعد الشَبَهُ بيّناً واضحاً بينه وبين صلاح الدين على الوجه الذي قصدتُه والمعنى الذي أردته؟ فصلاح الدين كما روى التاريخ عنه، كان يُحرق المدن والقرى في وجه تقدُّم الفرنجة حتى لا تقعَ في أيديهم ويُصيبوا ثرواتها وخيراتها، وهذا حَرَقَ الكويت فما أبقى على خيرٍ ولا شعب، وحرقَ مدنَ الجنوب ومدن الشمال في العراق، فما ترك حياةً للأحياء ولا موتاً للموتى. وصلاحُ الدين كادَ للشيعة وأوقع بهم وعذّبهم ولاحقهم، فاستحقَّ من عامّة المسلمين وجُهّالهم هذا الإجلال والتعظيم، وهذا الشكر والامتنان، وهذا الاعتراف بالجميل، وجاء سفّاك العراق وأفّاكه، فما قصَّرَ في صنيعه مع الشيعة عن صنيع صلاح الدين، إنْ كان في إيران أو في العراق أو في الكويت وسورية

او في لبنان، بل تجاوزه وتفوّق عليه. ولذلك لم يكن من العجيب أن يتنكر عامّةُ المسلمين وجُهّالُهم صلاح الدين من جديد وأن يَنبشوه من قبره ويَضعوه بجانب شبيهه وضريبه، أو أن يُنَادوا على وحشيّة ذاك من أعماق التاريخ ليضربوا لها موعداً مع وحشية هذا ويكون اللقاء بينهما على أجسادِ علماء الشيعة ومفكّريها وأطفالها وشبابها ونسائها. وصلاح الدين أخرج الفرنجةَ خارج القدس إلى فترة، ثم رجعوا إليها ولم يتركوها بعد ذلك، وهم باقون فيها وفي غيرها ممّن حولها إلى الأبد، ولن يبقى شيء للعرب، ورغم ذلك فقد صنع منه المؤرّخون بَطَلاً، ملأوا به أذهان الأجيال، ولم يتركوا فيها محلًا لشيءٍ آخرَ غيرِه، وهذا ألقى عدداً من القذائف الصاروخية على اسرائيل فقتل أناساً كثيرين، وهدم عدداً كبيراً من البيوت والمباني، فنال بذلك إعجاب العرب والمسلمين وكَسبَ مشاعرهم وعواطفهم إلى جانبه وجعلوه أوّلَ مَن ضَرَبَ إسرائيل من العرب، فملأ القلوبَ فيها هلعاً ورعباً، وسمَّوْه الضارب الأوّل والموتَ القادم، وهو ميّت لا حركة فيه، وسمَّوْه محرِّر القدس، وهو لم يحرّر إلّا غطاءَ الزجاجة عن زجاجتها ليشرب ويسكر، نعم سمّوه بذلك ونحن نرى ونقرأ التاريخ الماضي فيما نراه، وليس التاريخ الحاضر وحده. ونقف على الحقيقة التي أخفاها غُبارُ الأيّام المتراكمة البعيدة، ونسعى أنْ لا تخفى حقيقة ما يحدث في هذه الأيّام، لا في غبارٍ ولا في ضباب، ولا بين أقبية الأحقاد ولا تحت ركام الضغائن.

نعم! سمّوْه محرِّرَ القدس وبطلَ العروبة والإسلام، وقاهرَ الغرب وداحرَه، كما سمّى عامّةُ العرب والمسلمين وجهّالهم من قبلُ صلاح الدين بهذه الأسماء عينها. وهؤلاء نحن وهذه أعماله أمامنا، سواءٌ منها حربُ الأعوام الثمانية مع إيران أو حرقُ الكويت

وتدميرُها أرضاً وشعباً، أو تخريبُ المدن وتقتيلُ أهلها وقطّانها بأخطر الأسلحة وأقذرها، في جنوب العراق وشماله. وعَدِّ ما شئتَ من أعماله الأخرى، كلُّ هذا عند عامّة العرب وجهّالهم ليس له قيمةٌ ولا أثَرٌ من ذِكرٍ واعتبارٍ بجانبِ ما ألقاه من الصواريخ على اسرائيل، وإنْ كانت لم تصنع لهم نصراً ولم تُعجّلْ في إيجادِ حلٍّ للقضيّة. وهكذا كان حال صلاح الدين مع عامّة العرب والمسلمين وجهّالهم، فقد قضى على الفاطميّين بأقبح أسلوبٍ وأشرسه، ولاحقَ أتباعهم وأشياعَهم من الوجهاء والعلماء ورجالِ الفكر والقلم، ودمّرَ آثار العلم في عهدهم، وأصلى المكتبات التي أنشأوها والتي لم يسبق لها مثيلٌ نارَ عداوته وحقدِه، وأحرق عدداً كبيراً من المدن والقرى، وشرَّدَ من فيها من الأهل والقطّان، كلُّ ذلك كان قد فعله، ولم يكن له من يذكره ويحكم عليه من العرب والمسلمين إلّا ثُلّةٌ غامرتْ وقالت فيه كلمةَ الإنصاف من غير أن تسلبه التمجيد والتعظيم. ولم يكن فيهم من يرى في هذه الأعمال إجراماً أو إثماً أو جنايةً في جنب إخراجه الفرنجة من القدس إخراجاً لم يكن له هذا الأثر الكبير على إحياء الفكر والحياة عند العرب والمسلمين، بل إنّه لم يكن إلّا إخراجاً من المكان لفترةٍ وجيزة، وليس إخراجاً من النفوس والقلوب.

ونحن لا نرى حرجاً ولا ضيقاً، ولا نَهاب أحداً، إذا رحنا ندعو هؤلاء إلى مقارنة عَملين قبيحَيْن من أعمال صلاح الدين، من مثل إحراقه المكتبات في القاهرة وإحراقه مدينةَ عسقلان وما فيها، مع ما صنعه من قبح وسوء رجالُ السلطة والحكّام الذين توالَوْا على سورية منذ إجلاء الفرنسيين ونيلِ الاستقلال إلى آخر يوم، يبقى فيه رفعت الأسد في القيادة، وسنرى بعد هذه المقارنة، أيّ العملين أشدّ قبحاً في أسلوب تأديته، وأيّ الصنيعينِ أبعدُ أثراً في تعطيل دورة

الفكر ، وتخريب حركة الإحياء والبعث وتهديم الأمل والتطلّع في النفوس . ولسنا ندعو إلى مثل هذه المقارنة ، لو لم نكن على يقين من أنّ الحكم سيكون على صلاح الدين وأسلوبه وسيرته وليس له ، ومن أراد أن يكون مثلنا على يقين ، فليتقدّم وليقرإ التاريخ الذي قرأناه سواءً لهذا أو لهؤلاء .

وكنّا نَوَيْنا أن نأتيَ على ذكر أمثلةٍ أخرى من سلسلة الملوك والسلاطين بعد يزيدِ بنِ معاوية . لكنّنا أقلعنا عن هذه النيّة ورأينا أنَّ ما ذكرناه يقدّم لنا صورةً بيّنةً صحيحة عن امتطاء السلطة لصهوة نصوص الإسلام وظهر متونه الأولى ، وعن تفريغ باطنها من محتواه الرفيع البديع الذي لا يُقارَن به محتوى ، وحشوِه بمفاهيمها العِجافِ القاحلة ، ويمدّنا بفكرةٍ صادقةٍ ثابتة عن انحراف الحكّام الظلّام واستبدادهم بمقاليد الأعناق والأرزاق وتسخيرِها لنوازعهم وشهواتهم وتصريفِها على هواهم . ولا نقول ذلك عبثاً وتسليةً ، ولا نبالغ إذا رحنا نقول أيضاً ، إنّه من السهل اليسير علينا أن نَجمع عشرات الآلاف من الصفحات التي تُدين الحاكم عندنا ، منذ مؤسّس السلطة الأمويّة إلى هذا اليوم ، وتُثبِت أنّه حَرَّفَ رسالة الوحي ، وصَرَفَ الإسلام عن وجهه الصحيح ، وأنّه تحكّم بالعلم والعلماء واستعبد الفقه والفقهاء ، وقمع الفكر والمفكّرين ، إلّا في التماعاتٍ أشرنا إليها فيما سَبَقَ من القول والحديث . ولستُ أدري إذا كانتِ الأيّام تَهَبُني هذه الفرصة وتسمح لي ، فأقومُ بجمع هذه النصوص كلّها ، وأرتّبها ترتيباً دقيقاً ، لا يترك مفهوماً إلّا ويمنحه نصيباً من الذّكر ، ولا يدع فكرةً إلّا ويُعطيها حقّها من الإشارة . من مثل المسخ ، والتحريف ، والتشويه ، والتبديل ، والخنق ، والقمع ، وغير ذلك ، سواءً في سيرة الحاكم أو في قوله أو في عمله أو في إشاراته وإيماءاته . وإنْ لم آتِ على جَمعِ هذه النصوص كلّها ، فلا

أقلّ ان أجمع ما تيسَّر منها في الوقت الذي تيسَّر لي . وربّما صار من حقّ هذه الفكرة ، أن تُضرب عليها أمثلةٌ لتعودَ واضحةً في أذهان الآخرين كما هي واضحة في أذهاننا ، ثمّ لتَكشف عن نفسها ، فيَبين ما وراءها من جمالٍ وطرافةٍ وحداثة ومن فنٍّ وبلاغةٍ ومعانٍ سامية ، ومن نظراتٍ بعيدة ، فيها الخبث كلُّه والحكمة كلُّها ، ومن آدابٍ وتربيةٍ وأخلاق .

أوردَ المسعودي في مروج الذهب عن المنقري ، قال : سُئِلَ بعضُ شيوخ بني أميّةَ ومحصّليها عُقَيْبَ زوال المُلْك عنهم إلى بني العبّاس : ما كان سببُ زوال مُلككم ؟ قال : إنّا شُغلنا بلّذاتنا عن تفقّدِ ما كانَ تَفَقُّدُه يلزمُنا ، فظَلَمنا رعيّتَنا ، فيَئسوا من إنصافنا ، وتمنَّوا الراحةَ منّا ، وتُحومِلَ على أهل خَراجِنا فتخلَّوْا عنّا ، وضُربَتْ ضياعنا فخلتْ بيوتُ أموالنا ، ووثِقنا بوزرائنا فآثروا مَرافِقَهم على منافعنا ، وأمضَوْا أموراً دوننا أخفَوْا علمَها عنّا ، وتأخَّرَ عَطاء جندنا فزالتْ طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطَلَبَنا أعداؤنا فعَجِزنا عنهم لقلّة أنصارنا . وكان استِتارُ الأخبار عنّا من أوكدِ أسبابِ زوالِ ملكنا .

وحدَّث ابنُ الأثير في الكامل ، قال : استعرَضَ عُمَر بنُ عبد العزيز الوضعَ في أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال : الحَجّاج في العراق ، والوليد في الشام ، وقُرَّةُ بمصر ، وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ، اللهمَّ قد امتلأتِ الدنيا جَوراً وظلماً .

وحدَّث فيه أيضاً : قال عبد الملك بن مروان لسعيد بن المسيّب : يا أبا محمّد ، صِرتُ أعمل الخيرَ فلا أُسَرُّ به ، وأَعملُ الشرَّ فلا أُساءُ به ! فقال له سعيد : الآن تكامل فيك موت القلب .

وحدَّث فيه أيضاً : خطب عبد الملك بن مروان في المدينة : ألاَ وإنّي لا أداوي هذه الأمّة إلّا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم ، والله

لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله إلّا ضربت عُنقه.

وحدث فيه ايضاً، عن عمّار بن ياسر في كلامٍ له عن الأمويّين: ذاقوا حلاوة الدنيا فاستحبّوها واستمرأوها، وعلموا أنَّ الحقَّ إذا لزمهم، حال بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من دنياهم، فخدعوا اتباعهم أنْ قالوا، إمامُنا قُتِلَ مظلوماً، ليكونو بذلك جبابرةً ملوكاً.

واورد التوحيدي في البصائر والذخائر، واوردَ مثلَه الراغبُ الأصفهاني في المحاضرات: أشرف عبد الملك بن مروان على اصحابه، وهم ينكرون سيرة عُمَرِ بنِ الخطاب فقال: حَسْبُكم من ذِكر عمر، فإنّه إزراءٌ بالولاة ومَفسَدة للرعيّة.

واوردَ ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، واوردَ مثلَه ابنُ عبد البرّ في الاستيعاب، واوردَ ايضاً الاصفهاني، تعليقاً لعبد الرحمن بن ابي بكر على بيعة يزيد، إنّما تريدون ان تجعلوها كِسرويّةً أو هِرَقليّةً، كلّما هَلَكَ كسرى أو هرقل مَلَكَ كسرى أو هرقل.

ولا تخلو الحادثة التي يَرويها المؤرّخون والأدباء عن موت مروانِ بنِ الحكم من طرافةٍ وافتضاحٍ في آنٍ واحد. وقد آثرْنا رواية ابن ابي الطاهر لها في كتابه، بلاغات النساء، على غيرها. قال المدائني: تزوَّج مروان بن الحكم أمَّ خالدِ بنِ يزيدِ بن معاوية، فقال مروان ذات يوم، وأراد أن يُقصِّرَ في شيء جرى بينهما: يا ابنَ الرطبة، وفي رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة، يا ابن الربوخ (وهي المرأة يُغشى عليها عند الجماع). فقال خالد: أَمِيْنٌ مُخْتَبِرِ (اي اكذبُ مُختَبِر). واتى خالدٌ أمّه فأخبرها الخبَر، وقال أنتِ صنعتِ بي هذا... فقالت له: دعه، فإنّه لا يقولها بعد اليوم، فَدَخَل عليها مروان، فقال: اخبركِ خالدٌ بشيء؟ قالت: يا أمير المؤمنين، هو اشدُّ لك تعظيماً من ان ينكر شيئاً جرى بينك وبينه. فلما أمسى،

وضعَتْ على وجهه مِرْفَقَةُ (مخدّة)، وقعدتْ عليه هي وجواريها حتى مات.

وأمّا إذا صِرنا إلى الحديث عن الحَجّاج وسيرته، فهنالك نقرأ ما لا يُصَدَّق من الوان الظلم والفتك والفجور، حتى لو أنّه كان ذئباً على غنمٍ لكان أرحم منه والياً على الناس، وحتى كأنّه لم يكن هنالك عَرَبٌ من البشر، ولم يكن لهم دين اسمُه الإسلام. وقد عملَ والياً لأربعةٍ من ملوكِ بني أميّة، وهم عبد الملك بن مروان وأولاده، الوليد، وسليمان، وهشام. وكان أدنى ما وصفه به المؤرّخون كلُّهم، أنّه بلغَ في عنفِ سياسته وظلمه وإسرافه في قتل الناس حدّاً لا يبلغه وصفٌ. وقد أُحصيَ المقتولون بأمره، فبلغوا مائةُ وعشرين الفاً، وهم غير الذين قُتلوا في حروبه. ووَجَدوا في سجونه خمسين الف رجلٍ وثلاثين الف امرأة، لم يَجِبْ على أحدٍ منهم سجن ولا قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجالَ والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحرّ والبرد.

ومن أبلغ ما حدّثوا به عنه، هو تعريفه نفسَه، فأجادَ وسبَقَ كلَّ من تحدّث عنه بعده، فقد نقلوا أنّ عبد الملك بن مروان قال للحجّاج: ليس من أحدٍ إلّا وهو يعرفُ عيبَ نفسه، فصف لي عيوبك! فقال الحجّاج: اعفِني يا أمير المؤمنين من هذه المسألة. لكنّ عبد الملك ألحّ عليه إلحاحاً شديداً، فقال الحجّاج: إعلم يا أمير المؤمنين، إنّي لجوجٌ لدودٌ حقودٌ حسودٌ. فقال عبد الملك: لقد انتحلْتَ الشرَّ من حذافيره، وما في إبليس شرٌّ من هذا.

وقد ذَكر الطبري في تاريخه، وذكر مثلَه ابنُ الأثير في الكامل، أن الشعبي كان يحرّض على قتالِ الحَجاج بن يوسفَ الثقفي في حركة ابن الأشعث ويقول: يا أهل الإسلام! قاتلوهم، ولا يأخذْكم حَرَجٌ في قتالهم، فواللهِ ما أعلمُ على بسيط الأرض أعملَ

بظالم ولا أجْوَرَ منهم في الحُكم، فليكن بهم البِدَار.

وفي الكامل للمبرّد، عن عبد الملك بنِ مروان أنّه قال: كنتُ أتحرَّج ان أطأَ نملةً، وانّ الحجّاج يكتب اليوم إليّ في قتل فِئام (أي الجماعة الكثيرة) من الناس، فما أحفلُ بذلك. وقال له الزهري يوماً: بلغني أنّك شربتَ الطلاء، فقال: إي والله! والدماء.

وإذا كان فيما ذكره المؤرّخون ونَقَلة الأخبارِ عن مقتل عبد الله بن الزبير على يد الحجّاج، ما يحزُّ في النفس ويقطع القلب وما يُهيّج الشجون والحديث على الثورة والثوّار والظلم والظلّام في تاريخ هذه الأمّة، فإنّ ما ذكروه عن سعيد بن جبير، وما لقيَه من أسلوب الحجّاج في الحديث والمعاملة، وما انتهى إليه من فاجعةٍ في المصير على يديه، لهو أفظع وأرهب وأعنف من مصير الزبير وما لاقاه منه، وقد رغبنا في أنْ لا نُفوِّت فرصةَ الاستماع إلى رواية هذه الفاجعة، كما سردها الرواة في كتب التاريخ والأدب، وهي وإن بَدَتْ طويلة، فلا يُحِسّ المرءُ وهو يقرؤها إلّا أنّها قصيرة، لِما تنضمُّ عليه من أعنف ألوان المحاورة وأضعفها من جانب الحجّاج، ومن الينِها وأقواها وأنكاها وأدهاها من جانب سعيد بن جبير، وهي تنطوي على علومٍ شتّى من مثل: القضاء والقدَر، والحبّ والبغض، والحقّ والباطل، والكفر والإيمان. وهي مثالٌ للجرأة والشجاعة والبطولة النادرة والوفاء والتضحية، وليست بليَّتُنا إلّا أنّه كلّما مات بيننا حجّاجٌ قام حجّاجٌ آخرُ مكانَه، ولكنّ سعيدَ بنَ جُبَير قُتِلَ مرَّةً واحدة، ولم نَرَ بعده سعيداً آخر، لكأنَّ هذه الأمّة موكَّلةٌ بولادة الأشقياء فقط.

وليس أعجبَ من الشجاعة والصبر والتسليم لله في آخر هذه الفاجعة إلّا الوفاءُ والشجاعة والتسليم لله في أوّلها. وها نحن نَرويها كما رواها بنُ قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة. ونبدأ بها

منذ أن قدِم رسول خالد بن عبد الله القسري على سعيد بن جبير ليبلغه الخبر « ... فلمّا نظرَ إليه الرسول ، قال : إنّما أُمِرْتُ بأخذك ، واتيتُ لأذهبَ بك إليه ، واعوذ بالله من ذلك . فالحَقْ بأيّ بلدٍ شئتَ وأنا معك ! قال له سعيد بن جبير : ألك هاهُنا أهلٌ وولد ؟ قال نعم ! قال إنَّهم يؤخذون وينالُهم من المكروه مثلُ الذي كان ينالُني . قال الرسول : فإنّي أكِلُهم إلى الله . فقال سعيد : لا يكون هذا . فأتى به إلى خالد ، فشدَّه وثاقاً وبَعَثَ به إلى الحجّاج ، فقال له رجلٌ من أهل الشام : إنَّ الحجّاج قد أنذر بك وأشعر قبلك ، فما عَرَضَ له ، فلو جعلتَه فيما بينك وبين الله لكان أزكى من كل عَمَلٍ يُتَقرَّب به إلى الله . فقال خالد ، وقد كان ظهرُه إلى الكعبة قد استندَ إليها : والله لو علمتُ أنَّ عبد الملك لا يرضى عني إلّا بنقض هذا البيت حَجَراً حجراً لَنقضتُه في مَرضاته . فلمّا قدِمَ سعيد على الحجّاج ، قال ما اسمُك ؟ قال : سعيد . قال : ابنُ مَنْ ؟ قال : ابن جُبَيْر . قال : بل أنتَ شقيُّ بنُ كسير . قال سعيد أمّي أعلمُ باسمي واسم أبي ، قال الحجّاج : شقيتَ وشقيَتْ أُمك . قال سعيد : الغيبُ يعلمه غيرُك . قال الحجّاج : لأورِدَنَّك حياضَ الموت . قال سعيد : أصابَتْ أُمّي إذاً اسمي . قال الحجّاج : لأُبدِلَنَّكَ بالدنيا ناراً تَلَظّى . قال سعيد : لو أنّي أعلم أنّ ذلك بيدك لاتّخذتُكَ إلهاً . قال الحجّاج : فما قولُك في محمّد ؟ قال سعيد : نبيُّ الرحمة ورسولُ ربّ العالمين إلى الناس كافةً بالموعظة الحسنة . قال الحجّاج : فما قولُك في الخلفاء ؟ قال سعيد : لستُ عليهم بوكيل ، كلُّ امرىءٍ بما كسب رَهين . قال الحجّاج : أشتمُهم أم أمدحُهم ؟ قال سعيد : حالاتُهم يَفضلُ بعضُها على بعض . قال الحجّاج : صِفْ لي قولَك في عليّ ، أفي الجنّة هو أم في النار ؟ قال سعيد : لو دخلتُ الجنّة فرأيتُ أهلَها علِمتُ ، ولو رأيتُ مَنْ في النار علِمتُ . فما سؤالُك عن غيبٍ قد حُفِظ في الحِجاب ؟ قال

الحجّاج : فأيُّ رجلٍ أنا يوم القيامة ؟ قال سعيد : أنا أهون على الله أن يُطلعني على الغيب . قال الحجّاج : أبيْتَ أن تصدقني ؟ قال سعيد : بل لم أُرِدْ أن أكذبك . فقال الحجّاج : فدَعْ عنك هذا كلّه . أخبرْني ما لك لم تضحك قطّ ؟ قال : لم أرَ شيئاً يُضحكني ، وكيف يضحك مخلوقٌ من طين ! والطين تأكله النار ، ومنقلَبه إلى الجزاء ، واليومَ يُصبح ويُمسي في الابتلاء . قال الحجّاج : فأنا أضحك . فقال سعيد : كذلك خَلَقنا اللهُ أطواراً . قال الحجّاج : هل رأيتَ شيئاً من اللهو ؟ قال لا أعلمه ، فدعا الحجّاج بالعود ، قال ، فلمّا ضُرِب بالعود ونُفِخَ في الناي ، بَكى سعيد ، قال الحجّاج : ما يُبكيك ؟ قال يا حجّاج ذكّرتَني أمراً عظيماً ، واللهِ لا شَبِعتُ ولا رُويتُ ولا اكتسَيتُ ، ولا زلتُ حزيناً لِما رأيتُ ، قال الحجّاج : وما كنتَ رأيتَ هذا اللهو ؟ فقال سعيد : بل هذا واللهِ الحزنُ يا حجّاج . أمّا هذه النفخة فذكّرتْني يومَ النفخ في الصُور . وأمّا هذا المصران ، من نفسٍ ستُحشَرُ معك إلى الحساب . وأمّا هذا العود ، فَنَبَتَ بحقّ وقُطِعَ لغير حقّ . فقال الحجّاج : أنا قاتِلُك . قال سعيد : قد فرغَ من تسبَّبَ في موتي . قال الحجّاج : أنا أحبُّ إلى الله منك . قال سعيد : لا يَقدم أحَدٌ على ربِّه حتى يعرفَ منزلته منه ، واللهُ بالغيب أعلَمُ ، قال الحجّاج : كيف لا أُقدم على ربّي في مقامي هذا ، وأنا مع إمام الجماعة ، وأنتَ مع إمام الفرقة والفتنة ؟ قال سعيد : ما أنا بخارجٍ عن الجماعة ، ولا أنا براضٍ عن الفتنة ، ولكنَّ قضاء الربّ نافذٌ لا مردَّ له . قال الحجّاج : كيف ترى ما تجمَّع لأمير المؤمنين ؟ قال سعيد : لم أرَ . فدعا الحجّاج بالذهب والفضّة والكسوة والجوهر ، فوضع بين يديه . قال سعيد : هذا حَسَنٌ إنْ قُمتَ بشرطه . قال الحجّاج : وما شرطُه ؟ قال سعيد : أن تشتريَ له بما تجمع الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة ، وإلّا فإنَّ كلَّ مُرضِعةٍ تَذهل عمّا أرضعَتْ ، ويضع كلُّ ذي حِملٍ حِمله

ولا ينفعه إلّا ما طاب منه . قال الحجّاج : فترى طيّباً ؟ قال سعيد : برايك جمعتَه ، وانت أعلم بطيّبه . قال الحجاج : أتحبُ أنّ لك شيئاً منه ؟ قال : لا أحبّ ما لا يُحبُّ الله . قال الحجّاج : ويلَك ! قال سعيد : الويل لمن زُحزِح عن الجنّة فأُدخلَ النار . قال الحجّاج : اذهبوا به فاقتلوه . قال سعيد : إنّي أُشهدك يا حجّاج ، انّ لا اله إلّا اللهُ وحده لا شريكَ له وانّ محمّداً عبدُه ورسولُه ، استحفظُكهُنّ يا حجّاج حتى القاك . فلمّا أدبَر ضَحِكَ ، قال الحجّاج : ما يُضحكك يا سعيد ؟ قال : عجبتُ من جرائك على الله وحكم الله عليك ، قال الحجّاج : إنَّما أقتلُ من شقَّ عصا الجماعة ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها ، أضربوا عنقه . قال سعيد : حتى أصلّي ركعتين . فاستقبل القبلة وهو يقول : وجّهتُ وجهيَ للذي فَطَرَ السمٰوات والأرضَ حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين . قال الحجّاج : اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى الذين تفرّقوا واختلفوا بغياً بينهم ، فإنّه من حزبهم ، فصُرف عن القبلة . قال سعيد : فأينما تُوَلّوا فثَمَّ وجهُ الله الكافي بالسرائر . قال الحجّاج : لم نوكّل بالسرائر ، وإنَّما وُكّلنا بالظواهر . قال سعيد : اللهم لا تترك له ظُلمي ، واطلبْه بدمي ، واجعلْني آخِرَ قتيلٍ يقتُلُه من أمّة محمّد . وفي رواية أخرى ، في تهذيب التهذيب ، وسفينة البحار ، ولم يبقَ بعدَه الحجّاج إلّا خمسةَ عَشَرَ يوماً ، ولم يقتل أحداً بعده لِدُعائِه عليه حينَ قتلِه «اللهمَّ لا تسلّطه على احدٍ يقتلُه بعدي» .

وحدَّث الطبري في تاريخه قال : خَطَبَ الوليدُ بنُ عبد الملك يومَ استخلافه ، فقال : أيُّها الناس : مَنْ أبدى لنا ذاتَ نفسه ضربْنا الذي فيه عيناه ، ومَنْ سكت مات بدائه .

وفي حياة الحيوان للدميري ، يروي عندما يأتي على ذكر الوليدِ بن يزيد بنِ عبد الملك ، نقلاً عن الحافظ بن عساكر وغيرِه ، قال : انهمك الوليد في شربه الخمرَ ولذّاته ، ورفض الآخرة وراءَ

ظهره، واقبلَ على القصف واللهو والتلذّذ مع الندماء والمغنّين. وكان قد انتهك محارمَ الله تعالى حتى قيل له الفاسق، وكان أكمَلَ بني اميّةَ ادباً وفصاحةً وظرفاً واعرفَهم باللغة والنحو والحديث. وكان جواداً مفضالاً، ومع ذلك لم يكن في بني أميّة أكثرُ إدماناً للشرابِ والسماع ولا أشدَّ مجوناً وتهتُكاً واستخفافاً بأمر الأمّة من الوليد بن يزيد. يُقال إنَّه واقع جاريةً له وهو سكران، وجاء المؤذّنون يؤذّنونه بالصلاة، فحَلَفَ أن لا يُصلي بالناس إلّا هي. فلبسَتْ ثيابَه وتنكّرَتْ وصلّتْ بالمسلمين وهي جُنُبٌ سَكرى. ويقال، إنَّه اصطنع بركةً من خمر، وكان إذا طربَ ألقى نفسَه فيها وشرب منها حتى يَبينَ النقصُ في أطرافها. وحكى الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين عنه، أنَّه تفاءل يوماً في المصحف، فخرج له قولُه تعالى «واستفتحوا وخاب كلُّ جبّارٍ عنيد»، فمزَّق المصحف وأنشأ يقول:

أتُوعِدُ كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ ... فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنيدُ
إذا ما جِئْتَ ربَّكَ يومَ حَشرٍ ... فقل يا رَبِّ مزَّقني الوليد

وحدَّث التنوخي في نشوار المحاضرة، عن أبي القاسم الجهني، قال: حدَّثني محمّدُ بنْ حمدون، عن أبيه، أنَّ المتوكِّل اشتهى أن يجعل كلَّ ما تقع عليه عيناه في يومٍ من أيّام شربه أصفر، فنُصِبَتْ له قُبّة صندل مذهّبة مجلّلة بديباج أصفر مفروشة بديباج أصفر، وجُعِلَ بين يديه الدستبند والأترج الأصفر في صواني ذهب. ولم يحضر من جواريه إلّا الصُفر، عليهنّ ثيابُ قصبٍ صُفرٍ. وكانت القبّةُ منصوبةً على بركةٍ مرصَّعةٍ، يجري فيها الماء، فأمر أن يُجعل في مجاري الماء إليها الزعفران على قَدْرٍ ليُصَفِّرَ الماء ويجري من البركة.

وطال جلوسُه وشربه، فنفدَ ما كان عندهم من الزعفران،

فاستعملوا العصفر ولم يُقدّروا أنه ينفدُ قبل سكره ، فيشترون منه ، فنفد ، فلمّا لم يبقَ إلّا القليل ، عرَّ فوه وخافوا أن يغضبَ إنِ انقطع ، ولا يُمَكِّنهم قِصَر الوقت من شري ذلك من السوق . فلمّا أخبروه ، انكر : لِمَ لَمْ يَشروا امراً عظيماً ؟ وقال : الآن إنِ انقطع هذا تنغَّصَ يومي ، فخذوا الثياب المعصفرة القصب ، فانقعوها في مجرى الماء ، ووافق سكره مع نفادِ كلّ ما كان في الخزائن من هذه الثياب .

وفي مروجِ الذهب للمسعودي أنَّه كان للمتوكّل أربعةُ الآف سريّة وطِأهنَّ كلّهن .

ويروي فيه أيضاً حديثَ البحتري الشاعر ، عن الليلة التي قُتِلَ فيها المتوكّل ، ومن ذلك قولُه : ... وسكر المتوكُل سُكراً شديداً ، وكان من عادته أنَّه إذا تمايل عند سكره أن يُقيمه الخدم الذي عند رأسه .

وفيه أيضاً عن قسوة المعتضِد ، فقال : وكان مع ذلك قليلَ الرحمة كثيرَ الإقدام ، سفّاكاً للدماء ، شديدَ الرغبة في أن يمثِّل بمن يقتله . وكان إذا غضبَ على القائد النبيل ، والذي يختصّه من غلمانه ، أمَرَ أن تُحفرَ له حفيرةٌ بحضرته ثم يُدلَّى على راسه فيها ، ويُطرحَ التراب عليه ، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ، ويُداس التراب ، فلا يزال كذلك حتى تخرج روحُه من دبره .

وذُكر من عذابه ، أنَّه كان يُؤْخَذ الرجلُ ، فَيُكَتَّف ويُقيَّد ، فيؤخذ القطن فيحشى في أذنيه وخيشومه وفمه ، وتوضع المنافخ في دبره ، حتى ينتفخَ ويعظُمَ جِسمُه ، ثم يُسَدُّ الدبر بشيءٍ من القطن . ثم يُفْصَد ، وقد صار كالجمل العظيم ، من العِرقين اللذين فوق الحاجبين ، فتخرجُ النفس من ذلك الموضع ، وربّما كان يُقام الرجل في أعلى القصر مجرّداً موثقاً ويرمى بالنشّاب حتى يموت .

واتّخذ المطامير ، وجعل فيها صنوفَ العذاب ، وجعل عليها

نجاحَ الخُرّمي المتولّي لعذاب الناس . ولم يكن له رغبةٌ إلّا في النساء والبناء ، فإنَّه أنفقَ على قصره المعروف بالثريّا أربعمائةَ الفِ دينار وكان طولُ قصره المعروفُ بالثريّا ثلاثةَ فراسخ .

وحدَّث ابن الشحنة في روضة المناظر ، عن جلال الدين بن ملكشاه السلجوقي فقال : إنَّ عقله اختلَّ بموت غلامٍ كان يهواه ، حتى إنَّه استصحبَه ميتاً مدَّةً طويلة . كلّ يوم يُعمل له غداءٌ ويُرسَل إليه ، ويَعود إليه الجواب أنَّه أصلحُ ممّا كان بالأمس ...

وفي نشوار المحاضرة للتنوخي ، يروي عن أحد قضاة سجستان قال : قَدِمَ علينا صاحبُ جيش خراسان من قِبَل نصرِ بنِ أحمدِ الساماني ، ومعه خَلقٌ عظيم من الجيش . فاستولى على سجستان ، وانتشر الجنود في البلد فأفسدوا وامتدّتْ أيديهم إلى النساء في الطرقات قهراً فاجتمع الناس إليَّ وقرّروا المضيَّ إليه . ومعي أحدُ الفقهاء ، فدخلنا عليه ، فابتدأ الفقيه ووعظه وعرّفه بما يفعل الجنود . فقال له القائد : يا شيخُ ما ظننتُك بهذا الجهل ! معي ثلاثون ألفَ رجل ، نساؤهم ببخارى ، فإذا قامت أيورُهم كيف يصنعون ؟ يُنْفِذونها بسفاتج إلى حَرَمهم ؟ لا بدَّ لهم أن يضعوها فيمن ها هنا كيف استوى لهم . هذا أمرٌ لا يُمكنني إفسادُ قلوب الجيش بنَهيهم عنه .

وفي هذه النثرات التي تساقطتْ علينا من الكتب الأمينة في التاريخ والأدب ما يوقظ ضمائرنا ومشاعرنا على الحقيقة المرّة . وهي أنّ واقعَ اليومِ هو ابنٌ شرعيٌّ لواقع الأمس ، وَرِثَ عنه أخلاقه وصِفاتِه ، في أسلوب التفكير وأسلوب الحكم ، وأسلوب العيش . وإن لم يكن كذلك ، فمِن أين سيأتي هذا الواقع إلى أمّتنا ؟ وسيكون هو نفسُه أباً شرعيًّا لواقع الغد ، يودعه من الصفات والطباع ، ومن الخصال والفنون والسلوك ما كان قد أودعه إيّاه أبوه واقع الأمس ،

فالأيام والأحداث مثلُ الأحياء، تحمل وتلد ويرث بعضها بعضاً، فلا تعجبوا منّا إذا قرأنا غيبَ مستقبلنا، وقلنا إنّه لن يختلف ولن يتغيّر عن اليوم والأمس إلّا إذا أطَلَّتْ عليه المعجزة.

وقد أغناني أن اذكر ما عليه السلطات العربيّة في الزمن الحاضر، من تحلّل وانحلال، ومن تخلُّفٍ وسقوط، ومن تردٍّ وانزلاق، في أيّ ميدان من ميادين الحياة. إنَّ كُل فردٍ من شعبنا يرى ذلك كما اراه، ويُعاني منه كما أعاني منه. فلا ضَيْرَ هناك إذا صار من حقّي، أن أقول للإخوان المسلمين ومن يحلب بإنائهم: والآن! لماذا لا نأتي ونقارنُ بين رفعت الأسد وبين ايّةٍ من هذه السلطات، أو بينَ أيّ رجل في اية سلطة منها؟ ولهم بعد ذلك، أن يختاروا وأن يُحاكِموا وأن يَحكُموا، وان يقولوا ما يشاءون. وليس في وِسعهم ان يُخفُوا شيئاً عن اعين الشعب ولا عن ضميره. فلماذا يقف الإخوان المسلمون ومن يحلب بإنائهم، على أعتاب تلك السلطات عبيداً وأدواتَ لهو واستخدام، ويقفون في وجه رفعت الأسد ثائرين متمرّدين، يُريدون أن يتخلّصوا منه وأن يخلصوه ما في يديه من القوة والسلطان؟

٩

الفتنة بين الأخوين

لئِن بسطتَ إلَّي يدك لتقتلَني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلَك إنّي أخاف الله ربَّ العالمين . إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين .

قرآن مجيد

الفتنة بين الأخوين

ولكنْ لا نستطيع أن نُغفِلَ النظرَ إلى هذين الموقفين، ونحن نفتح بابَ الحديث: أمّا أوّلُهما، فهو إصرار حافظ الأسد على بقاء أخيه رفعت في مكانه وعلى راس أعماله، وتمسُّكه به تمسُّكاً أوجعَ قلوبَ القيادة السابقة، التي كان يتزعّمها الدكتور نور الدين والسيّد صلاح، واجّج شكوكَهم به، وسدَّ عليهم ابوابَ الأمل في الصلح، وقطَعَ السبلَ المؤدّية إلى التلاقي وإنهاء الخصومات الدائرة المستعرة. كان ذلك منه، يوم أنْ سألوه النزولَ عند شروطٍ، والاستجابةَ لطلباتٍ، من بينها تنحيةُ اخيه وإقصاؤه عن ساحة المسؤولية وصناعةِ القرار العازم، إلى ساحةٍ أخرى لا مسؤوليةَ فيها ولا قرار عازم. وكان حافظ الأسد يرى انّه على حقّ في شدّ أزر أخيه، وفي دفاعه عنه، وفي استبقائه في مكانه، ويرى أنّ على القيادة أن تُلغيَ هذا الشرطَ الذي لا يعني إلّا الاتّهام الباطل، ولا يحمل إلّا المَوْجدة عليه وعلى أخيه معاً. فأخوه رفعت عنده هو بريء وإنْ الحّوا في اتّهامه، وما عليه إلّا كما عليهم، وهو رفيقٌ وُلِدَ في الحزب وعاش في الحزب، ولا يفضُله أحدٌ من الخُصَماء في النضال ولا يتقدّم عليه في التضحية والشجاعة والذكاء. واذا هو رضي بإقصاء أخيه رفعت وتنحيته، فهذا يعني أنَّ جناحاً من

جناحيه هو قد هيضَ وانكسر ، فكيف يقوى بعده على الطيران بجناح واحدٍ ؟! وهذا يعني ايضاً أنّ اصطياده قد أصبح عليهم سهلاً يسيراً . لا يكلّفهم إلّا قليلاً من الجهد والعناء .

وأمّا ثانيهما ، فهو إصرارُ حافظ الأسد على إنهاء دَور أخيه رفعت وإقصائه عن السلطة والحزب والشعب ، وتصريفه تصريفاً يُضيّع فيه طريق العودة ، فلا يعرف من أين الرجوع . كان ذلك من بعدِ مجابهةٍ عنيفةٍ دارتْ بينهما ، ثم اتّسعتْ وتعاظمتْ حتى شملَتِ البلاد كلَّها ، لكنَّها بقيت صامتةً لا دَويّ فيها ولا فرقعة . ولم يتأخّر حافظ الأسد عن وصفها وتعريفها ، بأنَّها أخطرُ مؤامرةٍ وأخبثُ داهيةٍ واجهها منذ استئثاره بالسلطة عامَ سبعين وتسعمائة وألف . وهي عنده لم تستهدف تقويض عهده وسيادته فحسب ، وإنما استهدفت تسليم البلاد إلى عاصفةٍ مجنونة ، لا يدري أحدٌ أين اتجاهُها ، ولا يعلم أين مستقرُّها . ولولا الجهدُ الجهيد والسعيُ العنيد مع الشرق ومع الغرب على السواء ، لم يكن وحدَه قادراً على صدّ هذه المؤامرة واحباطها ، ولم تَسلَم له سلطته ، ولم يَسلَم هو براسه . وبعد أن نهض من بين حُفَرِ هذه المؤامرة واستعاد أنفاسه واستردَّ لون وجهه ، قال لأخيه رفعت : لقد نفدتْ آخر نسمةٍ من رياح صبري عليك ، ولم يعد عندي طاقةٌ لأنْ أتحمَّلَ أكثر ممّا تحمّلت ، فكفاني ما لاقيتُ منك ، وكفاكَ ما صنعتَ بي . أنَسِيت أنّي أنا الذي غَذَوتُك ونشَّأتُك وعلَّمتك ، واخذتُ بيدك إلى مرافق الحياة مرفقاً فمرفقاً ، وذلَّلتُ لك الصعاب وأنْجيتُك من كل تهمةٍ وعقاب ، وأشركتُك في السلطة وفي الإمساك بمقاليد الأمور وفي التدبير والتسيير للصغير والكبير ! صنعتُ لك ذلك وأكثرَ من ذلك ، على مرأى ومسمع الغائب والشاهد في هذا العالم . فلم يكن جزائي منك إلّا أن تكفر بصنائعي عليك ، وتتآمرَ عليّ ، وتتسلّل في ظلمة الغَلَس لتُطيح بي ،

وتأخذ مكاني . والآن لا خيارَ لك في مصيرك ، فمصيرُك أصبح في يدي ، وليس لك إلّا أن تترك كلَّ شيء وتنجوَ بنفسك . وإنْ لم تفعل ما أقول لك وتستجبْ لما سآمرُك به ، فسأوردك موردَ الحتف وسأقيم عليك النوائح . ولم يشأ رفعت ، بعد ذلك أن يتعدّى طورَ المواجهة إلى المجابهة ، ولم يرغب أن يجريَ بينهما أكثرُ ممّا جرى ، فأخلد إلى الهدوء واختار الانصراف . ثم استسلم لرأي أخيه الأكبر الذي أنهى المشهد الأخير ، بوضعه على جناح السلطة وهي طائرة ، وأوكلَ أمره للريح ، فإن بقيت خفيفةً هادئةً ، فهو في أمانٍ من السقوط ، وإنِ اشتدَّتْ وتوثَّبتْ فإنّها ستحمله وتلقي به إلى مصيره المجهول .

وليس لنا الآن بعد قراءة هذين الموقفين ، إلّا أن نحمل النفسَ على السعي والدوران في أبعادهما ، والإحاطة بما وراءهما إحاطةً تُمكّننا من الدخول إلى هذه الفتنة وتأخذُ بأيدينا إلى مكامن الأسرار فيها . فما شهدناه في الموقف الأول ، هو أنَّ رفعت لم يكن شأنُه صغيراً في السلطة ، ولم يكن هيّنَ الوقع والتأثير ، وكان له دورٌ غيرُ محدَّدٍ ولا معرَّفٍ . لكنّه كان بارزاً متميّزاً ، يُنبيء إلى أنَّ صاحبه يُخفي وراءه تطلُّعاً بعيداً ، وينطوي على تَحفُّزٍ غير يسير . ولو لم يكن رفعت كذلك ، لَما سَلّطتْ عليه القيادة المتقدّمة اهتمامها وصبّتْ عليه مراقبتها ، ولَما جعلت تنحيتَه وإنهاءَ دوره من الحزب والدولة ، شرطاً من شروط التفاهم والتوافق . ثم إنَّ هذا يقودنا إلى أنّه كان على جانبٍ ميسور من المواهب الكامنة والطاقات المختزَنة ، من ذكاء وشجاعة وحسن مبادرة ، ومن قراءةٍ للأحداث وتبصُّرٍ بما وراءها وما يُمكن أن تأتيَ به الأيام وما يمكن أن تدعه . ويقودنا أيضاً إلى التفكير والاعتقاد بأنَّ هذه المواهب والطاقات ، كان لها الدور الأكبر والاعتبار الأول في انتخابه لمكانه الذي أرادوه له

ووضعوه فيه، ثم إعدادِه وترشيحِه إلى ما هو أهمّ منه وأدقّ. وليس كونَ أخيه الأكبر رأساً من رؤوس السلطة ولا احتضانُه له وتمسّكُه به هما وحدَهما سبباً في اختصاصه بهذا المكان ووضعه فيه. أمّا أنّهما قد عزّزا مقامه في مكانه ومكّناه منه، فذلك أمرٌ لا مفرّ من الاعتراف به.

وما شهدناه في هذا الموقف أيضاً، هو أنَّ أخاه الأكبر ردَّ على القيادة المتقدّمة شرطَها الذي أرادتْ إخضاعَه له، ورفض أنْ يُضحّيَ بشعرةٍ من أخيه رفعت، بل ازداد إصراراً على تمسّكه به وعناداً على الاحتفاظ بمكانه، وسعى إلى توسيع دوره وتمكين مقامه. وغضبَ منها أشدَّ الغضب على رشقها أخاه بتُهمٍ، يَرى أنّها مكذوبةٌ عليه، صنعوها له وألّفوها، ليشوّهوا سيرته ويطعنوا بسلوكه، ثم ليوقعوا به ويَرموه وراء السياج، وهم بعد أن يأتوا عليه ويُفلحوا في تصريفه، يصير من السهل عليهم أن يتفرّغوا له هو نفسِه ويهيّئوا أسباب استئصاله والقضاءِ عليه. فما كان منه إلّا أنْ ردَّ على تُهمِهم بتُهمٍ مثلِها، وقابل طعونَهم بطعون أشدَّ وأوجع، وأثبَتَ أنَّهم هم الغارقون بالوحل إلى الأصماخ، وأنَّ أخاه بريءٌ لا زرايةَ به ولا لوثةَ عليه.

وأمّا عن الموقف الثاني، فإنَّ ما نشاهده فيه يكاد يختلف كلَّ الاختلاف عمّا شاهدناه في الموقف الأوّل، بل لا يكاد يكون له اتّصال به. وما يبعث على إثارة العجب والدهشة في النفس من هذا الاختلاف، هو أنّ الأشخاصَ ثابتون في الموقفين لم يتغيّروا، وإنّما التغيُّرُ هو في الأدوار والحركة. فهذا الذي كان مرجوماً من القيادة المتقدمة بالتهم والطعون، يظهر لنا الآن من جديد، وقد اشتدَّ رجمه شدّةً لا براءةَ له منها، وازدادت عليه الطعون زيادةً لا سبيلَ له إلى الانفلات منها، والذي رَجَمه هذه المرّة هو أخوه الأكبر، الذي كان

قد ذبّ عن حوزته وحامى عن ساحته ، وتلقّى بصدره كلّ ما وجّهوه إليه من شكوك ومن مطاعنَ واتّهامات . فلا بدّ أن يكون هنالك من جديد ، لكي يتحوّل الأخ الشفيق الوَدود من مُدافع ذائد إلى مُهاجم مقاتل ، ومن صائن إلى طاعن ، فما هو هذا الجديد ؟ وما الذي حَدَث بينهما حتى انقلبَتِ الصورة من ضاحكةٍ مشرقةٍ إلى عابسةٍ مظلمة ؟

ونحن لا نريد جواب حافظ الأسد على سؤالنا هذا ، فجوابه لا يَخفى علينا ولا على أحد . وقد استمعْنا إليه وهو يقطع آخر رباطٍ بينه وبين أخيه ويقول : صنعتُك فجحدتّني واصطنعتُك فخُنتني ، ولم تَرْعَ ودّي ولم تحفظ عهدي . أما الجواب الذي نريده ، وهو ما لم يقُله حافظ الأسد وربّما لن يقوله ، والذي يهمس به كلُّ فرد ، وهو انَّه في الموقف الأوّل لم يكن غنيًا عن أخيه رفعت الذي لا يخفى عليه استعداده وما يتمتّع به من قدرةٍ وشجاعة ومن ذكاءٍ ومهارة في المصاولة والمداورة . وهذه صفات هو بأمَسّ العوز والحاجة إليها في بناء سلطته التي يتطلّع إلى تأسيسها ، وفي تأسيس الدولة التي يحلم ببنائها وإشادتها . وكيف لا يعتزُّ بأخيه ويسارع إلى احتضانه وتقريبه إلى جانبه ؟ وأين سيجد رجلاً مثلَه عنده هذه الصفات ، وعنده هذه القربى ، وعنده هذا الإخلاص له والتفاني لأجله ؟ ولكنَّ هذا الأخ الأصغر ، ما إنْ رأى السلطة قد تأسّستْ وبُسِطَتْ والدولةَ قد بُنيتْ وأشيدت ، حتى تطاول بنظره عليها ، وراح يُهيّيء نفسَه ويصطنعُ الأسباب من هنا وهناك ويلُمّ البواعث من الشرق والغرب ، ليسرق الريش من أجنحة أخيه الأكبر ويطيرَ بعرش الأميرة وهي نائمةٌ فيه ، عندما تهدأ الحركة وتشتدّ العتمة ، كما تقصُّ علينا الأسطورة الجميلة . ثم يستيقظ أخوه في الصباح ، ليرى انّه لا ريش على جناحه ، ولا أميرة له ولا سرير عنده ، ولا بساطَ تحت قدميه ، ويرى أنّه عاد لا يملك شيئاً إلّا التراب ، فكأنّه قد رجع

من جديد إلى التراب . ولم يلبث هذا الخيال الذي لعبَ لعبته أنْ صحا من غفلته وانفلتَ من خدعته، وارتطم بالواقع الذي رآه صخرةً صمّاء ملساء، صرفتْه ملاستُها عن قسوتها وخدعه منظرها عن صلابتها . فأين نحن من هذه القصّة على حقيقتها وواقع أمرها ؟ هل ما جرى بينهما كان امتداداً طبيعياً وتسلسلاً عفويًا لسنّةِ التطور والتغيّر ؟ وهذا الذي جرى لم يكن في رأي رفعت وفي نظره، إلّا حقًّا من حقوق الحزب والشعب، أراد الحفاظَ عليه، ومكسباً من مكاسبهما تعصّبَ له وثار لأجله، حتى لا يُفرّطَ به مفرّط ولا يُضيّعه مضيّع . فهل كان ذلك صحيحاً ؟ وهل كان على صوابٍ في رأيه ونظرته ؟ وأمّا ما جرى فلم يكن في رأي أخيه الأكبر إلّا مؤامرةً استهدفتِ الإطاحةَ به واقتلاعَ الأمنِ من البلاد، ووضعَ الشعب كلمةً على لسانِ عفريت، ما إن ينطقْ بها حتى يستحيلَ الشعب والبلاد كلاهُما إلى هَباءٍ في الهواء، إنْ سألتَ عنه لم تجد له ذكراً ولا خبراً . فهل لرأيه هذا محلّ من الصحّة ؟ وهل هو على صواب في نظرته ؟

ولا مناصَ لنا من أن نعترف، بأنّ ما حَدَث كان مشهداً من مشاهد المسرحية الخالدة التي لا تنتهي إلّا اذا انتهت الحياة، ولا تنقطعُ عن الجريان إلّا اذا انقطع آخر فردٍ من بني البشر عن التفرّج والتحرّك . وكان أوّل مشهد بدأت به مسرحيّة الحياة على هذه الأرض، هو التنافس الذي جرى بين ابنَيْ آدمَ قابيل وهابيل، وإقدامُ كلّ منهما على قربانٍ تأكله النار، وغيرةُ قابيل من هابيل وغدرهُ به لفوز قربانه بالقبول، ثم انتحابُه عليه وحسرتُه وندمه مدى حياته كلِّها على فِعلته التي فعلها بأخيه . ولا يبعُد أن تختتم الحياةُ دورتَها وتنهيَ المسرحيّةُ الخالدة فصولها باقتتالٍ بين أخوين، يُنهي كلّ منهما الآخر فيه . فما حَدَث بين الأخوين رفعت وحافظ، لم يكن شيئاً خارجاً عن سنّة الحياة، ولم يكن طارئاً جديداً يطرأ عليها .

لكنّه طارئ، وجديد، وغريب، على مفهوم التكامل والتعاون الذي ينبغي أن يقوم بين الأخوين، وعلى التعاضد أو التآزر الذي لا يحقّ لأخٍ أن يبخَل على أخيه به مهما كانت الأحوال بينهما من حسن أو من سوء، ومن صلح أو من عداء.

وأمّا ما كان من رأي رفعت ومن قوله، بأنّه لم يُقدم على ما أقدمَ عليه، ولم يفعل ما فعله، الاّ ليعيدَالشباب مرّةً ثانية إلى الحزب والسلطة اللذَيْن أصبحا يُعانيان من ضعف الشيخوخة ومن أمراض الهرم، وإلّا ليُعجِّل بالبديل الذي هو خيرٌ من السكوت على عجزٍ لا أملَ فيه وعن نقصٍ لا طائل وراءه. فتلك تَعِلّةٌ لا نرفضها له ولا نقطع عليه طريق الاحتجاج بها، ونحن هنا لا نحاكمه بقدر ما نحلّل سلوكه ونظراتِه وأقوالَه. وسواءٌ عليه أتذرّعَ بهذه الحجّة أو بغيرها، فلسنا نريد أن نبادرَ إلى القبول أو الرفض، إلّا بعد أن نأتي على استعراض ما كان يفكّر به وينظر إليه، وبعد أن نتجولَ في زوايا ما يقوله ونطّلع على بعض خفاياه. واحسَبْنا بعد ذلك، أنّنا سنُشْرف، ونحن لا نشعر، على رؤية ابعاد قول أخيه الأكبر، عندما راح يُردِّد ويقول: إنَّ ما جرى كان مؤامرة لا مثيلَ لها في التاريخ الحاضر لبلادنا.

وقليل في بلادنا، هم الذين لا يفكّرون تفكير رفعت ولا يذهبون إلى ما يذهب إليه، من أنّه كان الأداةَ الواقية لظهر أخيه وجوانبه، وكان الأداةَ التي رمى بها رمياته فأصاب أهدافَه. ولولاه لما كان لتطلُّعاته من طريق إلّا الكبْوُ والتعثُّر، فهو الذي وقف إلى جانبه لحظةً فلحظةً في العُسرى وفي اليُسرى، يشاطرُه الرأي ويشاركه القول، يَقحم المخاطر ويَرود المهالك، ولا يسأل عن وزن التضحية وحجم الفِداء، أهو دَمُه أم روحه أم راحته، أم مُهَجُ أولاده، إذا كان ذلك يُرضي أخاه ويحميه، ويُسهِّل أمامه المسلك

المتوعّر الخشن؟

وليس هذا القول ثرثرةَ طائش ولا بُهتانَ أحمق . فما من أحدٍ إلّا وهو يعلم ان رفعت الأسد ، كان يهدّد أعداء اخيه الأكبر ويتوعّدهم ويُنذرهم ، وكان يهاجمهم في بيوتهم وفي الطرقات وفي المؤتمرات ، بالكلام اذا كان الموضع للكلام ، وباليد اذا كان الموضع لليد وبالسلاح اذا ضطُرَّ الأمر إلى السلاح . وما من احدٍ إلّا وهو يدري ، انّ المسألة التي كانت تستعصي على الحلّ بالمداورة والمناورة وبالأخذ والردّ ، كان يُرمى بها رفعت الأسد فتلاقي حلّها فوراً دون توقّف . وإذا شَمَسَتِ الصعاب ولم تستجب للتذليل ، كان اخوه الأكبر لا يتأخّر أن يلوّح لها برفعت ، فتعود سَلِسَةَ القياد طيّعةً ، لا نُفورَ عندها ولا شموس . حتى ذاع صيته في أرجاء البلاد بالعنف والبطش والخشونة ، وبقيَ هذا الصيت لصيقاً به مُسايراً له ، وإنْ خفتْ وطأته وضعفتْ حِدّته ، بعدما اطمأنّت الأمور إلى يدي أخيه الأكبر واستجابت لرغبته .

ولم تكن تخفى عليه خافية في كلّ خطوة يخطوها أخوه الأكبر إلى الغاية التي يتوجّه صوبها . سواءٌ كان ذلك في حشد القوى وتجميع الأعوان والأنصار ، او في الإعداد لمواجهة الخُصَماء ، أو في اللقاءات الجهيرة واللقاءات الخفيّة ، أو في رسم الخطط وتسييرها على النحو الذي لا ينبغي أنْ تضلّ عنه . واذا كان صيت الخشونة والعنف قد غلبَ عنه عند البُعَداء من الناس ، فإنّ أعضاء القيادة والعناصرَ الأولى في جهاز الحزب ورجال الدولة والأقربين من هؤلاء كانوا يعلمون كلّهم ، انّ رفعت الأسد لم يكن بيد أخيه الأكبر آلةً طاعنةً واداةً ضاربةً فحسب ، بل كان شريكاً له في صناعة الرأي . وكان له من نكائه ومن بُعدِ نظره وقراءته في واقع الشعب والحزب ، ما يسمح له أن يطّلع على ما يدور في نفس أخيه الأكبر

وما يرتسم في ذهنه من صور للمستقبل. وما ستكون عليه هيئة الأمور من استحالة وجريان. وكان لا يتأخر عليه في انتقاء الرأي الأصوب، والاشارةِ إلى الخطّة الأرشد والأنجح، بعد مدارسة الوان مختلفةٍ من الآراء معه، وبعد الموازنة بين خُطط شتّى لا بدّ من ترجيح إحداها على اخواتها الأخريات.

ونحن عندما نأتي على ذكر هذا الدور الذي قام به رفعت الأسد من اجل توطين اسباب السيادة واستتباب الأمور، لا نجنح إلى إلغاء دور اخيه الأكبر، ولا نفكّر مثلَ هذا التفكير، ولا يخطر لنا على بال. بل لا نقدر ان نُنكر أنّه لولا أخوه الأكبر، لما واتته الفُرص ليلعب مثل هذا الدور، ولَما استطاع أن يَرقى إلى هذا الشأن الذي رَقيَ إليه، فلماذا لا نتّفق إذاً على القول، بأن الأخوين حافظ ورفعت، جاء كلٌّ منهما عنصراً يكمّل الآخر في التطلّع والهدف والصلابة، وفي أسلوب التحرُّك والاتجاه الذي يقود إلى المبتغى، ولقي كلٌّ منهما ما يحتاج إليه وما ينقصه في الآخر.

وإذاً، فنحن رَمَينا عند التذكير بدوره، إلى أنْ نقول إنّه بعد هذا الدور الذي لعبه رفعت، وبعدَ هذه المخاطر التي خاضها والمهالك التي تقحّمها، وَجدَ نفسَه لائقاً قميناً بأنْ يخلف أخاه الأكبر على منصّة القيادة. ووجد أنّ من حقّه أن لا يذهب تعبه هدراً، وأنّ هذا الصرح الذي شاركت أكتافه برفعه لا يجوز أن يُحرَم من دخوله والتمتّعِ بسَكَنه. وما الذي يمنعه أنْ يهمَّ بالوثوب على اصطياد مثل هذه الأمنية التي باتت قابَ قوسين أو ادنى من متناول يده؟ وهو الذي أثبت انّه يمتلك شجاعةً وحميّةً، وعنده طاقةٌ محسودة من الذكاء والنظرِ البعيد، وعنده رصيد في الشعب يستعدُّ لاستقباله، ورصيد في جهاز الحزب لا يتخلّف عن السير وراءه، وله الغصن الانضرُ في الشجرة العسكرية التي تظلله وتحميه؟ ولِمَنْ سيترك

الساحةَ بعد أخيه الأكبر فارغةً والميدانَ خالياً ؟ وهذا الذي سيخلفُه ، إنْ لم يكنْ عدوًا له ولأمثاله ، فإنَّه لن يكون صديقاً لهم . وربّما قلبَ ظهر المجنّ وانقلبَ عليهم ، وأوقع بهم شرَّ وقيعة ، وخلّصهم ما في أيديهم وما في أنفسهم وتتبّع آثَرَهم في كل مكان . وما عليه إذن إلّا أن يهيّىء ويتهيّأ ، وأن يُعِدَّ ويستعدّ ، فالزمن يمضي والأيّام تمرُّ ، وليس هناك وقت للاستهتار أو للتغافل أو للإهمال .

ولعلّي أصيب الصوابَ كلَّه ، اذا قلت إنَّ رفعت الأسد ، أخذ يتطاول بعنقه على قيادة الحزب والدولة ، منذ اللحظة الأولى التي أوكلوا إليه فيها رعايةَ الحزب وحمايتَه ، ومنذ أنْ أفردوا لهذا الشأن نواةً عسكريّة ، صارت من بعدُ سرايا الدفاع ، وسمَّوْه قائداً عليها . ولكنّه اكتفى في أوّل أمره ، بأنْ يختبىء خلفَ أخيه الأكبر ، وأن يجعل منه رايةً يتنكّر وراءها ، ريثما تَحين الفرصة وتَطيب له الوثبة . وكأنّه أخذ ينظر إليها من وراء غيبٍ شفاف ، أنّها قادمة وأنّها بدأتْ تداعبه وتغازله ، عندما بَسَطَ أخوه الأكبر سلطته على الحزب والدولة وقبض على مقاليد الأمور بقوّة وشهامة .

ولعلّه كانَ من أخطائه ، التي لا أدري هل يعترف بها الآن ، هو أنّه ترك الحبل على غاربه لنواياه البعيدة فتسارعتْ في الظهور . وكان لهذه النوايا في سيرته المظهرُ الأجلى والكشفُ الأوضح ، فقد أصبح له موكبٌ إذا تحرّك وموكبٌ إذا سكن ، واصطنع لنفسه جهازاً خاصًا يحميه ويراقب ما حوله من قريب وبعيد ، وهو لا يزال قائداً لخليّة عسكرية لم تكبر ولم تتّسعْ . وكان يعتزُّ أن يطّلع أخوه الأكبر على وضعه هذا ، ويراه نوعاً من الاعتراف بالجميل ومقابلة الشكران بشكرانٍ مثله . وقد فاته أن يعلم أنَّ أخاه الأكبر رأى منه كلَّ شيء واطّلع على كلّ شيء ، لكنّه أسرَّ ذلك في نفسه ولم يُبدِها له . وراح يراقب السوانح كيف تسنح والبوارحَ كيف تبرح ، ويراقب رفعت في

حركاته وسكناته، ويَعُدّ عليه الأنفاس والخطى، متكتّماً متمهّلاً لا ريبة تبدو عليه ولا استعجال.

وسواءً أحسَّ رفعت أم لم يُحسّ، بأنّ أخاه الأكبر عَرَف نواياه لم تكن منه مهارةً وحذقاً أن يُمعنَ في إظهار نفسه، وأن يفتح أنفاقاً بينه وبين المراكز القطبية في الحزب والدولة، وأن يُقيم جسوراً مع أجهزةٍ عمّالية وتنظيمات شعبية، بل كانت المهارة والحذق، أن يتراجع إلى الوراء وأن يبقى مستتراً خلف أخيه متّخذاً منه مجنّاً، يتّقي به إذا رَمَى ويتّقي به إذا رُمي عليه. ونحسب أنّه وقع في خطيئةٍ ثانية عندما فوّت على نفسه فرصة التراجع هذه، من غير أن يلتفت إلى التاريخ، ويعتبرَ بما فيه من عِبَرٍ عجيبةٍ كثيرة، ويرى كيف أنَّ العائلة، كان يُفني بعضُها بعضاً من أجل جلسةٍ ممتعةٍ على العرش، وكيف أنَّ الأخ كان يقتل أخاه والابنَ أباه والزوجةَ زوجها وأولادَها. ثم يتبصَّر بكلمةٍ قالها أبٌ مَلِكٌ، وهو واحدٌ من خلفاء بني العبّاس، لابنه الذي سيملك بعده: يا بنيّ: إن المُلك عقيم، واللهِ لو نازعْتَني الذي في يديّ لأخذتُ منك الذي في عينيك.

وفي العام الذي التقيتُه ونشأتْ صحبةٌ بيني وبينه، وهو عامُ ثلاثٍ وسبعين وتسعمائة وألف، كان رفعت قد أصبح على رأس قوّة مرموقةٍ متميّزةٍ في الجيش والحزب والدولة. وكان صيتُه قد طبّق آفاق البلاد، وعلِمَ القاصي والداني أنّه يستعدّ ليخلف أخاه الأكبر على منصّة القيادة. ولم يعد عنده من خيار إلّا أن يتقدّم إلى الأمام، فخيوط التراجع والاختباء خلف أخيه قد تقطّعت كلّها. بل لم يكن مقتنعاً بهذا اللون من العمل، ويراه أسلوباً ليس فيه شيء من الرجولة والشهامة، فهو لا يُقدم على سرقةٍ لكي يتسلّل بين الظلال أو في الظلام، ولا يحاول أن يأخذ ما لا حقّ له فيه لكي يظهر بوجهٍ غيرِ وجهه. وكان له من اعتداده بنفسه وثقته بما يرسم ويخطّط،

وبما يقرأ في وجه الأيّام من وعود، ما يدفعه إلى أن يعمل في وَضْح النهار ويُجاهرَ بما عنده من أحلام ونوايا، مطمئنًا إلى أنّ لُحمة القربى بينه وبين أخيه الأكبر، ستكون مادّةً مذيبةً لما قد ينشب بينهما من خلافات، وستكون اللغةَ التي يدخل بها إلى قلبه دائماً وسفيراً اليه يحاوره ويخلق عنده قناعةً ورضًى بتنصيبه واستخلافه بعده.

ولكنْ هل كان واهماً في هذا التصوّر، أم كان يدري بالخفايا كلّها ويُحسّ بما يجول في نفس أخيه فيكتم ذلك ولا يحكي ولا يتكلّم؟ وربّما كان في هذه القصّة ما يُعِين على انتزاع جواب لهذا السؤال. فقد فاجَأنا ذات يومٍ بوصوله ودخوله إلى المكتب، كما تعوّد أن يصنع، وكنت ساعتئذٍ وحدي، وإلى جانبي في الغرفة المجاورة تجمّعَ عددٌ من الجنود، يتندّرون فيما بينهم ويتفكّهون. ولم يكنْ على وجهه شيء من علائم الغضب أو القلق او الحزن ما سوى لونٍ خفيفٍ من الوان الكآبة، لا يبعث على خوفٍ ولا ينذر برهبة. وبعد أن التفتَ إليّ وسألني عن أشياءَ لم أتأخر في الإجابة عليها، تناول الهاتف وطلب الحديث إلى بعض الأطبّاء في الوحدة العسكرية. وفي الحديث الذي دار بينهما، تبيّن لي أنّه كان عند والدته، وانّه اطمأنَّ على صحّتها، فليس هناك ما يدعو إلى القلق ممّا تعاني من عوارضَ ألمّتْ بها لسبب من الأسباب، ثم إنّه طلب إلى الطبيب ان يعودَها ويُحيطها بإشراف كبير وعناية فائقة، وأطبقَ الهاتف، واخذ مكانه بجانبي، وراح يحدّثني عن هذه الزيارة، ويسرد لي بعض الذكريات الأنيسة التي تداعت إلى خاطره عن أيّام طفولته وحبّه لها وتعلّقه بها. ولم يفُتْه أن يرويَ لي، وهو يقول هذا يبقى بيننا، انّ والدته طلبت إليه بإلحاح، وحلّفته بحقّها عليه وعهدها عنده، انْ لا يجمحَ كثيرًا في الظهور، وأن يُقلِّصَ ما

استطاع من انتشار صيته ، وألّا يأخذَ مكاناً في الساحة إلّا تحت راية أخيه . فالعين تنظر بحسد إلى الحاجب لأنّه فوقها . وأوصته بأن يُطيع أخاه الأكبر ، وأن يكون اللينُ والودُّ والتعاطف والتراحم ، هي وسائلَ التخاطب والتفاهم بينهما . ثمّ قال : وقد أهمّني هذه المرّة حديثها الذي تعوّدْتُ عليه ، وحلفتُ لها وطمأنتُها ، بأنّني سأظلُّ خاتماً في إصبعه أعمل بأمره ، كما كان خاتم سليمان يعمل بأمره .

فهو وإن لم يأت على سردِ التفاصيل التي جَرَتْ بينه وبين والدته ، فإنَّ حديثه لا يخلو من إيحاءٍ دالّ ، ومن صورٍ واضحةٍ عن تموّج واضطرابات ودخانٍ في سماء الأسرة ، تفجّرت من أسباب ليس الحسدُ إلّا واحداً منها . وربّما كان منها تدخّل النساء من هذا الجانب ومن ذاك الجانب ، لتوزيع المنافع على الأقرباء ومن يلوذ بهم ، وربّما كان منها التنافس والتواثب لاقتناص الادوار الرفيعة المرموقة وإعطائها للخُلَصاء المتلهّفين من هذا الفريق ومن ذلك الفريق . لكنّ حديثه لم يمرَّ بي مرورا عابراً ولم يتركني هادئا ، فقد أثار في تفكيري تاريخاً طويلاً لا يعرف النهاية من تباغض الأقرباء وتحاسدهم ، ومن تراشقهم بالدسائس والمكائد في قصور الأمراء وفي بَلاطات الملوك ، وبين رجالات السلطة والحكم في كلّ مكان وزمان . وربّما كان في هذه القصّة التي يرويها أسامة بن منقذ فارسُ الشام وبطلُها في عهده ، في كتاب الاعتبار ، شَبَهٌ كبير بهذا الحديث الذي حدّثنيه رفعت عن والدته ، فهيّج أشجاني وتركني كئيباً إلى فترة . فقد حدَّث الأمير أسامة بأنّه كانَ ولِعاً منذ بدء شبابه باصطياد الأسود ، وكان لا يتردّد أنْ يخرج في طلبها منفرداً أو في جماعة . وذات مرّةٍ وَجَد نفسَه بصحبة أبيه الذي ركب ومعه أربعون فارساً ، كلّهم يُتقنون فنّ الصيد . وبينما هم في البريّة ، بين الأدغال والغابات ، إذْ طلع عليهم اسدٌ كبير شرس ، وهاجمهم هجوماً ، أدخل

الرعْ إلى قلوبهم ، وفَرِّقهم وهم على صهوات خيولهم ، لكنَّ أسامة عاود الكَرّة عليه ، وأغار إغارة حامية أتى بها على الأسد وقصم ظهره ، وتركه صريعاً يتخبَّط بدمه . وكما يقول في روايته : «والوالد رحمه الله واقفٌ يرانا ، ومعه أولاد أخيه عزّ الدين ، يبصرون ما يجري وهم صبيان . وحملْنا الأسد ، ودخلنا البلد العشاءَ ، وإذا جدّتي لأبي رحمها الله قد جاءتني في الليل ، وبين يديها شمعة ، وهي عجوز كبيرة قد قاربتْ من العمر مائةَ سنة . فما شككتُ أنَّها جاءت تُهنّئني بالسلامة ، وتُعرّفني مسرَّتَها بما فعلتُ فلقيتُها وقبلْتُ يدها . فقالت لي بغيظٍ وغضب : يا بني! إيش يحملك على هذه المصائب الذي تخاطر بها بنفسك وحصانك ، وتكسر سلاحك ، ويزداد قلبُ عمّك منك وحشةً ونفوراً ؟ قلت : يا ستّي ! إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرَّب إلى قلب عمّي . قالت : والله ، ما يقرّبك هذا منه ، وإنّه يزيدك منه بعداً ، ويزيده منك وحشةً ونفوراً . فعلمت أنَّها رحمها الله نصحتني في قولها وصَدَقَتني ، ولعمري إنهنّ أمّهات الرجال» .
ولا يخفى أنّ عمّه عزّ الدين كان أميراً في ذلك العهد ، وكان يخشى أن تنتقل الإمارة إلى ابن أخيه أسامة بدلاً من أبنائه ، لاشتهاره بالذكاء والشجاعة والإقدام . وكان كلّما أظهر أسامة شيئاً من بطولته وإقدامه ، كان عمّه لا يزداد إلّا غيظاً عليه وحسداً وغيرةً منه ، ولم يزل كذلك معه حتى كادَ له وأوقع به ، وطلب إليه أن يغادر حماه فلا يعود إليها ، وربّما أرادت السيدة أمّ رفعت ، أن تكون من أمّهات الرجال كجدّةِ أسامة ، فأسرّت بهذا الحديث لابنها الأعزّ الأغلى ، خوفاً عليه وإشفاقاً على هذا الرباط الذي بينه وبين أخيه الأكبر ، من أن يتمشّى إليه البلى أو يصيبه الوهن .

ولكنَّ رفعت ، كان يحدّث نفسه ويقول : لماذا أختبىء وراءَ أخي ، وأنا لا أنوي أنْ أغدر به ، وليس عندي نيةٌ لكي أقوم بعملٍ

شائن يجلب إلى البلاد أذى أو يقرّبها من خطر ؟ ولماذا أختبىء وراءه ، وأنا لا أطلب باطلاً ، ولا أسعى إلّا إلى حصاد ما زرعته ، ولا أمدّ يدي إلّا إلى الرزق الذي جنيْته بعرقي وضناي ؟ فقد كنت شريكاً لأخي في كلّ خطوةٍ خطاها ، وفي كلّ عملٍ أقدمَ عليه . بل وضعت نفسي رهينةً بين يديه ، ورضيتُ أن يَقذف بي في فم المهالك والمخاطر ، متى يشاء ويرغب ، وعندما يكون ذلك صيانةً لحياته وإرضاءً لخاطره وإدناءً له من المبتغى الذي يتوجّه اليه . واستهنتُ بروحي وراحتي ودمي ، فرَدَدْتُ عنه كَيد الأعداء وهجماتهم ، وسهرت الليالي ، وقاسيتُ من الهموم والأتعاب والأمراض ، وأنا أدور في الحزب وفي الشعب ، وفي كلّ مكانٍ من البلاد لأحشد وراءه القوى ، وازرعَ محبته في القلوب وابشّرَ الناس بخططه ونواياه في إعمار البلاد وفي توسيع الازدهار . ثمّ لماذا أختبىء وراءه ، وعندما تحين الفرصة وتدقُّ الساعة للوثوب على السلطة لا يكون لي من اعمال عُرفت بها ، ولا من خطط احضرتها وجهّزتها ، وليس عندي من حجّة اصول بها إلّا انني اخوه ، وهذه الحجة وحدَها ضعيفة واهية في نظر شعبنا المتفتّح الذي لا يعْزُب عن فهمه شاردةٌ ولا واردة ؟ إنّه من حقّي أن امارس أعمال القيادة ، فآخذَ منها خبرةً وأعطيَها خبرة ، وأنْ يكون لي في كل شأنٍ شأنٌ وفي كلّ أمرٍ أمرٌ . فنحن لا ينبغي ان نأمن غوائل الأيام ومكائد الأعداء في الداخل والخارج . فقد يلاقي اخي موت الفجأة أو السكتة ، وقد يتعرّض له حادث ، وقد يُلِمُّ به مَرَضٌ عُضال يتركه طريحاً لا يقوى على العمل ، وقد ينجح الأعداء في واحدةٍ من خططهم الكثيرة التي يرسمونها لتطويقنا ومُبَادَهَتِنا . فإذا لم أكن مستعدًّا لسدّ الثغرة التي سيتركها غيابُه ، فإنّنا سنقع كلُّنا فريسةً لداهيةٍ دهياءَ تأتي على أوّلنا وعلى آخرنا . ومن هو الرجل الآخر بعد اخي ، يصلح لهذا الدور أكثرَ

...ني ؟ أو من هو الذي ضحّى مثلَ تضحيتي، وقدَّم مثلما قدّمت، و اكتسب من الخبرة بقدْر ما اكتسبتُ لنرشّحه لهذا الدور ونزفّه إليه ؟ إنني إذا استطعت، فلن أترك الفرصة، بعد أخي لأحدٍ غيري، ولن أسمح لقاطف أن يقطف ما زرعت ولا لجانٍ أن يجنيَ ثمار غراسي، مهما كانت الأسباب وإلى أيّ مصيرٍ تصير البلاد.

هكذا كان رفعت يحدّث نفسه، وهكذا كان يتحدّث إلى أنجِيائه وخُلَصائه. ولم يلبث أن سرى عنه ذلك وعُرف به فلم يعد سرًّا على أحد. وصار يُشير إليه في خطبه ويُصرّح به في جلساته، وأصبح شغلَه الشاغل وهمُّه الذي نذر له حياته. ولم يُلقِ بالاً إلى ما يدور في رأس أخيه، بعد ما علمَ أنَّ الطرق أصبحت مفتوحةً في السلطة وفي الحزب وفي الشعب. فهو يعلم ماذا يدور في رأسه، ويعلم كيف يداوره ويسايره إلى الحين الموعود، ثمّ لم يُلقِ بالاً إلى هؤلاء المعارضين الذين شدّدوا التفافهم حول أخيه الأكبر، وخفّوا إلى تعزيز مواقعهم عنده بإظهار الوفاء، وَزَفّوا إليه أنفسهم من جديدٍ بكثيرٍ من الذلّ والضراعة ليُبقيَهم أدواتٍ يرمي بها على رفعت، ووسائلَ طيّعةً في يده ومسخّرةً لأمره متى يشاء. ولا ينبغي لنا أن نُنكر على رفعت لباقته وبراعته في التصرُّف مع هذه الوسائل، فقد عَرَفَ كيف يستميل فريقاً منهم بالبذل والعطاء، وكيف يدعو إليه أقرباءَهم والعاطلين من أهليهم فيغمرُهم بمِننه، ويخلعُ عليهم المواقع والأعمال أحياناً، وعرف كيف يجابه الفريق الآخر وهم الذين تأبّوْا على إسلاسه، فيسدُّ في وجوههم الطرقَ النافذة ويُشوّش عليهم الخطط الفاعلة. ثم عَرَف كيف يرفع ما كان يطمره له هؤلاء المعارضون الوسائلُ، من عقبات في الطرقات القائمة المفتوحة بينه وبين أخيه الأكبر. وإنّه ليعلم حقّ العلم، أنَّ هؤلاء ليسوا عقبةً أمامه، وأنّ ما يضمرون له وما يطمرون في طرقه ليس عقبةً،

وإنّما العقبة والعقدة هو اخوه الأكبر .
وكان كلّما همّ رفعت بالتحرّك والانتفاض ، تذكّر انّه ام يشبُّ عن الطوق ، وانّ عليه ان ينتظر زمنَ النضج إذا هو احبَّ ان يقطف الفاكهة يانعةً ناضجة ، وان يتلذّذ بأكلها ، ولكنّ هذا لم يمنعه أنْ يتصرّف وكأنّه رئيسٌ للبلاد ، وهو يحمل بيده اليمنى راية الاعتبار الرفيع لأخيه الأكبر ، وبيده اليسرى عَلم الاعتراف الأسمى له بالفضل والجميل والشهادة لعهده الميمون الزاهر بالبركات النامية الفائضة ، فهل كان يفعل ذلك ليقطع الطرق على المعارضين الذين هاجوا وماجوا ونشروا عنه الشائعات في كلّ مكان ، ورفعوا الى اخيه الأحمال المحمّلة من الأضاليل والأقوال ، عن باطله وفساده وسلوكه ، وعن نواياه في تطويق أخيه وخطف السلطة من يده ، أم كان يفعل ذلك حبًا بأخيه وإثباتاً له بأنّه لن يخونه في شيء ، وانّه سيبقى يحفظ له عهد الحليب الذي رضعاه من ثدي واحد ؟

ولعلّنا إذا قلنا إنه أراد بعمله الاثنين معاً ، فإنّنا لا نجانب الصواب بهذا القول . فليس من شكّ في انّه يحبّ اخاه حبًا شديداً ويُفدّيه ويضحّي من أجله ، وليس من شكّ في انّ هؤلاء المعارضين المقرومين أحسنوا امتياح الفرصة ، ورأوْا في ذلك عملاً لهم اراحهم من البطالة التي يعانون من وطأتها ، فقد يضجر الخامل من الخمول أحياناً ، وجعلوا منها مطيّة تنقلهم وتحطّهم في حضرة أخيه الأكبر ، لينقلوا إليه بألسنةٍ مرتجفة ، وأعينٍ خفيضة شيئاً صحيحاً عن أخيه وسلوكه وأعماله ، ويضيفوا إليه سائلاً مذاباً من أحقادهم ، ثم يرشّون عليه غبرةً من تفسيرهم الزهيد البغيض . فتأتي الأقوال خليطاً غريباً ومزيجاً عجيباً ، أينَ هو الذي سيعرف كيف يفصل بين عذبها ومالحها وبين حلوها ومرّها ؟ ولكنّهم على أيّة حال ، لم يكن عندهم الجرأة ، على أن ينقلوا إليه من أعمال رفعت إلّا ما هو واقع

صحيح، وما هو معدود بنظر أخيه الأكبر من الشنائع التي يضيق عنها الغفران. أما إذا وصلوا إلى التحليل والتأويل، فإنّهم يطلقون سوقهم للريح، ويقولون فيه ما لا يقال ولا يعلم. شأنهم في ذلك شأنهم في كلّ قضية يعالجونها معه، وكلّ مسألة يتحدّثون عليها أمامه.

ولماذا لا نستحضر الآن واقعةً من تلك الوقائع الكثيرة التي جرتْ بين الفرقاء المتصارعين، والتي تحمل إلينا أبعاد الفتنة الضارية، وتصرّح لنا بالمعاني الواضحة لكل فريق وما عندَه من التباين والتمايز؟ وإذا انصرف الاختيار إلى الواقعة التي وقعتْ عامَ أربعةٍ وسبعين وتسعمائة وألف، بين رفعت من جهة، وبين محمود الأيّوبي رئيسِ مجلس الوزراء وبجانبه قائدُ القوى الجويّة في ذلك الزمن من جهةٍ أخرى، فلأنّنا كنّا في ميدان الواقعة، نشاهد الهجوم حين يهجم طَرَفٌ منهما على الطرف الآخر، ونشاهد الدفاع حين يدافع كلُ فريقٍ منهما عن نفسه ضدَّ الفريق المقابل، ونطّلع على الحركة كيف تنبعث، وعلى القول كيف يخرج، ونحضر اللقاءات التي تجري في النهار جهرةً واللقاءات التي تجري في الليل سرًّا، ونعاين الأمراض والعلل بحسرةٍ وأسف، ونعلم الدواء ولا نستطيع أن نذكره لا بحسرةٍ ولا بأسف.

والقّصة بين الطرفين المتنازعين، هي أهونُ من أن تُروى لضآلتها، وأصغرُ من أن تُحكى لخفّة وزنها وصغارتها. أقول هذا وأنا لا أجهل حجوم الذين مثّلوا دور خصماء رفعت ومنازعين له في الطرف المقابل ولا أجهل أوزانهم. فالأيّوبي، وهو رأسهم الأوّل، أعرفه يومَ رحت أدّرس العربيّة في ثانويّة التقفي، وأنا طالبٌ في الجامعة وهو آنذاك مديرٌ لهذه الثانوية. وربّما كان المقامُ حشو جلده كما يقولون. ولَشَدَّ ما ظلموه وجاروا عليه جوراً كبيراً،

عندما جازوا به إلى أرفعَ من هذا المقام . وأمّا رأسهم الثاني ، وهو قائد القوى الجويّة ولا حاجة لنا في ذكر اسمه ، فلا يفضل الأيّوبي بطبع ، ولا يتميّز عليه بموهبة ولا يختلف عنه في الغرض المنشود .
ولا يعنيني هنا أن أرويَ حوادث هذه القصّة وما جرى فيها ، وإنّما يعنيني أن آتيَ على أبعادها ، ففيها تقبع قضايانا وترقد ، وأنْ أشير إلى أسبابها ، فهي نفسُها أسباب تنكيدِ عيشنا وتعكيرِ صفو حياتنا .

ولم يكُنِ الأيّوبي يجهل الأسباب التي قادت إلى تنصيبه رئيساً لمجلس الوزراء ، فراح يرقص بين هذه الأسباب ويتنعّم بأفيائها .
ولمّا تأبّى عليه الجمع بين إرضائها وبين إرضاء من حملوه إلى هذا المنصب ، وجدَ نفسَه يخبط في عمله خبطَ عشواءَ ويطرق في حديدٍ بارد ، لا هو يعرف أين يسير ولا ماذا يعمل ، وربّما كان هذا هدفاً من الأهداف التي جيء به لأجلها . وكذلك كان صاحبه مثلَه لا يجهل الأسباب ، لكنّه لم يُحسن ركوبها إلّا لفترة قصيرة ، فلا هو استطاع أن يَروي فيها حقداً ولا أنْ يبلغ مأرباً . وهذه المعركة التي انفتحت بينهما وبين رفعت الأسد ، هل كانا على موعدٍ معها ، أم أنّها حدثتْ فجاءةً ونزلت عليهما من غامضٍ مجهول ؟

وعلى الأرجح أنّها لم تأتِ فجاءةً ، فقد سبقها تبادل إنذارات وتراشق تهديدات ، واخذٌ وردٌّ في التحدّيات ، واستعراضٌ للقوّة والجاه . وأصبح كلٌّ منهما يقول لمنافسه المقابل وخصمه المواجه : موعد النزول إلى المصارعة هو في المؤتمر القطري القادم ، فانتظر الوقت المعلوم ! ولم يكن بينهما من أسباب للمنافسة والخصام إلّا تلك الأسباب التي ساقتهما إلى السلطة والتي لا يجهلها أحد . وقد وجدَ الأيّوبي وصاحبه في المعركة فرصةً ثمنية وغنيمةً نادرة للانقضاض على أمنعِ حُصنٍ من حصون حافظ الأسد وتقويضه ، وهما يُظهران انّهما يشيّدان له الصرح الممرّد الذي وعداه به . وأمّا

حافظ الأسد ، فقد أبدى أنّه إلى جانبهما ولم يقصّر في دعمهما وفي الدعوة إلى تأييدهما . ولم يكفّ عن مطالبة أخيه بتخفيف حدّة الحملة عليهما ووقوفه عند الحدود المرسومة المعقولة . بل أعلن أنّه سيحول بينهما وبين السقوط كيفما كانت النتائج ، وأكّد على أنّهما سيحتفظان بما في أيديهما من مكانٍ ومكانة . وربّما طاب له أن يتفرّج على هذه المعركة ، ويتسلّى بروية ما يجري بين المتصارعين ، وهو يظنُّ أنّها مظاهرة كبيرة لتوطيد أساسه وتركيز دعائمه . وربّما كان في ظنّه هذا صائباً ، لكنْ فاته أن يتذكّر أو أن يعلم ، أنّه لا ربح في ميدان السياسة من جانب إلّا بخسارة في جانب آخر . فإذا كان قد كسب في هذه المظاهرة السياسية الحزبية توسعة في التأييد الحزبي وتثبيتاً لدعائم سلطته ، فإنّ هذا لم يأتِه إلّا من فوز أخيه رفعت . وقد أصبحنا الآن لا نختلف أنّ فوزه المتميّز الفائق في ذلك الزمن ، صار خسراناً لحافظ الأسد في زمن آخر سيأتي بعده .

وعلى الأرجح أنّها لم تأتِ فجأةً ، فقد سبقها تبادل إنذارات وتراشق تهديدات ، وأخذٌ وردٌّ في التحدّيات ، واستعراضٌ للقوّة والجاه . وأصبح كلٌّ منهما يقول لمنافسه المقابل وخصمه المواجه : موعد النزول إلى المصارعة هو في المؤتمر القطري القادم ، فانتظر الوقت المعلوم ! ولم يكن بينهما من أسباب للمنافسة والخصام إلّا تلك الأسباب التي ساقتهما إلى السلطة والتي لا يجهلها أحد . وقد وجدَ الأيّوبي وصاحبه في المعركة فرصةً ثمنية وغنيمةً نادرة للانقضاض على أمنعِ حُصنٍ من حصون حافظ الأسد وتقويضه ، وهما يُظهران أنّهما يشيّدان له الصرح الممرّد الذي وعداه به . وأمّا
حافظ الأسد ، فقد أبدى أنّه إلى جانبهما ولم يقصّر في دعمهما وفي الدعوة إلى تأييدهما . ولم يكفّ عن مطالبة أخيه بتخفيف حدّة الحملة

عليهما ووقوفه عند الحدود المرسومة المعقولة. بل أعلن أنّه سيحول بينهما وبين السقوط كيفما كانت النتائج، وأكّدَ على أنّهما سيحتفظان بما في أيديهما من مكانٍ ومكانة. وربّما طاب له أن يتفرّج على هذه المعركة، ويتسلّى برؤية ما يجري بين المتصارعين، وهو يظنُّ أنّها مظاهرة كبيرة لتوطيد أساسه وتركيز دعائمه. وربّما كان في ظنّه هذا صائباً، لكنْ فاتَه أن يتذكّر أو أن يعلم، أنّه لا ربح في ميدان السياسة من جانب إلّا بخسارةٍ في جانب آخر. فإذا كان قد كسب في هذه المظاهرة السياسية الحزبية توسعة في التأييد الحزبي وتثبيتاً لدعائم سلطته، فإنّ هذا لم يأتِه إلّا من فوز أخيه رفعت. وقد أصبحنا الآن لا نختلف أنّ فوزه المتميّز الفائق في ذلك الزمن، صار خسراناً لحافظ الأسد في زمن آخر سيأتي بعده.

وأمّا رفعت، فقد صال على خصمائه صيالاً متقَناً بارعاً، وأبدى حنكةً لم يتوقّعها منه أخوه الأكبر ولا كثيرٌ من جهاز الحزب والدولة. وعَرَفَ كيف يهاجم هؤلاء الخصماء، وكيف يتّقي هجومهم، وعرف كيف يؤلّف الأنصار ويؤلّف المشايعين، حتى من بين أعدائه وممّن هم حولهم. واستطاع أن يفوز فوزاً طاغياً في ذلك المؤتمر، فأسقط الأيّوبي وصاحبَه ومن أصرّوا أن يظلّوا وراءهم، وأنزلهم من سمائهم التي بنَوْها لأنفسهم ورماهم في الوحل، وجرّدهم من كلّ قيمةٍ واعتبار. بل إنّه الحقد المسعور الذي تحرّك في داخلهم وعرّاهم على حقيقتهم، فلم يفُتْ رفعت أن يثب على هذا الحقد ويخطفَه من أيديهم، ويتّخذَه سلاحاً يهاجمهم به، بدلاً من أن يقابلهم بحقدٍ مثلِه. ولماذا لا نقول، إنّ هذه المعركة كشفَتْ رفعت أمام الحزب والشعب والدولة على حقيقته أيضاً، وعَرَفَ الناسُ جميعهم أنّه حريٌّ بقيادة الشعب، قمينٌ باستلام

مقاليده، ليس لأنّه أخٌ لحافظ الأسد فحسب، وإنّما لأنّه مزوّدٌ بفنّ القيادة، وأنّه ينضمُ على مواهبَ وطاقاتٍ ليست هيّنةً. واصبحت الألسنة تلهج بذكره في كلّ مكان، وتقول: إنّه يتطلّع إلى الغد وإنّ الغد في بلادنا يتطلّع إليه.

ولم يكنْ ربح رفعت في هذه المعركة هو اسقاط الخصماء وحدَه وإذلالهم وتعريتَهم، وإنّما كان ايضاً في اطّلاعه على نوازعَ جديدة ومخبآت بعيدة في أعماقِ أخيه، لولا هذه المعركةُ لبقيتْ نائيةً عليه غامضةً عنه. فقد كان يظنُّ ظنًّا أنَّ أخاه الأكبر، لن يقبل له أن يليَ بعده السلطة ويتسلّمَ ازمّةَ الأمور إلّا بعد تمنُّعٍ شديد وعُسرٍ عسير. امّا الآن فقد بات على يقين لا يرقى إليه الشكّ، بأنّ أخاه هو العقبةُ وهو العقدةُ، وأنّ في منزله تُحاك الدسائسُ ضدّه، وأنّ المعركة الكبيرة بينهما هي قادمةٌ لا مفرَّ من مواجهتها والاصطلاء بنيرانها. بل ربّما كانت المعركة التي انتهت قبل قليل بنصرٍ مبين إلى جانب رفعت، جولةً أولى من جولاتها ونذيراً من نُذُرِها وطليعةً من طلائعها. وكان ربح رفعت في هذه المعركة ايضاً، أنّه اكتسبَ خبراتٍ جديدة واكتشفَ اصدقاءَ جُدداً وأعداءَ جُدداً. وكان ربحه فيها ايضاً أنَّ صيته انتقل إلى خارج البلاد، بصياغةٍ شرعية وبلهجةٍ من حكومة البلاد وسلطتها. وأصبحتِ الدول تحسب له حسابه، وتهتمّ به اهتماماً متميّزاً، وتنظر إليه على أنّه الرجل القويّ في سورية والرجلُ المأمول، وأنَّ قوّته ليست متأتّيةً من توصيات أخيه الأكبر به، ولا من بيانات خاصة دبّجها بشأنه وأصدرها لتكبير قيمته وإعلاء كلمته.

والحقّ أنّ رفعت أصبح، بعد معركة هذا المؤتمر، حرًّا بدستور من الحزب لم يصنعه له أحدٌ إلّا هو بنفسه وبما عنده من طاقة وخبرة، وأصبح مطلق اليدين يتصرّف بتأليف قيادة الحزب

على هواه، ويتخيّر أعضاء الحكومة على رغبته واشتهائه. وأخوه يُشرفُ من عَلٍ يتفرّج ويراقب أعماله ويَعدّها عليه، ولا يُحرّك ساكناً ولا يسكّن متحرّكاً، إلّا اذا رأى فيه أنّه يزيد في وجاهته ويمدّد من أبّهته وزعامته عند الحزب والحكومة والشعب. وربما أراد أن يوحي في سكوته المهيب وفي اتّخاذه هذا الموقف الرزين الوقور، أنّه موجّه لأخيه رفعت وقائده، وأنّه أذنَ له في فعل ما يفعله ليتعلّمَ فنّ القيادة ويكتسبَ الخبرة من التجارب، وأنّه أوّلاً وأخيراً هو الذي ربّاه في كنفه وأنضجه وسوّاه وإذا كان هذا الإيحاء قد انطلى على كثير من الناس، فإنّه لم ينطلِ على رفعت وعلى المقرّبين منه، والذين يُشرفون على خُططه ويعملون معه فيها. فقد عَمَدَ إليه هؤلاء من جديد، واتّخذوا منه غطاءً لأقوالهم وخطبهم حين يقولون وحين يخطبون، ولتحرّكهم حين يتحرّكون، ورأوْا فيه ملجأ يقيهم ضربات المعارضين، وإنْ لم يكن لها من اثر إلّا مثلِ قرص الذباب، وأداةً يرمون بها على هؤلاء المعارضين الذين لا يجوز تجاهلهم، مهما صَغُرَ شأنهم وتضاءل قدرهم.

ومن يسأل عن الأيّوبي اليوم، فإنّه قد اختلّ عقله، وأصبح الطيش هو الذي يسيطر على سلوكه ويصرّف أعماله، وأصبح في الشعب ضحكةً، يتندّرون بقصصه الدائرة، ويتظرّفون بنوادره السائرة. وأمّا صاحبه فقد بدأوا منذ ذلك الوقت يجرّدونه من ثيابه قطعة فقطعة، حتى سلبوه ما عليه، ولم يتركوا له إلّا ما يستر سوأته لأمرٍ لا نعرفه، فمضى على وجهه هائماً لا يدري أين يسير ولا أين يَحُطّ الرحال. ومِن عجيبِ ما صنعت به الأيام، أنّ الريح أخذت تتقاذفه من سهلٍ إلى جبل ومن صحراءٍ إلى غابة، حتى القتْ به في حضن رفعت الأسد، فاستقبله هذا استقبالاً طيّباً، وأكرم نزوله وخلع عليه، وأبقاه إلى جانبه واتّخذ منه حليفاً له. وجاء من

بهذ منين معارضون ومعارضون، وكلّهمُ انزلقوا بعد انِ انطلقوا ووقعوا بعد انْ فقعوا. ولا يزال السلف منهم يورِث الذلّ إلى الأبناء والخلف، ويُسمّيه اعترافاً بالجميل لسيّد النعمة وولّي الأمر.

وربّما طاب المقام لنا الآن، واصبح من حقّنا ان نستمتع برواية جزءٍ من مجلسٍ من المجالس الأنيسة اللطيفة التي دارت بيني وبين رفعت. فلست أدري، كيف وجدت نفسي، بعد فترة استراحة من انكشاف هذه المعركة، أستأذن بالدخول عليه في مكتبه بمطار المزّة، فيأذن لي فوراً، وادخل فيلاقيني بابتسامةٍ عريضة ملأتْ وجهه، ويرحّب بي ترحيباً نشيطاً، ويعانقُني، ثمّ يخاطبني بعد أنِ استقرَّ بنا المجلس ويقول: يا أخي أين انت؟ اشتقنا إليك وإلى احاديثك الحلوة! فأنا أشعر بالوحشة عندما تنقطع عنّي هذا الانقطاع. يا أخي! سألنا عنك، فقالوا لنا، إنّك في الصيد والقنص، فما هو صيدك في هذه الأيّام؟ فأجبته قائلاً: يا سيّدي العزيز! إنني أسرح بعيداً عن المدن والقرى وراء الطيور، فلا أقع إلّا على النزر اليسير منها. فأخوك رضي الله عنه، لم يترك لنا شيئاً في البلاد، لم يترك لنا، لا وزارة ولا سفارة ولا عمارة ولا ختيارة، حتى ولا قملة، ولا برغوثاً يسلّينا في ليالي الشتاء الطويلة. فضحك من قلبه ضحكةً طويلة سرح رنينها خارج المكتب. وبعد جولةٍ قصيرة من الملاطفة والضحك، انتقل وسألني: عن هذه المعركة، وعن أهميّة فوزه فيها، وصداها القريب والبعيد، وما سيترتّب عليها في المستقبل للفرقاء المتخاصمين. ولم يقصد في سؤاله أن يطّلع على رأيٍ فقط، بل قصد ان يجعل منه باباً للدخول إلى حديث الساعة، وما في البلاد من أحوال وأطوار، وما يأمل أن يكون وما يأمل أن لا يكون. ولا اتنكّر انّني خرجت في حديثي معه عن هذا الكلام الذي اتيت على ذكره قبل قليل.

ولم ننسَ أن نتذاكر بشأن ما جرى بينه وبين أخيه الأكبر من ملاسنة، لم تخلُ من قسوة، أيّام كان وطيسُ المعركة حامياً، قادت كلًّا منهما إلى إشهار السلاح في وجه الآخر، وكادت أن تجرّهما إلى المجابهة، لولا أن حرارة القربى تغلّبتْ على حرارة الغضب. ولن يستطيع أن يهرب من الذاكرة ذلك اليومُ الذي دخل فيه رفعت إلى مكتبه في مجلة الفرسان وهو يغلي غَلياناً من الغيظ والحَنَق، وأخبرَنا بأنّه أمرَ جهاز السلاح الثقيل في الثكنة أن يتهيّأ للحركة وأن يستعدَّ للهجوم والمجابهة. وتحلّقنا جميعنا حوله، وكنّا كثرةً، وفينا من كان يُصرّ على استخدام السلاح لإطفاء حمّى النزاع، وتبديد هذه الحماقات الشائلة بذيولها، وإزاحة هؤلاء الخصماء المتعنّتين. وفينا من كان يدعو إلى التريّثِ والهدوء، ويلحّ على المباشرة بالحوار واللجوء إلى اختراع وسيلة للتفاهم، قبل أن ينفجر الجنون في الرؤوس ويقودَ إلى الدمار والخراب. وبينا نحن على هذه الحالة من القلق والاضطراب والتزاحم في عرض الآراء، إذْ أقدم علينا ضابطٌ من الوحدة، وقال لرفعت، بعد أن أدّى له مراسمَ التحيّة: سيدي كلُّ شيء جاهز، والدبابة الأولى على الباب خارج الثكنة، وأخواتها الباقيات وراءها، والأمر لك. فأطرق رفعت قليلاً وراح يتحدّث بهمس مع من هم بجانبه، ثم التفت إليّ وكنت غير بعيدٍ منه، وقال: أصدرت لك أمراً بأن تذهب لتبلّغهم رغبتي بالعودة إلى أمكنتهم التي خرجوا منها في الثكنة. فقلت له: يا سيّدي إذا ذهبت، فسأبلّغهم أن ينسفوا قصره على قرعته، وأن يدكّوا أركانه حتى لا يبقى حَجَرٌ من فوق حجر. فكاد أن يبتسم، وتناول الهاتف واتّصل بهم وأمرهم بالعودة. أمّا من كان في الاجتماع، فقد ابتسموا لكلامي واستروحوا به، وفتح لهم نافذةً على تجديد التنفّس والابتهاج في الحديث.

وقلت لنفسي ، بعد أن قادتْنا المفاتحة إلى أحاديثَ شتّى في هذه الجلسة الهادئة : إنّ المناسبة طيّبةٌ لأقول له ما لا أجد من الحقّ أن أكتمه عنه . فالتفتُّ إليه وقلت له : يا سيّدي العزيز ! كلّما هممْتُ أن أطارحك شيئاً محقوناً في النفس أتراجع خوفاً من أنْ لا يلاقيَ عندك قبولاً ، وقد ترى فيه ما يُنغِّص عليك صفوك ويجرحُ مشاعرَك . فقال لي : هاتِ ما بدا لك ولا تخَفْ . فقلت : إنّ منْ ينظرُ إلى عينَيْ أخيك ولا يرى الغدرَ بادياً فيهما لهو أحمقُ معتوه . وهو عندي لا يختلف شأنه عن شأن النَمِرِ أبداً ، لا يعرف بطبعه أن يصطاد إلّا غدراً ، وسوف لن يُؤْخَذَ ولن يُصْطَاد إلّا غدراً . فإذا كنت ترى في نفسك ميلاً لا يُقاوَم لاقتناص السلطة ، فثِب عليه في ليلةٍ ظلماء ، لا إنسَ بها ولا أنيس ، وخُذْه أخذ عزيز مقتدر على غفلةٍ ، وهو في عزّ هدوئه وأمانه . وخُذْ من منزله ومن حوله هذه الهررة التي أقعدتْها السمنةُ ، واقذفْها في أفواه الكلاب الضارية التي نبحتك ، ولا تحسب لما ستأتي به الأيامُ حساباً . لكنّني من الذين يريدون لك أن تُغلّب حبَّ أخيك في نفسك على حبّ السلطة . فحبُّ السلطة إذا غلب عليك وساقك إلى القضاء على أخيك ، فلن تنجوَ من الوقوع في الحسرة القاسية التي وقع بها قابيل بعد قتل أخيه ، ومن ملاحقة عين الخطيئة التي لاحقته حتى نغّصتْ عليه أكلَه وشربه ونومه وقومَه . وراح يُؤْثِر الموت على الحياة ويطلبُه ليهرب معه من خطيئته ، ولكنّ الموت رفض أن يستجيب له إلّا في الأجل الموقوت ، وذلك ليذوق أليم عمله ومرارة صنعه . وخيرٌ لك ألفَ مرّة ، أن يستأثر بك حبُّ أخيك والتقرُّبُ إليه وكسبُ وُدّه من أنْ يستأثر بك حبُّ السلطة ، وأنت لا تعلم بعدها ، ماذا ستأتي به الأيام من السواهي والدواهي .

ولَشدَّ ما أعجبه كلامي وسُرَّ به واستراح إليه ، وتنهّدَ ثمّ قال : يا أخي ! من الخطأ أنْ يظنّ الناس أنّني أسعى إلى السلطة والحكم ،

وكأنّني لست في السلطة ولا في الحكم! يا اخي! أنا في قلب المسؤولية، وفي قلب السلطة وعينها، وفي مشاعرها وإحساسها، وكلّ شيء في الحزب والدولة هو قريب من متناول يدي. وانا احبّ اخي اكثر من عيني وولدي، واطيعه، وكلّ مرّةٍ اقابله فيها أقبّل يده. ولكنْ كفاني أن يعاملَني معاملةَ العبيد وأنا لست عبداً، وكفاني أن يصرخ في وجهي وينتهرَني، اذا رحت أقدّم رأياً، او التمس طلباً او اسوق إليه مشورة!، ويقول لي: الا تخجل من مواقفك هذه مني، وأنا ربّيتك وسوّيتك وأوصلتك وانلتك الصيت والوجاهة والمقام؟ وقد صنع لنا من هذا الكلام نشيداً، كلّما رفع فَردٌ من العائلة رأسه امامه أنشده إيّاه. يا اخي! ما من مرّةٍ قلت شيئاً إلّا واحلِف له بالأيْمان المغلظة، أنّني لا أريد من ورائه إلّا مصلحتَه قبل مصلحتي وكرامتَه قبل كرامتي، ومن هو ومن انا؟ إنّنا شيء واحد، ومصلحتنا واحدة، ومصيرنا واحد. يا أخي! هو له عينان فقط، وله عقل واحد، ويريد لنا وللشعب كله أن نرى بهذين العينين وحدَهما ونفكّرَ بهذا العقل وحدَه. لماذا لا يستمع هو إلى أقوالنا وينظرُ إليها، ويأخذ منها ما كان صالحاً ويترك منها ما كان فاسداً. يا أخي! هو من طبعه، أنّه لا يُحبّ أنْ يراجعه أَحَدٌ في أمر، ولا يردَّ عليه أَحدٌ في رأيٍ حول مسألة، وأنَّ كلمةٌ واحدةٌ من هؤلاء العبيد الذين هم تحت يده، في مراجعة أو في ردٌ عليه، تكفي لأنْ يصيّره إلى أسفل سافلين. يا أخي! هذا شعب يتطلّع إلينا ويأمل فينا، وإنّه من حقّه علينا أن نُشركه في صنع مصيره. انا أستغرب منه، كيف يعطي اذنيْه إلى وشايةٍ تصله عنّي وسعايةٍ يسعى بها دنيءٌ محتقر مثل فلان وفلان، ولا يعطيني لحظة أقول له فيها كلمةً واحدة.

يا اخي! إذا نحن لم نعرف كيف نتطوّر ونساير الحضارة،

فسنبقى في مكاننا نشمّ روائحنا الفاسدة ونبلي الناس بها . إنّ من طبيعة الأشياء ان تتغيّر وتتطوّر وتنتقل من الحسن إلى الأحسن . يا أخي! لا بأس أن اسمع منه دائماً قوله : أنا ربّيتك وسوّيتك وصنعتك ... ولكنْ ، هل يقبل عليَّ ، أن يعرض كلٌّ منا كلامه وآراءه على الحزب والشعب ، ونترك الحرّيّة للجميع يختارون على هواهم ؟ وسنرى لمن ستكون الغَلَبة ، لكلامه وآرائه أم لكلامي وآرائي ؟ يا اخي! الناس كلُّ الناس ، شرعوا يفهمون الآن ، انّه ليس صحيحاً ، لأنّني اخوه فقط صرتُ إلى السلطة وصار لي مكانةٌ وجاهٌ وصيت ، وبداوا يعلمون ، انّني لست غبيًا كما يظنّ ، ولا جاهلاً كما يعتقد ، وانّني تعبت وعانَيْت ، وانّني لا آخذ الآن إلّا حقًّا من حقوقي أيضاً . وإذا انا تطلّعتُ في الغد إلى اكثرِ ممّا عندي ، فإنّه حقٌّ من حقوقي ايضاً . يا اخي! نحن نفهم طبيعة هذا الشعب ونعلم ما يريد ، إنّه سمع كثيراً ورأى قليلاً ، وهو يريد الآن أن يرى لا أنْ يسمع ، أن يرى اقتصاداً متطوّراً ، وخُططاً للتنمية ومشاريعَ جديدة ، يريد دماً آخر يدخل إلى دمه فيجدّدَه وينشّطه . يا أخي! كلُّ خطوة نخطوها ، لا تشدّ الشعب إلينا ، أو لا تعيد له الثقة المفقودة بينه وبين السلطة، علينا أن نتراجع عنها ، ونقومَ بخطوة غيرها ، تُجيب على تساؤل للشعب او تُرضي تطلّعاً له . إنّني لست متفائلاً بالمستقبل إذا بقيت الحال على ما هي عليه ، وإذا لم يخفّف من عناده ويُطَامِنْ من كبريائه . يا أخي! والله حيّرنا ودمّرنا ، لا نعرف ماذا يريد هو ، ولا يسعى إلى أنْ يعرف ماذا نريد نحن .

وكان مجلسنا طويلاً ، والحديثُ فيه متنوّعاً متشعّباً ، ويكفي هذا المقدار الذي اتَيْنا على ذكره ، والذي هو المصاص الخالص فيما يتّصل بموضوعنا . وكان يقول وهو فَرِحٌ مسرور ، تطاوعه العبارة ، فتأتي إليه متى يستدعيها من غير مشقّة ولا تكلّف . وربّما

سهَلَ عليه ذلك انّه كان يتحدّث في هذه الموضوعات عدّة مرّات في كلّ يوم ، إلى الزائرين والمقرّبين منه ، وإلى من يعتقد انّ عندهم فهماً صحيحاً للأمور واطّلاعاً اميناً على ما يجري ، ثم يقولون فيَصْدقون في القول . ولعلّي استطعْتُ ان احتفظ له بأكثرِ عباراته وكلماته ، ولم أُضِف عليها إلّا شيئاً من التحسين الذي جعلها أجمل ترتيباً وأحلى تنظيماً . وإذا نحن التفتْنا إلى التاريخ الذي جرى فيه هذا الحديث ، وهو عامُ اربعةٍ وسبعين وتسعمائة وألف ، ازدادتْ امامنا أبعاد الفتنة اتّضاحاً ، وعلِمنا انَّ الانفجار الأخير الذي جرى بين الأخوين كان مظلوماً بتسميته مؤامرة . وادركْنا انَّ من حقّه ، ان يحدث وان يولَد هذه الولادة الطبيعية ، وليس هو مؤامرةً ولا مقامرة .

ولستُ ادري كيف خطرَتْ على بالي تلك القصّة الجميلة الرائعة التي كنت قراتها في الأدب الفارسي القديم ، ايّام البحث والتحضير في طهران . فهي تكاد تكون قصّة الأخوين حافظ ورفعت ، أو تكاد تكون مُخبرة عنها منذ وقوعها في ذلك الزمن السحيق ، زمنَ ما قبل كوروش العظيم . وتقول القصّة : إنَّ مَلكاً من ملوك الفرس القُدامى ، احسَّ بدنوّ أجله ، فاستدعى ولدَيْه اللذَيْن لم يكنْ له غيرُهما ، وقال لهما : إنّني بداتُ اعيش آخر أيامي في الدنيا ، واوّل أيّامي في الآخرة . وإنّني راحلٌ عنكما اليومَ أو غداً وقد اردتُ أنْ أوصيكما قبل ارتحالي واقسمَ بينكما ما عندي ، فاحفظا عهدي ولا تختلفا فيما بينكما لأمرٍ من أمور الدنيا . فإنّها محلُ الاختلاف لاجتماع الأضداد فيها ، والآخرةُ هي محلُ الائتلاف لخلوّها من الأضداد . وإنِ اختلفْتما فليذكرْ كلٌ منكما الموت ، فإنّه يُهوّن الاختلاف ، ويُلين صلابة القلوب القاسية ، ويُزهّد الإنسان بأسباب هذه الدنيا وما فيها . ولا تجعلا ساعياً يسعى بينكما بصلح وتقريب ، لا امرأةً ولا

والا إلّا انتما، والسابق منكما إلى الآخر هو الأفضل والأولى بالتعظيم. ثم التفتَ إلى الكبير، وقال له: أمّا أنت يا بنيَّ! فقد عهدتُ إليك بالمُلك بعدي، فاستقِمْ واعدل بين الرعيّة، ولو كان على نفسك. والتفت إلى الصغير وقال: وأمّا انت يا بنيّ! فقد عهدت إليك بلُغزٍ يبقى معك، لا تفارقُه ولا يفارقك، عندما تقرأه ينجلي لك باطن أخيك فترى ما فيه، وتنجلي لك بواطن الرعيّة وتراها أمامك. ثم يفتح الله على قلبك ويعلّمك كيف تأخذ المُلك من أخيك، عندما يمتنع ان يَعهَدَ إليك به، ويُؤثر إنساناً آخرَ عليك. وبعد موت أبيهما المَلك، تقلّدَ الكبير منهما أمورَ الرعيّة، وبقي الصغير بجانبه، يشاطره حملَ الأعباء، ويرفِده بما عنده من رأي ومشورة. وفي كلّ يوم، بعد أن يعودَ من العمل إلى مقصورته ويأوي إلى الراحة، يقرأ اللغز، فينجلي له باطن أخيه، ويرى فيه نوايا سوداء ينويها للايقاع به والتخلّص منه، وخطوطاً مرسومة التفّ بعضها فوق بعض، وهي طرقٌ يريد أن يسرّب بها نواياه، ليمضيَ في التدبير. ويرى فيه ظلماً للرعيّة، واغتصاباً لحقوقها، واستهتاراً بواقعها ومستقبلها. وتنجلي له بواطن الرعية، فيراها وقد اكتظّتْ بالغمّ والهمّ، لِما هي فيه من بلاءٍ وكروب، من يد أخيه ومن سوء تصرّفه. وقد هالَه الأمر، وافزعَه ان يرى نوايا أخيه عليه تكبُر كلَّ يوم، وتزداد سواداً وتقترب منه، ويرى الرعية تقترب من الانفجار أو التهلكة. وذاتَ يوم سأل الكبير أخاه الصغير وقال: يا أخي كيف أمور الرعية، وماذا يصل إليك من أخبارها؟ فقال له: إنَّ أمورَها على أحسن حال، ولا يصل من أخبارها إلّا الرضى والسرور. وأنت! ماذا ينجلي لك من باطنها ومن باطني عندما تقرأ لغزك؟ قال: ينجلي من باطنك لي الجواهر، وينجلي من باطن الرعيّة الغضب والنقمة والاستياء من حكمك، وهذا يدعو إلى العجب والتفكير، لأنَّ ما في

بواطن الحكّام ونفوسهم ينعكس على الرعيّة ، ويظهر في أحوالها ، إنْ خيراً فخيراً وإنْ شرًا فشرًا . فقال له الكبير : إذا كان باطني كما تقول ، فلا بدّ إذاً ، أنّ ما تُخفيه في باطنك هو الذي يجلب على الرعيّة هذا الويل والبلاء ، فاقرأ عليّ اللغز ودعني أرى ما في باطنك الآن . فاذعن الصغير إلى طلبه ، وعندما قرأ اللغز ، تجلّى باطنُ كلٍّ منهما للآخر . ونظر الكبير إلى باطن أخيه الصغير فرآه قد امتلأ صفاءً ، تظهر فيه الجواهر والدرر ، ثم نظر إلى باطن الرعية ، فرأى فيها النقمة والهياج والغضب ، ورأى أن خيطاً من لهيب يُنسج بينه وبين كلّ فردٍ منها ، وأنّ هذه الخيوط تتقارب فيما بينها لتلتقي كلُّها فيه ، وتتحوّلَ إلى نار محرقة . ثم نظر إلى باطن نفسه فأخذه الخوف والرعبُ ممّا شاهد من الذنوب والآثام ، وقال لأخيه : كيف تخدعني وتقول لي إنّك رأيت باطني صافياً ؟ لا بدَّ أنّك تنوي في نفسك شيئاً سيّئاً عليَّ . فقال : كلّا ! لو كنت أنوي شيئاً سيّئاً لرأيتَه في نفسي ، ولكنْ ما أردتُ أن أقول لك عيوبك ، بل حرّضتُك على أنْ تراها أنت بنفسك ، فذلك أدعى إلى الاتّعاظ والارتداع . فسأله الكبير : ولكنْ كيف نصنع لنُعيد إلى الرعيّة هدوءها وثقتها ونجعلَها راضيةً ، فأنا أخشى أن يصل اللهيب إليَّ ويُحرقَني ؟ فردَّ عليه الصغير وقال : تتنازلُ لي عن الحكم ، وتعهدُ إليَّ بأمور الرعيّة ، فأسوّيها نقيّةً بيضاء ، وأعيدُها لك كما كانت . فرضي الكبير بمشورته ، وقال له : انتظرْني حتى أدخلَ إلى غرفتي وآتيَ لك بالتاج والصولجان ، وكان الصغير قد أقفل اللغز وجلس ينتظر ، ودخل الكبير وليس في نفسه إلّا أن يأتي بالسيف ليقتل أخاه ، ظنًّا منه بأنّ صفاءه وما فيه من جواهرَ ودررٍ ستنتقل كلُّها إليه ويُصلحُ بها الأمور بينه وبين رعيّته ، وعندما رأى الصغير أنّ السيف يهوي على عنقه ، قال لأخيه : لقد قتلتَ نفسك ، فالرعيّة ستدخل عليك غداً من الأبواب كلّها . ولكنّ

الرعيّة لم تمهل الكبير إلى الغد ، فعندما سمعتْ بأنَّه قتل أخاه ، هجم الناس من كلّ حَدْبٍ وصَوْب ، وأجرَوْا دمه فوق دم أخيه .

وربّما لم يكن هنالك شبهٌ في جانب واحد بين أحداث هذه القصّة وأحداث قصّة الأخوين حافظ ورفعت . فهنالك عدّة جوانب ، تكاد تكون معادة مكرورة ، أو تكاد تكون هي عينَها في القصّتين ، فحبُّ استئثار الأخ الأكبر لنفسه بالسلطة هو واحدٌ بينهما . ودور الأخ الصغير الذي هو التفاني والتضحيةُ والنهوضُ بالأعباء الجِسام هو واحدٌ أيضاً . والصراع من أجل الوصول إلى السلطة ، ومفاجأة الأخ الكبير في آخر لحظة ، لأخيه الصغير وغدرُه به ، في كلتا القصّتين لا اختلاف فيها . ثم هذه النهاية التي كلّها ألمٌ وكلّها حسرة واعتبار ، إنْ لم يكن هنالك بينهما تشابه في أكثر أجزائها ، فإنَّ تشابهاً بين بعض أجزائها هو مشهود وملحوظ . ومن ذلك الدماء التي سالت في القصة الأولى ورآها الناس ، هي لا تختلف عن الدماء التي سالت في القصة الثانية ولكنّ الناس لم يرَوْها . فَقطْعُ أرزاق كثيرٍ من الأتباع والأنصار ، وحرمانُهم الأهلَ والأولادَ وإخراجُ عدد منهم خارج الوطن ، هذه الأعمال وأمثالها ، لا تقلُّ بآثارها ونتائجها ومفهومها عن الدماء التي تسيل من قطع الأطراف وضرب الرقاب ، ومن التعذيب والجلد في السجون والأقبية . وقد بقي شيءٌ واحد لم يحدث في القصّة الثانية ، وهو انتفاضةُ الشعب وقيامُه في وجه الأخ الأكبر ، لإنهاء ظلمه وجوره وتعدّياته ، والقضاء على أسباب النكبات والتعاسة التي خلقها للمجتمع منذ استشراء انحرافه وتعاظم استبداده .

وليس من شكّ في أنَّ حافظ الأسد ، هو أدرى الناس بطباعِ اخيه رفعت وما يدّخر في نفسه من القدرات والمواهب . وأنّه لم يُحبَّ أن يَغْفَلَ منذ بداية أمره إلى ما يمكن أن يتجدّد عنده من تطلّعات ،

وما يمكن أن تخلقه الأيام في نفسه من طموح وتطاول وتوثّب. لكنّه لا يحاول أن يرى سبيلاً إلى اتّهامها، وكيف يحاول ذلك، وهذه القدرات والمواهب لا تزال في طور النموّ والتشكيل، ولا يزال أخوه شابًا حديث العهد بالسلطة، لم يطّلعْ بعدُ على مفاتنها كلّها، ولم يتذوّق أطايبها ولذّاتها؟ لقد آثر أنْ يكتفيَ برعايتها ومراقبتها بآنٍ واحد، وأنْ يحسبَ لها حساباً من عنايته واهتمامه وحساباً من حيطته وحذره. وعندما أَحسَّ بالتموّجات الأولى التي صدرتْ عن أخيه، والتي حملتْ تباشير طموحه وتطلّعاته، أصبحتْ مراقبته له أقوى من عنايته، وازداد الحذر منه أكثر من الحرص عليه، وراح يفكّر في صنع التدابير التي يتّقي بها ما ستحمله طموحاته المتنامية من أخطار مرتقبة.

وربّما كان صنيعه مع أخيه رفعت، مثلَ صنيع ذلك المصارع القدير، في القصّة التي يَرويها الكاتب والشاعر الفارسي المشهور سعدي الشيرازي في كتابه روضة الورد. والقصّة طويلة لا نحتاج منها إلّا إلى هذا الجانب الذي يقول: إنَّ مصارعاً بلغ النهاية في فنّ المصارعة حتى أتقنَ فيه ثلاثمائة وستّين باباً، وأنّه أحبَّ تلميذاً له فعلّمه هذه الأبواب كلّها، إلّا باباً واحداً أخفاه عنه، لكي لا يصير مثلَه، ثم لكي لا يتفوَّقَ عليه، فلا يعلم أحدٌ ماذا سيكون عليه التلميذ في المستقبل: هل سيكون وفيًا مخلصاً لأستاذه، أو عاقًا له جاحداً لنعمته؟ وقد صحَّ ما حدس به المصارع الاستاذ، فقد احتاجَ إلى هذا الباب الذي أخفاه، لكي يردَّ ادّعاء المصارع التلميذ ويدفعَ عنه هجومَه ويبقى هو المتفوّق الأوحد في البلاد. وإذا كان حافظ الأسد قد فكّر مثل تفكير المصارع الأستاذ، فأخفى عن أخيه ما راح يدّخر له من تدبير وما يحفر حوله من حُفرٍ وينصبُ له من مصائد، لكنّ رفعت لم يكن عاقًا جاحداً مثلَ المصارع التلميذ، ولا متطلّعاً إلى

صرح لم يشارك في بنائه ولا مُقدماً على حصادٍ لم يساهم في زرعه. فما هو الشيء الذي أخفاه حافظ الأسد عن أخيه؟ وما هو التدبير الذي لجأ إليه في الخفاء ليَقمع خطر أخيه، وتبقى سلطته في أمانٍ من الاغتصاب والانتقال عنه؟

ولعلَّ من أهمّ ما صنعه له وابتلاه به، هو شحن قلوب هذه الحاشية التي حوله بالحقد عليه والبغضاء، والإيذان لها بأن تتبعه وتراقبَه، وأنْ تكمن له في المنعطفات وعند مفارق الطرق الكبرى والصغرى، لكي تبادره بالمفاجآت، وتُضيِّع عليه نحوه الذي ينحوه والاتّجاه الذي يقصده. وقد وجد في حاشيته من الوزراء منْ ناصبوا أخاه رفعت عداءً أسود لا يعرف الرحمة، ووجد مثلَهم في أعضاء قيادة الحزب، ومثلَهم في الجهاز العسكري وجهاز الأمن. وكان هؤلاء الذين عثر عليهم، يمنّون أنفسهم، ويشتهون اشتهاءً، أن يرضاهم حافظ الأسد عنده عبيداً أذلاءَ وخدّاماً أرقاء، وأن يحرّكهم بيده كيف يشاء ومتى يشاء. وكانوا يُهرَعون إليه فيحقنُهم بالإثارة ويغذّيهم بجراثيم الفِتَن، ويَهمس في آذانهم ويقول لهم، بأنَّ أخاه رفعت لا يمثّله في سلوكٍ وتصرّف، ولا يحمل وجهة نظره، فيما يرويه وفيما يذهب إليه، ولا يعتبره إلّا واحداً مثلَهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، ولا يُؤثره بشيء آخر. وهو يصنع الصنيع نفسَه مع أخيه رفعت حين يجتمع به ويأوي إليه، فيحدّثه عن هذه الحاشية التي تحيط به، فيصفهم بأنهم ضُعفاء حُمَقَاء بُلَهاء، لا همَّ لهم إلّا أن ينالوا حظًّا من سلطة أو مال أو متاع. وليس هذا الذي يُبدونه من إخلاصٍ ومن وفاء إلّا ادّعاءً مكشوفاً والتفافاً غير محمود العواقب. ثمّ يغريه بهم، ويطلب إليه أن يواجههم وأن لا يخشاهم، ويكونَ لأخيه درعاً واقيةً من شرورهم ومن أخطارهم التي ينوون أنْ يرموه بها في يومٍ لا يعلم أحدٌ متى سيكون. ولم يكن رفعت

غافلاً عن صنيع أخيه الأكبر معه، ومع منْ جعلهم له أعداءً من حاشيته. فكان يمشي له الخَمَرَ مثلَ مشيته، ويردُ على خديعته بخديعة وعلى مكره بمكر. وكذلك لم تبقَ الحيلة منطليةً فترةً طويلةً على بعض أفراد الحاشية، من الذين رَماهم حافظ بأخيه رفعت، فعرفوا كيف يرقصون على الحبلين، وكيف ينشدون النشيدين. وما أكثرَ ما سمعتُ من الطرفين من الأحاديث والقصص التي حلفوا أن حافظ حدّثهم بها وقصّها عليهم مباشرة! ولو كان موضوعنا هو التسلية والمفاكهة والإتحاف، لأتينا على ذكرها أو ذكر بعضها. ولكنْ يُغنينا عن ذلك، أنّها قد تُحرّك في النفوس من الحزن والنفرة أكثرَ ممّا تحرّك فيها من الهزء والإمتاع. ولكنْ ماذا يصنعون؟ إنّهم بين السكوت وبين السيف المصْلت على رؤوسهم، وآلة الجَلْد المطروحة في كل مكان.

وكان من أهمّ ما رماه به وأخفاه عنه، هو أنّه راح يدفعه إلى القيام بأعمالٍ يوهمه أنّها تردُ عنهما غائلةً من الغوائل الهاجمة أو تبدّد رياحاً قادمةً عليهما لا تبشّر بخيرٍ وراءها، سواءً أكانت هذه الأعمال ملاحقة أشخاصٍ وجماعات، أو كانت إقامة اتّصالات داخل البلاد وخارجها، أو كانت بالاعلان عن نوايا سياسية وخططٍ اقتصادية، تدّخرها السلطة لمستقبل البلاد، أو غيرَ ذلك من الأعمال. وبعد أن يطمئنَّ إلى أن أخاه رفعت قد أقدم على العمل المرجوّ وأصاب الغرض المقصود، كان لا يتأخّر عن شجب ما أقدم عليه أمام الناس، ويُظهر لهم امتعاضه ممّا حَدَث ويُعلن عن حزنه وأسفه. ثم يَعدهم بأن يهتمّ بالموضوع بنفسه ويتابعه بحرصٍ، لا يتركُه حتى يعيدَ الحقّ إلى نصابه، ويرفعَ الظلم عن المظلوم، ويردّ كيد المعتدي إلى نحره.

ونحن لا نعني هنا أن ندافع عن رفعت وأنْ نقول إنَّ ما فعله

كلّه كان بوحي من اخيه وإغراء منه ، وإنّه لم يكن له من دور في أعماله التي اتى على القيام بها ، خيرِها وشرِّها ، إلّا دورُ المنفّذ المطيع ، كلّا ! فتلك أمرٌ لا نرضى به ، وليس في وسعنا أن نقبله ، ولعلّه لا يوجد هنالك إنسان آخرُ يرضى به أو يقبله . ولكنْ عنينا أن نقول ، إنَّ كثيراً من الأعمالِ التي نُسبتْ إلى رفعت والتي أساءتْ إلى سمعته وقدّمته تقديماً مشوَّهاً إلى الناس ، كان بعضها مُتَزَيَّداً فيه ، وبعضها مصنوعاً او مكذوباً عليه ، وبعضها الآخر لا يستطيع اخوه أن يُبرّىء نفسه من الاشتراك به . اذا لم نقل من الاضطلاع به كلّه . صحيح انّ رفعت ، بعد وقائع شباط عام خمسةٍ وستين وتسعمائة والف ، اخذ صيتُه بالإرهاب والعنف والميل إلى البطش يبزغ ويظهر . وبعد المجابهات مع عبد الكريم الجندي وأعضاء القيادة السابقة ، اخذ يتمدّد ويتّسع حتى نزل في كل مكانٍ من البلاد . ولكنّ هذا شيء تقتضيه الخصومة السياسية التي لا يُرضينا ولا يُعجبنا أن تأتي على هذه الشاكلة ، وإنّ الميل إلى الإجرام الذي نعتوه به والبسوه إيّاه هو شيءٌ آخر ، ربّما كانوا هم اليقَ بحمله والانتساب إليه .

وإن كَبُرَ على التصديق والاقناع انْ يُقال ، إنّ حافظ الأسد كان يَكيد لأخيه رفعت عن طريق تشويه سمعته وإغرائه بأعمالٍ لا تجرّ عليه إلّا صيتاً قبيحاً ، وكان قولاً اقربَ إلى الوهم والزعم منه إلى الرشد والصواب . فإنّنا لا مناصَ لنا من ان نذكر من الأحداث والوقائع ما لا يترك مجالاً لتردّد شاكٌ ولا لريبة مرتاب . فهذه مواقفه المتناقضة من سرايا الدفاع التي كان يقودها أخوه رفعت ، وأقواله غير المتجانسة والمتقاربة فيها ، تكفي لمن يريد أن يصدّق ويقتنع . فقد كان لا يفتأ يتّخذ من النجوى سبيلاً للطعن بهذه الوحدة العسكرية امام المقرّبين من بطانته والأخلّاء والأوِدّاء من حاشيته ،

فيقول لهم ، إذا هدأت العتمة وخلا الرقيب : هذه الوحدة هي ظاهرةٌ مَرَضيّة في جيشنا وفي بلادنا ، ومرضها هو قائدها ، ونحن ننتظر بفارغ الصبر ذلك الوقت الذي يسمح لنا باستئصال هذا المرض فتشفى بلادنا وتستريح . وكان لا ينقطع في حديثه عن تسفيه ما تقوم به من أعمالٍ وما يروونه عن عناصرها ، جنوداً وضبّاطاً ، من تصرّفات حمقاءَ وشائنة ، ولا يقصّر بالاستنكار والتهديد بالويل والثبور للنهاية التي تنتظرهم في الوقت الموعود . ولا يغفل أن يوصي من يسمعه من هذه الحاشية بتسريب كلامه وآرائه عن هذه الوحدة وعن قائدها إلى من يشاء من المسؤولين في جهاز الحزب وجهاز الدولة ، وفي القيادات العسكرية والتنظيمات الحزبية . ولا تسألْني من هم الذين سمعوا كلامه من هذه الحاشية ، فقد صغُروا وهانوا حتى عاد صغيراً هيّناً من يذكرهم وصغيراً هيّناً من يمسع بهم . أمّا حين يخلو بأخيه ويأوي إليه ، فإنّه يضحك له حتى تبدو نواجذه فرحاً وسروراً بهذه الجدارة والقوة اللتين تتمتّع بهما وحدته وبهذا الحزم والنظام اللذين هما شعارٌ لها ولقائدها . ويحدّثه بأنّ ما يسمعه من أخبارها هو باعث على الاعتزاز والفخر وعلى الاطمئنان والأمان لحاضر الأيام ومستقبلها . ويحدّثه ولا يخفي عليه ، بأنّ هذه الوحدة هي السياج القويّ الذي يقف في وجه هجمات الأعداء ، وهي الدِرع الواقية التي تَخزى عليها ضربات المعتدين ، وترتدُّ إلى صدر ضاربيها فتنحرهم ، ولا يمنعه رضاه وسروره من دور وحدته وأهمية شأنها ، من أن يلفت نظر أخيه إلى استدراك نواقصَ موجودة وإلى مراقبة ممارساتٍ ممنوعة ، وأن يوجّه بعض الانتقادات التي لا تنبع إلّا من الرحمة والشفقة ، ولا يُراد بها إلّا دفعُ غفلةٍ وتلافي سهوٍ أو نسيان . ثم يميل فيفضي إليه بأسرار الحاشية ، ويحرّضه عليهم ويُغريه بهم ، ويقول له : إنّ جسارة بعضهم ليست

بدون معنى ، وانَّ معناها هو التطلّعُ إلى ما في أيدينا ، وأنَّه لا يجوز أن تخرج آراؤهم من افواههم قبل أن تخرج أرواحهم من أبدانهم.
لكنَّ رفعت كان على درجةٍ من الوعي والحضور بحيث لا تفوته المرامي البعيدة التي يرمي إليها أخوه في أكثر أحيان. وكيف لا يكون كذلك، ونفوذه في الحاشية واستقطابُه عواطفَها وآراءها لا يقلّ عن نفوذ أخيه الأكبر واستقطابِه. لذلك كان يبادل أخاه مكراً بمكر وخديعةً بخديعة.

وليس في بلادنا من يجهل، أنّ السلطة أغمضتْ عينيها في السنوات الأولى من عقد السبعين عن صنيع مسؤولين وضبّاط وتجّار في استجلاب سيارات وإحضارها بالطرق الحرّة التي تحلو لهم، لأمرٍ ظلّ مخفيًا، لم تُظهره السلطة ولم تُعلن عنه إلّا عندما ضاقت البلاد، مُدنُها وطرقُها بالسيارات، وانفجرَتِ الفوضى والحوادث والسرقات والتهريب. وكانت الفرصة طيبة ليتقدّم حافظ الأسد ويقول: هذا هو صنيع رفعت، وهو المسؤول عن فتح الباب وإدخال الرياح، ولولاه لما عَرَفَ الناس طريقاً إلى هذه الأعمال، ولما بُلينا بهذه الظواهر المُرعبة الباطلة. ثم أصدر أوامره باصطناع التدابير الحاسمة الفعّالة للوقوف أمام سريان هذه الظواهر وتمدّدها. لكنّ سريانها أمعن في الاكتتام والخفاء حتى صار هو السنّةَ المعمولَ بها، والقانونَ الذي لا قانونَ غيرَه، وبقيَ اتّهامه لأخيه رفعت دعوى لم يقم لها شاهد، ولم يقع من أحدٍ موقع القبول والتصديق. ولماذا قبولُ هذا الاتّهام وتصديقه، ولم يكن لرفعت من يد في خلقِ هذه الظواهر ونشرها وتسييرها إلّا الجزء الأقلّ بالمقارنة مع حاشية أخيه الأكبر وجنوده وأجهزة الأمن المختلفة عنده، وجهاز حمايته؟

ولعلّ من أقبح أنواع السعاية والتشويه وقعاً على السمع،

ومن آلَمِها وأشدِّها إثارةً للأسى في النفس، أن ينقل الأخ ما يجري في بيت أخيه للقرباء والغرباء. أقول ذلك وأنا أستحضر في ذهني ما كان قد رواه عددٌ من الحاشية التي تحيط بحافظ الأسد، ومن المقرّبين الذين يأنس بهم في خلواته، فقد كان يُسِرّ إليهم بما يحدث بين أخيه رفعت وبين نسائه من خصومات أو عنف، ممّا لا يخلو من بيت من البيوت في الدنيا كلّها. ولا يتأخّر أن يقصّ عليهم مظاهر البذخ والإسراف والتبذير في الإنفاق على اللباس والحلي والهدايا الثمينة والمفاجآت الفاخرة. ويُظهر غمّه وحزنه من مثل هذه الأعمال التي راح يصِفها بأنّها سلوكٌ أرعنُ وتصرُّفٌ أهوجُ وبَطَرٌ بغيضٌ ممقوت. ويسمّيها أجراساً ترنُّ فتلفتُ أسماع الناس وانظارَهم إلى رؤية هذه البلايا والنكبات التي لم يعد عنده صبرٌ ولا طاقةٌ على تحمّلها. وكان يُفاتح مستمعيه برغبته في أنْ يُشيعوا هذه الأخبار بلباقةٍ وحسن إخراج عن أخيه رفعت. ولا يُخفي عنهم أنّ صنيعَهم هذا، يدخل في باب التمهيد لخطة قادمة تستهدف إزاحة أخيه والاستراحةَ منه. وكنت أستمع إليهم وهم يَرْوُون هذه الأحاديث التي أخجل من الدخول في تفاصيلها، وأقول لنفسي، ما ظننتُ أنني سأحرَم يوماً على لساني أنْ ينزلق ويسمّيَه رئيساً. وكيف لا يخطر على البال قولُ أبي الطيب، وهو يوزّع العزائم والعظائم على الصغار من الناس وعلى الكبار؟ وهو ما لا يجهله أحد.

والكلام في هذا الباب طويل، لا يسرّنا أنْ نسترسل به، ولا أنْ نأخذ منه أكثر ممّا أخذنا. ولعلّنا صرنا نرى فيه بسهولة ما كنّا قد وعدنا برؤيته، أوانَ الحديث على سيرة رفعت، وما كنّا قد قلنا، منْ أنّ هذه السيرة هي مصطنعة في أكثرها، مضخّمة في بعض جوانبها. وصِرنا نستطيع أن نقول الآن بشيء كثير من الاطمئنان،

إنَّ أخاه الأكبر، كان وراء القسم الأعظم من هذه السيرة، إمّا عن طريق التأليف وبثّ الشائعات أحياناً، وإمّا عن طريق الإغراء والتحريض أحياناً أخرى، مثلما تُنْصب المصائدُ لإيقاع الطيور والطرائد فيها. ومُحال على هذه السيرة التي سيّروها في الآفاق عن رفعت الأسد وملأوا بها أذهان البشر داخل البلاد وخارجها أن تكون من صنع شخص واحدٍ بمفرده. فإمّا أنَّ جُنَّ سليمان وعفاريتَه كلَّهم قد اشتركوا معه، يُظاهرهم سَحَرةُ فرعون، للقيام بأعمال هذه السيرة، وإمّا أنَّ أيادي النسج والتأليف انطلقَتْ في الظلام تَحيك خيوطَها حتى جاءت على هذه الشاكلة التي أظهروها بها.

وليس لنا إلّا أنْ نقول لهؤلاء الذين يصدّقون هذه السيرة كلَّ التصديق وللذين يكذّبونها كلّ التكذيب: لا تغالوا ولا تذهبوا بعيداً، فليس رفعت الأسد وحدَه هو المسؤولَ عن هذه السيرة. سواءٌ أصدقَتْ أخبارها أم لم تصدق، فكل فردٍ من بطانة أخيه الأكبر له خيط في هذا النسيج، وله قسطٌ من المسؤولية فيما يُروى منها، فوق ما يتمتّع به من سيرةٍ قبيحة، تفوح منها روائح الآثام والأقذار على بعد سنة بل إننا نقول ونطمئنّ إلى ما نقول، ونطمئنّ أيضاً إلى تأييد حاضر التاريخ ومستقبله لما نقول، إنَّ أخاه الأكبر ينوء بالجزء الأعظم من المسؤوليّة في صنع ما نُسب إلى أخيه رفعت من أقوال ومن أفعال ومن سلوك ومن تصرّف، صحَّ ذلك أم لم يصحَّ وثبتَ أو لم يثبت. وإذا هو حاول أن يدفع عن نفسه هذه المسؤولية ويعتذرَ بأسباب وتعلّات، فإنّنا نذكّره بما يقوله لأخيه ساعة الغضب والعتاب وأوانَ التمنّن، وما سمعه منه الأفراد كلّهم في محيط العائلة الكبيرة، أنا ربّيتك، أنا سوّيتك، أنا أوصلتك إلى السلطة وإلى الجاه ومركز القوّة، وإلى غير ذلك من النشيد المنشود. وعلى من يقول هذا القول، أن يتحمّل مسؤوليّة ما يصدر عنه فيما بعد وما يتولّد

منه، من آثارٍ ونتائج.

ومهما كانت أعذاره في التخلُّص والفرار من هذه المسؤوليّة قويةً ومنمّقةً بارزة، فإنَّه لن يتخلّص ولن يُحسنَ الفرار. وكيف يقوى على ذلك، وأخوه رفعت إلى جانبه منذ نيّف ربع قرنٍ من الزمن، يده بيده وجنبه إلى جنبه في العسر واليسر؟ حتى إنّه في بعده عنه، لا يستطيع إلّا أن يتحمّل ظلّاً كبيراً من المسؤولية. وليس من شكّ في أنّ المسؤولية التي يقاسم أخاه رفعت حملها، وهي هيّنةٌ سهلة بجنب تلك المسؤولية الكبيرة التي ينوء بها منذ أن وضع قدمه في الخطوة الأولى على درب السلطة إلى آخر نفسٍ في حياته، وإلى ما بعدَه بأمدٍ طويل من الزمن لا يعلم مداه إلّا الله. فمسؤولية رجل السلطة أو الفرد المتسلّط، لا تنتهي بانتهاء حياته عند موته بل تستمرُّ ما بعده، وتدوم ما دامت آثار أعماله التي عملها وسُننِه التي سنّها وأجراها، وما بقيتْ نتائجها قائمة. وقد دَرَجَ الناس أن يسمّوا العهدَ أو العصر أو الزمن باسم الرجل الذي يكون فيه سلطاناً ومالكاً لمقاليد الأمور. فيقولون مثلاً: جرى في عهد معاويةَ كذا، وصار في عصر يزيد كذا، ووقع في عصر السفّاح كذا، وسيقول الناس في المستقبل، كان في عهد حافظ الأسد كذا وكذا، من الوقائع والأحداث، وسيكتب عنه الباحثون والمؤرخون، وهم يسمّون مدّة سلطته عصراً خاصًّا به، فيعلّقون في عُنقِه كلَّ ما جرى، وكلَّ صغيرٍ وكبيرٍ ممّا جدَّ وحَدَثَ، كما صَنَعَ من قبلهم الباحثون والمؤرّخون أيضاً مع من تقدّمه من رجال السلطة والحكم.

ولست أشكُّ أنّنا استطعنا بهذا القدر اليسير الذي بسطناه من الحديث عن العلل والأسباب، ما انكشف وما استتر، أنْ نعرّف هذه الفتنة تعريفاً أقربَ إلى الواقع والدقة منه إلى الوهم والاحتمال والتصّور، وأن نصل إلى الاقتناع، بأنّها لم تكُنْ مفاجأة على

الآخرين وعلى مَنْ حولَهما مِنَ القرباء والمقرَّبين ، ولم تكن حَدَثاً واحداً . وإنّما كانت احداثاً متتابعة ، يأخذ بعضها برقاب بعض ويقود احدها إلى الآخر ، حتى انفجر الحَدَث الأكبر واستقرَّ على هذه الهيئة التي هو عليها . مثلُها في ذلك مثلُ البركان الذي يُعلن عن نفسه ويُنذر مَنْ حولَه بالدخان ، ثمّ باللهيب والنار ، ثم بتطاير الشرَر وقذف ما فيه ، ثمّ بالانفجار والاستقرار . واستطعنا أنْ نوضح ، أنَّ رفعت الأسد ، عندما قام بحركته ، وحاول بسط نفوذه ، كان يشعر بأنّه لم يكُنْ متعدّياً متجاوزاً للحدود المعقولة ، وإنّما يطلب حقًّا له لا ينبغي أن يفوته ، ويجني موسماً طالما زرعه وسقته يداه وتعهّده بالرعايةِ والصيانة . وكان يُحِسّ بأنّ البلاد ، ينبغي أن تتحرّك وأن تتطلّع إلى التغيير ، بدلاً من أنْ تظلّ قابعةً في جمودها وعفنها ، تنتظر الوعود ، ولا وعد لها إلّا بالأخطار . ثمّ استطعنا أنْ نُبيّن ، بأنَّ حافظ الأسد لم يكن غافلاً عن كلّ ما كان يجري حوله ، وما يأتي به أخوه رفعت من تحرّكات ومن تهيئةٍ واستعداد . وكان يحاول بكثيرٍ من الأناة والهدوء أنْ يرُدَّ على تحرّكاته ، وان يُطوّق محاولاته واستعداداته بمناورات لم تخل من إتقانٍ وذكاء . واصبح الآن من حقّنا ان نتوغّل في الحديث أكثر ، وأن نجيب على هذا السؤال : لقد أحبَّ حافظ الأسد أن يُسَمّي حركة اخيه رفعت ضدّه مؤامرةً ، فما هي هذه المؤامرة ؟ وكيف كانت ؟

قال وقد شالت الكبرياء برأسه من الوجاهة والاعتزاز أو من الخمر الذي أصبح دماً له مكان دمه ، وحياةً أخرى لا يعرف الصحو إلّا بها ، ذلك الصاحبُ العزيزُ الذي كنت أزوره : وانا اكاد اشعر بلذّة الرقدة الأولى ، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، رنَّ جرس الهاتف ، فحدّثني قلبي أنّه الفريق حافظ ، وأنَّ عنده ولا بدَّ خبراً أسودَ ومفاجأةً غيرَ مُرضية ولا سارّة ، وكان الأمر كما توقّعتُ ،

وكانت أوّل كلمة قالها لي بصوت متهدّج اختلط القلق فيه بالخوف :
قد تراني وقد لا تراني بعد الليلة ، وقد نلتقي وقد لا نلتقي فإن قَضي الأمرُ ، وفاز ، وكان له ما يُريد ، فبالله عليك احفظ أنت ورفاقك عهدي ، وبلّغهم عن رغبتي في المقارعة والقتال حتى آخر نفسٍ من أنفاسكم ، ولا تتركوا البلاد تهوي إلى الدمار والخراب أمام أعينكم ، ولا تتركوا الشعبَ يتفانى لأغراضٍ رخيصة . فالأمرُ كبيرٌ جداً ، وهو اكبر من أن يتصوّره العقل . إنّها المؤامرة التي يدبّرها من زمان ، ويسعى لها طول حياته ، ويُعِدّ لها مع ألأُمِ الناس واخبثِهم .. إنّها مؤامرة رفعت .

وما إنْ سمعتُ الكلماتِ الأولى حتى انتاب جسمي الرجفان ، وسيطرَتِ الدهشةُ على عقلي ، ونفَرتِ الدموع من عينيّ ، وصرت أقول لنفسي : هل هو حقاً حافظ الأسد هذا الذي يُكلّمني أم إنّه شخصٌ آخر أجاد تقليد صوته ولهجته لكي يُفزعني ويتسلّى عليّ ؟ ولكنْ تلكَ ظنونٌ مرجفةٌ وخيالاتٌ طائرة ، فالذي معي على الهاتف هو حافظ الأسد نفسُه وشعرتُ وكأنّني في دنيا أخرى غيرِ هذه الدنيا ، عندما رحت استمع إلى صوته الحزين وإلى كلامه الحزين ، وعندما راح يتابع ويقول : لقد ودّعني قبل قليل موفَدُه الذي أرسله إليَّ ، وهو فلان ، والذي طَلبَ إليَّ بكثيرٍ من الضراعة والرجاء ، أن أنزل عند رغبة رفعت ، وأنْ أسلّمه مفاتيح البلاد ومقاليد الشعب ، وأنْ أغادر مع أسرتي ومع من اختار من الحُماة والمرافقين إلى سويسرا أو إلى أيّ مكانٍ أختاره . وإنْ لم أتّخذ قراري هذه الليلة بالاستجابة لطلبه والخضوع لرغبته ، فسيستعمل اللغة الأخرى وهي الهجوم المفاجىء الصاعق والنار والدمار ، وأنا الآن لا آمن نفسي من هجومه وغدره في الدقائق القليلة القادمة .

وبعد أن تنهّد الصاحب العزيز تنهّداً عميقاً ، عاد إلى الكلام

وقال : ولست أدري كيف نهضتُ من على الكرسي وارتديْتُ ملابسي ، وكيف صرخت بالحجّاب ، انْ يهيّئوا لي السيارة وأن ينادوا قادة الألوية ، للاجتماع بهم ولوضعِ ما عندي من الجيش في حالة التأهب والاستعداد . ولست ادري كيف تماسكتُ على نفسي في الاجتماع ، وكيف طرحت لهم المسألة التي لأجلها كان هذا الاجتماع الخطير ؟ وقلت لهم : هناك احتمال بأنَّ اخطاراً ستنفذ إلينا من أكثر من جهة ، وأنَّ رفعت هو واحد منها ، فكونوا من اليقظة في قلبها ومن التنبُّه في رأسه . واتّفقنا على التحرك في خطط مرسومة ، ثم غادرتُهم ومضَيْت للشخوص أمام الفريق ، حيث يقبع وحيث يستقبل عُمَده وأركانه الذين هُرِعوا إليه وخفّوا ليطّلعوا منه على حقيقة ما يجري ، وليُسوّوا معه خطط التحرّك في المواجهة والدفاع ، وفي التطويق والالتفاف ، وكيف يكون ركوب الرؤوس إذا ركب الخصم المقابل رأسه ، ولم يقبل المحاورة بوجهٍ من الوجوه ولا المفاوضة . وقد استمعنا إلى كلّ شيء من الفريق وعرفنا حقيقة ما يجري واتّفقنا على الأصول التي لا ينبغي ان نَحيدَ عنها في جرْينا وحركتنا . وكان منها انْ عزّزنا قوّاتنا في مدينة دمشق بأسلوب ماكر ، والتففْنا حول قوّاته المنشورة المتهيّئة خارج دمشق وفي امكنة اخرى حولها .

وكان ممّا جعل الصاحبَ العزيز يُفيض في الحديث اكثر انَّه رأى الذين هم حوله مشدودين إليه بآذانهم وأعينهم ، فأطلق لنفسه العنان ودخل في تفصيلات وتفريعات ، لم تعد مخفيّةً على أحدٍ عندنا ، ممّن يهتمّ بهذه المسائل وممّن لا يهتمّ بها . ولم أفوّتْ على نفسي واحدة من هذه الفرص الكثيرة التي راحت تحرّض على التساؤل والاستفسار ، فسألته وقلت : ولكن ، ما هو برأيك الدافع الذي دفع رفعت للتفكير بهذه المؤامرة والإقدام عليها ؟ فأجاب : ليس

هناك من دافع إلّا جنونه وطيشه وحمقه وبَطرُه، ممّا هو فيه من الجاه والعظمة والثروة. وقد ظنّ نفسَه أنّه شيء، وما هو بشيء لولا أخوه حافظ، وليس هو وحدَه في هذه الصفة، بل نحن كلّنا مثلُه، لا نساوي شيئاً، ولا وزنَ لنا ولا قيمةَ لولا الفريق. ثم سألتُه وقلت: أصبح من المعروف مَنْ همُ الذين وقفوا إلى جانبه داخل البلاد، فمن همُ الذين وقفوا إلى جانبه من القوى والدول؟ فأجاب: وهل هناك غير اميركا من قوّة ومن دولةٍ عدوّةٍ لنا، وغير حلفائها معها؟ قلت له: بلغَنا أنّ السعودية شاركت إلى جانب اميركا في تأليف هذه المؤامرة وإخراجها، فهل ذلك امرٌ مصدَّق مقبول؟ فقال: بلغَنا مثلما بلغكم، ولكن لا نعلم مدى صحّة ذلك ولا يهمّنا أن نعلم، وكلّ ما يهمّنا أن نعلم هو سلامة البلاد وسلامة حافظ الأسد. قلت له: ولكن هل نستطيع أن نعود بالذاكرة إلى الحركة التي قام بها أخوه الفريق وأطاح على إثرها بالقيادة السابقة، ونتذكَّرَ أنّ شائعات سَرَتْ في ذلك الزمن، بل إنَّ كتابات كتّاب وتحليلات محلّلين طُبِعتْ ونُشرتْ، وكلّها قالت: إنَّ اميركا والسعودية اشتركتا في تأليف حركته وإخراجها. فلعلَّ هذه الشائعاتِ اليوم مثلُ الشائعات بالأمس، أليس كذلك؟ فمدَّ يده إلى قطعة دجاج كبيرة ووضعها في صحني، وقال لي: الآن كلْ واسكت. وقال للآخرين: بادروا إلى الطعام قبل أنْ يبرد. قلت: وهل هنالك جوابٌ أبلغُ من هذا الجواب؟ لقد قلتَ فأبنت ونطقتَ فأفصحتَ وما تركتَ لغيرك مِقْولاً. قَطَعَتْ جَهيزةُ قولَ كلِّ خطيبٍ.

وحدّثني غيرُه، واستحي ان اذكر اسمه بعدما بان عن صَغارٍ وقماءة، ولا يسعُني إلّا ان اعتذر إذا أشرتُ إلى أنَّه ذاك الذي عُهد إليه حراسةُ القوّات الخاصة، قال: كنت أذهب مع الذاهبين إلى عيادة الفريق، نطمئنّ عليه ونتابع الأنباء من حوله، ونشترك في حَمْل

همومٍ حاضرة، ونستعدّ لحملِ همومٍ قادمة. وكنا نلتقي عند سريره أخاه رفعت الذي كان يُبدي حزناً عميقاً عليه ويخفي خطراً عميقاً عليه. والذي راح يمزج بين حزنه وخطره مزجاً بارعاً يَصعُبُ الفصل بينهما وتمييزُ أحدهما عن الآخر. ولعلّه راح يَجِدُ في البقاء مدّةً طويلة عند رأس أخيه سانحةً طيبةً لا يجب أن تُفوَّت، ليرى فيها أربابَ السلطة ووجهاءَ الحزب والدولة، وهم في حالة القلق والذعر على مصير أخيه، وعلى مصير البلاد والدولة، إذا هو ارتحل عنهم وفارقهم، فيسهل عليه أنْ يُروِّض الشامس البعيد منهم ويستميلَه ويصطادَه، ويزيدَ من ثقة الصاحب القريب ويوجّهَه ويَرميَه على الأهداف.

وكنّا إذا التقينا فُرادى أو جماعات، يحدّثنا ويقول بصوتٍ لا يخلو من توجّع، إنّ أخي لم يعد لنا في حياته أمل، وهو راحلٌ عنّا بين عشيّةٍ أو ضُحاها. وحتى إنْ سلمَ هذه المرّة ونجا من الموت، فإنّه لن يعود قادراً على القيام بأعمال الدولة وممارسة جهوده ونشاطاته المعهودة بل سيظلّ مشلول الطاقات والقدرات. أقول لكم ذلك، وأنا أدري أنّ مرضه شرسٌ عُضال، أصيبَ به منذ مدةٍ طويلة، وأنّه عانى منه معاناةً قاسية خفِيَتْ على الجميع إلّا عليَّ وعلى بعض أفراد الأسرة واذا رحنا ننتظر بحزنٍ عميق ما سيؤول إليه مصيره، فلا يجوز أن نسهوَ عن مصيرنا ومصير الشعب والبلاد. فالأعداء يتربّصون في الداخل ويترصّدون في الخارج غفلةً منّا أو إهمالاً أو تراضياً لينقضّوا علينا، فلماذا لا نجعل من لقاءاتنا هنا فرصةً للتشاور فيمن سيخلفه ويسدّ الفراغ الذي سيتركه؟ ولماذا لا نشكّل من الآن حكومةً انتقالية تتولّى بالتعاون مع القيادة الحاضرة تسيير الأمور، ريثما تتمّ مراسمُ تعيين الخلف؟ ولا أعتقد أنّكم تؤثرون عليَّ رجلاً آخر، فأنا مرشّحٌ لوراثته واستلام مكانه منذ وقتٍ طويل،

وانتم تعلمون ذلك، وقد كنتم تُسِرّون به إليَّ قبل اليوم. ولا تحاذرون أن تذيعوه بين الأصحاب والمقرّبين. وها هي ساعته قد حانتِ الآن، فكونوا معي أكنْ معكم على طريقٍ واضحةٍ إلى أهداف واضحة. ولعلّه يُرضيكم ويُدخل إلى قلوبكم البهجة والسرور أنْ أقول لكم، إنني اجتمعت إلى السفير الأميركي لمدّةٍ طويلة أكثرَ من مرّة، وإنّنا اتّفقنا معاً على رسم الخطة التي سنمضي عليها، ولا يوجد الآن لدينا سببٌ للتراخي أو للتأخّر عن السير والتقدّم. وقد نقل السفير إليَّ التزام أميركا معنا ودعمَها، وأطلعني على أنّها تتابع وضعنا وتحرّكنا خطوةً خطوة في الداخل وتُعيره اهتماماً بالغاً، وأنّ اسطولها المرابط بالقرب من شواطئنا يراقب جوّنا وبحرنا، ليردَّ عن بلادنا أيَّ هجوم قد يأتي منهما أو أيّ عُدوانٍ خارجي قد ينفذ عبرهما. وانا وعدته بدوري أن نتحرّك في هذه الأيّام وفي أقرب وقتٍ تجدونه مناسباً، ولعلَّ في اليوم أو في الغد خيرَ ميعاد لتحرّكنا والبدء بتسوية الأمور، والانتقال إلى وضع جديد، يبدو لي أنّه سيكون أكثر إشراقاً من الوضع القديم في الأعوام الماضية وأكثر خصوبةً وخيراً للبلاد.

واستمرّ حارس القُوّاتِ يقول: وكان رفعت إذا وَجَدَ منّا تباطؤاً في الردّ عليه، لغلبة الأسى والحزن على نفوسنا، ولَمَحَ في أعيننا سكوتاً وتراخياً، من الخوف والقلق لمصير أخيه المجهول ومصير البلاد المجهول، يكرّر علينا الحديث، ويُلِحُّ في طلب الردّ، ويتعجّل الموافقة، ويسعى سعياً حثيثاً لإشاعة الثقة والطمأنينة في نفوسنا على صدقِ كلامه ونجاح جهوده وإحكام خطته. وكان لا يُقصّر في توزيع المناصب علينا، وهو يطلعنا على خططه ويحدّثنا عن سير ما ينوي القيام به من أعمال. وكان يسخو سخاءً فاحشاً في اعطاء الثروات والغنى، لهؤلاء الذين يرغبون ان يكونوا عوناً له ومدداً.

وكان العَجَبُ يأخذ منّا كلّ مأخذ، وآذاننا تسمع حديث هذا الرجل الذي صكّنا بأقواله وآراءه وخططه، وأعيُننا تنظر إلى أخيه الذي تمدّد في سريره وهو بين لفحات الموت ونفحات الحياة. صحيح أنّه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأخيه، إلّا مثلما نفعل نحن من الدعاء والأمل، ولكنْ ما اقبحَ هذا التآمرَ الصارخ في وقتٍ يتعطّل فيه التفكير عن العمل إلّا من تحمُّلِ الهمّ، وتتوقّف فيه الحواسّ إلّا من الإحساس بعِظَم الفاجعة التي وقعنا فيها، وحجم المصيبة التي آلتْ إليها البلاد!

ولم يكن هنالك من يردُّ من الجلّاس المستمعين على كلام الحارس وهو يقذف به ليملأ النفوس حقداً وضغينةً على رفعت، ويستميلَ القلوبَ إلى أخيه حافظ، ما سوى أنّني التفتُّ إليه وقلت له: ربّما وجدتَ نفسك أنّك على صواب، وقد لا يكون في تصرُّف رفعت هذا التصرُّفِ الذي روَيْتَه لنا ما يرضي، لكنّه لم يتعدَّ أن عمِلَ بالسنّة التي عمل بها الآخرون، ولم يصنع إلّا ما صنعه من تقدّمه. فهذا امروُ القيس، عندما طرقَ سمعَه خبرُ مقتل أبيه، كان الكأس في يده يشرب ويلهو مع رفاقِ عبثه ولهْوِه، لم يزد على أن قال: اليوم خمر وغداً أمر. وهؤلاء الصحابة، إثْرَ ارتحال الرسول الأعظم وجسدُه الطاهر لم يُوارَ الثرى بعد، خفَّ اكثرُهم إلى سقيفة بني ساعدة وتشاغلوا عن الاشتراك بتجهيزه وحضور دفنه، بانتخاب من سيكون خليفةً على المسلمين وانتهى الاجتماع إلى مبايعة أبي بكر الصديق وانتخابه الخليفةَ الأول. وعن هذه البَيْعة قال الفاروق عمر قولته المشهورة التي تَرويها كتب التاريخ وكتبُ الأدب كلّها: كانت بَيْعة أبي بكر فلتةٌ وَقَى الله المسلمين شرَّها، ومن عاد إلى مثلها فاقتلوه، أو قال: فاضربوا عنقه. وقد أصبح الرأي الذي عليه المسلمون، أنّه لولا هذه البيعة لوقعت الفتنة الكبرى بين المسلمين

الاوائل واقتتلوا قتالاً عظيماً، لم يبقَ للإسلام بعده قائمةٌ يقوم عليها. ولعلّي لم اقرأ سيرةً لمَلك او اميرٍ او والٍ، إلّا ورايت انّ خَلَفَه بعد وفاته، كان يجلس في هذه الدار ليستقبل المعزّين بوفاة ابيه او اخيه، ثمّ ينتقل إلى تلك الدار ليستقبل المهنّئين باستلامه السدّة وتقليده المقاليد. وهذا اخوه حافظ حسب للأمر حسابَه، فعيّن ستةً من العيون وفوّض إليهم الأمر اثناء غيابه إلى ان يشفى او ان يموت.

لكنّ الحارس لم يزد على انْ قابل كلامي بابتسامةٍ مجاملة ثم استأنف الحديث وقال: تصدّقون، انَّ رفعت، بعدما رأى اخاه الفريق تجاوز حدَّ الخطورة، وتمايَلَ نحو الشفاء والسلامة، ازداد حزنُه وقلقُه ولم يعدِ السرور يطفح في وجهه. وكان يختار الأوقات التي يعلم انَّ اخاه قد اوى فيها إلى الراحة، فيهتف إليه من داخل البلاد او من خارجها، ليُطَيِّرَ من عينيه النومَ ويُفسدَ عليه راحتَه، وهو يتظاهر انّه يريد ان يطمئنّ عليه. وأثناء الحديث معه كان يبثّه الكلمات التي تُشوّش إحساسه وتزيد في توتر اعصابه، ويُلقي إليه الأخبار التي تسارع في ضربات قلبه. وهو يقصد بعمله هذا ان يُعيد اخاه إلى مرضه، ويحرُكَ عليه أوجاعه الأولى من جديد. وعندما سأله من بيننا سائلٌ عن اطّلاعه على هذه الفتنة وفهمه لها اجاب فقال:

دُعيت صبيحةَ الانفجار للشخوص إلى القيادة على عَجَل، فمضَيْت لا ألوي على شيء، وانا اتوقّع السبب الذي لأجله دُعيت، وهالَني عندما وصلتُ انّني رايتُ امارات القلق والذعر تخفق على الوجوه، وانَّ وضع النفوس يتموّج بين الهمّ والاهتمام وبين التأوّل والحذر وشدّة اليقظة. وما إنْ أخذت مكاني بينهم حتى اطلعوني على آخر ما جرى في مسلسل هذه الفتنة التي لم تغِب عنّي خطوة من

خطواتها ولا مرحلة من مراحلها . وقالوا إنَّ رفعت أرسل لأخيه نذيراً ينذره بالاستسلام ومغادرة البلاد إلى المكان الذي يختاره ويرتضيه في الشرق أو في الغرب . والتفتَ إليَّ أحدُهم وهو فلان ، وقال لي : نحن دعوناك لنبلّغك بأنَّ رفعت يزعم ، بأنك متواطىء معه في عمله وشريكٌ له في حركته ، فماذا تقول ؟ فقلت : هذا زَعمٌ لا نصيب له من الصحّة ، ولا أساسَ له في الواقع ، وهو تهمةٌ أرفضها وأردُّها عليه . قال : إذاً ! فاهتِف إليه أمامنا وتحدّث معه . وأسمعنا تكذيبك للخبر . وعندما اتّصلتُ به ردَّد على مسامعي الكلام ، وقال : ارجو أنَّك لا تزال عند وعودك التي قطعتَها على نفسك بمناصرتي والوقوف إلى جانبي في هذه الساعة التي طال انتظارنا لها جميعنا . فسألته : ومتى كان ذلك ؟ وفي أي مكان ؟ وكيف تجرؤ أن تخاطبني بهذا الزعم الباطل وتنسبَه إليّ ؟ فأجابني بحدّة وغضب ، وقال : انسيت يا ابن الكذا والكذا كلامك ووعودك وأيْمانَك المغلظة بدعمي وتأييدي عند القيام لتخليص البلاد من العفونة التي تسيطر عليها ؟ انسيت انّك كنت كثيراً ما تردّد القول أمامي على مسمعٍ من الناس ، بأنّني على حقٍ في تفكيري وخطّتي ، وأنّه لا يجوز التخلّف عن نُصرتي والقيامِ معي ؟ والآن تظهر على أصلك وطبعك فتخونُني وتنقلبُ عليَّ ؟ فأجبته بأنّك أنتَ ابنُ الكذا والكذا ، وأنّ ما تقوله هو زعمٌ باطل ووهمٌ لا حقيقة له . فأنا لا أعترف بقائدٍ في هذه البلاد إلّا لحافظ الأسد ، فهو وليُّ نعمتي ومؤثّل أصلي وفصلي ، وهو الذي أعطاني ما أنا فيه من القوّة والوجاهة . وأنا جنديٌّ عنده ، وخادمُه ، وعبدٌ بين يديه ، أطيعه ما دمتُ حيًا ولا أُعصيه ، ولا أنشقُّ عليه ، ثم أنهيتُ الحديث معه ، ونظرت إلى من حولي ، فقرأت في وجوههم علائم الراحة والاطمئنان ، لما دار بيني وبينه من مراشقة ومن أخذٍ وردّ .

ولم يفُتني أن ألتفتَ إلى صاحبي الذي كان بجانبي، بعد أنِ استمعتُ إلى حديثه، وأهمس إليه قائلاً: ماذا حلّ بالرجلِ حتى طلع عنْ هذا الحديث الرائع؟ هل تعتقد أنَّه نوعٌ من هذيان الحمّى، أم أنَّه خالَنا أغبياءَ مثلَ هؤلاء الذين تعوّدوا أن يأوُوا إليه يحدّثُهم؟ فقال صاحبي: وقع تفكيري على تفكيرك، وإنَّ حديثَه لصيد ثمين، سيكون متعتَنا هذه الليلة حين نخلو إلى إنسنا، فلبثْ قليلاً ريثما ينتهي الموضوع ونخرجُ من هنا، وكان أوّلَ ما فاتحني به صاحبي حين خلَوْنا وحين استرجعْنا المواقع الهامّةَ من الحديث الذي سمعناه قولُه: هل تعتقد أنَّه كان صادقاً في حديثه أم كان كاذباً؟ قلت له: لا يهمّنا أمرُه إنْ كان صادقاً أو كاذباً، فأنا أعرف الرجلَ منذ وقت طويل، وأعتقد أنَّه لا يزال يحتفظ تحت أنقاض نفسه ببعض الخبايا الطيّبة. وكثيراً ما استمعت إليه وهو يتحدّث أمام جُلّاسه عن استيائه ممّا يعاني منه شعبنا وبلادنا، مِنِ ازدياد الفوضى وانتشار الفساد وتوسّعِ أسباب الرذائل والأحقاد والكراهية. وكانَ كلمّا همَّ أنْ يُلمّح عن العقبة التي تحول دون الشروع بالإصلاح، وعن العائق الذي يعوق بينَ الشعب وبين اهتدائه إلى التجديد، كان يتراجع لخوفه أن يفقد مكانه، ولخَشيته على نفسه من أنْ يصير إلى ما صار إليه غيرُه من النهاية القبيحة، عندما عرّضوا بحافظ الأسد ولوّحوا بأنَّه هو العقبةُ الكبيرة في طريق التجديد، وهو العائق الأوحد على دربِ التغيير نحو الأحسن والأفضل. فلا يبعد أن يكون قد نَسَجَ له خيوطاً مع رفعت، وفَتَحَ خطوطاً بينه وبينه، من دون أن يُعرِّض عبوديّته لحافظ الأسد لأيّةِ ريبةٍ أو قلقٍ أو اضطراب. إمّا لأنَّه ظنَّ بأنَّ رفعت سيُصيب فوزاً على أخيه في محاولته ويُدخل خصوبةً جديدة على اقتصاد البلاد، ويخلقُ خططاً حيّةً تبعث النشاط والانطلاق في مرافق حياة الشعب وتطلعاته. وإمّا لأنَّه أرادَ أن يؤمِّن له وجاهةً جديدة

في مكان جديد، اذا تمّت الغَلَبة لرفعت وانتصر على أخيه.

ولم نقل ذلك وننتهي إلى هذه النتيجة إلّا بعد أن نظرنا إلى حديثه نظرةً فاحصةً، ورأينا أنّ الرجل كان يَخضع لمراقبة شديدة، لاعتقاد الذين يراقبونه، أنّ عندَه تطلُّعاً إلى أبعدِ من أنفه، أو أنّه يلعبُ على الحبلين، وأنّ الحبلَ الذي هو أشدُّ وأدوَم يكون تمسُّكه به أقوى وأصلب. نعرف ذلك من استدعائهم له، على حدّ روايته، واستدراجه ليستمعوا إليه وهو يخاطب رفعت ويحادثه من وراء الهاتف، ويتعرّفوا على مخارج كلماته كيف ستكون، وما سيرتسم على وجهه من علامات ومن ألوان. ثم ليقطعوا ما بينه وبين رفعت ما قد يكون من علاقات خفيّة غير منظورة ولا مسموعة، وليقتلوا آخر شبحٍ من أملٍ في نفسِ رفعت، يعتقدون أنّه كان يُعلّقه على هذا الرجل أو يربطه به. لا بل استطعنا أن نستخلصَ من هذا الحديث ومن أحاديثَ أخرى رفَدَتْنا من غيره، أنّ رفعت كان قد سكن، بطريقةٍ من الطرق، في نفوس أكثر أعضاء القيادة من الحزب والدولة والجيش، وكان يأخذ منهم أجرةً على سكنهم هذا، انسياقَهم لآرائه ونزولَهم عند رغبته حين يرغب ووقوفَهم إلى جانبه عندما يقف. وأنّه كان قابَ قوسين أو أدنى من النصر، وهو لم ينهزم، بل تراجع لأمرٍ لن يفوتنا أنْ نمرَّ عليه بعد قليل ونذكّرَ به.

ولَشَدُّ ما نرى من السهلِ اليسير علينا أنْ نملأ أوراقاً كثيرةً بالأخبار التي سرت حول هذه الفتنة، وكشفَتْ عن أسرارها وما جرى فيها من حشود ومواجهات وتهديدات ولقاءات سرّيّة وعلنيّة، ومساعٍ للصلح ومساعٍ للحرب، ومن تدخّل القوى الكبرى بوجهٍ صريحٍ أو بوجهٍ خفيّ، وبطريقة مباشرة أو بطريقةٍ غير مباشرة. لكنّ ذلك هو من شغل الصحفي الذي اتّخذ من تسقُّطِ الأخبار والعثور عليها حرفةً له، وليس هو من شغلنا. فالأخبار، ولا شكّ، هي مادّة

لكلّ دراسة وبحث وتحليل، وبدونها لا تستقيم دراسة الدارس وبحث الباحث ولا يأتي التحليلُ أُكُلَه الطيّب. وهي إذا بقيتْ عُرضةً للسرد وحدَه، فإنّها تظلّ مادّةً غنيّةً للمتعةِ وسدَ شهيّة حبّ الاطّلاع، لكنّها لا تقوى على تقديم صورة تبلُّ عطش الظمآن إلى معرفة الحقيقة ورؤية الواقع. ونحن إذا كنّا اكتفينا بهذا القدْر من أخبار هذه الفتنة، فلأنّه أغنانا بدلالته ومفهومه عن حشد أخبار كثيرة وسَردِ روايات مطوّلة، لا تخلو من تزيُّدٍ ومبالغات، ومن دلالات متصارعة ينحر بعضُها بعضاً. ولأنّنا كنّا في وسَط اللُّجّة من هذه الفتنة الطخياء، تقع الحوادث بالقرب منّا، فننظر إليها ونقرأها، ونفهم معناها دون حاجةٍ إلى شرح الشرّاح أو تعليق المعلّقين، وتَصِلنا محاضرُ الجلسات والاجتماعات وما تنضمُّ عليه من وقائعَ وهي ساخنة لا تزال تجري على نار حامية أو هادئة، فنستمع إليها ونستشفّ الواقع منها، ونسترقُ أخبار الحاضر المخفيّ وما سيكون عليه الغد من إشاراتها وإيماءاتها. فما كُتِبَ عن هذه الفتنة وما سيُكْتَبُ عنها، قد يسبقنا في سردِ الأخبار، ما هبَّ منها ودبّ، وفي إيراد قَصَصٍ، تحمل بطولةً وتضحية، وقَصَصٍ فيها تشويق وتسلية. لكنّه لنْ يسبقنا ولن يتفوّق علينا في وضعها بصورتها الصحيحة التي لا تستطيع أنْ تفارقها وإعطائها معناها اللطيف الذي لا يقدر أن ينفكَّ عنها.

ولقد رأينا فوَّهَة البندقية إلى فوهة البندقية، ولكنّ الكلام بينهما خَرَسٌ وصمتٌ، ورأينا المدفع يقابل المدفع من غير سلام ولا كلام، وشاهدنا العسكري يكشّر في وجه العسكري ويزدريه بالنظرة ويصفعه بأسلوب الالتفاتة، وقد يكون أخاً له وقد يكون ابن عمّه. وكلّما قال أعداء الفريقين المتصارعين من الناس اقتربَ موعد الشماتة، أو قال الأصدقاء لهما اقتربَ موعد السقوط في الحفرة،

اقول لهؤلاء : لم يحِنْ موعدُ الشماتة بعد ، ولهؤلاء : لا تزال هناك مسافةٌ بينكم وبين الحفرة . وبَيْنا الناسُ في شدّ وجدال وفي أخذ وردّ لِما يحدث ولِما سيحدث ، إذْ هبَّ علينا نبأ من كلّ مكان يقول بأنَّ الأخ الأكبر حافظ الأسد قد خفَّ إلى منزل أخيه رفعت ، وأنّه لقيَه أمام المنزل أو بجانبه ، وقابله وجهاً لوجه ، ثمّ إنهما دخلا في حديث كانت لهجته تتماوج بين مناقشة ومشادّة ، فقلت : لقد هدأتِ العاصفة وخسر رفعت مكاناً لكنه ربح مكانةً ، وأضاع جولةً لكنه كسب موقفاً ووجد مبدأ .

وليس من شكّ ، في أنّ رفعت أخطأ مِنْ حيثُ قدّر أنّه أصاب ، فقد خُيِّل إليه ، أنَّ في مرض أخيه فرصةً طيّبةً للتحرّك والوثوب إلى السلطة . فهو من السهل عليه أن يحتجَّ أمام القيادة بسدّ الفراغ الذي تركه لهم أخوه ومواصلةِ النهج الذي انتهجه ، والذي به يأْمنون على انفسهم من هجوم الأخطار ويؤمّنون ردّها ، ومن السهل عليه ، أنْ يتغلبَ على أيّ خصم آخر تحدّثه نفسُه بمقارعته ومنافسته على تسنّم السُدّة ، بعدما ترجّل أخوه عن فرسه ووقع أسيرَ المرض ورهينَ الأوجاع . ولكنّه نسيَ بأنَّ أخاه كان قد أعدَّ للأمر عدّته ، وحسب لوقت مرضه أو موته حسابه ، فكان أوّل ما عمله هو تطويق أخيه الذي لم يعد طموحه خافياً على أحد ، بخنادقَ عريضةٍ عميقة ، مزروعةٍ بالأشواك والألغام ، يتساوى عند أخطارها احتمال وصوله إلى السلطة واحتمال وقوعه والقضاء عليه . ونسيَ أيضاً بأنَّ مرضَ أخيه قد الهبَ عليه حزن القيادة التي يتزعّمها وأثار إشفاقها وخوفها ، وزاد في إصرارها على التماسك معه والوقوف إلى جانبه . ولم يُرضِهم أنْ يرَوْا رفعت يغتنم سانحة مرض أخيه وينصرف لتهيئة نفسه وإعدادها ليكون الخلَف بعده على السلطة وتسيير المقاليد . وراوا في ذلك نوعاً من الاعتداء على رابطة القربى وعلى

العبث بها ، ونوعاً من إضاعةِ الوفاء الذي لا يجوز لأخٍ أن يُنكرَه على اخيه او ان يضيّعه له .

وإذا كان لاحتجاج رفعت القائل بأنّه : لا يجوز ان يُنسِيَنا مرضُ أخي ويَشغلَنا عن رؤية الأخطار التي زادت شراستها وارتفعت حدّتها ، قوّةٌ لا يَحسنُ دفعُها ووجاهةٌ لا يصِحُ إهمالُها ، فإنّ لاحتجاج الذين وقفوا إلى جانب أخيه وقولِهم : إنّ الوفاء لرابطة القربى والمحافظةَ على عهدِ الأخوّة ، هو أولى من أيّ سبب آخر بالصون والرعاية ، قوّته ووجاهتَه أيضاً . ولو أنّ رفعت التفت إلى هذا المرض الذي استفحل في سياسة اخيه ، فحرّكه وأثاره عليه واستغلَّ أصوات أوجاعه في حياة الشعب وفي اقتصاد البلاد لَعثر فيه على حجّةٍ بالغةٍ لا ردَّ لقوّتها ، ولَكان له فيه سَبَبٌ اقوى من مَرضِ اخيه الذي ألمَّ بجسده واستفحل عندَه حتى اقعده وألزمه الفراش . ولو انّه حاصَرَ تلك الخطط التي كانت تُمليها سياسةُ أخيه على اقتصاد البلاد ، والتي راحت تَسير من عُقمٍ إلى أعقمٍ ومن قُبحٍ إلى اقبح ، بخُططٍ أخرى اكثرَ خصوبةً واوسعَ انطلاقاً لَاستقطب الشعب كلَّه حوله واستنفرَه ضدَّ أخيه ، ولاستطاعَ أنْ يعوّقه في الداخل تعويقاً يؤثّر على علاقته وسياسته الخارجية ، ممّا قد يجرّه إلى الضعف والتقهقر وفقدان الثقة بينه وبين المحيط العربي ثم المحيط الدوْلي . ولَيتَه انتظر إلى حين وقوع أخيه في هذه العزلة الكئيبة التي وقع فيها بعد مرضه بفترة ، فعمل على توسيعها في الداخل ، وأوقع بينه وبين القيادة ، ثم حاصره بالواقع المرير والثقة المفقودة ، وذلك على غرار ما كان قد صنع أخوه بالقيادة السابقة ، لَأحدث له صدمةً قويّةً وهزّةً عنيفة ، ارغمتْه على الاستسلام والتنازل عن كل ما في يده . وما أكثر ما كان يستطيع أن يخلق لنفسه من فُرصٍ ، وما يجد امامه من سُبُلٍ في أحوالِ هذا الشعب ،

وفي موقع البلاد من المنطقة ، وموقفها من الساحة العربية والساحة العالمية ، للقيام في وجه أخيه ومحاصرته والإجهاز عليه ، وليس هذا الذي ذكرناه إلّا لوناً واحداً من ألوان التهيئة والإعداد .

وربّما كان أعجبَ من كلّ عَجبٍ ، أنَّ الذين تألّبوا على رفعت وناصبوه العداء ، وسعَوْا إلى حربه وضربه ، قالوا عنه ، وشيّعوا أنّه كان يعمل على خطّةٍ مرسومة من أميركا وعلى اتّفاقٍ بينه وبينها ، وأنَّها هي التي اختارتْ له الزمان وخلقت له الفُرصَ المواتية . فقد بعثَرَتْ له الأوْراق التي كانت رتّبتْها سياسةُ أخيه في لبنان ، وقطعتْ له حبال الأمن التي كان قد اعتمدها دليلاً يَهديه في طريقه ، ثم عمدتْ إلى السعودية وحشرتْها معها في هذه الخطة ، فأذنتْ لها أنْ تمدّه بالعون وترفِدَه بالدعم والمساعدة ، وأن ترجمَ علاقتَها مع أخيه الأكبر بالجمود أو الفتور ، وتمشي بينه وبين السياسة العربية بالسِعايةِ وترميها بالتشويش والاتّهام .

وإذا علمنا أنَّ الذين قالوا هذه الأقوال وشيّعوها بكلّ وسيلة من وسائل البَيان والتبيان ، هم من الذين صنعوا أنفسهم حجّاباً على أعتاب السعودية ، ومن الذين يجلسون بجانب الموائد التي تنصِبُها السعودية ، وأنّهم يتفيّأون ظلًا من ظلال اللذّة التي تُرخيها عليهم السعودية ، إذا علِمنا ذلك كلَّه ، علِمنا موضع العجب ، وهانَ على غيرنا أن يعْلم معنا أيضاً . وهل بقَي ركنٌ من أركان السلطة في سورية ، إلّا وللسعودية فيه نصيب كبير ، يأخذ منها المال والمُتعة ويُعطيها الموقف في السياسة والاقتصاد والدين . وما أكثرَ الحكاياتِ التي طرقتْ سمعي من الخبراء المطّلعين ومن الجوّابين لهذه الآفاق ، لولا الحياءُ ولولا الشهامةُ والكرامة ، لأذِنتُ لنفسي أنْ تتسلّى في تصفيف هذه الحكايات التي هي فضائحُ وقبائح .

وهم إذا رَموْه بالاتّهام القائل ، إنّ أميركا هي التي صوّبَتْ

خطّته وشجّعته عليها ، لا يسعُنا إلّا أن نقول لهم ، ذلك ما صنعتموه انتم ، وبه وصلتم إلى هذا المكان الذي وصلتم إليه . ولا أحسب انكم تستطيعون ان تقدّموا دليلاً على تُهمةٍ في هذا الباب تتّهمون بها رفعت ، إلّا ويقوم من هنا وهناك ألفُ دليلٍ على تهمٍ معلومةٍ ثابتةٍ عنكم ، وكلّ دليل يصيح بلغةٍ تختلف عن الأخرى . وهل هناك أكثرُ من الأخبار التي تُبَثّ كلّ ساعة على الهواء ، ما تقومون به مع السياسة الأميركية من تعاون في دراسة قضايا المنطقة وتسوية حلول لها . ومن ترتيب وتنظيم لتطوير العلاقات بينكما في مختلف الميادين والمرافق ؟ ولسنا نحتاج إلى كثير من التفكير لنفهم ونعلم ، أنّ اميركا عندما تقبل أن تسوّي معكم حلولاً وترتّب اموراً ، فذلك يعني انّها وضعتكم إلى صنف الخَدَم الذين يُؤمَرون فيُطيعون ويُدعَوْن فيُجيبون . وإنّكم رضيتم هذا المقام الذي كان بعضَ احلامكم . يشهد عليكم ما افضتم به من احاديث امامي ، ثمّ ما أذعتموه على سمع العالم وبصره ، حتى صارت احاديثكم وثائقَ تتأرجح بها اجهزة الإعلام في كل مكان . ولستُ ارمي إلى ان أدافع عن رفعت عندما افاتحكم بهذه الأقوال ، أو لأخفّفَ من ثِقَلِ ما يُرمى عليه من التُهم والافتراء ، فلقد دافع هو عن نفسه دفاعاً لم يكن فيه جَباناً ولا حاقداً ، ولكنْ ارمي إلى ان افتح اعينكم إلى ما أنتم فيه من طهرٍ ونقاء .

ولست من الذين يبالغون ويذهبون بعيداً في إلقاء التُهمِ وتوزيعها على هذا وذاك ، من الأشخاص أو من الأحزاب أو من البلدان ، وإدانتهم لأنّهم عزّزوا علاقاتهم ووطّدوها مع واحدة من القوى الكبرى مثل أميركا وروسيا ، او لأنّهم عقدوا معها عقوداً تقضي بالتعاون بينهما أمَداً طويلاً ، أو لأيّ سببٍ آخر يقوم بينهما . فأنا أدري أنّ الزعماء والأحزاب والدول ، لا يستغني الضعيف فيها

عن القوي ، ولا الصغيرُ عن الكبير ، ولا المحرومُ عن ذي النعمة المالك . لا بل قضتْ سنّةُ الحياة في الوجود ، أنْ يكونَ للأقوى هيمنةٌ على الأضعف وتأثيرٌ على تطوّره وتغيّره وانتقاله من حال إلى حال . لكنّني لا أستطيع إلّا أنْ أميّزَ بينَ الذين يكتفون بخضوعهم للأقوى ونزولهم تحت سيطرته وهم يشعرون باللذّة والغبطة ، وبين الذين يعترفون بالخضوع والسيطرة ، وهم يعملون للخروج منهما ، عن طريق اصطناع الأسباب واكتساب الوسائل والمؤثّرات ، ويحاولون أن يطوّروا أنفسَهم خطوة فخطوة . ولا أستطيع إلّا أنْ أعترف للقوى الكبرى بحقّها في الهيمنة والسيطرة على القوى الصغرى ، لكن أن لا تكون هيمنةَ الضاري ولا سيطرةَ الكاسر . وما عدا ذلك فهو جائزٌ ومسموح به ، بل هو مرغوبٌ فيه ومطلوب ، وهو رسالة لا يصحُ التأخّر عن تبليغها وتأديتها .

أقول ذلك ، وأنا أنظر إلى علاقة الأنظمة العربيّة وسلطاتها مع القوى الكبرى ، ولا أقدر إلّا أن آسف كلَّ الأسف ، وأحزنَ كلَّ الحزن ، عندما لا أراها تلك العلاقةَ التي تدعو إلى التطوّر والتقدّم أو تقودُ إلى التجديد والارتقاء . وإنّما أراها علاقةَ العبدِ بسيّده والمالك بمملوكه ، فهو لا يطمح عنده بأكثرِ من أنْ يُطعمه ويَسقيَه ، ويُلقيَ إليه بحاجاته الأخرى . ولكي لا ننساق إلى طولِ الكلام في هذا الباب ، فقد أحببْنا أنْ نكتفيَ بسردِ هذه النادرة اللطيفة الحلوة التي تمثّل علاقة العرب بالقوى الكبرى والأسلوبَ الذي يتلقّون به التأثير منها خيرَ تمثيل . فقد سأل قومٌ مرّةً مَزْيدَ المدني ، قالوا : أيُولَد لابن الثمانين ؟ قال : نعم ! إذا كان جارُه ابنَ ثلاثين .

فلنكن أحراراً في قولنا ، ولنقل : إنَّ الاتّصال بالقوى الكبرى والاعتمادَ عليها ، ليس سبّةً ولا نقيصة . وإنّما السبّةُ والنقيصة هو ، في أسلوب الاتّصال ، وفي غرض الاتّصال ، وفي تعريض البلاد

للمآزق والمطامع، والشعبِ للضَّياع والتشتّت من هذا الاتّصال. فهذا الأمير سيهانوك، لم يمنعه انّه ليس شيوعياً ولا يؤمن بالشيوعية ان يتّصل بالصين، هذه الدولةِ الشيوعية الكبرى، وأن يتحالف معها، وان يستمدَّها ويستنصرَها على دولة شيوعية كبرى، هي روسيا، وذلك لكي يَدفع عن بلاده عارَ الاستيلاء، ويُنقذَ شعبَه الذي آمن به وجرى وراءَه، من نير السيطرة. وكذلك فعل فعلَه فيدل كاسترو الذي حارب جارتَه الكبرى اميركا وفقأ عينيها، وابعد خطرَها عن بلاده كوبا هذه الجزيرةِ الصغيرة، بانحيازه إلى روسيا الشيوعية واستمداده منها الخبرةَ والنصرة، ولم يَجرِ وراء روسيا في سياستها الأخيرة مع اميركا، ولم يتبعها في هذا التقارب الذي رأى فيه تنازلاً كبيراً لمنطق قوّةِ اميركا وتأييد استعلائها وتكبّرها على شعوب العالم. ولا يوجد هنالك من لا يعذر الجنرال شارل ديغول، عندما استنجد بأميركا لطرد النازية من بلاده، أو من لا يقدّره على التعاون معها والسماح لقوّاتها بأن تسرح حرّةً على الأراضي الفرنسية. ثم ما إنِ انكشفتِ الغمّة عن فرنسا وعن شعبها، حتى ارتحلتْ قوّات اميركا، ولم يقصّر ديغول عن شكرها، كما لم يقصّر في رفضه الانصياعَ إليها وخلقِ طبقة من الجفاء بينه وبينها، عندما سعتْ اميركا إلى ان تجرَّ سياسة فرنسا وراءها وتطبعَها بطابعها وتلوّنَها بلونها.

وقد لا يكون حال اتّصال رفعت بأميركا، إذا كان هناك من اتّصال على الصيغة التي وُضِع فيها، شبيهاً باتّصال ديغول أو باتّصال كاسترو أو باتّصال سيهانوك، ولا الأسبابُ التي قادته إلى هذا الاتّصال هي عينَها التي قادتْ هؤلاء. لكنْ ليس فيه ما يَدعو إلى اتّهامه وإلى إدانته، ما دام لم يُسفِر عن اذى واضرار بالبلاد، ولم يُلحِق كوارثَ وهزّاتٍ في الشعب. وقد ترى السلطة عندنا في

سورية ، انَّ من حقّها ان تسارع إلى التشنيع على رفعت الأسد ، لإقدامه على عقد اتّصالٍ بينه وبين اميركا والسعودية ، وإلى اتّهامه بركوب هذا الاتّصال واستغلاله لبلوغ طموحه ، لأنّها لا تريد أنْ يزاحمها إنسانٌ آخرُ على انتزاع مركز القوّة من يدِها ، ولا يُرضيها انْ ترى خصيماً لها ينافسها على التقرّب من القوّة الكبرى والفوز بإعجابها واستئثارها . من غير ان تحسب حساباً للمنافس الآخر ، الذي يرى انَّ من حقّه ايضاً ان يصول ويجول على هواه ، لينال الموقع الذي يحلم به ، ويفوزَ بما يشتهيه من آمالٍ ومطامح . وترى انّها على درجةٍ كبيرةٍ من الذكاء ، وانّها حكيمةٌ بارعةٌ في الحكمة ، عندما تعقد اتّصالاً بينها وبين القوّة الكبرى في الشرق أو في الغرب . إمّا بفتحِ انفاقٍ في باطن الأرض ، أو بمدّ جسورٍ على سطحها او بنشرِ خطوطٍ في الهواء . امّا إذا أقدم الخصم المنافس على مثلِ ما اقدمت هي عليه ، فهو في تعريفها خائنٌ وفي نظرها منحرف ، لا يجوز السكوت عنه ولا التوقّفُ عن تقويمه وانحرافه .
وانا بدوري ما كنت لأشنّعَ على السلطة في بلادنا علاقاتها بأميركا والسعودية واتّصالها بهما ، ولا أعدُّ ذلك عاراً عليها أعيّرها به ومنقصةً انتقصُ بها منها ، لو انّها كانتِ امتنعتْ عن رشق الشعب بأنواعٍ من الفتن لا توصف ، او راحت تكفكف من بلاياه وويلاتِه . ولو انّها اقدمتْ على حلولٍ سليمةٍ كريمة لِما يُعاني من معضِلاتٍ مزمنة ، وحرّكتْ فيه بواعث التقدُّم وايقظتْ اسباب الازدهار ، فخيانة الشعب هي في الحؤول بينه وبين ان يطّلعَ على واقعه ، وأنْ يشارك في بناء هذا الواقع وتحسينه ، وهي في التقصير عن إعطائه الدوافعَ التي يدفع بها شرّاً عن نفسه وان يجلب بها خيراً إليه . وكيف يرضَوْن أن يُدينوا رفعت على نواياه في اتّصالاته ، وهم في حياتهم وفي واقعهم وفي اعمالهم كلّها يجرون وراء سياسة اميركا

ويتبعونها. ويخافون يوماً ان يضعف حبل الاتّصال بينهم وبينها، فيذهبون في تقديم العبودية إلى ابعد ما يستطيع عبدٌ في الدنيا أن يذهب في تقديم عبوديته لارضاء سيّده ؟!

ولَشدَّ ما كان رفعت في أصطلاء هذه الفتنة ثابتَ الخطى لم يتأرجح ولم يتقلقل، ولم يُخِفْه اجتماع هؤلاء الصيّاحين عليه ولا تألُبهم ضدّه. وهو في الحقيقة لم يستسلم لهم، وإنّما استسلم لعاطفته التي شبّتْ في نفسه، فمنعته من الغدر، وصوّرت له النوادب والنوائح وقد وقفنَ يندُبن أخاه وينُحْنَ على ما جرى، فعاف السلطة وسلَّم تسليم الشجاع، وسخا سخاء الواهب الوفيّ الذي ينزل عمّا في يديه طواعيةً وليس غصباً أو إكراهاً، ولم يكن صحيحاً ما زعموا، من أنّه انقاد لأخيه عندما أحاطوا به ورأى نفسَه مغلولاً مكبّلاً، لا يستطيع أن يفكّ الحصارَ عن نفسِه، ولا ما زعموا وشيّعوا، من أنّ روسيا، التي حضرتْ إلى دمشق بشخص حيدر علييف زعيم جهاز أمنها وأسرارها في ذلك الحين، أعاقتْ تقدّم رفعت نحو السلطة وشلَّتْ حركته وسدَّت عليه طُرقه التي فتحها جميعَها. فروسيا وإنْ سعتْ سعيَها لكي تقبس شرارةً من هذه النار، لم يزد شأنها على أن يكون مثلَ شأن تلك العاهر التي أرادت أن تلعب دور القدّيسة، في قصّة دون كيخوت، فلا هي استطاعتْ أن تُصبح حقًّا قديسةً كما كانت تُمنّي نفسها، ولم يؤْمِن بها أحدٌ من هؤلاء الذين تعرّفوا عليها أيّامَ الخلوات، ولم ترَ لها مفرًا، من أن تقبلَ مساومةَ ذلك اللصّ الذي جاء من وراء الجبال ومن وراء الغابات، وهو يلهثُ من الشبق لرؤية امرأةٍ عارية. فهل نجانب الصواب إذا رحنا نعقد شبهاً بين دور هذا اللصّ وبين دور أميركا في الفتنة ؟

ولستُ أتردّد في الاعتقاد، بأنّ رفعت كان يحتال منذ اللحظات الأولى لانفجار هذه الفتنة، على أنْ يكتفيَ بالتهديد الشديد

والاستعداد الواسع، وعلى انْ يُخرجَ اخاه الأكبر من الساحة سالماً لم يمسسه اذى، ودون انْ يفتح النار في وجهه. وكان يرى انّ كلَّ شيء سيهون عليه بعد ذلك، حتى ولو وقعتْ مجابهةٌ بينه وبين الصيّاحين، فإنّها ستظلُّ خفيفة الوقع يسهل احتمالها وعلاجُها.

ويبدو انَّ اخاه الأكبر، قرأ هذه الحيلة وفهمها، فأظهر نفسَه في الساحة وفتح صدرَه للنيران. وُزادَ على ذلك، وبالغ في ظهوره، فاستقلّ سيارته وراح يَعبرُ بين فوّهات البنادق والمدافع حتى نزل عند باب منزل اخيه، فترجَّلَ ونظر إليه وخاطبه: ها انا ذا! فاطلب ما تريد وخُذْ ما تريد. وعَلِم رفعت انّ حيلته ارتدّتْ عليه وسقط ضحيّةً حبّه الشديد لأخيه، او قُلْ إنَّ يدَه لم تطاوعه إلّا في الارتخاء، ولم يقرَّ لعينه إلّا ان يرى اخاه حيًّا يتحرّك، وإنْ ظلَّ غاضباً ناقماً، وهو يعود إلى منزله وكان ذلك نصراً له اكبرَ من كلّ سلطة فاتتْه وارفعَ من كلّ وسامٍ اخطأه.

واقول للذين سيخامرهم شكٌّ في هذا الكلام أو سيغمزون منه: هؤلاء انتم امام الشعب الذي مات خوفاً اثناء الفتنة وعاش بعدها املاً. فليس فيهم احدٌ لا يعتقد بأنَّ رفعت، كان اهونُ ما عندَه هو ان يخرّب البلاد وان يدمّرها على مَنْ فيها، وانْ يُذيق الشعب ويلاتٍ لم يذقها في تاريخه. ويعتقد أيضاً، انّه كان باستطاعة أعدائه ومناوئيه ان يفعلوا فعلَه، غيرَ انّهم آثروا انْ يظلّوا في موقعِ الدفاع. فظلَّ وزنُهم في اعين الشعب قليلاً، وظلَّ الخوف منهم اقلَّ من وزنهم. وكانوا في نظره، سيبوؤون بالخسران لو انّهمْ انتقلوا إلى موقع الهجوم، وحاولوا ان يسلبوا رفعت زمامَ المبادرة التي بقيتْ سلاحاً من اسلحته وسرًّا من اسرار قوّته. والذين كانوا يشهدون لأخيه الأكبر، بأنّه عالج مسلسلَ هذه الفتنة بحكمةٍ ورَويّةٍ، لم يستطيعوا إلّا ان يُشركوا رفعت في هذه الحكمة، ثم انْ يُغلّبوا

دورَه على دور اخيه الأكبر ، عندما غادر أرض الوطن ، واكتشفوا أنَّه لم يكن جرثومةَ الفساد في البلاد ، كما أشاعوا عنه وزعموا ، ولم يكُنِ السببَ في وضعها المتردّي الذي ستظلُّ تعاني منه ما تعاني إلى زمن طويل .

ولم يتخلَّ رفعت عن شجاعته ، حتى بعدَ أنْ ألقى سلاحَه وسلَّم أمتعتَه وأجهزتَه . وكيف يتخلّى عنها ، ولا يزال عنده لسانٌ ينطق أو كلمةٌ تنطلق وهي تحمل نفسَه ورأيَه ، وتعبّر عمّا جرى ، وتوحي بما سيَجري ، غيرَ عابىء بأحدٍ ولا حاسبٍ لأحدٍ حساباً ؟! فها هو اليومَ وَسْط مئاتٍ من الأشخاص الذين تنادَوْا لحضور دعوته في واحدٍ من أكبر فنادق دمشقَ وأمتَعِها ، يتحدّثُ إليهم ، بعد أن التَهموا أطايب الطعام ، ويكاشِفُهم بالحقائق المرّة والحلوة . وكان من أبرزِ ما قاله وأبلغِه وأمرِّه على أسماع أعدائه ، ما نقله إليَّ من لا أشكُّ بصدقه : إنَّه لم يقُمْ بعملٍ من الأعمال ، ولم يتحرّك حركةً إلّا بإذنٍ من أخيه أو بإشارةٍ منه ، أو على ضوءٍ من رأيه . وهو لم يقُم باتّصالٍ في داخل البلاد ولا في خارجها إلّا بعد أنِ استشار رفاقه في القيادة الحزبية والسياسية ، وبعد أن أخلصوا في المشورة وأذِنوا له . وذكر اتّصاله بالسعودية ولم يُخفِه ، كما لم يُخفِ عَجَبَه من أعدائه عندما راحوا يُسمُّونَ اتّصاله هذا تواطؤاً ، وهو لم يكن مستتراً عنهم ، ولم يجرِ إلّا بعِلْم أخيه وعلى مشهدٍ منه . ثمَّ عجِبَ منهم كيف يُجيزون لأنفسهم أن يُسمُّوا اتّصاله تواطؤاً وتآمراً ، ويُسمُّوا اتّصال أخيه تحسيناً للعلاقات وتمتيناً للروابط الأخويّة بين البلدين ، وليس هناك من اختلاف في معنى الاتّصالين وغرضهما ، إذا نحَّيْنا جانباً ما في القلوب من حسدٍ وحقد ؟!

ثمَّ إنَّه دعا خصماءه ومنافسيه لمواجهةٍ واضحةٍ صارخة ، يَسمعها الشعب ويَشهدها من الاذاعة والتلفاز . يضع فيها كلَّ من

الطرفين المتصارعين أمام الملأ ما صنعَه وما يملِكه ويُبيّن دوره في كلّ شيء، ثمّ يتركُ الشعب على راحته ليقول كلمتَه الحرّة ويُصدر حُكمه. فيرى الناسُ كلُّ الناس في داخل البلاد وخارجها، من هو الذي أشدُّ تهمةً، ومن هو الذي أكثرُ براءةً، ومن هو الذي خرّب في البلاد، ومنْ هو الذي زاد في عمارها، ومن هو المسؤول عن الخراب، ومن هو المسؤول عن العمار. ولم يُقصِّر في توجيه انتقادات حادّة إلى سياسة أخيه، منها الصريح المباشر، ومنها الموحي والمشير. ولم يَفُتْه أنْ يذكر أنّه لم يكُنْ راضياً عن هذه السياسة في كثيرٍ من مواقفها التي كانت تظهر في أوقات متفاوتة ومناسبات مختلفة. وأنّه لم يكتم عن أخيه معارضته في كلّ موقف كان يتخذه، وليس فيه عافيةٌ وصحّةٌ للبلاد، أو لا يقود إلى رفع ضائقةٍ ولا إلى إزاحة مضرّةٍ. وإذا كانت هذه المعارضة قد بقيت مستورة عن الشعب، فإنّها لم تبقَ مستورة عن المقرّبين، ولا عن أعضاء القيادة، ولا عن فريق في الجهازين الحزبي والعسكري.

ومرّتِ الأيّام، وترك رفعت البلاد لأخيه الأكبر وهي تتخبّطُ بالفوضى والفساد، تسيّرها الأدمغة المنحورة والقلوبُ المقهورة وأخذ العالم كلُّه ينتقل من مفاجأة إلى مفاجأة، ومن حَدَثٍ غريب إلى حَدَثٍ أغرب، فهذه الشيوعيّةُ أخذَتْ حصونُها تهوي حصناً فحصناً، في رومانيا وتشيكوسلوفاكيا، وفي يوغسلافيا وبلغاريا. وهذا الجدار القائم بين جسد الأمّة الواحدة تهدّم وتحطّم، وصار مزقاً. كلُّ مزقةٍ منه تحتلُّ مكاناً لها في بيتٍ من البيوت لتظلَّ تذكّرُ بالفرقة والحرقة، وارتحلت ألمانيا الشرقية إلى أختها الغربية بعد خمسةٍ وأربعين عاماً من القطيعة والهجران. وهذه جمهورياتُ روسيّا الكبرى، تكاد كلُّ جمهورية منها تنفصل عن الجسد الأم، وتستقلُّ بشعبها ولغتها وتاريخها. وهذه دول أوروبا الغربية،

تزحف الواحدة نحو الأخرى كلَّ يومٍ ذراعاً لتتّحدَ بها وتُضيف علمِها إلى علمِها وقوّتَها إلى قوّتها . وهذه اميركا قد اشرفتْ على العالم كلّه من مرتفعٍ عالٍ ، ونادتْ وقالت بلسانِ رئيسها : إنَّ النظام القديم في العالم آخذٌ بالغياب والزوال ، وإن نظاماً جديداً آخذٌ بالولادة والظهور ، وإنَّ إرادة اميركا هي منبعُ هذا النظام ، وهي اصلُه وفصلُه وحَسَبُه ونسبه . وكانَ أوّلَ من استجاب لهذا النداء ، وقال لبَّيْك ، وخضع له ، هي روسيا والشرق كلُّه معها ، ثم أوروبا والغربُ كلُّه معها . فهل تريدون أن يضحك الناسُ منّا ، فنقول : لكنَّ حافظ الأسد هو الذي تحدّى وحده هذا النداء وتكبَّر عليه ورفضه ، وأرادَ أنْ يكون قوّةٌ أخرى موازيةٌ له ؟ ثمّ هل تريدون منا الّا نتذكّر رفعت ، يوم أن كان يطالب بالتغيير في سياسة البلاد وفي أسلوب إعمارها واقتصادها . وإعادةِ النظر في حزب البعث الذي بقِيَ يُهرول ، والناس من حوله يسبقون النظر والخيال في سرعة تقدّمِهم وجريانهم ؟ وهل يستحقّ أن يقدّر على حدْسه الذي سبق البشر جميعاً ، يوم انِ التَفَتَ إلى اميركا ، وكأنَّه كان يرى هذا النظامَ الجديد بعينه قبل أن تحترق به سياسةُ اخيه وتذوب فيه البلاد ، فلا يعود لها وجهها المعروف ولا شكلها المميّز المألوف ؟

ولعلَّه صار من حقّ أُولئك الذين تعلّقتْ آمالُهم برفعت ، أن يتذكّروه اليوم اكثر من ذي قبل ، وان يزداد تعلُّقُهم به ، عندما وجدوا أن نظراته التي كان ينظرها منذ ما يقرب من خمسةَ عشر عاماً كانت صائبةً وكانت في محلّها . ولعلّ من حقّه على أعدائه ، أن لا يُقْدِموا على هذه الخطوات التي كان نادى بالإقدام عليها وضحّى لأجلها ، قبل أن يعترفوا بأنّه كان أبعدَ نظراً ، وكان اصوبَ تقديراً ، وأنّهم اغتصبوا منه موقعه اغتصاباً ، وادَّعَوا ما ليس لهم فيه حقّ الادعاء . وامّا إذا رفضوا أن يعترفوا له ولم يجدوا طريقاً إلى التراجع ، فلا

أقلَّ من أن يظلّوا صائنين لما في أيديهم، متحاملين على أنفسهم حتى يصلوا إلى المنجى الذي لا يزال بعيداً عنهم. ولكنْ أين منهم هذا الوصول، وقد تعوّدَتْ مقاليد الأمور عندنا أنْ لا تستقرّ في يدِ مغتصب حتى تنتقلَ عنه إلى مغتصب آخر أدهى منه وأمرّ؟ لقد سُقِطَ في أيديهم، وأحيط بهم الآن فلا حيلة لهم، ولا سبيل لديهم إلى النجاة، فالمغتصب أصبح على الباب، يقرعه قرعاً شديداً، وهو هذه المرّة اسرائيل، فأين الفرار؟

١٠

البقرة الضاحكة

العبدُ ليسَ بحُرٍّ صالحٍ لأخٍ ... لوْ أنَّه في ثيابِ الحُرِّ مولودُ
لا تَشترِ العبدَ إلّا والعَصا معه ... إنَّ العَبيدَ لأنْجاسٌ مَناكيدُ

المتنبّي

إنَّ العَبيدَ إذا أذْللتَهمْ صَلُحوا ... علَى الهَوانِ وإنْ أكْرمتَهمْ فَسَدوا

شاعر

فلَمّا نَظَرْتُ إلى عقلِهِ ... رَأيْتُ النُّهى كلَّها في الخُصى

المتنبّي

البقرة الضاحكة

قال لي صاحبي، وهو يحاورني ويحدّثني عن رحلته إلى سورية وعن زياته الأهل والأصدقاء: هلْ تعلم ماذا يسمُون فلاناً في دمشق؟ قلت: إنَّ له أسماءً كثيرةً، فأيُّها اختاروا له؟ قال: البقرة الضاحكة. وانفلتْنا في الضحك، وأنا أردِّد الآية الكريمة: «بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونها...»

ولقد آثرت هنا أنْ أذكره بهذا الاسم الذي اختارَه له أهلُ دمشق، تقديراً منّي لذَوقهم في قراءة شكله وصورته واكتشافِ موقعه اللائق به، واعترافاً لهم بالجميل على هذه الفرصة التي أهدَوها لنا واتحفونا بها. فنحن كلّما وَجدنا في نفوسنا ضيقاً وإرهاقاً من مصاولة الحياة ومنازلتها، هتفْنا بهذه الفرصة، وسألناها أنْ تخفَّ إلينا، وأن تَفتح صدرَها، لنمرَح ونضحكَ على اشتهاء، ونُفرِّغَ فيها ما ادّخرته نفوسُنا من الكآبة والضجر، ثم نشحنُها بكثيرٍ من اللهو والمُتعة، فتسترجعُ بهجتَها وتُعاوِدُ نشاطَها من جديد، وربّما كان من أحسن ما فعلتْه السلطة به، هو أنّها جعلتْه مكاناً لتفريغ نزواتها وآلةً لقذف سخائمها وأحقادها. فهي عندما تَهَمّ أن تنزُوَ على الشعب وتقذفه بسخيمةٍ أو بحقد، وضعتْه ستاراً يسترُها، ونشرته غطاءً على وجهها، ريثما يبرد هذا الغليان الذي

يَجيش به صدرُ الشعب وتنقشعُ سُحُبُ الظنون المتمطّية على أفكاره وتطلّعاته.

وليس هنالك من سبب يدعونا إلى الإتيان على ذكره وتخصيصه بالمكان الأخير من هذا الكتاب، إلّا ما كنّا قد وعدْنا به أثناء الحديث على سيرة رفعت، وقولُنا إنّنا سنختار مثالاً من الأمثلة الكثيرة المتناثرة في السلطة الحزبية والعسكرية، وبين التجّار في الاقتصاد والتجّار في الدين والشرَف. ثم نبيّن من خلال الكشف عن هذا المثال وتعريتِه وعَرضِ ما فيه من مواضع الفساد والسوء، أنّ كلَّ ما رَجَموا به رفعت من ظنون وما ألقَوْه عليه من تُهَم لا يعدل هِنَةً من هِناته ولا يساوي زَلّةً واحدةً من زلّاته. ومع ذلك فإنّهم يحكمون على رفعت بأحكامٍ كثيرة، أخفُّها الفِسقُ والمُروقُ من الدين والارتداد عن الإسلام، ويَدعون إلى القيام في وجهه والثورة عليه. أمّا المثالُ الذي اخترناه والذي هو البقرة الضاحكة ومن هم على شاكلته، فلا يحكمون عليهم إلّا بالسكوت عنهم، والتزلُّفِ إليهم والالتفافِ حولَهم، وإلّا بالدفاع عن سوئهم وضلالهم بألف حجّة وبرهان، وتخريجِ فسادهم بألف فتوى حتى يعودَ لوناً من الوان التقوى.

ونحن لا نجهل، أنّ أولئك الذين حَكموا على رفعت ارادوا ما هو ابعدُ منه في أحكامهم، لكنّهم تعثّروا ولم يخرُجوا من دائرة المزاعم والظنون، ففاتهم الواقع، وتجاوزهم النظر الصحيح، ولا بدَّ لهم من ميزانٍ آخر، به يزنون وبه يحكمون، لكي يتخلّصوا من ظنونهم ومزاعمهم، ولكي يفِرّوا من الواقع الموهوم إلى الواقعِ المعلوم، ومن النظر السقيم إلى النظر الصحيح. وكذلك لا نجهل أنّ أولئك الذين حكموا على من أسمَوْه البقرة الضاحكة، ذهبوا إلى ما هو أبعدَ منه. وارادوا أن يجعلوا منه رمزاً حيًا لهم وغطاءً واقياً

يقيهم إذا تحرّكوا، وستراً يستر مقولاتهم إذا قالوا، ونفقاً تتسرّب فيه مطبوعاتهم إذا طَبَعوا ونَشَروا، فجاوُوا بصنيعهم معه وتسخيرهم له، مثلَ صنيع السلطة معه وتسخيرها له، حذوَ القُذَةِ بالقذّة والنعلِ بالنعل. وصار كأنَّ دورَه بين العدوّين مثلُ دورِ وَرَقةِ التين، يستر العَوْرات ويُغطّي القبائحَ. ولا بدَّ له يوماً من أن يسقط عن هذا وذاك، ويطّلعَ الناسُ على كلّ قبيحٍ كان يستره، ويَرَوْا كلَّ عَوْرةٍ كانَ يغطّيها.

فهو في الجيش، وكأنّه غيرُ محسوبٍ من الجيش، فلا يحُلُّ ولا يربِط، وليس له من دورٍ فيه إلّا دورُ الذيل في الدابّة، ترفعُه عند اشتداد الهاجرة علامةً على اهتياجها وانفعالها، أو تلَوِّح به على يُمناها ويُسراها، فتطرد عنها الذباب الذي يُلِحّ عليها، أو تدغدغ القراد الذي انغرس في جلدها وراح يمصّ من دمها. وهو في حزب البعث، قد سمَّوْه راساً من رؤوسه، ولكنْ أيُّ راس؟ ليس له عينان ليرى بهما، وليس له أذنان ليسمع بهما، وليس له لسان ليتكلّم به، وليس فيه محلّ للدماغ أو للعقل أو لحفظ التوازن والاعتدال. وهو معدود من الكتّاب والمؤلّفين، ولكنْ لا قلمَ عنده ليكتب به، ولا كلماتَ لديه مثلَ ما لأولي الفطنة والنجابة من كلمات ليقولها. فمِنْ هذا يسرق كلمة، ومِنْ ذاك يخطف قلماً، ومِنْ هنا يقترض كتاباً، ومِنْ هناك يستاجر اسطراً، وهكذا هو شأنُه في كلّ شيء، لمَنْ راح أن يُفلّيَ أخباره ويستقصيَ سيرتَه. فما أشبهَ حالَه في فهمه كلَّ شيء بحال هذا الصديق الذي يحدّثنا عنه أبو القاسم البغدادي! قال: حدّثني صديقٌ من بغداد قال: وطئتُ في الليل على شيء حارّ، لمستُه إذا هو ليِّن، شمَمْتُه إذا هو منتِن، ذُقتُه إذا هو مرّ، نظرتُ إليه في ضوء السراج إذا هو أصفر، أريْتُه صديقي فلاناً، فقال: هو غائط.

وما من مرّةٍ جاء فيها إلى فرنسا ، ونزل باريس أو غيرَها من المدن الفرنسية والأوروبية ، إلّا وتناهبَتْ صُحفُ أوروبا أخبارَه ، وتناقلتْ أسرارَه وتحركاتِه في ليله ونهاره . فمرّةً يتحدّثون عن مُجونه في سهراته ، ومرّةً عن إسرافه في النفقات والبهرجة ، وثالثةً عن شذوذه وانحرافه . ورابعةً عمّا يقوم به من تهريب هو وحاشيته الذين يرافقونه ، تحت ستار الحَصَانة التي يحقّ له أن يتمتّع بها لمكانته في بلاده ، وخامسةً يتسلَّوْن عليه ويتهكّمون من سوء تصرُّفاته ، وينتقدون حكومة فرنسا انتقاداً حادًّا على سَماحِها له بدخوله بلادَها وخرقِه قانونَها وحرمتَها بشكل غير لائقٍ وغير إنساني . إلى غير ذلك من الأنباء التي لا يُراد بها إلّا التشهيرَ بسمعةِ بلادنا وتعريضَ سيرة شعبنا للتشويه والاشمئزاز في أعينِ شعوب الغرب وفي نفوسهم وأذواقهم .

وفي كلّ مرّةٍ ، كنّا نقرأ فيها هذه الأشياء في صحف فرنسا ونسمعُها من الإذاعة الفرنسية ومن التلفاز الفرنسي أحياناً ، كان يتجمّعُ الفرد الذي يشعر منا بالخجل على نفسه ، ويُحسّ بالانقباض الشديد وبالخيبة المرّة ، وكأنّه لا يُريد أن يكون موجوداً أمام الذين يعرفونه من الفرنسيّين ، والذين لا يبالون أن ينشروا الشماتة على سُحناتهم . وقد حدّثني أكثر من واحدٍ من المستشرقين الذين كانوا يسعَوْن إليه ، إذا هو اتّصل بهم ليلتقيَهم ، أنّ دهشةً كبيرة كانت تسيطر عليهم ، لهَوْل ما يرَوْنه من إنفاقه وبذخه واستهتاره بشرف بلاده وشرف العمل الذي وضعتْه أمانةً في عنقه . ولكنْ لم أكن أفوّت على نفسي فرصةَ الانقضاض عليهم والإمساك بهم ، فأرُدّ وأقول : هذا وأمثاله في بلداننا العربية هم من صنع أيدي حكوماتكم ، وهم من بذورهم العفنة التي بَذَروها في الأنظمة الموبوءة . فكيف تريدون لهذه البذور أن تأتي نقيّةً طاهرة سليمة ؟ وكيف تريدون لشعوبنا

ان تتحرَّر من النبات الخبيث الذي ينبت فيها ؟ فمتى رفعتم أيديكم واقلعتم عن سياستكم الظالمة الفاجرة ، وتركتم شعوبنا يختارون لأنفسهم من يمثّلهم ، فإنّكم لن تشاهدوا مثلَ هذه الأوساخ تأتيكم منهم بعد ذلك ، ولنْ تشمّوا مثلَ هذه الروائح التي ينقلها الهواء بينكم وبينهم .

وممّا يدعو إلى العجب والدهشة ، انَّ السلطة في بلادنا لا تخفى عليها خافية من اعماله وسلوكه وتصرُّفاته ، فكيف ترضى لنفسها ان تغُضَّ الطرف عنه وتسكت ، فلا تلومه ولا تزجُره ولا تؤنِّبه ، بل يزداد احتضانُها وتعلُّقُها به ، وتُبادر إلى تكذيب ما تسمعه عنه من انباءٍ موثّقة ومن اخبار مصوَّرة ؟ وكيف ترضى على نفسها ان تهبَّ في وجه رفعت الأسد هبّةً تحسبها العاصفة ، وتُصدِّقَ ما يُشاع عنه دون تَثبُّتٍ وتأكّد ، وترميه باللّوم والزجر ، وتذهب فتجابهه بالسلاح والعنف ، وتُقيم الدنيا عليه ، وهو لم يأتِ في كلّ ما نسبوه إليه والصقوه به من سيرة واعمال ، وما اذاعوه عنه من اخبار ، بمقدار قيراط ممّا اقترفتْه يد البقرة الضاحكة ؟ وربّما كان الأعجبُ من ذلك والأكثرُ دهشةً ، هو انَّ الناس عندنا في البلاد ، يشاهدون عاره يجري امامَهم ، ويعاينون شناره يسيل منه على مرأىً منهم ولا يرشقونه بكلمةٍ ولا يَرمونه بحجر . لا بل يفاخرون به ، ويعتبرونه ذُخراً ليومهم العصيب ، ويَرَوْن فيه عدّتَهم لزمان شدّتهم .

ولقد شاهدْتُ منه بنفسي ما اذهلني حقًّا عن نفسي ، وذلك انّني زرتُه في بيته ، بعدما سعى للجمع بيني وبينَه صاحبٌ لي وله فاستقبلني بلياقةٍ وتواضع ، واكرمني ، ثمّ اخذ بيدي واطلعني على مكتبته الكبيرة التي خصَّها بجزءٍ من داره الواسعة . ولستُ انسى ما حدَّثنا به ، ونحن فيها وهو يَحمل بيده من اسفارها أسفاراً ، قال :

هل تعلمون أنَّ الرسول الأعظم شرّفني وزوجي قبل ثلاثة أيّام من هذا اليوم بزيارةٍ إلى غرفة نومنا ؟ وهل تصدّقون أنَّ عبقَ هذه الزيارة المباركة بقيَ حتى ظهرِ الأمس ، وأنَّ أصحابنا وأصدقاءنا خَفُّوا إلينا من كلّ مكان ليشاركونا شمّه والاستروّاحَ به والانتعاشَ برائحته الزكيّة ؟ وكان معنا شيخ قد أسبل لحيته وسوّاها ، فجاءت كأنَّها قطعةٌ من ذيل الثعلب . لم يتمالك نفسَه ، ولم يصبر عند سماعه الحديث ، فرفع يديْه وحملقَ بعينيه ، وصرخ : الله الله الله ، حتى أخذتْه رعدة أقعدته على المقعد الوثير الذي بجانبه ، وهو يقول : هنيئاً لك ! لقد خصَّك الله بمزّيةٍ دون البشر ، وأكرمك ، وفضّلكَ علينا ، بأنْ بَعثَ إليك رسوله يزورُك في منزلك ، وذلك دليلٌ على علوّ مقامك . إلى كثيرٍ من مثل هذا الكلام الذي هو قطعةٌ من مُصيبتنا وجزءٌ من بلوانا .

أمّا أنا فلم يأخذْني العجب من جرأته على الرسول الأعظم ، أكثرَ ممّا أخذني تصديقُ الناس له . ولكنْ لم يكن لي بدٌّ مِنَ الاعتقاد بأنّه لو لم يُوجد مثلُ هؤلاء الناس الذين مَلَكَتْهم البلادة والغَباء ، لَما وُجِدَ من يُحدّث مثلَ هذا الحديث الذي صيغ مِنَ الكذب والرياء ، ولولا العقولُ الشوهاءُ التي تعوّدت مثلَ هذا التخدير ، لَما عَرَفَ طريقَه إليها تاجرُ الأفيون ، ولَما ابتلاها بما عنده من فنون وجنون . أليسَ من السهل أن نفكّر مليًا ونقول ، إنّ الرسول الأعظم أجلّ وأرفع من أن يُكرّمَ إنساناً يستهتر برسالته ويتاجر بها في أسواق النفاق ، ولا يصون عهداً واليّةً ، ولا يصون حُرمةً لأصول الأخلاق ومبادىء الديانة السماوية . يجاهر بمقارفة الآثام ، ولا يتورّع عن ارتكاب أيّ عَمَل ، عندما يرى فيه ما يوطد وجاهته ويقوّي مكانته عند السلطة ؟

ثمّ أليسَ من السهل أيضاً ، أن نعلم أنَّ الرسولَ الأعظم أجلّ وأسمى من أن يدخل بيتاً ، كلّ ما يحتوي عليه حرام ، وأكثرُ ما

يُؤتى فيه حرام ؟ وكيف نقبل أنْ نسمعه يقول لنا ، إنّه آثرَ غرفة نومه بتشريفه وزيارته على منزله كلّه ، وهو المكان الذي يأبى على نفسه أيُّ إنسانٍ أن يدخله أو أنْ ينظر إليه ، حياءً ممّا يمرُّ بخاطره ، وإكراماً للرباط القائم بين الزوجين ، فكيف بالرسول الأعظم ؟! وكيف يستقيم عند من يَسمعها أنْ يُسمّيَها مكرُمةً ومأثرةً ، ولا يَرى فيها تجرُّؤاً على عصمة النبوّة وقُدس الرسالة ، ولا يستشعرُ ما فيها من لَوثةٍ وتهاون بالمَقام الأعلى للرسولِ الأعظم ؟ فمَنْ ذا الذي يأتي لنا بميزان ، ويَزِنُ فيه ، ليس ما عَمِلَه رفعت فقط ، وإنّما ما أنيطَ به وما عُلِّق بعنقِه من تُهمٍ وظنون ، مع مثلِ هذه الحكايةِ الشائنة التي صدر عنها من أسمَوه البقرة الضاحكة ، ثم ننظرُ أيُّ الكفّتين هي الراجحة وأيُّها هي الشائلة ؟ ما لكم كيف تحكمون !

ولو لم يكن له إلّا هذه الفضيحةُ التي سارتْ في مشرق الأرض ومغربها ، لَكفاه ذُلّاً وامتهاناً ، وكفى بيّنةً ودليلاً عند السلطة التي ينتسبُ إليها ، أنّه يجب ملاحقتُه وإدانتُه والحكمُ عليه ، وأعني به ما نشره الصحفي السويسري البيرتو ماري أنتوني ALBERTO B. MARIANTONI ، في الصحيفة المعروفة المسمّاة لوماتان LE MATIN ، والتي تصدر في مدينة لوزان السويسرية ، في عددها الصادر ، يوم الجمعة في العشرين من أيار عام ثمانيةٍ وثمانين وتسعمائة وألف . وحقيقٌ علينا أن لا نُغفل التنويه ، إلى أنّنا اقتبسْنا الخبرَ والصورة من الصحيفة العربية المشهورة التي اسمها (المحرر) ، والتي تصدر في باريس . وذلك حين تعذّر علينا الاطّلاعُ على النصّ الفرنسي الأصلي الذي نشرتْه الصحيفة السويسرية ، لبُعد تاريخ صدورها عنّا ، وحينَ لم يكن عندنا من الوقت ما يسمحُ لنا بالشخوص إلى المبنى الذي تقبع فيه الصحيفة . وقد اكتفَينا بأنْ هتفْنا لإدارتها ، نسألُ عن صحّةِ هذه الفضيحة التي نشروها ، فحَمّلونا بأسلوبهم

الذي أجابونا به على التصديق بما نشروه. وأكدوا لنا تأكيداً قاطعاً لا يداخله شكّ، بأنَّ الحديث صحيح، وأنَّ الصورة صحيحة لا ريْب فيها، وأنَّهم لم يصطنعوها اصطناعاً ولم يركّبوها تركيباً، وأنَّهمْ امتنعوا عن نشر معلومات أخرى تتعلّق بالمتّهم الظنين، ليس خوفاً منه ومن السلطة التي هو فيها، وإنّما خوفاً من سلطةٍ أخرى في بلادٍ أخرى. واكتفتِ الادارة بأنِ اختتمتْ حديثَها معي بالقول: نحن مسؤولون عن كلّ ما يُنشَر في صحيفتنا من تحقيقات وأسرار وأخبار، منذ أوّل لحظة بدأت فيها العمل إلى آخر لحظة تتوقّف فيها عن العمل.

وتحت عنوان كبير: فضيحة في دمشق. وضربة أخرى من ضربات الموسّاد، وهو جهاز الأمن السرّي الإسرائيلي، تحدّثتِ الصحيفة المُومى إليها عمَّن أسمَوه البقرة الضاحكة، فكان ممّا قالته: إنَّ له علاقةً حميمة بالراقصة اليهودية ديانا سيدني DIANE SIDNEY، بدأها معها أيام أنْ قامت هذه الراقصة بزيارة دمشق، في مجموعة من الراقصات البريطانيات لرقصة الباليه.

واسندَتِ الصحيفة إلى مصدر في جهاز أمن سرّي في الشرق الأوسط قولَها، إنَّ الموسّاد الإسرائيلي قذَف بهذه الراقصة إلى السيد (البقرة الضاحكة). لكي تتجسّس على الأركان العامّة.

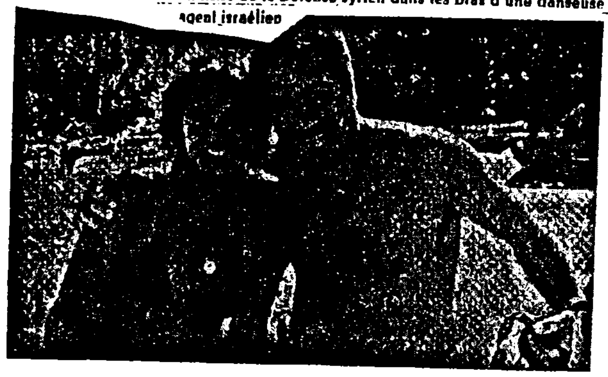
وقد ربطَتِ الصحيفة بين هذه الراقصة وبين الجاسوس الإسرائيلي كوهين. كما أنَّها لم تنسَ أن تُنوّه وتقول، إنَّ تحديد أمكنة صواريخ سام السورية في منطقة البقاع اللبنانية وضربَها في العام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف، يعودان إلى المعلومات التي قدّمتها هذه الراقصة اليهودية عنها.

وإذا كان لهذه الفضيحة أن تُذكّرنا بشيء، فإنّها تذكّرنا بقولٍ جرى على لسان جاك شيراك، الرئيسِ الأسبق لوزراء فرنسا، يومَ

L'AVANT-DER[illegible] Encore un «coup» du Mossad

Scandale à Damas ?

Le ministre de la Défense syrien dans les bras d'une danseuse écossaise. Qui serait agent israélien



البقرة الضاحكة في صورة إنسان!

ان اقام الغربُ الدنيا على السلطة السورية ، واتّهمها بمحاولة تفجير طائرة ركّاب إسرائيلية ، كانت تعتزم الإقلاع من لندن إلى تل أبيب ، فقد قال : ربّما كان من حقّ هذه الحادثة أن تكشف لنا مرّةً أخرى نفوذَ الموسّاد الإسرائيلي في جهاز الأمن السوري ، وتدفعَنا إلى الاعتقاد بما له من حضورٍ قويّ فيه ، وليس من شكّ في أنّ قولَه هذا يدفعنا نحن إلى الاعتقاد أيضاً ، بأنّه لم يَسمح لنفسه أن يُصرّح إلّا بشيء يسير جدًا من أشياءَ كثيرةٍ جدًا يختزنها في صدره عن هذا الموضوع .

وتذكّرنا هذه الفضيحة كذلك ، بما جرى به قلم فيكتور أوستروفسكي ، وهو واحدٌ من أعضاء جهاز الموسّاد ، في كتابه الذي كتبه باللغة الانكليزية عن هذا الجهاز بعد خروجه منه ، وعنوانُه : طريقُ الخداع . وقد ذكر فيه معلومات هامّة ، لا تجرُّ أذى على إسرائيل ، لكنّها لا تبعث فيها رضىً ولا تُحرّك عندها سروراً . وكان ممّا ذكره ، وممّا نعتقد أنّه يَمسُّ موضوعنا مسًّا قويًّا قوله : إنّ الموسّاد يدفع مكافآتٍ ماليةً تتراوح بين مائةٍ إلى ألف دولار ، لكلّ عملٍ مميّز يقوم به واحد من عملائه خارج إسرائيل ، وهو يزداد سخاءً وعطاءً للعميل إذا كان مركزه مرموقاً في بلاده . فقد كان يَدفع إلى وزيرٍ سوري ، بين عَشَرَة الآفٍ إلى عشرين الفَ دولار ، مقابلَ كلّ عملية اتّصال ، وهنا سَكَتَ ولم يذكُرِ اسمَ الوزير ، ونحن بدورنا ليسَ لنا إلّا أن نسكت أيضاً . وسواءٌ علمنا اسمَه أم لم نعلم ، فإنّه لن يحرّك في بلادنا شيئاً ، وسيقولون عنه ، إنّه كذبٌ وافتراء ، وسواء على السلطة في سورية ، أأخفى الكاتب أشياءَ كثيرةً عنها أم أظهرَها ، فإنّها لن تُعير أقواله اهتماماً ، ولن تلتفت إلّا إلى ما له علاقةٌ بأمنها وسلامة وجودها ووسائل تمكينها . وأجدِرْ بنا الآن ، أنْ نُسدِلَ الستار على أشياءَ كثيرةٍ ذكّرتْنا بها فضيحة البقرة

الضاحكة ، لا نرى أنّها تجلب سروراً إذا نحن قمصناها ، ولنْ يكون لها دورٌ في القلوب ولا مكانٌ في النفوس ، إذا هي أذيعت وانتشرت ، ولن تحرّك سُخطاً أو تثيرَ نقمةً على حقوق مضيّعة وشرفٍ ممرّغ، إذا هي استحضرت وملأتِ الأسماع والخواطر .

ولم استطع إلّا أن أتذكّر المثل العربي القديم القائل : في كلّ وادٍ أثَرٌ من ثعاله ، وأنا استمع إلى صديقي النائب الأسبق لرئيس الجمعية الوطنية الفرنسية والمفكرِ الشهير روجيه كارودي ، وهو يحدّثني في منزله ، ويقول : لقد كنتُ سعيداً ، عندما استجبتُ إلى الدعوة التي قدّمها إليّ فلان ، وسمّاه بمركزه في سورية ، ولاقيتُ حفاوة لا أسمح لنفسي أن أنساها . وفجأة تغيّر مظهر كارودي ، وبالغ في لهجته الجادّة التي كانت أشدَّ من التهكّم وأقسى من الازدراء ، وكأنّه أراد أن يجدّد انتباهي إليه ، ثمّ سكت قليلاً ، وقال : لكنْ لا أُخفي عليك أنّ التنغيص بدأ يدبُّ إلى متعتي بهذه الزيارة ، حين سألوني أن أكتب كتاباً عن حافظ الأسد ، وحين علِمتُ أنّ ذلك كان هو سببَ الزيارة ، وكان هو السرَّ الذي تلقّيتُ لأجلهالدعوة .

ولم يكن هنالك مانعٌ يمنعني من التقائه واجتماعي به ، عندما أعدّوا للّقاء عدّته وهيّأوا له فرصَته . ولَشدَّ ما أفاض في انتقاده أميركا وراح يبيّن مشاكسته لسياستها ومعاكسته لخططها في منطقة الشرق الأوسط ويُبرزُ دوره في الصراع العربي الاسرائيلي الذي سيدوم طويلاً . وبقدر ما أعجبَني حديثه من جهةٍ ، فقد هالني من جهةٍ أخرى ، عندما سمح لنفسه ، أن يتوهَّمَ أنّني بليدٌ وغبيّ إلى هذا الحدّ الذي لا أعي فيه ما يقول ولا أفهم ما يعني ، وقد قصد كارودي في عبارته ، إلى التبيان ، بأنّ لسان حاله أصبح وهو يستمع إليه ، كما تعوّدنا أن نذكر المَثَل السائر في مثل هذه الحالات : أعلى هامان يا فرعون ؟

عرسٌ في سوق النخاسة

وبعدَ اثنَيْ عَشَر عاماً من الضَّياع على هذه القصيدة ، وجدتُها فجاةً ، فهتفتُ من الفرح هُتافاً خرجتُ فيه عن الطور المألوف ، حتى لَكأنّني عثرتُ على وَلَدٍ ضائعٍ لي . ولا غرابةَ في هذه المقارنة ولا بِدع فيها ، فكما أنّ الولدَ هو سرُّ ابيه ، يحمل صورته واخلاقه واطواره ، فالكلماتُ من شعرٍ ومن نثر ، هنَّ مثله حاملاتٌ لأسرار الشاعر أو الكاتب ، وناقلاتٌ لما فيه من سجايا واحوال ومن افكارٍ واطوار .

لستُ أدري كيف أحكي بِدعةً
في زمانٍ سابِحٍ بالبِدَعِ !
كُلّما أَخْفَيْتُها ردَّدَها
ألفُ لَوْنٍ مِنْ صَدىً مُرتَجِعِ
ما تُسَوي قَطْرةٌ واحدةٌ
في حريقٍ مارجٍ مُندَلِعِ ؟
فإذا أَنَّ جَريحٌ أوْ شَكى
فَهْوَ يَروي حالةً عَنْ وَجَعِ
أَوَمَا تَسمَعُها داوِيةً
زَفَراتٍ من أنينِ الطَّمَعِ ؟!
قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ !
حينَ يَرتاحُ بِحِضنِ الشَّبَعِ

☆☆☆

بنتُ عِشرينَ وفي مَيْعَتِها
تتغنّى، حُسنُها يَنْقطِفُ
رَسَمَتْها ريشةٌ بارعةٌ
فإذا الغَيُّ بها مُختلِفُ
وصِباها، فائراً، في وَجْهها
دُرَّةٌ او لُؤلُؤٌ او صَدَفُ
تَتأبّى إذْ يقولون لها
عاشقٌ هذا، وهذا دَنِفُ
وَهْيَ خَجْلى، إنْ أتاها خاطِبٌ
تَغمزُ العَيْنُ ويُومي الكَتِفُ
معشَرُ الأقرانِ يُغري ذَوْقَها
فَهْيَ والأشباحُ لا تأتَلِفُ
هَجَمَ القَهْرُ عليها فارْتَمَتْ
وانكَوى الحُسْنُ وحُزَّ الصَلَفُ
وتَعالتْ صَرَخاتٌ جَمَّةٌ
في مَزادٍ نَحْوَها تَزدَلِفُ
كيْفَ باعوها لِلامِ عاجزٍ
حَقُّها في العِشقِ ذاكَ الألِفُ
ما الّذي أغراهُمُ؟ هلْ قدُّهُ؟
كلَّما همَّ ليَمشي يَزحَفُ
أمْ عُروقٌ لم تَعُدْ نابضةً؟
أم لسانٌ ألْكَنٌ يرْتَجِفُ؟

أَمْ فُؤادٌ ليسَ فيه خَفْقَةٌ؟
أَمْ يَدٌ شاحِبَةٌ تَقْتَرِفُ؟
شَبَحٌ يَمْشي على آثامِه
لَمْ يَكُنْ يَظْهَرُ لولا مِعْطَفُ
وَهْوَ في اللَّيْلِ، إذا الليْلُ أتَى
بثَمانينَ غِطاً يَلْتَحِفُ
كُلُّ ما فيهِ وَما يَمْلِكُهُ
قُفَّةٌ سوداءُ فيها عَلَفُ
فإذا ماتَ، ولا أَرحَمُهُ
فهي من بعدُ الوَريثُ الخَلَفُ
طَمِعوا والذُّل فيما طَمِعوا
لَوْ تَراهُمْ إذْ دَنَوْا وَاغْتَرَفوا!
والذي أَلَّفَ فيما بَيْنَهُم
أنَّهُمْ لَيسَ لدَيهِم شَرَفُ
ليسَ عَيْباً عندَهمْ ما فَعَلوا
هذا ما كان عَلَيهِ السَّلَفُ

☆☆☆

بِنتُ عِشرينَ، ومَنْ ضَيَّعَها
بَينَ اظفارٍ عليها نِتَفُ؟
يا إلٰهي! كيفَ تُعْطيهِ الهَوى
أنْفُه يَجري وعَيْنٌ تَكِفُ

أَيُّها الغُولُ! ابْتَعِدْ عن خِدْرِها

فَهْيَ فيه، خـرَةً، تَـرْتَشِفُ

ما لَها تَرْضى، وإنْ شَوَّقَها

والِدٌ مُهْتَرِىءٌ مُنْحَـرِفٌ؟!

لَسْتُ ادري كيفَ تَدْعوه اباً!

فَسَلوهـا، رُبَّمـا تَعْتَـرِفُ

وسَلوا لَمَياءَ عَـن فِطْرَتِـه

إنَّهـا أدرى بِمـا يَـتَّصِفُ

فَانْكُريهِ، سَوْفَ لَنْ أنْكُرَهُ

هُوَ مَقذوفٌ، وعندي أَنَفُ

اصفرُ الضُحكةِ فيه شَبَـقٌ

بينَ أوْكارِ الخَنى مُنْخَطِفُ

أَيُّها العبْدُ! اسْتَحِ مِنْ وَقفةٍ

بينَنا، أو عندَ ربٍّ تَقِفُ

سَألوه: كيف ترضاها لَهُ؟

فَطَوى الذَّيْلَ واقْعى يَحْلِفُ

مـا دَرَوْا أَنَّ لَـه سِلسِلَـةً

هو فيهـا سالِكٌ مُحتَـرِفُ!

منذُ أَنْ كانَ فتىً في جُحرِهِ

هو عندي، طبعُه منكَشِفُ

جَاوَزَ الأوهـامَ فينا كَيْـدُه

فلَهُ في كلِّ بَلْوى طَـرَفُ

سَوفَ يُحكى ما له من قَصَصٍ
وغداً تُنْشَرُ تلك الصُحُفُ
وغداً يَسلخُ ما جَمَّعَهُ
وَهْوِ مَحمومُ القُوى يَنْقصِفُ

☆☆☆

أنتَ يا شَعْبُ رَهينٌ مُوثَقٌ
بأحابيلِ النفاقِ المُبدِعِ
مَا لَنا ، والأمرُ فينا عَجَبٌ
نكتفي بالقَوْلِ أو بالسَمَعِ ؟
كيفَ نَمتدُّ وفي ساحتِنا
حِفنَةٌ عازِفَةٌ بالدَّلَعِ ؟
هاتِفٌ في النَّوم قد خَبَّرَني
أنَّ زَلزالاً أتى من جَشَعِ

باريس في : ١٩٧٨/١١/١٧

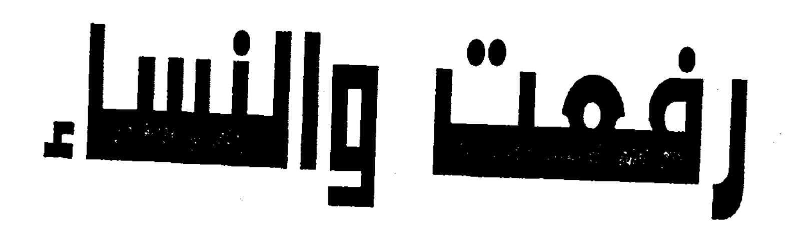
صالح عضيمة

مسرد المندرجات

الأدب العالمي على ميعاد قريب مع طلوع قصيدة



ومع صدور كتاب:



وهو متعة المتع وبدعة البدع
لا مثيل له في إيقاظ الاحساس وتكبير الفهم
وفي تصحية الوعي
وترويح الفكر والضمير

Dr. OUDAIMAH Saleh

Analyse de RIFAAT AL-ASSAD

Propos dans:
La sagesse de la politique
et
La politique de la sagesse

Paris 1412- 1992

ولكنّ هذا الكتاب

بعد أن يبيّن أنّ رفعت الاسد لم يظلمه الناسُ الاّ بسبب ظلم ذوي قرباه له. وبعد أن يحثّ على مراجعة النظر في سيرته وإعادة الحكم عليه وعلى افكاره وسلوكه. يكشف عن قيمة هذا الرجل وعن تأثيره على الأحداث وتأثير الاحداث عليه. ثم مواجهته للتاريخ ببراعة وشجاعة.

وينظر الكتاب نظرة نقدية إلى حزب البعث وما عانى من الفكر وما عاناه الفكر منه. وهو لا يغفل أن يطلق للرأي الباسل المقدام حريّته على هواه ليقول كلمته الصادقة المعبّرة في ابرز الأحداث التي ولدتْ في منطقة الشرق الاوسط. من مثل قضيّة فلسطين، وقيام اسرائيل. وفاجعة لبنان. والحرب العراقية الايرانية.

واذا رأينا الكتاب يهتمُّ اهتماماً بارزاً. ويبحث بجرأة فائقة الجذور الاولى لمنطق السلطة والحكم عند العرب والمسلمين من المراحل المطوية الى المراحل المنشورة؛ فانّه يريد أن يكشف عن المواقف المضيئة والمواقف المظلمة لهذا المنطق. ويبين عن مدى ارتباطها بالواقع القائم وتأثيلها لاركانه وثوابته. ثم يعرّج على بحث مفهوم السلطة ويوضح دور الشعب في ارجاعها إلى معناها ودورها في إعطاء الشعب معناه وقيمته.

وأخيرا ينتهي إلى بحث الفتنة التي وقعت والصراع الذي نشب على السلطة.

وربما كان من أوضح ما يُلمحُ على الكتاب. منذ كلمته الاولى الى كلمته الأخيرة. هو منهج التحليل واسلوب اثارة الالتفات والتطلع لبلوغ المآرب المنشود والوقوف على الحقيقة الضائعة.



الدكتور صالح عضيمة

المؤلف: جميلةٌ هي تلك القرية التي وُلِدَ فيها الدكتور صالح عضيمة، عام واحد وأربعين وتسعمائة وألف، واسمها رويسة الحجل. وهي تقع في ريف مدينة جبلة من سورية، بين اتساع البحر وبين شموخ الجبل، فكان له من هذا نصيب ومن ذاك نصيب.

بدأ حياته بمعاشرة السادة العلماء والكتّاب والشعراء، وبعد أن أنهى دراسته الأولى في جامعة دمشق، توجّه إلى طهران عام ثمان وستين وتسعمائة وألف، وفي جامعتها حضر لأبحاثه في الأدب المقارن وحاضر في قسم اللغة العربية وآدابها. ولم تمضِ إلا فترة يسيرة على عودته إلى أرض الوطن حتى توجّه إلى باريس مرة ثانية، ليحضر لأبحاثه في جامعة السوربون ثم ليحاضر فيها، في الفكر الإسلامي.

وقد نشر له، غير هذا الكتاب، كتبٌ أخرى، من بينها:

- الأواني والمعاني - الجزء الأول.
- الفوز الأصغر لمسكويه - تحقيق.
- رسالتان في الحكمة المتعالية والفكر الروحي - لحسن